الرواية الحائزة
على جائزة «ناشيونال بوك أوورد»

شجرة الدخان

«رواية»

دنيس جونسون





ترجمة : سامر أبو هواش

شجرة الدخان

الرواية الفائزة بجائزة «ناشيونال بوك أوورد»

تأليف: دنيس جونسون

ترجمة: سامر أبو هواش

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

شجرة الدخان

دنيس جونسون

PS3560.O3745 T7412 2011
Johnson, Denis, 1949-
[Tree of smoke]
شجرة الدخان / تأليف دنيس جونسون : ترجمة سامر أبو هواش.-ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
842 ص. : 14×21سم.
ترجمة كتاب : Tree of smoke
الرواية الفائزة بجائزة (ناشيونال بوك أوورد)
تدمك: 978-9948-01-843-8
1.القصص الإمريكية-- القرن العشرون. أ. أبو هواش، سامر، -1972 ب.العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Denis Johnson
Tree of Smoke

Published by arrangement with Farrar, Straus and Giroux, LLC, New York.



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

شجرة الدخان

مجدداً إلى H. P وأولئك الذين...

1963

عند الساعة الثالثة من فجر أمس قُتل الرئيس كنيدي. وكان المجنّد في البحرية[1] هيوستن والمجنّدين الآخرين نائمين عندما بدأت أولى أنباء الاغتيال تتنقّل حول العالم. كان هناك مرقص واحد على الجزيرة، وهو كناية عن حانة متهدّمة تتدلى من سقفها مراوح كبيرة، وتضمّ ومشرباً واحداً وماكينة «بينبول»[2] واحدة؛ وقد جاء جنديا البحرية اللذان يديران المرقص لكي يوقظوهم ويخبروهم بما جرى للرئيس. جلس جنديا المارينز مع المجنّدين الثلاثة على الأسرّة في سقيفة مخصصة للجنود الجدد تمهيداً لنقلهم، شاخصين نحو مكيف الهواء وهو يقطر ماء في صفيحة للبن، وشاربين الجعة. وقد تواصل إرسال شبكة إذاعة القوات المسلحة، من «خليج سوبيك»[3]، طوال الليل، باثاً النشرات الإخبارية العاجلة حول جريمة القتل الغامضة.

كان الصباح قد قارب على نهايته حين بدأ البحار المتدرّب وليام هيوستن جونيور يشعر بأنه بدأ يفيق من دوار ثمالة ليلة الأمس، وهو يجول في أجمات جراند أيلند[4]، حاملاً بندقية مستعارة عيار 22 ملم. كان يفترض أن يكون هناك بعض الخنازير البرية في هذه الجزيرة، أو هذا الملاذ العسكري، الذي كان يمثّل كلّ

(1) Searnan: هي الرتبة الأدنى في سلاح البحرية في العالم، بما في ذلك الولايات المتحدة، وهي توازي رتبة المجند Private في سلاح المشاة، ولذلك فهي مختلفة عن جندي البحرية أو المارينز.

(2) Pinball: لعبة كهربائية مكونة من طابة معدنية يحركها اللاعب بمقبضين جانبيين ضمن صندوق مغطى بالزجاج.

(3) Subic Bay: جزء من بحر لوزون على الساحل الغربي من جزيرة لوزون في زمباليس بالفلبين، على بعد مئة كيلومتر إلى شمال غرب خليج مانيلا. كانت تقع في هذه الجزيرة أكبر قاعدة عسكرية أمريكية في الخارج، وهي قاعدة خليج سوبيك، وقد أقفلت هذه القاعدة في العام 1991.

(4) Grande Island: تقع في الفلبين وقد كانت جزءاً من «الدفاعات البحرية لمانيلا وخليج سوبيك» التي أنشأتها دائرة الفلبين في الجيش الأمريكي في مطلع القرن العشرين. وكانت هذه الجزيرة تقع عند فم خليج سوبيك على بعد زهاء 56 كيلومتر إلى الشمال من خليج مانيلا.

ما رآه من الفلبين حتى الآن. لم يكن يعرف حقيقة شعوره حيال هذا البلد، وكل ما أراد القيام به بعض الصيد هناك. كان يفترض أن يكون هناك بعض الخنازير البرية.

راح يمشي بخطوات حذرة متوجّساً من الأفاعي ومحاولاً الحفاظ على هدوئه لأنه أراد سماع صوت أي خنزير برّي قبل أن يهاجمه. كان يدرك مدى انفعاله. فمن جميع الجهات المحيطة به انبعثت آلاف الأصوات، مصحوبة بأصوات النوارس وهدير الأمواج المتكسرة بعيداً، وإذا تجمد في مكانه وأصاخ السمع قليلاً، لأمكنه سماع حمحمة النبض على جلده الحار، وصريف العرق على أذنيه. وإذا بقي بلا حراك ثانيتين إضافيتين فحسب، لوجده البق وبدأ يطن حول رأسه.

أسند بندقيته إلى شجيرة موز ونزع عصابة رأسه وعصرها من العرق ثم مسح وجهه ووقف لبعض الوقت، كاشاً البعوض بالعصابة وحاكاً منفرج ساقيه بذهن شارد، وعلى مقربة منه، بدا أن ثمة نورساً يتجادل مع نفسه، مصدراً سلسلة من زعقات الاحتجاج التي تتخللها صرخات أخفض نبرة تتناقض معها، بدت مثل ها! ها! ها! وإذا بجسم يتنقل من شجرة إلى أخرى، يلفت انتباه البحار هيوستن.

ظلّ شاخصاً نحو البقعة التي رآه عندها، بين أغصان شجرة مطاط، ماداً يده لكي يتناول البندقية من دون أن يحيد ببصره عن تلك البقعة. تحرّك الشيء ثانية. وحينئذ تبيّن أنه نوع من القردة، ليس أكبر حجماً بكثير من كلب شيواوا. لم يكن خنزيراً برياً بالضبط، إلا أنه فرض حضوره كأمر يستحق الاهتمام، وقد تعلّق بيده اليسرى وكلتا قائمتيه بجذع الشجرة، وحافراً اللحاء الرفيع بشيء من الإلحاح الصغير الساخط. وضع البحار هيوستن ظهر القرد الهزيل في بؤرة نظر بندقيته. رفع فوهة البندقية درجات قليلة حتى بات رأس القرد في مرمى بصره، ومن دون كثير تفكير بأي شيء على الإطلاق، ضغط على الزناد.

تشبّث القرد بسرعة بجذع الشجرة، باسطاً ذراعيه وقائمتيه بهياج، ثم، ماداً يديه إلى الخلف وكأنه يحاول أن يحكّ ظهره، ثم هوى أرضاً. ارتعب البحار هيوستن وهو يشاهد اختلاجات القرد الذي أخذ يرفع نفسه عن الأرض بذراع واحدة، ثم جلس مسنداً ظهره إلى جذع الشجرة ماداً قائمتيه أمامه، مثل شخص يستريح من عناء عمل شاق.

اقترب المجنّد هيوستن بضع خطوات، ومن مسافة ياردات قليلة فحسب، رأى أن فراء القرد شديد اللمعان وقد اصطبغ في الظلال بمسحة من اللون البني، ومن الاشقرار في الضوء، عندما تتحرّك وريقات الشجر فوقه. أخذ القرد ينظر في الاتجاهين، وقد بدأت أنفاسه تتسارع، وبطنه تنتفخ كالبالون مع كل نفس. كانت الطلقة منخفضة، وخرجت من بطنه.

أحسّ هيوستن بمعدته تنشطر إلى نصفين. صاح بالقرد: «أيها الرب الرحيم!»، وكأنه يجدر به أن يفعل شيئاً حيال وضعه المحرج الشنيع. شعر أن رأسه سينفجر إذا ما واصلت الظهيرة الاشتعال في الأجمات من حوله، والنوارس زعيقها، وإذا ما استمر القرد في النظر بتمعّن حوله، محركاً رأسه وعينيه السوداوين من طرف إلى آخر، وكأنه شخص يتابع مسار محادثة أو جدال ما، نوعاً من النزاع الذي يخوضه الدغل، في ذلك الصباح، في تلك اللحظة، مع نفسه. اقترب هيوستن من القرد وألقى البندقية إلى جانبه، وحمله بكلتا يديه، واضعاً يداً تحت مؤخرته، والأخرى تحت رأسه، ليكتشف – أولاً بذهول، ثم بنفور – أن القرد يبكي. خرجت أنفاسه شهقات، وتدفقت الدموع من عينيه كلما رمشتا. وراح يجيل بصره حوله، وقد بدا أنه غير مكترث لأمره أكثر من اكتراثه بأي شيء آخر يراه. «هاي»، قال هيوستن، إلا أن القرد بدا لا يسمع شيئاً.

بين يديه، توقف قلب القرد عن الخفقان. هزّه قليلاً، لكنه عرف أن لا جدوى من ذلك. شعر أن الذنب ذنبه في كل شيء، وفي غياب أيّ شاهد على ذلك، ترك نفسه يبكي كطفل. كان في الثامنة عشرة من عمره.

عندما عاد إلى المرقص بمحاذاة الشاطئ، رأى قطيعاً من قناديل البحر المبّقعة باللون الأرجواني وقد قذفها الماء إلى الشاطئ الرمادي. مئات من قناديل البحر التي لا يتجاوز حجم الواحد منها كف الإنسان، شفافة تتغضّن في الشمس. ميناء الجزيرة الصغير يقف فارغاً. لا قوارب البتة تقصده ما عدا المعدّية التي تأتي من القاعدة البحرية قبالة «خليج سوبيك».

على بعد ياردات قليلة فحسب، انتصب كوخان من الخيزران قبالة رقعة من الرمل تحت أشجار سامقة تنهمر منها أزاهير أرجوانية على سطحيهما. ومن داخل أحد الكوخين انبعث صراخ امرأة ورجل يمارسان الجنس، وهما كما افترض البحار هيوستن، عاهرة، وأحد الجنود. أقعى يصغي إليهما في الفيء حتى كفا عن الضحك وعن اللهاث، وبدأت عظاءة في طنف الكوخ تنادي، مصدرة صرخة غنائية قصيرة، أتبعتها بسلسلة من الضحكات الحادة المتقطعة – جيك–كو، جيك–كو، جيك–كو...

بعد قليل خرج الرجل وهو أربعيني قصير الشعر[1]، يعقد منشفة بيضاء حول بطنه، وتتدلى سيجارة من فمه، ووقف هناك حافي القدمين مثبتاً المنشفة بإحدى يديه، وقد أخذ يتمايل في موضعه وهو يحملق بشيء ما قريب إنما غير مرئي. إنه ضابط على الأرجح. أمسك السيجارة بين إبهامه وسبّابته ومجّ نفساً، ثم نفخ سحابة من الدخان غطّت وجهه. «مهمة أخرى أُنجزتْ».

فُتح باب الكوخ المجاور ودلفت منه فلبينية عارية، مغطية حقوها بيدها، وقالت: «إنه لا يحبّ ممارسته».

صاح الضابط: «أنت يا لاكي!».

---

(1) Crew Cut: هي قصة الشعر القصيرة جداً التي اعتمدها الجيش الأمريكي لجنوده خلال الحرب العالمية الثانية، وقد شاعت في الاستخدام المدني خلال الخمسينيات من القرن الماضي، وباتت تستخدم من قبل المحافظين كنوع من التمييز عن الشعور الطويلة التي أخذ الليبراليون والهيبون في أمريكا باستخدامها في الستينيات.

خرج آسيوي نحيل من الباب مرتدياً كامل بزته العسكرية.

«ألم تمنحها وقتاً جميلاً؟».

قال الرجل: «لعله الحظّ العاثر».

قال الضابط: «ربما الكارما[1] هي السبب».

أجاب الرجل النحيل: «ربما».

ووجّه الضابط كلامه لهيوستن: «أتبحث عن زجاجة جعة؟».

كان هيوستن يعتزم الرحيل. وأدرك حينئذ أنه نسي أن يرحل وأن ذلك الرجل يخاطبه. رمى الرجل بيده الحرة سيجارته، وأزاح المنشفة جانباً، وقال لهيوستن وهو يرسل شلالاً من البول الذي شكل رغوة على الرمل دمر عقب السجارة: «إذا رأيت هنا ما يثير اهتمامك، فما عليك إلا أن تعلمني».

شاعراً بأنه مغفل، دخل هيوستن إلى المرقص. في الداخل شابتان فلبينيتان ترتدي كل منهما فستاناً زاهياً مطرزاً بالورود، تلعبان بماكينة «البينبول» وتتكلمان بسرعة شديدة، في حين تدور المراوح الكبيرة فوقهما، شعر البحار هيوستن بأنه يفقد توازنه. وقف سام، أحد جنديي المارينز، وراء المشرب، وصاح «صه، صه». ورفع يده التي صودف أنها تحمل ملعقة سباتولا[2].

سأله هيوستن: «ولكن ما الذي قلته؟».

«أسمعنا»، قال سام وقد قرّب رأسه من المذياع، مركزاً على الصوت كرجل ضرير: «لقد أمسكوا بالفاعل».

«قالوا ذلك قبل الفطور. علمنا بذلك».

(1) Karma: على النقيض من مفهوم القضاء والقدر في الأديان الإبراهيمية، فإن مفهوم الكارما في الأديان الشرقية (البوذية والهندوسية) يعني الثواب والعقاب المتمثل في أفعال الإنسان نفسه، فأفعال الإنسان، الخيرة أو الشريرة، تنعكس عليه في نهاية المطاف، فيجازى ثواباً أو عقاباً، وينسحب هذا المفهوم على ما بعد الموت، حيث يمكن أن يعود الإنسان على هيئة إنسان أو حيوان وفقاً لأفعاله في حياته الأولى.

(2) Spatula: نوع من الملاعق الطويلة التي تستخدم في الطبخ.

«هناك المزيد من المعلومات بشأنه».

«ماشي[1]».

شرب بعض الماء المثلج وأصغى إلى المذياع، إلا أنه بدأ يعاني صداعاً رهيباً حال دون أن يستوعب كلمة مما يقال.

بعد قليل دخل الضابط مرتدياً قميص هاواي فضفاضاً ومعه الآسيوية الشابة.

أخبر سام الضابط: «كولونيل، لقد قبضوا عليه. اسمه أوزوالد».

قال الكولونيل: «ما هذا الاسم العجيب؟»، وقد بدا مستاء من اسم القاتل بقدر استيائه من فعلته.

قال سام: «ابن القحبة السافل[2]».

---

(1) فضلنا استعمال هذه الكلمة القريبة من العامية والتي ترد كثيراً في النص، كترجمة لكلمة Okay وذلك تفادياً لكلمات من قبيل «حسناً» أو «موافق» التي لا تؤدي الغرض تماماً، وأيضاً تفادياً لاستعمال كلمة «أوكي» وأحياناً نستعيض عنها بكلمة «طيب».

(2) سوف يجد القارئ على امتداد الرواية صيغاً عدة لكلمة Fuck الإنجليزية (هنا السافل)، وذلك استجابة لتنوع استعمالاتها في اللغة الإنجليزية نفسها. من الضروري الإشارة إلى أن ثمة سجالاً مستمراً بين الناطقين باللغة الإنجليزية ولاسيما بين الألسنيين وعلماء الاجتماع والمعنيين بالشأن العام والشؤون التربوية حول جواز استعمال هذه الكلمة في وسائل الإعلام أو في الكتب والأعمال الفنية (السينما)، وهناك رأي راجح في هذا المجال يرى أن الكلمة التي تعني حرفياً فعل الجماع الجنسي، قد اتخذت منذ القرن السابع عشر مروحة واسعة من المعاني التي لا تمت للجنس بصلة. فهي تستعمل للتعبير عن السخط والفرح والتعجب وشتى العواطف التي لا تعتبر مسيئة أو مفتقرة إلى الأدب، ومن هنا ينادي كثر برفع الحظر الرسمي والرقابي على استعمالها. ويذهب أولئك المدافعون عن جواز استعمال الكلمة (خاصة في الأدب ووسائل الإعلام) إلى أن هذه الوسائط يفترض أن تعكس أحوال المجتمع، وبالتالي إذا كان المجتمع يستعمل هذه الكلمة بهذه الكثرة، وبهذا التنوع لجهة المعاني العاطفية، فيجدر إذن السماح باستعمالها في النصوص الأدبية. بالعربية ليس هناك كلمة توازي كلمة «فاك» لجهة اتساع أغراض استعمالها، ولذلك لا نجد حاجة لنحت كلمة محددة، كما لا نجد أن كلمة «اللعنة» كافية وافية للتعبير عن هذه المروحة من التعبيرات، وعليه فإننا نلجأ إلى ترجمة الحالة النفسية والشعورية المقصودة كلما استعمل هذا التعبير من قبل إحدى الشخصيات. في بعض الأحيان، نلجأ إلى استعمال تعبير «فاك» عندما لا يكون فعلاً مركباً تقصد به حالة محددة (على سبيل المثال fuck off = انقلع) أو وصفاً (I'm Fucked up= إنني مدمّر)، أو نعتاً كما في هذا الاستعمال (Fucking sonofabitch= ابن القحبة السافل)..إلخ. =

قال الكولونيل: «ابن القحبة، أتمنى أن يفجروا خصيتيه. أتمنى أن يكتسحوا مؤخرته بالرصاص». وماسحاً دموعه دونما تحرّج قال: «هل أوزوالد هو اسمه الأول أم اسم عائلته؟».

حدّث هيوستن نفسه إنه أولاً رأى هذا الضابط يبول على الأرض، وها هو الآن يراه يبكي.

توجّه سام بالكلام إلى الآسيوي الشاب: «سيدي، إننا أهل الضيافة. لكننا لا نستقبل إجمالاً الجنود الفلبينيين هنا».

قال الكولونيل: «لاكي فييتنامي».

«فييتنام، أضللت الطريق إلى هنا؟».

أجاب الرجل: «لا، لم أضلّ الطريق».

قال الكولونيل: «هذا الشاب طيّار. إنه نقيب في القوات الجوية في جيش فييتنام الجنوبية».

سأل سام النقيب الشاب: «قل لي إذن، أهي حرب هناك أم ماذا بالضبط؟ أتفهم معنى هذه الكلمة: الحرب؟»، حاكى بيديه حركة المدفع الرشاش وراح يحركهما بطريقة متناغمة وهو يردّد: «بودا بودا بودا». ثم سأل الرجل: «أجل؟ لا؟».

أشاح النقيب وجهه عن الأمريكي، صاغ ما يريد قوله في رأسه، تمرن عليه، وعاد ليقول: «لا أعرف ما إذا كانت حرباً. الكثيرون قتلوا».

أيّد الكولونيل كلامه: «هذا يفي بالغرض. هذا يدخل في الحسبان».

«ماذا تفعل هنا؟».

«جئت للتدرب على قيادة المروحيات».

= ما ينطبق على هذا التعبير ينطبق على تعبيرات أخرى مثل Hell (ترد بعد عبارات قليلة عندما يقول سام: إننا أهل الضيافة = We're hospitable as hell) أو مثل Shit (التي تأتي غالباً بمعنى التعجب: Oh, NO) أو مثل Christ أو Jesus Christ، التي تتعدد استعمالاتها وأغراضها بحسب الحالة النفسية للشخصية وما تريد قوله في لحظة درامية محددة.

قال سام: «لا تبدو كبيراً بما فيه الكفاية لقيادة دراجة هوائية ثلاثية العجلات. كم عمرك؟».

«اثنان وعشرون عاماً».

«سوف أقدم لهذا السلوب[1] الصغير الجعة. أترغب بجعة سان ميغال؟ أتمانع لو ناديتك سلوب؟ ليست إلا عادة سيئة».

قال الكولونيل: «ناده لاكي، هذا الرجل يدفع، لاكي، ما هو سمّك المفضّل؟».

قطّب الفتى جبينه وراح يتفكر ملياً بصورة غامضة، ثم قال: «أحبّ لاكي لاجير».

سأله الكولونيل: «وأيّ سجائر تدخن؟».

قال: «أحبّ لاكي سترايك»، وضحك الجميع.

فجأة نظر سام إلى هيوستن وكأنه يراه للمرة الاولى وسأله: «أين بندقيتي؟».

لبرهة وجيزة لم يفهم هيوستن مقصده. ثم صاح: «سخطاً!».

«أين هي؟»، قال سام من دون أن يبدو شديد الاهتمام، بل فضولياً فحسب.

قال هيوستن: «سخطاً! سوف آتي بها».

اضطر على العودة إلى الأجمات. كان لا يزال الحر والرطوبة على حالهما، وجميع الحيوانات تصدر الجلبة نفسها، والوضع رهيباً بالمقدار عينه، كان بعيداً عن أمكنة ذاكرته، وعليه أن يخدم في البحرية عامين آخرين، والرئيس – رئيس بلاده – لا يزال ميتاً – لكنه لم يجد القرد حيث تركه. وجد بندقيته في موضعها على الأرض، بيد أنه لم يكن من أثر للقرد. شيء ما حمله من هناك.

كان يتوقع أن يضطر إلى رؤيته ثانية، فشعر بالارتياح لأنه سيعود إلى المرقص

(1) Slope: كلمة تحقيرية يستعملها الأمريكيون في وصف الآسيويين عموماً وخاصة الفيتناميين والكوريين، والكلمة التي تعني «الميلان» أو «الانحراف» تشير إلى عيون الآسيويين، وهي تعتبر تعبيراً عنصرياً، إلا أنها أحياناً – كما هي في هذه الحالة – مجرد تعبير وصفي اعتيادي لا يقصد به الإهانة كما سنرى في العبارة نفسها.

من دون أن يضطر إلى أن يرى ثانية ما اقترفته يداه. غير أنه فهم، من دون كثير اضطراب أو انزعاج، أن الارتياح من هذا المشهد لن يلازمه إلى الأبد.

رُفّع المجنّد هيوستن مرة، ثم أخفضت رتبته. رأى لمحاً بعض العواصم الكبرى في جنوب شرق آسيا، وجاب في ليال رطبة أزقة تتمايل فيها القناديل في الهواء المبتذل، لكنه لم يقم في أيّ من هذه العواصم مدة طويلة بما فيه الكفاية لكي تنسى قدماه البحر، بل فقط لكي يرتبك، لكي يرى الوجوه تومض متقطعة ويسمع الضحكة المعذّبة. حين انتهت دورته، تسجل لدورة أخرى، مفتوناً فوق كل شيء آخر بقوة التحكم بمصيره بمجرد توقيعه اسمه.

كان لهيوستن شقيقان يصغرانه سناً. وقد جند جايمس الأقرب سناً إليه، في قوات المشاة، وأرسل إلى فيتنام، وذات ليلة، قبيل إنهائه دورته الثانية في البحرية، استقل هيوستن قطاراً من القاعدة البحرية في يوكوسوكا[1]، في اليابان، إلى مدينة يوكوهاما[2]، حيث اتفق وجايمس على اللقاء في «بينات بار». كان ذلك في 1967، بعد أكثر من ثلاث سنوات على اغتيال جون ف. كنيدي.

في عربة القطار شعر هيوستن بأنه عملاق، وهو يطالع شعور الركاب فاحمة السواد. وقد أخذ الركاب اليابانيون يحملقون به بلا أي مسرّة، أو رحمة، أو خزي، حتى شعر بهم يشدّون على خناقه. ترجّل من القطار، وسلك طريقاً مستقيمة تحت رذاذ المطر المتأخر، عبر اتباع خطّ الترام إلى «بينات بار». كان متشوقاً للتكلم بالإنجليزية.

كانت الحانة واسعة تعج بمجندي البحرية وبفتية أسطول النقل البحري[3]،

(1) Yokosuka: إحدى مدن محافظة كاناجاوا في اليابان، وهي تقع على فم خليج طوكيو في شبه جزيرة ميورا.

(2) Yokohama: عاصمة محافظة كاناجاوا، تقع على الجزيرة الرئيسية «هونشو» في جنوب غربي «خليج طوكيو، وتبعد زهاء 30 كيلومتراً عن العاصمة طوكيو.

(3) Merxhant Marine: هي السفن الأمريكية التجارية التي تديرها إما الحكومة أو القطاع =

وكانت الأصوات مزدحمة في رأسه كازدحام الدخان في رئتيه.

رأى جايمس جالساً قرب المنصة فمضى نحوه، ماداً يده استعداداً للمصافحة، وكان أول ما قاله: «أف! سأغادر يوكوسوكا! سأعود على متن سفينة!».

غطّت جلبة الفرقة الموسيقية على تحيته – فرقة رباعية تحاكي البيتلز بأزياء مهذّبة ناصعة البياض. جلس جايمس بثيابه المدنية إلى طاولة صغيرة شاخصاً نحوهم، غير واع لشيء سوى العرض الذي يقدمونه، ورشق بيل حبة فول سوداني تجاه فمه المفتوح.

أشار جايمس إلى الفرقة: «هذا سخيف قطعاً». اضطر إلى أن يصرخ حتى يُسمَع صوته ولو قليلاً.

«ماذا أقول؟ هذه ليست فينيكس[1]».

«لا يقلّ سخف هذا المنظر عن سخف منظرك في بزة البحارة».

«لقد أنهيت الخدمة قبل عامين لكنني تطوعت لدورة أخرى.. لا أعرف لماذا... لقد فعلت ذلك فحسب».

«أكنت ثملاً؟».

«كنت في غاية الثمالة، أجل».

كان بيل هيوستن مذهولاً لرؤيته أن أخاه لم يعد ولداً غرّاً. كان شعر جايمس قصيراً جداً يظهر فكه عريضاً قوياً، وجلس منتصباً تماماً، من دون أيّ تململ. حتى في الملابس المدنية بدا جندياً.

طلبا دورقاً من الجعة واتفقا أنهما – باستثناء بعض الأشياء الغريبة، مثل «بينات بار» – يحبان اليابان، وإن كان جايمس قد أمضى حتى الآن ست ساعات متنقلاً بين الرحلات، وسيكون عليه أن يستقلّ في الصباح طائرة أخرى إلى فييتنام – أو

= الخاص في عمليات النقل البحري، بيد أنه في أزمنة الحرب يمكن أن تصبح هذه السفن تابعة للقوات البحرية حيث تتولى عمليات نقل الجنود والمؤن والعتاد عبر البحار.

(1) Phoenix: عاصمة ولاية أريزونا في الولايات المتحدة الأمريكية.

على أية حال اتفقا على استحسان اليابانيين. قال بيل حين أخذت الفرقة استراحة وصار صوته مسموعاً: «خذها كلمة مني، لقد دبّر أولئك اليابانيون أمورهم خير تدبير، أما هناك في الأدغال الاستوائية، يا عين، فلن تجد إلا البراز، وذلك الحرّ الذي يحول الدماغ إلى عصيدة».

«سمعت عن ذلك، أظن أنني سأكتشف الأمر بنفسي».

«ماذا عن المعارك؟».

«ماذا عنها؟».

«ما الذي يقال عنها؟».

«غالباً يقولون إنك تطلق النار على الأشجار فحسب، والأشجار تردّ بإطلاق النار».

«لكن هل الأمور سيئة إلى هذا الحدّ؟».

«أظن أنني سأكتشف ذلك».

«خائف؟».

«خلال التدريب رأيت جندياً يصيب آخر عن طريق الخطأ».

«فعلاً؟».

«في مؤخرته إذا كنت تصدق ذلك. كان مجرد حادث».

قال بيل هيوستن: «أنا رأيت جندياً يقتل آخر في هونولولو».

«ماذا! في شجار؟».

«كان ابن العاهرة الثاني مديناً بالمال لابن العاهرة الأول».

«أين حصل ذلك، في حانة؟».

«لا، ليس في حانة. ذلك الرجل ذهب إلى خلف المبنى الذي يقطن فيه الرجل الثاني، وناداه لكي يأتي إلى النافذة. كنت ماراً وإياه من هناك وقال لي: لحظة يجب أن أكلم هذا الرجل بشأن مال يدين لي به. تكلما دقيقة واحدة، ثم قام الرجل الذي كنت برفقته بإطلاق النار على الرجل الآخر. وضع مسدسه على

مشبّك النافذة وأطلق النار بكل بساطة، مرة واحدة ، من مسدس أوتوماتيكي عيار 45 ملم الرجل الآخر هوى أرضاً داخل شقته».

«تمزح...».

«لا، لست أمزح».

«فعلاً؟ أكنت هناك؟».

«كنا نتمشّى فحسب. لم تكن لديّ فكرة أنه سيقدم على قتل أحد».

«ماذا فعلت؟».

«كدت أتغوط في بنطالي. ثم استدار الرجل ووضع مسدسه تحت قميصه وقال: اسمع، فلنذهب لنشرب، وكأن شيئاً لم يكن».

«ألم تقل له شيئاً بشأن ما جرى؟».

«شعرت بأنني لا أريد الإتيان على ذكر الموضوع».

«أفهمك... يا له من موقف شنيع.... لكن ماذا قلت؟».

«يمكنك أن تراهن أنني كنت أتساءل ما إذا يعتبرني شاهداً. ولهذا فوّت موعد السفينة. كان الرجل ضمن مجموعتنا. ولو أنني أبحرت معه، لبقيت ثمانية أسابيع بلا نوم».

شرب الشقيقان من دورقيهما في آن معاً ثم راح كل منهما يبحث عمَ يتكلم بشأنه. قال جايمس: «حين أصيب ذلك الرجل في مؤخرته، أصيب بصدمة فورية».

«رهيب. قل لي كم عمرك؟».

«أنا؟».

«أجل».

قال جايمس: «تقريباً ثمانية عشر عاماً».

«وسمح لك الجيش بالتطوع حين كنت في السابعة عشرة فحسب؟».

«لا، لكنني كذبت عليهم».

«تخاف؟».

«أجل، لكن ليس طوال الوقت».

«ليس طوال الوقت؟».

«لم أشهد أي قتال. أريد رؤية القتال الحقيقي، السخونة الحقيقية. أرغب في ذلك فحسب».

«يا لك من مغفّل مجنون».

استأنفت الفرقة الغناء بأغنية لفرقة كينكس[1] بعنوان «You Really Got Me»:

...You Really Got Me

...You Really Got Me

...You Really Got Me

ولم ينقضِ وقت طويل حتى بدأ الشقيقان يتجادلان حول لاشيء، وأراق بيل هيوستن إبريق جعة على حضن فتاة جالسة إلى الطاولة المجاورة -فتاة يابانية، أحنت كتفيها وبدت حزينة ومذلولة. كانت جالسة مع صديقة وشابين أمريكيين يافعين حارا في الردّ.

أخذت الجعة تقطر من حافة الطاولة في حين سارع جايمس تقويم الدورق الفارغ قائلاً: «هذا يحدث أحياناً. إنه يحدث فحسب».

لم تأت الشابة بأي حركة لكي تعدّل وضعها، واكتفت بالحملقة بكاحليها.

سأل جايمس شقيقه: «ما خطبنا؟ أنحن حمقى أم ماذا؟ كلما اجتمعنا معاً يحدث شيء سيء».

(1) Kinks: فرقة روك بريطانية، أنشئت في 1964، والأغنية المذكورة التي ظهرت عام 1964 كانت من أهم أغنياتها وقد تصدرت المبيعات في بريطانيا وأمريكا.

«أعرف».

«شيء ما يتخرّب».

«أجل، أمر مقزّز.. هذا لأننا من عائلة واحدة».

«إننا شقيقان».

«كلّ هذا الهراء ما عاد يعني لي شيئاً على الإطلاق».

أصر جايمس: «لابدّ من أنه يهمك قليلاً، وإلا لماذا قطعت كل هذه المسافة لتقابلني في يوكوهاما؟».

«صح»، قال بيل: «في حانة بينات بار».

«بينات بار!».

«ولماذا فوّت موعد سفينتي؟».

«فوّت موعد سفينتك؟».

«كان يجدر أن أكون على متنها عند الرابعة عصر اليوم».

«فوّت الموعد؟».

«ربما لا تزال هناك. لكنني أظن أنهم خرجوا من الميناء الآن».

شعر بيل هيوستن بالدموع تنهمر من عينيه، مختنقاً بعاطفة مفاجئة تجاه حياته، وذلك البلد الذي يقود فيه الجميع إلى جهة اليسار».

قال جايمس: «لم أحبّك يوماً».

«أعرف، وأنا أيضاً».

«وأنا أيضاً».

قال بيل: «لطالما اعتبرتك مجرد وغد حقير».

قال شقيقه: «لطالما كرهتك».

«يا إلهي، إنني آسف»، قال بيل هيوستن للفتاة اليابانية. وأخرج بعض المال من جيبه ورماه على الطاولة المبللة، مئة ين، أو ألف ين، لم يستطيع أن يميز أيهما.

شرح للفتاة: «هذا عامي الأخير في البحرية». وكان يمكن أن يرمي المزيد من

المال، لكن محفظته كانت فارغة «عبرت هذا المحيط ومتّ. ربما يعيدون عظامي أيضاً. إنني مختلف تماماً».

بعد ظهر ذلك اليوم من نوفمبر من العام 1963 الذي اغتيل فيه جون ف. كينيدي، غطس النقيب نجوين مينه الطيار التابع لسلاح الجو الفييتنامي، مستعيناً بالكمامة وأنبوب التنفس، قبالة شاطئ جراند أيلند تماماً. كانت هذه هوايته الجديدة. تجربة أقرب إلى ما تشعر به الطيور وهي تحلق فوق منظر طبيعي ما، مدفوعة بحركتها الذاتية، وتحلّق حقاً، لا بصورة مصطنعة مثلما هي الحال عند قيادة الطائرة. أمدّته زعانف الغوص بقوة دفع وهو يشق طريقه مسرعاً فوق صف عريض من السمك الببغائي[1] الذي يتغذى من شعب مرجانية، وقد احتشدت مناقيره الصغيرة على الشعب مثل وابل من المطر. كان جنود البحرية الأمريكيون يستمتعون بالغطس فمزقوا كل الشعب المرجانية وأجفلوا السمك بشدّة إلى درجة أن صف السمك كله اختفى بلمح البصر حين سبح مينه على مقربة منه.

لم يكن بالسباح الماهر، وفي غياب الآخرين كان يسمح للخوف الذي يسكنه بالظهور كاملاً.

كان قد أمضى طوال ليلة أمس مع العاهرة التي نفحها الكولونيل أجرتها. وقد نامت هي أرضاً في حين نام هو على السرير. لم يرغب في مضاجعتها. لم يكن واثقاً من شعوره تجاه أولئك الفلبينيين.

ثم اليوم، قبيل الظهر، ذهبا إلى المرقص ليعلما أن رئيس الولايات المتحدة، الرئيس جون فيتزدجيرالد كينيدي، قد قتل. كانت الفتاتان الفلبينيتان ما زالتا بصحبتهما، وكل منهما أمسكت إحدى ذراعي الكولونيل وتشبثت بها وكأنها

---

(1) Parrotfish: اسمها العلمي Scaridae، فصيل من الأسماك التي تعيش حول الشعاب المرجانية، واتخذت اسمها من أسنانها الأمامية التي تشبه منقار الببغاء.

تحاول تثبيته بالأرض في حين يحاول هو السيطرة على صدمته وأساه. جلس مع الكولونيل إلى طاولة طوال فترة الصباح يستمعان إلى التقارير الإخبارية. أخذ الكولونيل يردّد: «بحق الربّ، سحقاً! بحق الربّ، سحقاً![1]». وبحلول العصر كان الكولونيل قد استعاد بهجته بعد شرب المزيد والمزيد من الجعة. وقد حاول مينه ألا يكثر من الشرب، إلا أنه أراد أن يكون مهذباً، فأصابه الدوار من الشراب. اختفت الفتاتان، ثم عادتا، وظلت المروحة تدور في السقف. انضم إليهم مجنّد في البحرية يافع جداً وسأل أحدهم مينه إذا كانت الحرب قد اندلعت حقاً في مكان ما من فيتنام.

تلك الليلة أراد الكولونيل أن يبدّل الفتاتين، وقرر مينه أنه سيتصرف على غرار ليلة أمس، فقط لكي يرضي الكولونيل ولكي يظهر له عميق شكره له. وكانت تلك الفتاة الثانية هي التي يفضّلها حقاً على أية حال. كانت أجمل بنظره وتجيد الإنجليزية أكثر. إلا أنها طلبت منه إبقاء التكييف الهوائي شغّالاً. وأراد هو إطفاءه. كان يحب فتح النوافذ. ويحب صوت الحشرات وهي تحتشد على مشبّك النافذة. لم يكن لديهم مثل هذا المشبّك في منزل عائلته في «دلتا الميكونغ»[2]، ولا حتى في بيت عمه في سايغون[3].

سألته الفتاة: «ماذا تريد؟»، وكانت تشعر بازدراء بالغ تجاهه.

أجاب: «لا أعرف... اخلعي ملابسك».

خلعا ملابسهما وتمددا جنباً إلى جنب على السرير المزدوج في العتمة، وبقيا على هذه الحال. تناهى إلى سمعه صوت أحد البحّارة الأمريكيين على بعد بضعة

(1) For God's Sake: تعبير عن الغضب، ولذللك إضافة كلمة «سحقاً».

(2) Mekong Delta: إقليم يضم المناطق الواقعة جنوبي سلسلة جبال أنامايت والمناطق الساحلية المنخفضة. وقد تشكلت هذه الدلتا من خلال نهر ميكونغ الذي ينبع من الصين ماراً بجنوب شرق آسيا، قبل أن يصب في بحر الصين الجنوبي _م).

(3) Saigon: مدينة هو تشي مينه: إحدى أكبر مدن فيتنام، كانت تعرف سابقاً بهذا الاسم، وبعد اندماجها مع جيا دينه فأصبح اسمها منذ ذلك الحين هو تشي منه.

أكواخ وهو يكلم أحد أصدقائه بصوت مرتفع، ربما يخبره قصة ما. لم يستطع مينه فهم كلمة مما يقوله، مع أنه يعتبر إنجليزيته جيدة إلى حدّ معقول.

«الكولونيل لديه واحد كبير»، قالت الفتاة وهي تداعب عضوه. «أهو صديقك؟».

«لا أعرف».

«لا تعرف إن كان صديقك؟ لماذا أنت بصحبته إذن؟».

«لا أعرف».

«متى تعرفت إليه؟».

«قبل أسبوع أو اثنين فحسب».

«من هو؟».

«لا أعرف».

وشدّها إليه لكي يجعلها تكف عن مداعبة عضوه.

قالت: «لا تريد سوى الجسد–جسد؟».

سألها: «ماذا يعني جسد–جسد؟».

«جسد – جسد فحسب». ثم نهضت وأقفلت النافذة وتحسست مكيف الهواء براحة يدها من دون أن تلمس أزراره. ثم قالت «هات سيجارة».

قال: «لا، ليس معي سيجارة».

ارتدت فستانها وانتعلت صندلها. ولم تلبس ملابسها الداخلية «هات ربعين».

«ماذا يعني هذا؟».

«ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني هذا؟ هات ربعين. أعطني ربعين».

«أتقصدين المال؟ كم هذا المبلغ؟».

«هات ربعين، أريد أن أرى إذا كان سيبيعني بعض السجائر. أريد علبتين من السجائر، واحدة لي والأخرى لابنة عمي. أريد علبتين».

قال: «الكولونيل يمكنه تدبير ذلك».

«واحدة ونستون وواحدة لاكي سترايك».

«عذراً. الطقس مصقع الليلة». قال ذلك ونهض عن السرير وارتدى ملابسه.

خرج أولاً، وسمع خلفه الخشخشة التي تصدرها الشابة وهي تبحث في جزدانها، وتضعه على الطاولة. صفقت بيديها وفركتهما واشتم نفحة عطر من النافذة المفتوحة. طنّت أذناه، واغرورقت عيناه بالدموع. تنحنح منظفاً حلقه، ولوح برأسه وبصق بين رجليه. شعر بالشوق إلى موطنه.

في بداية انضمامه إلى القوات الجوية، وعند نقله بعد ذلك إلى «دا نانج»[1]، وإلى دورة تدريب الضباط، لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة، وظل لأسابيع عدة يبكي في سريره. وقد مضى على قيادته الطائرات ثلاث سنوات تقريباً، أي منذ بلوغه التاسعة عشرة. ومنذ شهرين بلغ الثانية والعشرين، وكان بوسعه أن يتوقع الاستمرار بالقيام بالطلعات الجوية، حتى تلك المهمة التي أودت بحياته.

لاحقاً جلس على الشرفة على كرسي من القماش، مائلاً إلى الأمام، مسنداً ذراعيه إلى ركبتيه، مدخناً – في الواقع كانت لديه علبة من لاكي سترايك – حين عاد الكولونيل من المرقص، متأبطاً الفتاتين بذراعيه. وكانت مرافقة مينه تحمل علبة دخان لوحت بها بسعادة.

«إذن استكشفت الأعماق الفجاج اليوم».

لم يكن مينه واثقاً مما يقصده ومع ذلك أجابه: «أجل».

«أنزلت يوماً إلى أيّ من تلك الأنفاق؟».

«ما هي؟.. الأنفاق؟».

«الأنفاق... الأنفاق المنتشرة في كل مكان. أنزلت إلى أيّ من هذه الأشياء؟».

(1) Da Nang: مدينة في وسط فيتنام.

«ليس بعد، لا أظن ذلك».

«ولا أنا يا بني، أتساءل عمّ يوجد هناك في الأسفل».

«لا أعرف».

«لا أحد يعرف».

قال مينه: «التنظيم يفعل ذلك، الفيت مين[1]».

بدا الأسى مستحوذاً ثانية على الكولونيل على مقتل الرئيس. قال: «هذا العالم يصق رجلاً رائعاً وكأنه سمّ».

لاحظ مينه أنه يمكن التكلم إلى الكولونيل لوقت طويل من دون الانتباه إلى أنه ثمل.

كان قد التقاه قبل صبيحة بضعة أيام، في فناء صيانة الطائرات المروحية في قاعدة «سوبيك»، وقد سعى واحدهما لصحبة الآخر باستمرار مذ ذاك. لم يقدّم أحد الكولونيل له - بل قدّم الكولونيل نفسه بنفسه - ولم يبد مرتبطاً به بأي إطار رسمي. فقد أقاما معاً مع عشرات من الضباط المعدّين للنقل في ثكنات تقع ضمن مجمّع أنشئ ثم تمّ التخلي عنه، بحسب الكولونيل، من قبل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

علم مينه أن الكولونيل هو من الأشخاص الذين يجدر بالمرء ملازمتهم. وقد اعتاد أن يصنّف الأوضاع، والأشخاص، بوصفهم حظاً حسناً أو عاثراً. كان يشرب لاكي لاجير، ويدخن لاكي سترايك. فكنّاه الكولونيل «لاكي».

«كان جون ف. كنيدي رجلاً رائعاً»، قال الكولونيل، «وهذا ما أدّى إلى مقتله».

(1) Viet Minh: (بالفيتنامية: Việt Minh، اختصاراً لعبارة «Việt Nam Độc Lập Đồng Minh Hội»، «اتحاد استقلال فيتنام») شكّله هو شي منه في عام 1941 للسعي لاستقلال فيتنام من فرنسا، بالإضافة إلى معارضة الاحتلال الياباني. فيت مين كان تحالفاً للمجموعات الشيوعية والقومية التي عارضت الفرنسيين واليابانين أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد سيطر على المنظمة الشيوعيون، وفي عام 1951 انضمت عناصرها الشيوعية إلى الحزب الشيوعي لفيتنام الشمالية.

1964

وصل نجوين هاو بأمان إلى «معبد النجمة الجديدة»، على متن دراجته النارية اليابانية هوندا 30، مرتدياً بنطاله وقميصه الرسميين، واضعاً نظارات شمسية، ومصفّف الشعر يذوب على رأسه. وقد جاء في مهمة محزنة: أن يكون الممثل الوحيد لعائلته في جنازة ابن أخت زوجته. كانت هذه الأخيرة مصابة بالزكام. وكان والدا الفتى متوفيين، أما شقيقه الوحيد فيقوم بطلعات جوية مع سلاح الجوّ.

عاد إلى المكان الذي ترك فيه صديقاً من أيام الشباب يدعى ترانج ثان، والذي اعتاد الجميع على مناداته «الراهب»، والذي ذهب شمالاً بعد تقسيم البلاد[1]. لم يكن هاو قد رأى «الراهب» منذ عقد من الزمن، حتى عصر ذلك اليوم، وها هو قد رحل الآن: ترجل عن دراجته النارية، وخلع صندله، ومشى حافي القدمين على الممر.

حرص هاو على السير بدراجته ببطء على أي شيء يشبه الحفرة، وحين وصل إلى حقل الأرز مشى سيراً على الأقدام ومعه الدراجة بحذر شديد بين الأثلام. وكان عليه أن يحتفظ بنظافة ملابسه، فقد يضطر إلى مكوث الليل هنا، على الأرجح في صف المدرسة المتاخم للمعبد. لم تكن القرية بعيدة عن سايغون، وفي أيام أفضل من هذه الأيام كان يمكن أن يعود بدراجته عند الغسق، إلا أن المناطق

(1) بعد انتهاء الاستعمار الفرنسي لفيتنام في 1954، عقد مؤتمر في جنيف فصل بموجبه جنوب فيتنام عن شمالها، فبقي الجنوب تحت حكم الإمبراطور باي دوا تحت مسمى «جمهورية فيتنام»، في حين سيطر الفييتكونغ، بزعامة هوشي منه على القسم الشمالي الذي أطلق عليه اسم «فيتنام الديمقراطية الشعبية». حصل القسم الأول على دعم الغرب، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، في حين حصل القسم الشمالي على دعم الاتحاد السوفييتي (سابقاً) والصين، فأصبحت فيتنام مسرحاً للصراع بين القوتين خلال الحرب الباردة، والذي تحول صراعاً دموياً مع حرب فيتنام. في الثاني من يوليو 1976، بعد فترة وجيزة من سقوط سايغون بيد الفييتكونغ، اتحدت فيتنام الجنوبية والشمالية ضمن «جمهورية فيتنام الشعبية».

الخطرة اتسعت رقعتها إلى درجة أنه في هذه الأيام بعد الثالثة عصراً تصبح الطرقات الخلفية المؤدية إلى الطريق 22، محفوفة بالخطر.

وضع فراشه المحمول على الأرض الطينية مباشرة داخل باب الصف المدرسي، لكي يتمكن من العثور عليه في وقت لاحق من تلك الليلة.

لم يكن من أثر للحياة بين صف الأكواخ ما عدا بعض الدجاجات التي تبحث عما تنقره ونسوة عجائز يجلسن دون حراك على مداخل الأكواخ. أزاح الغطاء الخشبي للبئر الإسمنتي وأنزل الدلو وجرّ لنفسه بعض الماء لكي يشرب ويغسل وجهه في العتمة. كان البئر عميقاً، جرى حفره بالآلات. خرجت المياه صافية باردة إلى يديه ووجهه.

ليس من صوت ينبعث من المعبد. لابدّ من أن الكاهن يأخذ قيلولة. جرّ هاو دراجته إلى الداخل - مكان مصنوع من الخشب الغليظ، مع سقف من البلاطات الخزف، وأرضية متسخة، بطول وعرض خمسة عشر قدماً، لا يزيد كثيراً عن الطابق الأرضي من بيت هاو في سايغون. فضل ألا يزعج الكاهن، وخرج حتى قبل ان تعتاد عيناه العتمة، إلا أن الأرضية البالية وعبق عيدان البخور أيقظا فيه ذكريات الصبا، عندما خدم في هذا المعبد لمدة سنتين. شعر بشيء ما يشده من تلك الحقبة، خيط متصل بحزن هامد على وجه الإجمال ويخبو سريعاً كلما استيقظ. الكثير من هذا ظل يلقي بظلاله على بقية حياته.

كما كان يشعر بحزن غامض على الموت الأخرق لابن أخته، ذلك الموت غير المفهوم. حين سمع بالحادث للمرة الأولى ظن أن الفتى احترق بالخطأ. لكنه في الحقيقة أحرق نفسه حياً - كما فعل راهبان أو ثلاثة يكبرانه في السن في مرات سابقة. لكن هؤلاء قتلوا أنفسهم أمام أنظار الآخرين في شوارع سايغون، احتجاجاً على الفوضى. وكانوا رجالاً مسنين. أما ثاو فكان في العشرين فحسب، وقد أشعل النيران في نفسه في الأجمة على أطراف القرية في طقس انفرادي. أمر غير مفهوم، مجنون.

حين استيقظ الكاهن خرج، ليس بردائه الكهنوتي، بل بثياب العمل في الحقل. وقف هاو وأحنى رأسه محيياً، وردّ الرجل بإحناءة عميقة؛ رجل ضئيل ذو قفص صدري عريض جداً وأطراف رفيعة، تغطي رأسه شعيرات قليلة أشبه بالقش. خطر لهاو أن ثاو هو من حلق له على الأرجح، ثاو الميت المسكين. قال معلمه: «كنت سأعزق الأرض بعد ظهر اليوم، يسرني أنك أوقفتني».

جلسا على الشرفة وبدآ بمحادثة مهذبة، ثم انتقلا إلى المدخل مع هطول مطر صاخب. من الواضح أن المعلم اختار أن يوظف صوت المطر المنهمل في خدمة محادثة قصيرة، لأنه حين توقف المطر تكلم مباشرة على موت ثاو، قائلاً إن هذا الموت أثار حيرته. «لكنه أعادك لرؤيتنا. كل قبضة تحمل هبتها الخاصة».

قال هاو: «إن جوّ المعبد قوي جداً».

«لطالما بدوت غير متيقن هنا».

«لكنني أفعل ما اقترحته عليّ. لقد حولت شكي إلى ندائي».

«ليست هذه الطريقة الصحيحة تماماً للتعبير عن ذلك».

«كانت تلك كلماتك أنت».

«لا. قلت إن عليك أن تسمح لشكك بأن يصير نداءك، يجب أن تسمح بذلك. أن تترك شكك يصبح نداءك. ثم سيصبح شكك غير مرئي. وسوف تسكنه كالهواء».

قدم له المعلم بعض الشامبوي لكنه رفض. وضع الثمرة الجافة اللاسعة في فمه وأخذ يمصها بقوة وانهماك. قال: «هناك أمريكي سيأتي إلى القداس».

قال هاو: «أعرفه، الكولونيل ساندز».

لم ينبس المعلم، وشعر هاو بأنه مضطر إلى المتابعة: «يعرف الكولونيل ابن أخ زوجتي مينه. التقيا في الفلبين».

«أخبرني ذلك».

«هل التقيته شخصياً؟».

«جاء بضع مرات، ثمة علاقة تربطه بثاو. أظن أنه رجل لطيف، أو على الأقل رصين».

«إنه مهتم بالطقوس. يريد تعلم التنفّس[1]».

«نفسه يشبه لحوم الماشية والسيجار والخمر. وماذا عنك. هل استمررت بالتأمل؟».

لم يجب هاو.

«هل واصلت التأمل؟».

«لا».

بصق المعلم نواة ثمرة الشامبوي. فخرج جرو هزيل من أسفل الشرفة وازدردها بسرعة، وهو يرتعش، ثم عاود الاختفاء. قال الشيخ: «في أحلامها تتنقل الكلاب ذهاباً وإياباً بين هذا العالم، والعالم الآخر. في أحلامها تزور ما قبل الحياة، وتزور ما بعد الحياة».

قال هاو: «سيصبح الأمريكيون فاعلين هنا على نحو ما، مدمّرين على نحو ما».

«كيف تعرف ذلك؟».

كان السؤال شديد الرعونة إلا أنه أصرّ على طرحه رغم صمت هاو: «هل أخبرك هذا الأمريكي؟».

«أخبرني شقيق ثاو».

«مينه؟».

«ستشارك قواتنا الجوية».

«هل مينه الشاب مستعد لقصف بلده؟».

«مينه لا يقود قاذفة».

(1) Breath: المقصود المفهوم البوذي الذي يتمرن فيه الشخص على ما يسمى «التنفّس الواعي» الذي يساعد على الوصول إلى «التنوير».

«لكن هل سيقوم سلاح الجوّ بتدميرنا؟».

«قال لي مينه أن أرحل من هنا. لا يمكنني أن أخبرك أكثر من ذلك، هذا كل ما أعرفه». لأن تسريب معلومات أكثر تحديداً من هذه كان يخيفه. وكان ليخيف أياً كان. وكان يجدر به أن يخيف المعلم.

أثار هاو مسألة أخرى: «لقد رأيت الراهب قبل قليل. قصدني في منزلي وطلب مني المال. ثم جئت به إلى هنا على متن الدراجة».

اكتفى المعلم بالحملقة فيه.

أجل، كان يعرف أن المعلم سمع بأخبار ترانج.

«متى آخر مرة رأيته فيها؟».

اعترف المعلم: «ليس منذ وقت طويل».

«كم مضى على عودته؟».

«من يعرف؟ وأنت؟ متى رأيته آخر مرة؟».

«منذ سنوات. باتت لديه لكنه شمالية». منع هاو نفسه من قول المزيد، وأطرق رأسه محملقاً في قدميه.

«لقد أثارت رؤيته الاضطراب في نفسك».

«جاء إلى بيتي وطلب مني مالاً من أجل القضية».

«من أجل الفيت مين؟ إنهم لا يأخذون الضرائب في المدينة».

«إذا كان قد طلب المال، فلا بدّ من أنهم طلبوا منه ذلك. إنه ابتزاز. ثم أصرّ على أن أوصله إلى هنا على متن الدراجة».

قال المعلم: «هو يعرف أنه بأمان. يعرف أنك لن تشي به للأعداء».

«ربما يجدر بي أن أشي به. الفيت مين لديهم طريقتهم. وهذا يعني تدمير تجارة عائلتي».

«وتدمير معبدنا على الأرجح. لكن الأجانب يدمرون البلد برمته».

«لا يمكنني تقديم المال للشيوعيين».

«ربما يمكنني إيصال الخبر لتراخ أنك لا تملك مالاً. أنك أنفقته على شيء ما».

«على ماذا؟».

«على شيء يشكل عذراً لك».

«قل له رجاء».

«سأقول فحسب أنك فعلت كل ما بوسعك».

«أنا مدين لك».

شعر هاو بضباب صبيحة يوم الغد وقد بدأ يتشكل تقريباً فور انحدار الشمس وراء التلة الأقرب إلى جهة الغرب، والتي تدعى «جبل الفأل الحسن». إلا أن فأل الجبل قد تغير. فذراع الإنشاءات في الجيش الأمريكي تبني معسكراً هناك، وخمّن معظم الناس أنه سيكون مهبطاً دائماً للطائرات المروحية. وقد وصلته أنباء عن أنهم يخططون لرشّ مساحيق كيميائية على امتداد الطريق السريع 1 والطريق 22، بهدف القضاء على الحياة النباتية هناك. ومع أن هاو اعتبرها فكرة جيدة حرمان أولئك الذين يقومون بالكمائن من الغطاء، إلا أن هذا كان البلد الاجمل في العالم. صحيح أن الحرب والأسى يغمرانه ، لكن مرض الأسى هذا لم يتغلغل في السابق إلى الأرض نفسها. لم يعجبه رؤيتها وهي تتعرض للتسميم.

في انتظار وصول الكولونيل الأمريكي، أخّروا التأبين إلى ما بعد الرابعة عصراً، لكن الكولونيل لم يظهر، وخطر الكمائن قد يمنعه عن عبور الطرقات الآن، فبدأوا بالمراسم قبل وصوله. أقاموا المراسم في المعبد، وحضرها ثمانية من أهل القرية، سبعة رجال طاعنين في السن، وحفيد أحدهم، جلسوا جميعاً على ى ضوء الشموع حول النضد الموضوع في وسط المعبد، من دون أن يكون عليه جثة يشخصون نحوها، بل مجرد بعض الحلى الصغيرة، أغلبها تماثيل خشبية لبوذا مطلية باللون الذهبي. وفوق كل ذلك كان هناك جهاز زينة يعمل على البطارية من النوع الذي نجده في حانات الجنود: قرص أسطواني يتحرك فيه الضوء بعكس اتجاه الساعة. كان صوت المعلم أكثر من مسموع. تكلم وكأنه يعظ. وكأن أحداً لم

يتعلم شيئاً بعد. «نحن الفييتناميون لدينا فلسفتان تحافظان على وجودنا. الفلسفة الكونفوشوسية التي تخبرنا كيف نتصرف حين يؤمن لنا القدر السلام والنظام. والبوذية التي تدربنا على تقبل قدرنا حتى حين يأتي لنا بالدم والفوضى».

وصل الأمريكيون عند الغروب في جيب مكشوف السقف. إما أنهم لا يخشون الطرقات، وإما أنهم يعسكرون مع مجموعة الإنشاءات العسكرية في «جبل الفأل الحسن». كان الكولونيل مفتول العضلات بثياه المدنية كالعادة هو من يقود المركبة، وقد انتصبت البندقية بين ساقيه، مدخناً سيجاراً، ويرافقه جندي مشاة أمريكي وامرأة فييتنامية ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة رمادية عرف عنها بوصفهاالسيدة فان، موظفة في الاستخبارات الأمريكية.

جلبوا معهم مسلاطاً ضوئياً وشاشة قابلة للطي بنية عرض فيلم مدته ساعة على أبناء القرية.

انحنى الكولونيل ساندز إجلالاً للمعلم ثم تصافحا بقوة، على الطريقة الأمريكية «سيد هاو سوف ننصب المسلاط في الحجرة الأساسية، إذا لم يكن من مانع في ذلك. هلا أخبرته بذلك رجاء؟»».

تولى هاو الترجمة وأخبر الكولونيل أن المعلم لا يجد مانعاً. وقام الجندي الشاب بتركيب الجهاز والأسلاك الكهربائية، وأربع كراس قماشية قابلة للطي - «للمسنين» كما قال الكولونيل- ومولد كهربائي صغير شغّله على بعد أمتار قليلة خارج جدران المعبد الخشبية والذي ملأ الوادي بصخبه وعبقت رائحته في المنطقة برمتها. شرح هاو أنه مضطر والمعلم إلى زيارة قروي مريض لكنهما قد يأتيان لاحقاً لمشاهدة جزء من الفيلم. قال الكولونيل إنه يتفهم ذلك، لكنّ هاو لم يكن واثقاً من أنه تفهّم حقاً. ومع حلول الغسق، ثم العتمة، ومع اتضاح أن أحداً لن يأتي على الإطلاق، طلب الكولونيل ساندز أن يعرض الفيلم له وحده فحسب. ملأت شاشة العرض التي تعمل على المولد الكهربائي الضاجّ، داخل المعبد بالأشعة المتلألئة وبصوت أجوف هادر وموسيقى حادة. ويسرد الفيلم، وهو بعنوان

«سنوات البرق، يوم الرعد»[1]، الحياة البطولية الوجيزة والمأساوية للرئيس جون ف. كينيدي. وشاهد الفيلم أيضاً الجندي الأمريكي والسيدة فان والتي كانت قد جاءت لكي تتولى الترجمة للقرويين، لكن بالطبع لم تعد من حاجة إلى ذلك. قال الكولونيل إن مدة الفيلم خمسة وخمسين دقيقة، وقبل خمس دقائق من نهايته، دخل هاو والمعلم على أطراف أصابعهما وانضما إلى الأمريكيين. فجلس المعلم على وسادته في رأس الغرفة، وراء الشاشة المحمولة، حيث لا يستطيع رؤية اي شيء في حقيقة الأمر، وجلس هاو على كرسي إلى جانب الجندي الشاب. ألقت السيدة فان نظرة على هاو وقررت أنه يستطيع أن يترجم لنفسه. في حقيقة الأمر لم يكن يستطيع ذلك. فلكي يفهم اللغة الإنجليزية كان يحتاج عادة إلى الوجوه والايماءات، وعلى أية حال كان الجنرال يتكلم بصوت أعلى من التسجيل، وقد جلس شابكاً يديه على صدره، مخاطباً نفسه بنبرة مشحونة بالمرارة أمام العرض الوامض مع ارتفاع الموسيقى عند المشهد الختامي الذي يصور الشعلة الأبدية على ضريح جون ف. كينيدي. «الشعلة الأبدية؟»، قال الكولونيل: «الأبدية؟ إذا كان يمكنك قتل رجل، فيمكنك التيقن من إخماد شعلته. هذه حقيقة الأمر: كلنا موتى على المدى الطويل. في نهاية المطاف كلنا تراب. فلنواجه الأمر، إن حضارتنا برمتها ليست إلا طبقة من الحثالة. في النهاية يصحو بربريّ ما، ابن زنى ما، في الصباح ويقف واضعاً رجلاً على صخرة والأخرى على الوعاء المهشم الذي يضم شعلة كينيدي الأبدية. والوعاء بارد وميت، وابن الزانية ذاك لا يعرف حتى إنه يقف عليه. إنه يبول في الصباح فحسب. حين أنهض في الصباح وأقف خلف الخيمة لكي أضرط وأفرغ مثانتي، فقبر من الذي أبول عليه؟ سيد هاو هل أتكلم

(1) يلعب الكاتب على اسم فيلم آخر أنتج في تلك الفترة وكان بعنوان «سنوات من البرق، يوم من قرع الطبول»، وقد أنتج هذا الفيلم عام 1964 من قبل ما يسمى بـ «وكالة المعلومات الأمريكية» التي استمرت بين عامي 1953 و1999، وتبلغ مدته 90 دقيقة وهو لم يصنع للجمهور العام إلا أن قراراً من الكونجرس أجاز عرضه في صالات السينما وهو يعرض سيرة كينيدي وإنجازاته من دون التطرق إلى أي مؤامرة فيما يخص اغتياله.

بسرعة؟ هل تفهم ما أقول؟».

فهم هاو مقصد الكولونيل، وأجل، أراد أن يؤيد كلامه، فالمسألة كلها هي مسألة مياه تجري متسارعة إلى بحار أكبر وأكبر، ولا ينقذنا إلا ما نفعله في تلك اللحظة... سمحت له مفرداته الإنجليزية بأن يقول: «هذا صحيح، أظن ذلك، أجل».

تشتت انتباه كلا الرجلين بجرذ أو ضفدع قفز إلى الحجرة من الباب الأمامي. ذهل هاو من العنف الذي واجه به الكولونيل هذه المقاطعة، فقد اندفع عليه ورماه مع الكرسي إلى الخلف، مما جعل رأسه يرتطم بالأرضية القذرة ليغشي الألم بصره مثل انفجار من الإبر المتجلدة. بدأ يستعيد وضوح الرؤية، مع تدحرج ذلك الشيء، الذي لم يكن قارضاً ما، على بعد متر واحد من وجهه، وفهم أنها قنبلة يدوية على الأغلب؛ كانت موته. جسم ما انقضّ سريعاً فوق القنبلة. كان الجندي قد غطاها بخوذته، وبدأ يخفض نفسه، ليس سريعاً، إنما ببعض التردد، وغطى الخوذة بجسده، محملقاً في البداية بالقذارة على الأرضية، ثم ناظراً إلى وجه هاو، الذي يبعد بوصات قليلة عنه، مما جعل عينيه جليتين وهو يتكوّر على نفسه جزعاً. مرت ثوان طويلة في صمت هائل.

بقي الصمت. ثوان طويلة أخرى. لم تتبدّل ملامح الجندي، ولم يتنفس، إلا أن الروح عادت إلى عينيه وأخذ يحملق بهاو ببعض الإدراك.

بدأ هاو يدرك أن الكولونيل الجاثم على صدره رمى نفسه عليه تماماً كما رمى الجندي نفسه فوق الخوذة. بدأ يستشعر ألماً في ربلتي ساقيه ورأسه، وبثقل الكولونيل الأمريكي الضخم. تنفس الكولونيل بصعوبة شديدة. كان يختنق. والجندي زفر نفث الهواء الذي كان يحبسه، وأحسّ هاو بأنفاسه تهبّ على وجهه. أخيراً وضع الكولونيل راحتيه على الأرض عند كتفي هاو وشقل نفسه للجلوس على ركبتيه، وتمكن هاو من ملء رئتيه ثانية.

وقف الكولونيل كرجل في غاية الهرم، وانحنى لكي يمسك ذراع الجندي.

«انهض يا بني، انهض». تجاوز الفتى، بعد أن وجد أن الحياة لا تزال في جسده، بعض صدمته، وتدحرج مبتعداً عن الخوذة. سريعاً أزاح الكولونيل الخوذة وحمل القنبلة اليدوية ورماها نحو المدخل، لكنها ارتطمت بالجدار ووصلت إلى حافة الباب فحسب، فقال الجنرال: «سحقاً لهذا كله». ثم اقترب منها وانحنى وأمسكها بثبات، وخرج من الباب نحو البئر حيث أزاح الغطاء ورمى القنبلة في أعماق البئر. ثم عاد إلى المعبد وأطفأ المولد الكهربائي.

تبعه الآخرون إلى الخارج، ربما بشيء من التهوّر. اعتنت السيدة فان بالجندي، متكلمة الإنجليزية بسرعة، فاركة صدره وسرواله بحيوية، بل بشيء من الهستيرية، وكأنها تحاول إطفاء النيران. وحين انتهت انتقلت إلى هاو، وأخذت تمسح ظهره بضربات سريعة قائلة بالإنجليزية: «أناس سيئون، هذا ما يفعله أولئك البشر الرهيبون».

خرج المعلم من المعبد. من مكانه وراء الشاشة لم يشهد شيئاً مما حدث تقريباً. وحين أخبره هاو بشأن القنبلة، ابتعد خطوتين طويلتين عن البئر.

قال الكولونيل: «اسمع انا آسف، كان البئر أول مكان خطر ببالي».

ترجم هاو اعتذار الكولونيل ثم ردّ المعلم: «أظن أنه آمن».

«إذا انفجرت تلك القنبلة، فسوف تعكر بئرك».

قال المعلم: «ستصفو ثانية فيما بعد».

«لابدّ من أنه بئر عميق. أهو من الباطون؟».

قال هاو: «بناء باطوني».

«إنه من العيار الثقيل»[1].

«من العيار الثقيل؟».

«إنه في حالة ممتازة».

---

(1) في الأصل top-notch: تعبير عامي أمريكي يعني «في حالة ممتازة»، بيد أننا لجأنا إلى «من العيار الثقيل» دلالة على أن الفيتنامي لم يفهم التعبير فاستفسر عن معناه.

«أجل، إنه من بناء الصليب الأحمر السويسري».

«متى كان هذا؟».

«لا أعرف».

قال الكولونيل: «لقد سمعوا ذلك المولد الصاخب اللعين، أليس كذلك؟».

زمّ هاو شفتيه كنوع من الإجابة.

وقف هاو جانباً بتهذيب، في حين شحن الزوار جهاز اللاسلكي، واتصلوا بالمعسكر في «جبل الحظّ السعيد».

قال الكولونيل: «سنمضي سريعاً إلى الجبل».

أيّد هاو ذلك: «حسن، لابدّ من أن ذلك المكان أكثر أمناً».

في غضون دقائق وصلت دورية من ثلاثة جيبات عسكرية تحمل عدداً من الجنود، ومضى الموكب هادراً في العتمة.

زحف هاو إلى صف المدرسة، وتحسّس الجدار بحثاً عن مسمار. ثم خلع ملابسه وعلق قميصه وبنطاله، ومسح حصيرته القش بيديه، وبسط فوقها غطاء من الكتان لحمايته من البعوض. سمعه المعلم من الجانب الآخر من الجدار، في المعبد، وحيّاه تحية المساء. ردّ هاو بصوت هامس، واضطجع بسرواله القصير وقميصه الداخلية في العتمة الكالحة.

هذا الكولونيل - هاو لم يره يوماً بزيّ عسكري. بدت الثياب المدنية مناسبة له. على نحو ما، كان يحسب جميع الأمريكيين مدنيين، وإن لم يكن في حياته كلها لم ير إلا الموظفين الحكوميين والعسكريين الأمريكيين، وبعض المبشّرين. وبالقدر نفسه، كان يحسب كل الأمريكيين من الكاوبوي. وقد أذهلته شجاعة الجندي الشاب. ربما من الجيد أنهم جاؤوا إلى فييتنام.

لكن ورغم الجدار الذي يفصل بينهما فقد تمكن من أن يحسّ باستياء المعلم من نفسه لتعامله مع الكولونيل. كان الأمريكي جذاباً، فاتناً، إلا أن الأمريكيين ليسوا في نهاية المطاف إلا زمرة أخرى من محرّكي الدمى. الستارة تنسدل على

مشهد الفرنسيين. ثم ترتفع ثانية، وإذا بها المسرحية الأمريكية. غير أن زمن العبيد والدمى قد انتهى. ألف عام تحت حكم الصين، ثم الهيمنة الفرنسية – كل هذا قد انتهى. والآن ها قد جاءت الحرية.

تكلم همساً إلى معلمه. تمنى له أحلاماً سعيدة. هو نفسه لم يستطع النوم. كانت أمعاؤه مضطربة من شدة الخوف. ماذا لو تدحرجت قنبلة أخرى نحوه في ظلام الليل؟ إذ أصاخ السمع لكي يسمع صوت قتلته، تنبّه للحياة المكبوتة للأدغال، لهدير الحشرات الجماعي، الذي لا يقل ضوضاء عن أيّ مدينة في قلب النهار. ثمة لعنة تغطي كل شيء. زوجته مريضة، وابن أختها توفي، والحروب لن تنتهي. تحسّس بقدميه بحثاً عن صندله، وخرج إلى البئر في الظلمة واستجمع زمام نفسه ثانية. لا شيء يمكن أن يؤذيه. لقد عاش، لقد عرف الحب، لقد عومل بكثير من اللطف. يا لها من حياة محظوظة!

بعد أن رمى القنبلة إلى داخل المعبد، جرى ترانج وراء صف الأكواخ بأقصى هدوء ممكن ثم دخل الدرب. بعد بضعة أمتار أبطأ سرعته، وشنّف سمعه. سمع أصواتاً وحراكاً، لكنه لم يسمع انفجاراً.

مرت دقيقة، اثنتان. لعله لم يسمع دويّ الانفجار بسبب سرعة جريان دمه.

وقف في الدرب الضيقة لافاً يديه حول بطنه، والأسف يعتصره اعتصاراً. لم يتوقع أن يكون الأحمقان جالسين هناك قرب الأمريكيين. لم يبكِ منذ سنوات.

لو أنني قتلتهما حقاً، لربما كنت بكيت أقلّ.

كانت مفيدة نوبة البكاء هذه. تقول العجائز، اذرف الدمع، فهو مفيد للحصاد. في شبابه بكى لأسباب كثيرة. ولم يبك كثيراً منذ ذلك الحين.

مشى على الدرب. في سايغون لم يعطوه سوى قنبلة يدوية واحدة. وهذا حسن.

قيل له أن ينتظر المدنيّ الأمريكي الذي سيحضر معه آلة العرض. هدف محدد. لم يسأل لمَ لا يرسلون إذن قناصاً محترفاً، مع بندقية. خمّن أنهم يريدون أن يبدو موت الأمريكي حادثاً.

كان عليه أن يسلك طريق النهر لبعض الوقت، لكي يلتف حول قرية صغيرة حيث تعيش بعض الكلاب الهائجة. مضى في اتجاه مجرى النهر حتى وصل إلى منزل الكادر القيادي في المنطقة. كان سكان البيت نياماً. جلس القرفصاء في الحديقة الصغيرة خلف البيت مسنداً ردفه على جذع شجرة، وغطى رأسه بخرقة، وألقى رأسه بين ركبتيه. استراح لساعتين.

لم يكن يعرف لماذا طلب تبرعاً من صديقه القديم هاو. فهو لم يتلق أمراً بأن يبادر للقيام بأي اتصال. رأى أنه ليس عليه امتحان دوافعه.

مباشرة بعد ثاني صيحة للديكة، أيقظ الكادر وأبلغه بفشل المهمة. أعطاه بندقية صينية عيار 56 ملم، ومشطين من الرصاص سعة ثلاثين طلقة، وطلب منه العودة إلى شرذمة الفتية المعسكرين عند نهر فان كو دونج، وهم «فرقة معدومة القيادة» من مجموعة «هوا هاو»[1]. وقد أعلنوا عن استعدادهم لإعادة التموضع والتثقيف الحزبي.

سأل هاو الكادر: «أكانت هناك أي مشكلات؟».

«لم يؤذهم أحد. لن تواجه أي توترات».

«حسناً، احتفظ بالبندقية. لكن دعني أحصل على المصباح اليدوي».

كان النهر عالياً. وكان على ترانج أن يشق طريقه إلى مخيضة فوق المعسكر، وأن يعبر، ثم يعود إلى مجرى تيار النهر، قاطعاً زهاء ستة كيلومترات بالإجمال.

أطلق صفيراً حين وصل إلى أحد المراكز، وهو كناية عن كوخ من أوراق الموز والقصب، لكنه لم يسمعْ رداً.

(1) Hoa-hao: إحدى فرق البوذية التي وقفت في وجه الأمريكيين في فييتنام الجنوبية، وقد تمكن الأمريكيون من قتل قائدهم وسحقهم في 1956، إلا أنه بعضهم انضم لاحقاً إلى الفييتكونغ.

قادته الدرب إلى بقعة مليئة بالأثلام على مقربة من النهر، كانت في السابق ساحة سوق. وقد هجر الناس هذه المنطقة بسبب وباء ما، ولاحقاً أمر أحد الرهبان بحرق المباني الموجودة التزاماً بإحدى الشعائر الخرافية. كان لا يزال ثمة حظيرة موجودة وجرى تحويلها إلى ثكنة عسكرية.

تجمع الشبان في الجهة الخلفية من الثكنة لكي يدفنوا أحد رفاقهم الذي عانى لأسبوعين من الملاريا قبل أن يلاقي حتفه. كانوا قد جردوه من ملابسه. ورشوا حبوب الأرز على فمه المفتوح، وأنزلوا جسده العاري إلى قبر بعمق أربعة أقدام تقريباً من دون تابوت، وغطوه بالتراب الرطب المائل إلى الصفرة.

وقف ترانج جانباً يشاهد عملية الدفن، كاشاً الذباب عن وجهه. وقف الفتية صامتين حول القبر زهاء دقيقة من الزمن، وأخيراً تكلم أحدهم: «هذا سيء، ها هو واحد آخر يسقط».

كانوا جميعاً يافعين، والكثيرون منهم تحت سن العشرين. لم تكن مجموعتهم يوماً جزءاً من الفيت مين. كانوا من سكان الجبل الأميين من «با دين»[1] لا يعرفون كيف يدفنون موتاهم.

بعد انتهائهم وقف معهم ترانج خلف ثكنتهم لكي يخطب فيهم، لكنه وجد نفسه يردّد ما قاله الآخرون قبله.

«نستطيع تأمين الدواء لكم ضد الملاريا. وإذا أمكن نستطيع نقلكم إلى الشمال، إلى مزرعة جماعية نسميها كولخوز[2]، حيث تستطيعون العيش بسلام ونظام. أما إذا أردتم القتال، فيمكننا الإفادة منكم بصورة أفضل.

«نحن نتمتع بقيادة مركزية. لدينا بنية حديدية. إننا متحدون كقبضة واحدة يمكنها الاختفاء داخل كم القميص عندما تدعوها الحاجة إلى ذلك. لقد طردنا

(1) Ba Den: الجبل الأعلى في محافظة تاي نين في فيتنام، وثمة معبد لإحدى الآلهات على رأس الجبل تجعله قبلة للحجاج البوذيين.

(2) Kolkoz: عن الروسية، التعاونية الزراعية. كانت مثل هذه التعاونيات منتشرة في الاتحاد السوفيتي سابقاً وفي غيرها من المنظومات الشيوعية.

الفرنسيين، وسنطرد الأمريكيين، وسنذبح دماهم وندفنهم. أيزعمون أنهم حققوا النصر؟ فليزعموا ذلك. فالغزاة يقاتلون المحيط، ومهما هزموا من موج، فإن محيط عزيمتنا لن يتزعزع.

«أتريدون الحرية؟ الحرية الفردية هي الحرية الوطنية، والرجال الذين قادوكم في البداية يفهمون هذا، وقد تعلموه مع الهوا هاو، وهم أوصلوكم إلى هنا. والآن عليكم الانضمام إلينا والمضي حتى النهاية - التي هي البداية التي نصبو جميعاً إليها، اليوم الأول من تحررنا الوطني».

كان قد مضى وقت طويل منذ توقف عن حضور الصفوف التثقيفية، مما جعله مشتت الفكر حيال ما يقوله.

وقد أرسل ترانج لمقابلة هذه المجموعة بسبب الوقت الذي أمضاه في الخدمة في «معبد النجمة الجديدة» في القرية المجاورة. كان من المفترض أنه يعرف هؤلاء الناس، هذا الخليط من البشر المكون من صبية أيتام، جرى تجنيدهم - اختطافهم - في أعالي النهر من قبل مقاتلي «هوا هاو»، الذين هم أصلاً من دلتا الميكونغ، والذين دفعتهم قوات «الفيت مين» إلى التلال. وقد تخلى قادتهم عنهم أو قتلوا. وفي الأثناء اختفت قرية أسلافهم، تبّددت بفعل المعارك. خلال بضع سنوات شق الفتية طريقهم أكثر فأكثر على امتداد نهر فان كو دونغ، فلم يجدوا الترحاب في أي مكان وأخيراً توقفوا على طول الخط المعروف في المنطقة بانتشار الملاريا فيه، ويطلق عليه اسم «البول الدامي». لم يكترث أحد لأمرهم بينما يحتضرون الواحد بعد الآخر.

شرح ترانج لهم أن أهله من «بن تري»[1]، إلا أنه أمضى سنوات طويلة في الشمال، وفي الوقت الحالي، وحتى إعادة الوحدة، فإن قلب فييتنام يقع في

(1) Ben Tre: إحدى مقاطعات فييتنام، تحمل عاصمتها الاسم نفسها، وقد اشتهرت خلال حرب فييتنام من خلال تصريح أدلى به ضابط أمريكي لأحد الصحافيين يقول فيه: «بات لزاماً علينا قصف المدينة لكي ننقذها».

الشمال «وبعد الوحدة ستكون فييتنام كلها موطننا. ملايين الكيلومترات المربعة من فييتنام دونما تقسيم ولا إعادة تموضع ولا تمزيق للنسيج الوطني. سنضطجع ليلاً بسلام ونصحو على يوم آخر من السلام. وأولئك منا الذين سيموتون على الدرب، مثل صديقكم هذا، سيجدون السلام في مثواهم الأخير».

انظروا إلى أنفسكم، أخذ يفكر، منذ ولادتكم وحتى موتكم، لم تعرفوا إلا المنفى والتشرد والحرب.

«كيف ستكون الحال في مزرعة الكولخوز؟».

«أتريدون العمل؟ هناك ستحصلون على العمل والحرية».

«لكننا كنا نعيش على عاتقنا الخاص منذ زمن طويل. إننا أحرار أساساً».

«ستجدون في المزرعة نوعاً آخر من الحرية».

أجل، أجل، أجل، كل هذا هراء، يا للفظاعة، أخذ يلعن نفسه على المشاركة. أراد أن يقول لهم: فلتموتوا هنا أو هناك، لكن ابقوا بعيدين عن الكولخوز فحسب. «آن أوان أخذكم إلى مجموعة يجري تشكيلها لكي تتجه شمالاً. ثمة مخيم بالقرب من باو دون. إنها رحلة طويلة سيراً على الأقدام. يمكننا القيام بها في يوم واحد إذا انطلقنا باكراً جداً صباح الغد».

قال له أحد الشبان: «لقد سبق وتناقشنا في الأمر. ليس من خيار آخر أمامنا. سنذهب شمالاً. لكن الليلة القمر فارغ. لا نستطيع السفر في الغد. فمن سوء الطالع السفر مباشرة بعد القمر الفارغ. لقد فقدنا رفيقاً آخر بسبب سوء الطالع».

الملاريا لا تأتي من سوء الطالع ولا الآلهة الساخطين. بل تتسبب بها كائنات حية أصغر من أن ترى، وهي سامة بقدر الأفاعي، ولكن أصغر حجماً من ذرات الغبار. وهذه الكائنات تسمى الجراثيم.

«يا إخواني الشبان، فلتسمعوا هذا جيداً. كلنا نموت. أتريدون الموت بالجراثيم؟ إن النصر النهائي سيتشكل بعد سلسلة من الهزائم. أتريدون أن تهزموا على يد الجراثيم؟ كلما بكرنا في الرحيل، كان ذلك أفضل».

أخذوا يحملقون به فحسب وكأنهم لا يفهمون ما يقول. والأرجح أن كثراً منهم لم يفهموا وقد جاؤوا من أعالي النهر، من مناطق تتكلم بلغات أخرى. قال الشاب: «سنفكر في الأمر»؛

بينما يتناقشون فيما بينهم، وقف ترانج جانباً وأشاح نظره. ثم جاء الشاب نفسه ونبّهه بلمس ذراعه «سننطلق في الغد».

قال ترانج: «إذا كان هذا قراركم، فلا بأس».

كان جميع أفراد المجموعة قد ظلوا صاحين طوال ليلة أمس مع رفيقهم المريض، فاستبدّ بهم التعب. ولم يكن ثمة ما يمكن فعله، لذا عينوا بعض الحراس، وراح البقية يتسكعون حول الثكنة. جلس ترانج مسنداً رأسه إلى الجدار. لاحظ علب سجائر فارغة تغطي الثقوب في السقف المغطى بالقش. وكان هناك العديد من القطط يجوب المكان آكلاً القمامة عن الأرض.

أحضر أحد المقاتلين، وهو فتى يافع ذو عين واحدة، حفنة من جوز الهند الأخضر. أشار إلى صدره قائلاً لترانج بلهجة جبلية: «لي موسى». فصحح له شاب آخر: «اسمي...». فقال الشاب وهو يدير رأسه لكي يضع ترانج في مرمى عينه السليمة: «اسمي موسى». ابتسم: كانت أسنانه، على جاري عادة تلك القبائل الجبلية مبرية حتى صارت مسطحة. وبمدية يصل طولها إلى نصف طول قدمه، سلخ أعالي ثمار جوز الهند. شربوا الحليب، وراحوا يتناولون كسر الثمار.

قدم له الشبان سريراً وحتى إنهم عرضوا عليه وسادة صغيرة. وقاموا بترتيب أنفسهم حتى يناموا في العراء: فوقف أحدهم في الخارج للحراسة، وراح خمسة منهم يلعبون الورق في الداخل، في حين راح أحدهم يثرثر، وغط آخر في النوم شاخراً على مقربة منهم. حاول ترانج أن يغفو، إلا أن النوم جافاه. تخيل أنهم أمضوا أياماً كثيرة على هذه الشاكلة. تجمد الهواء في الخارج، وأمكنه سماع النهر المرتفع وهو يمضي مرتطماً بضفافه. أعتمت الدنيا. ترك الحراس مراكزهم في اتجاه أعالي النهر وجاؤوا لكي يتناولوا العشاء. بالإجمال لم يبد هناك أكثر من خمسة

عشر من هؤلاء الشبان المهزولين الصامتين المنتشرين في هذه النواحي من نهر فان كو دونغ، حامين أنفسهم من كل من يأتي، غير مدركين أن أحداً لن يأتي.

أبقوا نار الطهي مشتعلة يتصاعد منها الدخان طوال الليل لكي يطردوا البعوض. أغفا ترانغ واضعاً منديله فوق أنفه وفمه. أما الآخروا فبدوا غير مكترثين لأمر الدخان.

هطل المطر بعد وقت طويل من شيوع الظلام. بدأ الشبان ينقلون معداتهم إلى مواضع لا يتسرب إليها الماء، مكررين «تحرك! تحرك!». ثم اضطجعوا في مواضعهم الجديدة في حين يحيطهم المطر المتسرّب من السقف. لم يتكلم أحد بسبب جلبة مياه المطر المتسربة. ورأى ترانغ وجوههم على ضوء الشموع وهي تحملق في الفراغ. إلا أن روحهم المعنوية ارتفعت، وساد الغناء والضحك. كانوا فتية صالحين يفعلون فحسب ما يتوجب عليهم فعله في حينه. ومع اشتداد المطر، حشوا المزيد من علب السجائر الفارغة في مواضع متفرقة من السقف.

عند منتصف الليل تسللت أربعة كلاب إلى الداخل. وكان ترانغ الوحيد الذي لا يزال صاحياً. فوجه نور مصباحه اليدوي على الكلاب وهي تجوب المكان بصمت. وحين شعرت الكلاب بالضوء اندفعت فارة من المدخل المفتوح. تخلل الضوء الدخان المتصاعد من موقد الطهي وطاف فوق الرجال والفتية النائمين في مجموعات من اثنين أو ثلاثة، وقد اضطجعوا متلاصقين ملقين أيديهم حول بعضهم، أو متلامسين بطريقة عائلية اعتيادية.

تسلل خارجاً عند الفجر، واقتعد الأرض الرطبة شابكاً رجليه. وراح يصفي ذهنه بالتركيز على شهيق منخريه وزفيرهما، مثلما كان يفعل صبيحة وعشية كل يوم في فتوته في «معبد النجمة الجديدة». وقد عاد في الحقيقة إلى ممارسة ذلك يومياً منذ زهاء عام، من دون أن تكون لديه فكرة عن السبب. كانت هذه الممارسة تجعله شيوعياً سيئاً. في حقيقة الأمر لم يعد مقتنعاً أن الدم والثورة يشكلان أداتين مفيدتين لتغيير المفاهيم في عقل الإنسان. من قال ذلك؟ على

الأرجح كونفوشيوس «لا يمكنني ضرب منحوتة حجرية بمرزبة؛ لا أستطيع تحرير روح إنسان بالعنف». كان السلام هنا، والآن. أما السلام الموعود في أي زمان ومكان آخرين، فليس إلا أكذوبة.

تلك الكلاب الأربعة الليلة الفائتة، كانت كناية عن «الحقائق الأربع السامية»، وقد جاءت تشمّ أكاذيبه في الظلمة.

... حين انتبه إلى شرود أفكاره، أعاد التركيز الواعي على حركة تنفسه.

مجدداً سأل نفسه لماذا طالب هاو بالمال.

وجه هاو حين رآني: أشبه بالجرو. وقد عاملته بقسوة شديدة، حتى خاف مني المسكين. وأحببت ذلك. آه، لا...

... آجلاً أم عاجلاً يتشبث العقل بفكرة ما ويتبعها إلى التيه، فكرة واحدة تتفرّع إلى أخرى. ثم ينغلق التيه على نفسه وتجد نفسك في الخارج. لم يكن يوماً في الداخل... كان حلماً.

أعاد التركيز على تنفسه.

الصباح... ضباب يغلف النهر وغيمة في الأعالي البعيدة. سمع حراك الفتية في الداخل وهم يصحون على أثرى انتصارات الأرض، يوم آخر خارج القبر. بعيون ناعسة، تنقلوا متبعثرين في المكان، متلفعين بالبطانيات، لكي يبولوا. قال لهم: «أيها الشبان، ما دمتم أحياء، جدوا سبيلاً للاستيقاظ من هذا الكابوس». نظروا إليه بوجوه ناعسة.

1965

على جاري عادته الأسبوعية كل ليلة اثنين، قام وليام «سكيب» ساندز من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، باختبار طاقاته عبر مرافقة دورية مشتركة من الجيش والشرطة الفلبينيين، في بحث عقيم عن أناس غير مرئيين في الزوايا الجبلية المظلمة. هذه المرة لم يتمكن صديقه الرائد أجوينالدو من المجيء، ولم يعرف الآخرون ماذا يفعلون مع هذا الأمريكي. قادوا مركباتهم على الطرقات المحفرة طوال الليل من دون أن ينبسوا بكلمة أو يحدثوا جلبة، في موكب من ثلاثة جيبات، باحثين عن أي إشارة تدلّ على وجود مقاتلي «هوك»[1]، كما هي العادة، من دون أن يلمحوا أياً منهم، كما هي العادة أيضاً، وقبيل الفجر تماماً عاد ساندز إلى مقرّ القيادة فوجد الكهرباء مقطوعة ومكيفات الهواء لا تعمل. هذه هي المرة الثالثة خلال الأسبوع التي تنقطع فيها الكهرباء. فتح غرفة نومه على الأدغال وراح يتصبب عرقاً بملابس النوم.

بعد أربع ساعات عاود المكيّف المعلق عند النافذة العمل، فأجفل ساندز من نومه متلفعاً بالكامل بالملاءات المضمخة بعرقه. أخذه النوم، وعلى الأرجح فاته الفطور وسيضطر إلى إلغاء تمارينه الرياضية الصباحية. أخذ حماماً سريعاً وارتدى بنطاله الكاكي وقميصه الصيفي المحلي الرقيق الذي يدعى «بارونج تاجالوج»[2] الذي أهداه إياه صديقه الفلبيني الرائد أجوينالدو.

في الطابق الأرض وجد مكاناً معدّاً له على المائدة الماهاجوني. كان الثلج

---

(1) Huk: اختصار لكلمة Hukbalahap: أي «جيش الشعب ضدّ اليابانيين»، هذه المجموعة هي الذراع العسكري للجيش الشيوعي الفلبيني، وقد تشكلت في العام 1942 لمقاومة الاحتلال الياباني للإمبراطور، وبعد نيل الفلبين استقلالها ظلت تحارب ضدّ الحكام المؤيدين للغرب، وذلك بين عامي 1946 و1954، عندما جرى سحق هذه المجموعة على يد الرئيس الفلبيني رامون ماجسايساي.

(2) Barong Tagalog: لباس تقليدي فلبيني مزخرف يرتدى من دون أي أزرار ويعد خفيفاً مريحاً في الطقس الحار.

قد ذاب في كأس الماء خاصته. وإلى جانبه صحف الصباح، بالأحرى صحف الأمس، التي تشحن عادة من مانيلا. خرج الخادم سيباستيان من المطبخ وقال: «صباح الخير سكيب. سوف يأتي الحلاق».

«متى؟».

«الآن».

«أين هو؟».

«إنه في المطبخ. أتريد تناول الفطور أولاً؟ أتريد البيض؟».

«القهوة فحسب رجاء».

«أترغب في البيض بلحم الخنزير؟».

«أيمكنك أن تحتمل فكرة أنني لا أريد سوى القهوة؟».

«أيّ نوع من البيض؟ شديد الرخاوة؟».

«أحضره... أحضره».

جلس إلى المائدة أمام نافذة واسعة تطل على المشهد السريالي لملعب جولف من حفرتين تكتنفه الأشجار الكثيفة. هذا المنتجع الصغير - كناية عن مسكن، ومأوى خدم، وسقيفة وورشة - أنشئ كدار عطلات لفريق عمل شركة «ديل مونتي»[1]. ولم يلتق ساندز أحداً من هذه الشركة، ولا عاد يتوقع ذلك. اتضح أن ثمة رجلين اثنين فحسب ما عداه يقيمان هناك، أحدهما إنجليزي متخصص بالبعوض، والآخر ألماني شكّ ساندز بأنه مختص بأمر أكثر جدية؛ ربما كان قناصاً.

لحم الخنزير والبيض للفطور. البيض صغير. واللحم شهي دوماً. أرز، ولا بطاطا. قرص خبز ناعم، لا خبز توست. كان الفلبينيون يتنقلون في أرجاء الدار ببزات بيضاء، ناشطين بالمماسح والمكانس. عبر المدخل المقنطر شاب يرتدي سروالاً قصيراً أسود اللون فحسب، متزلجاً على قشرتي جوز هند مقلوبتين، ملمعاً

(1) Del Monte: شركة أنانس مركزها الفلبين، أنشأ الأمريكيون ضمن أراضيها الزراعية الشاسعة مدرج ديل مونتي العسكري، وذلك في مندناو، ثاني أكبر جزر الفلبين.

الأرضية الخشبية.

قرأ ساندز الصفحة الاولى من «مانيلا تايمز»: رجل عصابات يدعى بوي جولدن، قتل في غرفة المعيشة في شقته. أنعم ساندز النظر في صورة جثته، وهو يرتدي برنس الحمام، وقد ارتمى ذراعاه بطريقة مجنونة وتدلى لسانه من فكه.

جاء الحلاق، وهو مسنّ يحمل صندوقاً خشبياً، فقال له سكيب: «لنخرج إلى الشرفة الخلفية». واجتازا الأبواب الفرنسية[1] إلى الباحة المرصوفة.

كان النهار منيراً موحياً بالهدوء. ومع ذلك ظلّ يشعر بخشية من السماء. فقد أمطرت بلا توقف طوال ستة أسابيع، منذ لحظة وصوله إلى مانيلا في منتصف يونيو، ثم توقف المطر يوماً واحداً فحسب. كانت تلك رحلته الأولى خارج الحدود الأمريكية. لم يعش يوماً خارج كانساس حتى حمل حقيبة يده البرتقالية وركب الحافلة إلى بلومنجتون، في إنديانا، قاصداً الجامعة؛ إلا أنه قام مرات عدة في طفولته ومرة أخرى في مراهقته بزيارة بوسطن لكي يقيم لدى أسرة أبيه، مقيماً تقريباً طوال فترة الصيف في المرة الأخيرة بين حشد من الأنسباء؛ قبيلة أيرلندية من رجال الشرطة الضخمين وقدامى المحاربين الشبيهين بكلاب الحراسة الضخمة، وزوجاتهن القلقات الشبيهات بكلاب «البودل». وقد غمروه غمراً بابتذالهم العفوي ومعشرهم الصاخب، وعانقوه وأحبوه، فوجد فيهم العائلة التي لم يعرفها بين أهل أمه في الغرب الأوسط[2]، الذين دأبوا على معاملة بعضهم بعضاً كالمعارف البعيدين، لا الأقرباء. يحتفظ بذكرى ضبابية عن أبيه، وهو من ضحايا هجوم بيرل هاربور. ومن خلال أعمامه في بوسطن رأى أيّ إنسان عليه أن يكونه، فقد وضع هؤلاء الإطار الذي سيتشكل فيه يوماً كرجل بالغ. بيد أنه لم يحسب نفسه مالئاً ذلك الإطار الذي يكشف مدى ضآلته.

---

(1) French Doors: نمط من الأبواب يتكون من بابين اثنين معاً لا باب واحد (م)

(2) Midwestern United States أو اختصاراً Midwest: أحد الأقاليم الجغرافية الأربعة المكونة للولايات المتحدة الأمريكية وهو يضم 12 ولاية منها ولاية كانساس.

وها هو يشعر الآن بالنوع نفسه من الدفء والترحاب من لدن أولئك الفلبينيين الشبيهين بنماذج مصغرة فاتنة عن أولئك الأيرلنديين. كان قد دخل للتو بأسبوعه العاشر في الفلبين. أحبّ الناس، لكنه كره المناخ. كانت بداية عامه الخامس في خدمة الولايات المتحدة الأمريكية كعضو في المخابرات المركزية، وكان ينظر بإجلال إلى الوكالة وإلى بلاده معاً.

قال للرجل المسن: «أريدك أن تقص الأطراف فحسب». فبتأثير من الرئيس الراحل كينيدي بدأ يترك شعره الحليق ينمو، ومؤخراً فحسب - ربما بتأثير من الملامح الإسبانية المتبقية في المنطقة - بدأ يطلق شاربه.

وبينما المسنّ يحلق شعره، استشار ساندز متنبئة أخرى، هي صحيفة «مانيلا إنكوايرر»: أعلن عن المقال الرئيسي على الصفحة الأولى بوصفه الحلقة الأولى ضمن سلسلة من التقارير المكرسة لتقارير كتبها حجاج فلبينيون حول معجزات مدهشة، تتضمن الشفاء من الربو، وصليباً خشبياً استحال ذهباً، وصليباً حجرياً تحرك من مكانه، وأيقونة من الجص ذرفت دموعاً، وأيقونة أخرى نزفت دماً.

حمل الحلاق مرآة بطول ثماني بوصات وعرض خمس بوصات، أمام وجهه. من الجيد أنه غير مضطر إلى كشف رأسه في أنحاء العاصمة. كان قد أطلق شاربه كرغبة شخصية فحسب أما الشعر فوصل إلى درجة متوسطة من الطول، أطول من ألا يلاحظه الآخرون، وأقصر من السيطرة عليه. كم سنة احتفظ بشعره حليقاً؟ ثماني، تسع سنوات، منذ تلك الصبيحة التي أجرى فيها المقابلة مع موظفي التجنيد في الوكالة اللذين جاءا إلى حرم الجامعة في بلومينجتون. كان كلاهما حليق الشعر يرتدي بزة رسمية، مثلما لاحظ في عصر اليوم السابق، وهو يتلصص على وصولهما إلى مسكن الطلاب في الجامعة. أعجبه وقع كلمة «المركزية».

هنا، على مسافة يوم بالسيارة من مانيلا، على طرقات رهيبة، يشعر أنه

مركزي تجاه لا شيء. يقرأ صحفاً تغصّ بالخرافات. يحدق بالنبات المتسلق على الجدران الجصّية، وعلى خطوط الفطر المتعفن على الجدارن، وعلى السحالي على الجدران، وعلى بقع الطين على الجدران.

من مكانه على الشرفة استشعر توتراً في الهواء، شيئاً من النزاع المكبوت بين العاملين في الدار- لم يكن يحب اعتبارهم «خدماً». استثير فضوله. غير أنه وقد نشأ على الأرض الأمريكية، كان مخلصاً للتخلص من النزاعات الشخصية، ولتجاهل الوجوه العابسة، والاحتفاء بصرف النظر وغضّ الطرف عن الأصوات التي ترتفع في حجرات أخرى.

خرج سيباستيان إلى الشرفة وقد لاح عليه التوتر، وقال: «جاء أحدهم ليراك».

«من؟».

«هم سيخبرونك. دعني لا أخبرك».

مرت عشرون دقيقة ولم يظهر أحد.

أنهى ساندز قص شعره، وخرج إلى الردهة الباردة ذات الأرضية الخشبية الملمعة، ولم يجد أحداً في حجرة الطعام سوى سيباستيان، الذي جلس إلى المائدة يتناول الغداء. سأله: «أجاء أحدهم لمقابلتي؟».

«أحدهم؟ لا... أظن أنه لم يأت أحد».

«ألم تقل إن ثمة زائراً ما؟».

«لا أحد سيدي».

«عظيم، شكراً، اتركني للتخمينات».

حمل نفسه إلى الباحة المرصوفة وجلس على مقعد من الروطان[1]. هنا يمكنه قراءة الصحف أو مشاهدة عالم الحشرات الإنجليزي، وهو رجل يدعى أندريز

---

(1) Rattan: اسم يطلق على 600 نوع من أشجار النخيل التي تنبت في المناطق الإستوائية، يستعمل خشب الروطان في صناعة الأثاث.

بيتشفورك، وهو يضرب كرة الجولف بمضربه بين الحفرتين الكاملتين في ذلك المضمار الصغير. كان الملعب مكوناً من زهاء أكرتين من العشب الأخضر المعتنى به بشدة والمشذب على درجة متساوية، وقد أحيط بسياج معدني تتشبث به بكثافة وعناد الحياة النباتية المحيطة. كان بيتشفورك، وهو لندني رمادي الشعر، يرتدي سروال «برمودا» قصيراً، وقميص «بانلون» أصفر، وهو خبير في بعوض الأنوفيلة[1]، يمضي صباحاته في هذا الملعب حتى تهبط الشمس عن سطح المبنى وتدفعه إلى الاضطلاع بعمله في محاربة الملاريا.

في نهاية الخطّ المحاذي له، رأى ساندز الضيف الألماني يتناول الفطور على شرفة غرفته. هذا الألماني جاء إلى المنطقة لكي يقتل أحدهم - بات ساندز مقتنعاً بذلك بعد أن تكلم إليه مرتين. وقد رافقه مدير الفرع من مانيلا، وإن كان الهدف الظاهري من زيارة المدير معاينة عمل ساندز، فقد أمضى معظم الوقت مع الألماني وأمر ساندز بأن «ابق متوفراً ودعه وشأنه».

أما بالنسبة إلى بيتشفورك - رجل الملاريا ذو الاسم الذي لا ينسى - فيجمع المعلومات فحسب. ربما كان يدير العملاء أو ما شابه في القرى.

كان ساندز يحبّ أن يخمن وظائف الأشخاص. أناس يأتون ويذهبون في مهمات غامضة. في بريطانيا قد يطلقون على هذا المكان اسم «ملاذ آمن». أما في الولايات المتحدة الأمريكية، في فرجينيا، فقد تدرب ساندز على اعتبار أنه لا وجود للملاذ الآمن. تعلم ألا يجد أي جزيرة في عرض البحر. وقد حرص الكولونيل، أقرب مدربيه، على أن يحفظ كل واحد من مجنديه مقطع «الشاطئ الآمن من الريح» من رواية موبي ديك لملفيل:

«ولكن في حالة اللابرّية وحدها تكمن أعلى الحقائق، لابرّ لها، مطلقة كالإله، ولذا فخير للمرء أن يهلك في ذلك المطلق الصخّاب من أن تقذف به الأمواج على

(1) Anopheles: جنس من البعوض من فصيلة البعوضيات يتفرع إلى زهاء 400 نوعاً، ويسمى أيضاً باسم بعوض الملاريا.

البرّ، ولو كان هو برّ السلامة، إذ من ذا الذي – واأسفاه!– يؤثر لنفسه حينئذ أن يزحف كالدودة زحف المهين الهدّان إلى البرّ»[1]

وضع بيتشفورك كرته على حامل الكرات، واختار مضرباً خشبياً كبيراً من حقيبة المضارب الملقاة على العشب، ورمى كرة فوق السياج إلى عمق الأجمات.

في الأثناء، بحسب «الإنكوايرر»، سيطر القراصنة على ناقلة نفط في «بحر سولو»[2]، وقتلوا اثنين من البحارة. وفي «سيبو سيتي»[3]، قتل بوابل من الرصاص مرشح على رئاسة مجلس المحافظة وأحد مؤيديه على يد شقيق المرشح نفسه. وكان القاتل يؤيد خصم شقيقه – والدهما. كما اغتيل حاكم إقليم كاميجوين[4] على يد «قاتل مسعور» أزهق روحي رجلين آخرين «بعد إصابته بالسعار»، على ما جاء في الصحيفة.

وها هو الألماني الآن يتمرن على شجرة مطاط على بندقية نفخ ليست بدائية الصنع، مثلما خمّن ساندز، لأنها تأتي في ثلاثة أجزاء وحين تجمع يفوق طولها الخمسة أقدام، وبدت السهام بطول سبع أو ثماني بوصات، بيضاء، مدبّبة، مثل حامل كرة الجولف. وأخذ الألماني يطلق السهام ببراعة على الهدف، متوقفاً غالباً لكي يجفّف بمنديل وجهه من العرق.

كان سكيب على موعد في القرية مع صديقه الرائد الفلبيني إدي أجوينالدو.

ترافق سكيب والقاتل الألماني، الذي ربما لا يكون قاتلاً، وربما حتى لا يكون ألمانياً، نصف الطريق الجبلية معاً إلى السوق. ركبا سيارة الشركة المكيّفة، ناظرين من نافذتي المقعد الخلفي نحو الأكواخ المسقوفة بالقش المصنوعة من جذوع

(1) الفصل 25 من «موبي ديك»، وهي هنا بترجمة الأستاذ إحسان عباس.
(2) Sulu Sea: يقع بين جزر الفلبين وبورنيو ويعرف أيضاً باسم بحر مندورو.
(3) Cebu City: عاصمة إقليم «سيبو» وثاني أكبر مدينة في الفلبين.
(4) Camiguin: جزية إقليم صغيرة تقع إلى الشمال من منداناو.

الأشجار الغليظة المفتولة، وإلى الماعز المقيدة بالحبال، والدجاج الشارد، والكلاب المتهالكة. وفي أثناء مرور السيارة بالجدات المقعيات على الشرفات المغبرة، باصقات نواة التنبول الأحمر، كان الأطفال يقفزون من أحضانهن ويهرعون وراء السيارة.

«ماذا يقولون؟ إنهم يقولون شيئاً ما».

«كيت»، قال ساندز للألماني.

«ما هي هذه؟ أقلت كيت؟ ماذا تعني؟».

«اعتاد أهلهم على مطالبة جنودنا بعيدان الكبريت صارخين: كبريت! كبريت! أما الآن فيكتفون بالصراخ: كيت، كيت، كيت. لا يعرفون ماذا تعني. لم يعد هناك جنود أمريكيون هنا وإذا أرادوا عيدان الكبريت فيقولون: بوسبورو»[1].

إلا أن النسوة العجائز هرعن للإمساك بالأولاد بنوع من الحنق لم يشهده من قبل. سأل الألماني: «ما بال هؤلاء القوم؟».

«إنهم في حاجة إلى غذاء أفضل. الحصص التي يحصلون عليها قليلة جداً».

«أتشعر بذلك، بأن شيئاً يوشك أن يحدث؟».

«ليس هناك إلا القليل من الأسماك في أعالي الجبل. البروتين الذي يحصلون عليه قليل جداً».

انحنى سكيب نحو مقعد السائق وقال: «إرنست، أثمة خطب ما في القرية اليوم؟».

«ربما، لا أعرف، يمكنني أن أستفسر عن ذلك لو أردت». إرنست من مانيلا، ويتكلم بإنجليزية ممتازة.

انتظر الرائد إدواردو أجوينالدو، بزيه العسكري المتجعّد، في المقعد الخلفي من سيارة مرسيدس سوداء خارج «مونتي مايون»، وهو مطعم يديره إيطالي وعائلته

(1) Posporo: بلغة التاجلوج، من سكان الفلبين الأصليين، مشتقة عن الإسبانية fósforo بمعنى فوسفوري، أي كبريت.

الفلبينية. وكان بافيس، الإيطالي، يقدّم كل ما يمكن أن يدفع الناس ثمنه، وهو ما لم يكن كثيراً. أما للسياح فكان يقدّم سباجيتي بولونيز شهية مع الكثير من كبد الماعز. رحّب الرائد بالألماني وأصرّ على أن يناديه «إدي» وعلى أن ينضمّ إليهما على الغداء.

فوجئ سكيب بموافقة الألماني الذي انغمس بتناول الطعام بنهم. لم يكن بديناً، إلا أنه بدا محباً للأكل. وكانت تلك المرة الأولى التي يراه فيها سكيب سعيداً إلى هذا الحدّ. كان ضخماً ملتحياً يضع نظارات بنية سميكة ويبدو جلده محترقاً أكثر مما يبدو مسمراً، وله شفتان كبيرتان ناعمتان تترطّبان عندما يتكلم.

قال أجوينالدو: «لنطلب إكسبرسو بافيس، فهي مليئة بالحياة.. سكيب كان مستيقظاً طوال الليل وهو متعب».

«أبداً، أنا لا أتعب البتة».

«أكان رجالي لطفاء معك».

«في غاية الاحترام، شكراً لك».

«لكنكم لم تجدوا أحداً من الهوك».

«ما لم يكونوا مختبئين على جانب الطريق ولم نرهم قطّ».

«ماذا عن شباب الراء شين؟».

«الراء شين؟». أيّ رجال الشرطة، «لا بأس بهم، كانوا منطوين على أنفسهم إلى حدّ بعيد».

«لا تهمهم مساعدة الجيش. ولا يمكنني القول إنني ألومهم. فهذه ليست حرباً. أولئك الهوك هم مجرد مرتدين تحولوا قطاع طرق».

«صحيح». إلا أن ساندز كان يقوم بتلك الجولات خدمة لاستراتيجيته الوحيدة وهي رفع نقاطه بغية إعادة نقله إلى مانيلا أو حتى أفضل من ذلك إلى سايغون. والأهم من ذلك كله أن تلك الدوريات في الأدغال كانت تريحه من الشعور بأن كل التدريبات القاسية التي خضع لها: التدلّي بالحبال من الجروف

الشاهقة، الهبوط بالمظلة وسط العواصف، التعرق خلال تطبيق خطوات صنع عبوات شديدة الانفجار، الاستلقاء على الأسلاك الشائكة، الخضوع للتحقيق لساعات وهو مقيد إلى كرسي - كل هذا حتى يصبح موظفاً مكتبياً فحسب، يجمع الملفات، ويصنفها، منجزاً ما تستطيع أي مكتبية عانس إنجازه. سأل إدي: «وماذا فعلتَ ليلة أمس؟».

«أنا؟ عدت إلى البيت باكراً وقرأت جايمس بوند».

«تمزح».

«ربما سنذهب في دورية هذا المساء. أترغب في المجيء؟». كان أجوينالدو يوجه كلامه للألماني، وأضاف: «يمكن أن تكون جولة في غاية الإثارة».

ارتبك الألماني، وسأل ساندز: «ما الغرض من ذلك؟».

أخبر ساندز إدي: «صديقنا غير راغب بالمجيء».

شرح الألماني: «سأذهب أبعد نزولاً».

«أبعد نزولاً؟».

«إلى القطار».

«آه، المحطة. ذاهب إلى مانيلا»، قال أجوينالدو، «هذا مؤسف. فدورياتنا الصغيرة يمكن أن تكون تجربة رائعة»... قال ذلك وكأنهم كثيراً ما يتعرضون لإطلاق النار. إلا أن شيئاً من هذا لا يحدث على حدّ علم سكيب. كان إدي صبيانياً، إنما يحب الإيحاء بالخطورة.

قبل ثلاثة أسابيع، في مانيلا، رآه ساندز يمثل دور هنري هيجينز في مسرحية «سيدتي الجميلة»، ولم يستطع أن يمحو من ذهنه صورة صديقه الرائد وقد اكتسى بأحمر الشفاه ومساحيق التجميل وراح يخطر على الخشبة في سترة السهرة؛ متوقفاً؛ ملتفتاً نحو ممثلة فلبينية جميلة، قائلاً: «ليزا، أين خفيّ بحق السماء؟». وقد أثار العرض إعجاب الجمهور المكون من رجال أعمال فلبينيين وعائلاتهم، إلى درجة أنه نهض مصفقاً، ولم يكن ساندز أقلّ إعجاباً منهم.

سأل ساندز الألماني: «ما ذلك الشيء الذي تتمرن عليه؟».

«أتعني السومبيت[1]. أجل».

«أهي بندقية نفخ؟».

«أجل، من قبيلة مورو».

«السومبيت كلمة تاجالوجية؟».

قال إدي: «أظن أنها شائعة الاستعمال».

أيده الألماني: «تستعمل في أنحاء هذه الجزر كافة».

«ومَمَ هي مصنوعة؟».

«أتعني مادتها؟».

«أجل».

«من الماغنيزيوم».

«الماغنيزيوم. بالله عليك».

«صلبة جداً، وخفيفة جداً».

«من صنعها لك؟».

طرح ساندز هذا السؤال على سبيل المحادثة فحسب، إلا أنه صدم حين رأى تلك النظرة بين إدي والقاتل. أجاب الأخير: «جماعة خاصة في مانيلا». وأقفل ساندز الموضوع.

بعد الغداء تناول الثلاثة الإكسبرسو في فناجين صغيرة. قبل مجيئه إلى تلك القرية النائية لم يتذوق ساندز يوماً هذه القهوة.

«ما الذي يحدث اليوم يا إدي؟».

«لا أفهم قصدك؟».

«أهو نوع من... لا أعرف... أهي ذكرى حزينة ما؟ مثل ذكرى موت قائد

(1) Sumpit: بلغة الملايو هي أنبوب النفخ أو المحلاج (أنبوب يستعمل لإذكاء النار) وهي أيضاً عيدان الأكل.

عظيم؟ لماذا يبدو الجميع غارقاً في الأسى؟».

«تقصد التوتر».

«أجل، ثمة أسى مشوب بالتوتر».

«أظن أنهم خائفون يا سكيب. هناك مصاص دماء ما. نوع من مصاصي الدماء يدعى أسوانج[1]».

قال الألماني: «مصاص دماء؟ أتعني دراكولا؟».

«يستطيع الأسوانج التحول إلى أي شخص يشاء، وأن يتخذ جميع الأشكال. المشكلة جلية إذن، وهي أن الجميع يمكن أن يكون مصاص دماء. حين تبدأ شائعة كهذه، فإنها تجتاح القرية كسم بارد. ذات ليلة الأسبوع الماضي – يوم الأربعاء الماضي، قرابة الساعة الثامنة – رأيت خارج السوق حشداً من الناس ينهالون على عجوز بالضرب هاتفين: أسوانج! أسوانج!».

قال سكيب: «يضربون امرأة عجوزاً؟ بمَ؟».

«بكل ما تقع عليه أيديهم. لم أر بوضوح. كانت الدنيا مظلمة. بدا لي أنها فرت عند الناصية، لكن أخبرني صاحب متجر لاحقاً أنها تحولت إلى ببغاء وحلقت بعيداً. وقد عض الببغاء طفلاً، ومات الطفل بعد ساعتين. لا يستطيع الكاهن فعل شيء. حتى هو يقف عاجزاً في مثل هذه الحالة».

قال الألماني: «إنهم مجانين».

بعد أن انتهوا من تناول الطعام وأكمل الألماني طريقه بسيارة الشركة لكي يستقل القطار المتجه إلى مانيلا، قال سكيب: «أتعرف هذا الرجل؟».

قال إدي: «لا، أتحسبه ألمانياً بحق؟».

«أظنه أجنبياً، وغريباً».

(1) Aswang: هو الغول؛ في الفلكلور الفلبيني تنتشر خرافة الغول في مناطق قبائل الفيزايان الواقعة غرب الفلبين، مثل مناطق كابيز وإلويلو وأنتيك. ما يميز الأسوانج أو الغول عن بقية الشخصيات الخرافية الفلبينية هي أنهم يضعون مكان الجثث المسروقة بجذع نبتة موز منحوتة على شكل الضحية. ويقال إنهم يحبون أكل الأطفال.

«التقى الكولونيل، وها هو يرحل».

«الكولونيل، متى؟».

«ثمة دلالة في أنه لم يعرّف بنفسه».

«أسألته عن اسمه؟».

«لا، ماذا يسمي نفسه؟».

«لم أسأله».

«لم يأت البتة على ذكر المشاركة في فاتور الغداء. أنا سأدفع».

تكلم إدي مع فلبينية سمينة اعتقد سكيب أنها السيدة بافيس وعاد يقول: «دعني أحضر بعض الفاكهة من أجل الإفطار غداً».

قال ساندز: «سمعت أن المانجو والموز وافران في هذا الوقت من العام. كل الثمار الاستوائية».

«أهذه مزحة؟».

«أجل، هي كذلك». دخلوا إلى السوق ذي السقف الواطئ المغطّى برقع من المشمّع، والمشحون برائحة الذبائح والتحلل النباتي. هرعت وراءهم مجموعة من المتسولين الكسيحين المشوهين بصورة لا تصدق، جارين أنفسهم على الأرض القاسية القذرة. كما اقترب منهم أولاد صغار، إلا أن المتسولين، على عرباتهم المدولبة، أو على جدعات[1] أقدامهم التي غطوها بأصداف جوز الهند، أو المليئة وجوههم بالندوب أو العميان عديمي الأسنان، أخذوا ينهرون الأولاد بالعكازات أو بأعقاب أطرافهم المجدوعة ويمطرونهم بالشتائم. مدّ أجوينالدو ساعده متوعداً نحو الزمرة المزعجة فتراجعوا جميعاً مستسلمين. ساوم بشدة عجوزاً تبيع البابايا، ثم عاد الاثنان إلى الشارع.

أعاد إدي ساندز بسيارته المرسيدس إلى دار «ديل مونتي». لم يتبادلا أي كلام جدي حتى الآن، وأمسك ساندز عن سؤاله إذا كان ثمة غرض ما من لقائهما.

(1) الجدعة، ما يتبقى من الطرف بعد بتره.

دخل إدي معه، إنما قبل ذلك أخرج من صندوق السيارة رزمة طولية الشكل ثقيلة غلّفت بورق بني وربطت بخيط. قال له: «لدي شيء ما لك، هدية وداعية». دعاهما ذلك إلى معاودة الجلوس على المقعد الخلفي الجلدي المغطى بملاءة بيضاء مال لونها نحو الرمادي.

وضع إدي الرزمة على ركبتيه وفتح غلافها كاشفاً عن قربينة[1] «أم ا» من النوع الذي يستعمله المظليون، ولها مقبض معدني قابل للطي. أما ذراع البندقية الخشبي فقد أعيد طلاؤه وزين بنقوش متشابكة. ناول سكيب البندقية.

راح سكيب يقلبها بيديه، في حين أخذ إدي يحرك مصباحاً يدوياً صغيراً فوق النقوش. قال سكيب: «هذا رائع إدي، إنه عمل مدهش. إنني شديد الامتنان».

«حزامها جلدي».

«أجل، أرى ذلك».

«إنها جيدة جداً».

«أشكرك من قلبي»، عنى ساندز ذلك حقاً.

«بذل شابان من مكتب التحقيقات القومي[2] جهداً عليها. إنهما صانعا أسلحة ممتازان».

«مدهش. لكنك قلت إنها هدية وداع. من الذي سيرحل؟».

«إذن لم تتلق أي أوامر بعد؟».

«لا، لا شيء، ما الأمر؟».

«لا شيء». قال الرائد متكلفاً ابتسامة هنري هيجينز. «لكن ربما ستكلف بمهمة».

«بربك، لا تشغل بالي يا إدي!».

(1) Carbine: بندقية قصيرة يسهل حملها والتنقل بها.

(2) National Bureau of Investigation: هيئة حكومية فلبينية تشرف عليها وزارة العدل ومهمتها متابعة القضايا الحساسة بالنسبة إلى الأمن القومي للبلاد، تأسست سنة 1946.

«أنا لم أقل شيئاً. فأنا جاهل مثلك بهذا الأمر. أتكلمت حول ذلك مع الكولونيل؟».

«لم أره منذ أسابيع. إنه في واشنطن».

«إنه هنا».

«أتقصد في مانيلا؟».

«هنا في سان ماركوس. في حقيقة الأمر أنا واثق من أنه في البيت».

«في البيت؟ بالله عليك. لا، لابدّ من أنك تمازحني».

«فهمت أنه قريبك».

«تمزح، صح؟».

«لا، إلا إذا كان هو من يمزح. تكلمت إليه عبر الهاتف صباح اليوم. وقال إنه يتصل من البيت».

«ها، ها». شعر ساندز بأنه مغفّل، لإصداره مقاطع صوتية فحسب، لكنه كان عاجزاً عن النطق.

«أتعرفه جيداً؟».

«أعرفه بقدر... ها.. حسناً، هو من دربني».

«هذا يعني أنك لا تعرفه. هذا يعني أنه هو الذي يعرفك».

«صحيح، صحيح».

«أصحيح أن الكولونيل قريبك؟ أوليس عمك أو ما شابه؟».

«أهذه هي الشائعة؟».

«ربما كنت أتطفل».

«بلى، هو عمي. شقيق أبي».

«روعة».

«عذراً يا إدي، لكنني لا أحب إفشاء ذلك».

«لكنه رجل عظيم».

«ليس الأمر كذلك. لكنني لا أحب أن أستغلّ اسمه».

«يجدر بك أن تفتخر بعائلتك يا سكيب. كن دائماً فخوراً بعائلتك».

دخل ساندز ليتأكد من خطأ كلام الرائد، إلا أنه كان محقاً تماماً. إذ وجد عمه الكولونيل جالساً على الشرفة يتناول الكوكتيل مع أندريز بيتشفورك.

بادره الكولونيل: «أراك متأنقاً للسهرة»، ملمحاً بذلك إلى قميص البارونج، واقفاً ومادّاً يده التي كانت قوية ورطبة بعض الشيء وباردة قليلاً من الكأس التي يحملها. ارتدى الكولونيل قميص هاواي. رجل عريض الصدر، كبير البطن في آن معاً، متقوّس الساقين مسمراً بفعل الشمس. ليس أطول من الرائد الفلبيني إلا أنه بدا ضخماً. وكان شعره الفضي القصير يلمع على رأسه الشبيه بالسندان. كان ثملاً في تلك اللحظة، إلا أنه تمكن من الوقوف مستقيماً بفضل تاريخه الخاص: كرة القدم مع نوت روكني في فريق نوتردام[1]، أداء مهمات للنمور الطائرة[2] في بورما، المشاركة في عمليات ضدّ المجموعات المقاتلة هنا في الأدغال مع إدوارد

(1) Knute Rockne: اسمه الأصلي نوت لارسن روكني (1888–1931) شخصية شبه أسطورية في تاريخ كرة القدم الأمريكية، ولاسيما في فرق الجامعات، حيث يعتبر أشهر مدرب عرفته هذه الفرق. درب فريق جامعة نوتردام في «ساوث بند» بولاية إنديانا، بين عامي 1918 و1930.

(2) Flying Tigers: هو الاسم الشعبي الذي أطلق على «المجموعة التطوعية الأمريكية الأولى»، التي أنشئت ضمن «سلاح الجو الصيني» عام 1942، وكان الهدف منها دعم الصين في مواجهة اليابان، وهي مكونة من طيارين وجنود سابقين في الجيش الأمريكي، وبسبب طبيعتها التعاقدية الخاصة اعتبر بعضهم أفرادها مرتزقة. وقد تدربت هذه الفرقة في بورما تحت قيادة كلير لي شينولت وبتصريح رئاسي من روزفلت، وبدأت عملياتها بعد زهاء أسبوعين من «بيرل هاربور». الكثير من الأساطير ارتبطت بهذه المجموعة حيث قيل إنها تمكنت من إسقاط زهاء 300 طائرة يابانية، مقابل سقوط 14 طائرة منها فقط، غير أنه بعد الحرب العالمية الثانية اتضح أن أرقام انتصارات هذه الفرقة أقل بكثير مما شاع خلال الحرب. جرى ضمّ هذه الفرقة بصورة رسمية إلى الجيش الأمريكي لاحقاً. لا يخفى على القارئ أن أهمية ذكرها هنا ضمن سيرة الكولونيل ساندز، تماماً مثل ذكر أنه كان لاعباً ضمن فريق نوتردام، (وذكر عمله مع إدوارد لانسدال)، هو تقديم خلفية لشخصية الكولونيل الأسطورية، من خلال حدثين شغلا الرأي العام الأمريكي في تلك الفترة، وشكلا جزءاً من وجدانه القومي.

لانسدال[1]، وأكثر من ذلك، مؤخراً، في فيتنام الجنوبية. وقد أمضى شهوراً في بورما عام 1941 كأسير حرب، وتمكن من الفرار. وحارب نمور مالايو[2]، و«الباثيت لاو»[3]، وواجه الأعداء في الكثير من الجبهات الآسيوية. كن سكيب يحبه، إلا أنه لم يكن مسروراً لمرآه.

«إدي» قال الجنرال مصافحاً الرائد بكلتا يديه، ثم رافعاً يده اليسرى وممسكاً به فوق المرفق، «فلنثمل».

«لا يزال الوقت مبكراً!».

«مبكر جداً؟ اللعنة... ومتأخر جداً عليّ لكي أغيّر مساري!».

«مبكر جداً! شاي فحسب، رجاء». قال إدي للخادم وطلب سكيب الطلب نفسه.

ألقى الكولونيل نظرة فضولية إلى الرزمة التي يتأبطها إدي، وسأله: «سمك للعشاء؟».

قال إدي: «أره!». ووضع سكيب البندقية على منضدة القهوة النحاسية.

---

(1) Edward Lansdale (1908—1987): ذكر هذه الشخصية الحقيقية أيضاً مهم في سياق فهم شخصية الكولونيل وبعض أحداث الرواية التي يضطلع بها، ولعل في سيرته نفسها ما يتقاطع مع شخصية الكولونيل. فهو كان ضابطاً في سلاح الجو الأمريكي خدم في «مكتب الخدمات الإستراتيجية»، وهي الهيئة الحكومية السابقة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ثم في الوكالة نفسها، حاز على ميدالية التميز العسكري في العام 1963، وكان من مؤيدي قيام أمريكا بخطوات عدوانية هجومية خلال الحرب الباردة، خلال الحرب العالمية الثانية كان مدير فرع المخابرات الأمريكية في الفلبين، وقد بقي بعد الحرب (حتى 1948) حيث ساهم في «العمليات النفسية» والهجومية إلى جانب الرئيس الفلبيني التي قوضت مجموعة «هوكابالاهاب» الشيوعية المسلحة المعارضة للحكم، كما كان له دور لاحقاً في حرب فيتنام.

(2) Malay Tigers: لم أتمكن من العثور على معلومات حول مجموعة تسمى «نمور مالاي»، وربما تكون مختلقة من قبل الكاتب.

(3) Pathet Lao: حركة شيوعية تأسست في لاوس في منتصف القرن العشرين، وهي الحركة المعادلة لحركة الفيت مين والفييتكونغ في فيتنام، وقد بدأت كحركة مقاومة للاستعمار الفرنسي في الهند الصينية، وارتبطت بعلاقات وثيقة بعدئذ مع الفييتكونغ خلال حرب فيتنام.

جلس الكولونيل ووضع البندقية على ركبتيه مثلما فعل سكيب في السيارة قبل لحظات، متحسساً النقوش على زندها. ابتسم قائلاً: «عمل ممتاز». إلا أنه لم ينظر نحو أحد وهو يبتسم. مدّ يده جانباً على الأرض وناول سكيب كيس بقالة بني اللون، وقال: «أبادلك».

قال سكيب: «لا شكراً».

سأل إدي: «ماذا في الكيس؟».

«طَرد من السفير»، قال الكولونيل.

«آه! شيء غامض!».

كعادته، كان الكولونيل يشرب من كأسين في آن معاً. لوح بكأسه الفارغة للخادم.

«سيباستيان، أنفد من عندك البوشميل؟»[1].

قال الشاب: «ويسكي بوشميل الأيرلندي على الفور».

قال بيتشفورك: «يبدو أن الخدم يعرفونك».

«لست زائراً دائماً».

أظن أنهم يوقرونك».

«ربما كنت نفّاحاً كبيراً».

نهض الكولونيل واتجه إلى الدلو الموضوع على المنضدة وملأ كأسه بمكعبات الثلج ووقف مطرقاً نحو الأرض وكأنه بصدد مشاركة الآخرين بفكرة خطرت على باله. انتظروه ليقول شيئاً، لكنه بدلاً من ذلك عبّ جرعة من كأسه.

قال بيتشفورك: «كولونيل، أتلعب الجولف؟».

ضحك إدي: «إذا جرّبت كولونيلنا هناك فسيدمر الملعب».

قال الكولونيل: «أنا أتفادى الشمس الاستوائية»، وأخذ يحدق بإعجاب في مؤخرة إحدى الخادمات وهي تضع الشاي على المنضدة النحاسية. وحين بات

(1) Bushmills: أعرق أنواع الويسكي في العالم، ينتج في أيرلندا ويحمل اسم الشركة التي تنتجه.

الجميع يحملون فنجاناً أو كأساً بأيديهم رفع نخباً: «إلى الهوك الأخير، عساه يملأ قبره عما قريب».

صاح الآخرون: «الهوك الأخير».

تجرع الكولونيل جرعة كبيرة، ثم قال: «فليكن العدو جديراً بنا».

قال بيتشفورك مؤيداً: «صحّ لسانك!»[1].

حمل سكيب الكيس الورقي والسلاح الرائع إلى غرفته ووضعهما على سريره، شاعراً بالارتياح للانفراد قليلاً بنفسه. كانت الخادمة قد فتحت الغرفة لكي يدخلها ضوء الشمس. أقفل سكيب النافذة وشغّل المكيّف.

فرّغ محتوى الكيس على السرير: دزينة من أنابيب اللصاق المطاطي سعة ثماني أونصات. هكذا هي مادة وجوده.

كان نظام الفهرسة الخاص بالكولونيل والمتشكل من تسعة عشر ألف بطاقة مرتّبة زمنياً من الأقدم إلى الأحدث، موزعاً على أربع نضد قابلة للطي، على جانبي جدار الحمام، أكثر من تسعة عشر ألف بطاقة بطول ثلاث بوصات وعرض خمس بوصات، تحتويها دزينة من الأدراج الخشبية التي صممت - مثلما أخبره الكولونيل - في معمل في مجمّع «سيفرونت» الحكومي في مانيلا. وعلى الأرض تحت المنضدة، صناديق يصل وزنها إلى 37 باونداً من البطاقات الفارغة، وصندوقان مليئان بآلاف النسخ من البطاقات قياس ثماني بوصات بإحدى عشرة بوصة، وهي نسخ طبق الأصل عن التسعة عشر ألف بطاقة، وقد ألصقت أربع بطاقات معاً على ورقة واحدة. وكانت وظيفة سكيب الرئيسة، مهمته الأساسية في هذه المرحلة من حياته، الهدف من وجوده في هذه الغرفة الفسيحة بجوار ملعب الجولف الصغير، هي أن ينشئ قائمة جديدة مرتبة بحسب الفئات التي حدّدها الكولونيل، ثم أن يقابل بين الأرشيفين. لم يكن لديه مساعد،

(1) Hear! Hear: تعبير إنجليزي يستعمل للموافقة والتأييد وإبداء الإعجاب بكلام أحدهم، نجده يتكرر كثيراً خلال جلسات مجلس العموم البريطاني.

ولا أي شكل من العون... كانت هذه مكتبة الكولونيل الاستخبارية الخاصة، كنزه السري. وقد زعم أنه قام بكل النسخ بمفرده، وأن سكيب هو الوحيد سواه الذي لمس هذه الأسرار.

قطّاعة الورق الضخمة الشبيهة بالمقصلة، والصفوف الطويلة من أنابيب اللصاق المطاطي. ودزينة الأدراج الغليظة التي يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أقدام كتلك التي يجدها المرء في المكتبات، كل واحد منها حفر على واجهته رقم رباعي...

2242

...رقم الحظ بالنسبة إلى الكولونيل: 2 فبراير 1942، تاريخ فراره من قبضة اليابانيين.

سمع الكولونيل يخبر قصة، وقد ملأ صوته الهادر البيت مصحوباً بضحكات الآخرين. كان ساندز يحسّ بحضور عمه بيأس بنّاتي مخز. كيف سيتمكن من الارتقاء إلى أن يكون شخصاً بمثل حزم الكولونيل فرانسيس ساندز وهيبته؟ في فترة مبكرة من حياته تعرف نفسه كشخص هشّ وحسّاس وقرر أن يعثر على أبطال يكونون مثلاً له. كان جون أف كينيدي واحداً منهم، ولنكلن، وسقراط، وماركوس أوريليوس[1]... ابتسامة الكولونيل تلك وهو يعاين البندقية- أكان يعرف مسبقاً أن سكيب سيحصل عليها؟ أحياناً يبتسم الكولونيل بطريقة معينة - تستفزه- لاوياً شفتيه بطريقة واعية.

قبل مدة طويلة من التحاقه بعمه في المخابرات - في حقيقة الأمر حتى قبل وجود السي آي أيه- جعل سكيب في طفولته من فرانسيس ساندز أسطورته الشخصية. كان هذا الأخير يرفع الأثقال ويلعب الملاكمة وكرة القدم. كان طياراً ومحارباً وجاسوساً.

في بلومينجتون، في ذلك اليوم قبل تسع سنوات، سأله موظف التجنيد: «لماذا

(1) Marcus Aurelius (121–180): إمبراطور روماني وفيلسوف، صاحب كتاب «التأملات».

ترغب في الانضمام إلى الوكالة؟».

«لأن عمي يقول إنه يريدني أن أكون زميلاً له».

لم ترمش عينا الموظف. وكأنه كان يتوقع الجواب: «ومن هو عمّك؟».

«فرانسيس ساندز».

عندئذ رمش الرجل: «لستَ تقصد الكولونيل؟».

«بلى. كان كولونيلاً خلال الحرب».

قال الرجل الآخر: «من يكن كولونيلاً يوماً، يبقَ كذلك».

كان في سنته الجامعية الأولى، في الثامنة عشرة من عمره. وكان انتقاله ذاك إلى جامعة إنديانا أول انتقال له منذ العام 1942، عندما قامت أمه، بعد مقتل أبيه على متن «أريزونا»[1] في بيرل هاربور، باصطحابه إلى سان دييجو، كاليفورنيا، إلى سهول طفولتها في كليمنتس، كانساس، لكي يمضي بقية طفولته معها في البيت الهادئ، في خضم ذلك الحزن الذي لم يعرف ماهيته. جاءت به إلى كليمنتس في بداية فبراير، تحديداً في الشهر نفسه الذي تمكن فيه شقيق زوجها فرانسيس كزافييه، النمر الطيار الواقع في الأسر، من الفرار من سفينة أسرى حرب، ومن هناك إلى بحر الصين.

بعد تخرجه وافق سكيب على الالتحاق بالسي آي أيه، لكن حتى قبل التدريب أعيد إلى الجامعة لكي يحصل على ماجستير في الأدب المقارن في جامعة جورج واشنطن، حيث ساعد المنفيين الصينيين، بترجمة مقالاتهم وقصصهم وأشعارهم التي أحضروها معهم من وطنهم الشيوعي. وكانت حفنة الصحف التي تنشر مثل هذه المواد تدار بصورة كلية تقريباً من قبل السي آي أيه. حصل على راتب شهري من «مؤسسة الأدب العالمي»، التي كانت واجهة للسي آي أيه.

(1) واحدة من ثلاث بوارج حربية أمريكية كانت تعمل اسم «أريزونا» تعرضت للقصف خلال هجوم بيرل هاربور الذي شنه اليابانيون على الأسطول الأمريكي في السابع من ديسمبر 1941، والذي كان السبب في دخول أمريكا بصورة مباشرة إلى الحرب العالمية الثانية.

عند ذكر عمه في ذلك اليوم من العام 1955، ابتسم كلا الموظفين، وكذلك سكيب، فقط لأنهما ابتسما. قال الرجل الثاني: «إذا كنت مهتماً بالعمل معنا، فأظن أننا نستطيع استقبالك».

وقد فعلوا ذلك بالتأكيد. وها هي تلك المهنة الموعودة تمتد أمامه: تسعة عشر ألف بطاقة من المقابلات التي لم يكن أيّ منها مفهوماً بالنسبة إليه –

دوفال، جاك (؟) مالك 4 قوارب صيد (هيليوس، سوفينير، ديفينيت، رينار)] في خليج دا نانج[زوجته] تران لو (لوو؟؟)[inf st، قوارب للاستعمال الإجرامي/ التجسسي. لا يحقق ربحاً من الصيد. سي أكس آر.

– الأحرف الثلاثة الأخيرة هي اختصار لاسم المحقق الذي كتب البطاقة. وقد اعتاد سكيب على إضافة ملحوظات تخصه، اقتباسات من أقوال أبطاله – «لا تسأل ماذا يمكن أن يقدّم بلدك لك...»– بطاقات سجل عليها جي أف كي، لنكلن، سقراط، والمجموعة الأكثف من البطاقات تتضمن اقتباسات عن «تأملات» ماركوس أوريليوس، الرسائل التي كتبها لنفسه الإمبراطور الروماني المسنّ، المحاصر والوحيد قرب انهيار إمبراطوريته، في القرن الثاني بعد ولادة السيد المسيح.

لا شيء يعدّ نافعاً للإنسان ما لم يعنه على أن يكون عادلاً، ومنضبطاً، وشجاعاً، ومستقلاً؛ ولا شيء يعدّ سيئاً ما لم تكن له نتيجة معاكسة . م. أ. ت (ماركوس أوريليوس، التأملات).

مع اقتراب سكيب من حجرة الطعام، بدا أن بيتشفورك يهتف: «صحّ لسانك!».

كانوا يتناولون السمك والأرز. جلس سكيب أمام طبق فارغ إلى يسار الكولونيل، وجلب له الخادم الطعام. أكلوا على الضوء الخافت المنبعث من الشمعدانات. عندما انقطعت الكهرباء بالكاد تغيّر جو المكان، توقّف فحسب

أزيز مكيفات الكهرباء في الحجرات، وهدير مروحة السقف في الردهة.

في الأثناء، انحنى الكولونيل إلى الأمام، وشوكته شبه معلقة في الهواء، ممسكاً بقدحه بإحدى يديه وكأنه يثبته إلى الطاولة. تكلم بلكنة أيرلندية بوسطنية مغلفة بسنوات من العمل في القواعد الجوية في تكساس وجورجيا. «إن الهدف الوحيد الحقيقي للانسدال هو معرفة الشعب والتعلم منه[1]. إن جهوده ترقى إلى مستوى الفن».

«صحّ لسانك»، صاح بيتشفورك: «لا صلة لهذا البتة بالموضوع، إنما صحّ لسانك!».

قال الكولونيل: «إن إدوارد لانسدال هو مثال حقيقي، أقول ذلك من دون أي حرج».

قال إدي: «وما علاقته بالأسوانج أو بأي من أساطيرنا الأخرى؟».

«دعني أعد ما قلته سابقاً، وربما ستسمعني جيداً هذه المرة، إن افتتان إدوارد لانسدال الأساسي هو بالشعب نفسه، بأغنياتهم وحكاياتهم وأساطيرهم. كل ما يتأتى من هذا الافتتان يصب في خدمة المخابرات - أفهمت الفكرة؟ - كل هذا منتوج ثانوي. يا إلهي، تلك السمكة كانت هزيلة؟ سيباستيان أين سمكتي الصغيرة؟ أين ذهبت؟ هاي، أتعطيه أسماكي؟». في تلك اللحظة كان سيباستيان يسكب طبقاً ثانياً من البانجو لسكيب. وسكيب يعرف أن هذه أكلة الكولونيل المفضلة. هل كان حتى الطباخ على علم بهذه الزيارة؟ قال الكولونيل وهو يسكب لنفسه طبقاً آخر: «حسناً، لقد حصلت على حوت، سأؤجل إخباركم قصتي عن الأسوانج».

وضع سيباستيان، من دون أن يطلب منه، سمكة ثالثة في طبق الكولونيل واتجه إلى المطبخ، ضاحكاً في سرّه. في المطبخ تكلم العاملون بصوت عال ينم

(1) في إطار ما يسمى بالعمليات النفسية، المقصود التعرف على البيئة المحلية عن كثب وذلك للتمكن من وضع استراتيجيات وخطط نفسية ناجعة.

عن الحبور. فقط بوجود الكولونيل وفي ظلّ مزاحه يكتسب الفلبينيون مثل هذه الخفة. فإعجابه الجلي بهم يفقدهم صوابهم على نحو ما. وإدي أيضاً الذي فكّ أزرار سترته وانتقل من احتساء المياه الباردة إلى الشاردونيه. بدا جلياً لسكيب أن السهرة ستنتهي باحتشاد الأرضية الخشبية الملمّعة بأسطوانات الفونوجراف، بينما الجميع يتهادى راقصا الليمبو روك، واقعاً على مؤخرته. فجأة قال إدي: «لقد عرفت إد لانسدال! عملت معه عن كثب!».

أفعل حقاً؟ لم يستطع سكيب أن يفهم كيف يمكن أن يصحّ ذلك.

سأل سكيب بيتشفورك: «أندريز، ما الاسم العلمي لهذا السمك؟».

«البانجوس؟ اسمه ميلك فيش. إنه يتكاثر أعلى النهر، لكنه يعيش في البحر. شانوس سالمونيوس».

قال إدي: «بيتشفورك يجيد لغات عدة».

كانت البانجوس شهية، يشبه طعمها سمك السلمون المرقّط، وغير زنخة على الإطلاق. وقد ساعدت «أيه دي دي» على وضع مفرخة في قاع الجبل. أكل الكولونيل بثبات وحذر، مجرداً لقيمات السمك من الأشواك الصغيرة بشوكته ومتبعاً إياها بعدة جرعات من الويسكي. عاداته لا تتغير: بعد الخامسة مساء يشرب بغزارة ودونما اعتبار. وكان افتراض العائلة المسكوت عنه أن الأيرلندي مدمن على الكحول؛ إنما معاقرة الخمرة قبل الخامسة تعدّ بالنسبة إليه أمراً غير منضبط ومنحلاً وأرستقراطياً. قال الكولونيل لإدي: «احكِ لنا حكاية عن الأسوانج».

«حسناً»، قال إدي متقمصاً من جديد، كما ظنّ سكيب، بعض سمات شخصية هنري هيجينز التي أداها على المسرح: «لنر، في قديم الزمان – هكذا تبدأ هذه الحكايات – عاش شقيق وشقيقته مع أمهما، التي كانت في واقع الأمر أرملة بعد موت زوجها في حادث مأساوي. آسف لا أذكر طبيعة هذا الحادث، لكنني واثق من أنه كان بطولياً. آسف، لم تنذروني مسبقاً لكي أستشير جدتي! ولكن على أية حال سأحاول أن أتذكر الحكاية. هناك طفلان، شقيق وشقيقته، والآن

أعتذر مجدداً، لأنهما في الحقيقة كانا يتيمين تماماً، فقد قتل كلا والديهما، ولم تكن تلك المرأة أمهما، بل عمة أمهما العجوز التي كانت تربيهما في كوخ يقع على بعض المسافة من قريتنا في لوزون[1]. وربما كانت قريتنا نفسها في سان ماركوس، لا أستبعد ذلك على الإطلاق. كان الصبي قوياً شجاعاً، والفتاة جميلة لطيفة. أما العمة... حسناً يمكنكم أن تخمنوا... فكانت تحب تعذيب الطفلين الرائعين عبر إجبارهما على القيام بالكثير من المهمات، وتعنيفهما دوماً، وضربهما بالمكنسة لحثهما على الإسراع في العمل. وكان الشقيقان يطيعانها من دون شكوى، لأنهما في الحقيقة مطيعان.

«كانت القرية تعيش بهناء منذ وقت طويل، إلا أن لعنة نزلت بها قبل مدّة، وبدأ الأسوانج المتعطش للدماء يلتهم الحملان وصغار الماعز، والأسوأ من هذا كله، يلتهم الأطفال الصغار، ولاسيما الفتيات منهم، فيأتي أحياناً على هيئة خنزير بري عملاق ذي أنياب متوحشة، وأحياناً حتى على هيئة طفل جميل يقوم باستدراج الصغار إلى الظلال ويمتص دماءهم البريئة. حلّ الرعب بسكان المنطقة، وما عادت الابتسامة تعرف إلى وجوههم طريقاً، وصاروا يلازمون ديارهم ليلاً قرب الشموع، ولا يخرجون قطّ إلى الغابة، أو الأدغال، لكي يجمعوا الأفوكادو أو أي من النباتات المثمرة، أو لصيد الحيوانات. وصاروا يجتمعون في المعبد عصر كل أربعاء لكي يصلوا لموت الأسوانج، إلا أن شيئاً من هذا لم يأت بنتيجة، وحتى إن بعضهم كان يقتل بطريقة دموية خلال عودته من المعبد.

«إذن، وكما يحدث في مثل هذه القصص، ظهر قديس للشقيقين، القديس جابرييل، الذي جاء ذات يوم مرتدياً أسمال رجل جوال آت من الأدغال. التقى الشقيقين عند البئر حين خرجا للإتيان ببعض الماء، وأعطى الصبي قوساً وجراباً من السهام – ماذا تسمون الجراب؟».

(1) Luzon: أكبر جزر الفلبين وعاصمتها مانيلا. تشكل مع بيسايا (مجموعة الجزر الوسطى) ومنداناو (مجموعة الجزر الجنوبية) ما يعرف بأرخبيل الفلبين.

قال بيتشفورك: «جعبة».

«جعبة من السهام. إنها عبارة جميلة في حقيقة الأمر. أعطى الفتى جعبة من السهام وقوساً متيناً جداً وأمره بالبقاء طوال الليل في صومعة الحبوب الواقعة في أسفل الدرب، لأنه هناك سيقتل الأسوانج. كانت الكثير من القطط تحتشد في الصومعة ليلاً، ولم يكن الأسوانج إلا واحداً منها، وقد اتخذ هذا الشكل بقصد التمويه. سأل الفتى الرجل: ولكن يا سيدي كيف سأتعرف الأسوانج لأنك لم تعطني سهاماً تكفي لقتل جميع القطط؟ فأجاب القديس جابرييل: إن الأسوانج لا يلعب مع الفأر حين يمسك بواحد، بل يقطعه إرباً على الفور ويحتفل بدمه. حين ترى قطاً يفعل ذلك، فعليك بقتله فوراً، لأنه سيكون هو الأسوانج. بالطبع، إذا أخفقت، فليس من الضروري أن أخبرك بأنك ستشعر نفسك تتمزق أشلاء بين أنياب الأسوانج، وسيشرب دمك وأنت تحتضر».

«قال الصبي: لست خائفاً، لأنني أعرف أنك القديس جابرييل متقنّعاً، لست خائفاً وبمساعدة القديسين، لن أخفق».

«حين عاد الصبي إلى البيت حاملاً السهام وما إلى ذلك، رفضت عمة أمه الراحلة السماح له بالخروج ثانية. قالت إن عليه النوم في سريره. وهاجمته بالمكنسة وأخذت منه سلاحه وأخفته في سقف الكوخ. بيد أنها كانت تلك المرة الوحيدة التي لا يطيع فيها الصبي عمته، فقام بسرقة السهام ثانية، وتسلل خارجاً إلى الصومعة مهتدياً بضوء شمعة واحدة، وانتظر في الظلال، وأؤكد لكم أنها كانت ظلالاً مخيفة! وكانت أطياف الفئران تهرول سريعاً بين الظلال، وكذلك ظلال القطط، زهاء ثلاث دزينات من القطط. فأي منها هي الأسوانج؟ ما حدث هو أن نابين أخذا يومضان ببريق أحمر في ظلمة الليل، وسمع هسيس الأسوانج، ثم صرخة، وفي اللحظة التي انقض فيها شيء ما على رقبته، أطلق الفتى سهماً وسمع صوت ارتطام حين وقع الكائن أرضاً، ثم سمع صوت مواء مخنوق، ثم خرمشة براثنه وهو يزحف مجروحاً بحثاً عن الاحتماء في موضع ما. وعندما

بحث البطل الصغير في أرجاء المكان وجد القائمة المقطوعة لقط عملاق، وقد برزت منها البراثن القاتلة، كانت القائمة الأمامية اليسرى، وقد اخترقها سهم الفتى.

«عاد البطل الصغير إلى البيت، ووبخته مربيته العجوز الدميمة. كانت شقيقته مستيقظة أيضاً. قدمت لهما العمة الكبرى الشاي وبعض الأرز. سألته شقيقته: إلى أين ذهبت يا أخي؟ فقال: قاتلت الأسوانج يا أختاه وأظن أنني جرحته. وقالت الأخت: يا عمتي الحبيبة.أنت أيضاً كنت غائبة في الليل، فأين كنت؟

«أنا؟ قالت العمة الحبيبة، «لا، لقد كنت هنا طوال الليل»، لكنها قدّمت الشاي بسرعة، وتحججت بشيء ما لكي تذهب وتنام.

«لاحقاً في ذلك اليوم، وجد الشقيقان العجوز معلقة على شجرة في الخارج. وتحتها تجمع الدم، متقطراً من الموضع الذي بترت فيه ذراعها. قبل ذلك، حين سكبت لهما الشاي، أخفت تحت ردائها منظر الذراع المقطوعة، ثم أخذت تنزف حتى الموت دمها السام ذاك».

قال إدي: «هذه حكاية قديمة، لقد سمعتها مرات عدة. إلا أن الناس يؤمنون بأنها حصلت حقاً، والآن يظنون أنها حدثت هنا، يوم أمس، هذا الأسبوع، يا إلهي»., قال وهو يسكب لنفسه المزيد من النبيذ، هازاً الزجاجة فوق كأسه فيما صفق له جمهوره الصغير: «أتراني جلست هنا أحكي حتى شربت الزجاجة كلها؟»..

كان الكولونيل بدأ يفتح زجاجة ثانية، ورفع نخبه لإدي قائلاً: «ثمة أيرلندي فيك يا صاح، اليوم هو عيد ميلاد الكومودور أندريز بيتشفورك، مرحى!».

قال إدي: «كومودور؟ أنت تمزح؟».

«أمزح بشأن الرتبة، لا بشأن عيد الميلاد. بيتشفورك، أتتذكر أين كنت في عيد ميلادك قبل أربعة وعشرين عاماً؟».

قال بيتشفورك: «قبل أربعة وعشرين عاماً بالضبط كنت أهبط بالمظلة إلى

مكان ما في الصين في ليلة دامسة الظلمة. لم أكن أعرف حتى اسم المقاطعة، ومن الذي كان يقود الطائرة التي قفزت منها؟ من الذي أعطاني نصف دزينة من ألواح الحلوى وركلني إلى الفضاء؟ وعاد إلى مقعده المريح!».

«ومن لم يتمكن من النجاة، لأن الأوغاد تمكنوا من إسقاطي؟ ومن الذي قدمتَ له بيضة مسلوقة في معسكر الاعتقال بعد عشرين يوماً؟».

أشار بيتشفورك إلى الكولونيل: «لا لأنني كريم، بل لأنه كان عيد ميلاد هذا المسكين».

جلس إدي فاغراً فاه: «نجوت من قبضة اليابانيين؟».

أرجع الكولونيل كرسيه إلى الوراء ومسح وجهه بمنديله. أخذ يتعرّق، وعيناه تطرفان، «بما أنني كنت ضيفاً غير مكرم عند اليابانيين... كيف أقول ذلك.. فإنني أعرف معنى أن تكون أسيراً. لأعد صياغة كلامي - لأعد صياغة كلامي - لحظة واحدة أعيد خلالها صياغة كلامي...». أخذ يحدّق ببلادة من أسفل عينيه، شاخصاً نحو سكيب على وجه التحديد، في حين شعر الأخير بالانزعاج لاقتناعه بأن الكولونيل نسي نفسه وسيغير الموضوع الآن بطريقة هاذية.

استحثه ساندز، إذ لم يستطع مقاومة ذلك: «كنت تقول اليابانيين».

جلس الكولونيل بعيداً عن المائدة، وقد باعد بين رجليه، مثبتاً كأسه على فخذه بيده اليمنى، وظهره مستقيم تماماً، والعرق ينحدر على وجهه المتورّد. هذا رجل عظيم، قال ساندز لنفسه. قال لنفسه ذلك بوضوح إنما بصمت: رجل مكلل بالعظمة المعذّبة. في مثل تلك اللحظة لم يسعه الحيلولة دون إسباغ طابع مأساوي على الموقف، لأنه كان بالغ الروعة.

قال الكولونيل: «نقص عندهم السيجار»، أوحى موقفه الصلب المنضبط بالأسى، ولكن ليس بالضرورة بالثقة بالنفس. كان ثملاً في نهاية المطاف. وكان يتعرق إلى حدّ أنه بدا وكأنهم ينظرون إليه من خلال زجاج مكسور. إلا أنه حافظ على رباطة جأشه.

وجد ساندز نفسه يتكلّم في سره من جديد: حيثما قادتنا هذه الرحلة، فسأمضي فيها.

قال بيتشفورك: «في تلك الحرب، كنت أعرف بالضبط من أكره. كنا نحن من نخوض حرب العصابات. كنا نحن الهوك. وهذا ما نحتاج إلى أن نكونه لكي نهزم أولئك الأوغاد في فييتنام. لانسدال يثبت ذلك، إذا أردتم رأيي. نحتاج إلى أن نكون نحن الطرف الذي يخوض حرب العصابات».

قال الكولونيل: «سأخبركم من نحتاج إلى أن نكون، سأخبركم ماذا تعلم إد لانسدال أن يكون: أسوانج. هذا هو إد لانسدال. أسوانج. بلى. سآخذ نفسين، وأَصحو قليلاً من الثمالة وأخبركم». أخذ نفساً بالفعل لكنه قطعه لكي يوجّه كلامه إلى بيتشفورك: «لا، لا... لا تبدأ بالصياح: صحّ لسانك».

صاح إدي: «صحّ لسانك!».

«حسناً، إليكم قصتي عن الأسوانج: في التلال هناك فوق أنجليس[1]، فوق قاعدة كلارك الجوية، جعل لانسدال الكوماندوس الفلبينيين الذين يعمل معهم يخطفون اثنين من مقاتلي الهوك خلال إحدى دورياتهم، أخذوا الولدين من نهاية المجموعة. شنقوهما وعلقوهما من أرجلهما، وجعلوهما ينزفان حتى الموت»... وضع الكولونيل اصبعيه على رقبته - «عبر ثقبين أحدثوهما في وريد العنق. وتركوا الجثتين على الدرب لكي يعثر عليهما رفاقهما في اليوم التالي، وهذا ما حصل حقاً... وفي اليوم التالي انسحب الهوك من تلك المنطقة كلياً».

«صحّ لسانك!»، قال بيتشفورك.

«الآن، فلنفكر بالأمر لبرهة، ألا يعيش أولئك الهوك في ظلال الموت على أية حال؟ كان لانسدال وقوته الضاربة يقتلونهم في معارك صغيرة بمعدل ستة مقاتلين

(1) Angeles: مدينة في الفلبين تقع في محافظة «بامبانا»، تقع على بعد ثلاثة أميا ل منها قاعدة كلارك الجوية، التي بقيت حتى العام 1975 معقلاً قوياً للقوات الأمريكية في المنطقة. اليوم هذه القاعدة أصبحت منطقة اقتصادية حرة.

شهرياً. فإذا كان التهديد اليومي الذي يمثله مطاردوهم لم يؤثّر فيهم، فماذا عن موت أولئك الولدين االلذين خطفوهما من أنجليس؟».

قال إدي: «حسناً، إنه خوف نابع من الإيمان بالخرافات، الخوف من المجهول».

قال الكولونيل: «أي مجهول؟ أقول إننا ننظر إلى الأمر بصورة عملية، أقول إنهم وجدوا أنفسهم متورطين على مستوى الخرافة. على أية حال، إن تسعين بالمئة من الحرب هو كناية عن خرافة، أليس كذلك؟ لكي نمضي في حروبنا الخاصة، نرفعها إلى مستوى التضحية الإنسانية، أليس هذا ما نفعله، ونستحضر دوماً الرب. لابدّ من أن الأمر يتعلق بشيء أكبر من الموت، وإلا لكنا جميعاً فارين من الخدمة العسكرية. أظن أننا نحتاج إلى أن نكون أكثر وعياً بذلك. أظن أننا نحتاج إلى استحضار آلهة العدو أيضاً، وشياطينه، وغيلانه. إنه يخشى آلهته وشياطينه وغيلانه أكثر مما سيخشانا يوماً».

قال إدي موجهاً كلامه لبيتشفورك: «أظن أن هذه إشارتنا حتى نقول: صح لسانك»، لكن بيتشفورك أنهى كأس نبيذه فحسب.

سأل إدي: «كولونيل، هل جئت مباشرة من سايغون؟».

«لا. ميندناو. كنت في مدينة دافاو. وزامبوانجا. وعرجت على ذلك المكان دامولوج، بلدة صغيرة في الأدغال... لقد ذهبت إلى هناك أليس كذلك؟».

«أجل، مرتين، ذهبت إلى ميندناو».

«ودامولوج؟».

«لا، لا تبدو مألوفة لي».

«يفاجئني سماع ذلك».

«لمَ؟».

«حين يتعلق الأمر ببعض الأمور في ميندناو، قيل لي إنك الرجل الذي يجدر التكلم إليه».

قال إدي: «أنا آسف، لا تسعني مساعدتك».

صفع الكولونيل وجه سكيب بمنديله: «ما هذا؟».

«قال إدي: «آه، أول من يأتي على ذكر الشارب! أجل إنه يحول نفسه إلى ويات إيرب»[1]. إدي نفسه كان يربي شارباً، على طريقة الشبان الفلبينيين، المكون من شعرات سوداء متباعدة تنتشر على المسافة التي يفترض أن ينمو فيها الشارب.

قال الكولونيل: «إن الرجل ذو الشارب يجب أن يتمتع بموهبة معينة، بمهارة خاصة، بشيء ما يبرئه من غروره. فن الرماية، حيل ورق اللعب... ماذا...».

قال أندريز بيتشفورك: «أو فن الكلمات المتناظرة»[2].

جاء سيباستيان معلناً: «الآيس كريم. يجب أن نأكله كله، وإلا فسيذوب بسبب انقطاع الكهرباء».

قال الكولونيل: «نحن؟».

«إن لم تأكلوه أنتم، فربما سنضطر إلى أن نتولى المهمة عنكم في المطبخ».

قال الكولونيل: «لا حلوى لي، إنني أغذي عيوبي».

قال إدي: آه، بحق الرب، لحظة نسيت ما هي الكلمات المتناظرة، أجل الآن عرفتها!».

عادت الكهرباء، وكابدت مكيفات الهواء لكي تعمل في أنحاء المكان. قال الكولونيل لسيباستيان: «تناولوا الآيس كريم على أيّة حال».

بعد العشاء انتقل الجميع إلى الفناء المرصوف لاحتساء البراندي وتدخين

(1) Wyatt Earp (1848–1929): ضابط شرطة أمريكي (يتميز بشاربه) خاض مواجهات مع العصابات في العديد من البلدات في الغرب الأمريكي، تحول إلى شخصية أسطورية في الفلكلور الأمريكي، ونقلت سيرة حياته ومآثره مرات عدة إلى السينما والتلفزيون.

(2) Palindromes: هو القلب الكامل لكلمة أو عبارة أو عدد، وتبقى لها قراءة واحدة سواء قرئت من اليمين أو اليسار أو بالعكس.

السيجار والاستماع إلى مبيدة البعوض الكهربائية والتكلم على الأمر الذي تجنبوا الإتيان على ذكره طوال العشاء، وهو الشيء الذي غدا حديث الجميع لاحقاً، كل يوم.

قال إدي: «يا إلهي، أؤكد لكم في مانيلا وصلتنا الأنباء في الثالثة صباحاً. وبحلول الفجر صار الجميع عارفاً بالخبر. ليس حتى عبر المذياع، بل من شخص لآخر. نزل الفلبينيون باكين إلى الشوارع».

قال الكولونيل: «رئيسنا. رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. إنه نبأ سيء، ليس إلا نبأ سيئاً».

«أخذوا ينتحبون وكأنهم فقدوا قديساً عظيماً».

قال الكولونيل: «كان رجلاً رائعاً، ولهذا قتلناه».

«قتلناه؟».

«الخط الفاصل بين الضوء والعتمة يخترق مركز كل قلب، وكل روح. ليس ثمة منا من ليس مسؤولاً عن موته».

«هذا الكلام يبدو...»، لم يرد سكيب أن يقول: دينياً. إلا أنه قاله: «هذا يبدو دينياً».

قال الكولونيل: «أنا متدين فيما يخص سيجاري. وعدا ذلك... الدين؟ لا. المسألة أكبر من الدين. إنها الحقيقة اللعينة. كلما وجد شيء جيد، شيء رائع، ننقضّ ونقضي عليه بقوة! أترون تلك الكائنات المسكينة؟»، أشار إلى الأسلاك في مبيدة البعوض التي يرتطم بها البعوض ويرفرف برهة وجيزة قبل أن يسقط. «ما كان البوذيون ليهدروا الكهرباء على هذا النحو. أتعرفون ما هي الكارما؟».

«ها أنت تصبح متديناً ثانية».

«عجباً، أجل، أقول إنها في داخلنا جميعاً، الحرب برمتها. إنه الدين، أليس كذلك؟».

«على أيّ حرب تتكلم؟ الحرب الباردة؟».

«هذه ليست حرباً باردة يا سكيب. إنها الحرب العالمية الثالثة». أمسك الكولونيل عن الكلام لكي يطفئ عقب سيجاره بكعب حذائه. ظلّ إدي وبيتشفورك صامتين يحملقان في الظلمة فحسب - إما بسبب الثمالة وإما الإرهاق من حدّة الكولونيل، لم يستطع سكيب حسم رأيه في ذلك - في حين عاد الكولونيل صافي الذهن من الغيمة التي بدا ضائعاً فيها قبل قليل. لكن سكيب هو فرد من أفراد العائلة؛ ويجب أن يظهر نفسه أهلاً لهذا. أهلاً لماذا؟ لجبل إفرست الاجتماعي هذا: أمسية عشاء وشراب مع الكولونيل فرانسيس أكس ساندز. تحضيراً لتسلق جبل عمّه، قام إلى المائدة.

«إلى أين تذهب؟».

«سأسكب لنفسي بعض البراندي فحسب. فإذا كنا في الحرب العالمية الثالثة، يستحسن بي الحصول على بعض الشراب الجيد».

«إننا في حرب عالمية منذ زهاء عشرين عاماً. لا اظن أن حرب كوريا أظهرت لنا ذلك بجلاء، أو أننا لم ننظر جيداً. غير أنه منذ انتفاضة المجر[1]، بتنا مستعدين لمواجهة حقائق الأمور. إنها حرب عالمية ثالثة سرية. إنها «أرمجيدون»[2] بالنيابة؛ صراع بين الخير والشرّ، وساحتها الحقيقة قلب كل إنسان. سأخرج الآن قليلاً عن الخط. سأقول لك يا سكيب: أحياناً أتساءل إن لم تكن معركة ألامو[3] بعينها. إنه

(1) أو ثورة المجر: وقعت عام 1956، وكانت ثورة شعبية مناهضة للسوفييت استمرت من 23 أكتوبر إلى 4 نوفمبر 1956، تعتبر من المحطات الأساسية خلال الحرب الباردة.

(2) Armageddon: أرمجيدون أو هرمجدون، كلمة مشتقة من العبرية، هار مجدون أو جبل مجدو، حيث بحسب التوراة ستقع المعركة الفاصلة بين الخير والشر أو بين الله والشيطان، وتكون بعدها نهاية العالم وهذه الهضبة تقع في فلسطين على بعد 90 كلم شمال القدس.

(3) The Battle of Alamo: كانت هذه المعركة حدثاً مفصلياً في ما عرف باسم ثورة تكساس. فبعد حصار دام 13 يوماً (23 فبراير- 6 مارس 1836)، شنت القوات المكسيكية بقيادة الرئيس الجنرال أنطونيو لوبيز دي سانتا أنا، هجوماً على إرسالية ألامو قرب سان أنطونيو دي بكسار (اليوم سان أنطونيو، تكساس) حيث تحصن عدد من الجنود التكسانيين الذين قتلوا جميعاً إلا اثنين، الأمر الذي أثار عاطفة سكان تكساس الذين تواجهوا في معركة فاصلة في 21 أبريل أدت إلى هزيمة

عالم يتداعى. أينما نظرنا حولنا نجد بلداً يصير أحمر[1]».

قال سكيب: «لكنه ليس مجرد صراع بين الخير والشر، إنه بين مجانين ومجانين. كل ما علينا فعله أن ننتظر حتى تنهار الشيوعية تحت وطأة حماقتها الاقتصادية، تحت ثقل جنونها الخاص».

قال الكولونيل: «ربما كان الشيوعيون مجانين، إلا أنهم ليسوا عديمي المنطق. هم يؤمنون بالقيادة المركزية وبالتضحية التي لا يمكن تصورها. أخشى...». ثم تجرّع من كأسه. وجعله تردده يبدو وكأنه أنهى عبارته بقول أخشى... تنحنح وقال «أنا خائف من أن هذا يجعل الشيوعيين غير قابلين للاحتواء».

هذا النوع من الكلام أزعج ساندز. فهو لا يتمتع بالمصداقية بالنسبة إليه. فها قد وجد المسرة ورأى الحقيقة هنا في الأدغال، حيث التضحيات استنزفت الإيمان الكاذب، وحيث تعفّنت القيادة المركزية، وذوت الشيوعية. لقد قضوا على الهوك هنا في لوزون، وفي نهاية المطاف سيقضون عليهم جميعاً، على جميع الشيوعيين في الأرض: «أتذكر الصواريخ الكوبية؟ لقد واجههم كنيدي. واجهت الولايات المتحدة الأمريكية السوفييت حتى أجبرتهم على التراجع».

«في خليج الخنازير ولى كنيدي الأدبار وترك رجالاً صالحين يلقون نحبهم في الوحول - لا، لا، لا، لا تفهمني خطأ يا سكيب. فأنا من مؤيدي كنيدي، وأنا وطني أؤمن بالحرية والعدالة للجميع. ولست شديد التثاقف حتى يخجلني ذلك. لكن هذا لا يعني أنني ارى بلدي من خلال غشاوة زهرية اللون. أنا رجل مخابرات يسعى وراء الحقيقة».

تكلم بيتشفورك من مكانه المظلم: «عرفت الكثيرين من الصينيين الصالحين في بورما. وقد ضحى كل طرف منا بحياته من أجل الآخر. بعض أولئك الرجال أنفسهم هم اليوم شيوعيون صالحون، وأتطلع قدماً لرؤيتهم يقتلون».

الجيش المكسيكي وإنهاء الثورة.

(1) شيوعياً.

«أنديرز أأنت صاح؟».

«قليلاً».

قال سكيب: «سحقاً، أتمنى لو لم يمت! كيف حصل هذا؟ ماذا بعد؟ ومتى سنعيش يوماً واحداً من دون أن نعود إلى قول الأشياء نفسها مرة بعد مرة».

«لا أعرف ما إذا كنت تعرف يا سكيب، إلا أن ثمة في الهيل[1] من يحسب أننا فعلنا ذلك. نحن. جماعتنا. خاصة أصدقاء كوبا الصالحين باتوا عرضة للفحص والتدقيق، نحن الذين أدرنا عملية خليج الخنازير. ثم جاء التحقيق، اللجنة، إيرل وارن[2] وراسل والآخرون- ومعهم دول أيضاً، محاولاً إبعاد جميع الشكوك. عمل جاهداً على ذلك حتى جعلنا نبدو غارقين حتى رؤوسنا في الذنب».

وقف إدي متمايلاً. كان وجهه طيفاً، غير أنه بدا مضطرباً. قال: «لا أجد لفظة باليندرومية واحدة، سوف أرحل الآن».

«أأنت بخير؟».

«أحتاج إلى قيادة السيارة واستنشاق بعض الهواء النقي».

قال الكولونيل: «أعطوه هواء».

قال سكيب: «سأرافقه إلى السيارة»، لكنه شعر بيد الجنرال تمسك بذراعه.

قال إدي: «لا حاجة إلى ذلك»، وسرعان ما سمعوا صوت محرك سيارته المرسيدس في الطرف الآخر من الدار.

صمت. ليل. ليس صمتاً. بل الطنين الجماعي لحشرات الأدغال.

---

(1) الكابيتول هيل: مبنى مجلس النواب الأمريكي، وهو إضافة إلى ذلك أحد أقدم المواقع التاريخية في واشنطن دي سي.

(2) Earl Warren (1891—1947): رئيس المحكمة الأمريكية العليا الرابع عشر وحاكم كاليفورنيا لثلاث ولايات متتالية. الإشارة هنا إلى اللجنة التي عينها الرئيس ليندون جونسون برئاسة وارن للتحقيق في ملابسات اغتيال الرئيس كنيدي، وقد عرفت هذه اللجنة باسم «لجنة وارن»، وخلصت في النهاية إلى قرار يعتبر حتى اليوم مثيراً للجدل وهو أن مقتل كنيدي هو جريمة فردية يتحملها لي هارفي أوزوالد بمفرده. ضمت لجنة وارن بين أعضائها الشيخ الأمريكي رتشارد راسل جونيور، والمدير السابق لوكالة المخابرات الأمريكية ألن والش دول، المشار إليهما في العبارة نفسها.

قال الكولونيل: «حسناً، لم أحسب أنني سأحصل على شيء من صديقنا إدي. لا أعرف علامَ ينوون. ولماذا قال إنه عمل عن كثب مع إد لانسدال؟ كان لا يزال يلبس السروال القصير في زمن لانسدال. في عام 1952 لابدّ من أنه كان طفلاً رضيعاً».

قال ساندز: «آه، في الواقع...»، مفكراً أنه عندما تستولي الحماسة على الرائد إدي يميل إلى التكلم بشيء من الشعرية، وبالتالي ليس من العدل اتهامه بالكذب.

«كيف تمضي وقتك هنا؟».

«أقوم بجولات طوال الليل مع أجوينالدو، وأتعرف على نظام البطاقات كما أمرت. تلك المهمة الفظيعة.. القص واللصق».

«حسناً، جيد جداً، أيّ أسئلة؟».

«أجل: لماذا ليس في الملفات أيّ ذكر لهذه المنطقة؟».

«لأنها لم تصنّف هنا. من الواضح أنها تتعلق بسايغون وضواحيها. وبعضها يتعلق بميندناناو، كنت قد ورثتها. أجل، أنا ضابط الفرع في ميندناناو، التي لا فرع فيها. أتحتاج إلى شيء؟».

«إنني أضع النسخ في الصناديق بعد أن أقصها لتصبح بالحجم المناسب. سأحتاج إلى المزيد من تلك الأدراج».

نهض الكولونيل وجرّ كرسيه واقترب من سكيب: «استعمل الصناديق الكرتونية فحسب، ماشي؟ سوف نقوم بشحنها عما قريب». مجدداً بدا واقعاً تحت تأثير الكحول، وقد غامت نظراته، وعلى الأرجح لو بانت ملامحه لظهر احمرار أنفه، وهي حال جميع رجال العائلة بعد الشراب، إلا أنه كان حاسم النبرة مفعماً بالثقة.

سأله: «أيّ استفسارات أخرى؟».

«من يكون ذلك الألماني، هذا إن كان ألمانيا؟».

«الألماني؟ إنه رجل إدي».

«رجل إدي؟ لكننا تناولنا الغداء معاً اليوم، وبدا أن إدي لا يعرفه البتة».

«إن لم يكن رجل إدي، فلا أعرف رجل من يكون، لكنه بالتأكيد لا يعمل معي».

«قال إدي إنك التقيته».

«إدي أجوينالدو هو المرادف الفلبيني للكذاب اللعين. أمن أسئلة أخرى؟».

«أجل: أنديرز، ما لطخ الطين هذه على الجدران؟».

«عفواً؟».

«أعني نقاط الطين تلك؟ ألها علاقة ما بالحشرات؟ أولست عالم حشرات؟».

أخذ بيتشفورك الذي أفاق من غفوته القصيرة جرعة بطيئة من البراندي، وقال: «أنا مختص أكثر بالبعوض على وجه التحديد».

قال الكولونيل: «الوباء الأشد فتكاً».

قال بيتشفورك: «أنا أكثر اهتماماً بتجفيف المستنقعات».

قال الكولونيل: «كان أنديرز يمدني بتقارير ممتازة عنك. يمتدحك أيما امتداح».

قال بيتشفورك: «إنه فتى صالح، يتمتع بالنوع المناسب من الفضول».

«هل اتصل بك أحد من جماعتنا في مانيلا؟».

«لا. إلا إذا اعتبرت وجود بيتشفورك هنا نوعاً من الاتصال».

«بيتشفورك ليس من جماعتنا».

«من هو إذن؟».

«أنا خبير سموم».

«في حقيقة الأمر أنديرز موظف فعلياً وبصورة مشرفة من قبل شركة ديل مونتي. فهم يساهمون كثيراً في القضاء على الملاريا».

«أنا مؤيد تماماً لمبيدات الحشرات وتنقية المستنقعات، لكنني لا أعرف أي كائن عضوي يمكنه تنقية تلك المستنقعات».

أرجع الكولونيل فرانسيس ساندز رأسه إلى الخلف واستنشق نصف استنشاقة من النشوق، وأخذت عيناه تطرفان في العتمة، ثم سعل وقال: «والدك – أخي– فقد حياته في ذلك الهجوم الخسيس الذي شنه اليابانيون على بيرل هاربور. ومن كانوا حلفاؤنا في تلك الحرب؟».

«السوفييت».

«ومن عدونا هذه الليلة؟».

عرف سكيب مغزى الكلام «السوفييت. ومن هم حلفاؤنا؟ اليابانيون الخسيسون».

قال بيتشفورك: «ومن كنت أقاتل في أدغال مالايو في عامي 51 و51؟ المقاتلون الصينيون أنفسهم الذين ساعدونا في بورما في عامي 40 و41».

قال الكولونيل: «علينا الاحتفاظ بقيمنا، ونحن نقودها بين منعرجات التيه. بل عبر الميدان المزروع بالعوائق. ميدان من الوقائع القاسية كالجحيم».

قال سكيب: «صحّ لسانك!». لم يكن يحب حين يسبغ عمه على الأمور الجلية بعداً مأساوياً.

قال بيتشفورك: «إن المثابرة هي أساس الانتصار».

قال الكولونيل: «من يصل قبل الآخر؟».

«لكن في النهاية، إما الحرية وإما الموت».

رفع الكولونيل كأسه الفارغة محيياً بيتشفورك: «في فورتي كيلو، شغّل بيتشفورك جهاز لاسلكي بلوري[1]، طوال سبعة شهور، وحتى اليوم يرفض أن يخبرني أين كان يخبئه. كان هناك على الأقل اثنا عشر وغداً يابانياً في المعسكر مهمتهم الوحيدة محاولة تحديد موقع هذا الجهاز ليل نهار». كانت «فورتي كيلو» محطة سكة الحديد البورمية التي اعتقل فيها اليابانيون أسراهم في 1941 «كنا نستعمل

(1) Crysral Radio: أحد أكثر أشكال أجهزة الاستقبال اللاسلكية بدائية، سمي كذلك بسبب المكون الأساسي فيه وهو ما يعرف باسم «المكشاف البلوري».

أصداف جوز الهند كأوعية للأرز، كل واحد منا كانت له صدفته الخاصة». مدّ يده وأمسك بإحكام معصم ابن أخيه.

قال سكيب: «آخ... هل شردتُ عما تقول؟».

«أجل». قال الكولونيل محدقاً.

قفز سكيب لكي يفتك من قبضة عمه: «كولونيل، إن الملفات تتعلق بسايغون في مرحلة ما، أليس كذلك؟».

حدّق به الكولونيل في العتمة، وهو يتحرك ببطء، معدلاً طريقة جلوسه تعديلات بسيطة، وكأنه يوازن رأسه على رقبته. وكنوع من التمرين على التركيز راح يعاين عقب سيجاره، متفحصاً كم بقي منه، ثم بدا أنه انتعش واعتدل في جلوسه.

قال ساندز: «كنت أعمل على تحسين لغتي الفرنسية. عيّني في فيتنام».

«كيف هي لغتك الفيتنامية؟».

«تحتاج إلى صقل».

«أنت لا تعرف كلمة واحدة منها».

«سأتعلم، أرسِلني إلى معهد اللغات في كاليفورنيا».

«لا أحد يرغب في الذهاب إلى سايغون».

«أنا أرغب. ضعني في مكتب هناك. وسأتابع عملي على بطاقاتك. عيّني أميناً على هذه البطاقات».

«وجّه كلامك لمؤخرتي، رأسي يؤلمني».

«سأجعل كل المعلومات طوع بنانك بلمسة واحدة، ليس عليك سوى أن تفلفش بإصبعيك قليلاً وستجد المعلومة المطلوبة أمامك».

«أأنت مولع إلى هذه الدرجة بالملفات؟ أوقعت تحت سحر اللصاق المطاطي؟».

«سوف نهزمهم، وأريد المشاركة في ذلك».

«لا أحد يرغب في الذهاب إلى سايغون. ما تريده هو تايوان».

«أيها الكولونيل، بكل احترام سيدي، ما ألمحت إليه قبل قليل غير صحيح البتة، لأننا سوف نهزمهم».

«لم أقصد أننا لن نهزمهم يا سكيب، قصدت أننا لن نهزمهم بطريقة آلية».

«أدرك ذلك، وأتوقع منهم أن يكونوا جديرين بنا».

«آآآه– رغم كل الجهود التي بذلتها، فلست إلا واحداً من أولئك الفتية الجدد. أنتم نسل مختلف».

«أرسِلني إلى فييتنام».

«تايوان. هناك العيش جيد وستلتقي جميع الناس وهم يرتقون في الحياة. أو مانيلا. مانيلا هي الخيار الثاني».

«لغتي الفرنسية تتحسن، وأنا أقرأ جيداً، ولطالما فعلت. أرسلني إلى معهد اللغات وسأذهب إلى سايغون وأنا أنطق اللغة كأهل البلد».

«دعك من ذلك. سايغون هي باب دوار، الجميع يدخل إليها ويخرج منها».

«أحتاج إلى أربطة مطاطية. أربطة كبيرة سميكة. أريد تصنيف البطاقات وفقاً للمناطق، حتى تأتي لي بمزيد من الأدراج، والمزيد من المناضد الخاصة بالبطاقات. أمّن لي غرفة وحاجبين في سايغون. وسأكتب لك موسوعة».

ضحك الكولونيل ضحكة منخفضة سريعة متكلفة تشوبها السخرية، إلا أن سكيب عرف أنها دلالة على الرضا. «حسناً يا ويل، سأرسلك إلى معهد اللغات، سندبّر هذه المسألة. ولكنني أولاً أريدك القيام بهمة من أجلي. ميندناو. ثمة فرد هناك أريد المزيد من المعلومات عنه. أتمانع بممارسة بعض التطفّل هناك؟».

تغلب ساندز على موجة خوف عابرة اجتاحته واندفع قائلاً: «أنا رجلك يا سيدي».

«اذهب إلى هناك. ضاجع الأفاعي. كل لحماً بشرياً. تعلم كل شيء».

«هذا نطاق واسع جداً».

«ستجد هناك رجلاً يدعى كارينجنان، وهو قس يعيش هناك منذ عقود طويلة. الأب توماس كاريجنان، ستجده في الملفات. اقرأ جيداً المعلومات المتعلقة به. إنه أمريكي يعيش في الأرياف النائية هناك، إنه كاهن. وهو يحصل على السلاح أو ما شابه».

«ما معنى هذا؟».

«حسناً، لا أعرف ما معناه. هذه هي المعلومة. يحصل على أسلحة. لا مزيد من المعلومات».

«ثم ماذا؟».

«فلتذهب إلى هناك، ولتقابل الرجل، يبدو أننا سننهي الملف».

«ننهيه؟».

«سنمهّد الأرض لذلك. هذه هي الأوامر».

«كلمة إنهاء تبدو...»، لم يستطع إكمال العبارة.

«تبدو؟».

«يبدو أن الأمر يتجاوز الملفات».

«ستمر شهور قبل اتخاذ القرار. في الأثناء نريد أن تكون الأمور في نصابها الصحيح. إذا اتخذ قرار تنفيذي فهذا لا يعنينا. تقضي مهمتك بأن تمدّني بالتقارير فحسب. ستبث تقاريرك عبر إذاعة صوت أمريكا في ميندناو».

«ثم تجعلني مصنّف ملفاتك في فيتنام؟».

«فيتنام. من الأفضل أن تشحن بندقيتك إلى أمك. لم نعد نوزع مثل هذه الذخيرة».

«سحقاً، أظن أنني سأحتسي كأساً أخرى من البراندي».

مدّ الكولونيل كأسه فيما سكب سكيب الشراب «هذا نخب، إنما ليس نخب فيتنام. نخب ألاسكا. مرحى!».

رفع أنديرز وسكيب كأسيهما.

«هذه مصادفة سعيدة، لأنني أردت تكليفك بمهمة صغيرة، وأظن أن سلوكك في هذا المجال مثالي مثلما توقعت لك، ثم ستكون لديّ كل الأسباب الموجبة لنقلك».

«أتلاعبني؟ أكنت تلاعبني طوال الليل؟».

«طوال الليل؟».

«لا، ليس طوال الليل، منذ...».

«منذ متى يا سكيب؟». سحب مجة من سيجاره فأضاء وجهه برتقالياً في العتمة.

«أنت ممثل هزلي؟».

«ألاعبك؟».

«منذ كنت في الثانية عشرة».

قال الكولونيل: «ذهبت مرة إلى ألاسكا كما تعرف. قطعت طريق ألاسكا – كندا التي بنوها هناك خلال الحرب. رائعة. لا أقصد الطريق، بل المناظر. كانت الطريق الجبارة مجرد خدش عديم الأهمية في قلب تلك المناظر الطبيعية. لم ترَ يوماً عالماً كهذا العالم. إنه ينتمي إلى الرب الذي كان رباً قبل الكتاب المقدّس... الرب قبل أن يصحو ويرى نفسه... الرب الذي كان يعيش كابوسه الخاص. ليس من غفران هناك. ارتكب خطأ صغيراً فحسب هناك وتلك الطبيعة ستطحنك طحناً، وأعني فوراً يا سيدي». نظر الكولونيل حوله بشيء من الشرود، وكأنه لا يتعرف إلا جزئياً المكان المحيط به. حرص ساندز على ألا يبدو شديد الإرباك. تابع الكولونيل: «التقيت سيدة تعيش هناك منذ سنوات طويلة – أعني لاحقاً، أي في عيد الميلاد الماضي فحسب، حين تشرفت بلقائها. امراة مسنة الآن، وقد أمضت شبابها ومعظم كهولتها إلى جوار نهر يوكون. أتيت على ذكر ألاسكا، ولم تعلق سوى بالقول: إنها أرض نسيها الرب».

قال: «أيها المعلونان المهذبان، أفهم صمتكما على أنه احترام، وأقدّر ذلك،

أتريدانني أن أصل إلى ما أريد قوله؟ جعلني تعليق السيدة أفكر، كلانا له الخبرة نفسها بذاك المكان: إننا نتكلم على ما هو أكثر من مجرد بيئة غريبة. كلانا شعر بإرادة رب غريب. وقبل أيام قليلة من ذلك اللقاء، قبل يومين على أبعد تقدير، كنت أقرأ في نسختي من الكتاب المقدس الذي أعطتني إياه ابنتي الصغيرة. وأنا أحتفظ به الآن بين أغراضي». نهض الكولونيل بصورة نصفية ثم عاود الجلوس «لكنني سأوفر عليكما المزيد. ما أريد قوله هو... آها، أجل - ثمة ما يود الوغد قوله وليس ثملاً إلى حدّ ألا يتمكن من ذلك - «هذه هي النقطة يا ويل» - لا أحد سواه كان يناديه ويل، «يقول القديس بولس إن هناك إلهاً واحداً، يؤكد ذلك، لكنه يقول: هناك إله واحد إنما العديد من الإرادات الإلهية، أفهم أن هذا يعني أنك تستطيع الخروج من كون والدخول في آخر بمجرد أن توجه قدميك وتمضي قدماً. أعني يمكنك الوصول إلى أرض يكون فيها مصير البشر مختلفاً كلياً عما كنت تحسبه. وهذا الكون المختلف كلياً مدار من قبل الأرض نفسها، مباشرة من التراب، اللعنة».

قال: «وإذن ما القصد هنا؟ القصد هو فييتنام. القصد هو فييتنام. القصد هو فييتنام».

في نهاية سبتمبر استقل ساندز القطار من البلدة الواقعة في قاع الجبل واتجه إلى مانيلا. كان الحرّ شديداً. جلس بجوار نافذة مفتوحة. أخذ الباعة يصعدون إلى القطار في محطات التوقف حاملين شرائح المانجو والأنانس والسجائر والعلكة التي يبيعونها بالمفرق من علب مفتوحة. حاول أحد الفتية أن يبيعه صورة فوتوغرافية من بوصة مربعة واحدة تطلبه وقتاً ليفهم أنها تمثل عضواً تناسلياً أنثوياً وقد صوّر عن كثب.

تلقى تعليمات بألا يقصد السفارة أو يتصل بأحد في مانيلا بخصوص مهمته. كان يمكن أن يبحث عن الرائد لكنه تلقى تحذيراً بضرورة تجنب إدواردو أجوينالدو.

غير أنه ليس محظوراً عليه الذهاب إلى نادي الضباط في مجمّع «سيفرونت»، كما أنهم يقدّمون هناك أفضل شرائح لحم الخنزير التي تذوقها في حياته. بعد وصوله إلى المحطة في مانيلا شق طريقه مسرعاً لكي يتفادى المتسولين والنشالين الذين يدسون أيديهم اليمنى في جيوبه بحثاً عن محفظته، وركب سيارة أجرة تفوح منها رائحة الوقود إلى المجمع في جادة ديوي.

في نادي سيفرونت المزود بالتكييف الهوائي، كان يمكنه أن يرى من الواجهة الجنوبية الشمس وهي تهبط في خليج مانيلا، أو أن يلقي نظرة من الواجهة الشمالية المقابلة إلى بركة السباحة. كان ثمة شابان متينان، على الأرجح جنديا مارينز يعملان حارسين في السفارة، يمارسان القفز من لوح البركة، متشقلبين، وسابحين على ظهريهما. صدمه منظر امرأة أمريكية سوداء الشعر ترتدي ثوب سباحة بنياً مائلاً إلى الصفرة من قطعتين، مرقطاً كجلد الفهد. كان عملياً بيكيني فرنسياً. وكانت تتكلم إلى ابنها المراهق المستلقي على كرسي البحر محملقاً في قدميه. لم تكن يافعة، إلا أنها كانت رائعة الجمال. جميع النسوة الأخريات حول البركة ارتدين ثوب سباحة من قطعة واحدة. كان سكيب يخشى النساء. وصلت شرائح اللحم، طرية ندية. لم تكن له خبرة كافية في الطهي تمكنه حتى من تخمين طريقة إعداد شرائح اللحم على هذه الشاكلة.

في أثناء مغادرته ابتاع رزمة من سجائر «بنسون وهدجز» المعروضة عند صندوق المحاسبة، ومع أنه لا يدخن، إلا أنه كان يحب تقديم هذه السجائر للآخرين.

منتظراً سيارة أجرة عند مدخل النادي، وقف في ضوء الغروب ناظراً إلى الأرض الشاسعة حوله، إلى أشجار الجكرندة والأكاسيا، والسور المدبب في أعلاه، وإلى العلم الأمريكي عند مدخل المجمّع. أحسّ، لدى رؤيته العلم، بغصّة دمع في حلقه. في الشرائط والنجوم تجتمع كل عواطف حياته لتنتج ذلك الألم الذي يحب به بلاده – الذي يحب به الوجوه القذرة المسطحة البريئة للمجندين الأمريكيين

في صور الحرب العالمية الثانية، والذي يحب به صفحات المطر التي تتموج فوق الملاعب الخضر مع اقتراب نهاية العام الدراسي، والذي يختصر إعزازه بالذكريات المحسوسة لأيام الصيف في طفولته، مواسم الصيف العديدة في كانساس، لعب كرة القدم، الوقوع دونما أذية على العشب، الحرّ الذي يضرب الرأس، الشوارع الدائخة في الأصائل القائظة، الظلال الكثيفة المحسوسة لأشجار الحور الضخمة، دمدمات أجهزة الراديو وراء عتبات النوافذ، طنين أجنحة الشحارير السوداء حمراء الأجنحة، حزن البالغين في مساعيهم الغامضة في الحياة، الأصوات التي تتنقّل عبر الأفنية في الغسق والتي تتردد بعيداً وبعيداً، القطارات التي تعبر البلدة إلى السماء. كان حبه لبلاده، لأمريكا، حباً صيفياً بامتياز.

رفرف العلم في الهواء المالح، وسرعان ما توارت الشمس خلفه. لم ير يوماً في الطبيعة شيئاً شديد الأرجوانية كالغروب في خليج مانيلا. فقد ملأ الضوء المحتضر المياه والغيوم المنخفضة بحيوية مخيفة. توقفت أمامه سيارة أجرة متهلهلة، ترجّل من مقعدها الخلفي رجلان عاديي الملامح من السلك الدبلوماسي، وركب مكانهما الشاب المجهول من المخابرات.

أفاق كاريجنان متعرقاً مرتعشاً من حلم بدا إلى الكابوس أقرب، لكن ما الذي يخيف في حلم؟ كان حلماً، أو زيارة: شخص ما، راهب ما ضبابي الملامح، قال له: «إن جسدك هو الوريد الذي يضرم الشغف بين حبك للمسيح ورحمة الرب». كان قد ابتعد كثيراً عن الإنجليزية إلى درجة أن بعض العبارات بدت ممحوة حتى وهو يستعيدها في رأسه ويكرر لفظها – الشغف، الاضطرام. منذ سنوات لم يسمع كلمات من هذا القبيل. وفاجأه أن يحلم بالرحمة أو بالسيد المسيح لأن سنوات طويلة مضت منذ سمح لمثل هذه الأشياء بإدخال الاضطراب إلى نفسه.

وحشة حياتي – رحلة يهوذا المستوحدة إلى الديار.

نهض من سريره في زاوية كنيسته القديمة البالية واتجه إلى النهر البني المتقع الذي تعلوه رغوة بنية باهتة. حملق به ولدان صغيران يصطادان بخيطين وقد جلسا على الظهر العريض لثور ماء[1]. وكان ثمة ثور آخر يتمرغ في أعماق حفرة طينية بجوار ضفة النهر، فلا تظهر منه سوى فتحتا منخريه، وبعض قرنيه. منتعلاً صندله ولابساً ثيابه الداخلية، واضعاً الصابون تحت ملابسه، استحم كاريجنان بسرعة، تجنباً لالتصاق علق[2] النهر به.

خلال الوقت الذي عاد به وبدل ملابسه مرتدياً سروالاً قصيراً نظيفاً وفوقه سروالاً كاكياً وقميصاً، وواضعاً ياقته، كانت بيلار قد أعدّت الشاي.

جلس القس على جذل شجرة بالقرب من منضدة متهالكة على الأرض، تحت شجرة نخيل، ودخن أولى سجائر الصباح وشرب الشاي من فنجان صيني. قال لبيلار: «سأذهب لمقابلة عمدة دامولوج اليوم، العمدة لويس».

«ستمضي كل هذه المسافة إلى دامولوج؟».

«لا، سنلتقي في باسيج».

«اليوم؟».

«قال اليوم».

«من قال؟».

«زعيم الباسيج».

«حسناً، سآخذ كل شيء إلى منزل أختي وأقوم الغسيل هناك».

«لا قداديس حتى صبيحة الأحد». كان عليه أن يخبر بيلار فحسب حتى يعلم الجميع بذلك.

«حسناً».

«سنلتقي ثلاثة من الزعماء الآخرين. هذا بسبب المبشّر، هل تتذكرين المبشر

---

(1) Carbao: البيسون أو الثور الأمريكي.

(2) Leech: العلقة، دودة تمتص الدم، تتواجد عادة في الأنهر الاستوائية.

الذي اختفى؟».

«مبشر دامولوج».

«يظنون أنه تمّ العثور عليه».

«مصاباً؟».

«ميتاً. هذا إذا كان هو نفسه».

رسمت بيلار علامة الصليب. كانت في منتصف العمر، أرملة لها الكثير من الأقرباء من المسلمين والكاثوليك، وكانت تعتني به خير عناية.

قال: «رجاء أحضري لي حذاءي الرياضي».

يوم رمادي، إلا أنه اعتمر قبعته القش وهو يمشي الكيلومترات العشرة على الطريق الترابية الحمراء المؤدية إلى باسيج. اشتدّت الريح مؤرجحة سويقات النباتات وأشجار النخيل والبيوت، حاملة معها، كقطرات المطر، جيوشاً من الخنافس السوداء الصغيرة . لدى مرآه هتف الأولاد الصغار وفروا مبتعدين. في باسيج توجه إلى ساحة السوق، مفكراً كعادته أن الحياة ستتحسن لو عاش هنا في البلدة، إلا أنها كانت مسلمة ورفض أهلها بناء كنيسة فيها.

قبل وصوله إلى السوق انضم إليه زعيم الباسيج وزعيمان آخران من تانداي، وهي قرية تقع على التلال – الرجال الثلاثة في الستين تقريباً، يرتدون البناطيل الجينز أو الكاكية ويعتمرون مثله القبعات القش، وأحدهم يحمل حربة – انضموا إليه من الجانبين، والآن في ظل الأمان الذي توفره البلدة لهم، أخذ الأولاد يصرخون من الأكواخ المسقوفة بالقش «بادير، بادير» – «الأب، الأب». سار الرجال الأربعة معاً إلى المقهى لكي يمرّروا الوقت بانتظار وصول العمدة لويس. تناول كاريجنان الأرز مع لحم الماعز، والقهوة. تناول الآخرون الأرز والحبار.

ابتاع القس علبة من سجائر «يونيون» وأشعل واحدة، وإذا لم يحب أولئك المسلمون ذلك، فسيكون ذلك مؤسفاً، إلا أنهم جميعاً طلبوا منه السجائر، وجلسوا أربعتهم يدخنون.

كان العمدة لويس قد أرسل خبراً الأسبوع الفائت يفيد بأن الأشخاص الذين يحتفظون بجثة مجهولة وببعض المتعلقات الشخصية، أبلغوا بالعلامات التي عليهم البحث عنها للتعرف على المبشر. وقال الزعماء إنهم سيعودون إلى باسيج مع الخبر اليقين – ما إذا كانت تلك جثة المبشر أم لا؟ وذلك يوم الثلاثاء. فكّر كاريجنان إن اليوم هو الخميس. لكن هذا غير مهم.

وصلت الحافلة الصغيرة[1] من كارمن محملة بالركاب الذين تكوّموا حولها كصدفة عملاقة. يفترض أن يكون عمدة دامولوج على متنها أيضاً.

راح الناس يمرون بباب المقهى ونوافذه ويلقون أنظارهم إلى الداخل، من دون أن يدخلوا. جلس سكير طاعن في السن عديم الأسنان وحيداً على طاولة أخرى مدمدماً أغنية بينه وبين نفسه، في حين انبعثت موسيقى مختلفة كلياً من الخلف حيث احتشد بضعة فتيان حول جهاز راديو تابع للجيش الأمريكي. كانت المحطة الأوضح إرسالاً تبث من كوتاباتو. أغنيات شعبية أمريكية عمرها أشهر، وهي في غالبيتها أغنيات سريعة الإيقاعات أو حزينة.

دخل العمدة لويس المكرش القصير إلى المقهى مبتسماً، وهو يصفق بيديه، متصرفاً كأهل بلدته أنفسهم. انضم إليهم وأجال نظره في المكان.

قال بالإنجليزية: «هل سألتهم؟».

«لا».

متكلماً بلغة السيبوانو[2]، وجه لويس كلامه لساليلينج، الأكبر سناً، ذلك الذي يحمل الحربة: «أولئك الذين عثروا على الرجل الميت في نهر بولانجي».

«أجل».

«طلبنا منهم البحث عن الحذاء. أرسلنا رسماً به. وماركة القميص أيضاً.

---

(1) Jeepney: وسيلة نقل شعبية في الفلبين، صنعت في الأصل من الجيبات العسكرية التي خلفها الأمريكيون وراءهم بعد الحرب العالمية الثانية، وهي تشتهر بكثرة بهرجتها وتزيينها وازدحامها بالركاب، حتى باتت من رموز الثقافة الفلبينية الحديثة.

(2) Cebuano: ثاني أكبر إثنية في الفلبين، يتكلم أهلها لغة السيبو.

أرسلنا رسماً».

قال ساليلينج: «لديهم الرفات فحسب. والخاتم».

«أكان الخاتم في اليد اليسرى، هل هو ذهبي؟».

«لم يقولوا».

«هذه اليد، اليد اليسرى».

«لا، لم يقولوا».

«أفحصوا الأسنان؟ لديه سن محشوة بالمعدن. أأخبرتهم بذلك؟»، وضع إصبعه في فمه وسأل كاريجنان: ألديك سن كهذا. أيمكنك أن تريهم؟».

فتح كاريجنان فمه واسعاً كاشفاً عن أضراسه للزعماء الثلاثة، الذين بدوا مستمتعين بالعرض.

سأل العمدة: «هل وجدوا معدناً في أسنانه؟».

قال ساليلينج: «سنبحث عن هذا النوع من الأسنان. إنما هناك مشكلة في منطقتنا».

«لست زعيم منطقتكم. أنتم الزعماء. هذا موقعكم، لا موقعي».

«تحتاج مدرستنا إلى ترميم. السقف يحجب الشمس، لكنه لا يقي من المطر».

«قال العمدة لكاريجنان بالإنجليزية: «يريد مالاً».

قال كاريجنان: «أستطيع تكلم لغة السيبوانو».

«أعرف، لكنني أحب فحسب أن أتكلم من دون أن يفهم هؤلاء المسلمون ماذا أقول. أنا مسيحي يا سيدي، أنا سبتي[1]. إلا أننا عائلة واحدة ضد هؤلاء المسلمين».

«ذلك المبشر الضائع سبتي أيضاً، صح؟».

(1) Seventh Day Adventist: طائفة مسيحية، تسمى أيضاً الأدفنتست، تعتقد بالعودة الثانية بالمسيح، وتحتفظ بيوم السبت كيوم راحة الرب، لا يوم الأحد، كما تتمسك بحرفية الكتاب المقدّس.

«أجل، ما حدث محزن جداً لمدينة دامولو ج».
«أعط الرجل خمسين بيزو».
«أتحسب أنني أملك خمسين بيزو؟ لست ثرياً؟».
«قل له إنك ستدفع له لاحقاً».
قال لويس لساليلينج: «كم يكلف ترميم المدرسة؟».
«مئتي بيزو».
«أستطيع أن أعطيك عشرين بيزو، لكن ليس الآن، الأسبوع المقبل».
«الألواح مكلفة، على الأقل مئة وخمسون من أجل الألواح».
«لديّ ألواح في دامولوج. إذا كنتم بحاجة إلى ألواح، يمكنني تأمينها لكم».
«بعض الألواح وبعض المال».
«خمسة وعشرون بيزو».
تكلم ساليلينج إلى الآخرين. نظر لويس إلى كاريجنان، إلا أن القس هزّ رأسه. لم يفهم اللغة التي يتكلمون بها.
قال ساليلينج بالسيبوانية: «عشرة ألواح بطول عشرة أقدام على الأقل، من الألواح السميكة».
«أجل».
«وكم ستعطينا من المال؟».
«أربعون بيزو هو الحد الأقصى، ولا أقول ذلك من قبيل المساومة».
«خمسون».
«حسناً، خمسون بيزو، وعشرة ألواح غليظة، الأسبوع المقبل».
أخذ القادة يتشاورون. وصلت صاحبة المقهى، وهي امرأة محدودبة الظهر يلوح عليها الانهماك، جاءت تحمل رغيفين من الخبز للقس، وأيضاً ملعقة معدنية، وإن كان قد تناول طعامه بأصابعه كالآخرين. اعتقاداً منها أن البيض يفضلون الخبز على الأرز، كلما رأته في البلدة تمضي إلى السوق لكي تحضر له الخبز.

قال ساليلينج: «لا بأس أن تنتظروا أسبوعاً. أما الآن فعلينا العودة إلى تانداي، ثم نتسلق التلال إلى نهر بولانجي».

قال لويس بالإنجليزية: «لم يذهبوا بعد إلى النهر!».

«فهمت».

«أولئك المسلمون بطيئون. يستمتعون بإضاعة وقتنا».

كان المبشّر مفقوداً منذ ما قبل موسم المطر. وهذه الأنباء عن العثور على جثة وصلت منذ زهاء شهر.

قال ساليلينج: «نلتقي هنا بعد أسبوعين. أو نأتي إلى دامولوج. سنأتي بالجواب، وستأتون بجذوع الأشجار والمال».

«ليس أسبوعين، بل أسبوعاً واحداً رجاء! السيدة جونز تنتظر، تلك السيدة المسكينة!».

تشاور الرجال بلغتهم الخاصة ثم قال القائد: «لا، لا يمكن إنجاز ذلك في أسبوع واحد، فالمكان بعيد وأهل نهر بولانجي لا تمكن الثقة بهم. إنهم ليسوا مسلمين ولا مسيحيين. يعبدون آلهة أخرى».

شعر كاريجنان بالأسف من أجل السيدة جونز، زوجة المبشّر المفقود. خطرت له فكرة: «ربما نستطيع الذهاب نحن وتدبير أمر إعادة الجثة إلى دامولوج».

قال لويس: «أنا مستعد للسفر معك إلى تانداي، لو ذهبنا معاً، أما بالنسبة إلى عبور نهر بولانجي، فلا. لا أريد أن أموت. أريد أن أعيش طويلاً».

«حسناً».

«هل سترافقهم يا أبتاه؟».

«أجل».

«وحدك؟».

«لو كنت معهم فلن أكون وحدي».

وافقوا: سيلاقي الزعماء لويس في دامولوج بعد أسبوعين. طلب لويس جعة

سان ميغال. قال لجلسائه: «أحبّ المطاعم الكاثوليكية، في كنيستنا لا نتناول الجعة، فليست صحية». حثتهم صاحبة المطعم على تناول قطع اللحم التي سكبتها من مرطبان كبير. احتشد سكان البلدة على جانبي مدخل المقهى، محملقين بأفواه فاغرة.

قالت السيدة لكاريجنان: «يمكنني جلب الأفوكادو، تعال على الغداء وسأعد لكم ميلك شايك الأفوكادو».

تناول قضمة من لحم البيسون المتبل بالبهارات الفواح بصورة لا تصدّق. أومأ برأسه دلالة على الاستحسان، فأحضروا له طبقاً كاملاً منه. لم يكن سيئاً. إلا أن مذاقه يترك في الفم رائحة زنخة. أخذ الناس يتصايحون عند المدخل: «بادير، بادير، بادير».

خرج يهوذا وشنق نفسه.

«سأتلو صلاة للجميع»، قال لهم القس.

وقف ساليلينج وهجم على المتطفلين ملوحاً بحربته وضارباً الأرض بقدميه الحافيتين، فتراجعوا إلى الخلف.

بدأت صاحبة المكان تضرب السكير المسن الجالس إلى الطاولة المجاورة بيدها الواهنة، صارخة كلمات غير مفهومة، أما هو فبدا غافلاً عما تقول.

قال لويس: «ها، أبناء رعيتك يريدون الاعتراف».

رمى يهوذا نفسه من مكان عال وتحطم على الحجارة. تساءل ما إذا كان هؤلاء الناس، الأحياء بالكاد، يعرفون شيئاً عن الذنب. أولئك البشر الشبيهون بجذوع الماهوغاني المليئة بالعقد الذين احتشدوا لكي يعترفوا بذنوبهم. غادر مع الآخرين، والقادة يبعدون القرويين جانباً «سأصلي، على الجميع أن يصلوا. سأصلي للقديسين في الفردوس».

سيرافق القائدين القبليين إلى منطقتهم المسماة تانداي. كان ثمة جيب تولى نقلهم

إلى هناك، وبعد مسافة معينة، لم يعد ثمة طريق. سيضطرون إلى المشي. كل ما فهمه كاريجنان أن أولئك الذين يحتجزون جثة المبشّر يقيمون على ضفاف نهر بولانجي. أما مدة الرحلة للوصول إليهم، فلم تكن لديه فكرة عن ذلك. قال له الرجلان إنها خمسة وعشرين كيلومتراً، إلا أنه كان من الحماقة منه أن يسأل، إذ كيف لهم أن يعرفوا المسافة؟ ولكنهم من باب التهذيب طرحوا تخميناً: يومان من السير على الأقدام. أصرّ الرجلان على الانطلاق فوراً للوصول إلى تانداي عند المساء.

ساروا معاً حتى الظهر، وصولاً إلى ماجيندا. هناك كان القائدان لطيفين بما فيه الكفاية واستعارا جواداً من أجله، لم يكن حجمه يتجاوز المهر، وقد وضع على ظهره سرج خشبي. مشى الحيوان الهزيل الذي يحمل كاريجنان بضعة كيلومترات وراء العجائز الثلاثة، إلى أسفل الهضبة وراء حدود تانداي، ثم كان عليه أن يترجل عنه ويتسلق الدرب مع هبوط الظلمة على المنحنيات الجبلية التي لا تنتهي.

كان الممر الصاعد أعلى الهضبة واسعاً، وبهذا المعنى سهلاً، وقد قام القرويون بتمهيده، إلا أنه كان شديد الانحدار، ومشى القس متمهلاً. لقد كبر على المغامرات - كم بلغ من العمر؟ ستون، تقريباً. لم يعد يتذكر بدقة. في وسط الطريق سمعوا صفيراً منخفضاً، وانضم إليهم مرافق رابع، خاطبه بالإنجليزية: «مساء الخير أيها الأب، سوف أرافقك». عرّف الشاب نفسه بوصفه روبرتسون، وهو ابن أخ ساليلينج. لم يكن وجه الشاب جلياً في عتمة المساء.

أفكار عن يهوذا، صور الراهب، الحلم، كلها ظلت تراوده طوال اليوم. الراهب في الحلم الذي حلت سحابة فضية محلّ وجهه، ربما يجد من يفسر له من قد يكون.

وصلوا إلى قمة الهضبة واتجهوا إلى المدرسة لكي يبيتوا ليلتهم هناك. أحضر له الرجل عشاء من الأرز الأبيض المعجّن وعشبة خضراء يسمونها هواي- آن،

ومع استتباب الظلمة لم يعد هناك ما يمكن فعله سوى الإيواء إلى النوم. اضطجع كالآخرين على جنبه على الأرضية الخشبية ، من دون بساط أو غطاء. جافاه النوم. كانت رائحة الهواء مختلفة عن رائحة غرفة نومه قرب النهر المنتن بجوار باسيج، كان جو الصف المدرسي خانقاً، وقد احتشدت وريقات الموز الضخمة على النوافذ، وحتى حشرجات السحالي على عتبات النوافذ بدت غريبة. قرابة منتصف الليل بدأ المطر ينهمر ويزداد قوة، حتى بدا أن العاصفة ستطيح بالسقف المعدني، مغرقة إياهم في البداية بهديرها، ومهددة بإغراقهم بعدئذ بالمياه. وقد شقت قطرات المطر طريقها عبر فجوات السقف، فوضع كارينجان مقعدين بلصق بعضهما ونام تحتهما. تسلل القرويون الذين تعاني سقوف بيوتهم من تصدعات أكبر، إلى الصف، ولابدّ من أنهم تجاوزوا العشرين شخصاً، وحين توقف انهمار المطر، أمكنه سماع المياه وهي تهدر هابطة سفح الهضبة طوال ساعات.

أفاق عند الفجر وقد حظي بقسط لا يذكر من النوم ومضى إلى الخارج لكي يسند ظهره إلى جدار الصف. بعد المطر الليلي كان الجو منعشاً خالياً من الرياح. في تلك الساعة بدت الأرض مفتوحة جاهزة للإفشاء بسرها.

أي قربان يمكنني وضعه أسفل صليب اللص؟

أطلق ريحاً، وأخذ الأولاد الذين كانوا يسترقون النظر إليه من الزاوية يقلدون الصوت ويضحكون.

أيّ عزاء عند قدم موته؟

من دون مقدمات ولا وداع خرج القادة الثلاثة من الصف واستأنفوا مسيرهم. لم يحملوا معهم شيئاً، فلم يحمل شيئاً. مضوا شبه حفاة الأقدام، أما هو فانتعل حذاءه الرياضي.

اجتازوا منحدراً ضيقاً إلى أخدود جبلي طويل، أوصلهم إلى جبل آخر. اصطبغ خطّ الأفق بالحمرة وهبطت الشمس فوقهم حارقة الأبخرة في الأسفل مشكلة من الضباب نفسه أفقاً أكثر رهبة وأشد تعقيداً، محتشداً بالتلال والوهاد والجداول

المتلألئة، واصطبغت الأعشاب والأشجار ليس بالتدرجات اللانهائية من اللون الأخضر، بل أيضاً بالفضي والأسود والأرجواني. توقفوا في قرية من بضعة أكواخ على الهضبة المجاورة، وتناولوا القهوة والأرز. تكلم ساليلينج مع زعيم القرية باللغة البيسايانية، وسمعهما كاريجنان يتناقشان حول طلقات رصاص سمعوها من الطرف المقابل من الوادي في الصباح. قال روبرتسون: «إنه يحذرنا من قتال يجري قدماً»، وقال كاريجنان: «سمعته يقول ذلك». واستأنفوا المسير.

هبطوا من الجانب الآخر من الجبل إلى طريق واسعة مهدتها حوافر الثيران البرية. وأخذت الطريق تضيق تدريجياً حتى اضطر كاريجنان إلى ضم ذراعيه فوق صدره لكي يتفادى لسع الأشواك على الجانبين. تقدّم ساليلينج المسيرة، وأخذت حربته ترتطم بوريقات الشجر في الأعلى، موقعة حمولتها من أمطار الليلة الفائتة على وجه كاريجنان. ومضى الآخرون وراء القس. فجأة ترك ساليلينج الدرب واندفع إلى بحر من الأعشاب العملاقة التي يخترقها ممر لا يتجاوز عرضه الست بوصات. بدأت الشمس تهبط من الأعلى، إلا انها ظلت تحت الدرب التي يعبرونها، وثمة كتلة كثيفة من الطين الأحمر بدت ضاجة بالحياة، تراكمت تحت نعلي حذائه وبدأت تبرز من الجانبين، مغلفة إياه عند كاحليه. حفاة، بدا الآخرون يسيرون فوق الطين بسهولة، أما هو فأخذ يكابد بحذائه الرياضي الذي بات مغلفاً بقالب أحمر صلب كالأسمنت. نزع زوج الأحذية وخشية من أن يسرقهما الآخرون ربط الفردتين معاً بشريطيهما ودلاهما من رسغه.

مع هبوطهم من ذلك المنبسط الصخري إلى غدير عميق يكتنف وهداً، خشي كاريجنان من منحدر آخر يليه تسلق جديد، إلا انهم سمعوا صوت فرقعة ينبعث من وراء المرتفع التالي أمامهم، عامود أسود يرتفع مباشرة في الهواء مكتومة الرياح. سيكون هناك دم.ونار وأشجار نخيل تشتعل لهباً – من سفر يوئيل[1]،

(1) «وأعطي عجائب في السماء والأرض، دماً وناراً وأعمدة دخان» (سفر يوئيل، الإصحاح 2، 30).

أليس كذلك؟ مذهل كيف عادت الإنجليزية إليه. والكتاب المقدّس أيضاً، عاد من الظلمة. أجل، إنه سفر يوئيل، الإصحاح الثاني، العبارة التي تترجم عادة «أعمدة دخان»، إلا أن الأصل العبري يقول: «أشجار نخيل تشتعل لهباً».

بعد عبورهم الغدير في أسفل الوهد حاول كاريجنان تنظيف حذاءه. لم يتحلل الطين في الماء، فكان عليه أن يحفه حفاً بيديه. بدت المياه صافية. تساءل إذا ما كانت صالحة للشرب. في موضع ما من كل غدير في المنطقة ثمة قبيلة أو قرية تروي الزرع منه، أو تجري إليه مياه المجاري، أو تستحم فيه الحيوانات. كان الظمأ يسحق كيانه كله، إلا أن أحداً من الآخرين لم يشرب، فلم يشرب هو أيضاً. انتعل حذاءه المبلل. وبدأوا المسير نحو عامود الدخان الأسود.

وصلوا إلى القمة وبدأوا بهبوط ممر موحل وصخري في آن معاً يصل إلى قرية من عدة أكواخ كانت تشتعل فيها النيران، حتى أتت عليها كلها، وكان الدخان لا يزال يرتفع من الألواح المسودّة التي بنيت منها. وضع ساليلينج يديه على فمه وأطلق صيحة. وجاء جواب. عند أحد المنعطفات وجدوا رجلاً طاعناً في السن يرتدي قطعة خيش تغطي عورته فحسب. جلس كاريجنان على رقعة من العشب ملوحاً لإبعاد الدخان عن عينيه في حين تكلم ساليلينج وابن أخيه مع الرجل المسن، «يقول إن التاد- تاد[1] جاؤوا لكي يدمروا القرية»، قال روبرتسون للقس «إلا أن الجميع فروا، وهو أكثر شيخوخة من أن يتمكن من الفرار. وقد أصابوه في يده، وهو يلوذ مختبئاً هنا». كانت «التاد - تاد» طائفة مسيحية يعني اسمها «افرم - افرم».

لم يبق من سكان المكان إلا هذا الرجل الهرم المصاب الذي أحدثت الطلقة ثقباً في يده، فلفها بكمادة من وريقات الشجر وبيوض الحشرات. شرح له

(1) Tad-tad: طائفة مسيحية موجودة في الفلبين، يعني اسمها «أن تفرم»، ذلك أنهم يعمدون إلى تقطيع أوصال أعدائهم حتى الموت، لكي لا يحصلوا على «حياة ثانية». وقد عرفوا بمحاربة المجموعات المسلمة أو الشيوعية.

روبرتسون: «حتى لو أصيبوا إصابة بالغة فأبناء هذه القبيلة لا يترون عضواً من أعضائهم، فهذا ليس ضرورياً، لأن الجرح لا يلتهب بفعل البيوض التي تفقس حشرات تقتات من لحمهم الفاسد».

قال كاريجنان: «آه، آها».

«إنها طريقة جيدة، إلا أنها تؤدي ببعضهم إلى المرض والموت».

بدا الرجل شديد الإعياء، وقد انكمش وجهه الشبيه بوجه القرد، وتهدّل جلده عند المفاصل. ولم يبق داخل فمه سوى ثلاثة أسنان كان يستعملها في تلك اللحظة ليمضغ حبة مانجو بانهماك بالغ. أجاب عن أسئلة ساليلينج بفظاظة، إلا أنه حين انتهى من تناول الثمرة رمى نواتها بعيداً وأرى كاريجنان الأنتينج – أنتينج[1] الخاصة به، وهي كناية عن سوار من البذور المفرغة يلتف حول خاصرته. وشرح له أن هذه التعويذة تضمن له الموت بسلام. وبالتالي فإن الجرح الذي تسبّبت به الرصاصة لا يعني شيئاً.

تكلم الرجل بلغة سيبوانية – بيسيانية، وهي لغة يفهمها كاريجنان جيداً، وإن ترجم له روبرتسون الشاب: «يحتاج إلى أن يشرب القليل من دم قرد فحسب، وسيعود جديداً».

قال العجوز: «خذوني معكم إلى النهر، أريد أن أشرب بعض الوحل».

قال روبرتسون: «الآن يريد مرافقتنا».

«أجل فهمت».

:هذه القبيلة تقول إن الوحل يمنح الحياة. يريد النهر».

كرّر القس: «أفهم ما يقول».

أشار الرجل شرقاً أعلى تلة وتكلم على مكان أسطوري هناك.

«يقول إنه فوق ذلك الجبل ثمة مكان يدعى أجامانيوج».

قال كاريجنان: «الأطفال يروون هذه القصص».

(1) Anting- Anting أو Agimat: كلمة فلبينية تعني «التعويذة» أو «الحجاب».

قال الرجل وهو لا يزال يشير بيده نحو الشرق: «أجامانيوج، إنها أرض جوز الهند[1]».

قال كاريجنان: «أجامانيوج للأطفال».

قال العجوز: «إذن لا تذهب إلى هناك».

استأنفوا مسيرهم، مجتازين وسط الغدير عبر واد ضيق ثم صعوداً إلى سفح الجبل المقابل، مستعينين بكتل من الأعشاب البرية لكي يشدّوا أنفسهم إلى الأعلى. عانى كاريجنان كل خطوة من مهماز «المتّهِم»[2]: أنا الشرير في إرادتي المستقلة، أنا ناقص التوبة. تائب قليلاً، قليلاً فحسب. بيد أنني شديد النقصان. لقد أخفقت في روح بنوّتي. كبتَ صوت الشيطان، الذي كان صوته، وأخذ يصيخ السمع إلى الأصوات الخارجية؛ ارتعاش وريقات الشجر المبللة في الريح، قهقهات الببغاءات، الثرثرة المخاتلة للقردة في الأجمة. تكاثرت النباتات حولهم. لم تعد الدرب أكثر من صورة متخيلة في رأس ساليلينج. مشى كاريجنان متخبطاً حوله، محافظاً على استقامة سيره خشية من أنه إذا وقع جانباً فإنه سيضيع بين النباتات. كانت ثيابه مخضلة بالعرق الذي امتلأت به حتى جيوبه. اتسعت الدرب ثانية، ووصلوا إلى جرف يطل على العالم. عندئذ غدا السير أيسر، وفي غضون أقل من ساعتين أطلوا على وادي أراكان[3]، الذي يبلغ عرضه زهاء خمسة كيلومترات، والذي يخترقه نهر بولانجي المصبطغ باللون الأخضر الزيتوني. أشجار أكاسيا عملاقة ارتفعت بعلو عشر طوابق وامتد أعلاها بعرض مئة قدم، حاجبة النهر عن الأنظار. لم يكلمه ساليلينج مرة واحدة، إلا أنه التفت إليه الآن وقال له باللغة السيبوانية «انظر خلفك وستر من أين جئنا. إنها مسافة عشرين كيلومتر إلى هناك». نظر كاريجنان

(1) Agamaniyog: قصص فلكلورية فلبينية تدور في أرض سحرية تحمل هذه الاسم. في السنسكريتية كلمة «أجا» تعني الدين، لكنها تطورت لتعني الأرض، أما «مانيوج» فتعني جوز الهند.

(2) The Accuser: في سفر أيوب (الكتاب المقدس) يظهر الشيطان بوصفه الملاك الذي يراقب تصرفات البشر ويكشف شرورهم أمام الرب، ومن هنا اسم «المتّهم» أو المدّعي».

(3) منطقة في إقليم كوتاباتو في الفلبين.

غرباً: كانت الأدغال الخضراء الرمادية غارقة في ضوء زهري، آخذة في التلاشي في مرجل الغروب.

ساروا ساعة أخرى منحدرين إلى ما تبقّى من منطقة تاتوج. ففيضانات العام الماضي سحقت العشب وأسقطت البيوت عن دعائمهما المنخفضة، ومع ذلك ظل الناس يعيشون هناك. كاريجنان المرهق إلى حدّ أنه وجد نفسه عاجزاً عن رفع يده ونزع قبعته، جلس على مرتفع من الأرض مدركاً بصورة غامضة أنه قبر. وقد أحاطت به قبور أخرى لم تكسها بعد الأعشاب البرية. مقتلة جماعية ما أودت بهذه الدزينة من البشر، بل أكثر، عشرين، خمسة وعشرين، ربما كان وباء، أو فيضاناً أو لصوصاً. وجد أخيراً القوة لينزع قبعته. سمع أطفالاً يضحكون، وامرأة تبكي. قال روبرتسون: «تعال، قم من هنا، لا يجب أن تجلس هنا». أمسكه ساليلينج من ذراعه، وقال روبرتسون: «أترى، لدينا صندوق». وكان يحمل صندوقاً مصنوعاً من ألواح خشبية مهترئة: «هذه رفات ابن بلدك».

سعياً وراء أولى عملياته الرسمية كضابط مخابرات، وصل ساندز إلى مطار مانيلا المحلي يوم السبت في الرابعة والربع عصراً، لكي يستقل طائرة دوجلاس دي سي 3، المتجهة إلى كاجاين دي أورو، وهي المدينة الواقعة في أقصى شمال جزيرة ميناداناو، وانضم إلى الحشد على كشك بيع التذاكر، عشرات من الناس نصف النائمين، وقد تدلت مناديلهم من أعناقهم، يحاولون الحصول على بعض الهواء بالتلويح بصحف قديمة، متقدمين بلطف إنما بتصميم نحو موظفي قطع التذاكر. ثم اختفوا قبل أن يركبوا الطائرة فعلياً. ان اسم سكيب الرابع عشر على لائحة الانتظار المثبتة بالطبشور على الجدار، إلا أن أول 39 راكباً لم يأتوا، فكان أول من يركب الطائرة، التي حملت ما مجموعه خمسة ركاب فوق الأدغال الضاجّة بشتى الألوان، والبحر المعتم، وحطت من دون متاعب على خطّ ترابي أحمر

متعرج. هذه الطائرات، كما فهم، يمكنها الطيران ولو أصيب أحد أجنحتها، وقد سمع قصصاً عنها من الكولونيل.

وجد ساندز سيارة أجرة إلى سوق دي أورو، تخلى عن الإفطار، وركب حافلة متجهة إلى جنوب الجزيرة. حمل معه كاميرا غالية الثمن، إمبريال مارك 7 خضراء اللون، دون «الفلاش» الخاص بها، إلا أنه أمضى معظم وقته متأملاً الطبيعة الإسفنجية الخضراء. سارت الحافلة بسرعة معقولة، مبطئة السير من حين لآخر لإنزال ركاب أو إصعاد آخرين، إلا أنها لم تتوقف البتة بصورة كاملة. وفي كل قرية هرع الباعة إلى جانب الحافلة بائعين شرائح المانجو والأناناس الملفوفة بالورق، والكوكا كولا في أكياس نايلون مقفلة ومعها قشة للشرب، وكان هذا كل ما تناوله حتى توقفت الرحلة لمبيت الليل في «مالابالي»، وهي مدينة تقع في الجبال الوسطى.

اجتاحته طوال الرحلة أمواج من الحنين، لا إلى أمريكا، ولا إلى كانساس، ولا إلى واشنطن، بل للبيت الجبلي في لوزون، إلى غرف النوم المكيفة وصابون كامبل وزبدة الفول السوداني ماركة سيكبي من مخزن سيفرونت التابع للسفارة. قبل بنوبات الذعر هذه بوصفها من علامات انغماس أعمق بالبيئة، وهي فكرة استفزه حولها الكولونيل مسبقاً: رب واحد، إنما خدم مختلفون. جرّته هواجسه أيضاً إلى النهاية القصية لمهمته - من سيقرأ تقريره حول الأب توماس كاريجنان، وكيف سيؤثّر بهم هذا التقرير؟

كانت مالايبالاي، على الرغم من أنها فقيرة ومشيدة غالباً من الخشب المضغوط والزنك، مكتظة بالسكان ومليئة بالحركة والضجيج. على مقربة من ساحة الكنيسة الكاثوليكية وجد فندقاً وغرفة فيها حمام خاص على النمط الإسلامي، يضم حفرة مرحاض وصنبور مياه باردة متصل بخرطوم مطاطي بطول ثلاثة أقدام. أثار فيه هذا النظام الإكزوتيكي تقززاً روحياً، فقد توقع أن يواجه في مهمات كهذه العزلة والرعب، إلا أنه لم يتوقع أن يحدث ذلك من مجرد

مشاهدة نظام السمكرة. اضطجع على السرير لاهثاً، في حين فارقت القوة دمه. كانت النافذة الضيقة في الغرفة أعلى من أن يتمكن من النظر عبرها. يبدو أن هواء هذا العالم لا يحمل الأوكسجين، بل ثغاء الأطفال وجلبة الشوارع فحسب. نزل إلى الطابق الأرضي حاملاً كاميرته وجلس على مقعد حجري في الساحة، حيث قام صبي بتلميع حذائه. لم يكن سن الصبي يتجاوز السابعة أو الثامنة، وراح يعمل بجهد متعرقاً قطرات كبيرة انحدرت غلى شفته العليا، ضارباً بالفرشاة على صندوقه في إشارة للزبون لكي يضع قدمه الثانية. التقط ساندز صورته، بينما اتخذ وضعية من يستعد للتصوير مدعياً أنه لم يلاحظ. فكر ساندز أن هذه ستفي بالغرض، هذه الصورة ستبقي وجه هذا الطفل ثابتاً. نفحه مبلغاً كبيراً، ثم دخل إلى الكنيسة - لا جدران - مجرد قبة كبيرة فوق مقاعد خشبية طويلة - وراح ينتظر صلاة السبت. انضم إلى الصلاة بضعة أشخاص آخرين. حل الغسق. وراحت الخفافيش تطير في الفناء. أشعرته اللغة اللاتينية بالسكينة. خلال العظة تكلم القس الشاب بالياسيانية، إلا أن سكيب ميز الكثير من التعابير الإنجليزية - شيطاني، مسكون بالشيطان، طرد الأرواح، الملائكة الساقطين، الاستنطاق الروحي، الاستنطاق السايكولوجي. حين نهض المصلون من أجل المناولة، خرج إلى المدينة فادحة الغرابة.

ر اح يستوقف المارة حتى عثر على رجل يتكلم الإنجليزية دله على مطعم غربي الطابع يدعى «لا باستيريا»، وسرعان ما كان جالساً إلى إحدى طاولات هذا المطعم الإيطالي الذي يقدّم على الأرجح بعض وجباته من العلب الحافظة، إلا انه يقدّم أيضاً سلطة طازجة ومقبلات تتضمن الفجل والكرفس الطازج وحتى الزيتون. شرشف أبيض، شموع في زجاجات شيانتي[1]، وفونوجراف يعزف تسجيلات ديكسي لاند[2].

(1) Chianti: نبيذ إيطالي أحمر يصنع في توسكان.

(2) Dixieland: نوع من موسيقى الجاز، يعرف خاصة في الولايات الأمريكية الجنوبية.

كانت مصاريع النوافذ الخشبية مفتوحة على نسيم المساء الجبلي البارد بقدر ما يجدر به أن يكون على هذا العلو. عند إحدى النوافذ جلست امرأة وحيدة، اقتنع ساندز أنها بريطانية أو أمريكية، امرأة شابة إلا أنها على نحو ما ليست مفعمة بالشباب، جدية، أشبه بأمينة مكتبة أو بالأخت العذراء لقس. إلا أنه طوال تناوله الوجبة، كلما حانت منه نظرة إليها، بادلته النظر ببراءة مربكة.

خلال تنظيف النادل لطاولتها نهضت وسارت مباشرة نحوه حاملة فنجان القهوة ووضعته قرب فنجانه. مدّت يدها: «إننا نحملق ببعضنا طوال الأمسية، فيستحسن بنا أن نتعارف. أنا كاثي جونز».

صافحت يده، وأمسكتها قليلاً، بإحساس يتجاوز الصداقة. أخذت تحدّق بعينيه، وبدت نظراتها شبه مذعورة، مفعمة بالحاجة. وجد ساندز نفسه عاجزاً عن النطق. لم يعرف يوماً كيف يتصرف مع النساء. ابتسامتها المتكلفة الذائبة في خضم قنوطها ملأت قلبه إشفاقاً. تاركة قهوتها على طاولته، غادرت المكان مسرعة.

لم يكن ساندز المصدوم داخلياً بقادر على تناول شيء، إلا أنه طلب الحلوى. وحين وصلت - حلوى كانولي - وقف النادل في وضعية رهيبة من الوعي الذاتي، وتمكن أخيراً من أن يقول: «السيدة لم تدفع اليوم. هل أنت من سيدفع؟». ودفع سكيب.

بعد ظهر اليوم التالي، حين ترجل من الحافلة إلى الشارع الرئيسي غير المرصوف في قرية دامولوج، حياه رجل سمين قصير يبدو أنه معتاد على انتظار الواصلين الجدد، وعرف نفسه بوصفه إميتيريو دي لويس، عمدة دامولوج. اصطحبه لويس إلى الفندق الوحيد في القرية الذي يملكه رجل يدعى فريدي كاسترو، معرفاً إياه على الطريق على الأمكنة المهمة في دامولوج، السوق، المطعم، حلبة مصارعة الديكة، متجر الثياب.

تقع دامولوج في نهاية طريق إسفلتية، في نهاية خط الحافلة، ونهاية عواميد

الكهرباء. وعلى الرغم من أن الكهرباء وصلت إليها، فإن البلدة كانت بلا شبكة مجاري، ولا – كما علم ساندز – أنابيب صرف صحي داخلية، بالتأكيد ليس في فندق السيد كاسترو، الذي بني من الخشب المتين، ولكن الذي رغم ذلك اخترقته مياه الأمطار وصولاً إلى حجرته في الطابق الأرضي، مما يعني أن الاحتفاظ بسريره وأغراضه جافة يتطلب بعض التدبير. عند الغروب اصطحبه العمدة والسيد كاسترو، وهو شاب يجيد الإنجليزية، إلى أحد ينابيع البلدة الخمسة، حيث قام ساندز بسرواله التحتي ذي المربعات وصندله الأصفر، بالاستحمام أمام حشد من النسوة والأطفال فاغري الأفواه، بمياه صافية تتدفق من أنبوب على سفح تل.

وعده العمدة: «خذ حمامك، خذ حمامك، ليس لدينا تماسيح هنا، ولا ملاريا. ولا نهّابين. أظن أننا نرى بعض النشاط المنظم من قبل المجموعات المسلمة في الجنوب، إنما في كوتاباتو فحسب. ولسنا في كوتاباتو. هذه دامولوج، أهلاً وسهلاً في دامولوج».

حين أدرا سكيب ظهره أخذ الأولاد ينادونه. لم تشهد جزيرة ميندناو عسكرياً أمريكيا؛ وبالتالي لم يناده أحد باسم جو. ناداه الأطفال: «بادير، بادير...»، ظناً منهم أنه قسيس.

كانت تلك أحلاماً غريبة ليلة امس، يا إلهي...

جلست على مقعد في السوق محاولة استذكار رعب الليلة الماضية، منتظرة المغادرة عند السادسة من بعد الظهر، منتظرة القهوة، في حين – على مقربة منها – فتحت امرأتان كشكهما للبيع. وقفت على مقعد المحكمة، لكن ماذا قبل ذلك، ماذا، كانت معي حقيبة يدي، دخلت إلى متجر لشراء قلم رصاص، لكن المتجر كان منصة في مدرج أسود كبير في نهاية العالم، ثم وجدتني ميتة أرى جردة بخطاياي. ولم أستطع. وكانت الظلمة موتي الأبدي.

صوت من الذي همس في الحلم؟ غير أن السيدة باتت مستعدة لبيعها بعض القهوة، ساكبة المياه الحارة من «ترموس» إلى الكوب البلاستيكي فوق مقدار ملعقة من النسكافيه. أدرات السيدة راديو الترانزيستور، إذاعة «دي أكس أو كي»، من كوتاباتو سيتي، أغنيات شعبية تلتها استراحة عند السادسة لتلاوة خمس من صلوات «السلام عليك»[1].

انتظرت الحافلة، لكن السائق لم يأت. ولم يكن يهمها كثيراً أن يغادروا في الموعد المحدّد. لم تكن تحمل ساعة، ولا امتلكت واحدة منذ سنوات.

ومن هذا؟ ذلك الجالس على مقعد آخر على بعد أقل من ثلاثين قدماً، مشترياً قطعة حلوى، ليس إلا الرجل الذي تصرفت كالمغفلة معه في المطعم، في «لا باستريا». حمقاء! حمقاء! لكن عند رؤيتها له ليلة أمس شعرت بألم رهيب، بظمأ هائل. بثيابه الفلبينية، سرواله البني، صندله البني، قميصه الصيفي الأبيض، على ضوء شمعة، بشعره الأشعث وشاربه، بدا شديد الشبه بتيموثي، ذلك الشاب اليافع، تيموثي جالب الأخبار الطيبة، والألفة الرائعة. وقد ارتمت على هذا الشاب الأمريكي بعماء، مثلما كان يمكن أن ترتمي على تيموثي لو أنه عاد إليها من السؤال الفارغ الذي تحول إليه.

لم يحل الفجر بعد. مناخ غريب في هذا الجبل، الشمس تسقط عليك مثل المطرقة، إلا أن الجو بارد في الظل، وخلال الليل يكاد يكون مصقعاً. تكومت على نفسها في سترتها موارية وجهها خلف القبعة، وراحت تنظر إلى الأمريكي عن بعد ثلاثين قدماً. لوهلة فحسب ليلة أمس، حسبت أنه أنت يا تيموثي، وقفز الدم إلى رأسي وأصابعي، وبالكاد عدت أرى شيئاً، وها هو هنا، يشرب الكوكا كولا في السادسة فجراً وذراعه مشتبكة بحزام حقيبته القطنية، ما زال يشبهك يا تيموثي. والآن جاء رجل آخر، على الأرجح سائق الحافلة، وجلس قرب الشاب

(1) Hail Mary: صلاة السلام عليك أو السلام الملائكي، صلاة مسيحية تستخدم في الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذوكسية لتمجيد مريم العذراء.

الأمريكي وطلب القهوة. عالياً على الأطناف القصديرية أضواء فلورسنتية باهتة تحوم حولها هالة من الحشرات... بائعات ناعسات متدثرات ببطانيات خفيفة قرب صناديق خشبية تعرض البيض المسلوق والسجائر والحلوى. أأنت حيّ يا تيموثي؟ المرأة في الكشك المجاور تحيك علباً صغيرة من سعف جوز الهند مخصصة للاستعمال كهدايا صغيرة في الحفلات. امراة أخرى تمر منحنية فوق مكنسة قصيرة، مجرد حزمة من القش... أتمنى ألا أنسى يوماً الحقيقة التي أعرفها الآن... يا تيموثي، أننا نعيش... ونموت.

فتح السائق الحافلة وجلس الشاب خلفه. من المستحيل أن تصعد في هذه الحافلة حيث يمكن أن يراها. ستستقل حافلة أخرى لاحقاً. أدارت ظهرها وطلبت بيضة مسلوقة وقرص خبز وكوب نسكافيه آخر، ثم جمعت أغراضها ومضت. حملت أغراضها في كيس ورقي بني مسكته كناية عن حبل.

جلست على المقعد في «ريزال بلازا» وشاهدت ستة أشخاص من نسوة وأطفال ينشرون حصاد الأرز في ملعب كرة سلة، ثم يقلبونه بالمدمات. لم يكن لديها مكان آخر تقصده. من الأفضل أن تضحي على رحلة بعد الظهر الأقل أماناً من أن تمكث هنا ليلة أخرى. لم يكن في المدينة كنيسة سبتية، وبالتالي اضطرت إلى الإقامة في نزل، حيث أثارت حقيقة أنها امرأة تسافر وحيدة حالة من الفضول المكثف الذي شعرت بأنه بلغ حدّ الكراهية. الجميع يحاول أن يكون مهذباً. ولهذا ذهبت إلى «لا باستريا»، وإن كانت بالكاد تتحمل كلفته – وإن كان لديها عذر للذهاب إلى هناك في المقام الأول، ولكن لم يكن لها أي عذر للانفتاح على رجل غريب.

أبدا حقاً يشبه ماثيو إلى هذا الحد؟ أخرجت من كيسها الورقي حزمة من الصور الفوتوغرافية، التي كانت السبب الوحيد لهذه الرحلة. الأسبوع الماضي وجدت بين أغراض تيموثي فيلماً، وسافرت كل هذه المسافة لكي تجد من يقوم بتحميضه. معظم الصور حمّضت، وبلغت زهاء عشرين صورة، ثلاث منها تظهر

تيموثي، اثنتان منها عامتان - تيموثي مع مجموعة من المهندسين من مانيلا، يلقون نظرة على موقع بناء موقع لتوليد المياه، والعمدة لويس في طليعة الصورة مثل قارض ضخم سعيد؛ صورة أخرى يظهر فيها تيموثي أقرب إنما مشوش الملامح، ومن الواضح أنه يعطي التعليمات لمصور مبتدئ حول كيفية التصوير. أما الثالثة فيظهر فيها محيطاً بذراعيه كاثي نفسها، في حفل زفاف فلبيني أمام كنيسة من الجص الزهري. أما بقية الصور فكان ينوي إرسالها إلى العروسين الجديدين: كوتاباتو سيتي؛ تعرفت كاثي الكنيسة الزهرية. وقد لازمته في ما أسماه «رحلة» تجاوزت المئة كيلومتر على طرقات خربة، مع عشرات الركاب في حافلة صغيرة صممت أصلاً لتتسع لثمانية ركاب. وقد استقبلوه في كنيسة كوتاباتو كإله، أحاطوه بالرعاية، وأثقلوه بالهدايا، لحضوره زفاف غرباء عنه، وسمحوا له بتصوير المناسبة بكاميرته ألمانية الصنع.

إضافة إلى هذه الصور احتوى الكيس الورقي على غيار البارحة من الملابس وبطانية صغيرة وضعتها تحتها على المقعد الخشبي في الحافلة التي استقلتها من الجبل عصر ذلك اليوم. هبطت الطريق تدريجياً، ناظرة أمامها، بدا المشهد شاسعاً جميلاً، مكتنفاً على مئات من تدرجات الأخضر تحت غيوم رعدية سوداء ورمادية آخذة في التكاثف. وكان الهواء يعول من النوافذ المفتوحة، حاملاً في البداية عبق الصنوبر، ثم الأراضي الخفيضة المتخمرة. تقدّمت الحافلة تحت مطر غزير ووصلت إلى دامولوج وهي ما زالت تقطر ماء في الرابعة عصراً.

العمدة لويس ليس في موقف الحافلات اليوم. لابدّ من أنه يراهن في مباراة مصارعة الديكة. فقد سمعت هدير الرجال في المبنى المقابل للساحة. وقد شاهدت المصارعة مرة، من بعد، وهي واقفة هناك في الشارع. كان ثمة أمواس مربوطة بأحزمة صغيرة حول قوائم الديكين المتصارعين وقطع واحدهما الآخر في غضون ثوان.

عاشت وتيموثي على مقربة من الساحة في منزل مؤلف من ثلاث غرف نوم

ونوافذ شبكية وسقف خشبي صلب، تشاركاه مع خادمتهما كورازون وأيضاً، عادة، مع اثنين أو ثلاثة من قرويات كوري، غالباً ما كن يتبدّلن من وقت لآخر وتحل محلهن قرويات آخريات. لم تجد أحداً في المنزل. ففي أيام السبت والأحد كانت الفتيات يذهبن إلى منزلهن في قرية كينيبت.

بعد عبق الصنوبر والبرودة النسبية للمدينة الجبلية، شمّت رائحة منزلها ثانية، الخشب المبلل والكتان الرطب. كان البيت معتماً. جذبت السلسلة العالية في المطبخ وأضاء النور. هرعت الصراصير مختبئة في الزوايا. وكانت كوري قد تركت لها بعض الأرز في طبق مغطى يكسوه النمل. يا له من مكان بائس رهيب من دون تيموثي.

رمت الطعام، الطبق وما عليه، في القمامة خارج البيت وغادرت بعد ثلاث دقائق من وصولها.

تناولت الطعام في مطعم «صن شاين» وعلقت هناك بسبب العاصفة الماطرة الثانية هذا اليوم. تعطلت الكهرباء في البلدة، وأخذت تنتظر حتى يهدأ الطقس على ضوء الشموع في الداخل، متحدثة مع رجل يدعى رومي، جاء من مانيلا مع فريق مسح، ومع بوي سيدوسا، الذي يرتدي ثياب الشرطة المحلية. شرب رومي من نصفية ويسكي «أولد كاسل»، وشرب سيدوسا من نصفية رم تاندواي. أما ثيلما مديرة مطعم «بيبولز صن شاين»، فجلست على كرسي عال بلا ظهر وراء نضد في الطرف المقابل من الغرفة مستمعة إلى راديو الترانزيستور.

دخل الأمريكي الذي يشبه تيموثي وهو يقطر ماء، حاملاً ما بدا كاميرا ملفوفة حول معصمه، ووقف متردداً في الداخل. توقف الآخرون عن الكلام. جلس إلى الطاولة المجاورة وطلب القهوة. لو أنه تعرّفها فقد كان أكثر تهذيباً من أن يظهر ذلك.

آه، كان يجب أن تعرف. فدامولوج هي نهاية خط الحافلة والموقف الوحيد الذي فيه منامة.

وضع كاميرته على الطاولة. راقبوه جميعاً وهو يشرب القهوة، فيما تواصل زخّ المطر.

دخلت عصبة من السكارى إلى المقهى، الذين أخذوا يتجولون في المكان موقعين الكراسي والطاولات. صفقت ثيلما بيديها وضحكت وكأنهم أولادها. غادروا، ومضت ثيلما ترتّب الأثاث. منع الشرطي سيدوسا نفسه من توجيه شعاع مصباحه اليدوي إلى الخارج في إثرهم. ثم دخلت امرأة مجنونة لكي تتسول. تعانقت وثيلما كقريبتين، وربما كانتا كذلك بالفعل.

مبقياً كتفيه وذقنه في وضع مستقيم أخفض شرطي الدورية رأسه إلى مستوى شعلة الشمعة. أخذ يحملق بالأمريكي الجالس إلى الطاولة المجاورة حتى أجبره على الانتباه له. سأله: «أودّ سؤالك عن اسمك».

«اسمي وليامساندز».

«فهمت. وليام ساندز». بدا وجه سيدوسا آتياً من الأفلام - عينان مثقلتان بالثمالة بين ثنايا وجه سمين مليء بالشحوم. كان أنفه حاداً. لم يرمش. «لا أقصد التطفل على حضرتك، لكن أيمكنك أن تريني بعض الأوراق التي تسمح لك بالتنقل في إقليمنا؟».

قال الأمريكي: «لا أحمل أي بطاقة هوية، فلديّ جيب واحد فحسب». كان يلبس قميصاً أبيض وما بدا سروال سباحة قصير.

«فهمت»، حدق به سيدوسا وكأنه يتغاضى عنه. قال ساندز: «أنا صديق العمدة لويس، وقد وافق رسمياً على زيارتي».

«أتعمل مع الجيش الأمريكي، ربما؟».

«أعمل مع شركة ديل مونتي».

«فهمت. هذا حسن. كنت أتأكد فحسب».

«أتفهم ذلك».

«اسأل عن بوي سيدوسا فحسب إذا احتجت إلى أيّ مساعدة».

«حسناً، ونادني سكيب».

«سكييب»، قال سيدوسا.

وقال رومي من فريق المسح: «آه! سكيب!».

وصفقت ثيلما الجالسة على كرسيها وراء مراطبين الطعام، بيديها هاتفة: «مرحباً يا سكييب».

وقالت كاثي: «هذا نخب سكيب».

هل لاحظ وجودها؟ لقد عرّف باسمه. لن يتعرض للمتاعب في هذه البلدة ثانية[1].

رفع نخبه لهم جميعاً.

قالت: «أرى أنك تحمل كاميرا في المطر».

اعترف: «لا أتصرّف بكثير من التعقّل الليلة».

«أتحملها معك على الدوام؟».

«لا. أحاول ألا أتعلق بها. فإن لم يكن المرء حذراً قد تتحول إلى عينيه، الحلم الوحيد الذي يرى من خلاله».

«أقلت حلماً؟».

«عذراً؟».

«أقلت إنها تتحول إلى الحلم الوحيد الذي يرى المرء من خلاله؟».

«أحقاً؟ لقد عنيت العين الوحيدة. الكاميرا تتحول إلى عينك».

«هذه زلة لسان غريبة يا سيدي. أكنت تحلم في صغرك بأن تصبح مصوراً فوتوغرافياً؟».

«لا يا سيدتي. أكنت تحلمين بأن تكوني سيجموند فرويد؟».

«ألديك شيء ضدّ الرجل؟».

«فرويد هو نصف مشكلات هذا القرن».

(1) أي أنه لم يعد من مجال للخلط بينه وبين تيموثي.

«أحقاً؟ ومن هو النصف الآخر؟».

«كارل ماركس».

أضحكها كلامه وإن خالفته الرأي: «ربما هذه هي المرة الأولى التي يؤتى على ذكر أيّ منهما في هذه البلدة».

صارع رومي موظف المسح، ليمد يده عبر المسافة التي تفصله عن يد الأمريكي، وأخذ يشدها نحوه. «أتشرفنا رجاء بصحبتك؟». ظلّ يشده بقوة حتى أزاح الأمريكي كرسيه وانضم إليهم «أيمكنك شرب القهوة معنا رجاء؟ أو ربما شيئاً أكثر متعة؟».

«بكل سرور. من يرغب في سيجارة. إنها رطبة بعض الشيء».

قال الشرطي سيدوسا: «لا بأس بهذا»، وقبل سيجارة منه وحملها على مقربة من الشمعة حتى تجف. «آه، بنسون أند هادجز! إنها سجائر جيدة!».

حين رأت الأمريكي ثانية، عن كثب هذه المرة، لم تشعر بشيء يتحرك في داخلها. تمنت أن يحدث ذلك. كانت البلدة غارقة في الوحول وتفوح منها شتى روائح الروث والجوائح. الآن وقد رأت هذا المكان من دون تيموثي، لم تعد راغبة في المكوث فيه، لا معه ولا من دونه.

تناقش الرجال حول لاعب ملاكمة فلبيني لم تسمع به يوماً. فراشات صغيرة انتشرت على شرشف الطاولة، حول الشمعة الموضوعة في زجاجة كانت سابقاً تحتوي على كاتشاب «تاميس أنجانج بانانا»، أياً يكن هذا الشيء. تناقش الرجال حول ساسة لا يهمها أمرهم. ثم تكلموا حول كرة السلة التي تشكّل نوعاً من الشغف القومي. حين سئمت من هذا الحديث مضت إلى بيتها تحت مطر خفيف، في الظلمة الدامسة، متنقلة بين البرك ومتمكنة ببعض الحظ من السير بثبات على الطريق، ومحظوظة أكثر بعثورها على البيت.

وضعت حذاءها داخل الباب، ودخلت إلى غرفة النوم. تلمست المكان بحثاً عن المصباح اليدوي على النضد وغيرت ملابسها على الضوء الخافت. على

النضد أيضاً كان كتاب تيموثي الذي عثرت عليه بين أغراضه، والذي يتضمن مقالات جون كالفن[1] الرهيبة وعقيدته المتعلقة بالقضاء القدر، وتوعده بجهنم مليئة بأرواح خلقت أصلاً ملعونة. لم تعرف ماذا تفعل بهذا الكتاب، فأبقته معها، لم تستطع مقاومة العودة إلى بورنوجرافيته الروحية مثل كلب يتشمم قيأه. عثرت على عود ثقاب وأضاءت عوداً من مبيد البعوض في طبق، واضطجعت تحت شبكة البعوض، وشدّت الملاءة إلى وجهها... بعض الأشخاص مختارين بصورة إيجابية مطلقة للخلاص.. وسواهم محكوم بصورة مطلقة بالدمار... مضطجعة هناك في نتن حياتها، وشعرها لا يزال مبللاً من المطر. لم تلمس الكتاب.

أفاقت على ضوء متوهج: لمبة السقف. من الواضح أنه جرت معالجة المشكلة في خطوط الكهرباء. ما زالت ظلمة في الخارج، وقد توقف المطر. حملت صندلها إلى المطبخ، وأخذت تضرب بهما المغسلة لكي تبعد الصراصير، أنارت الضوء، وسكبت كوباً من الماء البارد من الثلاجة - التي تعمل على الغاز - وجلست إلى الطاولة تنظر إلى الصور الفوتوغرافية. كان هدفها من الذهاب لتظهير الفيلم أن تشغل وقتها فيما تنتظر من يأتي لها بالخاتم الذي ربما يكون ذهبياً وربما لا، من إصبع الجثة التي عثر عليها وقد جرفها إلى الضفة نهر بولانجي. لم يرسل أهل القرية الخاتم. بدلاً من أن يزعجوا العظام أو هذه الحلية الوحيدة، ذهبوا بحثاً عن غربيين قد يزعمون قرابة ما مع هذه التميمة. بعد أسابيع من التشاور فيما بينهم قبلوا بمقايضة الخاتم بمبلغ تافه هو خمسون بيزو.

كانت تنظر من خلال عينيه إلى حفل الزفاف ذاك.

أنذروا بأنه سيجري تصويرهم فجهزوا أنفسهم. وكانت بعض الفتيات

(1) John Calvin (1509–1564): مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفيني المنتشر في سويسرا وفرنسا ، الكتاب المقصود هو «أسس الديانة المسيحية» الذي يتضمن فصلاً عن «القضاء والقدر» يرى فيه أن الله يختار مسبقاً أولئك الذين سيحصلون على الخلاص في حين آخرون محكومون باللعنة منذ الولادة(م).

الصغيرات متبرجات بأحمر الشفاه ومساحيق التجميل، وقد لمعت شعورهن السوداء بدهن الشعر.

عيناه نظرتا، وقام عقله بتحميض صورة هذه اللحظة بالضبط على درجات الكنيسة الزهرية. في خلفية المشهد، على يمين الصورة، لافتة «تريدسترز/ أفق جديد في عالم إطارات السيارات» - وتماثيل تجسّد سانت ميخائيل[1] تطفو فوق حشد المحتفلين، وقد لفت شفرات سيوفه بأوراق القصدير. كان هذا القديس ميخائيل، وقد رقص الجميع، مسلمون وكاثوليك، على شرف القديس المحارب. بينما يضبط إضاءة الكاميرا أخذت عائلة العريس بالصياح والضحك، وحين التمع الفلاش فجأة تجردوا من كل وازع بشري، وراحوا يبحثون عن مخبأ وراء بعضهم بعضاً في ذعر خفر.

أخذت من العلبة الموضوعة في الثلاجة سيجاراً فلبينياً من سجائر تيموثي، وجلست وأشعلت عود ثقاب من الطبق الموضوع على الطاولة، مجّتمنه مجات صغيرة قبل أن تطفئه في المغسلة، وتعاود الجلوس إلى الطاولة محاطة برائحته، شاعرة ببعض الدوخة. بحثت عن أيّ أثر للذاكرة في الفراغ. السجائر. الصور الفوتوغرافية، الأشياء التي لمسها، علامات أخذت تحتشد ثانية، استتذكرتها بشغف، كمن يجمع دليلاً.

عادت إلى السرير من دون أن تطفئ النور. فوراً فتحت كتاب كالفن، الكتاب الذي عثر عليه تيموثي وراح يقرأه من دون انقطاع. صدمها وجود صيغة تعبيرية عن تلك الأفكار النجسة، الأفكار التي افترضت أنها ابتليت بها وحدها، شكوك آثمة بصورة فريدة، غير معبر عنها البتة - ولابد من أن تموثي شعر مثلها، لأنه لم يكلمها عليها البتة أو على الكتاب. على هوامش الكتاب علّم بقلم الرصاص

(1) Saint Michael: رئيس الملائكة ميخائيل، المذكور في «سفر دانيال» بوصفه القائد الميداني لجيش الرب، وتؤمن المسيحية بصورة عامة بأنه رئيس جميع الملائكة وأنه ملاك القيامة الذي بشّر بقيامة المسيح من بين الأموات.

فقرات معينة. أغمضت عينيها وقرأتها بأصابعها:

«بالتالي، ورغم أن تلك الشرور، وبقدر ما هي كذلك، ليست بالصالحة، بيد أنه من الحسن وجود أشياء شريرة».

«وإذا كان الرب يعلم سلفاً بأنهم سيكونون أشراراً، فسيكونون كذلك، أياً كانت الطيبة التي يلتمع بها مظهرهم بها الآن».

«أنحن أطفال؟ هل سنختبئ من حقيقة أن الرب بطيبته الأبدية أسبغ الخلاص على من يشاء، رافضاً كل من عداهم؟».

هذا القلب الواجف، رعشة الهاوية، الحقيقة التي لا مفر منها للعنتي المقدّرة المقضية.

أغفت تحت النور، واضعة هذه اليقينيات الثلاثة الرهيبة على صدرها.

كان صباح اليوم التالي مشمساً وشبه منعش، وامتلأت السماء بالسحب الرائعة المسافرة، وبدا كل شيء مختلفاً عن ليلة الأمس الماطرة. جاءت كوري مع الخبز وثلاث بيضات صغيرة من السوق وأعدّت الإفطار، الذي التقت كاثي من بعده ثماني ممرضات كانت قد دربتهن واللواتي يدرن الآن مستوصفات في القرى البعيدة، ويبلغ عددها حالياً أربعة مستوصفات فحسب، كانت ستة في الربع السابق من السنة، ومن يعلم كم سيبلغ عددها في الربع المقبل، واحداً أم ستة أم عشرة، فالتمويل يأتي ويذهب بصورة لا يعوّل عليها.

انضمت إلى الاجتماع امرأة من «مؤسسة النهضة التنموية»، وهي السيدة إديث فيلانوفا، التي أخذت تدوّن الملاحظات دونما داع لذلك. حولت مساعدات كاثي الثماني، وهن شابات متزوجات كل واحدة منهن أم لعدد من الأطفال، ونادراً ما يتحرزن من قراهن، المناسبة إلى حفلة. تناولن الأرز والسكر المقلي بزيت جوز الهند والملفوف بورق الموز، والأرز الملفوف بورق جوز الهند، والأرز العادي، «كله أرز»، قالت السيدة فيلانوفا بصورة شبه اعتذارية.

جميع النسوة كن شديدات التعاطف مع زوجها، وكن يتابعن أخبار اختفائه، ويتكلمن عليه باحترام، بطريقة توحي أنه ليس ميتاً ولا حياً. وكن يسمينه تيمي.

بعد انتهاء الغداء كان الموعد مع العمدة إيميتريو دي لويس، الذي يحتل منصباً مركزياً رفيعاً بسبب كونه يعرف كل شيء عن الجميع في دامولوج، والذي كان يمكن أن يكون العمدة ولو لم يكن هذا المنصب البلدي أتاح نفسه له. أحضرت له كاثي فضلات الطعام التي قد وضعتها على صينية من خشب الماهاجوني وغطتها بمنديل حريري. وعلى الرغم من وجود مكتب بريد في دامولوج، وأيضاً بلدية في مبنى إسمنتي من ثلاث طبقات بجوار السوق، فقد كان العمدة يبقى خارجه، مفضلاً ردهة بيته الصغيرة التي توفر الظلّ والنسيم المنعش. أجلس كاثي على كرسي من الخيزران قرب مكتبه، ونادى طالباً المياه الباردة، وسألها عن لقاحات شلل الأطفال. تعود معرفتها به إلى سنتين، ومع ذلك كان يستغرق بضع دقائق مخاطباً إياها وكأنها وصلت للتو. «أيمكننا إيصال للقاح إلى المستوصفات البعيدة؟ لدينا مشكلات في الريف. ليس بمقدور الجميع قطع كل هذه المسافة مع العديد من الأطفال إلى دامولوج. هؤلاء هم أفقر الفقراء. وأحياناً يكون هناك قطاع طرق. لا نريد أن نقع ضحية هؤلاء العناصر المتمردة على القانون. هؤلاء هم أفقر الفقراء». سمعته كاثي يردد هذه العبارات مرات عدة مؤخراً، مقلباً المفردات بصورة ثابتة. أجل: إيميتريو دي لويس، حرف «دي» المضاف إلى اسمه على ثقالة ورق جرانيتية على مكتبه، والذي هو اختصار لكلمة «دوس».

لا تزال الانتخابات بعيدة، إلا أن منافسه على منصب العمدة، كما قال لها، بدأ يشوه سمعته، واصفاً إياه بالجبان، بالرجل ذي «البيض الأبيض». في عينيه، تحت متاعب العمل، التمعت سعادة عامة. كانت أخته، التي تعلم في جامعة جنوب مينداناو، تغني أغنيات شعبية قبلية عبر مكبر صوت صغير، في الشرفة الخارجية، وأخذ يستمع إلى غنائها برضى، طاوياً يديه بجانب أصيص من براعم المطاط الإسفنجي على مكتبه.

حدّثها عن الأمريكي، سكيبساندز، كما لابدّ حدّث سكيب ساندز عنها. وكان يعرف بالتأكيد أنها التقت الأمريكي في مطعم «صن شاين».

«لقد سألت سكييب ساندز إذا كان يعرف الكولونيل الأمريكي، وأجل، ثمة صلة مثيرة للاهتمام بينهما، أتودّين معرفة هذه الصلة؟».

«لن أرغب في النميمة».

«النميمة ليست من الأخلاق المسيحية، إلا إذا كنت تتحدثين مع العمدة».

كشفت كاثي النقاب عن الحلوى وراح يتأمل الصينية كأنها رقعة شطرنج، ويداه ترفرفان: «الكثير من الضيوف!».

قالت كاثي: «أظن أنك تستحضرهم».

«أستحضرهم! أجل! لقد استحضرت الكولونيل الأمريكي، والرائد الفلبيني، واستحضرت رجلاً آخر، أظن أنه كان سويسرياً، ما كانت جنسيته برأيك؟».

«لم ألتقه، ولا التقيت الفلبيني، التقيت الكولونيل فحسب».

«واستحضرت فريق مهندسي المسح... يا سيدة لويس»، سأل زوجته البدينة وهي تدخل آتية من المطبخ، متزلجة على الأرضية المشمعة بصندل الزوريس ذي النعل القش: «ما رأيك؟ أتعتقدين أنني مستحضر أرواح؟».

«أظن أن لك صوتاً عالياً جداً».

«تظن كاثي أنني قادر على الاستحضار»، قال لها وهي تكمل طريقها إلى قلب المنزل. قال: «كاثي، أريد أن يقوم فريق المسح بعمل معين لي. أتستطيعين مساعدتي على إقناعهم».

«لا تأثير كبيراً لي عليهم يا إمتيريو».

«لقد استحضرتهم! وعليهم العمل لصالحي!».

«حسناً، سيكون عليك أن تكلمهم بنفسك».

«كاثي، هذا الأمريكي الذي يدعى سكييب، أتعرفين ماذا أخبرني؟ الكولونيل قريبه. إنه عمه إذا أردنا الدقة».

قالت كاثي: «عجباً!»، لقد أثار انطباعاً عاماً قوياً، لكنها لا تتذكر - تستحضر - وجه الكولونيل لكي تقارن بين الاثنين.

«حين سألت سكييب عن الضابط الفلبيني والرجل الآخر ادّعى أنه لا يعرفهما».

«لِمَ عليه ان يعرفهما؟».

«هؤلاء الناس يعرفون بعضهم بعضاً يا كاثي. إنهم في مهمة حكومية سرية».

«حسناً، الجميع يعمل متخفياً». هي نفسها جاءت إلى هنا برعاية «منظمة الطفولة العالمية»، وهي منظمة لا ارتباطات دينية لها، في حين جاءت في حقيقة الأمر مع زوجها: العامل في كروم السيد المسيح.

رشق العمدة بصندله كلباً دخل إلى البهو فأصابه إصابة دقيقة، على مؤخرته، فزعق مذعوراً كطائر وقفز خارجاً من الباب.

قال فجأة: «إنه ضد أفكارنا تماماً أن نقامر، فالقمار ضد أفكار الكنيسة السبتية، أحاول أن أضع الأمر ورائي».

«أراهن أنك أصبت نجاحاً».

«شكراً لك. آه- (أراهن) أجل! ها ها! - أراهن». تنبه سريعاً «لكن كما ترين أنا أذهب إلى مصارعة الديكة. هذا واجبي. أريد البقاء على الاتصال بالناس».

«أراهن أنك تفعل».

مرت خمس عشرة دقيقة، ثم دخلت شابة - خادمة أو جارة، أو قريبة - ووضعت كأسين من الماء البارد على المكتب. مسح العمدة لويس العرق عن جبهته بظاهر كفه. وقال متنهداً: «زوجك تيمي» - كان جميع الفلبينيين ينادون زوجها، للمرة الأولى في حياته - بهذا الاسم - «سننتظر خبراً عن الرفات، الأمر يستغرق وقتاً أطول بقليل. وأنا ما زلت متمسكاً بالأمل يا كاثي، إذ من المحتمل أن نسمع فجأة أن بعض المجرمين اختطفوه وأنه لا يزال حياً. إننا ضحايا الكثير من الخارجين على القانون والخاطفين، لكن هذه المرة يمكن القول إنه ثمة أمل».

شرب من كأسه في حين لفّه صمت سرّي تام: لا. لا أمل.

عند الثانية من بعد الظهر، بعد انتهاء الدوام المدرسي، وفي حين غرقت البلدة في قيلولة، فتحت باب مستوصفها في دامولوج، الواقع في واحد من الصفوف الأربعة في إحدى المدارس الباطونية. وكانت إديث فيلانوفا من «النهضة التنموية» موجودة لمساعدة الأمهات الشابات اللواتي يجلبن صغارهن لتلقيحهن، وقد زاد عددهن على العشرين من الفتيات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والثالثة عشرة - يبدين في التاسعة أو العاشرة فحسب - ممن وقفن في طابور ممسكات بأيدي أطفالهن بقسوة من أجل اللقاح، ولكي يحصلن على علبة من مسحوق الحليب، التي تشكل بالنسبة إليهن المعنى الحقيقي للزيارة.

في الأثناء جلس الأمريكي سكيب ساندز في الخارج على الشرفة الباطونية يتصفح كتاباً، مرتدياً سروالاً قصيراً منقوشاً بالمربعات، وتي شيرت بيضاء، وصندلاً مطاطياً، وقد بدا غير مبال بصراخ الأطفال.

على يساره عرفت كاثي إديث إليه. همّ بالنهوض، إلا أن إديث جلست إلى جانبه، وهي تمسّد تنورتها، وسألته: «ما هذا الكتاب. شيفرة سرية؟».

«لا».

«ماذا؟ إغريقي؟».

«إنه ماركوس أوريليوس».

«أيمكنك قراءته».

«إنه كتاب لنفسه، الذي يترجم عامة بالتأملات».

«ألسني. أأنت عالم ألسني؟».

«هذا بغرض التمرن فحسب. لديّ ترجمة إنجليزية منه في الفندق».

قالت إديث: «في فندق كاسترو؟ يا إلهي، ما كنت لأمكث هناك. سوف أستقل حافلة الرابعة وأخرج من هنا».

«ثمة ثقوب في سقف السيد كاسترو، لكن الفندق الآخر بعيد، بعيد جداً».

«أجئت وحدك تماماً؟». كانت إديث امرأة متزوجة في منتصف العمر، وإلا ما كانت لتمارس الدلال عليه.

ابتسم، ورغبت كاثي فجأة بركله على خاصرته - أن توقظه - أن تخربط الروح المرحة على وجهه الأمريكي المتألق.

سألته: «هلا أطلعتني عليه؟». كان كتابه من النوع الرخيص والعادي، من مطبوعات المطبعة الكاثوليكية. أعادته إليه «أأنت كاثوليكي؟».

«كاثوليكي أيرلندي من الغرب الأوسط. هذا خليط هجين، كما نحب أن نقول».

«قلت لي إنك من كانساس، صحيح؟».

«كليمنتس، كانساس، ماذا عنك؟».

«وينبيج، مانيتوبا. أو النواحي الريفية هناك. على الارتفاع نفسه مثل كانساس».

«تقصدين على خط الطول نفسه».

«حسناً، نحن مباشرة إلى شمالكم».

قالت إديث: «لكن في بلدين مختلفين».

قالت كاثي: «في عالمين مختلفين». وجد نفسه بين زوجتين سئمتين تتدافعان عليه. قالت: «هيا إذن، وجذبته من يده».

بدأوا بالمشي باتجاه الشارع الذي تقطن فيه كاثي. قالت إديث: «إذن أنت من وسط غرب الولايات المتحدة؟».

«أجل، صحيح، من كانساس».

قالت كاثي: «وكذلك زوجي، إنه من سبرنجفيلد، إلنوي».

«آه».

«إنه مفقود حالياً».

«أعلم، سمعت بذلك، أخبرني العمدة».

قالت إديث: «وماذا أخبرك العمدة أيضاً؟».

قالت كاثي: «إيميتيرو يخبر الجميع كل شيء، هكذا يعرف الأشياء. كلما تكلم أكثر، أخبره الناس أكثر، أكنت تنتظر لكي تراني؟».

اعترف قائلاً: «حسناً، في الواقع أجل، لكنني انتظرت طويلاً، وعلي أن أذهب».

قالت إديث: «تذهب! هذا ليس بالشيء الفلبيني على الإطلاق».

بعد أن تركهما قالت إديث: «لم يلاحظ أنني ما زلت معك. أراد رؤيتك على انفراد».

زهاء الرابعة عصراً، فيما تنتظران الحافلة التي ستقل إديث إلى خارج البلدة، لمحتا الأمريكي يمشي بين أكشاك السوق مرتدياً سروال برمودا قصيرا، فوق ساقيه المحترقتين بفعل الشمس، حاملاً ثمرة جوز هند مليئة بالشعر. قال: «أبحث عمن يفلق لي هذه».

كانت ساحة السوق تمتد على طول شارع كامل، وقد أحيطت بالأكواخ المسقوفة بالقش، وقد تجردت دواخلها من كل شيء. مشوا على أطراف السوق باحثين عمن يفلق ثمرة جوز الهند للزائر الأمريكي. وصلت الحافلة، ومعها الفوضى، حيث رفع الركاب أكياسهم وجمعوا أطفالهم، وحملوا دجاجاتهم المرفرفة رأساً على عقب من قوائمها. قالت إديث: «أنا واثقة من أن السائق يحمل مدية». إلا أن سكيب عثر على بائع يملك مدية فلق له ثمرة جوز الهند بمهارة، ورفعها كأنما ليشرب حليبها، ثم أعادها إلى الأمريكي الذي سأل الامرأتين: «عطشانتان؟». فضحكتا. ذاق الحليب. فقالت إديث: «تخلص من هذا السائل يا رجل فسوف يتسبب لك بتوعك معوي». أفرغ سكيب السائل على الأرض، وأعطى الثمرة للرجل لكي يقطعها إلى أرباع.

تبادلت إديث بضع كلمات مع السائق ثم عادت إليهما «جعلته يغسل الأضواء

الأمامية. إنهم لا يغسلون هذه الأضواء وحين تعتم يقودون كالعميان بسبب كل هذا الطين المتراكم على الأضواء». بدأت تودّع كاثي، وتشكرها واستغرقت وقتاً طويلاً في إنهاء زيارتها. ثم مدّت يدها لسكيب ساندز الذي أمسك أطراف أصابعها بطريقة غريبة. قالت إديث: «أشكرك، وسوف تكون مصدر إلهام لدامولوج». كان ثمة شيء ماكر وغير مناسب في نبرتها.

حملت إديث حقيبة ضخمة من القش متعددة الألوان لها مسكة من خشب القنّب. مضت تلوح بها، ملتصقة القدمين بالأرض بفعل صندلها الواطئ، ومؤخرتها تتأرجح مثل ثور أمريكي تحت تنورتها الحريرية. أخيراً رحلت. طوال فترة بعد الظهر كانت كاثي تشعر بتوتر في رقبتها وكتفيها، وبرغبة للتخلص من ثقل هذه المرأة. كل غروب يخطف الضوء من قلبها، ثم يأتي جنون الليل المحزن، الذي تمضيه أرقة، باكية مفكرة، قارئة عن الجحيم.

في المقابل فإن هذا الامريكي الذي بسط لها منديله على المقعد الرطب، فقد بدا متبلد الحسّ، غبياً مهدئاً للأعصاب. قال بالفرنسية: «أتتكلمين الفرنسية؟».

«عفواً؟– آه لا، لا نتكلم الفرنسية في مانيتوبا، لسنا من هذا النوع من الكنديين. أأنت حقاً عالم ألسنيات؟».

«إنها هواية لا أكثر. أنا واثق من أن عالم ألسنيات حقيقياً يمكنه القيام بالكثير من العمل هنا. على حدّ علمي لم يحاول أحد دراسة اللغات في ميندناو بأي طريقة منهجية».

أخذ شريحة من جوز الهند ونفخ عليها ليزيل عنها النمل الذي بدأ يتراكم عليها وقطع قطعة منها بسكين جيب كحلية.

قال: «عملك شاق».

«آه، بالتأكيد، لقد أسأت الحكم على المسألة برمتها».

«حقاً؟».

«أجل، أعني عمق العمل وجديته».

أرادت أن تصرخ به لكي ينظر إلى نفسه.

«كل ما عنيته أنه عليك التعامل مع كثير من الناس».

«حالما تصبح بين الوثنيين، حتى يتغير كل شيء. يتغير كثيراً. يصبح أشدّ وضوحاً، أكثر جلاء، يصبح بيناً تماماً. آه، حسناً، إنه أحد الأمور التي تصبح مشوشة حين تتكلم عليها».

«أحسب أنه كذلك».

«إذن دعنا من الحديث عنه. أتمانع إذا دونت أحياناً بعض الأفكار وعرضتها عليك؟».

قال: «على الرحب والسعة».

«وماذا عنك؟ كيف يجري عملك؟».

«إنه أشبه بالعطلة».

«ما مصلحة ديل مَونتي هنا؟ لا أظن أن حقول ماجويندانو هذه ستنبت الكثير من الأناناس. هناك الكثير من الفيضانات هنا».

«أنا في عطلة هنا. أقوم برحلة فحسب».

«إذن جئت من دون أي شرح. مجرد مبعوث ضائع».

«هذا صحيح. يشبه الأمر عملاً في بعثة ما، إن لم يكن أشخاص جديرون مثلك قد سبقونا إلى تمثيلنا بصورة أفضل بكثير».

«من تقصد بنحن يا سيد ساندز؟».

«الولايات المتحدة الأمريكية يا سيدة جونز».

«أنا كندية، وأمثل الكتاب المقدّس».

«وهذا ما تفعله الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً».

«أقرأت كتاباً بعنوان الأمريكي البشع؟[1]».

(1) The Ugly American: رواية سياسية أمريكية اشتهرت في نهاية الخمسينات والستينات من القرن الماضي (صدرت في 1958)، من تأليف يوجين بورديك ووليام ليدرر، وتجري أحداثها في =

قال: «ولِمَ قد أرغب في قراءة كتاب كهذا؟».
أخذت تحملق به.
«آه، حسناً، لقد قرأته، أظن أنه هراء. يبدو أن جلد الذات هو الموضة الرائجة. لا أصدّق هذه الأمور».
«ماذا عن الأمريكي الهادئ؟[1]».
«قرأت هذا أيضاً»، ولاحظت أنه لم يصنف هذا الكتاب كهراء.
قالت: «يتمتع الغربيون بالكثير من النعم. يتمتعون بحرية الإرادة. إننا أحرار من بعض...». انقطع حبل أفكارها.
قال: «لدينا الحقوق والحرية والديمقراطية».
«ليس هذا ما قصدت قوله. لا أعرف كيف أقول ذلك. هناك أسئلة تتعلق بالإرادة الحرة». تردّدت في أن تسأله إذا كان قد قرأ جون كالفن... لا. حتى السؤال كان بمثابة المتاهة.
«أأنت على ما يرام؟».
«سيد ساندز، هل تعرف المسيح؟».
«أنا كاثوليكي».
«أجل، لكن هل تعرف المسيح؟».
«حسناً، ليس بالطريقة التي أحسب أنك تقصدينها».
«ولا أنا أظن ذلك».

= بلد متخيل يدعى ساراكان (فيتنام)، وتصور إخفاق الأمريكيين في حربهم على الشيوعية في جنوب شرق آسيا، وتحديداً في كسب عقول السكان المحليين وقلوبهم، بسبب جهلهم في الثقافة المحلية. الرواية تحولت فيلماً معروفاً من بطولة مارلون براندو، ويعتقد أن الشخصيات التي تضمنها هي أسماء مستعارة لشخصيات حقيقية.

(1) The Quiet American: رواية البريطاني جراهام جرين التي صدرت عام 1955، ونقلت مرتين إلى السينما. يروي جرين في هذه الرواية، عبر شخصية صحافي متخيل، تجربته خلال تغطية الحرب الفرنسية في فيتنام بين 1951 و1954، يلتقي شاباً أمريكياً مثالياً يعتقد أن الحلّ في مناطق مثل فيتنام لن يكون باعتناق الرأسمالية أو الشيوعية بل «قوة ثالثة» قوامها تقاليد البلد نفسه.

لم يجب بشيء.

قالت: «كنت أحسب أنني أعرف المسيح، إلا أنني كنت مخطئة تماماً».

لاحظت أنه يجلس بسكون تام حين لا يكون لديه ما يقوله.

قالت: «لسنا جميعاً مجانين هنا». عبارة أخرى لم يجد جواباً عليها. قالت: «أنا آسفة».

تنحنح بحذر «يمكنك العودة إلى ديارك، أليس كذلك؟».

«آه لا، لا أستطيع فعل ذلك». شعرت أنه يخشى أن يسأل عن السبب، فقالت: «فقط لأنني في هذه الحالة لن أتمكن من وضع شيء في نصابه».

هذا الأمريكي يخلق صمتاً تصعب مقاومته. كان عليها ملأه: «كما تعرف، هذا ليس غير اعتيادي، ولا غريباً، ولا بدعة، أن تمضي في وسط مأساة. انظر أين نحن! الشمس لا تني الشمس تشرق وتغرب. وكل يوم يحدث المزيد من المساحة في قلبك– بأي كلمة أصف ذلك... الحب لا يعرف الكلل... إنه يدفع بلا كلل، يستمر بالدفع والركل مثل طفل في داخلك. حسناً إذن... يكفي حديثاً عني». يا لي من خرقاء!»، كادت تصرخ بذلك.

انخفضت الشمس الغاربة من فوق الغيوم واخترقتها بطريقة جعلت المدينة برمتها تغرق في ضوء أرجواني. لم يعلق الأمريكي على ذلك. قال: «وماذا يحدث حين كل هذا.. يـ.. يـ.. ينتهي؟».

«هاك، تهانينا، لقد وجدت كلمة».

«عذراً».

«أتعني إذا كان تيموثي ميتاً؟».

«إذا، حسناً... أجل، عذراً».

«لا نعرف ماذا جرى له. لقد استقل الحافلة إلى مالايالاي، وما زلنا ننتظر عودته. بدا مريضاً، ووعد بمقابلة طبيب في المشفى هناك قبل أي شيء آخر. على حدّ علمنا لم يره أحد في المشفى. لسنا واثقين من أنه وصل إلى ملايالاي. لقد

قصدنا كل بلدة من هنا إلى هناك... لا شيء، لا شيء، ولا أيّ خبر عنه».

«وأظن أنه مرّ بعض الوقت على ذلك».

«سبعة عشر أسبوعاً، فعلنا كل ما يمكن فعله».

«كل شيء؟».

«اتصلنا بالجميع، جميع السلطات، السفارة، وعائلتينا بالطبع. قمنا بألف اتصال هاتفي، والجميع جنّ جنونه ألف مرة. جاء والده في يوليو وعرض جائزة».

«جائزة؟ أهو ميسور الحال؟».

«لا، على الإطلاق».

«أوه».

«لكن حدث تطور أخيراً، جرى العثور على بعض الرفات».

انسجاماً مع تحدره من بيئة الغرب الأوسط، تفاعل مع هذا بالقول: آه»، و«آها».

«ونحن الآن بانتظار معلومات حول المتعلقات الموجودة مع الجثة».

«أخبرني بذلك العمدة لويس».

«وإذا كان تيموثي؟ سأبقى لبعض الوقت ثم أجد مركز عمل جديد وهو ما خططنا له على أية حال. أو، إذا عاد تيموثي وفاجأنا جميعاً، وهو ما قد يفعله، فأنت لا تعرف تيموثي، فسوف نمضي قدماً بالخطة. إنه مستعد للتغيير وراغب فيه، في تحد جديد. أي المتاعب نفسها في مكان جديد تماماً. وأنا ممرضة، سيقبلون بي في أي مكان يمكنهم توظيفي فيه، سواء أكان تايلندا أو لاوس أو فييتنام».

«الشمالية أم الجنوبية».

«ليست لنا رعية في الشمال».

«ماذا عن السبتيين الأدفنتست؟».

«م. ط. ع. منظمة الطفولة العالمية».

«صحيح». ثم فجأة بدأ يتكلم بحرارة «اسمعي هؤلاء القوم هنا لن يحصلوا على أفضل مما هم حاصلون عليه. إنما أطفالهم يمكنهم الحصول على عيش أفضل. الاستثمارات الحرة تعني الابتكار والتعليم والازدهار، وكل الأمور المعروفة. والاستثمارات الحرة محكومة بالانتشار، هذه طبيعتها. وأحفادهم سيحظون بحاة أفضل من تلك التي لدينا في الولايات».

قالت، وقد أخذت على حين غرة: «حسناً، هذه أفكار لطيفة، هذه كلمات مفعمة بالأمل. إلا أن من تسميهم هؤلاء القوم لا يمكنهم أكل الكلمات... يحتاجون إلى بعض الأرز في بطونهم وأعني أنهم يحتاجون إلى ذلك فوراً».

«في ظل الشيوعية ربما يأكل أولادهم أفضل الليلة. إلا أن أحفادهم سيتضورون جوعاً في عالم ليس إلا سجناً كبيراً».

«وكيف تطرقنا إلى هذا الموضوع على أية حال؟».

«أتعرفين أن منظمة الطفولة العالمية تعدّ واجهة شيوعية؟».

«لا. حقاً؟». في الحقيقة لم تسمع بذلك، ولم يكن الأمر يهمها كثيراً.

«السفارة الأمريكية في سايغون اعتبرتها قوة ثالثة».

«حسناً سيد ساندز أنا لست بطابور خامس[1] ولا قوة ثالثة. ولا أعرف حتى ما معنى القوة الثالثة».

«إنها ليست شيوعية ولا هي مناهضة للشيوعية. إلا أنها أكثر عوناً للشيوعيين».

«وهل أنتم في ديل مونتي تمضون الكثير من الوقت في السفارة الأمريكية في سايغون؟».

---

(1) ظهر هذا التعبير خلال الحرب الأهلية الإسبانية في 1936. أطلقه الجنرال كويبو كيلانو، أحد قادة القوات الوطنية الزاحفة على مدريد والتي كانت تتكون من أربعة طوابير من الثوار، عندما قال: «هناك طابور خامس يعمل مع الوطنيين لمصلحة جيش فرانكو»، قاصداً مؤيدي فرانكو من الشعب، وقد ترسخ هذا التعبير في الاعتماد على الجواسيس المحليين في الحروب، واتسع ليشمل مروجي الشائعات ومنظمي الحروب النفسية خلال الحرب الباردة.

«تصلنا الملخصات الإخبارية من شتى الأنحاء».

«هذه المنظمة هي مؤسسة صغير ة. ونحن نستمر بالعمل بفضل تقديمات من عدد من المؤسسات الخيرية. لدينا مكتب في مينيابولس وزهاء أربعين ممرضة في الميدان في عدد لا أعرفه من البلدان. ربما خمسة عشر أو ستة عشر بلداً. تبدو مستاء سيد ساندز».

«حقا؟ لا ريب في أنك كنت مستاءة أنت الأخرى ليلة أمس».

«متى؟».

«في مالايالاي».

«مالايالاي؟».

«أوه، هيا... في المطعم الإيطالي؟ حين ذكر العمدة كاثي جونز من الكنيسة السبتية، كان الاسم نفسه. لكنني لم أفكر بالتأكيد أنها أنت».

«لماذا؟».

«تلك الليلة لم يبد عليك أنك من أتباع الكنيسة السبتية».

بدا الأمريكي بسرواله البرمودا القصير الملون، منتظراً رداً منها، وإن بدا واضحاً أنه لا جدوى من ذلك «كان العمدة وعائلته رائعين معي».

«حسناً، أعني... هيا دعك من ذلك».

«لا نخبر دوماً القصة الكاملة عن أنفسنا، أليس كذلك؟ على سبيل المثال، يظن العمدة أنك لست من تدّعي أنك هو على الإطلاق. يقول إنك هنا في مهمة سرية».

«تعنين أنني لا أعمل مع ديل مونتي؟ أنني جاسوس لشركة دول للأناناس؟[1]».

«عمك قال إنه من منظمة آيد؟».

«هل تمكنت من التحدث معه؟».

---

(1) شركتا أغذية أمريكيتان، تنتجان الأناناس المعلب وغيرها من الفاكهة والأغذية.

«إنه محتال عجوز مثير للاهتمام».

«أحسب أنك تعرفت إليه حقاً. من كان معه؟».

«لا أحد».

«أوه، لكن العمدة ذكر شخصين آخرين، أحدهما ألماني ربما».

«إنهما يأتيان أكثر فأكثر مؤخراً».

«الآخران؟ متى كانا هنا؟ أتذكرين؟».

«لقد غادرت الجمعة. إذن كانا هنا يوم الخميس».

«تقصدين الخميس الفائت، قبل أربعة أيام».

«واحد، اثنان، ثلاثة أربعة، أجل، أربعة أيام، أهذا شيء سيء؟».

«لا، لا، لا. كنت أتمنى فحسب لو لم يفتني لقاؤهما. من كان مع الألماني؟».

«دعني أتذكر. رجل فلبيني. من الجيش».

«آها، الرائد أجوينالدو».

«لم أره في حقيقة الأمر».

«إنه من أصدقائنا. لكنني لست متيقناً من أمر الألماني. أكان ألمانياً؟ لست أكيداً من أنني أعرفه. قال العمدة إن له لحية».

«قال العمدة إنه سويسري».

«وله لحية؟».

«لم أره البتة».

«إلا أنك رأيت الكولونيل».

«لا نرى الكثير من الملتحين هنا. لابدّ من أن هذا يخز.. مثلما يفعل شاربك هذا، أؤكد لك».

واجهها بصمت، وكأنما في ترقّب متحدّ لتمليها في وجهه - بلا قبعة، العرق يقطر من فروة رأسه، وأيضاً من شاربه المتدلي... سمح لنفسه بالنظر حوله، لكي يتأمل الضوء الأرجواني المحيط بهما وهو يخبو. قال: «يا للروعة».

«كانت جدتي تسمي هذا الإظلام».

«أحياناً يفاجئك هذا المنظر».

«في غضون خمس دقائق سيعج المكان بالبعوض، وسنؤكل أحياء».

« الإظلام. تبدو كلمة مهمة».

«هكذا هي، كانت شبه سائلة».

«تجعل المرء يتيقن أكثر من وجود الجنة».

قالت: «لست متأكدة من أن الجنة جديرة بأن تشتهى إلى هذه الدرجة».

افترضت أن هذا سيصدمه، إلا أنه قال: «أظن أنني أعرف نوعاً ما ماذا تقصدين».

قالت: «أتسافر حاملاً الكلمة؟».

«الكلمة؟ – أوه».

«أتحمل الكتاب المقدّس معك، أعني في الفندق؟».

«لا».

«حسناً، يمكننا بالتأكيد تدبير أن تحصل على نسخة».

«حسناً، لا بأس».

«إن الكاثوليك لا يتمسكون بالكتاب مثل بقيتنا، أليس كذلك؟».

«لا أعرف. لا أعرف ماذا تفعل بقيتكم».

«سيد ساندز، كيف أستحضر الجانب السيء فيك؟».

«آسف جداً، ليس الأمر كذلك البتة. كل ما في الأمر أنني لست شديد التهذيب، يجب أن أخجل من نفسي».

أثّر فيها الاعتذار. فكرت في طريقة مناسبة لقبول اعتذاره.

قال ساندز: «من هذا الآتي مع العمدة لويس؟ ذلك الذي يحمل حربة».

لمحت العمدة ورجلين آخرين يمشون على الطريق الموحلة المليئة بالبرك الضحلة، العمدة يرتدي قميصه الرياضي الشبيه بقمصان هاواي فوق بطنه

الضخمة، وأحد الرجلين يرفع حربة طويلة نحو الغيوم، والآخر يدخن سيجارة، وعرفت فوراً.

صاحت: «أ،ه يا إلهي، أيها العمدة لويس! أيها العمدة!».

نهضت وكذلك فعل سكيبساندز. بيدها اليسرى حملت منديله الأبيض الذي كانت جالسة عليه. التفت الرجال واتجهوا نحوهما. قال العمدة: «ها هي ذا، ها هي ذا». بدا أنهم يجلبون الغروب معهم وهم يقتربون. توهّج طرف السيجارة في العتمة. قال العمدة: «كاثي، الأمر محزن جداً».

بدا أن العمدة لويس يخاطب سكيب «يؤسفني أن أكون من يخبرك، لكنني لسوء الحظ ما زلت العمدة».

مدّ العمدة الخاتم، ولكي تمسكه أسقطت المنديل الأبيض من يدها.

«كاثي، إننا جميعاً نشعر بحزن شديد هذه الليلة».

«لا أتبيّن إذا كان ثمة نقش عليه».

«النقش موجود. يحزنني جداً أن آتي لك بهذا الدليل».

«إذن هذا هو الخاتم».

«أجل».

حملت خاتم تيموثي. «والآن ماذا؟ ماذا أفعل بهذا؟». وضعته في سبابة يدها اليمنى.

قال سكيب: «سأدعكم تمضون في شؤونكم إذن».

«لا، لا تذهب»، قالت ذلك ممسكة بيده.

قال: «هذه مأساة فعلية».

قال العمدة: «هيا يا كاثي، سوف ينقل سكيب تعازيه لاحقاً».

رمى مرافق العمدة الأصغر سناً سيجارته في بريكة وحل. «لقد اجتزنا رحلة طويلة من أجلك».

والآن يجب أن يحصلوا على أجرهم. من الذي دفع؟ قالت: «أعليّ أن

أعطيكم الخمسين بيزو؟». لم يجب أحد «وهل معكم... هل أحضرتم... أليس هناك أي شيء آخر؟». التفتت إلى الشيخ الذي يحمل الحربة، إلا أن وجهه خلا من أي تعبير. لم يكن يفهم الإنجليزية البتة.

قال العمدة: «أجل، لقد جئنا ببقايا تيمي معنا وهي في منزلي، زوجتي تجلس بجوارها، حتى أعود معك. أجل يا كاثي، صديقنا تيمي قد توفي. آن وقت الحداد».

مرّ ساندز بمنزل السيدة جونز ثلاث أو أربع مرات قبل أن يلمح ضوءاً في الداخل، وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً، إلا أن الناس هنا يأخذون فترات قيلولة طويلة ويبقون صاحين حتى الصباح.

ارتقى الدرج ووصل تحت ضوء سقيفة المدخل، وهو كناية عن حلقة من النيون المغطاة بالحشرات الصغيرة. رآها من خلال النافذة واقفة في وسط ردهة منزلها وقد بدا عليها الشرود، حاملة زجاجة شراب من عنقها.

رأته هي الأخرى: «أترغب في سيجار؟».

«ماذا؟».

«أترغب في سيجار؟».

سؤال بسيط جداً لم يستطع الإجابة عنه.

«سوف أتناول جرعة أو اثنتين الليلة».

كان عليه التراجع إلى الخلف حتى تفتح له الباب، ثم دخل وجلس على درابزين الشرقة. لم تكن ثابتة الحركة، وتوقع أن تسقط أرضاً في العتمة.

«أريدك أن تتذوق هذا».

«ما هو؟».

«إنه براندي».

«لا تهمني المشروبات الثقيلة».

«إنه براندي الأرز».

«الأرز؟».

«إنه براندي الأرز. إنه... براندي الأرز».

«أتشعرين...». لم يكمل جملته. يا لها من طريقة غبية للبدء بحديث. فقد علمت للتو أن زوجها متوف.

«لا».

«لا؟».

«لا...».

«أنت...».

«لا أشعر».

قال: «سيدة جونز».

«لا، لا تذهب، طلبت منك ذلك قبلاً، وغادرت رغم ذلك. اسمع، لا تقلق. كنت أعرف منذ البداية أنه لن ينجو. ولهذا السبب أمسكت بيدك حين قابلتك في ذلك المطعم. كنت أعرف أن الأمر ميؤوس منه، إذن لِمَ لا نذهب جميعاً إلى الفراش».

قال: «يا إلهي».

«لا أعني الآن فوراً. بلى أعني الآن فوراً. اخرسي يا كاثي، أنت سكرانة».

«يستحسن أن تتناولي بعض الطعام».

«لديّ بعضاً من لحم الخنزير، إن لم يكن قد تعفن».

«من الأفضل أن تتناولي وجبة ما، ألا تظنين ذلك؟».

«والخبز».

«على الأرجح أن الخبز...». لم يكمل. كان يريد أن يقول إن الخبز قد يمتص بعض البراندي، إلا أن الطقس كان حاراً، وكانت رقبته تؤلمه من حروق الشمس،

وما جدوى مناقشة المزايا الامتصاصية لبعض الأطعمة؟

«ما الأمر أيها الشاب؟».

«أعيش بلا مكيف هوائي».

حدّقت به عن كثب. بدت مخبلة أكثر منها سكرانة.

قالت: «أنا آسف بشأن زوجك؟».

«ماذا؟».

كانت بلوزتها مفكوكة إلى النصف تقريباً، مشقوقة قليلاً إلى سرتها تقريباً. وكان ثمة زهور زرقاء صغيرة مفاجئة على حمالة نهديها. وكان العرق يقطر على بطنها. هو الآخر كان يعاني من حكاك رهيب بسبب الحر من إبطيه إلى صدره. كان بحاجة إلى أن يضع الثلج على جلده. تمنى لو تثلج.

قالت السيدة جونز: «إذا دخلت وتناولت بعض البراندي فسأتناول بعض الطعام. الشقة مكيفة».

كانت غرفة النوم مكيفة. اضطجعا معاً ومارسا نوعاً من الحب. في أثناء ذلك شعر بالغرابة. لا. بالبشاعة. أزاح يديها عنه ما إن انتهيا، وارتدى ملابسه وعاد إلى الفندق والندم يعتم دماغه، يغشوه كالشحم المتسخ. أرملة جديدة، وفي اليوم نفسه الذي عرفت فيه بالخبر... هي، في المقابل، بدت بعد ذلك غير شاعرة بالخزي، ولا مترعة من السكر. بدت غاضبة فحسب من زوجها لأنه مات.

مرّ بمنزلها في الليلة التالية لكنه لم ير ضوءاً في الداخل. حاول قرع الباب، لكن لا جواب. لو طرق بصوت أعلى من ذلك لأيقظ الجيران. غادر المكان.

لم يأت موسم الجفاف بعد، إلا أن المطر انحبس. مباشرة عقب كل غروب كان غطاء من الغيوم يضغط القيظ على دامولوج ويسحق الأزاهير ويشق طريقه إلى داخل كل رأس. ببطء تجرّعت المدينة برمتها الرام. رومي مهندس المسح الشاب،

بدأ بمنازلة بالأيدي مع بعض المسلمين في مطعم «صن شاين» وأبرحوه ضرباً في الساحة، ولم يغادر أحد الطاولات لكي يتفرج.

ليلة السبت غطت الزنابير المخططة وحشرات أبي مغزل اللمبة الفلورسنتية في المطعم. متزاوجة بحماسة، أخذت تسقط على الأطباق. مجموعة بعد أخرى انضمت إلى الحشد، مالئة اللمبة، ثم اختفت. جاء العمدة لويس بحثاً عن ساندز في المقهى. انتهت فترة السبت، وكان يبحث عن رفقة.

قال له لويس: «سأنقذك من الرتابة نفسها كل ليلة»، واصطحبه لتناول العشاء في منزله المصنوع من الخشب والآجر، ذي الأرضية المشمعة الغريبة. تناولا طبق «الأدوبو» المكون من لحم العجل المتبّل وشربا قهوة «البانييت المحلية»، التي أتبعاها بشراب «أولد كاسل»، ليس سكوتش، ولا بوروبون، بل ويسكي صرفة. مع بقاء رومي في غرفته بالفندق، لكي لا يرى أحد الرضات التي أصيب بها، لم يكن أمام سكيب سوى العمدة للحصول على بعض التسلية. ماذا عن كاثي جونز؟ قال العمدة: «لقد رحلت إلى مانيلا صبيحة الخميس. سوف ترافق بقايا زوجها إلى المطار».

صدمه الخبر «رحلت نهائياً؟».

«سوف تلتقي حماها، وسوف يأخذ البقايا إلى أمريكا».

«ألن تعود معه؟».

«في الواقع سوف تضع عظام زوجها في الطائرة فحسب، ثم ستعود إلى داملوج. لن تذهب إلى أمريكا بسبب واجباتها هنا».

في اليوم التالي ذهب مع العمدة لويس وحمولة من الأنابيب الحديدية البالغ طولها الأربع بوصات في شاحنة «إيسوزو» متعددة الألوان، التي تقاد من جهة اليمين، إلى موقع السد المستقبلي، حيث كان ثمة محطة تصفية مياه ضخمة في حقل واسع. بدا واضحاً أن المشروع لا يزال في مراحله الأولى. كما كان لدى العمدة تصور عن بناء مدرّج رياضي في ذلك المكان، وأيضاً ملاعب كرة وبركة

سباحة.

أمسك المطر عن الهطول لليلة الثالثة على التوالي. احتشد الناس الذين دفعهم الحرّ لمغادرة منازلهم الخانقة في ملعب كرة السلة، الوحيد الذي له أرضية من الباطون في دامولوج، شاخصين نحو السماء المقفلة المسطحة الداكنة، بالكاد يحادثون بعضهم بعضاً، بانتظار الفجر.

لليلة الرابعة على التوالي، اعتاد ساندز أن يطوف البلدة في كل ليلة، يمرّ بضع مرات بمنزل السيدة جونز، من دون أن يرى الضوء مناراً.

أجابت على قرعه الباب، إلا أنها لم تدعه إلى الدخول. بدت في حال رهيبة.

«أنت في البيت».

«ارحل من هنا».

«سوف أغادر البلدة في الغد».

«جيد، لا تعد ثانية».

«يمكنني أن أتدبر العودة بعد مدة، ربما بعد أسبوعين».

«لا أستطيع منعك».

«أيمكنني الدخول والتكلم إليك؟».

«ارحل من هنا».

استدار وغادر المكان.

نادته: «حسناً، حسناً، حسناً، تعال إلى هنا».

قبيل ظهيرة يوم الاثنين توقفت حافلة «جيبني» في الساحة وانتظرت هناك وقد رفع غطاء محركها وأخذ اثنان يفحصان المحرك، في حين أخذ ثالث يعمل تحت المركبة، وجلس السائق وراء المقود ضاغطاً على الفرامل، صارخاً.

كان ساندز أول الركاب. لقد ركب هذا النوع من المركبات لتنقلات قصيرة في مانيلا، لكنه لم يعبر بها أي جبال، مثلما سيفعل اليوم. بدت هذه الجيبات

المستطيلة قادرة على احتواء زهاء دزينة من الناس في الخلف والأمام، إلا أنها حملت قدر ما يتسع داخلها من البشر من دون أن تنكسر محاور عجلاتها، كما أنها تمشي على أيّ أرض، ودائماً تكون مطلية بعدد ألوان رمادية ومزينة بالرايات والكؤوس الكروم والأصداف التزيينية من النوع الذي يعجب هواة السرعة من المراهقين، إضافة إلى شعارات على الواجهة الأمامية تحمل أسماء مختلفة من قبيل «بطل العالم» و«كوماندو»، إلخ، أما هذه المركبة فكان اسمها «البقاء على قيد الحياة».

فيما تواصل تصليح المركبة، انتظر ساندز على مقعده، مطرقاً نحو أرضية «الجيبني» التي انتشرت عليها حبيبات الأرز، وقد احتشد حوله الركاب الباحثين عن زاوية لا تضربها الشمس. بعد زهاء ساعتين حلت المشكلة وحملت المركبة بزهاء عشرين راكباً مع أغراضهم وأكياسهم، وشعر ساندز أنه آن أوان الانطلاق. إلا أن المزيد من الركاب صعدوا بمن فيهم اثنا عشر زوجاً من الأرجل تدلت من السقف، وطفلان، أحدهما نائم والآخر يزعق باكياً. كما سمع أصوات صيصان أيضاً. التصق الركاب بعضهم ببعض بما فيه الكفاية لكي يروا الاحمرار الذي تسبب بهالحرّ على جفون واحدهم الآخر، وأيضاً لكي يمدّ أيّ منهم لسانه إذا رغب في ذلك ويتذوق عرق راكب آخر... وصل بالعدّ – قبل أن يبدأ هذا الشيء بالتحرك، مندفعاً إلى الأمام بقوة خارقة ما، متقدماً إلى خارج المدينة بضخامة مثل جبل جليدي مشحم متعرق – وما الحاجة إلى الفرامل بوجود كتلة كهذه تتحرك ببطء؟ – وصل بالعدّ إذن إلى 41 راكباً، 21 منهم في الخلف معه، وثلاثة في مقدم الحافلة، ودزينة على السقف. والسائق. وثمة آخرون صعدوا في اللحظة الأخيرة، وآخرون راحوا يركضون وراء المركبة محاولين التشبث بها، حتى بقي بعضهم في الخلف يضحك ملوحاً بالوداع. جلس ساندز قبالة شيخ يشبه القرد، وامرأة تشبه السحلية، وفتاة صغيرة لها قدما عجوز في المئة. على مسافة غير بعيدة خارج البلدة دخلوا مترنحين إلى غابة من الموز أسكتت الظهيرة الهادرة ونقّتها،

ومروا بقرى صغيرة نائمة فيها أكواخ من خشب البلوط، وفي إحدى النقاط تقدموا مباشرة عبر مخيم نار من الخيزران المشتعل في وسط طريق خربة. ثم تسلق «الجيبني» طرقاً جبلية متعرجة، متمايلاً مترنحاً. ثم ثقب أحد الإطارات. وقفز الجميع تقريباً من المركبة، وحظي ساندز بفرصة جمعهم معاً في صورة فوتوغرافية واحدة. 47 راكباً احتشدوا حول المركبة ناظرين بذهول إليه وهو يضغط على زر التصوير.

عند الثالثة من بعد الظهر ترجّل في كارمن: شارع رئيسي إسفلتي، عدد من الأبنية المكسوة بالجص المكونة من طبقتين، المكان الأكثر تحضراً الذي رآه منذ مغادرته مالايبالاي قبل أسبوع. وجد غرفة ليبيت ليلته، استلقى للحصول على قسط من النوم، ولم يستيقظ حتى ما بعد الثانية من بعد منتصف الليل. كانت البلدة غافية، ما عدا الكلاب، والخطأة... في تلك الساعة الموحشة أسف ساندز على شهوته تجاه كاثي جونز. تخيل نفسه يركع عند الصليب راجياً المسيح أن يسكب عليه دمه المطهر. كانت السيدة جونز صلبة، جاهزة لمنتصف العمر الذي لم تبلغه بعد. كان وجهها مدوراً، وخداها ممتلئين، وشعرها مجعداً كثيفاً يكاد يشبه صوف الحمل، ولها عينان بنيتان شديدتا النعومة واللطف، ويدان شديدتا النعومة، إنما قويتان في الوقت نفسه. بينما تتكلم يلامس لسانها سنها الأمامية الصغيرة جداً. كانت مثيرة، مرحة، جذابة، إنما ليس بصورة طاغية. ظلت روحه تتنقل زاحفة بين المسيح والسيدة جونز حتى سمع صياح الديكة.

حمل سكيب معه خرائطه التي اعتاد الانكباب عليها يومياً بنهم وبهجة وخفة يشعر معها أنه حرّ كصقر. أخبره الكولونيل أين يمكنه العثور على القس كاريجنان. لم يكن ثمة وجود على خريطة مندناناو لمكان يدعى نازاداي أو لنهر يدعى «ريو جراندي». إلا أنه على خريطته لمقاطعة شمال كاتاباتو كان ثمة إشارات إلى كنائس الأبرشية في المدن، وأول ما فعله في الصباح هو الذهاب إلى «دار التكوين»، تلك

المقار الشبيهة بالمنتجعات الواقعة على أطراف كارمن. قيل له إن الأب هاداج نائم. وخرج الأخير بعد عشرين دقيقة، شيخ فلبيني نحيل في رائحة أنفاسه نبيذ المناولة. ألقيا نظرة معاً على الخريطة. ووضع القس علامة صغيرة بقلم الرصاص على أحد المواضع، قائلاً: «أظن أنها تقع هنا، أو هنا، إنه تخميني المنطقي». وفي عرض مذهل للكرم أعار ساندز دراجة هوندا نارية، وتمكن ساندز من قطع زهاء عشرين ميلاً بمدة تزيد قليلاً على الساعتين، وربما كانت ثلاثين ميلاً، إذا احتسبنا الحركة الالتفافية المستمرة تجنباً للحفر. وكانت الكنيسة تنتظر هناك حيث هي معينة بقلم الرصاص على الخريطة، كناية عن بناء باطوني غير متناسق فرشت على سطحه أقمشة خضراء أو أنها شكلت سقفه. مرّ سكيب بالعديد من القرى في طريقه من كارمن، إلا أن هذا البناء كان يقع في عزلة غريبة على مسافة نصف ميل من أقرب قرية، على امتداد من النهر من الواضح أنه يلتهم الأرض تحته.

كان الأب كاريجنان ذو الأصل الفرنسي الكندي، شائب الشعر، أسمر البشرة، وله وجه قلق وعينان غائمتان، وقد عاش هنا منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، فعاصر الاحتلال الياباني والانتفاضات المسلمة، وأعاصير «التايفون» الشهيرة، والتبدلات الكوارثية المفاجئة في مجرى النهر، ويجيد السيبوانية ويرعى الكاثوليك السمر من السكان الأصليين، بحيث أنه بالكاد عاد يجيد اللغة الإنجليزية. حين سأل عن أصول سكيب، كان يقصد أجداده، أي أسلافه.

رحب به كاريجنان خير ترحيب، وطلب الشاي إلى المنضدة في الظل في الفناء، وجلس قبالته تاركاً صندله على الأرض وواضعاً قدميه تحت الكرسي، مباعداً بين ركبتيه. كان يرتدي سروالاً من «الدنيم» الباهت وقميص قصير الكمين استحال بنياً بفعل الغسيل بماء النهر. أخذ يتنفس من فمه، مدخناً سجائر «يونيون»، لافظاً إياها «أونيون». وحين لا يدخن يشدّ ساقيه إلى بعضهما ويتأرجح على نحو خفيف على كرسيه، ناظراً نظرات جانبية مثل مريض عقلي. وقد بذل بعض الجهد لكي ينخرط في الحديث. حين تكلم ساندز واجه ضيفه بتعبير – كان

ساندز واثقاً من أنه غير مقصود – ينمّ عن صدمة مستترة، عدم تصديق ودي، وكأن ساندز جاء إلى المكان من دون سرواله. لم يبد بأي شكل من الأشكال قادراً على تهريب السلاح.

«أينادونك ساندي أبداً؟».

«أبداً! لكن أصدقائي ينادونني سكيب».

كرر القس الاسم «سكيب»، قائلاً «سكييب» مثلما يمكن أن يلفظه فلبيني.

«أفهم أنك ساعدت على العثور على المبشر الضائع، أعني إحضار رفاته».

«نعم، نعم، هذا صحيح، أليس كذلك؟».

«هناك أسفل نهر بولانجي؟».

«صحيح، في طريق العودة، وأنا أتسلق الهضبة أغمي عليّ».

«لكن هذا هناك ليس بولانجي؟ هذا ما هو مذكور على خريطتي».

«إنه أحد روافده، كيف نسميه، لا أذكر، فرع منه، كما تعرف. هذا الجزء يسمى ريو جراندي».

«إنه من تشعّبات النهر».

«لكي نصل إلى بولانجي اضطررنا إلى السير أميالاً عديدة. الكثير منها. حين أنام ليلاً أحلم أنني ما زلت أمشي. أتجد الشاي مناسباً؟».

«جيد جداً، شكراً لك».

«لا بأس بالمياه. لدينا ما يكفي من مياه الشرب، إنما ليس لدينا ما يكفي للاستحمام. لقد حدث تسرّب في الخزان». كان يتكلم عن الخزان الحجري شديد التصدّع على بعد بضعة ياردات.

«أهناك قلة من الكاثوليك في رعيتك؟».

«أوه بلى،. أجل، الكاثوليك. لقد عمّدت المئات، ومنحت التثبيت[1] للمئات.

(1) Confirmation: سرّ الميرون أو سرّ التثبيت، أحد الأسرار السبعة في الكنيسة المسيحية. بحسب العقيدة المسيحية فإن المعمودية تخرج الإنسان من مملكة الشيطان، أما الميرون أو التثبيت فتغلق =

لا أعرف إلى أين يذهبون بعد ذلك. لا أرى غالبيتهم البتة».

«ألا يحضرون القدّاس؟».

«يأتون إلى هنا عند المشكلات. بالنسبة إليهم لست ممثلاً فعلياً للرب. يحبون الاستعانة بالساحرات. أنا أقرب إلى هذا بالنسبة إليهم».

«آه».

«سوف يأتون غداً. قلة منهم. لأنه يوم القديسة ديونيسيا[1]. يؤمنون أنها تملك القوة».

«آها».

«وماذا عنك؟».

«أنا؟».

«أأنت كاثوليكي؟».

«أمي لم تكن كاثوليكية، لكن أبي كان كذلك».

«حسناً... الأب عادة لا يكون شديد التديّن».

«توفي أبي في الحرب. وقد قمت بالكثير من الزيارات لأقربائه الأيرلنديين في بوسطن، وهم متعصبون كاثوليكياً».

«لكن هل خضعت لشعيرة التثبيت».

«أجل، كان ذلك في بوسطن».

«أتقول بوسطن؟ لقد نشأت في بريدجووتر على مقربة من هناك».

«نعم». باتا يجريان معظم هذه المحادثة للمرة الثانية.

قال القس: «بعد مغادرتي البيت انتقل والداي إلى بوسطن، وقد تكلمت إلى أمي عبر الهاتف في 1948. اتصلت بها من الفندق المهم الجديد في دافاو. كان

= كل المنافذ التي يمكن أن يعاود الشيطان الدخول منها. والتثبيت الذي يأتي تالياً للعمادة يقوم على مسح جميع منافذ الإنسان بزيت الميرون المقدّس.

(1) في العقيدة المسيحية، شهيدة تعود إلى القرن الأول للمسيحية.

جديداً حينذاك. ولا يزال مهماً ربما، أليس كذلك؟ قالت إنها تدعو لي دوماً. وحين سمعت صوتها شعرت أنها أبعد بكثير مما كانت يوماً. حين عدت إلى الرعية هنا، كان الأمر أشبه بالبدء من جديد، منذ اليوم الأول. شعرت بأنني بعيد جداً عن الديار ثانية».

وقف أربعة أطفال صغار، عراة إلا من قمصانهم التحتية، عند زاوية الكنيسة، يحملقون بساندز، وحين ابتسم لهم صرخوا ولاذوا بالفرار.

قال كاريجنان: «التقيت الرجل الآخر. لقد زارنا هو أيضاً».

«لست متأكداً أي رجل تقصد».

«الكولونيل، الكولونيل ساندز».

«آه، بالتأكيد، الكولونيل».

«إلا أنه لم يكن يرتدي بزة عسكرية. أظن أن البزات تسبب الحر. لذا لم أعرف في أي فرع من الجيش هو».

«إنه متقاعد».

«هو أيضاً من عائلة ساندز».

«أجل، إنه عمي».

عمك. فهمت. أأنت أيضاً كولونيلاً؟».

«لا، أنا لست في الجيش؟».

«فهمت. أأنت مع قوات حفظ السلام؟».

«لا، أنا أعمل مع شركة ديل مونتي. أظن أنني ذكرت ذلك قبلاً».

«بعض الناس متحمسين جداً تجاه قوات حفظ السلام. الجميع يريد زائراً إذا أمكن ذلك».

«يؤسفني القول إنني لا أعرف الكثير عنها».

«والآخران بالأمس. الجندي الفلبيني والآخر».

«بالأمس؟».

زمّ كاريجنان عينيه وقال: «ألم يكن ذلك بالأمس؟».

قالساندز: «دعني أرتّب تسلسل الأحداث، متى جاء الكولونيل؟».

«آه، قبل بضعة أسابيع. قرابة عيد القديس أنطوني».

«والآخران جاءا بالأمس؟».

«لم أرهما. أخبرتني بيلار عنهما. كنت قد ذهبت إلى أسفل النهر لكي أؤدي الشعيرة الأخيرة لامرأة عجوز تعيش هناك. قالت بيلار إنهما فلبيني ورجل أبيض. ليس أمريكياً، بل أجنبياً. كان معهما قارب من شجر النخيل».

«فهمت، قارب نخيل»، قال ساندز، شاعراً الرمل ينجرف تحت قدميه.

قال كاريجنان: «بوسطن إذن».

«أجل».

«أقلت لي ديل مونتي؟».

«نعم. إنما هذان الزائران – كم هذا غريب، ها؟».

«أظن أنهما ما زالا في النهر، سأسأل بيلار، فهي لديها كل الأخبار من سكان النهر».

«بيلار هي المدبّرة؟ التي قدّمت لنا الشاي؟».

«أهو جيد؟ ليس لدينا الحليب»، ذكره القس بذلك مثلما فعل حين جلسا في البداية.

قال سكيب: «يا ويلي».

بدا أن القس شعر بامتعاض سكيب. بدا قلقاً «حسناً كلنا نعيش محناً روحية. حين كنت صغيراً كنت أكره اليهود بشدة، لأنهم من صلبوا المسيح. كنت شديد الكراهية ليهوذا كذلك، بسبب خيانته».

قال ساندز: «فهمت»، من دون أن يفهم شيئاً.

بدا أن كاريجنان يعاني. بدت الكلمات عالقة في حلقه. تحسّس أنفه بأصابعه «حسناً، هذا كثير على كل فرد أن يواجهه وحده»، قال، وأياً كانت الحقيقة التي

أراد إيصالها، فإن عينيه كانتا الندوب المرئية لهذه الحقيقة.

«أتسمح لي بالتقاط صورة لك؟».

بدا القس فجأة جدياً وقلقاً، وقد ضمّ يداه معاً على صدره. ركز سكيب وكبس زر التصوير ثم استرخى كاريجنان. قال: «أنت تقوم بحج ما أليس كذلك؟ نعم، أنا أيضاً، لقد قطعت رحلة طويلة سيراً على الأقدام إلى نهر بولانجي».

قال سكيب: «يمكننا أن نصلي لواحدنا الآخر».

«أنا لا أصلي».

«لا تفعل».

«لا، لا، لا. لا أصلي».

أحب الأمريكي الشاي. وأصرّ على إحضاره بنفسه. وتكلم مطولاً مع بيلار حول الزائرين الآخرين.

بدا أنه يستمتع بركوب دراجته النارية، مندفعاً بسرعة فوق الحفر، وحزامه يخترق مقبض حقيبته القماش التي تتأرجح جانباً.

في غياب الأمريكي وقف الأولاد حول الدراجة، فاغري الأفواه، متلمسينها بأطراف أصابعهم.

صاح كاريجنان بالإنجليزية: «ها قد جاء»، فتبعثروا فوراً.

لماذا واظب الأمريكي على زيارته خلال الأسابيع القليلة الفائتة؟ لأنه كان يفكر في المبشّر الأمريكي؟ بسبب العظام في الصندوق التي لا تقول شيئاً إلا بكل لغة؟ ربما لأنه فتح ثغرة في عقله حين تكلم للمرة الأولى إلى الزائر الأمريكي، الكولونيل، الأمريكي الأول الذي يقابله منذ سنوات، منذ عقود.

زاره هذا الكولونيل مرتين. جاء بمفرده وتصرّف باحترام. كان رجلاً طيباً وتفاعل السكان معه بحماسة. لكن سواء أكان طيباً أم سيئاً، فإن الرجل القويّ

يتسبّب بالمتاعب.

متقمصاً عيني الزائر أخذ كاريجنان يتأمل الطريق الحمراء الموحلة المؤدية إلى ضفة النهر، الخزان المتصدّع، السقف المغطى بالمشمّع، العفن الفطري الذي يتسلق الجدران. كان الأمريكي يستعمل على الأرجح الحجرة الباطونية، «المرفق» الذي في الأسفل، حجرة معتمة قذرة، يفصلها جدار واحد منخفض عن المطبخ، الذي تطهو فيه بيلار الآن الأرز وتدندن أغنية. إذا أرادت، لأمكنها أن تخطو فوق الحائط وتنظر إلى وجهه وهو مقرفص فوق الفتحة. فتحة المرحاض سيحتاج إلى ورق تواليت. كان ثمة لفافة منها في الحمام، إلا أنها انتقعت بماء المطر ثم جفّت ولم تعد قابلة للاستعمال.

كفت بيلار عن الدندنة في المطبخ وخرجت تحمل صينية أخرى عليها شرائح المانجو والأناناس.

«بيلار، لقد قلت لك إذا جاء الأمريكي ثانية، قولي له إنني لست هنا».

«هذا ليس الأمريكي نفسه».

«لا أحب كثرة الأمريكيين هنا».

«إنه كاثوليكي».

«وهكذا كان الكولونيل».

«ألا تحب الكاثوليك؟ أنت كاثوليكي، وأنا كذلك».

«تتكلمين بسخف ثانية».

«لا أنت السخيف».

كانت تزدريه لأنه أخفق في استغلالها جنسياً. وكان يدرك ذلك. من سيمانع لو فعل؟ كل ما في الأمر أنه يتحرّج من كافة أشكال اللمس.

قالت: «ذلك الشيخ آت لمقابلتك. لقد رأيته للتو من المطبخ. لا تعطه أيّ طعام، فهو لا يكف عن العودة إلى هنا».

«أين هو الأمريكي؟».

«قالت بالإنجليزية: «في بيت الراحة».

انتظر الشيخ حتى مضت بيلار إلى الداخل قبل أن يظهر عند زاوية الكنيسة، ماشياً بصورة جانبية كنوع من الإذعان، لا يرتدي سوى سرواله الكاكي القصير الذي رفعه حتى منشعب ساقيه، وحزمه عند خاصرته بحبل. أومأ إليه كاريجنان، فاقترب الرجل وجلس. مثلهم جميعاً كان لحماً على عظم، مومياء تمشي على قدمين. وكان له الملامح الكئيبة المسطحة لرجل بالغ الحكمة من الأسكيمو. ابتسم كثيراً. بالكاد تبقّت له أيّ أسنان.

«باركني أيها القس، فقد ارتكبت خطيئة». قال ذلك بالإنجليزية من دون أن يبدو فاهماً تماماً فحواه. «باركني وامنحني غفرانك».

«تي أوبسولفو[1]... تناول بعض الأناناس».

أخذ العجوز عدداً من القطع وقال «مارامينج سلامات بو»، شاكراً إليه بلغة تاجلوج، لغة قبيلة لوزون. بدت مقدّمات الشيخ متضمنة عدداً من الألسنة.

«زارني أحدهم في المنام الشهر الماضي»، قال للشيخ، «أظن أنه جاء يحمل رسالة لي».

لم يقل الشيخ شيئاً، وظل مركزاً على طعامه، وقد بدا وجهه غافلاً كوجه كلب.

عاد الضيف الأمريكي من المطبخ لكنه لم يجلب معه الشاي. كان سريع الخطوات، وأطرافه تتحرك بحرية حول التنور العظيم الحار في الوسط، نيران العذاب التي لم يبد مدركاً وجودها.

مع اقترابه، نهض الشيخ عن الكرسي وأقعى بجانبه.

قال كاريجنان للأمريكي: «كنت أخبره عن حلم رأيته. يستطيع معرفة رسالته».

قال الشيخ: «مرحباً بادير».

(1) باللاتينية te obsolvo، بمعنى أنت منعتق.

قال كاريجنان: «إنه يناديك بالأب».

حين انتهى الشيخ من الطعام ومص أصابعه، قال بلغة سيبوانو: «لماذا تقول إن حلمك ينطوي على رسالة؟».

قال كاريجنان: «كان حلماً قوياً».

«هل أفقت؟».

«أجل».

«أعدت إلى النوم؟».

«بقيت صاحياً طوال الليل».

«ثم رأيت حلماً قوياً».

«رأيت راهباً، رجلاً مقدساً، جاء لمقابلتي».

«أنت رجل مقدّس».

«كان يضع قناعاً. كان وجهه هالة فضية».

«اكان رجلاً؟».

«أجل».

«من عائلتك؟».

«لا».

«أرأيت وجهه؟».

«لا».

«أرأيت يديه؟».

«لا».

«هل أراك قدميه؟».

«لا».

بدأ الشيخ يكلم سكيب ساندز بحماسة شديدة وبصوت مرتفع بعض الشيء.

قال ساندز: «أجل كيف حالك؟».

أمسك الشيخ بمعصم الأمريكي. تكلم. صمت. ترجم القس: «يقول إنه في الحلم، حين تنام، تغادر الروح جسدك. ويقوم راعي الأرواح بأخذها...» - تشاور مع المتكلم - «يطارد راعي الأرواح الأرواح، ويقودها كالخراف، إلى الشاطئ، إلى البحر».

تكلم الرجل، سأله القس، شدّ الرجل ذراع الامريكي، ولخص كاريجنان أجزاء القصة: بعد أن تصل إلى البحر، تغرق الأرواح، وفي القاع هناك تجد عالم الأحلام. وهناك أفعى صفراء تحرس حدود بحر الأحلام. وكل من يحاول التنقل بين العالمين ستخنقه الأفعى وسيموت في نومه. لم يتمكن كاريجنان من إيجاد الكلمات الإنجليزية الكافية لكي يكمل الحكاية «إنه يخبر قصة معقدة. أظن أنه مخبّل بعض الشيء».

«لا يحمل هذا العالم ذكرى عن ما قبل الحياة، وما بعد الحياة لا يحمل أي ذكرى عن آلامنا. إذن، كن سعيداً لأن الموت آت».

بعد أن قال هذا، نهض الشيخ وغادر.

«انتظر، انتظر، ما هي النبوءة في حلمي؟».

قال الشيخ: «ألم تسمع ما قلته لك».

أصرّ الأب كاريجنان على إمضاء الليلة على أرجوحة شبكية داخل الكنيسة، في حين أغفا ساندز على سريره في غرفته، مع طبق المناولة، أي أن الطبق قبع بلا نوم على منضدة القس، في حين حاول ساندز النوم على سريره المصنوع من ألواح خشبية وحصيرة من القش تحت شبكة شفافة. صومعة راهب، تتناسب تماماً وحجّه. قرّر أن يسأل كاريجنان عن شيء اقتبسه الكولونيل من الكتاب المقدّس - شيء ما عن وجود رب واحد وإنما خدم مختلفون. الفكرة تناسب

موظفاً حكومياً. بيروقراطية كوزمولوجية... الآن اجتاحه القلق. الكولونيل، وإدي أجوينالدو والألماني، ثلاثتهم جاؤوا إلى هنا، ولم يخبره أحد بذلك. لن يكون الأمر مجدياً إذا كتم الكولونيل أموراً عنه. حرّك ذلك بقعة من الشك كامنة في نفسه، شك في جدارة الكولونيل، في صوابية أحكامه، وفي قوة إدراكه. كان الكولونيل مجنوناً بعض الشيء. لكن من ليس كذلك. كانت المشكلة أن الكولونيل ربما لا يثق بمهارات ابن أخيه، وربما أرسله إلى مهمة زائفة. استيقظ في لحظة ما من حلم ذي قوة توراتية، حلم تنبؤي، أكد أن جزيرة ميندناو لا تشكل أهمية بالنسبة إلى أمريكا، وأن هذا القس الكاثوليكي لا يمكن أن يهرب أسلحة إلى المسلمين، أن الحياة نادته – سكيب ساندز الامريكي الهادئ، الأمريكي البشع – إلى هذا المكان فقط لكي تزيد من فهمه من أجل عمله المستقبلي. لأنه ليس من عمل يقوم بها هنا في الوقت الحالي. لم يبق في ذاكرته أي تفصيل من الحلم، سوى هذا اليقين.

شرح كاريجنان للأمريكي أن بعض الناس ربما يأتون اليوم إلى الشعيرة الصباحية لأن اليوم هو عيد القديسة ديونيسيا المحبوبة من قبلهم.

لم يسمع الأمريكي قطّ بالقديسة ديونيسيا. لم يسمع بها أحد. «بلى، إنها قوية جداً هنا. بناء على معجزاتها على طول النهر، ستطوّب كنيسة إن لم تكن قد طوّبت أساساً. وقد استشهدت في القرن الخامس في شمال أفريقيا. كان استشهادها مؤثراً.

في عظة دينية قبل عقود، وببراءة تامة، صوّر كاريجنان آخر عذابات ديونيسيا لمجموعة كبيرة من الناس، فإذا بها اليوم تتمتع على طول النهر وعرضه بمكانة أسطورية، ويعزو الناس لها الكثير من أعمال الشفاء ويزعمون أنهم رأوها او أنها زارتهم، والكثير من الإشارات والرسائل. «أحاول إذن أن أذكر الناس في يوم

عيدها. لكن ليس من السهل على سكان النهر معرفة المواعيد. فهم لا يملكون التقاويم».

جاء حفنة من الأشخاص إلى الشعيرة فحسب. قبل ذلك عمّد القسّ مولوداً على ضفة النهر، مقطراً المياه المعتكرة على جبينه، وقد شرح للأمريكي: «ليس لدينا مياه مقدّسة على النحو المألوف، لذلك أفتى الأسقف بأن النهر كله مقدّس. وهذا ما أقوله لهم.

ملفوفاً في منديل، كان الطفل طرياً، مغمض العينين، فمه مفتوح ينفخ فقاعات من اللعاب. كانت أمه طفلة هي الأخرى.

قال الأمريكي: «يبدو الطفل شديد الاعتلال».

«ستفاجأ بمن يموت منهم ومن يحيا، إنها دوماً مفاجأة».

اجتمعوا لقداس المساء. رأى - بعينيّ الزائر - كل شيء جديداً: الحجرة الرمادية الصغيرة، والرعية، وهي حفنة، ربما عشرة أو أحد عشر أو أربعة عشر فرداً جاهلاً، من ضمنهم الأمريكي. بضع نسوة عجائز، بضع شيوخ، بعض الأطفال سود العيون راشحي الأنوف. لم يبك الأطفال. من وقت لآخر يسعل أحدهم أو يصدر صوتاً أجشاً. النسوة العجائز تغنين الترانيم، وحرّك الرجال شفاههم من دون أن يلفظوا الكلمات فعلاً.

برز الزائر، الذي جلس بينهم على مقعد خشبي ببنطاله الكاكي وقميصه الأبيض المتسخ، وكأنه الأمريكي الأخير، صادقاً ودوداً مصغياً جيداً، بيد أنه في صلب عينيه كان ثمة وحدة مرعبة.

من أيّ سفر هذه العظة؟ لقد فقد مجدداً نسخته من الكتاب المقدّس، برنامج طقس القربان المقدس. لم يرجع إليه في الواقع منذ سنوات، فقط قرأ ما أراده، على أيّ مكان يفتح عليه الكتاب «هذا شيء ما»، قرأ بالإنجليزية: «فإن كان من عزاء في المسيح، ومن هناء في المحبة، ومن مشاركة في الروح، ومن حنان ورأفة...»[1].

(1) العهد الجديد، رسالة بولس الرسول إلى أهل فلبي، 2: 1.

حاول أن يشرح باللغة المحلية ما يعتقد أنه معنى «حنان ورأفة»، وختم بالقول: «لا أعرف ماذا تعني هذه العبارة. ربما كانت تعني شعورنا تجاه عائلاتنا».

ثم راح يقرأ من إنجيل متى (27: 5): «فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى فخنق نفسه».

والآن الموعظة: «بالإنجليزية اليوم»، ولم يقدّم تعليلاً لذلك. ربما لم تكن من حاجة إلى ذلك، فوجود الأمريكي افترض مثل هذه اللياقة، من دون أن يعني ذلك أن أياً من الموجودين سيفهم الأفكار المطروحة بأي لغة من اللغات. عبدة مصاصي دماء يؤمنون بالخرافات. إلا أنه هو نفسه رأى مرة الأسوانج يطير حاملاً بين فكيه أحد أطراف طفل يقطر دماً.

«قلت لهم إنني سألقي الموعظة بالإنجليزية. ليس لدي مادة محضّرة. نتكلم عما قرأناه اليوم، عن يهوذا الإسخريوطي الخائن: «فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى فخنق نفسه».

«يعود إلى الهيكل، إلى أولئك الذين دفعوا له المال لكي يخون سيده. يريد أن يعيد لهم فضتهم القذرة إلا أنهم يرفضون استعادتها. أفكرتم يوماً في السبب؟ لماذا يرفضون مبلغاً جيداً من المال كهذا؟ ما السبب؟ فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى فخنق نفسه».

«لقد قمت باعترافي الأخير. من أكثر من يشبهني في الكتاب المقدّس – من أكثر من أشبهه؟ يهوذا. يهوذا الخائن – هذا هو أنا. ماذا هنالك أكثر من ذلك للاعتراف به؟ لم يدفع لي أحد لكي أخون المسيح، لكن ما المهم في ذلك؟ لن أستطيع أن أرد لهم المبلغ قطّ. لن يستعيدوا قطّ فضتهم القذرة».

منذ ما يزيد على الثلاثين عاماً لم يتكلم لهذه المدة بلغته الأصلية. تركها تتدفق منه، وأخذت الإنجليزية تخرج من رأسه كأنما من خلال مكبّر للصوت. «كانت جدتي تستعمل هذا التعبير «الحنان والرحمة». لم أسألها يوماً عما يعنيه.

«أتذكر الآن كيف رفضت جدتي. أحببتها حباً جماً، وكنت المفضل عندها،

لكن حين بلغت بداية مراهقتي، ربما الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، جاءت لتعيش معنا، ولم أكن لطيفاً البتة معها. كانت مجرد امرأة عجوز، وقد عاملتها معاملة بالغة السوء.

«لا أحب أن أتذكر ذلك. فالذكرى مريرة للغاية. لقد أحبتني جدتي، وعاملتها بقلة احترام. لم أكنّ الحب لأحد من الناس.

«هنا، بالطبع، حيث يعيش الناس في فقر مدقع، وتحت وطأة الأمراض، لا يمكنك أن تحبهم. فهذا سيؤدي إلى خرابك. سيؤدي إلى خرابك. الجميع هنا يعرف كيف يحب، لكن أن تبادلهم المحبة فهذا أشبه بالرمال المتحركة التي تغرق فيها. لست المسيح. ولا إنسان هو المسيح.

«في أوقات أخرى نحن اللص على الصليب، ذلك الذي صلب إلى جوار المسيح، الي التفت إليه وقال «اذكرني متىء جئتَ في ملكوتك»، وأخذت الشفقة المسيح به فقال «أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس»[1]. أعتقد حقاً أننا ينبغي أن نكون هذا أو ذاك. إما أن نكون الخائن، وإما أن نكون اللص.

«أنظر حولي وأفكر: كيف وصلت إلى هنا، إلى ناساداي؟ كيف وصلت إلى هنا؟ هذه ليست إلا أحد أركان المتاهة. جزيرة في المستنقع. يهوذا قفز في حفرة، والرب يعلم، وحده الرب يعلم ما إذا كان سيخرج منها يوماً، أليس كذلك؟ الأمر كله منوط بالرب. من نحن؟ إننا يهوذا أحياناً. إنما يهوذا... يهوذا خرج وشنق نفسه.

«هذه السنوات الثلاثين، وما يزيد عن الثلاثين، أمضيتها بين البرابرة، بين آلهتهم وإلاهاتهم الأقوياء، هاضماً التقاليد، التي ليست حكايات شعبية عن الجن، بل إنها حقيقية، تصير حقيقية ما إن تجعلها جزءاً من حياتك الجوّانية، وقد أدخلت إلى داخل عقلي جميع صور حكاياتهم والعيش في مغامرات الأسلاف، والسنوات التي أمضيتها وجهاً لوجه مع شياطينهم وقديسيهم الخطرين. أولئك

(1) إنجيل لوقا، 23: 42.

القديسون الذين يحملون أسماء القديسين الكاثوليك، إنما لكي يقنّعوا أنفسهم فحسب... كم مرة كدت أضيع فيها إلى الأبد، كم مرة طفت في تلك الأنحاء من المتاهة التي لا عودة منها... لكن دوماً تأتي لمسة الروح القدس في اللحظة الأخيرة، قبل أن تدمرني الآلهة، دائماً في اللحظة الأخيرة أتلقى ما يذكرني بمن أكون، ولماذا جئت إلى هنا. مجرد لمحة خاطفة، كما تعرفون، مجرد تذكير بمن أنا حقاً. ثم أعود إلى النفق من جديد».

بعد انتهاء القداس رحل المصلون، فتعرّى كاريجنان مبقياً على سرواله التحتي وصندله، ونزل لكي يستحم في النهر.

هدر محرك قارب مصنوع من خشب النخيل، وهذا يندر وجوده في النهر، فتوقف عن الخوض في الماء وأخذ ينظر. مرّ الركاب في نطاق بصره، ثم أخذ المحرك يتوقف تدريجياً حتى توقف كلياً، وأخذ الرجلان اللذان على متن المركب بالاقتراب من الشاطئ. لوح لهما كاريجنان. تواريا عن أنظاره، وقد اختفيا وراء سعف نخيل الساغو[1] الواطئة المنتشرة على امتداد الضفة.

خاض في الماء حتى خاصرته وبدأ يستحم.

يا لها من موعظة سخيفة. بسبب اللغة الإنجليزية، عاوده السخط القديم، وأخذ يكابد للنهوض في داخله بضماداته الدامية - روحه وأمراض روحه.

كيف وصلت إلى هنا؟ يبرز يهوذا في المتاهة فجأة.

خرج من النهر مطرق الرأس إنما غير شاخص نحو قدميه، شارد الفكر، مضطرباً بسبب ضروب اللؤم التي مارسها في مراهقته، والتي أياً منها لم يكن جسيماً، إلا أنها أرعبته الآن لأنها ارتكبت بنوع من اللا أخلاقية التي، لو استمرت، لجعلته خطراً جداً على العالم.

(1) Sago Palm: نبات يشبه النخيل ينمو في المناطق الجافة ويدعى أيضاً بسرخس النار لأنه يتحمّل الحرائق ويزداد نمواً فيها.

التفت ورأى بين سعف النخيل منظراً مثيراً للاهتمام: رجل غربي في زي غربي يضع أنبوباً طويلاً بين شفتيه. شيء يشبه أنبوب القصب. وبينما أخذ كاريجنان يتأمل المنظر، ويستعد لإلقاء التحية، ضمر خدا الرجل اللذان كانا منتفخين، وشيء ما لسع القس فوق تفاحة آدم، وبدا أنه استقر هناك. مدّ يده لكي يزيله بالحك. بدأ يشعر بالتنميل في لسانه وشفتيه، وشعر بحرقة في عينيه، وفي غضون ثوان بدأ يشعر كأن لا رأس له على الاطلاق، ثم بفقدان الإحساس بيديه ورجليه، وفجأة لم يعد يشعر بأي من أعضائه، التي بدا كل واحد منها قد مضى بعيداً منه. لم يشعر بنفسه وهو يخرّ ساقطاً في الماء، وفي الوقت الذي غاص فيه في الماء كان قد فارق الحياة.

بعد أن قضى حاجته داخل أجمة بجوار النهر، وصل ساندز إلى ممر منخفض عن مستوى الكنيسة، والتقى صبيين صغيرين جداً يركبان ثوراً على حافة خندق مائي. ابتسما بحياء وشك «بادير.. بادير...».

ربما ظنّاه كاريجنان - ربما كانا يظنان أن ليس في العالم برمته سوى كاهن واحد يتخذ أشكالاً عدة.

رمى لهما بعض اللبان. أحدهما لم يتمكن من التقاط حبته فنزل مسرعاً عن ظهر الحيوان العريض لكي يلتقطها عن العشب على حافة الخندق المائي.

«بادير... بادير...».

قال ساندز: «لست بأبيكما».

في ضوء الغروب شاهد القارب يمضي مسرعاً في مجرى النهر عبر ضباب سحري مصطبغ بألوان قوس قزح، تدفعه مروحة قوية صامتة، ويقف على متنه رجلان. لم يكن ثمة في الرجلين، وهما هناك في النهر وراء غشاء من الضباب، ما يدفعه إلى القول في أيّ ظروف أخرى: «هذان أجوينالدو والألماني»، لم يكن

من دليل قوي بما فيه الكفاية لكي يذكرهما، فلنقل، في تقريره. إلا أن هذين الرجلين كانا يكمنان، ثم عاودا الظهور فجأة. كان موشكاً على أن يستدير على أعقابه ويجري إلى الكنيسة لكي يحضر منظاره المكبر، بيد أنه رأى القس يسبح قبالته ووجهه إلى الأسفل. من يسبح على هذا النحو؟ الغريق. خاض ساندز في الماء باتجاهه. وقع في حفرة وغمرته المياه حتى رأسه. طفا ثانية، ورأى كارينجان يتقلب على صفحة الماء، وقد جرّته المياه معها. بدأ بالسباحة نحوه، ثم غيّر رأيه، وهرع إلى الضفة وراح يجري بمحاذاة الماء حتى وصل إلى أسفل النهر، فخلع صندله، وخاض أعمق في المياه، محاولاً الإمساك بالقس المندفع مع التيار. أساء تقدير الامور. فالقسّ المرتخي الأطراف، الأشبه بجثة هامدة - ربما الميت - انحرف بسرعة فجأة مع التيار، ومضى إلى وسط المياه التي يبلغ عرضها زهاء ربع ميل.

مجدداً تخلى ساندز عن فكرة السباحة، وعاد إلى الضفة ومضى، حافي القدمين الآن، نزولاً بمحاذاة النهر. غير اتجاهه نحو أحد البيوت، رأى قارب بانكا[1] مقلوباً على العشب بجواره، صاح منادياً، ولكن لم يكن أحد في البيت، حاول أن يقلب القارب على حرفه لكنه أخفق، فأخذ يحاول جره باتجاه النهر. أوقفه رجل، شاب مفتول العضلات، حافي القدمين، عاري الصدر، مرتبك، يرتدي سروالاً قصيراً أحمر اللون. أدرك فوراً اللحظة الطارئة وحمل مجذافاً مستنداً إلى جدار البيت. كل من الرجلين أمسك بطرف من القارب وجراه إلى الشاطئ، ووضعاه في الماء بحرص، ومضيا وراء الجثة، الفلبيني يجدف والأمريكي يؤشر إلى الاتجاه، مقتربين تدريجياً من القتيل الماضي نحو «ليأت ملكوتك»[2].

---

(1) أو قارب الموز، يصنع من خشب الموز.

(2) عبارة في «الصلاة الربيّة»، عادة ما يفسر هذا الدعاء بأن مملكة الرب ستأتي من دون مساهمة بشرية سوى الصلاة، في حين يرى آخرون أن هذه المملكة لا تتحقق إلا على أيدي المؤمنين الذين يعملون للوصول إلى عالم أفضل.

في اليوم التالي أعاد ساندز دراجة الهوندا النارية للأسقفية وأبلغ عن موت الأب توماس كاريجنان غرقاً. حزن الأب هاداج لهذه الخسارة، وفوجئ بسماع النبأ بهذه السرعة، قائلاً: «أحياناً يتطلب وصول الأخبار من سكان النهر أسابيع».

استغرقت هذه المهمة طوال فترة بعد الظهر. بعد ذلك حجز ساندز غرفة في «كارمن» وتناول الدجاج المشوي والأرز مع ثلاثة رجال من هيئة الزراعة الذين صادفهم ببساطة على الطريق السريع الذي يخترق البلدة، وكانوا جيمعاً يطوفون بحثاً عن مطعم. استقر بهم الأمر أخيراً في كشك على جانب الطريق يشوي فيها أحدهم أفخاذاً وسيقاناً عجفاء على فحم من أصداف جوز الهند، ناقعاً إياها في مزيج من مرق الصويا والبهارات والكوكا كولا. أخذت الكلاب الجائعة تتفرج عليهم وهم يأكلون. وأعرب دافيد ألفيرول، كبير الموظفين الزراعيين الثلاثة، عن رغبته في القيام بجولة في البلدة مع الأمريكي، إلا أن ساندز كان يشعر بإنهاك شديد. وفي حين بقي الآخران رابطي الجأش، فقد بدا دافيد ألفيرول شديد الحماسة للقائه الأمريكي إلى درجة أن هذا الأخير الأمريكي ارتاب في سلامته العقلية. ظلّ يكرر كلامه، معيداً العبارات التعارفية مرات ومرات وقد التمع وجهه بالعرق، وأيضاً بفعل حرارة داخلية، داعياً كل دقيقتين الضيف الأمريكي لزيارته في منزله من أجل «إجراء محادثة»، قائلاً له: «أنت مسل جداً، نوعي المفضّل من الأشخاص. ألا تستطيع مرافقتنا لنصف ساعة من الزمن؟». أخذ دافيد يزداد إلحاحاً، وسط شعور رفيقيه بالحرج، متضرعاً للأمريكي بثمالة والدموع تغرورق في عينيه، والأمريكي يترجل من سيارتهم الجيب الحكومية أمام النزل الصغير الذي ينزل فيه. «أرجوك سيدي، أرجوك، نصف ساعة فحسب، سيدي، سيدي، إنني أرجوك، نعم رجاء....». ضرب ساندز موعداً معهم ليوم غد، منبهاً إياهم إلى أن برنامجه قد يمنعه من الالتزام بهذا الموعد. رحلوا، وقد فهم ساندز والرجلان الآخران، أنهم لن يروه مجدداً، أما دافيد ألفيرول فكان يتوقع أنه سيلقاه في الصباح الباكر

لم يخبر ساندز الاب هاداج عن السهم المسموم البالغ طوله ثماني بوصات الذي نتأ من رقبة كايجنان.

اضطجع في غرفة النزل مستيقظاً مفكراً بالقاتل الألماني. ما بدا في السابق في الألماني متخنثاً بدا الآن شاعرياً – نظاراته، شفتاه الغليظتان، جلده الشاحب. كان يتعامل بحميمية مع الموت، ويعرف الأشياء. كان ساندز يحسبه متغطرساً ومزعجاً. أما الآن فبدا أنه يحمل عبئاً خارقاً للعادة.

تماماً مع عودته إلى دامولوج اجتاح النمل الأحمر الصغير المدينة. وكان يملأ طاولته في مطعم «صن شاين»، وعلى سريره في فندق كاسترو.

كان يمكن أن يمضي قدماً إلى دافاو سيتي على الطرف الجنوبي من الجزيرة وأن يركب الطائرة إلى مانيلا. إلا أنه عاد إلى دامولوج بدلاً من ذلك. كان يمكن أن يمضي ليلة هناك كحد أقصى منتظراً الحافلة. لكنه مكث ثلاثة أسابيع واضعاً تقريراً لا يحتوي على أي معلومة مهمة، قوامه القيل والقال من العمدة إمتيريو دي لويس، من دون استخلاص أي استنتاجات حول طبيعة علاقات القس ومن يتحمل المسؤولية عن مقتله.

كان ساندز في حقيقة الأمر أيه دبليو أو أل[1]. دفن تقصيره في جهد لا طائل منه ومارس انفصالاً باسلاً عن إحساسه بالمرارة. وأمضى لياليه مع السيدة جونز.

(1) AWOL: تعبير عسكري، اختزال لعبارة Absent Without Official Leave، أي

1966

بدأت إجازة بيل هيوستن في شاطئ هونولولو بمناوبة صدر النهار، وهو وقت مبكر جداً بالنسبة إلى رجل يملك مالاً لينفقه: ففوق كل شيء، أرادت البحرية حرمانه من أي حياة ليلية. ركب حافلة مكوكية[1] من محطة القوات البحرية، عبرت به الحقول المفتوحة لقاعدة سلاح الجو ثم داخل البلدة إلى شاطئ وايكيكي، حيث تنقل مثبط الهمة بين الفنادق الكبيرة، وجلس على الرمل ببنطاله «الليفيز» وقميصه الهاواي وحذاءه النظيف جداً - جلد غزال أبيض ذو نعل مطاطي أحمر - وتناول لحم الخنزير المشوي على سيخ خشبي في أحد الأكشاك، ثم استقلّ الحافلة إلى ريتشاردز ستريت، وحجز سريراً في «جمعية الشبان المسيحيين» التابعة للقوات المسلحة، ثم بدأ يعاقر الخمرة في حانات الواجهة البحرية عند الواحدة من بعد الظهر.

جرب مكاناً مكيفاً يفضله الضبط الشبان، حيث جلس بمفرده إلى إحدى الطاولات مدخناً «لاكي سترايكس» ومحتسياً «لاكي لاجير». أشعره ذلك بأنه محظوظ. وحين جمع ما يكفي من الفكة اتصل بالبيت في البر الرئيسي، وتكلم إلى شقيقه جايمس.

لم يزده ذلك إلا إحباطاً. كان جايمس غبياً. وكان سينتهي به الأمر مثله في الجيش.

مشى على الواجهة البحرية والجعة تهدر في رأسه، وشعور بالوحدة يمسك بتلابيب قلبه. وبحلول الساعة الثالثة من بعد الظهر، كان رصيف هونولولو قد صار قائظاً إلى حدّ أن حذاءه المطاطي صار يلتصق بالأرض وهو يمشي.

اختبأ داخل حانة «بيج سيرف كلوب» متناولاً الجعة مع رجلين يكبرانه قليلاً

(1) Shuttle Bus: تسمى حافلة المطار أيضاً، وهي حافلة تنقل المسافرين من المطار وإليه، وتكون عادة مزودة بمساحات واسعة لسهولة وضع الأمتعة.

في السن، أحدهما يدعى كيني، انضم مؤخراً إلى ملاحي سفينته – يو أس أن أس بونرز فيري – وهي ناقلة نفط تي 2، يديرها في الغالب مدنيون، ومنهم كيني. إلا أنه لم يذهب بعد في رحلة استوائية. كان قد أمضى وقته في البحرية، متنقلاً من سفينة إلى أخرى، ولم يكن لديه بيت حقيقي على اليابسة. كان كيني قد ربط نفسه إلى أحد متسكعي الشاطئ حفاة الأقدام ممن يبدون مدمنين على نوع ما من المخدرات. دفع المتبطّل ثمن دورتين من الشراب وأخيراً كشف أنه خدم مع الفيلق الثالث في المارينز في فييتنام قبل أن يعود إلى الديار في تسريح مبكر. قال: «نعم يا عزيزي، لقد حصلت على الإعفاء الطبي».

«لماذا؟».

«لماذا؟ لأنني متخلف عقلياً».

«لكنك تبدو بخير».

قال كيني: «تبدو بخير إذا قدّمت لنا الجعة».

«لا مشكلة، أنا أتقاضى راتب ذوي الحاجات الخاصة، مئتين واثنين وأربعين دولاراً في الشهر، يمكنني شرب كمية كبيرة من الهامز[1] يا رجل، إذا نمت على الشاطئ مثل «الموكس»[2] وأكلت ما يأكلوه الموكس».

«ماذا يأكل الموكس؟ من هم الموكس؟».

«حولك هنا ثمة الموكس والهوليز. نحن الهوليز. أما الموكس فهم السفلة المحليون. ماذا يأكلون؟ يأكلون الأطعمة البخسة. ثم هناك الكثير من الجابس والشينكس[3]، لعلك لاحظت ذلك. إنهم يندرجون ضمن فئة

(1) Hamm's: جعة أمريكية كانت معروفة جداً منذ بداية القرن العشرين وحتى الثمانينيات منه، بل كان اسمها مرادفاً للجعة، أما اليوم فلم تعد هذه الجعة تنتج ولا عاد اسمها معروفاً.

(2) Mokes: تعبير يطلقه السكان المحليون في هاواي على الرجل الذي يعاقر الخمرة أو المخدرات أو بصورة أعمّ يتكلم باللغة الإنجليزية المبسطة، وهنا يطلقه الأمريكيون عموماً على السكان المحليين أيضاً، أما كلمة Howlies فتعبير عائد أيضاً إلى هاواي وتطلق على السائح الأبيض.

(3) Japs and Chinks: كلاهما تعبير عنصري، النقصود بهما اليابانيين والصينيين.

الجوك[1]. أتعرف لماذا طعام الجوك منتن إلى هذا الحدّ؟ لأنهم يقلونه مع براز الفئران والصراصير وأي شيء يمكن خلطه مع الأرز. لا يهمهم الأمر. تسألهم ما رائحة العفن الرهيبة هذه هنا، ولا يبدو أنهم يعرفون عمّ تتكلم. أجل، لقد رأيت بعض الأشياء»، ومضى المتبطّل متكلماً على هذا النحو «هناك يرتدي الجوك قبعات القش المضحكة تلك، لعلك رأيت هذه القبعات، إنها مستدقة الطرف! ترى فتاة ما على دراجة هوائية، تمسك قبعتها في أثناء مرورك بها، وإذا بك تقتلع رأسها لأن القبعة مربوطة إلى رأسها بحبل. توقعها أرضاً يا رجل، إلى الوحل مباشرة. وذات مرة رأيت واحدة منحنية على هذا النحو، كانت رقبتها مكسورة. كانت ميتة».

ارتبك بيل هيوستن أيما إرباك: «ماذا؟ أين؟».

«أين؟ في فيتنام الجنوبية يا رجل، في بيان هوا. في وسط المدينة عملياً».

«هذه فوضى عارمة يا رجل».

«أحقاً؟ وأي فوضى حين تدس إحدى هؤلاء الحبيبات قنبلة في أحضانك لأنك سمحت لها بالجلوس قربك على الطريق يا رجل. إنهم يعرفون القواعد. يعرفون أنهم يجب أن يبقوا على مسافة. أولئك الذين لا يحتفظون بهذه المسافة يحملون قنبلة يدوية على الأرجح».

لاذ هيوستن وكيني بالصمت. لم تكن لديهما تجربة تقارن بهذه التجربة يمكنهما الحديث عنها. شرب الرجل جعته. وهبطت عليهم لحظة أشبه بالنوم. ظل الجميع صامتين لكن المتبطّل قال وكأنه يجيب عن سؤال ما: «هذا ليس بالقليل. لقد رأيت بضعة أشياء».

قال كيني: «فلترنا بعض الجعة، أوليس هذا دورك؟».

بدا أن المتبطل لا يتذكّر من اشترى ماذا من قبل. فواظب على طلب الجعة.

---

(1) Gook: تعبير عنصري يطلق على الكوريين، وهناك جدال حول أصل الكلمة لكنه يعود عموماً إلى زمن الحرب الكورية.

عاد جايمس هيوستن من اليوم الأخير من عامه الثالث في الثانوية. ترجل من الحافلة رافعاً إصبعه الوسطى في وجه السائق زاعقاً.

كانت أمه قد أمّنت توصيلة إلى العمل تاركة الشاحنة في الطريق الخاصة المؤدية إلى البيت. وقف شقيقه الصغير بيريس على الطريق واضعاً إصبعه في أذنه، محملقاً في مسدسه الدمية وهو يضغط تكراراً على الزناد.

«انتبه لعينيك يا بيريس. سمعت عن ولد أصيب بشرارة في عينه، وأخذوه إلى المشفى».

«مم هي مصنوعة الكبسولات؟».

«من الخردق».

«ماذا؟ الخردق؟».

رن الهاتف في الداخل.

قال بيريس: «ليس مسموحاً لي بأن أرد».

«هل أعادوا الحرارة؟».

«لا أعرف».

«إنه يرن أليس كذلك؟».

«اخرس».

«ها قد توقف عن الرنين أيها المغفل».

«لم أكن لأرد على أية حال. أشعر أن البعوض يتكلم على الطرف الآخر، لا البشر».

قال جايمس: «أنت ولد ظريف». ومضى إلى الداخل حيث كان الجوّ حاراً تفوح منه قليلاً رائحة النفايات. كانت أمه ترفض تشغيل المبرّد التبخيري[1] إلا إذا

(1) Evaporative Cooler: مبرّد يعمل على الماء، يستعمل في الأماكن الصحراوية الحارة، وهو =

بلغت الحرارة مئات الدرجات.

كان يحمل كدسة أوراق من المدرسة، واجبات وفروض، تقرير، نشرات متعلقة بنهاية العام الدراسي. رماها في القمامة تحت المغسلة.

رنّ الهاتف ثانية. كان شقيقه بيل جونيور.

«الطقس حار في فينيكس؟».

«الحرارة تكاد تصل إلى المئة، نعم».

«وهنا أيضاً، الجو شديد الرطوبة».

«من أين تتكلم؟».

«من هونولولو، هاواي. قبل ساعة كنت أقف على شاطئ وايكيكي».

«هونولولو؟».

«نعم».

«أترى أي من راقصات الهولا[1]؟».

«أرى حفنة من العاهرات فحسب. لكنني واثق من أنهن يرقصن الهولا».

«أراهن على ذلك أيضاً».

«ما أدراك أنت بذلك؟».

«أنا؟ لا أعرف، كنت أتكلم فحسب».

«اللعنة، أتمنى لو كنت في أريزونا الأليفة».

«حسناً، لست أنا من عاود التطوع».

«يمكنك وضعي في صحراء نظيفة لطيفة في أي وقت تريد. هناك الحرّ نزيه، أليس كذلك؟ إنه جاف ويحرق. أما هنا فإنه يؤدي إلى التعرق. هاي تخيل هذا يا فتى، أرفعت يوماً غطاء إبريق يغلي بمياه المجاري؟ هذا ما يشبهه الخروج إلى الشارع هنا».

= مختلف عن مكيّف الهواء.

(1) Hula: رقصة معروفة في هاواي.

قال جايمس: «إذن، أخبرني ما الأخبار أيضاً؟».

«كم تبلغ من العمر على أية حال؟».

«سأبلغ السابعة عشرة عما قريب».

«ماذا تنوي أن تفعل؟».

«ماذا سأفعل، لا أعرف؟».

«هل أنهيت المدرسة؟».

«لا أعرف».

«ماذا تقصد بأنك لا تعرف؟ هل تخرّجت أم لا؟».

«بقيت أمامي سنة حتى التخرج».

«أليس من شيء تفعله إلى جانب التخرج؟».

«ليس من مكاني هنا. أم أنني كنت أفكر بالجيش، ربما».

«لم لا تنتسب إلى البحرية؟».

«هناك الكثير من البحارة في البحرية يا رفيق».

«يا لك من متذاك يا رفيق. من الأفضل لك ان تنضم إلى الجيش يا رفيق. لأنك ستتعرض للركل يومياً حيث أنا في البحرية».

أحسّ جايمس بالإرباك. بأنه لا يعرف فعلياً هذا الشاب.

قاطعت المكالمة عاملة الهاتف، وكان على بيل وضع المزيد من القطع المعدنية.

قال جايمس: «أأنت في حانة أم ماذا؟».

«أجل، في حانة. أنا في حانة في هونولولو، هاواي».

«إذن، أظن أن...». لم يعرف كيف يكمل الجملة.

«أجل، لقد ذهبت إلى الفلبين وهونغ كونغ وهونولولو، دعني أتذكر أين أيضاً، لا أعرف - والبلدان الاستوائية ليست جنات استوائية، أؤكد لك. إنها مليئة بالعفن - بعوض، وعرق، وقمامة، ولا أعرف ماذا أيضاً. ومعظم الفاكهة

الإستوائية الرائعة التي تراها، إنها متعفنة. تراها مسحوقة في الشارع».

قال جايمس: «حسناً، يسرني أنك اتصلت».

قال بيل: «نعم».

«طيب».

«طيب. قل لها إنني أحبها».

«حسناً، إلى اللقاء».

«لحظة، اسمع جايمس».

«أجل؟».

«أما زلت على الخط؟».

«أنا هنا».

«انضم إلى المارينز يا رجل».

«آه، ثمة مبالغة في أهمية المارينز».

«جندي المارينز يحمل سيفاً».

قال جايمس: «المارينز هم البحرية حقاً، جزء من البحرية».

«أجل... حسناً».

«إذن...».

قال بيل جونيور: «وحدهم الضباط يحملون السيوف على أية حال».

«نعم...».

قال بيل: «حسناً، عليّ أنام قليلاً».

«فلتنم قليلاً».

«ما أدراك أنت؟»، قال شقيقه ضاحكاً وهو يقفل الخط.

بحث جايمس في أدراج المطبخ وعثر على نصف علبة من سجائر «سالم» التي تخص أمه. وقبل أن يخرج من الباب رن جرس الهاتف.

«أهذا أنت ثانية؟».

«على حدّ علمي، نعم».

«ماذا هنالك؟».

«سلم لي على ساوث ماونتن»[1].

«لم نعد نرى ساوث ماونتن. إننا نرى باباجو باتس».

«في الجانب الشرقي؟».

«إننا في ماكدويل الشرقية[2]».

«إيست ماكدويل؟».

«أف، أليس هذا بمكان لعين؟».

«أنتم هناك في الصحراء!».

«أمنا تعمل في حظيرة خيول».

«لعنة لعناء».

«لديها خبرة بالجياد من أيام طفولتها».

«احذر لئلا يعضك مسخ جيلا[3]».

«ليس من فيء هنا، لكن لا بأس. إننا بجوار محمية بيما[4] تماماً».

«وأنت في المدرسة».

«إنني في بالو فيردي منذ بعض الوقت، منذ أكتوبر ربما».

«بالو فيردي؟».

«نعم».

«بالو فيردي؟».

«نعم».

---

(1) سلسلة جبلية في جنوب فينيكس، أريزونا.

(2) سلسلة جبلية تقع على بعد عشرين ميلاً إلى شمال شرق فونيكس، أريزونا، وباباجو باتس، وهي اليوم حديقة طبيعية سياحية تقع هناك.

(3) Gila Monster: عظاءة أمريكية ضخمة.

(4) Pima: قبيلة هندية في أمريكا الشمالية، تمتد من جنوب أريزونا إلى شمال المكسيك.

«حين كنا نعيش في ساوث سنترال، كانت مدرستنا تلعب باولو فيردي في كرة السلة أو ما شابه، أو كرة القدم. ما كان اسم مدرستنا في ذلك الحين؟».

«أنا ذهبت إلى الإعدادية هناك. مدرسة كارسون الإعدادية».

«اللعنة عليّ. لا أذكر اسم الثانوية التي ذهبت إليها».

«أليست هذه التفاهة بعينها؟».

«أذهبت يوماً إلى فلورنس».

«لا».

«أترى أبانا؟».

«لا»، قال جايمس، «لأنه ليس أبي، لهذا السبب».

«حسناً، تجنب المتاعب، وتعلم من هذا المثال».

«أنا لا أتبع أياً من مثله. ولا أنظر حتى إلى مثله».

قال بيل جونيور: «حسناً، على أية حال...».

«على أية حال.. أجل. أأنت حقاً في وايكيكي بيتش؟».

«ليس حقاً. ليس في هذه اللحظات».

«إننا تقريباً عند فيفتي سكوند وماكدويل. لديهم حديقة حيوانات هناك».

«لديهم ماذا؟».

«أجل، حديقة حيوانات صغيرة».

«اسمع، قل شيئاً لماما... متى ستعود إلى البيت؟».

«لاحقاً... بعد ساعتين».

«ربما سأتصل بها. أريد أن أخبرها شيئاً. هناك شابان على سفينتي من أوكلاهوما، إذن على أية حال، أتعرف ماذا قال كلاهما؟ قالا إنني أبدو من أوكلاهوما، فقلت: حسناً سيدي، لم أذهب يوماً إلى هناك... لكن عائلتي فعلت. قل هذا لأمي، موافق؟».

«سأفعل».

«قل لها إنها حبلت بي في أوكلاهوما، وخرجت كما أنا من هناك».

«أوكي».

«أوكي[1]– هذه اختصار لأوكلاهوما!».

أجل، أليست هذه بالتفاهة؟».

«حسناً».

«حسناً، إلى اللقاء».

أقفلا الخط.

ثمل كلورد[2]، فكّر جايمس. على الأرجح مدمن على الخمرة مثل أبيه.

دخل بيريس حاملاً مسدسه الدمية بيد وقرن بوظة باليد الثانية، مرتدياً سرو القصير فحسب، بادياً مثل رجل عصا[3] صغير.

«قال: «أظن ثمة شرارة خردق في عيني».

«قال جايمس: «يجب أن أذهب».

«أثمة شرارة في عيني؟».

«لا. اخرس أيها الولد الغريب».

«ألا أستطيع أن أركب على ظهر الشاحنة؟».

«لا، إلا إذا كنت تريد أن تقع وتقتل».

استحم وبدّل ملابسه ولحظة خروجه رنّ الهاتف. أخوه مجدداً.

«هاي، جايمس».

«نعم».

---

(1) Okay بمعنى حسناً أو موافق واللفظ نفسه هو اختصار لاسم Oklahoma.

(2) Drunk as a Lord: تعبير يراد به «مترع بالثمالة»، يعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عن عندما كان استهلاك المرء للخمر في جلسة واحدة يعكس مستواه الاجتماعي الراقي (ربما بسب قدرته المالية على تحمّل كلفة استهلاك الكثير من الخمر).

(3) Stick man: الرسم المعروف الذي يختصر الإنسان بخط بسيط للجسد وخطوط أخرى لليد والقدمين ودائرة للرأس.

«هاي، جايمس».

«نعم».

«هاي، هاي، هاي».

أقفل جايمس السماعة وغادر المنزل.

مرّ جايمس بشارلوت وأقلها معه، ثم أقلّ رولو، ثم فتاة تعجب رولو تدعى ستيفي - اختصار لستيفاني - دايل، وذهبوا بالشاحنة نحو «جبل ماكدويل»، باحثين عن حفلة سمعوا أنها ستقام هناك، ويفترض أن تكون حفلة ضارية في الهواء الطلق بعيداً عن رقابة الأهل، بعيداً من الطريق وفي داخل الصحراء بعيداً من كل شيء، ولكن إذا حصل حقاً مثل هذا التجمّع، فقد ضاع في متاهة من الغدران الجافة، فقفلوا عائدين إلى الطريق العام وجلسوا في صندوق الشاحنة يحتسون الجعة. قال جايمس: «ألم تستطع تبريدها أكثر؟».

قال رولو: «لقد سرقتها من الثلاجة في الحظيرة».

قال جايمس: «لا نستطيع حتى العثور على حفلة في ليلة التخرج».

قالت شارلوت: «هذه ليست ليلة التخرج».

«ما هي إذن؟».

«إنه اليوم الأخير في المدرسة. أنا لن أتخرج. هل ستتخرج؟».

قال جايمس: «بيرة ساخنة».

قالت شارلوت: «لن أتخرج البتة. لا يهمني الأمر».

قال رولو: «أجل من يكترث لهذه الترهات»، وضحكوا جميعاً لبذاءته[1]، وقال: «نحن أولاد الريف».

قال جايمس: «لا، لسنا كذلك».

(1) يستعمل رولو تعبير Flying Fuck الذي يقصد منه التشديد على كلمة Fuck إنما بطريقة أكثر ابتذالاً وتعبيراً عن الاستياء.

«يا شريك، أمك تعمل في حظيرة خيول. وأبي يعبث في أنظمة الريّ. وهناك حظيرة كبيرة وراء منزلي».

قالت ستيف دايل: «المكان ألطف هنا، لا رجال شرطة».

قال جايمس: «هذا صحيح، لا أحد يزعجنا».

«فقط انتبهوا للثعابين».

قال رولو: «انتبهوا لهذا الثعبان»، وانفجرت الفتاتان بالضحك والصياح.

شعر جايمس بخيبة الأمل من أنه حين ضحكت الفتاتان، كانت شارلوت هي التي رشحت الجعة من أنفها. كانت ستيفي أصغر سناً، في عامها الأول في الثانوية، إلا أنها بدت أبسط وأقل توتراً. كانت تجلس مستقيمة، وتدخن بطريقة مثيرة. ما الذي يفعله مع شارلوت، في حين أن ستيفي هي التي تعجبه حقاً؟

أنزل رولو، ثم أوصل شارلوت إلى البيت. وانتهى الأمر ببقاء ستيفي في الشاحنة. وقد حرص على إيصال شارلوت قبلها.

قبّل شارلوت مودعاً، وهما واقفان أمام بيتها. لفت ذراعيها حول رقبته وتشبثت به، شفتاها مرتخيتان رطبتان، عانقها جايمس من دون أن يتشبث بها، بذراعه اليسرى فحسب، وترك اليمنى متدلية. جاء شقيق شارلوت الأكبر، العاطل عن العمل، ووقف يحدّق بهما عند المدخل. صاحت أمها من الداخل: «أقفل الباب أو أطفئ المبرّد اللعين أيها المغفل».

في الشاحنة سأل جايمس ستيفي: «أأنت بحاجة إلى الذهاب للبيت؟».

«لا، ليس تماماً».

«أترغبين في جولة؟».

«بالتأكيد. سيكون هذا جميلاً».

انتهى بهما الأمر حيث كانا قبل ساعة مع الآخرين، ناظرين إلى الجبال المنخفضة، ومستمعين إلى المذياع.

سألته ستيفي: «ما خططك للصيف؟».

«أنتظر إشارة ما».

«أي أنه ليست لديك أيّ منها».

«من ماذا؟».

«من الخطط».

«لا أعرف إذا كان عليّ أن أبحث عن عمل صيفي أو أن أجد شيئاً حقيقياً ودائماً، فقط لكي لا أعود إلى المدرسة».

«أتعني أن تترك المدرسة؟».

«كنت أفكر في الالتحاق بالجيش مثل أبي».

لم تعلّق على هذه الفكرة. وضعت طرف سبابتها على لوحة عدادات السيارة وراحت تفركها.

لم يعد لدى جايمس ما يقوله. كانت رقبته مشدودة إلى درجة أنه شك في قدرته على تحريكها. لم تخطر بباله أيّ كلمة يستطيع قولها.

تمنى أن تقول شيئاً ما عن شارلوت. كل ما قالته: «لَم أنت عابس؟».

«اللعنة».

«ماذا؟».

«أظن أنني ينبغي أن أنفصل عن شارلوت. عليّ ذلك حقاً».

«نعم... أظن أنها ترى ذلك آتياً».

«أحقاً؟ أتتوقّع ذلك؟».

«أنت لست متوهجاً بصحبتها يا جايمس، بالمرة».

«لقد لاحظت ذلك إذن؟».

«ثمة غيمة تمطر حولك[1]».

(1) مع أن هذا التعبير ليس موجوداً بالمحكية الإنجليزية بهذه الصورة بالضبط إلا أن ثمة ما يشبهه بمعنى «إن رأسك بين الغيوم»، أي أنك لا تدري ما الذي يجري حولك في حين يراه الآخرون بصورة جلية.

«ماذا عن الآن، عن هذه اللحظة؟».

«ماذا؟».

«ليس ثمة غيمة تمطر حولي، صح؟».

«لا». كانت تبتسم. كانت الشمس. «هل ستنضم حقاً إلى الجيش؟».

«أجل. الجيش أو المارينز. أظن أنك ستسمحين لي بأن أقبلك الآن، صحّ؟».

ضحكت: «أنت طريف».

قبلها قبلة طويلة ثم قالت: «هذا ما يعجبني فيك. أنت طريف وأنت سعيد. ووسيم أيضاً». وأمضيا مدة يتبادلان القبل حتى أذيع إعلان على المذياع، وأمضى بعض الوقت يقلب الإبرة بحثاً عن أغنية.

قالت: «هممم».

«ماذا؟».

«أحاول أن أفكر، أحاول أن أفكر هل هذا الرجل يقبّل كعسكري في الجيش أم في المارينز؟ هممم»، قالت وهي تقبّله. ثم قالت: «ربما سلاح الجو الأمريكي».

قبلها وأخذ يلامس ذراعيها برقة شديدة، ثم خدّيها، ورقبتها. كان أكثر فطنة من أن يضع يده حيث يرغب. قال: «لدي علبة جعة واحدة ساخنة بعد».

«اشربها أنت. لا أشعر بالظمأ».

جلس مسنداً ظهره إلى باب السائق وهي إلى بابها. كان مسروراً لأن الشمس أخذت بالمغيب، لكي لا يعود مضطراً إلى القلق حيال شكله. أحياناً لم يكن واثقاً من أن تعابير وجهه لها أي معنى.

شعر بالحاجة إلى التجشوء. فعل ذلك ببساطة بصوت عال وقال: «تحيات من الأعماق».

قالت ستيفي: «والدك في السجن، صح؟».

«من أين عرفت ذلك؟».

«صح؟».

«لا، إنه زوج أمي، مجرد رجل ما، حقاً. إنه غلطة أمي، لا غلطتي».

«ووالدك الحقيقي في الجيش، صح؟».

لفّ جايمس ذراعيه على المقود وألقى خدّه عليهما، محملقاً إلى الخارج... فشعرت بأنه آن الأوان لكي يتبادلا أخطر أسرارهما.

خرج وذهب وراء بعض الشجيرات وتبوّل. كانت الشمس قد توارت وراء جبل «كاملباك» إلى الجنوب الغربي منهما. كانت السماء لا تزال زرقاء صافية إلا أنها اصطبغت عند خطّ الأفق بلون آخر، أصفر زهري يختفي حين تنظر إليه.

قال لها حين عاد إلى مقعده: «حسناً، لقد عزمت أمري، سوف أنضم إلى المشاة».

«أحقاً؟ المشاة؟».

«بكل تأكيد».

«ثم ماذا؟ تتخصص في أمر ما؟».

«سوف أذهب إلى فييتنام».

«ثم ماذا؟».

«سوف أنكح[1] حيوات الكثيرين».

«بربك»، قالت «لست برفقة أصحابك. أنا أنثى».

«أعتذر عن هذا سيدي».

وضعت يدها على قفا رقبته وأخذت تداعب شعره برقة. ولكي يوقفها عن ذلك جلس مستقيماً.

«هذا كلام رهيب جايمس».

«أي كلام».

«الذي تفوهت به».

---

(1) Fuck up: بمعنى أدمّر أو أخرّب.

«لقد خرج مني عفو لخاطر. لم أقصده، لم أكن أفكر».

«إذن لا تقله».

«اللعنة. أتحسبينني شريراً إلى هذا الحدّ؟».

«كل واحد منا فيه جانب شرير، لا تغذه فحسب حتى لا ينمو».

تبادلا القبل مجدداً.

قال: «على أية حال، ما الذي ترغبين في فعله في هذه اللحظة؟».

«ماذا... لا أعرف... ألدينا وقود؟».

«نعم». أبهجه أنها استعملت ضمير الجمع «لدينا».

«فلنقم بجولة ولنرَ ماذا يجري».

«فلنأخذ الطريق الطويلة». هذا عنى أنه يتحرّش جديّاً بها.

«طيب»، أي أنها لا تمانع.

وقف جايمس أمام البيت في العتمة في حين دخلت أمه إلى البيت عائدة من العمل في سيارة توم موني الكشف، محدقة في مقعد السائق، فاغرة الفم، وقد توارى وجهها وراء قبعة رثة من القش، وثمة منديل يغطي رقبتها. لوّح موني لجايمس، ورمى هذا عقب السجارة أرضاً وسحقه بقدمه ولوّح هو الآخر. ثم رحلت الشيفروليه.

دخلت من دون أن تخاطبه، وهو صمت غير معتاد ومرحب به في آن.

استمرّ الصمت حتى تبعها إلى المطبخ. «إذا كنت لا تظن أن العمل في هذه المزرعة قد أنهكني تماماً، فتعال وتحسس الرعشة في هذه الذراع. إذا سخّنت صفيحة من الحساء المعلّب، فيستحسن بك أن تأكلها. لا تكبّدني العناء، ثم تجلس هناك سارحاً في أحلامك». أضاءت نور المطبخ ووقفت تحته وقد بدت ضئيلة مستنزفة «لدي نقانق مدخنة وعلبة خضار «توماترز»، أتريد شطيرة؟ اجلس وسأعدّ الحساء والشطائر، أين بيريس؟».

«من؟».

«سرعان ما سيأتي. إنه دوماً جائع. فقدت وزناً خلال حملي به. كان وزني في بداية الحمل 119 باوندا، وبات في نهايته 111 باونداً[1]. لقد تغذى مني من الداخل». قالت ذلك ماسحة وجهها الذي تلطّخ بوسخ يدها.

«أماه، اغسلي يديك قبل أن تطبخي».

«يا إلهي، إنني متعبة إلى حدّ أنني نسيت أنني حية. افتح لي العلبة حبيبي».

تناولا زبدة الفول السوداني والجلو وحساء «كامبل».

«سأقوم بتقطيع هذه التوماتر».

«لقد شبعت، لا أريدها».

«يجب أن تتناول الخضروات».

«ثمة خضروات في الحساء. ولهذا اسمه حساء الخضروات».

«لا تهرب. أريد أن أتكلم إليك. متى تنتهي مدرستك؟».

«انتهت اليوم».

«تعال إذن واعمل في المزرعة».

«لست متأكداً بهذا الخصوص».

«ما الذي لست متأكداً منه؟ أتعرف الدولار حين لا ترى واحداً؟ لأنني لا أرى واحداً».

«كنت أفكر بالجيش. ربما المشاة».

«متى؟ الآن؟».

«أنا في السابعة عشرة».

«في السابعة عشرة ومجنون».

«بيل جونيور كان في السابعة عشرة، وقد وقّعت على الاستمارة من أجله».

«ولم يضره ذلك على ما أظن».

(1) تقريباً من 54 كيلوغرام إلى 50 كيلوغرام ونصف.

«لقد اتصل اليوم».

«اتصل؟ ماذا قال؟».

«لا شيء. إنه في هونولولو».

«لم يصلني مليم واحد منه. ولا أقصد أنني طلبت ذلك».

«إذا دخلت إلى الجيش سأرسل لك بعضاً من المال».

«أرسلَ لي مالاً مرة أو اثنتين. ليس بصورة منتظمة. لم يعد يرسل شيئاً مؤخراً. ولا أستطيع أن أطلب منه لأن كبريائي يخنقني».

«سأرسل لك بعضاً من المال كلما قبضت راتبي، أقسم لك».

«أنت قرّر هذا وحدك».

«أيعني هذا أنك ستوقعين على الاستمارة من أجلي؟».

لم تجبه.

حمل شوكة وبدأ يتناول شرائح الطماطم «أرسلي لي المغلف شهرياً[1]، وأعيده لك وفيه بعض المال».

«أتكلمت إلى موظفّي التجنيد؟».

«سأفعل».

«متى؟».

«سأفعل؟».

«ستفعل متى؟».

«الاثنين».

إذا كانت معك الأوراق الاثنين وأريتني أسباباً وجيهة للانتساب إلى الجيش، فقد أوقع. أما إذا كنت تحلم فحسب، فمن الأفضل أن تنهض الثلاثاء وترافقني إلى المزرعة. لقد أعدت تشغيل الهاتف، لكن الإيجار ينتظر رحمة الرب. أين

(1) يرسل أهل الجنود الأمريكيين لهم بريداً شهرياً قد يتضمن رسالة فحسب وقد يتضمن مجموعة من المواد الأخرى المسموح بإرسالها.

بيريس؟».

«سيأتي حين يجوع».

«إنه دوماً جائع»، قالت، وبدأت تعيد ثانية كل ما سبق وقالته، لأنها لم تكن قادرة على عدم قوله.

لم تكن أمه بقادرة على التزام الصمت. كانت تقرأ الكتاب المقدّس طوال الوقت. كانت أكبر سناً من أن تكون أمه، أشدّ إنهاكاً وغباء من أن تكون أمه.

استمتع بيل هيوستن أشد الاستمتاع بالجعة، غير أنه وصل إلى لحظة بدأ الشراب فيها يعلق في حلقه. يجب أن تكون هذه الخمارة بمواجهة الغرب، لأن الشمس الحارة تتدفق من الباب المفتوح. لا مكيف هواء. لكنه كان معتاداً على ذلك في الأمكنة التي يشرب فيها. كانت حانة حقيرة.

عاد من التواليت ليجد كيني ما زال يستجوب المتبطّل. «ماذا فعلت؟ قل لي بالضبط ماذا فعلت».

«لا شيء، اللعنة».

جليس بيل هيوستن وقال: «ليس لدي شيء ضدكما يا شباب. لدي أخ صغير يودّ الالتحاق بالمارينز».

كان جندي المارينز السابق مخموراً: «هذا ليس بالقليل، لقد رأيت بعض الأشياء».

قال كيني: «إنه يتكلم وكأنه فعل شيئاً ما لامرأة ما هناك».

قال هيوستن: «أين؟».

«في فييتنام، اللعنة، ألا تصغي؟».

«لقد رأيت بعض الأشياء» قال الفتى، «ما هي هذه الأشياء، لقد ثبتوا تلك المرأة وجاء أحدهم وقطع رحمها. أمور كهذه تحدث هناك طوال الوقت».

«يا إلهي، دعك من المزاح».

«فعلت بعضها أنا الآخر».

«فعلت ذلك؟».

«كنت هناك».

قال هيوستن: «أحقاً... – لم يستطع تكرار العبارة «أفعلت ذلك حقاً؟».

«كنت هناك حين حدث ذلك. كنت في الجوار، في القرية.. تقريباً في القرية نفسها».

«أكانوا زملاؤك؟ أحد من سريتك؟».

«لم تكن سريتنا. كان شاباً كورياً، كانت سرية كورية، أولئك الرجال عديمو الإحساس تماماً».

قال كيني: «اخرس الآن واحك لنا ماذا فعلت».

«هناك الكثير من الأمور السيئة التي تحدث هناك».

«أنت مليء بالهراء. المارينز لا يمكن أن يقبلوا بذلك. أنت مليء بالهراء».

مدّ الرجل يديه كشخص مقبوض عليه «هاي، عجباً يا رجل، علامَ كل هذه الحماسة؟».

«أخبرني فحسب إنك قمت بقطع هذه المرأة وهي على قيد الحياة، وسأعترف لك بأنك لست بكتلة هراء».

صاح الساقي: «أنت! لقد قلت لك من قبل! أتريد القتال؟ أتريد العراك؟»، كان رجلاً ضخماً سميناً من هاواي لا يرتدي قميصاً.

«هذا موك هناك»، قال المتبطّل في حين ألقى الساقي خرقته أرضاً واقترب منهم.

«قلت لك ألا تدخل إلى هنا».

«كان ذلك بالأمس».

«قلت لك أن تخرج من هنا أنت وكلامك هذا. هذا يعني أنني لا أريد رؤية

وجهك لا أمس ولا اليوم ولا غداً».

«هاي، إنني أحتسي الجعة هنا».

«خذها معك، لا يهمني».

نهض كيني. «لنخرج من هذا الماخور الموك». وضع يده تحت قميصه على مستوى حزامه.

«فلتشهر سلاحك هنا وسينتهي بك الأمر في السجن، هذا إن لم أقتلك».

«يسهل إغضابي في يوم حار».

«اخرجوا من هنا أنتم الثلاثة».

«أتحاول استفزازي؟».

ضحك المتبطّل الشاب بهستيرية، وقفز إلى الخلف باتجاه الباب، مؤرجحاً ذراعيه كالقرد.

هرع هيوستن أيضاً نحو المخرج قائلاً: «هيا الآن، هيا، هيا». كان واثقاً من أنه رأى زند مسدس على خاصرة كيني.

قال المتبطّل: «أترى، هذا موك هناك، جميعهم يتصرفون بفظاظة وقسوة. أما إذا تغلبت عليهم فإنهم يبدأون بالبكاء كالأطفال».

اشترى كل واحد منهم قنينة «ماد دوغ 20/ 20»[1] من بقال طالبهم أيضاً بشراء ثلاث رزم من خبز «ووندر برد»، إلا أنها ظلت صفقة رابحة. تناولوا القليل من الخبز ورموا الباقي لكلبين هائمين. سرعان ما مشوا، سكارى، محاطين بزمرة من الكلاب الشاردة الجائعة، نحو لسان أبيض لماع من الشاطئ والبحر الأسود والزبد الأزرق يندفع على الرمل.

أوقف رجل سيارته، سيارة فورد جالاكسي بيضاء رسمية، وأخفض زجاج

(1) MD 20/20: حرفا الأم والدي هنا هما اختصار لاسم شركة موجن دافيد الأمريكية التي تنتج هذا النبيذ لكن شعبياً تسمى ماد دوغ أو الكلب المسعور، وذلك تعبيراً عن مستوى الكحول الموجود في هذا النبيذ الشعبي. هذا النبيذ يعزّز بنسبة عالية من المواد الكحولية (تصل إلى 18 بالمئة)، ومن الملونات والأطعمة الصناعية، والهدف من تناوله بلوغ الثمالة بثمن بخس.

نافذته. كان أميرالاً يرتدي بزته «أتستمتعون بوقتكم يا شباب؟».

أجاب كيني: «نعم سيدي»، وحياه بوضع إصبعه الوسطى على حاجبه.

قال الأميرال: «أرجو أن تكونوا كذلك، لأن الأوقات الصعبة آتية بالنسبة إلى السفلة من أمثالكم». رفع زجاج نافذته ومضى مبتعداً بسيارته.

أمضوا ما تبقى من فترة بعد الظهر في معاقرة الخمرة على الشاطئ. جلس كيني على جذع نخلة. أما المتبطّل فقد استلقى على ظهره موازناً زجاجة «الماد دوغ» على صدره.

خلع هيوستن حذاءه وجوربيه لكي يشعر بالرمل يتكوم تحت قدميه. شعر بقلبه يكبر. في تلك اللحظة فهم تعبير «جنة استوائية».

قال لرفيقيه: «ما أقوله، ما أعنيه، بشأن أولئك الموك. أظن أنهم أقرباء لأولئك الهنود الذين يعيشون حول منزلي. وليس هؤلاء الهنود فحسب بل الهنود الذين من الهند أيضاً، وكل إنسان آخر يمكنك التفكير به ممن هو كذلك، ممن لديه سمة شرقية ما، ولهذا أفكر حقاً، ليس هناك الكثير من الأجناس على الأرض. ولهذا السبب أنا ضدّ الحرب...». أخذ يلوّح بزجاجة الماد دوغ «ولهذا أنا مناصر للسلام». كان رائعاً الوقوف على الشاطئ أمام هذا الجمهور والتلويح بنصف جالون من النبيذ والتفوه بالهراء المطلق.

إلا أن كيني فعل أشياء مزعجة. بنظرة حالمة على وجهه أمال زجاجته فوق حذائه الأسود اللماع وراح يشاهد النبيذ وهو يسيل إلى داخل الأصابع. رشق المتبطّل بالرمل، فاستقر بعضه على صدره ووجهه وأنفه. فمسحه المتبطّل مدّعياً أنه لا يعرف مصدره.

اقترح كيني نقل الحفلة إلى منزل أحد الأصدقاء. قال للمتبطّل: «أريدكما أن تلتقيا هذا الرجل، ثم سنقوم بإصلاح هراءك».

قال المتبطّل: «لا مانع عندي أيها الوغد».

رفع كيني إبهامه وسبابته وقد ضغطهما على بعضهما قائلاً: «أحب أن أضعك في مساحة بهذا الوسع».

مشوا على الشاطئ إلى بيت صديق كيني. وكان هيوستن يعاني جراء مشيه على الرمل الحار حافي القدمين، ثم على الأسفلت الأسود.

«أين حذاؤك أيها المعتوه؟».

وضع هيوستن جوربيه في جيبي بنطاله «ليفيز» لكنّ حذاءه لم يكن معه.

توقف لكي يشتري صندلاً بسبعة عشر سنتاً من أحد المتاجر. كان ثمة تنزيلات على «ثاندربيرد» لكن كيني قال إن صديقه الذي سيزورانه مدين له بالمال ووعد باصطحابهما إلى المدينة لاحقاً.

أحب هيوستن حذاءه الأبيض العاجي ذاك المصنوع من جلد الغزال، ولكي يحافظ على بياضه كان يمسحه بمسحوق التلك. والآن؟ ها قد تخلى عنه للأمواج.

سأل: «أهذه قاعدة عسكرية؟». كانوا في مجمّع من البيوت الصغيرة الرخيصة المطلية باللونين الزهري والأزرق.

قال المتبطّل: «هذه بناغل»[1].

قال له هيوستن: «هاي، ما اسمك يا رجل؟».

قال المتبطّل: «لن أخبركما أبداً».

وقال كيني: «إنه مليء بالترهات».

ربما بدت تلك الأكواخ بائسة بعض الشيء، إلا أنه لا وجه مقارنة بينها وبين ما رآه هيوستن في جنوب شرق آسيا. طبقة من الرمل الأبيض غطت الدرب الأسفلتية، وفي حين مشوا ثلاثتهم بين نخيل جوز الهند كان الموج يهدر في البعيد. كان قد مرّ بهونولولو مرات عدة وكان يحبها كثيراً. كانت شديدة الحرّ

(1) Bungalows: بيوت من طابق واحد، غالباً ما تكون من القشّ، ويشتق اسمها من كلمة «بنغال» في إشارة إلى هذا النمط من البناء المعروف في إقليم البنغال. مفردها بنغل.

تفوح منها الروائح النتنة كأي مكان استوائي آخر، إلا أنها كانت جزءاً من الولايات المتحدة، ولم تكن الأشياء فيها بحاجة إلى ترميم.

أخذ كيني ينظر إلى أرقام المساكن فوق المداخل «هذا بيت صديقي، لنلتف من الخلف».

قال هيوستن: «لِمَ لا نقرع الجرس فحسب؟».

«لا أريد أن أقرع الجرس. أتريد أن تقرع الجرس».

«لا يا رجل، فهو ليس صديقي».

تبعا كيني حول البنغل.

في إحدى النوافذ الخلفية التمع ضوء، وقف كيني على أطراف أصابعه واسترق النظر إلى الداخل، ثم توارى وراء جذع شجرة نخيل قرب الجدار وقال لمتبطّل الشاطئ: «أسدني خدمة واطرق على النافذة الشبكية».

«ولِمَ ذلك؟».

«افعل ذلك فحسب رجاء؟ هذا الرجل يدين لي بالمال وأريد أن أفاجئه في هذا الأمر».

حفّ المتبطّل بأظافره على طول النافذة الشبكية. انطفأ الضوء في الداخل. ولاح وجه رجل في إطار النافذة، بالكاد مرئياً وراء المشبك: «ما الأمر يا سيد؟».

قال كيني: «جريج».

«من هذا؟».

«هذا أنا».

«أوه مرحى يا رجل... كيني».

«نعم هذا أنا، هل معك المئتان وستون دولاراً».

«أعدت إلى الجزيرة؟ أين كنت؟».

«أريد المئتين والستين خاصتي».

«اللعنة يا رجل، لدي هاتف، لَمَ لم تتصل؟».

«راسلتك وأخبرتك أننا سنكون هنا في الأسبوع الأول من يونيو. في أي وقت تحسبنا. إننا في الأسبوع الأول من يونيو، وأنا أريد مالي».

«اللعنة يا رجل، لا أحمله كله معي».

«كم معك يا جريج؟».

«اللعنة يا رجل، ربما أستطيع الحصول على بعضه».

قال كيني: «أنت قطعة كذب من الهراء الأصلي».

أخرج من حزامه مسدساً أوتوماتيكياً عيار 45 ملم، وصوبه نحو الرجل، فهوى الرجل كدمية انقطعت حبالها واختفى. في تلك اللحظة بالذات سمع هيوستن دوياً. حاول أن يفهم من أين جاء هذا الدوي لكي يجد تفسيراً له سوى أن كيني أطلق الرصاص على الرجل في صدره.

قال كيني: «هيا بنا، هيا بنا».

كان ثمة ثقب في النافذة.

«هيوستن!».

«ماذا؟».

«لقد انتهينا، سنذهب».

«أحقاً؟».

لم يستطع هيوستون الإحساس بقدميه. مشى وكأنه يسير على عجلات. مروا ببيوت، بسيارات مركونة، بمبان. ثم صاروا محاطين بحركة السير. قطعوا مسافة طويلة في ما بدا ثلاثة أو أربعة ثوان. انقطعت أنفاسه وتوقف متعرقاً.

قال المتبطّل المجنون: «هذا رائع يا رجل، أظن أنك فزت في ذلك النقاش».

«أنا لا أسامح دائني، لا أسامح أولئك الذين يعتدون عليّ».

«يجب ان أرحل».

«أجل، أراهن أنك يجب أن ترحل أيها الأحمق اللعين».

قال هيوستن: «أين نحن؟».

أخذ المتبطّل يترنّح، نازلاً عن الرصيف، إلى الشارع.

قال كيني فيما يغادر الرجل: «هاي، أنا لا أحب وجهك، أيها الجبان المجنون الخوّان».

قال الرجل: «ماذا؟ اسمع، لا تعبث معي».

«لا تعبث معي؟».

قال الرجل: «أظن هذه حافلتي»، واخترق الشارع عبر ضجة زحمة السير ووقف وراء الحافلة.

صاح كيني: «هاي! أيها المارينز! اللعنة عليك! أجل! سمبر في!»[1].

انحنى هيوستن وتقيأ فوق علبة بريد.

لم يبد كيني على ما يرام. كان ثمة غشاوة على عينيه. قال: «فلنحتس شراباً. أجربت يوماً قاذفة الأعماق[2]؟ جرعة من البوربون في كوز من الجعة؟».

«أيوا».

«يمكنني الاستفادة من الكثير من هذا».

قال هيوستن: «أيوا، أيوا».

وجدوا حانة فيها تكييف هوائي وطلب كيني لكليهما الجعة وجرعات البوربون في زاوية خلفية في العتمة وبدأ بإعداد الشراب.

«ستجد هذا رائعاً، أجربته من قبل؟».

«بالتأكيد وضع جرعات مسكرة في الجعة».

«أتناولت واحداً يوماً؟».

قال هيوستن: «حسناً، أعرف فحسب كيفية تحضير واحد».

(1) اختصار للتعبير اللاتيني Semper Fidelis أي «مخلصون دوماً»، وهو شعار المارينز في الولايات المتحدة الأمريكية.

(2) Depth Charger: جرعة من شراب قوي تضاف إلى الجعة التي تشرب دفعة واحدة فيكون لها تأثير مسكر قوي.

بلا أي إحساس بالساعات التي انقضت، أفاق هيوستن متعرقاً، مليئاً بلسع البعوض وبراغيث الرمل، فوق فرشة رخوة تبتلعه حياً، والصداع يملأ رأسه. كما سمع جلبة الموج. كانت فكرته الأولى الواعية أنه رأى رجلاً يقتل رجلاً آخر، هكذا بكل بساطة.

بدا نائماً في غرفة نوم مفتوحة إلى حدّ ما. شق طريقه إلى المغسلة في الزاوية، حيث شرب من المياه العذبة وتبوّل، رافعاً قبل ذلك من المغسلة ملاءة سرير مبللة في وسطها ثقب قطره أسود. وجد ساعة يده ومحفظته وسرواله وقميصه إلا أنه فقد حذاءه على الشاطئ، تذكر الآن، وكان واثقاً أنه ترك حقيبة أغراضه في الواي[1]. بدا أن صندل الزوريس ذا السبعة عشر سنتاً قد اختفى من تلقاء نفسه.

كان في محفظته خمسة دولارات ودولاران. جمع تسعين سنتاً من القطع المعدنية منتشرة على الأرضية المصنوعة من القصب. خرج لكي يجد صندله.

كان رأسه مترنحاً. وقد أشعرته الماء التي شربها بالمثالة من جديد.

كتب على اللافتة «أوتيل كينج كاين»، وأيضاً: «نرحّب بالبحارة».

أجال بصره بحثاً عن كيني لكنه لم ير أحداً على الإطلاق. كان المكان أشبه بجزيرة صحراوية. النخيل، الشاطئ الوضاء، المحيط المعتم. ذهب من الشاطئ باتجاه البلدة.

لم يعد إلى سفينته بونرز فيري. لم يكن ينوي حتى الاقتراب منها، أو من أي مكان يمكن أن يصادف فيه كيني، آخر من يرغب في رؤيته. فاته موعد الإبحار وأمضى أسبوعين على اليابسة من دون تصريح بذلك، نائماً على الشاطئ ومتناولاً الطعام مرة في اليوم في إرسالية معمدانية تقع على الواجهة المائية، حتى بات واثقاً من أن كيني بات أقرب إلى هونج كونج منه إلى هونولولو، ثم سلم نفسه لخفر السواحل، لأسبوع من النقاهة في السجن العسكري.

(1) Y: اختصار لجمعية الشبان المسيحيين.

أخفضت رتبته إلى E3[1] وعاد بحاراً من جديد، مما يعني أنه فقد بصورة آلية رتبته كـ «بويلرمان». كانت هذه ثاني مرة تخفض فيها رتبته. الأولى نتجت عن «مخالفات صغيرة متكررة»، خلال جولته في قاعدة خليج سوبيك البحرية، بعد أن بدأ بالانغماس بالرذائل خارج بواباتها.

أمضى هيوستن الثمانية عشر شهراً التالية في الأعمال الحقيرة في قاعدة يوكوسوكا، في اليابان، غالباً مع رجال سود أفظاظ، وحمقى منخفضي الكفاءات، وأشخاص عديمي القيمة مثله. تذكر - أكثر مما كان يرغب في أن يتذكر - الأميرال في هونولولو الذي أخفض نافذة سيارة الفورد جالاكسي البيضاء وقال متوعداً: «الأوقات الصعبة آتية».

لأنه باتت لديه صديقة تسمح له بمضاجعتها بالكامل، نسي جايمس أمر الجيش لمدة. مرة أو اثنتين في الأسبوع كان يضع مرتبة هوائية وكيس نوم في صندوق شاحنة أمه الصغيرة ويخرج ستيفي دايل تسللاً من بيتها النائم ويمارس الحبّ معها في البرد الصحراوي ما قبل الفجر. مرتان، أحياناً ثلاث مرات في الليلة. احتفظ بجدول حسابات. بين العاشر من يوليو والعشرين من أكتوبر، مارس الجنس معها ما لا يقل عن خمسين مرة. لكن دون الستين مرة.

لم تبد ستيفي مندفعة للمشاركة في ممارسة الحب. كل ما تفعله هو الاستلقاء فحسب. كان يرغب في أن يسألها: «ألا يعجبك ذلك؟». أو «ألا يمكنك التحرك قليلاً؟». إلا أنه في جو خيبة الأمل والشك اللذين يغلفانه به بعد ممارستهما الحب، لا يعود قادراً على التواصل معها على الاطلاق، إلا أن يدعي أنه يستمع إليها

(1) تسمى هذه الرتبة أيضاً Lance Corporal أي وكيل عريف، وهي ثالث أدنى رتبة في البحرية الأمريكية. واضح أن رتبة بويلرمان التي يأتي ذكرها في العبارة نفسها هي رتبة أعلى من هذه المذكورة، وإن كنت لم أتمكن من العثور على مثل هذه الرتبة.

وهي تتكلم. كانت تتكلم بلا توقف عن المدرسة، وعن الدروس والمدرسين والمشجعات - اللواتي كانت واحدة منهن، ضمن فريق الاحتياط فحسب- غير أنها كانت تأمل بالانضمام إلى المجموعة الرئيسية العام المقبل. كان ابتهاجها بمثابة قبضة تدفعه أعمق إلى المرحاض.

كان ثمة ما يشغل باله أكثر من حياته العاطفية. وكان قلقاً على أمه، التي لا تجني ما يكفي من المال من عملها الذي يستنزف قواها في المزرعة. فباتت أنحل، وزادت تجاعيدها. وقد اعتادت على أن تمضي النصف الأول من كل يوم أحد في كنيسة «معبد الايمان»، وبعد ظهر كل يوم سبت تقود سيارتها مئة ميل إلى سجن في فلورنس، لكي تزور زوجها المسجون هناك. لم يرافقها جايمس يوماً في رحلات حجيجها هذه، وكان بيريس الذي بلغ العاشرة الآن، يرفض مرافقتها أيضاً، فيفر إلى الحيّ المليء بالأكواخ والقاطرات والغبار كلما بدأت المسكينة تستعد للذهاب بعد ظهر السبت وصبيحة الأحد.

لم يعرف جايمس حقيقة شعوره حيال ستيفي، بيد أنه كان يعرف أن أمه تدمي قلبه. كلما ذكر التطوع في الجيش، تبدو مستعدة لتوقيع الأوراق، غير أنه إذا رحل الآن، فكيف ستمضي حياتها هي؟ لم يكن لها شيء في هذا العالم سوى يديها وحبها المجنون للمسيح، الذي بدا من طرفه أنه لم يسمع بها قط. شكّ جايمس في أنها تخدع نفسها، متشبثة بالكتاب المقدس ووعوده كما البعوضة على نافذة. بعد أن قرر ترك المدرسة ومقابلة موظفي التجنيد الجيش، ماطل لبضعة أسابيع، واقفاً في أعلى التيار الهوائي استعداداً للهبوط، أو على حافة العش. قال: «أماه على كل نسر أن يطير». قالت: «فلتطر إذن».

رفضه الجيش، لأنه لا يقبل القاصرين. قال لأمه: «سلاح المارينز يقبل التجنيد في السابعة عشرة، أما الجيشُ فيرفض».

«ألا يمكنك أن تنتظر نصف سنة؟».

«بل هي أقرب إلى ثلاثة أرباع السنة».

«هذا يعني الكثير من النضج والتعلم الذي يمكنك تحصيله من المدرسة. ثم يمكنك التخرج وتكون جاهزاً للجيش، ولكل شيء آخر».

«يجب أن أرحل».

«إذن انضمّ إلى المارينز».

«لا أريد المارينز».

«لم لا؟».

«إنهم شديدو الصلف».

«إذن لمَ نناقش أمر المارينز؟».

«لأن الجيش يرفض أن يأخذني قبل بلوغي الثامنة عشرة».

«ولو وقّعت أنا؟».

«ولو وقع أيّ كان. أحتاج إلى شهادة ميلاد».

«لدي شهادة ميلادك، ومذكور فيها أنك مواليد 1949، ألا يمكنك تغيير السنة إلى 1948، أن تغير الرقم تسعة حتى يبدو ثمانية».

في اليوم الأخير من أكتوبر عاد جايمس إلى موظفي التجنيد مع شهادة ميلاد زائفة وعاد إلى البيت مع تعليمات بأن يكون حاضراً لتجنيده يوم الاثنين.

كان الأسبوعين الأولين من تدريباته الأساسية في «فورت جاكسون» في ساوث كارولينا، الأطول بالنسبة إليه. كل يوم بدا في حدّ ذاته حياة كاملة من انعدام اليقين، والإذلال، والارتباك والتعب. وقد حلّت محلّ ذلك حالة من الرعب حين بدأت أفكار القتل والتعرض للقتل تحتلّ كيانه. شعر أنه لا بأس به في الميدان، بين رفاقه، صارخين كالوحوش وهم يطعنون بحرباتهم رجالاً من القش. أما حين يكون بمفرده فبالكاد يعود قادراً على الرؤية بوضوح بسبب خوفه هذا. وحده الإرهاق ينقذه. حين يتجاوز حدود احتماله البدني يرفع جداراً زجاجياً بينه وبين هذا كله - فلا يسمع يعود يسمع تماماً، ولا يتذكر تماماً ما كان للتو ينظر إليه. كان ينتظر النوم فحسب. تراوده منامات هستيرية في الأثناء، إلا أنه ينام

طوال الوقت الذي يُسمح له به.

أرسلوه إلى فييتنام. كان يعرف أن هذا يعني موته. لم يتقدّم بطلب لذلك، ولم يسأل حتى كيف يتقدّم بالطلب، بل إنهم سلموه مصيره ببساطة. بعد انقضاء أربعة أيام من انتهاء دورة التدريب الأساسي، وجد نفسه يحمل غداءه إلى إحدى الطاولات في مطعم المجنّدين، العبق البخاري للبطاطا المهروسة يصعد إلى وجهه، شاعراً بقدميه كالمطاط وهو يخطو إلى مستقبل مليء بالمفخخات الأرضية والقنابل الموقوتة: سيكون في دورية وسيكون متقدماً كثيراً على الآخرين في خطّ من الجنود في الأدغال، سيكون في المقدمة وسيدوس على شيء يمزقه أشلاء فحسب، يطرطشه كالطلاء - قبل أن يضرب الدويّ الأذنين، تكون أذناه قد تمزقتا أشلاء - لا تسمع على الأرجح سوى بداية صفرة صغيرة. لم يكن هناك معنى في الجلوس هنا، متناولاً طعامه في صينية مقطّعة. يجب أن يهمّ بإنقاذ حياته، أن يخرج من هذه الردهة الفوضوية، ويختفي ربما في مدينة كبيرة ما يعرضون فيها أفلاماً قذرة على مدار الساعة.

جاء شابان وبدآ يتكلمان عن الموت في المعركة.

قال جايمس محاولاً أن يبدو مرحاً: «أتحاولان زيادة همي أكثر مما أنا مهموم أصلاً؟».

«الأرجح أنك لن تقتل».

«دعك من ذلك».

«حقاً، ليس هناك الكثير من المعارك أو ما شابه».

«أترين ذلك الشاب هناك؟»، قال جايمس، ونظرا على بعد ثلاث طاولات إلى رجل أسود ضئيل جداً يرتدي بزة خضراء، رقيب أول. لم يبد كبيراً بما فيه الكفاية للانضمام إلى الجيش، لكن على صدره كان يوجد الكثير من الشرائط، بما فيها شريطة زرقاء مع خمسة نجوم بيضاء تدل على نيله «ميدالية الشرف».

كلما رأيا جندياً يضع الأوسمة يقترب جايمس والآخران أكثر لكي يلقيا نظرة

عن كثب. هذه هي، أليس كذلك؟ – أن تشرب فنجان قهوة وقد بات ذلك الشخص الذي في داخلك صلباً كالحاً بفعل الأعمال البطولية، ويمرّ بك فتية وقد تشبّث إحساس بالضعف ببطونهم، محاولين ألا يحملقوا. لكن لكي تستمتع بذلك عليك أن تعود إلى الديار على قيد الحياة.

حين غادر الآخران عاد جايمس إلى الصف لحصة إضافية. كان الآخرون يتذمرون من الطعام، وبالتالي تذمّر هو أيضاً، إلا أنه أحبه في حقيقة الأمر.

ناداه الرجل الأسود ذو الشريطة الزرقاء إلى طاولته.

لم يعرف جايمس ماذا يفعل سوى الذهاب إليه.

قال الرقيب أول: «هيا اجلس، لديك تلك النظرة».

«حقاً؟ أي نظرة؟».

«اجلس فحسب، لست أسود إلى هذا الحدّ».

انضمّ جايمس إليه.

«أؤكد إنك تتمتع بتلك النظرة».

«فعلاً؟».

«النظرة التي تقول إنني أريد قيادة دبابة أو العمل في محركات المروحية، إلا أنهم بدلاً من ذلك يرسلونني إلى الأدغال لكي أتعرض لإطلاق النار».

احتفظ جايمس بصمته حتى لا يبدأ بالنحيب حول الأمر.

«أخبرني رقيبك، كونراد، كونروي».

قال جايمس بتوتر بالغ: «الرقيب، نعم، الرقيب كونيل».

«لماذا لم تفكر في التطوع في مكان ما، لكي تتملص من الذهاب إلى فييتنام؟».

الآن خشي جايمس من أن يضحك: «لأنني غبي».

«سوف تنضمّ إلى فوج المشاة الخامس والعشرين، أليس كذلك؟ أيّ لواء؟».

«الثالث».

«أنا من الفوج الخامس والعشرين؟».

«حقاً؟ بلا مزاح».

«لكن ليس اللواء الثالث، بل الرابع».

«لكن جنود اللواء الثالث، أهم... أهم... يقاتلون؟».

«بعض الوحدات تقاتل، للأسف نعم».

شعر جايمس بأنه لو تمكن من أن يقول أيها الرقيب أول لا أريد القتال، بأنه سينقذه بالتأكيد.

«أتخشى التعرض للقتل؟».

«نوعاً ما، كما تعرف، أعني... نعم».

«ليس هناك ما يدعو للقلق. بحلول ذلك الوقت الأشياء تستنزفك، تصبح مفرغاً بالكامل، تكف عن التفكير. لا شيء سوى الجاز[1] يحدث».

لم يستطع جايمس الإحساس بأي عزاء في قوله هذا.

«هذا مؤكد». مال الرجل الأسود الضئيل إلى الأمام، ضاماً أطراف أنامل يديه إلى بعضها بسرعة «اقترب، اسمع»، قال. مال جايمس نحوه شبه خائف من أنه قد يشده من أذنيه أو ما شابه. «في منطقة القتال لا تريد أن تكون دبوساً على خريطة. لأنه آجلاً أو عاجلاً سينقض العدو على هذا الدبوس بقوة جبارة. يجب أن تكون لديك بعض خيارات الحركة، أليس كذلك؟ تحتاج إلى المشاركة في القرار، أليس كذلك؟ هذا يعني أن تتطوع في سرية الاستطلاع. هذا أمر تطوعي. تطوع هناك، وبعد ذلك عليك ألا تتطوع أبداً، أبداً في أي مكان آخر، ولا أي مكان، ولا حتى إلى القفز في السرير مع امرأة صهباء الشعر، ولا حتى مع حبيبة جايمس بوند. هذه هي القاعدة رقم واحد، ألا تتطوّع. والقاعدة الثانية هي أنك حين تكون في بلد أجنبي لا تعتدي على النسوة ولا تؤذي الماشية، وإذا أمكن لا تلحق الضرر

(1) الأمور الرائعة.

بالممتلكات، ما عدا حرق أكواخ القش[1]، فهذا يأتي ضمن العمل».

«هذه ميدالية شرف أليس كذلك؟».

«أجل هي كذلك. واسمع كلامي جيداً».

«حسناً، حسناً».

«قد أكون أسود كالفحم، لكنني أخوك، أتعرف لماذا؟».

«لا أظن أنني أعرف».

«لأنك ستذهب كجندي احتياط إلى الخامس والعشرين، اليس كذلك؟».

«نعم سيدي».

«لا تقل لي سيدي، لست سيدك. ستنضم إلى الخامس والعشرين، صح؟».

«صح».

«حسناً وأتعرف ماذا؟ أنا جئت من الخامس والعشرين. ليس ضمن اللواء الثالث، بل الرابع. لكن على أية حال يمكن أن أكون من تحل محله. ولذلك أعطيك النصائح».

«حسناً، شكراً لك».

«لا، لا تشكرني، أنا أشكرك. أتعرف لماذا؟ لأنه يمكن أن أكون أنا من تحل محلّه».

قال جايمس: «على الرحب والسعة».

«الآن: ما قلته لك للتو، ثبّته في عقلك جيداً».

«سأفعل».

كان جايمس يحب طريقة التكلم في سلاح المشاة، وحاول أن يتكلم على هذا النحو أيضاً. خيارات الحركة. دبوس على خريطة. قوة جبارة، ثبته في عقلك.

(1) نجد ضمن العامية المستعملة بين الجنود في حرب فييتنام تعبير «غارات الزيبو» (إشارة إلى القداحة المعروفة) حيث كانت ممارسة شائعة بين الجنود حرق أكواخ القش بقدّاحاتهم الزيبو في القرى التي يشكّون بوجود مقاتلي الفيتكونغ فيها.

كانت تلك العبارات نفسها التي استعملها رقيب استطلاع وهو يخطب فيهم في الثكنة قبل أسبوعين فحسب. والآن بدا وقع هذه العبارات حقيقياً، بات لها معنى. كان ثمة حقيقة واحدة واضحة: إذا كنت مضطراً إلى أن تكون جندي مشاة فمن الأفضل إذن أن تكون في الاستطلاع.

بعد أكثر من عام في أمريكا، في كاليفورنيا - شهران في «معهد اللغات» التابع لوزارة الدفاع في «كارمل»[1]، وزهاء اثني عشر شهراً في معهد الدراسات العليا البحرية في مونتيري، عاد سكيب ساندز إلى جنوب شرق آسيا، وفي مكان ما بين هونولولو وجزيرة وايك، مسافراً أميالاً فوق المحيط الهادئ على متن بوينج 707، وصل إلى ظل اللغز الذي سيفترسه.

بعد الرحلة بالبوينج 707 إلى طوكيو، سافر بطائرة عامودية إلى مانيلا، وبالقطار إلى أسفل الجبل الواقع إلى الشمال من هناك، وبالسيارة إلى مقرّ إقامته في سان ماركوس، مستعداً لمواجهة مع إدي أجوينالدو، وسعيداً أيضاً من احتمال المشاركة في دوريات الرائد الليلية المتعرقة عديمة الجدوى، ليكتشف فحسب ان الدوريات أوقفت وأن إدي أجوينالدو غير موجود هناك. اعلن أن «الهاك» قد أبيدوا. وكان أندريز بيتشفورك قد رحل منذ وقت طويل. ولم يعد لديه كصحبة إلا العاملين في الدار وبعض العاملين في إجازات من مانيلا، الذين عادة ما يكونون سعاة منهكين ينامون طويلاً.

وصله الخبر في طرد بريدي، كناية عن بطاقة بريدية عليها نصب واشنطن التذكاري. وثمة ختم أصفر على الزاوية ينبه إلى ضرورة: «أبق العمل الرسمي في إطار السرية/ تشاور مع المراسلين حول كيفية استعمال المغلفات/ شكراً/ مكتبك البريدي الأمريكي.

(1) Carmel: اسم مدينة ونهر ووادٍ في مقاطعة مونتيري في ولاية كاليفورنيا.

عيد ميلاد سعيد مبكراً بعض الشيء. احزم ملفاتك كلها. اتجه إلى مانيلا. اقصد الفرع. أنا في لانجلي[1] حبيس مكتب لعين. زرت بوسطن الأسبوع الماضي. عمتك وأبناء عمك يبلغونك أحرّ التحيات. أراك في سايغون. عمك ف. ك.

إلا أن الملفات كانت موضّبة أصلاً أو هكذا افترض. في اليوم الأول لعودته وجد، في الخزانة التي ترك الملفات فيها، ثلاثة صناديق زيتونية عسكرية، كتب على غطاء كل واحد منها اسم بينيت دبليو أف - وقد كتب يدوياً بقلم حبر رفيع، وأقفلت الصناديق الثلاثة بإحكام.

بما أنه لم يتم إعلامه بشيء حول مفاتيح هذه الكنوز، فقد ترك الأمر ليوم آخر، وفعل الشيء الثاني المشار إليه، وهو أن يذهب إلى السفارة في مانيلا في سيارة تابعة للمركز مليئة تقريباً عن آخرها بمشروع عمه. هناك أعلم بأن يحتفظ بالسيارة ويسافر زهاء أربعين ميلاً خارج العاصمة إلى قاعدة كلارك الجوية، حيث سيركب طائرة عسكرية تقله إلى فيتنام الجنوبية.

كان يوم الغد هو يوم عشية رأس السنة الجديدة. سوف يجعله مسار رحلته يقلع يوم رأس السنة من كلارك فيلد إلى المطار في تان سون نوت، خارج سايغون.

أخيراً! شاعراً بالحماسة الشديدة، جلس في سيارة المركز في «جادة ديوي»[2] مشاهداً مغيب الشمس المرتعشة فوق خليج مانيلا، وعلى ضوئها المجيد، لكي يهدّئ نفسه، أخذ يتصفح بريده. نشرة إخبارية من بلومينجتون، عددان من «نيوزويك» و«يو أس نيوز وورلد ريبورت»، كلاهما عمره بضعة أسابيع. في مغلف كبير وجد آخر مجموعة من بريده الوارد من كاليفورنيا، وقد أرسل من هناك عبر مكتب البريد العسكري. هذه الرسائل طاردته منذ شهرين. من

(1) Langley منطقة في مقاطعة فيرفاكس بولاية فرجينيا، تشتهر بوصفها المكان الذي تتمركز فيه مقار المخابرات المركزية الأمريكية.

(2) تقع في العاصمة مانيلا، لكنها اليوم تعرف باسم جادة روكساس.

عمته جرايس وعمه راي - أكبر أشقاء أبيه الأربعة - جاءت بطاقة معايدة مع شيء يخشخش فيها، قطعة النصف دولار الجديدة التي تحمل صورة جون أف كينيدي، وبطاقة معايدة هالمارك[1]، من الواضح أن القطعة المعدنية قد ألصقت بها قبل أن تنخلع عنها في رحلة العشرة آلاف ميل التي قطعتها. بلغ سكيب الثلاثين في الثامن والعشرين من أكتوبر، واحتفالاً بذلك جاءت الخمسين سنتاً، ضعف المبلغ المعتاد، لا مزيد من الأرباع للفتى الكبير.

أيضاً أمر نادر فعلاً: رسالة من الأرملة بياتريس ساندز، أم ساندز. شعر بأنها رسالة دسمة. لم يفتحها.

وكانت هناك رسالة من كاثي جونز. تلقى العديد منها خلال العام الماضي، كل واحدة منها أكثر جنوناً من السابقة، وقد احتفظ بها جميعاً، وكف عن الإجابة.

أوصلت أخيراً إلى فيتنام؟ ربما كنت في القرية التالية؟ أرحب بك إلى الكتاب المقدس بالبانافيشن والتكني كولور. لكن هنا من الأفضل ألا يكون المرء من ولاياتك المتحدة الأمريكية. السكان يكنون للأمريكيين الكثير من الكراهية. غير أنهم لا يمانعون كثيراً وجود الفرنسيين. فقد هزموهم. أتذكر دامولوج؟

من الفقرة التالية قفزت كلمة «علاقة عاطفية» إلى مجال نظره، فتوقف عن القراءة.

لا أخبار أخرى من الكولونيل.

لم ير عمه منذ أكثر من أربعة عشر شهراً، واستنتج أن أحدهما أو كلاهما قد نحى جانباً بسبب المسألة المرية في ميندناو. شيء ما على أية حال أبقاهما هما الاثنان بعيداً عن الحركة. لقد تلقى دورة باللغة الفيتنامية في معهد اللغات التابع

(1) Hallmark: تبعاً لاسم مؤسستها جويس سي هالمارك، أكبر شركة لتصنيع بطاقات المعايدة في أمريكا، تأسست في 1910.

لوزارة الدفاع، وما بدأ وكأنه بداية منطقية لتعيينه في سايغون، تحول إلى أحد عشر شهراً مدهشاً مع فريق من ثلاثة مترجمين، ولا واحد منهم فييتنامي، يعملون في مشروع مشكوك في منفعته، وهو السعي وراء حماقة تامة: وضع موسوعة عن الميثولوجية الفييتنامية مستقاة من أكثر من سبعمئة كتاب من الأدب الفييتنامي، وهو مشروع يجري معظمه في مبنى من ثلاث طبقات من الكلية البحرية في مونتيري ويتكون بصورة أساسية من وضع اللوائح والتصنيفات ووضع قوائم بالشخصيات الخرافية.

فهم ذلك بوصفه مساهمة عمه في مجموعة «العمليات النفسية»[1] التابعة لقيادة الإسناد العسكري - فييتنام، التي يخدم فيها الكولونيل الآن، كما فهم سكيب، كمدير الارتباط مع السي آي أيه. وكان الكولونيل يدير بالكامل، إنما بصورة غير رسمية، هذه العمليات لصالح الماك في[2]، وذلك بحسب ما أخبره به ضابط في الوكالة من لانجلي يدعى شولاتر، اعتاد على الانضمام إلى فريق سكيب للترجمة بصورة شهرية تقريباً؛ وذلك قبل وقت طويل من تمكن سكيب من مساعدة الكولونيل على إدارة هذه العمليات. «متى يريدني هناك؟». «في حدود يناير»، «رائع». قال سكيب حانقاً تماماً بسبب التأخير. هذه المحادثة جرت في يونيو.

انتهى المشروع الخيالي بنقل مفاجئ لجميع المشاركين فيه إلى أمكنة أخرى، الذين وضبوا في صناديق المواد غير الضرورية وشحنوها إلى لانجلي.

(1) Psychological Operations: هي عمليات منظمة تهدف إلى إيصال معلومات ومؤشرات معينة إلى الجمهور (أو الحكومات أو الجماعات) المستهدف بغية التأثير على عواطفه ونوازعه وإضعاف قدرته على التفكير المنطقي، وبالتالي التأثير على سلوكه. هذا التعبير هو تعبير آخر عن «الدعاية السياسية» التي اتخذت مثلاً خلال الحرب الأمريكية الأخيرة على العراق تسمية «كسب العقول والقلوب».

(2) Mac-V: اختصار لـ Military Assistance Command-Vietnam، قيادة الإسناد العسكري- فييتنام.

فتح رسالة أمه.

«ولدي العزيز سكيبر» - خطها المزخرف المائل الكبير، غطى عدة صفحات مقاس 6×8 بوصة:

أنا متأكدة أنه لا يوجد الكثير لكتابته، لذا أولاً ليس من خطب ما. لا أريدك أن تظن أن الأخبار السيئة فحسب تجعلني أجلس وأكتب تحياتي لك. فالعكس هو الصحيح، إنه يوم جميل من أيام الصيف الهندي. السماء الأكثر زرقة، ولا غيمة واحدة في الأعلى هناك. القطارات تمر بصوت مكتوم بسبب تقلّب الويقات على الأشجار، فهذه تحيات سعيدة الآن، عما قريب سنسمع ذلك الهزيم الموحش في الشتاء العاري. بعد ظهر اليوم دافئ بما فيه الكفاية بحيث يرغب المرء بنسمة في البيت. افتح النافذة وأسمع طيور السّوادية ذات الأجنحة الحمراء وهي تصدح. والعشب ما زال في طور النمو، ويمكنك أن ترى أين يحتاج إلى بعض التشذيب قبل أن ندخل فعلياً في الخريف. حين رأيت مدى جمال هذا اليوم فكرت: سوف أكتب رسالة!

أشكرك على المال، اشتريت مجففة جديدة للغسالة. وملأتها بالملابس وها هي تدور وتدور. إنما في مثل هذا الطقس الجميل أحب أن أضع أشياء كبيرة مثل الملاءات وأعلقها على الحبل في الخارج وأجففها في الهواء الطلق، وهذا ما فعلته تماماً. أجل اشتريت مجففة ملابس، ولم أشتر تلفازاً. قلت لي أن أشتري واحداً لكنني لم أفعل. حين أشعر أنني بحاجة إلى الترفيه أذهب إلى الرفوف وآخذ متجر التحف القديمة، أو إيما أو سيلاس مارنر[1] وأقرأ ما تقع عليه عيناي من مقاطع قديمة منها، وفي تسع من عشر مرات أضطر إلى العودة إلى البداية وقراءة الكتاب كاملاً. هؤلاء أصدقاء حميمون قدماء.

أخبرتك عن الموقر القديم. بيرس استقال وهناك قس جديد في الكنيسة يدعى

(1) الكتاب الأول رواية لتشارلز ديكنز صدرات عام 1841، والثانية رواية جاين أوستن المعروفة الصادرة في 1815، والثالثة هي الرواية الثالثة لجورج إليوت نشرت في العام 1861.

بول. إنه قس شاب، واسمه الأخير كورنيف لكننا نناديه القس بول. وهو يضع بصمته على الأشياء. وقد أثار اهتمامي، فذهبت كل يوم أحد طوال الشتاء الماضي، ثم هدأ الطقس، وأشرقت الشمس، وكثرت الانشغالات، ولم أذهب إلى الكنيسة منذ أبريل الفائت ربما. لا تلفاز، لكنني أحاول متابعة مستجدات الأخبار. أليست أخباراً رهيبة؟ لا أعرف ماذا أفكر. أحياناً أتمنى لو أمكنني التكلم إلى أحدهم عما يجول في خاطري، ثم أفكر أنه من الأفضل ألا أفعل ذلك. أعرف أنك انضممت إلى الحكومة لكي تقدّم خدمة إلى العالم، إلا أن قادتنا يرسلون فتية صالحين لكي يدمروا بلداً آخر ويخسروا حياتهم من دون أي سبب وجيه.

حسناً، مرت نصف ساعة منذ العبارة الأخيرة. هذه المجففة الجديدة انتهت من عملها فهرعت لكي أطوي الغسيل فيما لا يزال حاراً. اعذرني على ما أقول. ربما سأكتب ما أريد فحسب ثم أعيد كتابة هذه الرسالة، وألغي منها المقاطع السيئة وأرسل الأجزاء اللطيفة فحسب. لا، الأفضل ألا أفعل. الحرب تعني شيئاً مختلفاً بالنسبة إليّ عما تعنيه للجنرالات والجنود. في السابع من سبتمبر المقبل يكون قد مرّ ستة وعشرون عاماً على خسارتنا لوالدك، وما زلت أفتقد حياتي معه كل يوم. بعد مدة من موت والدك بدأت أتخذ عشاقاً، وأمضيت بعض الوقت الحقيقي مع كينيث بروك قبل أن يحصل على عمل في «طيران نورثوست»، إلا أنه كان مبكراً بعض الشيء لنا أن نفهم ماذا نريد، أنا وكين، ولذلك انتقلت إلى مينيابوليس، وكانت تلك نهاية العلاقة. وإلا أظن أننا كنا ارتبطنا رسمياً، وهذا يعني أنكم كنتم ستحصلون على زوج أم. لكنني خرجت عن الموضوع. ما كان الموضوع؟ يا إلهي، يحسن بي ألا أرسل هذه الرسالة! لا أعرف إذا كنت تعرف أن الأمر كان جدياً بعض الشيء بيني وبين كين بروك. أتذكر كين أصلاً؟ كل عامين في عيد الميلاد يعود وعائلته لزيارة والديه وشقيقته. وفي أعياد الميلاد الأخرى يذهبون إلى بلدة زوجته، التي لا أعرف أين هي. بني، أتراني أمرّ بواحد من تلك الأيام.

يحسن بي أن أخرج جزّازة العشب تلك وأنظّف الباحة الخارجية مرة أخيرة

هذا العام. سيكون عليّ أن أزيّتها. كان يقوم بذلك أحد الولدين طوال الصيف، أعني توماس ودانيال ستراوس، إلا أنهم في المدرسة الآن. يتبادلون الأدوار على آلة والدهم العملاقة التي تعمل على الوقود. وكنت أنفحهما دولارين كل مرة. الآلة القديمة صديقة حميمة لي. أتذكر كيف كنت أشذّب الباحة؟ «وأبعد أصابعك عن تلك الشفرات!»، هكذا كنت أصرخ، وكأن تلك الشفرات ستقفز وتقطع أصابعك، حتى حين لا يكون أحد يدفعها. ثم ذات يوم أسمع صوت تلك الشفرات وأنظر من النافذة وأرى سكيبر مرتدياً التي شيرت دافعاً الآلة بذراعيه النحيلتين، من أمام النافذة مثل «المحرّك الصغير القادر»[1]. شذّبتَ الباحة كلها من محاولتك الأولى. آمل أنك ما زلت تتذكر كم كان شعورك طيباً حينذاك، وسأظل أتذكر ذلك أنا أيضاً.

أقدّر الرسائل الصغيرة التي ترسلها. يسألني الناس عنك، ومن الجيد ان يكون هناك ما أبلغهم به عنك. الذهاب إلى معهد اللغات، الذهاب إلى الكلية البحرية، الارتباط بالسفارة الأمريكية، هذه أمور مثيرة للإعجاب، تجعلني أشعر أنك نجم.

كان نهاراً جميلاً، ولكن الآن عند الثالثة تقريباً من بعد الظهر يهبّ بعض الهواء، فترفرف الملاءات في الريح. هذا أكثر بياض يمكنها أن تبلغه هذه الملاءات، حين تجف في الشمس وفي الهواء. ونحن محظوظون لهذا الهواء، لأن السكة الحديدية ليست بعيدة، إلا أن الهواء يهبّ في الاتجاه الآخر، فلا نتعرض للأغبرة. هذا يجعلني مسرورة لأننا لا نعيش على الجانب الآخر من السكة الحديدية! أتذكر حين رأيتك تمرّ بالنافذة. رأيت قوة شخصيتك متجسدة أمامي. فكرت حين رأيتك إنه مغامر مثل أبيه، وسف ينجح في الجامعة والعمل وسوف يحصل على المنح الدراسية، ولا شيء سيوقف هذا الفتى. والآن المزيد من الدراسة، والمزيد من

(1) The Little Engine That Could: قصة للأطفال من تأليف ماري جاكوبس نشرت عام 1910، ويرى بعضهم فيها تجسيداً للحلم الأمريكي، في الحكاية أن ثمة قطاراً طويلاً عليه الصعود إلى الجبل، فيطلب من المحركات الكبيرة دفع القطار إلا أنها ترفض، في حين يوافق المحرك الأصغر، فيدفع القطار وهو يردد: «أظن أنني أستطيع ذلك».

التخرج. الجيش، البحرية، السفارة، يبدو أن الجميع بحاجة إليك.

هنا، قبل ستة أسطر من نهاية الرسالة اضطر إلى التوقف عن القراءة وصبّ اللعنات على نفسه. لقد أمضى أربعة عشر شهراً في الولايات المتحدة الأمريكية وكان يمكنه أن يدبّر زيارة إلى منزله قبل الرحيل ثانية. غير أنه تجنّب زيارتها. بالتأكيد: الحرب، الخداع، المصائر - بالتأكيد واجه هذه الأمور، لكن رجاء ليس الماما. ليس غسيلها المرفرف في أحزان الخريف. ليس كليمنتس، كانساس، مع رخصتها التاريخية بأن تكون صغيرة، ومنخفضة، ومربعة. هنا في مانيلا، في خط عرض أربع عشرة درجة شمالاً وخط عرض 57 شرقاً، لا يستطيع أن يكون أبعد من ذلك. لكنه لم يكن مكاناً بعيداً بما فيه الكفاية. وقد آلمه أن يتخيلها وحدها تماماً، خاصة بعد الوقت الذي أمضاه في معهد اللغات. وإنفاذاً لوعد الكولونيل («سأرسلك إلى معهد اللغات، سندبّر هذه المسألة»)، جرى إرساله، قبل عيد الشكر ذاك من العام 1965، إلى المعهد الواقع على هضبة عالية تطلّ على كارمل. وكان المنظر من هناك هو منظر ضباب منخفض فوق الساحل، أو ضباب أعلى يلتف على الأرض، أو - في الأيام الصافية - مياه المحيط الهادئ الشاسعة التي حرم منها بصورة موجعة في أثناء خضوعه لدورة الاستيعاب الكامل في اللغة الفييتنامية، والتي عنت الاحتجاز لأربعة أسابيع في المنشأة، تبعتها أربعة أسابيع أخرى حصل خلالها على إجازة في عطل الأسبوع فحسب. في أول إجازة له أخذ المناولة على بعد بضعة أميال على طول الساحل في «راهبات نوتردام دي نامور»، وهو دير للراهبات يفتح أبوابه للمصلين في صباحات الأحد. في تلك الكنيسة يقف المصلون قبالة المذبح، أما الراهبات المعزولات عن العالم بفعل نذورهن، فيقفن أو يجلسن وراء جدار، مخفيات حتى عن أسرهن، الذين يجلس بعضهم على مقاعد الكنيسة لكي يختلسون النظر إلى راحات أيدي الراهبات الممدودة عبر كوة صغيرة لكي تتلقى «جسد المسيح». كانت مشاهدتهن في ذلك الصباح، وتذكرهن الآن، مصدر راحة له. هل أخذ نذراً بالعزلة؟ لا. أياً تكن

ظروفه، فقد كان حراً، ويقاتل من أجل حرية الجميع. إلا أن أمه قطعت مذل هذا النذر هناك. شيء من العزلة التي فرضتها على نفسها.

سكيب، إني أصلي لك ولكل البلاد. سوف أعاود الذهاب إلى الكنيسة.

أنا آسفة لأنني بالكاد أراسلك، أقدر كثيراً رسائلك، لكن يتطلبني يوم كامل لكي آتي بالورقة والقلم.

حسناً، ها قد وصلتك، رسالة أخرى أو ما شابه.

أفكر بك

أمك

بعد أن وطّد زمام أمره بقراءة هذه الرسالة، شعر أنه قادر على مواجهة رسالة كاثي جونز. إلا أن المكان كان أكثر ظلمة من أن يتمكن من القراءة.

لقد أمضى وقتاً كبيراً مطلعاً على هذه الرسائل، وسيارة التاكسي لم تتقدّم بعد مسافة نصف حي، «أمن مشكلة ما؟»، سأل السائق: «ما الأمر؟».

قال السائق: «شيء ما يعوّق السير».

بعيداً عند منعطف الجادة الذي يتبع خط الخليج، رأى أضواء السيارات تتحرك بحرية، لكن ها ها هما عالقان. قال: «سأعود». خرج من السيارة ومشى باتجاه المشكلة، ماشياً بين السيارات الواقفة، متجنباً البرك الآسنة. كان ثمة حافلة كبيرة تتقدّم السيارات وقد أوقفها رجل واحد يقف في وسط الشارع، كان ثملاً، وقد امتلأ وجهه بالدماء، وشقّت كنزته الخفيفة من الأمام، باكياً قبالة الحافلة، بعد أن ضربه أحدهم في عراك. أصوات أبواق وصراخ وهدير محركات. وقف سكيب في الفيء يتفرج على ما يجري: الوجه الدامي، المشوه بالغضب، يلتمع أمام الأضواء الأمامية للحافلة؛ الرأس مائل إلى الخلف، الذراعان مرتخيتان، وكأن الرجل علق بعقافات من إبطيه. هذه المدينة العفنة اليائسة. ملأه المشهد حبوراً.

في بداية إجازة جايمس أخذت أمه ثلاثة أيام عطلة من مزرعة ماكورميك، وأمضيا الوقت يشاهدان التلفاز معاً في المنزل الصغير على طرف الصحراء. يوم عودته أفرغت من الحقيبة ملابسه العسكرية وأزالت الشحوم عنها بالمكواة البخارية. قالت: «أنت الآن تخدم بلدك، علينا الوقوف في وجه الشيوعية. إنهم ملحدون». كان هذا ليكون له معنى لو لم تقله بحذافيره عن اليهود والكاثوليك والمورمونيين.

بعد أن عادت العجوز إلى العمل، قابل جايمس ستيفي دايل كثيراً. وبعد ظهيرة عشية الميلاد ركبا شاحنة أمه وذهبا إلى طرف التلال في «كارفري هايواي»، إلى موقع ارتطمت فيه إحدى السيارات وقُتل السائق.

قالت ستيفي: «أترى هناك؟ لقد ارتطم بشجرة صبير، ثم بشجرة بالو فيرد[1]، ثم بتلك الصخرة الكبيرة».

كان الحطام المسود قد أزيل عن الصخرة من قبل فرق الطوارئ قبل بضعة أيام، إلا أنه لم يزل تماماً بعد. كانت السيارة المحترقة مقلوبة رأساً على عقب.

«لابدّ من أنه كان منطلقاً بأقصى سرعة».

«راكب واحد في السيارة. والسيارة الوحيدة على الطريق».

«أظنّ أنه كان يقود في وقت متأخر من الليل».

شرب كل منهما عبوتين من الجعة، وسرعان ما ثملت ستيفي. جلسا يتأملان الحطام الشبيه بيد مقلوبة متفحمة.

قالت: «احترق السائق في داخلها حتى الموت».

قال جايمس: «أتمنى أن يكون قد غاب عن الوعي لدى ارتطامه».

كانت السيارة حمراء، إلا أن النيران أذابت طلاءها. وبقي منها بعض البقع من

---

(1) Paloverde: شجرة شبه صحراوية تنبت في أفريقيا وبعض مناطق قارة أمريكا، اسمها مشتق من الاسم الإسباني الذي يعني «العود الأخضر».

المعدن المجرد من اللون. يمكن أن تكون سيارة شيفروليه، لكن لم يكن ثمة فعلاً ما يدلّ على نوعها.

قالت: كلّ شيء في العالم يحترق ببطء».

«حقا؟ ما قصدك».

«كل شيء يتأكسد. كل شيء في العالم».

فهم أنها استقت معلوماتها هذه من صف الكيمياء.

خلال دورة التدريبات الأساسية فكّر فيها كثيراً، لكن لم يكن ذلك شخصياً. فقد فكر بالقدر نفسه بزهاء سبع فتيات من الثانوية على الأقل. وإذ وجد نفسه معها هنا، حتى وهما محاطان بهذه المساحات المفتوحة، فقد شعر أنه عالق في ملزمة حداد.

قال: «أيمكنني سؤالك شيئاً؟ أول مرة مارسنا الجنس، أكنت عذراء أو ما شابه؟ أكانت المرة الأولى بالنسبة إليك؟».

«أتتكلم بجدّ؟».

«أجل».

«أتمزح؟».

«نعم، أعني لا».

«ماذا تحسبني حقاً؟».

«كنت أسأل فحسب».

«أجل، لقد كنت عذراء. هذا ليس أمراً تفعله كل يوم، أو أنا لا أفعله على أية حال. أي فتاة تحسبني، عاهرة ما؟[1]».

أضحكه ذلك، وفي المقابل أبكاها.

---

(1) في الأصل تحسبني Motorcyle Moma التعبير الذي لا معنى سلبياً له اليوم فهو يعني غالباً النسوة اللواتي يقدن الدراجات النارية ويتظاهرن بها من أجل قضية أو هدف ما. إلا أن التعبير قد يعني الفتاة التي تتنقل بين سائقي الدراجات النارية وتمارس الجنس معهن مقابل الجعة أو المخدرات.

قال: «ستيفي، ستيفي، ستيفي، إنني آسف». كان مسروراً لأنها عشية عيد الميلاد. سوف تمضي يوم غد مع عائلتها ولن يضطر إلى رؤيتها.

إلا أن الجعة أحدثت مفعولها فيها، وفي غضون دقيقتين قبلت اعتذاره. قالت: «الغروب دائماً رائع حين تكون هناك غيوم».

في الغسق يبرد الطقس سريعاً في هذا الوقت من السنة. أحسّ بنسيم يبدأ بالهبوب، معلناً نهاية دفء النهار. قبلته ستيفي مرات ومرات.

في ساوث كارولينا عاملوه كالحيوان، وتمكن من الصمود. صار أصلب جسداً وأكبر سناً وأفضل شخصية. إلا أنه بعودته إلى العالم الذي نشأ فيه، لم تكن لديه فكرة كيف يجلس في غرفة مع أمه، أو ماذا يقول لفتاة في السادسة عشرة، أو كيف يمضي بضعة أيام من حياته قبل أن ينقل إلى لويزيانا لدورة التدريب المتقدّم للمشاة، قبل أن يعود إلى حيث يملي عليه الآخرون ماذا يفعل.

قالت ستيفي: «أظن أننا سنفتح الهدايا وما إلى ذلك مبكراً»، ووضعت أطراف أناملها المحبة على قفا رأسه. «متى تنوي زيارتنا؟».

وهو يتأمل هذا السؤال البسيط، شعر أنه يتمدّد حتى صدّع أفكاره نفسها.

خرج مسرعاً من السيارة إلى الهواء الطلق ومرّ بحطام متناثر ووقف منحنياً واضعاً يديه على ركبتيه، غير قادر إلا بالكاد على الوقوف مستقيماً، ارتفعت نظراته إلى الأفق الشتويّ. أراد أن يخرج أحدهم من المسافات الزهرية والزرقاء الباهتة وينقذه. بعيداً رأى سراباً يترقرق - صورته وهو يحترق بصورة رهيبة في فييتنام، مثل ذلك الرجل الذي أخرج من الشيفروليه المتفحمة، أو سلسلة من السنوات المليئة بأسئلة ستيفي وأصابعها التي تداعب قفا رأسه.

مكث ساندز الليلة في غرفة خاصة مع حمام في «مساكن قاعدة كلارك فيلد»، المكرسة في غالبيتها للعيش على طريقة الإقامة الداخلية في جوّ شبيه بالكليات، مع

أبواب تفتح وتقفل وشبان نصف عراة يصرخون في الأروقة وأصوات الدشات وأغنيات نانسي سيناترا تتصارع مع أنغام البوسا نوفا التي يعزفها ستان جيتز، والرائحة الكريهة لمعطر «رايت جارد». وصل زهاء الثامنة ليلاً. وحمل والسائق حقيبته إلى غرفته. لم يكلّم أحداً، وصل مبكراً، ونهض من النوم متأخراً في اليوم التالي - يوم رأس السنة الجديدة - وركب حافلة القاعدة وطلب من السائق الفلبيني أن ينزله في أي مكان يستطيع فيه تناول الإفطار.

هكذا وجد ساندز نفسه عند التاسعة صباحاً، في الحادي والثلاثين من ديسمبر 1966، في سناك بار في صالة بولينج مليئة، حتى في هذه الساعة المبكرة، بطيارين يسعون لتسجيل النقاط في جو صاخب. تناول لحم الخنزير المقدّد والبيض من طبق بلاستيكي جالساً إلى طاولة بموازاة صفوف وصفوف من كرات البولينج، وتفرج على اللعب. على الرغم من الصخب العام كان بعض اللاعبين يتحركون بطريقة انسلالية، في تركيز صارم على اللعب. آخرون كانوا يتحركون بطريقة فوضوية ويرمون الكرة مثل لعبة رمي الكرة الحديدية. لم يلعب سكيب البولينج يوماً، ولم يشاهدها قبل هذه اللحظة. وكانت جاذبية اللعبة جلية، الهندسة الصرفة، يقينيات الباليستيات الفيزيائية، الثراء العضوي للممرات الخشبية والعبودية الصامتة للآلات التي ترفع قوارير البولينج التي ظلت واقفة وتمسح تلك الساقطة، فوق كل الضعف والتشويق، الكرة تحمل، يتمّ توجيهها، تسافر مثل ابن، أبعد من رجاء التحكم به. لعبة بطيئة كبيرة قوية. قرر أن يجرب اللعب بعد الانتهاء من تناول الإفطار. في الأثناء شرب قهوة سوداء وقرأ رسالة كاثي جونز. كتبت بخطٍّ دقيق، من الواضح بقلم سائل، أزرق اللون، على ورق رمادي شفاف، على الأرجح فيتنامي الصنع. كانت رسائلها القليلة الأولى له مباشرة، ميالة إلى الثرثرة، مستوحدة، وعاطفية. تساءلت ما إذا كانا سيلتقيان في سايغون، وتطلع ساندز قدماً لذلك. والآن هذه الرسائل الأخيرة، تلك التأملات المربكة.

لقد تعاملت مع الجوكرات طوال حياتي. الجوكرات فحسب. لا أصات،

ولا ملوك. كان تيموثي الأص الأول وعرفني إلى الملك - يسوع المسيح. قبل ذلك ذهبت إلى الجامعة في مينيابوليس. لكنني فقدت حماستي فتركت الجامعة وعملت سكرتيرة وصرت أذهب إلى حفلات الكوكتيل كل ليلة مع شبان صغار السن يعملون في الوسط التجاري. جوكرات صغار.

ربما كانت هذه الكتابة مستلة من يومياتها وغير موجهة إلى أحد. كان بالكاد يطيق هذه العبارات. ما عاد متشوقاً للقائها.

هؤلاء الناس هنا في هذه الأراضي التي نزورها - انظر إلى هؤلاء الناس. إنهم عالقون في الظروف مثلما المجرمون في الزنازين. يولدون ويعيشون ويموتون وفقاً لإملاءات حول كيف تكون الأمور - لا يقولون البتة أريد العيش في هذا المكان بدلاً من ذاك، أريد أن أكون راعي بقر لا مزارعاً. لا يمكنهم حتى أن يكونوا مزارعين، حقاً. إنهم يقومون بالزرع فحسب، يحرثون الأرض، إنهم جنائنيون فحسب.

في البداية لم تكن رسائلها طويلة، بصورة إجمالية طيتي صفحة واحدة، وكانت تنتهي بـ «حسناً، إن يدي بدأت تتعب! من الأفضل أن أتوقف عن الكتابة. المخلصة كاثي». أو «حسناً، أرى أنني انتهيت مما أريد قوله. من الأفضل أن أنهي رسالتي هنا. المخلصة كاثي». في البداية كان يرد، دوماً باقتضاب. وليس - كما أمل - بطريقة جافة. لكنه لم يكن يعرف ماذا يقول. طبيعة علاقتهما، من الواضح تماماً في غمارها - باتت غامضة.

حين يتعلق الأمر بالتباين بين الاضطرار إلى الاختيار وغياب حرية الاختيار أياً تكن - هنا يصبح الأمر قاسياً بكل معنى الكلمة. أنت، أميركا، قواتكم هنا تشن حرباً اختيارية. أما أعداؤكم فلا خيار لهم. لقد ولدوا في أرض تسودها الحرب.

أو ربما ليس الأمر بهذه البساطة- أمريكا ضد فييتنام الشمالية - لا، إنهم الشبان الذين فرضت عليهم هذه الحرب، ضدّ أولئك الذين اختاروا هذه الحرب؛ الجنود القتلى ضد المنظرين والدوغمائيين والجنرالات.

كان هذا تفكيراً أحمق، وقد نفد صبر ساندز منذ زمن طويل حيال هذا النوع من التفكير. أتراها تفضّل أن ترى تمثالاً نصفياً للينين على باب كل مدرسة حكومية؟ أن ترى تمثال الحرية وقد أطيح به في شعيرة فاسقة؟ بالطبع تودّ ذلك. وذلك التوجه الخاطئ كان يغريه، هو الذي يتعلق دوماً بالنسوة المثقفات الساخرات قصيرات البصر. النسوة حادات الذكاء، الحزينات بالولادة. في وجهها مزيج من العدوانية والاعتذار. وعينان بنيتان لطيفتان.

أتذكر أنك سألتني عن مكان في الكتاب المقدّس يزعم أن هناك خدم عدة على الأرض وقلت لا أظن ذلك؟ كنت محقاً – رسالة بطرس الرسول الأولى إلى أهل كورينثوس، 12: 5–6 إلخ «وأنواع خدم موجودة، ولكن الرب واحد، وأنواع أعمال موجودة، ولكن الله واحد الذي يعمل الكل في الكل»[1].

لابدّ أن يعجب هذا رجل– حاء[2] مثلك (ما زلت لا أصدق أنك تعمل لدى شركة ديل مونتي). إذا كنت تريد أن تصدّق أن هناك خدماً من الملائكة يديرون أجزاء مختلفة من الاستعراض هنا على الأرض، فلا ألومك. بمجرد الانتقال من مطار مانيلا إلى مطار تان سون نوت في سايغون، أكون مستعدة تقريباً لتسمية الأمر تعدداً في الآلهة، وأكواناً متعددة، كلها على الكوكب نفسه.

بما أنني جئت على ذكر ذلك، ففي امريكا الشمالية قساوسة إسبان مختلفون (الكنيسة الكاثوليكية نفسها؟) لابدّ من أنهم يعتقدون بأن بعض المناطق واقعة تحت سيطرة الشيطان – أو المسيح – ومثل هذه الأمكنة تدعى «ماونت ديابلو»[3] مثل جبال «سانجري دي كريستو»[4]، وهلم جرا.

(1) العهد الجديد.

(2) G-man: اختصار لتعبير Government man ويقصد به تحديداً من يعمل لدى أجهزة الحكومة ولاسيما مكتب التحقيقات الفدرالي أو المخابرات.

(3) عن الإسبانية أي جبال الشيطان.

(4) Sangre de Cristo: أي جبال دم المسيح، وهي تقع جنوبي سلسلة جبال روكي، وتقع في جنوب كولورادو وشمال نيو مكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية.

وضع الرسالة تحت فنجان القهوة. لم يعد تركيزه منصباً عليها الآن. كان السفر يثيره. هذا العالم ينتهي، يبرز العالم التالي، لاعبو البولينج يحيطونه بالشغف والصخب، وهم يقذفون كواكب سوداء، محطمين كوكبة التماثيل الخشبية. في غرفته، كانت هناك أشياء أخرى عليه تحريكها: كتلة ملفات عمه الهائلة، وحقيبة قماشية فيها زوج أحذية وأربعة غيارات من الثياب القابلة للغسل في الغسالة – لا بزة، ولا أشرطة – وأيضاً قفص من الخزران، سلة في حقيقة الأمر، إنما متينة، مليئة بالقواميس متعددة اللغات. تلقى سكيب تدريبات على أن يتذكر أنه جاء كمدني وعليه أن يلبس ثياباً مدنية، وأن يتجنب الثياب الكاكية أو الزيتونية، وأن يرتدي أحذية بنية لا سوداء، وأحزمة بنية أيضاً. ترك وراءه مسدسة وصار يتنقل مع سلاح من النوع الذي يحمله العملاء السريون، مسدس باريتا أوتوماتيكي عيار 25 ملم يمكن إخفاؤه في جيب البنطال. ازدحم رأسه بكل هذه الأفكار نتيجة إكثاره من القهوة. تخلى عن فكرة لعب البولينج، غادر المكان سيراً على الأقدام في الظهيرة الاستوائية حتى بدأ جبينه يتصبّب عرقاً والتصق جسده المبلل بقميصه.

بدت مكتبة القاعدة مفتوحة. مكيف الهواء يهدر في سقفها. اقترب من الباب ورأى أناساً جالسين تحت أضواء الفلورسنت، غير أن الباب لم يفتح، وأصابته هنيهة من الجزع كونه عالقاً في الخارج يحدّق بعجز إلى عالم الكتب. فتح رجل في طريقه إلى الخارج الباب ببعض الجهد – كان عالقاً فحسب وقد انكمش بفعل الرطوبة – وأمكن ساندز الدخول. شاعراً باليقظة بسبب القهوة راح يتنقل بسرعة بين الرفوف، ناظراً إلى الكتب، من دون أن يجلس. في نسخة من كتاب تواين «ويلسون المغفل»[1] قرأ كل الاقتباسات الموجودة في بدايات الفصول، باحثاً عن اقتباس يظن أنه يذكره، شيء ما له علاقة بكنز الحياة المهدور في الجهالة– لكنه لم يجده. في قسم الأطفال وجد بعض كتب الفلكلور الفلبيني. لكنه لم يجد شيئاً

(1) Pudd'nhead Wilson: رواية لمارك تواين نشرت في 1894.

من الفلكلور الفييتنامي.

كان محظوظاً بأن يصادق بعدئذ كتاباً عن نوت روكني. جلس وراح يقلب الأوراق حتى وجد في الصفحة 87 صورة لروكني في ملعب نوتردام في العام 1930، مع لاعبي آخر فريق قام بتدريبه؛ وبينهم، في وسط الصف الثالث، مع شعر أكثر وفرة والقميص مطويّ الكمين والجدية المألوفة على محياه: عمه فرانسيس. احتياطي في السنة الأولى الجامعية ومع ذلك أحد رجال روكني الأقوياء المفعمين ثقة بالنفس– الصدور منفوخة، الذقون مرفوعة، لا تنظر إلى أبعد من دقيقتين أو ثلاث من المستقبل. كان شقيق فرانسيس الأكبر، مايكل، والد سكيب، قد تخرج في نوتردام في العام السابق وانتقل إلى بلدة عروسه كليمنتس، كانساس. فرانسيس سينضم بعدئذ إلى سلاح الجو ويغادر في 1939 لكي يطير مع «النمور الطائرة» المدنية اسمياً في بورما. مايكل سيغدو متململاً ويبيع عدة المزرعة وينضم إلى البحرية في 1941 ويسقط بعد ستة أشهر مع سفينة «أريزونا» خلال الثواني الاولى من الهجوم على بيرل هاربور. لطالما جاء الموت مبكراً إلى أفراد عائلته – الحروب أو الحوادث. كان للكولونيل ابنة، آن؛ وابن يدعى فرانسيس جونيور، غرق في الرابع من يوليو ذات عام بينما يبحر في ميناء بوسطن. شقيق وابن، كلاهما قتلا في الموانئ. كان هناك أشقاء وشقيقات والكثير من أبناء العمومة والكثير من الأطفال من مصادر أخرى، ليس بينهم من لم يفقد احداً. كانت عائلة صاخبة حزينة.

حدّق سكيب في اللاعبين. أولئك الرجال الذين كانوا يندفعون من مقاعدهم لكي يرتطموا ببعضهم بعض في حمام دماء بهيج، ثم تركوت أنفسهم يتحولون إلى رجال شرطة وجنودا، وعاشوا في عالم لا يدخله الأطفال والنساء. حدّق الرجال به في المقابل. ألم قديم غنى أغنيته. هو الطفل الوحيد لأم أرملة، دخل بطريقة إلى عالمهم من دون أن يغدو رجلاً.

أقفل الكتاب وفتح الصفحات الهشة لرسالة كاثي جونز.

ولدوا في أرض تسودها الحرب. ولدوا في زمن محنة لا تنتهي.

ما لا أظن أنه جرى التطرق إليه هو حقيقة أنه لكي يكون الجحيم حقاً فأولئك الموجودون فيه لا يمكنهم أن يكونوا متيقنين من وجودهم هناك. لو أن الله أخبرهم أنهم في الجحيم، فعندئذ سينتهي عذابهم، ولن يكون عذابهم كاملاً من دون هذا السؤال المقلق – «أهذا العذاب الذي أراه في كل مكان حولي هو لعنتي الأبدية، ولعنة تلك الأرواح الأبدية أيضاً، أم أنها مجرد رحلة مؤقتة؟». رحلة مؤقتة في عالم السقوط.

وأستطيع أن أخبرك أيضاً، لقد أغشى السواد إيماني، لأنني بدأت بقراءة كالفن، بالتصارع مع يأسه. لا يسمي كالفن ذلك يأساً إلا أنه يأس بكل تأكيد. أعرف أن هذا هو الجحيم، هنا بالذات، على كوكب الأرض، وأعرف أنك أنت، وأنا، ونحن جميعاً، خلقنا الرب فحسب لكي نكون ملعونين.

ثم فجأة أصرخ: لكن الربّ لا يمكن أن يفعل ذلك!

أترى – عذاب انعدام اليقين؟

أو أظن أنك ككاثوليكي تسأل نفسك إذا كانت هذه رحلة عبر المطهر. ستسأل نفسك بالتأكيد هذا السؤال حين تصل إلى فييتنام. خمس أو عشرات مرات في اليوم ستتوقف وتسأل نفسك: متى أموت؟ ولماذا عقاب الرب قاس إلى هذا الحدّ؟

أمضى فترة بعد الظهر في برودة المكتبة ثم ركب الحافلة إلى القاعدة العسكرية.

لم تكن قد مضت دقيقة على دخوله الغرفة حين قرع أحدهم الباب، رجل في مثل سنه، يرتدي ثياباً مدنية، حاملاً في كل يدّ زجاجة جعة سان ميجيل.

«هذا آخر ما تبقى يا رجل».

كانت ابتسامة الرجل غير مريحة.

«ذي سكيبر يحتاج إلى جعة».

قال سكيب: «هاي!».

«كوانتيكو!»[1].

أخذ منه الزجاجة وتصافحا، سكيب متورد الوجه من دفء تعرف هذا الرجل، وإن لم يتذكر اسمه. كانا قد تشاركا في دورة من واحد وعشرين يوماً للكتابة المشفّرة في كوانتيكو، بعد الانتهاء من التدريب في المؤسسة[2] مباشرة - لم يصبحا صديقين - إلا أنهما الآن سرا بلقائهما. جلسا يتحادثان حول لا شيء، وبعد بضع دقائق شعر سكيب بأنه فات الأوان لمعرفة اسم صديقه. سأله: «ما مركزك الرئيسي الآن، ألا يزال لانجلي؟».

«لقد جعلوني أختفي في المقاطعة. في وزارة الخارجية، ذلك المبنى الكبير، جادة بنسلفانيا. إلا أنني أتنقل هنا وهناك - سايغون، مانيلا، واشنطن دي سي. ماذا عنك؟».

«إنني في صدد الانتقال إلى سايغون».

«العيش طيب هناك - تتشارك منزلاً، وخدماً، هذا النوع من العيش. اهرب من المكان كلما أمكنك ذلك. اللعنة - كل عطلة أسبوع. معظم عطل لأسبوع».

«أسمع أنه بلد رائع».

«رائع بصورة مفاجئة. تخرج من حانة لكي تبول، تهزّ القطرة الأخيرة، وترفع رأسك، يا إلهي، لا يمكنك أن تصدق، من أين جاء هذا؟».

«مثل هنا بكلمات أخرى».

«أخطر بكثير. فأنت تستحق هناك راتبك حقاً».

«أنا متشوق للذهاب».

«أنت في العمليات النفسية، أليس كذلك؟».

(1) Quantico: قاعدة عسكرية في منطقة كوانتيكو بولاية فرجينيا.

(2) The Farm: معسكر بيري في فرجينيا، يعرف باسم «المؤسسة» وإن ليس بصورة رسمية، ويجري تدريب عملاء السي آي أيه فيها، بما في ذلك على عمليات الاغتيال وإن كانت السي آي أيه تنكر ذلك أيضاً.

«صحيح، بصورة رسمية، لكن يبدو أنني أعمل مع وحدة التخطيط».

«حسناً أنا في وحدة التخطيط، ولكن يبدو أنني أعمل مع الخارجية».

«ما الذي جاء بك إلى القاعدة؟».

«رحلة عودة مجانية إلى الحرب في الساعة الثانية فجراً. الوقت يمر بالنسبة إلي يا بني. آخر فرصة لشرب سان ميجيل. أتمنى لو أستطيع أخذ برميل معي».

«أيبيعون سان ميجيل بالبرميل؟».

«الآن وقد فكرت في الأمر لست متأكداً من ذلك. إلا أنهم يبيعونه بالقنينة في نادي الضباط. لنذهب».

«أشعر أنني بحاجة إلى حمام، هل ألاقيك هناك؟».

«أأنتظرك؟ أو ما رأيك بالذهاب إلى المدينة؟».

قال سكيب: «حسناً إذا كنت مغادراً في الساعة الثا...».

«أو يمكننا أن نعرج على تين كلوب، لنر ماذا يفعل أولاد الضباط».

قال سكيب: «ماذا؟».

«قل لي، هذا يذكرني، بالحديث عن أولاد الضباط، أأنت قريب الكولونيل شخصياً».

«أي كولونيل؟».

«ألست مقرباً من الكولونيل؟ الكولونيل فرانسيس كزافييه؟».

«أنا أحد المفضلين لديه إذا كنا نتكلم على الشخص نفسه».

«ليس هناك سوى كولونيل واحد».

«أظن ذلك».

«لقد أخذت دورة العمليات النفسية التي ينظمها. إنه رجل صاحب رسالة».

«لديه رؤية، هذا صحيح».

«أأخذت هذه الدورة أيضاً؟ لقد أسماها خطأ. تجارب ونظريات. كان ليكون

أقرب إلى هذه الدورة».

«هذا هو الكولونيل».

«لقد عبر عن بعض افكاره في مقالة للصحيفة، أقرأته؟».

«في الصحيفة؟ أتعني دراسات؟».

«نعم».

كانا بشيران إلى صحيفة الوكالة الداخلية، دراسات استخبارية. أفكار الكولونيل في الصحيفة؟ بم يرد على هذا؟ لا شيء.

تجرع بيرته ومسحها عن شاربه. لقد انتهى من مرحلة كينيدي المميزة بالشعر الكثّ. الآن عادوا جميعاً إلى مرحلة الشعر القصير، الفلات توبس - لكي يثبتوا أنهم ليسوا البيتلز. إلا أن سكيب احتفظ بشاربه. كان كثاً.

«أتقرأ الصحيفة كثيراً يا سكيب؟».

«أتابع ما فاتني في مانيلا. لم تكن لدينا صحف في الأرياف. كنت في سان ماركوس».

«آه، أجل، مقر ديل مونتي».

«أذهبت إلى هناك؟».

«لا. إذن لم تقرأ مقالته؟».

«لا أصدق أنه رتّب أيّ شيء للنشر الفعلي».

«لم ينشر، إنه مسودة فحسب».

«كيف قرأته إذن؟».

«كنت أتساءل إذا كنت قد قرأت المسودة».

«يا رجل، أنا لا أعرف أنه وضع يوماً قلماً على الورق. كيف تمكنت من الاطلاع عليه؟ أتعمل مع الصحيفة؟».

«إذن لم تره».

شعر سكيب أن قلبه يكاد يقف. «لا»، قال، «كما قلت لك».

«إذن سأكون صريحاً معك. المقال محيّر بعض الشيء. أحد تفسيرات ذلك هو أنه من المقصود أن يكون ساخراً. إلا أنه إذا كان ينشر مقالاً ساخراً في الصحيفة الداخلية، فهذا محيّر في حدّ ذاته. وهذا مثير للقلق أيضاً؛ هذا في حدّ ذاته محيّر».

قال سكيب: «فهمت. اسمع، من الواضح أنني أتذكرك لكنني نسيت اسمك».

«فوس».

«ريك أليس كذلك؟».

«هذا أنا».

«كان الوجه مألوفاً إنما...».

«لقد ازددت سمنة».

«إذا كنت تقول ذلك».

«لقد تزوجت. وزرقنا بولد. وصرت بديناً».

«صبي أم فتاة؟».

«فتاة، سليستي».

«اسم جميل».

«عمرها ثمانية عشر شهراً».

«هذا يصعّب الأمور أليس كذلك؟ أعني السفر وما إلى ذلك».

«أنا مسرور لسفري. أنا مثل القمر، آتي وأذهب. لكي أصدقك القول، لا أظن أنني أحتمل العيش في البيت كل يوم. النسوة والأطفال يخيفونني. لا أفهمهم. أفضل أن أكون في مكان آخر». كان جالساً على السرير. نهض وجلس على أحد الصناديق. «وأغراض من هذه؟».

«إنني أقوم بتوصيلها فحسب».

«من هو و. ف. بينيت».

«أظن أنه من سيستلمها».

«أو ربما كان مرسلها».

«في الواقع لا أعرف هذا الاسم»».

«ما هي الواو، أهي اختصار لوليام».

قال سكيب: «لا فكرة لدي».

«وإلام يشير الفاء؟ ما اسمه الكامل».

«ريك... أنا مجرد رسول أعمى في هذا الأمر».

قال فوس: «ما رأيك بنزال بالأيدي؟».

«أوه لا».

«إذا تصارعنا بالأيدي أتعرف من يفوز؟».

رفع سكيب كتفيه.

«أيهمك؟».

«لا، لا يهمني».

«ولا أنا، فنحن لا نحتاج إلى العضلات. لدينا جيش خاص الآن. أولئك القبعات الخضر[1] هم أشبه بدبابات بشرية. إنهم آلات قتل. وهم يعملون لدى الوكالة. حسناً، ما أريد قوله هو إنه من الآن فصاعداً سنحتفظ بالشبان الأقوياء الذين يرتدون البزات العسكرية. هم لا يتخرجون من الميدان، ولا يجلسون وراء المكاتب ويبدأون بإدارة الأمور. هذا ليس نداء الاستغاثة. هذه الحرب تاريخية».

ضرب سكيب زجاجته لحسبت أننا نخوض نقاشاً مفتوحاً[2]. لو كانت الرابعة فجراً وكنا نصف ثملين».

«لكننا لسنا كذلك».

(1) الاسم الذي تعرف به القوات الخاصة الأمريكية، تأسست في العام 1952 كجزء من «مركز العمليات النفسية» في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

(2) Bull Session: نقاش مرتجل لاسيما بين مجموعة صغيرة من الرجال.

«لا».

«نعم».

«متى سنحصل على هذه الجعة؟».

«حسناً، ما رأيك بالآن».

قال سكيب: «آه، سحقاً، لحظة».

«ماذا».

قال سكيب: «لقد تعطّلت ساعتي، كم الساعة الآن».

«الثالثة وعشرون دقيقة».

«اللعنة، لديّ تقرير صغير بعد أربعين دقيقة. من الأفضل أن أرتب أوراقي».

«ثم ماذا؟ مباشرة إلى سايغون؟».

«بقدر ما أعلم».

«سأراك هناك على الأرجح».

قال سكيب: «حسناً، وعندئذ يمكننا تناول تلك الجعة. ماذا يشربون في سايغون؟».

«جعة تايجر، ثم يتقيأون».

قال سكيب: «جيد بما فيه الكفاية».

حملق فوس بالأرض وركز قبل أن يرفع نظره استعداداً للتكلم.

ذكره سكيب: «سوف ترحل إذن».

وقف فوس: «في وقت آخر إذن». ومع خروجه حياه سكيب التحية بشبه تحية عسكرية.

لطالما قال الكولونيل: حين تصطدم بجدار، خذ حماماً وغير ثيابك.

فعل سكيب الأمرين، ثم أخذ الثياب التي كان يرتديها إلى المغسلة بنية السفر إلى منصبه الجديد نظيفاً تماماً. طوال أكثر من ساعة جلس على كرسي بلاستيكي بين آلات صاخبة - مختبئاً، متفادياً أن يراه أحد - في موجة متصاعدة من الإرباك

والجزع. خرج من هذه الحالة للحظة لكي يطوي ثيابه وعاد إلى البلدة. جلس مستقيماً على كرسيه، واضعاً يديه في حضنه. تذكر أن حياته لم تكن شيئاً. ركز على تلك النقطة في الأفق، الهدف الصلب الثابت البارز: هزيمة الشيوعية. زال عنه ذعره.

سرعان ما وقف خارج باب القاعدة تحت سماء معتمة إنما صافية من المطر. كانت الحافلات تصل أربع مرات في الساعة. ركب الحافلة التالية وانتقل بسرعة 24 كيلومتر بالساعة عبر هذه البلدة ذات الأبنية الخضراء والسقوف المضلعة المتشابهة، وصولاً إلى المحطة الأخيرة داخل البوابة، ثم بسيارة أجرة إلى بلدة «أنجليز»، وهي كناية عن شارع رئيسي أسفلتي، وأزقة قذرة متداخلة، حانات ومواخير وأكواخ بائسة. قال له سائق التاكسي: «أتريد لقاء سيدة ما؟». «لا، شكراً». «إذن هل ستذهب إلى الكرنفال؟»، أجل لم لا، سيذهب إلى الكرنفال، فلأي غرض جاء إلى البلدة أصلاً؟ أكرتان من القذارة هو المساحة التي احتاج إليها هذا الكرنفال لكي ينشر خيمه المتعفنة البنية ذات الحبال القنب، وخيوله الستة، ومكبرات الصوت التي تبث الإذاعة المحلية، وجدارياته الضخمة الباهتة المرفوعة أمام العروض الجانبية. بينما دفع الأجرة للسائق احتشد حوله الأولاد المتسولون، وقام الباعة الغاضبون بإبعادهم. اشترى الفول السوداني ملفوفاً بورقة مجلة. أحب منظر حورية سولو[1] على جدارية واقترب لكي يراها. كان المتفرج الوحيد. كان شعرها أسود طويلاً معقوداً إلى الوراء بزهور بلاستيكية. وكان نهداها الصغيران مكورين في الثوب لبيكيني. ومن أي مادة صنع الذيل؟ لم يستطع أن يتبين ذلك، نوع من القماش. لم تكن تتأرجح كسمكة. بل تلوح بذراعيها في صندوق زجاجي بارتفاع نحو أربعة أقدام وطول نحو ثمانية أقدام، وقد وضع على منصة ترتفع ثلاثة أقدام عن الأرض. اخترقت سطح الماء ومدت يدها لمنشفة بيضاء معلقة على حافة الحوض، وجففت يديها ووجهها، وأخذت السجائر وولاعة موضوعين بجانب

(1) Sulu: جزيرة في الفلبين تقع في منطقة ميناناو التي تتمتع بحكم ذاتي.

المنشفة، أشعلت سيجارة مارلبورو بأصابعها المبللة، ودخنت لدقيقة، ثم لوحت بيدها له لكي يغادر، أن يرحل، وأدارت ظهرها له. ذهب إلى خيمة أخرى- أقزام بوهول[1] الخمسة. أين تقع بوهول؟ في مكان ما في تلك الجزر، افترض، سوف يلقي نظرة على الخريطة في وقت ما. الآن التقى بعض مواطنيها فحسب، الأقزام القصار المبهجين الملتحين المصورين على لافتة كبيرة فوق المدخل، اثنان منهم يعملون في منجم ذهبهم بمعاولهم المدببة اللماعة، والثلاثة الآخرون يجرون عربة كوم عليها الذهب اللماع - فرانو، وكارلو وباولو وسانتو وماركو، أسماء غريبة، رجال سحريون. إنما في الداخل لم يكن هؤلاء الرجال. في أسرة أطفال كبيرة اضطجع الأقزام بحفاضات قذرة، عميان، مشلولون، غائبون عن الوعي، وقد سجلت أسماؤهم وأعمارهم وأوزانهم على بطاقات. بين السابعة عشرة والرابعة والعشرين. ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون، ثلاثة وثلاثون باونداً... لا لحى، إنما خيوط طويلة من الزغب المشعث. وكانت أطرافهم ترتجف، وعيونهم الحليبية ترتعش... الذباب يحط عليهم... خرج ساندز من الخيمة وركب قطار الملاهي.. لا شيء مثيراً للإعجاب، ذلك النوع من القطارات الذي يتم تفكيكه ونقله من بلدة إلى أخرى، ولكن ما يفتقر إليه في الطول والسعة كان يعوض عنه بالسرعة والاندفاع، ومع انحدار العربات في منحنى أو التفافها عند منعطف، كل القطار يتأرجح ويميل، شعر بالموت يمسك بخناقه، إذ من يشرف على تركيب هذا القطار، ومن يعتني به، ومن يكفل سلامته؟ لا أحد. توقع مأساة. بحال جيدة إنما دائخ، ترجل من هذا القطار ووقف مرة أخرى أمام خيمة الحورية، السجينة المبللة. الغروب الآن. ليلة رأس السنة. طوال بعد الظهر كانت الألعاب النارية متباعدة، أما الآن فأخذت تزيد أكثر فأكثر. ليست صفيراً ومفرقعات. بل فرقعة خارجية تدوي بعيداً. على الملصق الطويل ابتسمت الحورية ولم تبد من النوع الذي يدخن مارلبورو. شعر برغبة للدخول ثانية وإهانة نفسه مجدداً.

---

(1) Bohol: جزيرة في الفلبين تقع في منطقة فيساياس الوسطى.

توقف جيب تابع للقوات الجوية على مقربة منه، يقوده طيار. كان فوس هو الراكب. ترجل ووقفا معاً أمام الرسم غير الملون «أكان هذا موعدك؟».

«نعم».

«تقريرك؟».

«صح»، شاعراً بالخوف والانتشاء، «أترغب في الدخول؟».

«في الواقع كنت هنا قبل يومين، فلتدخل أنت».

قال سكيب بحزن: «لقد كنت في الداخل».

«لنتكلم أكثر قليلاً».

«أكيد».

جلس الأمريكيان إلى طاولة أحد الباعة فرشت بالمشمّع، كل منهم يحمل زجاجة سان ميجيل، وقد بدوا في الغالب خارج المكان. كان فوس يرتدي قميصاً مقلماً، وسروالاً بنياً، وحذاءً بنياً. بدا مثل بائع من التوراة. وكذلك سكيب.

قال سكيب: «إذن هذه ليست مصادفة».

«بالطبع تفهم أنه لدي هدف هنا».

«أجل، هذا ما قلته تواً».

«أنا هنا لكي أصدمك».

«لم تفلح في ذلك».

«جيد بما فيه الكفاية. كل ما أتمناه أن تكون قد سمعتني».

«كل ما سمعته هو هراء جاحد».

«ماذا يفترض أن يعني ذلك».

«اسمع، أوافق أنه ثمة شيء اسمه التطور. الأشياء تتغير، ونحن جيل جديد، ولكن، ما الذي لديك ضدّ الحرس القديم؟».

«لاشيء على الإطلاق. إنهم يديرون العرض. إنما ليس الكولونيل، أليس كذلك؟ إن الكولونيل هو عرض في حدّ ذاته».

«أتعرفه أصلاً، خارج الدورة التي أخذتها معه؟».

«أعرفه، لقد عملت معه».

«حقاً؟».

«طوال الصيف والشتاء الماضيين. أف أكس العجوز. لقد اختطفني. وأجبرني على القيام بالأبحاث».

«أبحاث حول ماذا؟».

«حول كل شيء ولا شيء. دعاني كاتبه. أظن أن فكرته كانت أنه إذا كان مضطراً إلى أن يكون سجيناً في لانجلي، فمن الأفضل أن يتخذ سجيناً له كما تعرف؟ إلا أنني مدين لهذا الرجل، لقد ترقيت درجتين منذ ذلك الحين».

«روعة».

«منذ يونيو».

«هذا سريع».

«مثل البرق».

«أفعل هذا من أجلك؟».

«سكيب، لا. لم يكن الكولونيل من رقّاني. ولكن بعد العمل معه، اهتم الجماعة بأمري».

«جيد، هذا عظيم».

«لا، لا، لا، أنت لا تفهم ما أقوله بسرعة كافية».

«ماذا، قل لي».

«لقد اهتمّ بي الجماعة لأنهم مهتمون بالكولونيل».

هنا كانت لحظة للصمت، لا تكشف شيئاً.

«... اهتموا؟».

«الآن بدأت تفهم الفكرة».

«أعني حين تقول إنه كان سجيناً في لانجلي...».

«الآن فهم الأمر».

كان يجب أن يكون السؤال التالي ما إذا الكولونيل وقع في متاعب حقيقية، من النوع الذي يحدّد المصير ويدمر المهنة. إلا أن السؤال الذي يفترض أن يعقب هذا هو ما إذا كان الكولونيل لا يزال يعاني من المتاعب، ثم بعد ذلك: من الواقع في المتاعب أيضاً. أنا على سبيل المثال؟

بالتالي ابتلع كل أسئلته.

وبات فوس هو من يطرح الأسئلة.

«ما الذي حصل في ميندناو قبل أربعة عشر شهراً؟».

«أظنّ أنك اطلعت على تقريري».

«قرأته. قمت بتفكيك شفرته. كنت جالساً إلى التلكس حين وصل بشيفرة آيز أونلي[1]».

«حسناً، إذا كان قد وصل بهذه الصيغة، فلماذا فككت شيفرته؟».

«لأن آيز أونلي ليست تصنيفاً قانونياً، أنا واثق من أنك تعرف ذلك. إنها شيء مستوحى من جايمس بوند».

«حسناً، ومع ذلك، كنوع من اللياقة».

«اللياقة تجاه من؟».

«تجاهي، وتجاه المتلقي».

«إننا نطلع على كل ما يرسل إلى الكولونيل. أو من الكولونيل».

«إذن تعرفون كيف حصلت الأمور هناك».

«أجل، أفسد الكولونيل الأمور».

«هذا ليس ما يقوله تقريري يا ريك، اقرأه ثانية».

«أيمكنك أن تقول لي لماذا يهدر وقتاً وموارد قيمة وهو يحاول عرض مباراة

(1) على اسم مجموعة أيان فلمينج القصصية «لعينيك فحسب» التي صدرت عام 1960 أما الفيلم السينمائي ضمن سلسلة جايمس بوند فعرض في 1981.

كرة؟».

«لا، لا أستطيع. أتقصد البايسبول؟».

«كرة القدم. لعبة كرة قدم. حاول أن يشحن مجموعات أفلام. أيحسب نفسه رئيس الجمهورية؟».

«لدى الكولونيل أسبابه أياً تكن». أخذ دمه يغلي. كان جاهزاً لضرب فوس بزجاجة. «أي لعبة كرة قدم؟».

«نوتردام ضد متشيغن. المباراة التي جرت الشهر الماضي».

«لا فكرة لدي».

«الكولونيل يجمع معلومات استخبارية حول مباراة نوتردام متشيغن أكثر مما عن العدو». نظر فوس إلى ساعته وأشّر إلى جندي سلاح الجو الذي يرافقه.

«هل تحمل له فيلم المباراة؟».

«سكيب، سكيب. لا أحد سيرسل له أي فيلم مباراة». وقف ومدّ يده. فصافحها سكيب بأشدّ صلابة ممكنة. «اسمع»، قال فوس، وفيما يبحث عن الكلمات عكست عيناه تعاطفاً إنسانياً «أراك في الحرب». كان الجيب شغالاً. استدار ورحل.

شرب سكيب زجاجتين أخريين من الجعة وحين هبطت العتمة مضى مبتعداً من الكرنفال وتناول السمك بالأرز في مقهى. من الباب شاهد عرضاً صغيراً في الشارع، شاب مخمور له ذراع واحدة محترقة ومضمدة في حمالة، ومع ذلك كان قادراً على إشعال سلسلة من المفرقعات ورميها بين أقدام المارة المتقافزين. بحلول الساعة التاسعة مساء كانت المدينة برمتها تصطخب بالمفرقعات الاحتفالية. يوم الاستقلال في سان ماركوس أثار إعجابه، أما هذا فكان أكثر ضراوة وخطراً، مع امتلائه بالأعيرة النارية الحقيقية ودوي المتفجّرات، وكأن الليل كله يتعرض للهجوم. فكر أنه سيجد المكان أكثر هدوءاً في فيتنام الجنوبية. سار إلى المنطقة الحمراء – ليس في أنجليس سوى القليل عدا ذلك – المنحدر، الرائحة الرهيبة،

النظرات المحملقة العطشى البشرية الباردة ، للنسوة فاغرات الفم، وهو يمر بأكواخ قذرة تصدح منها موسيقى الروك أند رول، حارة وغنية بالفساد كتوابيت مصاصي الدماء. اللغز الفاسق لليل الجنوب آسيوي، واعترف لنفسه بصورة صريحة أنه لا تهمه العودة يوماً إلى دياره.

بعد يومين من عيد الميلاد كفّ جايمس عن الاتصال بأصدقائه وعن استلام اتصالات ستيفي، وصار يمضي جلّ وقته في مشاهدة الصور المتحركة على التلفاز مع أخيه بيريس ذي العشر سنوات، متشاركاً وإياه قدر مستطاعه سكينة طفولة خالية من المشاغل.

في ليلة رأس السنة ذهب إلى حفلة. فوجد ستيفي هناك. كانت حانقة، وتركته وحيداً. بقيت في الخلف في العتمة مع دونا وصديقاتها الأخريات، المشجعات الاحتياطيات وملكات التخرج المستقبليات، اللواتي احتشدن تحت غيمة من الاستياء. جيد. فالفتاة التي لطالما أرادها هي آن فاندرجريس، التي جاءت إلى ثانوية بالو فيردي في السنة نفسها مع جايمس والتي تقف الآن في مدخل المطبخ وتبدو رائعة، وهي تتكلم إلى شابين لم يرهما قبلاً.

احتسى الرم. لم يسبق له احتساءها. قال أحدهم: «نسمي هذا ثلاثة على اثنين».

إذا كان سيذهب إلى مكان ينفجر فيه لغم أو ما شابه، فقد تمنى إذن أنه لم يبدأ بمواعدة ستيفي دال.

«حسناً، إلى الجحيم. هذه الثلاثة على اثنين أسلس طعماً من الجعة»، قال موافقاً.

«الآن أضف القليل منها في الكوكا كولا».

كانت آن فاندرجراس التي تتكلم. كانت شقراء تضع دوماً ماكياجاً جميلاً،

ولم يتقرّب منها يوماً لأنها بدت بالنسبة إليه فتية جداً وصافية ومتشامخة، ثم في آخر سنة مدرسية كاملة له سمع أنها تواعد لاعب كرة قدم، طالب في صف التخرج يدعى دان كوردوي، ثم واحداً آخر هو صديق كوردوي ويل ويب، ثم نصف الفريق اللعين، كلهم في صف التخرج، وسمع أنها تزمع مصاحبتهم جميعاً. «أنت ساحقة الجمال، أتعرفين ذلك؟ لم أقل لك ذلك يوماً، أقلت لك يوماً هذا»، وإن بدت لناظريه على نحو ما أقل جمالاً مما يتذكرها، أكثر ثقلاً، أكثر سمنة عند الوجه. أكثر نضوجاً، إنما ليس بصورة جيدة، بل بطريقة ذكرته بمنتصف العمر.

علقت جرعة رم في حلقه وكادت تدفعه إلى التقيؤ، إلا أنها نزلت جيداً بعد ذلك، وبعد ذلك شعر بحلقه مخدراً، وأنه قادر على ابتلاع المسامير أو الزجاج أو الجمر.

اندفع في الشرب خلال ساعة من الزمن وكأنها شيء فيزيائي، كأنها رواق. تحولت شفتاه مطاطيتين وسال لعابه وهو يقول: «لم أثمل يوماً في حياتي».

بدا أن الناس يتحلقون حوله، يضحكون، إلا أنه لم يكن واثقاً من ذلك. الغرفة مالت جانبياً، والجدار نفسه أوقعه على مؤخرته. أيد وأذرع ترفعه بدت له أشبه بمجسات وحش...

عاد بجسده من مكان قاتم ما، وإذا به واقفاً في الخارج يحمل سيجارة في يد وكأساً باليد الأخرى.

لاحت له دونا مثل حطام مقبل. مجنونة كالنار. «لِمَ تقول هذا؟ لِمَ قد يتكلم أياً كان بهذه الطريقة؟». ستيفي تقف في الخلفية مطرقة الرأس، باكية، والفتيات حولها يمسدن شعرها ويواسينها.

أمسكه رولو مستقيماً في الفناء، بينما دونا تنهال عليه بالشتائم، لم يكن ممكناً تحريكها «دونا، دونا...»، كان رولو يضحك ويخور وينبح «لا يمكنه سماعك يا دونا. توقفي عن الوعظ».

«كادت ستيفي تحبل. ألا تدرك أنها كادت تكون حاملاً؟ كيف تتصرف هكذا؟».

«كادت تحبل»، قال رولو «كادت؟». كان جايمس قد جثا على ركبتيه متشبثاً بساقي رولو.

«ظننت أنها حبلى، مفهوم رولو؟ مفهوم؟ لا يمكنه فقط أن يصقها في الليلة الأخيرة التي يكون فيها في البلدة، ثم يرحل ببساطة إلى فيتنام، مفهوم رولو؟».

«حسناً!».

«قل له ذلك!».

«حسناً، سأقول له ذلك. جايمس، جايمس، عليك أن تتكلم إلى ستيفي. لقد جرحت مشاعرها بالتأكيد. قف، انهض».

جرته رجلاه إلى ستيفي الواقفة عند ركن حجري للشواء فيه نار. قال شيئاً ما وقبّلته ستيفي... نفسها المبلل المراهق «وها أنت تدخن سيجارة»، قالت له «وأنت أصلاً لا تدخن».

«أدخن. لطالما دخنت. أنت فحسب لا تعرفين ذلك».

«أنت لا تدخن».

«أدخن».

حدث شيء آخر وإذا بستيفي تختفي وتحلّ محلها أو تتحول هي نفسها إلى صديقتها دونا «لقد جرحتها للمرة الأخيرة يا جايمس».

«أنا أدخن»، حاول أن يقول. كان غير قادر على إقفال فمه أو رفع رأسه عن صدره.

كان في المطبخ ثانية، حيث لم تعد آن فاندرجريس تبدو جميلة. بدت مسنة متهالكة. وكان شعرها متجعداً. ووجهها مسطحاً محمراً متعرقاً وبدت ابتسامتها ميتة. ضحكت مع الجميع بينما أعلن أنها عاهرة «لقد تطلب مني الأمر وقتاً، إلا أنك عاهرة. أنت عاهرة، حسناً»، صاح بصوت مرتفع جداً «أريدك فحسب أن

تعرفي ذلك مثلما عرفه الجميع سواك، أنت عاهرة فاسقة بالكامل». انفجرت آن بالضحك. بدت وكأنها كانت تجر قطاراً طوال الليل. كان عقله عالقاً في الطمي وظل يردد: «يا لك من عاهرة، يا لك من عاهرة، يا لك من عاهرة...».

رموه أرضاً ورشوه بالماء بأنبوب. تحول التراب إلى طين غرق فيه، مترنحاً، محاولاً الوقوف مستقيماً.

لم يكن هذا مختلفاً كثيراً عن لحظات معينة من دورة التدريب الأساسي. خرّت قدماه ووقع على وجهه وأكل الطين، مفكراً: لا بأس أيها الرجال: ها إننا نبدأ.

1967

في عصر الأول من يناير 1967، قاد نجوين هاو السيارة إلى مطار تان سون نوت مع جيمي ستورم، أحد رجال الكولونيل المقرّبين. كان بصورة شبه دائمة ثياباً مدنية، مع أن المرة الأولى التي رآه فيها هاو كان يجلس مقعياً خارج فيلا «السي آي أيه»، يأخذ استراحة ويدخن سيجارة، ببزة الجيش الأمريكي التي عليها شارة الرقيب.

عصر هذا اليوم ارتدى البزة نفسها، وطوال الطريق إلى المطار، جلس السيد جيمي أو السيرجنت ستورم في المقعد الخلفي، حيث لم يجلس من قبل، منتصب الظهر، معتمراً طاقيته، في صمت مطبق- لعله متوتر بعض الشيء، فكر هاو، حيال استقبال الواصل الجديد.

لكن صمته هذا قد يكون متعدّد الأسباب. فالسيد جيمي ستورم شاب غريب الأطوار منطو على نفسه. في الوقت الذي رأيا فيه وليام ساندز ينزل من سلم طائرة «آير أمريكا دي سي 3»، محنياً رأسه بعض الشيء بسبب صخب الطائرات واشتداد الريح الباردة، استعاد السيد جيمي طلاقة لسانه بالكامل وأخذ يتكلم مع ساندز ببهجة وبوتيرة أسرع من أن يتتبعها هاو.

وضعوا اثنين من الصناديق في صندوق الشيفروليه السوداء، أما الثالث فاضطروا إلى وضعه في المقعد الخلفي مع الراكب الجديد، الذي طلب من مستقبليه مناداته سكيب.

«حسن، حسن، حسن»، قال السيد جيمي موافقاً، ثم أبدى اعتراضه «لكن دعني أناديك سكيبر، فسكيب قصير جداً. إنه يمرّ سريعاً جداً فحسب». الآن جلس السيد جيمي في المقعد الأمامي بجانب هاو.

قال هاو: «سيد سكيب، يسرني الترحيب بك. عمك يعرف ابن أخي. والآن أنا أعرف ابن أخ عمك».

«لديّ شيء لك»، ناوله الوافد الجديد صندوقاً من السجائر التي بدت شبيهة بالمارلبورو إلا أنها كانت من نوع آخر. ونستون. قال هاو: «ممنونك سيد سكيب».

اقتربت دراجة هوائية على يمينهم وهم ينتظرون عند الإشارة الضوئية. أخفض السيد جيمي زجاج سيارته بسرعة وقال: «ديدي ماو!»[1]، ولوح بيده، فغير راكب الدراجة اتجاهه.

قال السيد سكيب بالفييتنامية: «أيمكنني التكلم بالفييتنامية سيد هاو؟»، وأجاب هاو بالفييتنامية: «هذا أفضل. فلغتي الإنجليزية أقرب إلى لغة الأطفال».

قال سكيب: «اليوم هو رأس السنة عندنا، وعما قريب سأحتفل برأس سنة آخر، التيت الخاص بكم».

«لفظك جيد تماماً».

«مشكور».

«أجئت مرات كثيرة إلى فيتنام؟».

«لا، أبداً».

قال هاو: «هذا مفاجئ».

«خضعت لدورة مكثفة»، قال سكيب ناطقاً الكلمتين الأخيرتين بالإنجليزية.

«ها هي إذن أليس كذلك؟ السبعمئة باوند كاملة»، قال السيد جيمي ماداً يده إلى الصندوق في الخلف «مفاتيح مملكة دوق إيرل».

اقتنع هاو فجأة أنه رغم أنه لم يلتقه يوماً، فإن جيمي ستورم يضمر كرهاً عميقاً لسكيب ساندز. أما سكيب فبدا مرتاباً بستورم وتردد قليلاً قبل أن يقول: «بل هي أقرب إلى المئتي باوند».

بدأت الشمس بالغروب، وتوهجت الغيوم باللون الأحمر. دخلوا إلى سايغون ومروا بشارع سكني يلعب الأولاد فيه بالقفز على الحبل في الغروب،

(1) Diddy mao: عامية فيتنامية تعني «هيا بسرعة».

وبلغت شذرات من ترانيم القافزين السحرية آذانهم. ثم دخلوا شوارع الجي آي[1]، جادات المتاجرة البائسة، مروراً بمداخل أشبه بالأفواه، كل واحد منها يبثّ موسيقاه وجلبته وروائحه الحادة، ثم عبروا النهر إلى ما كان رسمياً إقليم جيا دين ونزولاً إلى شارع تشي لانج إلى فيلا المخابرات الأمريكية - العمليات النفسية، التي لا أحد يمكث فيها طويلاً، ما عدا جيمي ستورم في حجرة نومه الفوضوية ومكيفها الهادر، الواقعة في آخر الردهة تماماً والمؤثثة بمناضد من قصب الروطان والكنبة المنجّدة بالكابوك[2] وأرفف الكتب الفارغة تقريباً والمشرب الخيزران - من دون كراس طويلة - والتي علقت على أحد جدرانها الصفراء الشاحبة لوحة تمثل جياداً في إصطبل.

بقيت الشيفروليه السوداء في الفيلا. ساعد هاو الأمريكيين على حمل الأغراض - حقيبة ملابس السيد سكيب القماشية وسلته الخيزران والصناديق الثلاثة - ثم ودعهما وعاد إلى البيت عبر الرصيف المحطم بمحاذاة قناة تصريف صحي، متبيناً طريقه من خلال كشّاف يدوي.

كان يعيش وزوجته وبعض الأقرباء أحياناً فوق متجر العائلة المهجور وخلفه. كان المتجر ملك عائلته؛ أما الأقرباء فيخصون زوجته. كان قد مضى زهاء ساعة على هبوط الظلمة حين دخل هاو من الزقاق، إلا أنه سمع صوت احتكاك صندلها بالفناء الإسفلتي في الخلف وهي تتحرك بين شجيرات الفاكهة التي تزرعها في أصص كبيرة. أضاء اللمبة الفلورسنت فوق رأسه في غرفة الجلوس

(1) GI اختصار لأحد تعبيرين Ground Infantryman أي جندي المشاة، أو لتعبير Government Issue أي إصدار حكومي، التي كانت تطبع على كافة معدات الجنود، وفي الحالين فإن الحرفين المختصرين يستعملان للدلالة على الجنود الأمريكيين بصورة عامة سواء من قوات المشاة أو غيرها.

(2) قصب الروطان Rattan، أو أسل الهند: نوع من النخيل الذي ينمو في المناطق الاستوائية، والذي يستعمل في صنع الأثاث. أما الكابوك kapok فهي كناية عن ألياف حريرية تستعمل في حشو الوسائد.

لكي يستدعيها.

كان راغباً في الكلام. رأى في طلب الكولونيل منه بأن يستقبل أحد أفراد عائلته، دليلاً على أنه قوّى تحالفه معه واجتاز نهراً في حياته، وفي حياتها أيضاً. وبالتالي لها الحق في أن تحيط بصورة عامة بظروفهما.

جلس على كرسيه أمام مروحته الكهربائية الحمراء. وسرعان ما دخلت كيم، امرأة أربعينية، مسطحة القدمين، أشبه بعود يكسوه الشحم، ذراعان نحيلتان ورجلان متقوستان مع بطن نائئة. أصبح وجهها نوعاً ما أشبه بوجوه تماثيل الضفادع الحجرية في الحدائق، ونوعاً ما أشبه بوجه بوذا - منتفخ الوجنتين، جاحظ العينين. جلست ملتقطة أنفاسها وقالت: «أنا بخير اليوم».

قال: «هذه معجزة»، لأنه يعرف أنها تحب مثل هذه التعابير.

«أخذت علاج الربو من الحكاية القديمة».

قال: «هذه فكرة مجنونة».

«إلا أنها نجحت، فأنا بخير حال».

«دعيني آخذك إلى طبيب أمريكي. أنا واثق من أن السيد الكولونيل يمكنه تدبير ذلك».

ردّت بعبارتها المعتادة: «دعني وشأني، لن يملأ قبري سواي».

كانت تدبّر أمور المنزل جيداً وكانت صديقة حميمة له. عانقها بحنان وتمنى لها عمراً مديداً. إلا أن صحتها لم تكن جيدة.

جلسا معاً بينما دارت المروحة الحمراء راجّة المنضدة تحتها. أغمضت كيم عينيها وأخذت تتنفّس من أنفها، عملاً بتوصية معالج شعبي آخر.

كان مرضاً طويلاً جداً بالفعل، وقد ازداد سوءاً على الأرجح بخسارة ابن أختها قبل بضع سنوات - أربع سنوات؟ غالباً ما كانت تعود إلى موضوع انتحار «ثو». كان يرى هاو كيف أنها تبدو على نحو ما شاردة في عالم آخر، متلهفة، في حين يجرّها شيء ما، ربما مجرد صوتها الخاص، إلى هذا النقاش ضدّ رغبتها:

أتحسب أنها ربما كانت حادثة، أتظن أنه ربما كان يجرب ببساطة، يتساءل، يرى، يتشمم النفط، لا أعرف. فيجيب هاو، لا أعرف أيضاً، لكن كان على «ثو» أن يتشجم بعض العناء لكي يحصل على بعض البنزين. لا أحب بوذا، كانت تقول. هناك الكثير من الآلهة، أما مع بوذا فالأمور بسيطة جداً، انظر حولك فحسب، هل تبدو الأمور بسيطة؟ لا، لا.

لأنه لكي يتكلم إليها معها عليه الدخول إلى عالمها، سألها: «بمَ تخبرك أحلامك مؤخراً؟».

«أن تنفسي سيبقى نقياً وأن ابنة عمي ستتزوج قريباً».

«ابنة عمك؟ أي ابنة عم؟».

«لانج! أعليّ أن آخذك إلى الغرفة الجانبية لكي تراها نائمة على مرتبتها هناك؟».

«نسيت أيّ واحدة تقيم معنا».

«هناك اثنتان! لانج ونو».

«آن أوان التكلم عن وضعنا».

«تكلم».

«تدركين أن السيد الكولونيل لديه مشروع بالقرب من كو تشي، قرب جبل الحظ السعيد».

«من الخطر مساعدته. أيمكنك مراوغة الرياح؟».

«أنا أساعده أساساً. لقد تكلمت مع الكثير من الزعماء المحليين، وأخبروني بمواقع الأنفاق على الخرائط».

«إذا انحزت إلى أحد الطرفين، فما سيكون مصيرنا؟».

«لقد انحزت بالفعل إلى طرف، أظن أن علينا أن نفكر بما يحدث حين تتوحد البلد ثانية. أظن أننا سنضطر إلى الرحيل».

«الرحيل؟».

«نغادر البلد. نهاجر. نذهب إلى بلد آخر».

«لكننا لا نستطيع ذلك!».

«ما الذي يمنعنا؟ لم يعد أحد في البيت».

«لم يعد أحد لأن لا عمل لديك لهم. لماذا بعت المتجرين الآخرين حين كان هذا المتجر مقفلاً أساساً؟ على أية حال هناك مينه».

«مينه لديه فرصه الخاصة وسوف يقوم بتدبيراته الخاصة».

«تعني أنه سيُقتل آجلاً أو عاجلاً».

«أيتها الزوجة، أرجوك أن تفكري جيداً في هذه الأمور».

غالباً حين يتناقشان في أمور تثير استياءها، تقف وتتحرك في المكان من دون أن تلاحظ ذلك. تحمل الوسائد وتنفض الغبار منها أو تحمل المقشة التي تصل إلى الركبة لكي تكنس النسالة عن الأرضية الخشبية. كانت أم هاو تستعمل مثل هذه المكنسة. وجدته أيضاً. كان ثمة واحدة في كل منزل يذكر أنه دخله يوماً.

«التقيت ابن أخ السيد الكولونيل. اسمه سكيب. فلندعه إلى العشاء».

«ليس جيداً استضافة أمريكيين في البيت».

«إذا لم ننحز إلى أحد الطرفين، فلن يثق بنا أيّ منهما. سنصبح من أولئك الذين في الوسط، الذين ينتهي بهم الأمر في معسكر ما، بصرف النظر عمن ينتصر في النهاية».

«إذن فقد انضممت إلى الأمريكيين. إذا انتصر الأمريكيون عندئذ يمكننا البقاء».

«لا. لن ينتصر الأمريكيون فهم لا يقاتلون من أجل وطنهم. جلّ ما يريدونه هو تحسين أوضاعهم. ولكي يحقّقوا ذلك عليهم أن يقاتلوا لفترة فحسب، ثم يرحلوا».

«هاو! إذن لمَ نساعدهم في هذه الحالة؟».

«لا يمكنهم الفوز، إلا أنهم يمكنهم إثبات أنهم أصدقاء لأصدقائهم. وأظن

أنهم صادقون وسيفعلون ذلك».

«لكن أنت لك أصدقاء في الفيت مين».

«بات اسمهم الفييتكونغ الآن».

«ترانج. ترانج تان صديقك».

قال هاو: «لا أريد التكلم عن الفييتكونغ. الشيوعيون لا يؤمنون إلا بالمستقبل. وباسمه سوف يدمرون كل شيء، سوف يملأون المستقبل بلا شيء. أريد التكلم عن الأمريكيين».

«تكلم. لا يمكنني منعك».

«إذا ساعدت الأمريكيين، فلن نضطر إلى أن نكون لاجئين، سوف يساعدوننا على الفرار. ربما إلى بلد مثل سينغافورة. أظن أن هذا يمكن فعله. سينغافورة مكان دولي. لن نضطر إلى الإحساس وكأننا منبوذون».

«هل طرحتَ معهم موضوع سينغافورة؟».

«سوف أطرحه معهم في الوقت المناسب. ثمة أمكنة أخرى أيضاً. مانيلا، ربما جاكرتا، ربما كوالا لامبور. ما دمنا لن نكون مضطرين إلى أن نكون لاجئين في مخيم».

«سوف أصلي لكي يدمر الأمريكيون الفيت مين».

«لا أتشبث بأي أمل يا كيم. ثمة مثل قديم يقول: السندان يعيش أكثر من المطرقة».

«أيهما نحن؟ لسنا أياً منهما. إننا عالقون في الوسط».

«وثمة مثل آخر: كل ديك يقاتل بصورة أفضل في مزبلته».

«ها! إليك مثل قديم آخر: الديك دجاجة، إلا أن الرجال حفنة من الفراخ».

«لم أسمع يوماً هذا المثل».

ضحكت بحبور، متوجهة نحو المطبخ.

نادى هاو: «أعرف أنك تكونين في قمة سعادتك حين تحوّلين زوجك إلى

مغفّل». إلا أنه كان يسعده سماعها تضحك، إذ قلما فعلت ذلك منذ رحيل «ثو». كانت تقدّر «ثو» كهبة. كان وشقيقه ابنا أختها المتوفاة، وهما كل من تبقى لها من أسرتها. والآن لم يعد لها سوى مينه.

في المطبخ أشعلت نجوين كيم وابور الكاز البريموس تحت إبريق الشاي. توقفت أمام الرف وأخذت تحمل، واحدة بعد الأخرى، سدادات قناني العطور مشتمّة كل واحدة منها. كان علاج ضيق التنفّس يشغلها كثيراً. في هذه الأيام، تنال نبتة إكليل الجبل حظوة خاصة عندها. أرادت أن تمزجه مع خلاصة عشبة البتشول العطرة، لا لأسباب علاجية فحسب بل من أجل الضوع فحسب، ولم تجد وسيلة لذلك؛ ممزوجان، بدا أنهما ينتجان ضوعاً ثالثاً غير محبّب على الإطلاق.

تلقت علاج الربو في المنام. لم تخبره بذلك. واستعملت شراباً من محضّر أعشاب صيني في مقاطعة تشو لون. لم يقل لها ما هو هذا الشراب إلا أنها سمعت أنهم يستخلصونه من لحم أبو بريص. هاو لم يكن يحبّذ هذه الأمور.

رأت كيم زوجها كمقامر وحالم. وقد فاجأهم جميعاً ببيع متجرين من متاجر عائلته وتأجيره الثالث لرجل سرعان ما فقد تجارته. والآن شغلت قريبتاها المساحة بين رفوفه الفارغة. وبدلاً من استثمار أمواله في شيء آخر، استعمله لكي يلبي حاجياتهم اليومية وبدلاً من ذلك استثمر كل وقته، روحه نفسها، في أولئك الأمريكيين. أكان يظن أن ذلك لم يكن جلياً؟ أيظن أن عليه أن يخبرها بذلك؟

قدرت عيش الفتاتين لانج ونو معهما، فهما تقدمانلها يد العون، ابنتا عم من قريتها لا يمكن تسميتهما خادمتين. لم تجد طريقة تخبرهما فيها أنها تتمنى في ظل الظروف الراهنة أن تتصرفا كخادمتين. لكن هذا لم يكن جيداً إلا إذا فهمتا ذلك، إلا إذا أمهما التي لا تنفع لشيء، عمتها، أخبرتهما بذلك...

أبعدت فكرها عن الأفكار غير الكريمة.

كانت تؤمن أنه حين يتخلص الدم من مرض معين فإنه يخرج معه بعض الاعتكارات الروحية، والمتماثل للشفاء يختبر نوعاً محرّراً من النقاء.

في حالة كهذه، كانت تؤمن، الفكر الصافي ممكن. وحتى الإلهام، ربما.

لم يناقش هاو الأمور المالية معها إلا ليقول لها إنهما إذا لم يقوما بمشتريات كبيرة، فيمكنهما الاستمرار في العيش كالسابق. وكان هذا جيداً بما فيه الكفاية. مقامر، حالم، أجل؛ إلا أنه كان رجلاً يُعتمد عليه، وكانت تحترمه. كان والده، عبر نقل البضائع المحلية عبر نهر سايغون للاتجار بها مع الفرنسيين، أنشأ تجارة مزدهرة. هاو – الملعون بزواج بلا أطفال، سليل نسل متلاش، يرى اندثاره البطيء. فلن تطلب منه البقاء هنا. إذا أراد أن يهرب، فسوف يهربان. ولماذا البكاء على المستقبل؟ ربما قبل وقت طويل من اضطراراهما إلى تمزيق جذورهما سيكونان ميتين.

حملت الأصص وفنجانين إلى الخارج حيث جلس مسنداً يديه على ذراعي الكرسي، مغمضاً عينيه، متأملاً في الهواء المنبعث من مروحتهما الكهربائية.

جلست وسكبت لهما، وقالت: «أحتاج أن تقسم لي».

«قولي».

«أريدك أن تعدني أنه مهما حدث سوف تعتني بمينه».

«أعدك بذلك».

«بهذه السرعة!».

«لا. افهميني يا زوجتي: حين قلت إن مينه له فرصه الخاصة، عنيت أنه بدأ يشق طريقه أساساً. لم يعد يقود الطائرات كما تعلمين. إنه يقود طائرات النقل المروحية الأمريكية – فقط بهدف النقل، وفقط لصالح الكولونيل. إنه آمن سلفاً. والسيد الكولونيل وأنا سوف نبقيه آمناً. اسمعيني مجدداً يا زوجتي، أعدك».

«ووعد آخر».

«كم عدد الوعود؟».

«هذا فحسب: إذا غادرنا، فهل سنعود يوماً؟».

«هذا ممكن».

«عدني».

«أتعهد لك بذلك، سوف نعود إلى ديارنا».

«حتى لو عدت رفاتاً».

فاجأه سماع كيم تتكلم صراحة عما يقلقها. تقل يوماً شيئاً من هذا القبيل، وهي دائمة الحذر لكي تخفي أفضل آمالها عن أعين القوى، ذلك الحشد الغامض من آلهتها التي لا تحصى.

ألهبت المحادثة حماسته. فهي لم تكن تفكر في الخطوة فحسب، بل تفاوض حولها، تساوم، وكأنها إزاء أمر محتوم. صعدا إلى الأعلى، ورغم الحر، الذي دائماً يبقى مدة أطول قليلاً في أعلى البيت، عانقها حتى أغفت. الحرب والحرب والحرب مثل سلسلة من الأعاصير التي تهب على حياتهما، والآن، في الجانب الآخر من كل شيء، قمة أمان بعيدة، مكان يسافران إليه. وجاءت أنفاس كيم هادئة، مثلما زعمت تماماً، لا مزيد من الصفير، على الأقل ليس الليلة.

انتقل إلى سريره الخاص، واضعاً ملابسه وصندله على الأرض خارج الشبكة تماماً – صندله البلاستيكي، الذي كتب على مشطه «صنع في اليابان» بالإنجليزية. الجدران العالية التي تفصل بين الثقافات كانت تتلاشى. تتداعى كالطين. هو وكيم يمكنهما الذهاب إلى أي مكان. ماليزيا. سنغافورة. هونغ كونغ. وحتى اليابان ممكنة. ضحك حين فكر أنه يستطيع الخروج إلى الشارع والقول لأحدهم: «اليابان ممكنة».

أيقظته كيم ليلاً. نظر إلى عقربي الساعة المشعين. الرابعة إلا ربعاً. «ما الأمر؟».

قالت: «كانت الكلاب تنبح في نهاية الزقاق».

«نامي. سوف أصغي لبعض الوقت».

حتى نامت مجدداً اضطجع بصمت، مشاهداً الجذوة الصغيرة للبخور القاتل للحشرات وهي تحترق على المنضدة في الطرف المقابل من الغرفة.

من الزقاق سمع ترانج - بالطبع كان ترانج، من يمكن أن يكون سواه؟ — مقلداً صوت أبو بريص.

لم يصل ترانج يوماً متأخراً إلى هذا الحدّ. إلا أن رجلاً حريصاً كان ليغير في مواعيده.

مد هاو يده إلى الأسفل ورفع الشبكة وأخرج رجله. أخذ بنطاله، وقميصه وصندله الياباني إلى أعلى الدرج ولبس هناك ووقف في العتمة غير سامع أيّ شيء، متذوقاً نفسه الخاص. توجه إلى الأسفل بأهدأ ما يمكنه. ابنتا العم تضطجعان تحت قدميه مباشرة، في المتجر الذي يشكل الدرج سقفه المائل. لم تكن من طريقة للنزول بهدوء، فكل خطوة لديها ما تقوله. في الأسفل انتظر حتى تأكد من أنه لم يوقظ الفتاتين.

اتجه إلى المطبخ، إلى النافذة وراء الموقد الذي يعمل على الغاز، وفتح المشبك، ليسمع على الفور سعالاً منخفضاً في الخارج.

«ترانج؟».

«صباح الخير».

«صباح الخير».

«آسف لإزعاجك».

«لا أستطيع أن أقدم لك أي شيء ساخن. أترغب في كوب من الماء؟».

«شكراً على لطفك، لكنني لست ظمئاً».

«سوف آتي إلى الخارج».

خرج من باب المطبخ إلى الفناء الصغير، حيث وقف ترانج عند الجدار في

العتمة».

«سجائري فوق»، قال هاو.

«لا أظن أننا ينبغي أن ندخن. قد يرانا أحدهم».

أقعى الرجلان جنباً إلى جنب إلى الجدار تحت نافذة المطبخ.

قال هاو: «لقد جازفت بالمجيء إلى المدينة».

«إنها مجازفة أن أكون في أي مكان الآن. قبل سنتين فحسب كان بإمكاني السفر في نطاق منطقة واسعة. الآن نحن لاجئون في أي مكان في الجنوب».

«ومجيؤك إلى البيت، إنه مخاطرة لنا الاثنان».

«أرى أنها مجازفة أكبر لي».

«إنني أحميك يا ترانج تان. أعطيك كلمتي».

«أصدقك، لكن من الأفضل افتراض الأسوأ».

«ترانج، أفهم تماماً أنك بحاجة إلى أن تشعر بأنك محميّ في كل خطوة نقوم بها».

«لا تستعجل الأمور بسرعة أكبر من اللازم. لا أتفق معك بعد بأننا نقوم بخطوات».

«كل لقاء قمنا به قادنا قليلاً قدماً، ألا توافقني على ذلك؟».

«يقودنا قدماً باتجاه تفاهم ربما. لكننا لم نقم فعلياً بأيّ خطوات».

«أأنت مستعد لتغيير ذلك».

«لا».

اعتبر هاو هذه مناورة، لا رفضاً فعلياً.

«قبل أن نمضي أكثر يجب أن أتأكد من أنني مفهوم»، قال ترانج.

«قل لي أرجوك، كلي آذان صاغية».

«تطلب الأمر ثلاثة أيام للذهاب شمالاً على متن سفينة روسية. كان هذا في العام 1954، قالوا إننا سنعود إلى بلد موحّد بعد عامين».

قال هاو: «تابع».

«بعد ست سنوات تطلب الأمر مني أحد عشر أسبوعاً لكي أعود في على درب هو، وعلى الطريق كدت أموت مئة مرة».

قال هاو: «إنني مصغ».

«وفي 1964 أدركت أنني أنتظر منذ عشر سنوات لكي أعود إلى الديار، ومع ذلك في ذلك الحين كنت قد عدت إلى الجنوب لأربع سنوات أخرى».

«في كل هذه الأرقام أسمع كتلاً من الامتعاض. أنت غير راض»، قال هاو.

«لقد كنت أعيش تناقضاً. ولن يزول هذا».

«أفهم».

«لقد كنت جباناً. وعليّ أن أحلّ هذا لنفسي».

«أنا هنا لكي أساعدك بكل طريقة أستطيعها».

«أعرف ذلك، لكن ماذا تريد من هذا؟».

«أريد أن أكون عوناً لصديق قديم».

«نحتاج إلى التكلم بصدق. تقول إنك تريدني أن أشعر أنني بأمان، ثم تكذب. قل الحقيقة: ما الذي تبتغيه من هذا الوضع؟».

«نجاة عائلتي».

«جيد».

سأله هاو: «وما الذي تريده أنت؟».

«نجاة الحقيقة».

ماذا الآن؟ فلسفة؟ قال هاو: «كيف يمكن أن تكون الحقيقة مهدّدة؟ إنها الحقيقة».

«أريدها أن تبقى حية في داخلي».

فكر هاو، إنني رجل أعمال: لنتكلم في الربح والخسارة. إلا أنه قال فحسب: «أحاول أن أفهم».

«لا أعتقد أن الكلمات يمكنها فعل المزيد في شرح ما أفعله. أريدك فحسب أن تفهم أن لا شيء يجبرني. لست في أي مشكلة. لا أحتاج إلى المال. أريد فحسب أن أقترب أكثر من الحقيقة».

هاو لم يصدقه. كان يخون رفاقه، ما الذي يمكن أن يكون الدافع لذلك؟ ليس الفلسفة.

مقعياً بجانب هاو، أسند ترانج رأسه على الجدار وتنهد. بدا يستعد للمغادرة. إلا أنه قال: «حسناً، فلندخن سيجارة معاً».

زحف هاو إلى الأعلى ووجد علبة سجائره وولاعة الزيبو الأمريكية. على رأس السلم أشعل اثنتين وأنزلهما إلى الأسفل متسائلاً إذا كان الراهب ما زال ينتظر. وجده هناك. جيد جداً. الليلة سيقومان بخطوات مهمة.

قال هاو: «يريد أن يلتقيك».

«يريد الكثير».

«إنه مستعد لحمايتك».

«ما دام لا يمكنه التعرف عليّ فلن أحتاج إلى حمايته».

«يريد أن يحميك من جماعته هو. من جانبه، لا من جانبنا».

«سأكون أنا من يقلق بالنسبة إلى الطرفين».

دخنا، كل منهما مكوراً يديه حول جذورة السيجارة، هاو مفكراً، لا أستطيع حتى إشعال سيجارة لصديقي، لا يستطيع ان ينجو من ضوء في وجهه. مضت سنوات منذ آخر مرة رأيت فيها عينيه.

«ترانج، لكي تصل إلى حيث تريد الوصول تحتاج إلى من يحميك، وعلى هذا الشخص أن يثق بك».

«لم يحن الأوان بعد»، نزع صديقه الجذوة منا لسيجارة ووضع العقب في جيب قميصه.

قال هاو: «قبل ثلاث سنوات، قبل فترة وجيزة من اتصالك بي ثانية، أحرق

ابن أخت زوجتي نفسه حياً وراء معبد النجمة الجديدة».

«أعرف».

«أهذا ما ستفعله أيضاً؟ تدمّر نفسك؟».

أي رجل بطيء متفكر صار الراهب. لطالما كان عنيداً في نزاهته، إلا أن هذه السمة كانت أعمق. كانت لحظات صمته عمليات استقصاء. كانت ملهمة. «ثمة كذبة قيلت. أنا قلتها. سوف أدع الحقيقة تردني إلى جادة الصواب. إذا لم أستطع النجاة في هذه العملية فليكن إذن».

«علينا أن نعبر عن دافع أكثر ملموسية».

«لا. الحقيقة. سوف يفترضون أنني أكذب على أية حال».

«يتطلب كسب الثقة وقتاً. سوف يحتاجون إلى شيء ما. أيمكنك إعطائي شيئاً؟».

«هذه المرة سوف أخبرك شيئاً يعرفونه على الأرجح. المرة القادمة المزيد قليلاً».

«آه. سوف نعبر إلا أننا لن نقفز».

«يقول الآتون من الشمال إن هجوماً كبيراً سيحصل. ليس قريباً. على الأرجح قرابة التيت القادم».

«لم أسمع شيئاً عن هذا».

«لقد سمع به كولونيلك. لابدّ من أنه سمع شائعات. إلا أنني أخبرك أن هذا الهجوم ليس شائعة. الجميع يمكنه الإحساس به. إنه قادم».

«سيحتاج إلى أن يستجوبك. بضعة أيام من التحقيقات. هذا نموذجي».

«لا تتوقع مني أن أكون غبياً».

«عذراً».

«أنا من يسيطر على العملية. عليّ ذلك».

«كما تشاء».

أحتاج إلى وقت قبل أن أقدم له معلومات محددة، معلومات يمكنه التأكد منها».

«حسناً».

«أحتاج إلى وقت. لست مستعداً للعبور».

صاحت ديوك الحيّ للمرة الثالثة. انتظر ترانج حتى أوهى خيوط الفجر لكي يشق طريقه خارجاً من حيّ هاو - أشجار الفاكهة، الأفنية المتسخة، المساكن الخشبية، أضواء الفلورسنت المتوهجة في مطابخ المستيقظين مبكراً، مصرف مياه صحية يمتدّ متعرجاً عبر الأفنية. حسد صديقه على هذا السلام البسيط.

حين وصل إلى الطريق العام توقف لكي يشعل عقب سيجارته ويشاهد صبيي خباز على دراجتيهما الهوائيتين، يعبران في الصمت حاملين خبز الصباح.

تذكر مشيه ذراعاً بذراع مع هاو في مثل هذه الساعة تماماً في عالم آخر تماماً: صاخبان ومترنحان، أكثر ثمالة جراء شربهما براندي الأرز المسروق من أن يهتما كيف سيعاقبهما المعلم. تذكر بالضبط حجم قمر تلك الليلة ولونه والصداقة غير المحدودة مع العالم الفتي، وصوتيهما وهما يغنيان أغنية قديمة: «أمس تبعتك على الطريق... اليوم قطفت وردة لقبرك...».

عند وقت الغداء في الثاني من يناير، يومه الكامل الأول في فييتنام، انتظر سكيب ساندز عمه في النادي البحري بجوار نهر سايغون. الزوارق والقوارب والأكواخ تحتشد على ضفتي النهر، إلا أن الحركة قليلة المياه المعتكرة. ألقى نظرة على لائحة الطعام، كان فاقد الشهية، وأخذ يلعب بأدوات المائدة ويصغي إلى مزيج مرتفع من تغريد الطيور، بعضها موسيقي بصورة عاطفية، بعضها الآخر غاضب. انحدر

العرق على ظهره. وقع نظره على زبون جالس إلى الطاولة المجاورة، آسيوي شعره طويل بصورة غير مفهومة ينحدر على كتفيه. مقابل هذا الرجل جلست امرأة واضعة قرداً في حضنها. كانت متجهمة، القرد لا يمنحها أي بهجة. ولائحة الطاعم تشعرها بالتعاسة.

صوت انفجار مرتفع جداً – أهو قذيفة؟ صاروخ؟ قنبلة صوتية؟ – تسبب بالكثير من الذعر. اندفع القرد حتى نهاية الحبل الذي ربط به وأخذ يتنقل من جانب إلى آخر تحت الطاولة. وقف العديد من الزبائن. حل الصمت على الطاولات، واجتمع الندل على الدرابزين لكي ينظروا من النهر باتجاه البلدة. ضحك أحدهم، تكلم الآخرون، أدوات المائدة قرقعت ثانية على الخزف الصيني، جرى استئناف اللحظة.

كان الكولونيل ساندز يدخل تواً سطيحة المطعم وقال: «تماسك يا فتاي».

جاء الكولونيل بالمروحية من «جبل الحظ السعيد»، هكذا فهم ساندز. طين أحمر يلطخ جزمته العسكرية وساقي سرواله، إلا أنه ارتدى ملابس مدنية عادية وبدا عادياً بصورة مقلقة، وكأن كل ما يعنيه هو المشاهد المحلية والجولف. كان يحمل كوباً كهرماني اللون بيده.

أخذ ساندز مقعداً قبالته.

«أكل شيء على ما يرام؟ هل استقررت في المأوى».

«أجل».

«متى وصلت؟».

«ليلة أمس».

«أرأيت أحداً من السفارة؟».

«ليس بعد».

«ماذا سنأكل اليوم؟».

«كولونيل، دعني أبدأ بسؤالك شيئاً عن سان ماركوس».

«قبل أن نأكل؟».

«أحتاج إلى استيضاح أمر».

«أكيد».

«أن الرائد تابعاً لك».

«الرائد؟».

«أجوينالدو؟ الرائد؟ المرة الأخيرة التي رأينا فيها بعضنا».

«حسن. منزل ديل مونتي. سان كارلوس».

«سان كارلوس».

«صحيح».

«أجوينالدو؟ الفلبيني؟».

«نعم، الفلبيني. لا. لم أكن أدير أيّ فلبيني».

«ماذا عن الألماني؟ أكان تابعاً لك؟».

«القسم السياسي في مانيلا هوا لذي يدير الجميع. أنا لست القسم السياسي. أنا مجرد كلب مريض لا يستطيعون دفع أنفسهم إلى قتله».

«حسناً. ربما لن أضغط في هذا».

«لا، لا. لقد بدأت، لذا لا تتوقف، ما المشكلة؟».

«ربما قلت كلاماً غير مناسب».

«هيا انقض عليّ. إننا نعمل معاً. لننته من الأمر».

«حسن، ماذا عن كاريجنان؟».

«من؟».

«كاريجنان سيدي. الكاهن في ميندناو».

الآن، شعر أن عمه يقدّر مدى جدّيته. قال: «أوه أجل، الأب كاريجنان. المتعاون. أحدهم أراحه من بؤسه».

«من هذا الأحدهم؟».

«إذا لم تخنّي الذاكرة، هذه العملية انطلقت من مركز قيادة الجيش الفلبيني. هكذا فهمنا الأمر من التقرير».

«أنا كتبت التقرير. ركبت حماراً كل الطريق إلى مركز إذاعة صوت أمريكا الفرعي قرب كارمن وأرسلت تقريراً مشفراً إلى مانيلا لكي يرسل إليك، كما كانت تفيد تعليماتي. ولم أذكر سوى الجيش المحلي – بالكاد ذكرتهم».

«أظن أنها كانت عملية للجيش الفلبيني. وأظن أكثر من ذلك أنها كانت بإدارة صديقنا إدي أجوينالدو. ولدينا كل الأسباب لنعتقد أن كاريجنان هذا كان متورطاً بتهريب الأسلحة إلى وبين الميليشيات المسلمة في ميناناو».

«لقد قتل الكاهن بسهم. يسمونها بندقية نفخ».

«إنه سلاح محلي».

«لم أر واحدة إلا بين يدي الألماني في منزل ديل مونتي».

«فهمت».

«لم تكن تدير الألماني؟».

«قلت لا».

«هذا جيد بما فيه الكفاية بالنسبة إلي».

«لا يهمني إذا كان كذلك أم لا».

«اللعنة عليك سيدي».

«فهمت». بينما يفكر الكولونيل بالرد، مجرياً إصبعاً مرتعشاً على حافة كأسه، ذبل سكيب. لقد حصن روحه ضد هذا الهجوم. إلا أنه لم يتوقع أن يرد فوراً. قال الكولونيل: «حسناً، إنني أكرر نفسي، لكن ما المشكلة؟».

تمكن ساندز أن يقول: «إنني قلق فحسب».

حالياً لم يقل الكولونيل المزيد. نار سكيب خمدت. لَمَ لم يعرف أنه قد يجرح شعور هذا العملاق؟ ما اشد جهلي بأولئك الرجال المسنين: لَمَ لم يكن لي أب؟

قال الكولونيل: «اسمع. هذه الأمور نادراً ما تحدث، إلا أنها تحدث. أكثر

من مصدر واحد يأتي على ذكر اسم أحدهم، أحدهم تتكون لديه فكرة، أحدهم يصدر تقريراً، أحدهم يريد مغامرة – تعرف كيف يحصل هذا، أليس كذلك؟ – وسرعان ما نصل إلى هذا. كونك شهدت هذا النوع من التدبير سوف يتضح أنه تجربة لا تقدر بثمن يا سكيب».

«أرى أنني كنت أكثر من مجرد شاهد».

«ما أريد قوله أنك ترى قوة الوحش الذي نمتطيه. كن حذراً في كيفية همزك له». بدا وجهه الشبيه بوجه كلب البلدوغ، مكسواً بنوع خاص من الحزن. رشف من شرابه. «هل ملفاتي آمنة؟».

«أجل إنها كذلك».

«ما رأيك بمونتيري».

«رائعة بصورة لا تصدق».

«اطلب لي هوت دوغ بالفييتنامية».

كان نادل يسكب ماء. تكلم إليه ساندز «يقول إن الطعام هنا على طريقة البوفيه، رجاء كن ضيفه».

«رائع. إلا أنني فهمت كلمة بوفيه. وهل التقيت هاو نجوين».

«هاو؟ أوه أجل».

«لقد أخذك من تان سون نوت. أتكلمت معه بالفييتنامية؟».

«نعم سيدي، فعلت».

«أأنت جائع؟».

«قد أطلب شيئاً من خارج قائمة الطعام».

«سكيب».

«نعم سيدي».

«هل سنشعر بالاستياء جراء مصارحتنا واحدنا الآخر؟ لأنني لا أريد ذلك. لا يمكننا السماح بذلك».

«حسناً، أقدر ذلك».

«جيد». حمل الكولونيل نفسه إلى البوفيه.

حين عاود الانضمام إلى ابن أخيه حمل زبدية من السلاطعين في صلصة بيضاء؛ جلس وتناول بالشوكة بضع لقيمات، بالكاد قاضماً إياها. تناول جرعة من شرابه. «ماذا بشأن ريكي فوس – فوس؟ أكان في البيت ليلة أمس؟».

«ريك فوس؟ لا».

«سوف تلتقيه عما قريب. قريباً جداً».

«التقيته في كلارك قبل أن أغادر. جاء يبحث عني».

«حقاً؟»،

«بصورة أساسية لكي يسأل عنك».

«وما كان موضوع الاستقصاء؟».

«أراد التكلم عن مقالة قدمتها إلى الجورنال».

«لا أبالي ببعض أولئك الفتية الذين يطلعون هذه الأيام، باستثناء الصحبة الحالية».

«آمل ذلك».

ظن أنه سمع عمه يتنهد: «أقول لك يا سكيب، لقد انقلب العالم وحملني إلى الظلمة. تلقيت رسالة من ابنة عمك آن الأسبوع الفائت فحسب» – آن ابنة الكولونيل – «وقد تبنت النشيد اليساري في الجامعة، أتصدق ذلك؟ تكتب: أظن أنك يجب أن تدقق في دوافع حكومتك في فيتنام»، إنها تواعد أحد البتنيك[1]، خلاسي ما. خشيت أمها أن تخبرني بذلك. اضطررت إلى السماع عن ذلك من عمك راي. دوافع حكومتنا؟ يا إلهي. أي دافع أفضل لحكومتنا من أن تهزم الشيوعية عند كل مفترق طرق؟».

(1) Beatnik: أحياناً يسمون الهبيز أيضاً، الحركة السلمية المناهضة لتقاليد المجتمع ومؤسساته، والتي ناهضت بشدة حرب فيتنام.

تذكر سكيب آن ساندز وهي تقعي مفرشخة القدمين على الرصيف في ثياب صيفية خفيفة ذات مربعات ملونة، وهي تنطنط طابة حمراء صغيرة وتلتقط حجارة «الجاكس»[1] عن الرصيف؛ كان يستذكر صورة آن بلا جهد وهي تقفز بالحبل، وخصلات شعرها تنطنط، مستغرقة كلياً في الغناء والرقص. شعر بالغضب جراء رسالتها، إلا أن فقدانها للحس الوطني كان ثانوياً - فقد تمثل انتهاكها في تجاوزها كليشيهات الأنوثة... بتنيك خلاسي؟

قال الكولونيل: «الآن، لنتبهج ونلتق أحدهم».

أشار إلى هذا الأحدهم مع اقترابه، شاب نحيل في سروال الجيش، إلا أنه يرتدي كنزة رياضية ملونة، مفتوحة تظهر منها فانيلته زيتونية اللون.

قال سكيب: «الرقيب ستورم».

«أتعرفه؟».

«استقبلني في المطار ليلة أمس».

«نعم، نعم، نعم»، قال الكولونيل، «اجلس جيمي. أيريد أحدكما شراباً؟».

قال سكيب لا وقال جيمي: «جعة أمريكية». كان سكيب يرى جيمي للمرة الأولى على ضوء النهار. وجه مسمر من الشمس وعينان صغيرتان مشعتان جديتان، بلون عيني سكيب نفسه - المصنفتان على هويته بوصفهما «بندقيتي اللون». كانت لديه أوشام مثيرة وسنأن. خطط على فنيلته: ستورم بي أس.

أشار الكولونيل للنادل وطلب جعة وشراب «هاي بال»[2] وقال: «حسناً الآن، هذه إشارة على الاحترام، جيمي يزرر قميصه من أجلنا. أظن أنك ترتكب مخالفة عسكرية بهذا القميص».

«إنني مهووس فيما يخص الأزياء».

(1) Jacks: لعبة للأطفال تتكون من طابة مطاطية صغيرة وبضعة حجارة علي اللاعب أن يرمي طابته وقبل أن يعاود إمساكها بيده أن يكون قد أمسك بأحد حجارة الجاكس.

(2) High-ball: شراب كحولي يتكون من الرم والويسكي والفودكا التي تخلط بالصودا أو المياه، ويشرب مع مكعبات الثلج في كأس طويلة.

«وأنت تظهر في العموم مع سروالك العسكري من دون السترة».

«لست في الزي العسكري».

«أظن أن هذه هي الإساءة».

قال ستورم: «هل أكلت يا سكيبر؟».

«ليس بعد»، قال سكيب.

«أخبرني سكيب أنك استقبلته ليلة أمس. أشكرك على هذا».

«لا مشكلة».

«ويقول إنه التقى فوس. التقاه في كلارك قبل أن يصل حتى إلى هنا».

«لا تخرب عليّ الجعة بكلامك الغريب هذا»، قال جيمي.

«سأله فوس عن مقالة كنت أعمل عليها»، وأضاف الكولونيل موجهاً كلامه لسكيب: «لقد سحبت المقالة. كانت تفتقر إلى ثيمة منظّمة، هذا على الأقل. كنت أترنح في أفكاري على الضفة مع مجداف كبير وأدور في دوائر. متسبباً بالكثير من الرذاذ. ما الذي تكلم عنه فوس هذا؟».

«لقد أجفلته ونفرته مني قبل أن يقول الكثير».

«هل وصف المقالة؟».

«لا، لم يفعل. أيمكنني إلقاء نظرة عليها؟».

«لمَ لا تساعدني على كتابتها؟».

«لا أعرف. إذا رأيت المسودة...».

«إذا أمكنني العثور على المسودة. كانت فوضى مشوشة. أخرجتها من الدرج بعد عام ولم أستطع تتبّع أفكاري الخاصة».

قال جيمي: «حسناً، هذا ما تحصل عليه لقاء إمضاء سنة في درج».

«اسمع، أنا لم أرسل هذه المسودة إلى المجلة. لقد فعل فوس هذا وحده».

«أوليس هذا تجاوزاً للصلاحيات؟».

«بالتأكيد إنه تجاوز للصلاحيات. إنه تجسس في حقيقة الأمر. ما الذي قاله

أيضاً؟ أعني في كلارك».

«حسناً، لنر»، قال سكيب: «تكلم عن اهتمامك بلعبة كرة قدم».

«نوتردام -متشيغن. مباراة غير معقولة. مفيدة جداً في التعليم. أحاول أن أحصل على فيلم مصور لها، وبناء محاضرة بناء عليها. أحب أن أمررها على الجنود. المعنويات في مسرح الأحداث هذا منخفضة. الأرض نفسها تعبق برائحة تفقد المرء صوابه. سكيب، هذا ليس مكاناً مختلفاً، بل عالم مختلف تحت رب آخر».

«هذا يتحول إلى هوس فلسفي اعتيادي»، قال جيمي.

قال سكيب: «ضروب الهوس الفلسفي هي التي تحقق النصر في الحروب».

«touché»[1]، قال جيمي.

قالساندز: «touché؟».

«ما أخبار الفرنسية»، سأل الكولونيل.

«إنني أتمرن باستمرار»، أكد له ساندز.

قال الكولونيل: «سكيب عليّ أن أوجز له، فأنا لم أفعل ذلك بعد».

قال جيمي: «أيمكنني الحصول على شيء من هذا الطعام أولاً».

«عليك به، عليّ الذهاب إلى الحمام».

استأذن الرجلان، وسرعان ما عاد جيمي مع طبق بيد ولفافة خبز كبيرة بالأخرى. بينما حاول ستورم أن يأكل استجوبه سكيب على طريقة «غرفة التعرق» في الوكالة: دع الرجل الذي تستجوبه يحصل على سيجارة، لكن اطرح عليه الأسئلة بسرعة شديدة للغاية بحيث لا يتمكن من تدخينها.

«من أين أنت جيمي؟».

«من مقاطعة كارلايل كنتاكي. لن أعود أبداً».

«اسمك بي أس ستورم؟».

(1) تعبير بالفرنسية يطلق عندما يصيب أحدهم في وجهة نظر ما، أو عندما تريد أن تحييه على وجهة النظر هذه.

«صحيح. بيلم ستافورد ستورم».

«بيلم؟».

«ب. ي. ل. م، كانت كنية جدي لأمي وليام جون ستافورد. هذا لا يحل اللغز حقاً يا رجل، سوى أنه يضيف قطعة مجنونة غير متناسبة. تبدأ مرتبكاً وينتهي بك الأمر حائراً».

«ولا ينادونك بيل».

«لا».

«ولا ستورمي».

«جيمي جيد. إذا ناديتني جيمي تحصل على جواب مني».

قال سكيب: «أأنت من مخابرات الجيش؟».

«العمليات النفسية، مثلك تماماً. نريد أن نحول تلك الأنفاق إلى منطقة من التعذيب النفسي العقلي».

«الأنفاق؟».

«أنفاق الفييتكونغ المنتشرة في كل أنحاء كو تشي[1]. إنني أفكر: مادة نفسية عديمة الرائحة. السكوبومالين. أل سي دي يا رجل. دعها تخترق نظام الجسم. سيتدفق أولئك الأوغاد من تلك الثقوب وعقولهم تدور بسرعة شديدة.بما يتجاوز الخط الأحمر».

«يا إلهي».

«العمليات النفسية تتعلق كلها بالتفكير غير الاعتيادي. نريد أفكاراً تنفجر تماماً في فتحات أنفاقهم. إننا على حافة الواقع نفسه. هناك يتحول الأمر إلى حلم».

«ريك فوس ليس من العمليات النفسية، أليس كذلك؟».

«لا».

(1) Cu Chi: منطقة في مدينة سايغون سابقاً، هوشي منه حالياً.

«إلا أنك تتعامل معه على أنه شيء اعتيادي؟».

«أبق أقربائك قريبين. أبق أعداءك أقرب».

«من قال ذلك؟».

«الكولونيل».

«حسناً، إلا أنه كان يقتبس أحدهم».

«إنه يقتبس نفسه».

«عادة ما يفعل ذلك».

«فوس وغد شرير».

«إذن من الجيد أنه إلى جانبنا».

«جانب من؟ في وضع سائل، الأفكار تختلط معاً».

«إنه يقتبس أتيلا الهوني، أو يوليوس قيصر».

«من؟ فوس؟ أوه».

«الكولونيل».

«صحيح. إذن تلك الملفات يا رجل. أهي كل المسألة؟ عملية شجرة الدخان برمتها؟».

«أوه، القليل من كل شيء».

تركه سكيب يكمل طعامه. كان ستورم يتناول السلاطين، والبطاطا المقلية الرفيعة الصغيرة، التي أكلها بأصابعه. كسر صمتاً صغيراً بالقول: «أتظن أن الشباب الذين رموا القنبلة على هيروشيما، شعروا بالسوء بعد ذلك؟».

«لا، لا يشعروا بالسوء»، قال سكيب بثقة تامة.

«ها قد عاد الرئيس».

«مع انضمام الكولونيل إليهما ثانية، قال سكيب: «أخبرني جيمي بأنه مهتم بالأنفاق».

كان الكولونيل يحمل علبة من جعة بادوايزر وكأساً فارغة. سكب بحذر في

الكأس وارتشف الرغوة وأخذ جرعة طويلة قبل أن يقول: «صحيح. الآن بالنسبة إلى القشرة[1]. الرقيب ستورم هو ضابط الارتباط من العمليات النفسية مع السي دي سي آي آيه[2]، وأنا ضابط الارتباط من السي دي سي آي آيه مع العمليات النفسية. أنا والرقيب ندير معاً برنامجاً صغيراً جداً يدعى المتاهة. مهمتنا وضع خرائط للأنفاق. أنا واثق من انك تعرف بشأن أنفاق الفييتكونغ».

«أكيد».

«اليوم هي أنفاق فييتكونغ. لكن حين نضع الخرائط لها، تتغير وضعيتها».

«خرائط. هذا يبدو أقرب إلى المخابرات. أو الاستطلاع».

«قال الكولونيل: «حسناً الآن، أعتبر المتاهة برنامجاً محدوداً، إلا أن حدود مهمتنا مرنة جداً. أقول إننا نعمل من دون الاستفادة من أي حدود واضحة على الإطلاق».

«لكن... العمليات النفسية؟».

«في حقيقة الأمر، لدينا كتيبة استطلاع ولدينا مهبط طائرات مروحية دائم، من غير المسموح لنا بأن ندعوه قاعدة».

«من يدعوه كذلك؟».

«أنا. ومجموعة لطيفة حقاً من المشاة يعتنون بها».

دبّت الحماسة في سكيب. «من الطبيعي أنني في خدمتك». ارتعشت يداه، وفجأة لم يعد يتعرق على الإطلاق.

«وليام، أظن أن لدينا شيئاً طور النمو الآن ستكون جزءاً مهماً جداً منه. جزءاً جوهرياً منه. إلا أن دورك لن يبدأ قريباً. أخشى أن ما سأطلبه منك الآن يتطلب الكثير من الانتظار».

---

(1) Skinny: أي المعلومات، عامية أمريكية كانت تستعمل خلال الحرب العالمية الثانية وحرب فيتنام، عندما كانت الأوامر العسكرية تنسخ على أوراق رقيقة جداً تشبه قشرة البصل.

(2) CDCIA: اختصار لـ Combat Developments Command Infantry Agency، أي وكالة قيادة المعارك في سلاح المشاة.

«انتظار أين؟».

«لدينا فيلا صغيرة في الأدغال».

اختنقت فرحة سكيب في قلبه «فيلا».

«هذا أمر ما كنت لأطلب من أيّ شخص آخر القيام به».

أرغم سكيب نفسه على أن يقول: «سأذهب حيثما ترسلني».

قال جيمي: «أظن أننا نحبّ هذا الشاب».

«سندعكم تستقرون جميعاً خلال شهر. في الأثناء إذا أراد أحد من مجموعتنا أياً منكم هنا في فايف كوربس، فستكونون في خدمتهم أيضاً».

«جيد جداً».

قال جيمي: «نريد أن نحول تلك الأنفاق إلى جحيم».

«درس جيمي في معهد للتعدين».

«تمزح».

«هذا كله جزء من خطة كبرى»، أكد له جيمي.

«هل تخرجت؟».

قال جيمي: «اللعنة لا، هل أبدو متخرجاً من أيّ نوع؟».

بعد القهوة، التي خلالها تناول سكيب غداءه - لفافة حلوى متكتلة وشاحبة مثل معنوياته - أوصلهما ستورم بالشيفروليه السوداء إلى فندق كونيننتال، حيث احتفظ الكولونيل بغرفة في الطابق الأرضي، في الخلف، بعيدة عن ردهة الاستقبال الصاخبة. من الواضح أنه أنها محجوزة دوماً باسمه - صناديق من التقارير وألبومات السجلات، آلة كاتبة، فونوغراف، مكتب للعمل، مكتب آخر يخدم كمشرب. وضع الكولونيل أسطوانة، وقال: «هذه أسطوانة بيتر وبول وماري[1] في أداء حيّ. اسمع». وانحنى فوق مشغل الأسطوانات وأغمض عينيه

(1) Peter, Paul amd Mary: واحدة من أشهر الفرق الغنائية الشعبية في أمريكا خلال الستينيات من القرن الماضي. وهي تتكون من بيتر يارو وبول ستوكي وماري ترافيرز.

نصف إغماضة وبأصابعه السميكة وضع يده على استعادة الثلاثي لـ «الغربان الثلاثة»، الأغنية الحزينة التي تحكي قصة فارس يسقط وحبيبته المحكومة بالهلاك. جلسا بصمت، سكيب وجيمي إلى أحد المكاتب، بينما تصدح الأغنية ويبدل الكولونيل سرواله وقميصه. مزاجه، المزاج الذي وضعه به سكيب، قد انتهى. جلس على السرير ووضع قدميه في خفين وهو يقول: «تلك المهمة في ميندناو. كان ذلك تقريراً جيداً. أتعرف ما أكثر ما أحببته فيه؟».

ثم صمت.

قال سكيب: «لا، لا أعرف». أزعجته عادة الكولونيل تلك في انتظار الأجوبة عن أسئلة مجازية.

«ما أحببته فيه أنك لم تأت على ذكري».

«أظن أن لديّ أسباباً مشروعة لكي أكون أقلّ كمالاً».

«أظن لديك فطرة للكتمان»، قال الكولونيل.

«افترضت أنك ستكون أول من يقرأ التقرير».

«الأول والأخير يا فتاي. كانت تلك النية على أية حال».

«افترضت أنك ستعلمني إذا كنت بحاجة إلى المزيد من التفاصيل».

قال جيمي مرخياً ذراعه على كرسي سكيب: «هذا الشاب يبقى صوته منخفضاً، يجيد التصرف».

نظر الكولونيل مباشرة إلى جيمي وقال: «هذا الرجل من العائلة بكل معنى الكلمة».

أكد له جيمي: «عُلم».

«حسناً إذن»، وقف الكولونيل وقال: «خمن من طار معي من كاو فوك؟ ملازمنا الطيب».

«سكروي لوي[1]»، قال جيمي.

(1) Screwy Louie: تعبير عامي لا يعني شيئاً، يستخدم أحياناً للدلالة على كلام غير مفهوم، =

«مهلاً، مهلاً. هذه قلة احترام».

«هكذا ينبغي أن تقرأ شارته. هكذا يسميه جنود المشاة سكروي لوت[1]».

«إنه على الأرجح في ردهة الفندق».

«سكروي لوي ونت بلوي[2]».

«الآن يا سكيب إننا نتعامل مع المشاة الأمريكيين. دعني أقترح أن نكسب الحلفاء كلما وجدناهم».

قال ستورم: «إنه يتكلم عن الملازم، لا عني».

«لا شيء عندي ضد الجيش. أنا ضابط سابق في سلاح الجوّ. إلا أن قوات المشاة ما عادت كسابق عهدها».

«على الأقل لم يحرق بطاقة ستة أشهر ويغادر»، قال ستورم.

«صحيح، لقد كان معنا. سكروي لوت، أهكذا يسمونه؟».

«إنه عملية نفسية في حدّ ذاته».

«الآن يا وليام الشاب»، قال الكولونيل وهو يبحث في درج النضد «لدي وثيقتك»، ناول ابن أخيه جواز سفر بني اللون.

فتحه سكيب لكي يطالعه وجهه فوق اسم وليام فرانش بينيت، قال: «كندي!».

«إيجار سكنك يدفعه المجلس الكندي المسكوني».

«لم أسمع به قط».

«إنه غير موجود. أنت هنا في منحة من هذا المجلس. مهمتك ترجمة الكتاب المقدّس أو ما شابه».

«بينيت!».

= أو لوصف أحدهم بالمغفل.

(1) Screwy Loot: لعب على التعبير السابق، والأرجح أن استبدال «لوي» بـ«لوت» هنا هو اختصار للملازم: ليوتننت Lieutenant.

(2) Svrewy Louie Went Blooey: عبارة منغمة تكرر المعنى السابق نفسه.

قال الكولونيل: «هيا يا بنيت، فلنعد بعض القهوة».

في ردهة الفندق الكبيرة المحتشدة جلسوا على مقاعد من الروطان تحت واحدة من المراوح الضخمة. حولهم المتسولون والأولاد يزحفون بين أقدام الناشطين والمنفيين - أخيراً، عاصمة في زمن الحرب، ردهة فندق متأنقة مليئة بالقصص الملحمية، مشغولة بالجواسيس والمحتالين، أناس مقطوعون من جذورهم وما عادوا يتحملون مسؤوليات هوياتهم السابقة. صفقات تتمّ بنصف دزينة من اللغات، مواعيد مشؤومة، ابتسامات زائفة، عيون تقيس الفرص، مختلون نفسياً، جوالون، أبطال. أكاذيب، ندوب، أقنعة، خطط جشعة. هذا ما أراده، لا فيلا ما في الأدغال.

سأل الكولونيل بحزن: «هل سأراك في الأدغال؟».

«أكيد. إننا نساعدكم جميعاً على الاستقرار هناك. هل ستحتاج إلى شيء محدد؟».

«الاعتيادي فحسب. أقلام، بعض الأوراق، هذا النوع من الأشياء. الاعتيادي».

«قطاعة ورق، لصاق مطاطي».

«جيد جداً. رائع».

«سوف أحضر لك آلة طابعة أيضاً. أريد أن تكون لديك آلة طابعة، والكثير من الشرائط لها».

«هل سأكتب مذكراتك».

قال الكولونيل: «الحرارة جعلتكم جميعاً لاذعين».

«هل بإمكاني أن أكون شاعراً بخيبة الأمل لنصف ساعة أو ما شابه؟».

«هيا، سيكون أسوأ لو بقيت في سايغون وعملت لجماعتنا. لديهم خمسون مركز استجواب في الجنوب، وهذا يعني جبلاً بعد الآخر من التقارير عليك اجتيازه. وكل هذا يبقى في فييتنام. سوف يضعوك في حفرة تقارن فيها بين

المراجع حتى تتبرز بطاقات الخمسة بثمانية بوصات. من الأفضل أن تكون هناك في القرية تتعرف إلى الناس - الأرض التي نخوض الحرب فيها. سوف نجعلك تنسجم في مكان لطيف، لا تقلق. وفي نهاية المطاف سوف تقوم بعمل مهم لنا».

«أصدقك سيدي».

«أيّ أسئلة حول هذه النقطة؟».

«هناك سؤال حول الملفات».

«قل».

«ما دلالة عبارة شجرة الدخان؟».

إذن وصلت إلى حرف الشين في الملفات».

«لا، لكنني سمعت العبارة اليوم».

قال ستورم: «يا إلهي، أنا ذكرتها، لكنني حسبت أننا جميعاً نتشارك جراثيمنا وأمراضنا هنا، أتعرف؟».

ذكره الكولونيل: «إنه من العائلة».

قال جيمي: «إذا ما معنى شجرة الدخان؟».

«أوه يا إلهي، لا أعرف من أين أبدأ. الأمر شعري بصورة محرجة، إنه تفخيمي».

قال سكيب: «هذا لا يشبهك».

«أن أكون شعرياً وتفخيمياً؟».

«أن تكون محرجاً».

قال جيمي: «إليك سؤال: من قال: أبق أصدقاءك قريباً، وأبق أعداءك أقرب؟».

«أهذا استجواب؟»، قال الكولونيل، «لنشرب الكوكتيلات فإذن».

كانت الكوكتيلات تقدم في سلسلة من الحانات الأشدّ صخباً ورطوبة غالباً

في شارع تاي ساك، في خمارات معتمة حيث خلال سماع أغنية واحدة على الجكبكس، تمر حقب بأكملها أمام النظر مثل الأوشحة. في كل مكان منها احتضن سكيب زجاجة جعة وحاول أن يبقى متيقظاً، مستوعباً المكان، وإن لم يكن هناك ما يستوعبه سوى أنغام الأغنيات الشعبيى وراقصات البهجة[1] صغيرات الأبدان. أحس بالدوار، لم يعرف لماذا لم يذهب إلى البيت. في مرحلة معينة، لم يلاحظ متى، انضم لهم الملازم، ذلك الذي يسمونه سكروي. بدا كذلك بكل تأكيد – وجهه المتوتر، عيناه المتسعتان عمداً، وكأن رسالته إلى العالم كانت: انظروا إليّ، لقد جعلتم مني طفلاً خائفاً – بالتأكيد لا يشجع على المحادثة. في الأثناء: «سأقول لك ما قيل لي عن فوس»، كان الكولونيل يقول «أول مرة التقيت فيها فوس جلسنا نحتسي جعة سان ميجيل في مانيلا. طلب قنينة لكنه لم يلمسها ولا مرة. جلست على قدمه كالجائزة».

قال سكيب: «معي شرب نصف قنينة» وكان حريصاً على أن يتبع كلامه هذا بجرعة من قنينته.

بدا السكروي لوت منوماً مغناطيسياً بساقي فتاة بهجة تهتزان على بعد أربعة أقدام، على الإيقاعات الكاريبية لديزموند ديكر في حين صرخ الرقيب ستورم في أذنه: «ليست مسألة كبيرة إذا ربحنا أو خسرنا هذا الشيء. إننا نعيش في ما بعد القمامة يا رجل. سيكون عصراً قصيراً حقاً. هناك أسفل الدارة الطيفية حيث جميع قادة البشرية متصلون بصورة غير واعية ببعضهم بعض وبالجماهير، يا رجل، هناك اتخذ ذلك القرار الكوني الضخم بتحويل الكوكب إلى مزبلة والانتقال إلى واحد جديد. إذا أقفلنا هذا الباب فسيفتح واحد آخر». لم يبال الملازم بكلامه.

بدا الكولونيل شبه أصم أيضاً تجاه هراء جيمي. شرب بعمق من كأس «الهاي

---

(1) Go-go dancers: راقصات يتم توظيفهن في الملاهي الليلية لتسلية الجمهور وهن غالباً يرقصن على الأغنيات وأحياناً يغنين ويرقصن في آن معاً، ويرتدين ثياباً مثيرة، في الغالب تنانير قصيرة وأحذية طويلة الكعوب. كلمة go-go مشتقة من الفرنسية القديمة la gogue بمعنى البهجة أو السعادة.

بال» الضخمة وأعلن: «الأرض هي خرافتهم. نحن نخترق الأرض، نخترق روحهم الوطنية. هذا تسلل حقيقي. قد تكون أنفاقاً، إلا أنها قطعاً في مجال العمليات النفسي».

لم يستطع سكيب أن يميز ما إذا كانوا يتكلمون بجدية أو يلهوان مع الملازم فحسب.

قال جيمي: «هاي، أريد أن أدخل في مجال الصوت. الناس يمكن أن يكونوا مصابين بالحساسية تجاه الأصوات. ألا يمكن أن تكون البنية التحتية الجينية بأكملها لمجموعة محددة من الذبذبات؟».

«عذراً» قال سكيب: «البنية التحتية؟».

قال الكولونيل: «أنا عن نفسي لدي حساسية تجاه أعيرة معينة من الرصاص، وتجاه شفرات المروحيات في سرعات معينة».

فجأة تكلم الملازم بالفعل: «أتعرف ما يسيئني فوق كل شيء؟ المستوى الإعجازي من الهراء الذي نضطر جميعاً حتى الآن إلى الانخراط فيه، وأعني فعلاً أنه لا يتوقف البتة».

«عذراً»، قال سكيب: «حتى الآن؟».

«ثمة ما يسيئك»، قال جيمي للملازم «ربما كان تصورك عن كيف سيراك مرؤوسيك - إلا أنهم لا يرونك البتة الآن، إذن فهو تصور عن شيء غير قابل للتصور يا رجل، أي تصور عن لا شيء، أي لا شيء يا رجل».

تذمر الكولونيل من مشكلات زوجية «تسمي قتالنا «خلافات منزلية». هذا شائن. أوليس هذا شائناً؟ أن تأخذ شيئاً يمضي عميقاً ويمزق قلبك وتسميه خلافاً منزلياً، ما رأيك يا ويل؟».

«لم يرَ الكولونيل يوماً بمثل هذه الثمالة.

في مرحلة معينة في التسلسل الملتوي للأحداث تحسست امرأة ذراعه عالياً فوق الكوع وقالت: «قوي! قوي! لنذهب ونتضاجع، أوكي؟».

ماذا بهذا الشأن؟ كم تتقاضى أجراً؟ إلا أنه تخيل نحولها المحزن، ذعرها المتزلف الودي، أو ذعرها المرير، اعتماداً على مدى اهتمامها بإخفاء رعبها... أخرى رقصت ببطء بجانب علبة الموسيقى، ويداها معلقتان في الهواء، وذقنها ترتطم بصدرها، غير محاولة حتى أن تبيع نفسها.

«لا، شكراً»، قال.

برز وجه الكولونيل أمامه مثل قمر منخسف. «سكيب».

«نعم».

«هل وعدتك بالشراب؟».

«نعم».

«هل حصلت على شراب؟».

«نعم».

«نخبك إذن سيدي».

«نخبك».

ومض ضوء «فلاش» كاميرا في الركن. بدا أن الكولونيل رأى المصور وذهب إليه. كانوا في مكان مكيّف شبه راق. سجل الملازم ملاحظات على مساند كأس الكوكتيل بقلم «بال بوينت» بينما جيمي يتكلم بجدية في أذنه. عاد الكولونيل يحمل الكاميرا «سيعطينا نسخاً من الصور حين يستعيد الفيلم. اجلس مستقيماً يا سكيب. أيتها الشابة، اخرجي من كادري رجاء. هذه صورة من أجل العائلة». وميض الفلاش. القمر يختفي. «سوف أرسلها إلى العائلة. عمتك غرايس كانت تطلب صورة. جميعاً فخورون بك. كلنا أحببنا والدك كثيراً»، قال، ورد سكيب بالسؤال: «كيف كان أبي؟»، وإذا بهما فجأة ينخرطان في واحدة من أهم محادثات حياته «كان والدك يتمتع بالشرف، كان شجاعاً»، قال عمه «ولو عاش طويلاً بما فيه الكفاية لكان أضاف الحكمة إلى ذلك. لو أنه عاش أظن أنه كان عاد إلى الغرب الأوسط، لأنه هذا المكان الذي تحبه والدتك. أظنه كان ليصبح رجل

أعمال، رجلاً ناجحاً، إنساناً بارزاً في بيئته. أظن أنه كان بالتأكيد سيبقى خارج الحكومة»، نعم، نعم، تمنى سكيب لو يمكنه القول، لكن هل أحبني، هل أحبني؟

بينما تبث علبة الموسيقى توزيعاً بالترومبيتات لإحدى أغنيات هيرب ألبيرت، تجاهل الكولونيل موسيقاها وبدأ يصدح بجهير سكير زاده السيجار خشونة:

دفنته قبل ريعان شبابه
داون أ داون، هاي داون أ داون
كانت ميتة هي نفسها قبل حلول المساء
ويز داون

أرسل الرب كل رجل محترم
صقور رائعة، كلاب صيد رائعة، ويا له من شاب رائع
مع داون، ديري ديري ديري داون[1].

خرج سكيب من الحانة رقم 11 ربما خلال هذه السهرة وأنهى يومه الأول في فييتنام وهو يمشي خارجاً من شارع تاي ساك مع فكرة عامة فحسب عن مكان عيشه، بين حشد مزدحم، عبر دخان الديزل الرملي، ورائحة البارات ودواخلها الضاجّة - بأي أغنيات؟ لم يستطع أن يميز. سمع أغنية ضاربة جديدة أمريكية «حين يحب رجل امرأة» - ثم التفّت الموسيقى حول نفسها بينما تجاوز المدخل المجهول وباتت يمكن أن تكون أيّ أغنية. ساوم سائق دراجة هوائية قطع به النهر وأنزله في شارع تشي لانج. هنا بين الأزقة الأكثر هدوءاً اشتم عبق البراعم

(1) أغنية فرقة بيتر وبول وماري «الغربان الثلاثة»، وهي إعادة لأغنية أطفال إنجليزية معروفة تعود أول نسخة مكتوبة منها إلى عام 1611.

والعفن، الفحم المنطفئ، الطعام المقلي، وسمع الهدير البعيد للطائرات الحربية وقرع المروحيات، وحتى القنابل التي يبلغ وزن الواحدة منها ألف باوند وهي تنفجر على بعد ثلاثين كيلومتراً، لم يسمعها كصوت بل كحقيقة معوية – كان هناك، أحسّ به، يجلجل في روحه. كيف هي الحال إذن تحت تلك القنابل – أو فوقها، إطلاقها؟ إلى الغرب، كشّافات ضوئية حمراء توشّح السماء. كان هذا ما يريده. جاء من أجل هذا. لكي يكون في المعمعمة، في نظام جديد تماماً – نوع من «الخدم المختلفين»- حيث النظريات تستحيل رماداً، وتصبح الأسئلة الأخلاقية حقائق ملموسة.

في تون سون نوت عصر اليوم السابق شهد حراكاً جوياً غير معقول، تشكيلات من الطائرات المقاتلة والقاذفات تحط وتقلع، وطائرات شحن بحجم الجبال تفرغ حمولات عسكرية ثقيلة بحجم البيوت. كيف أخفقوا في النصر في هذه الحرب؟

وجد باب الفيلا. لم يكن مقفلاً.

في الداخل وراء المشرب، وقف ريك فوس، الذي بادره قائلاً: «مرحبا بك في عرضنا الصغير المجنون».

«ومساء الخير».

«لقد وجدتنا».

«هل تقيم هنا أيضاً؟».

«دائماً، كلما كنت في منطقة الغسق[1]. مارتيني؟ لدي المكونات».

«أمضيت نصف الليل وأنا أشرب من دون أن أثمل».

---

(1) Twilight Zone: اسم مسلسل تلفزيوني شهير بدأ في أمريكا عام 1959، ويتناول الظواهر الخارقة. أما تعبير «منطقة الغسق» فهو سابق على المسلسل حيث استعمله محللو المخابرات الأمريكية في بداية الحرب الباردة للدلالة على «المناطق الرمادية»، أي تلك التي ليس من سياسة أمريكية واضحة فيها للتدخل أو عدم التدخل فيها للحيلولة دون انضمامها إلى المعسكر الشيوعي. بالمعنى الأعرض فإن التعبير يعني اختراق البعد الخامس، إلى واقع سريالي، وهذا بالتحديد المقصود هنا.

«أهلاً بك في النصف الثاني».

«أنا مستعد للإيواء إلى النوم».

«أكنت تحتفل مع الكولونيل؟».

«قليلاً جداً فحسب».

«هل علقك؟ هل كلفك بمهمة؟».

«ليس بعد».

«لدي شيء لك. مجرد عمل لملء الوقت».

«الحمد لله»، قال سكيب.

قال فوس: «مجرد عمل يبقيك على مقربة»، وأعدّ له لمفاجأته كأس مارتيني بارداً.

تحت الحرّ القاتل، متقين أشعة الشمس المتوهجة بأيديهم الحرّة، مكابدين في حمل حقائبهم على الممر الخشبي إلى المدرج، شق المجند جايمس هيوستن ورجلان آخران من «فرقة الاستطلاع»، طريقهم إلى نقطة تجمّع في حظيرة كبيرة مفتوحة حيث جلسوا على حقائبهم واحتسوا الكوكا كولا حتى دخل معاونان يبدو أنهما يدركان من هم.

أي منهما لم يحيي الجنود الثلاثة. واصلا حديثهما وهما يقودان الواصلين الجدد إلى عربة أم 35 كبيرة كفاية لكي تحمل كتيبة، أحدهما يقول للآخر، «من طلبته خصوصاً كان كارسون، ولكن من وضعوا معي؟ أنت. وهذا يعني الآن أنني أقول نعم، تباً لك، ابق خارج حانة لونغ تايم، هذه حانتي».

«أتعني أنك الوحيد اللعين الذي يدخل إلى لونغ تايم. أنت زبونهم الوحيد على الكوكب».

«بلا ضغينة».

«بل بضغينة، بكثير من الضغينة اللعينة».

«حسناً إذن، فليكن. لكن ابقَ خارج حانتي اللعينة. هل هذه أوامركم؟»، تابع الآن مخاطباً الثلاثة الجدد.

كان جايمس يحمل الأوراق الخاصة بثلاثتهم في قبضة متعرقة مشدودة.

«تدركون أن مرتباتكم ستكون معلقة أليس كذلك؟».

«لماذا؟ ما مشكلة أوراقنا؟».

«لا شيء. إنها كناية عن فوضى كاملة».

قال الآخر: «كل هذا الهراء يلف العالم، ثم يدخل في حلقك، ويطلع من مؤخرتك».

ركب المضيفان في الأمام، والثلاثة الجدد في الخلف، في شبه مغارة مغطاة بالقماش، بعيدين قدر مستطاعهم عن الطرف المفتوح. مضت الشاحنة متأرجحة قدماً، بينما المطار خلفهم، وركام الأقفاص الخشبية، والحظائر، والمركبات، والطائرات، ثم المدينة بأبنيتها المبهرجة، وشاوارعها المحتشدة بأناس لا يعرفون كم يبدون غريبين، كلها توارت ووجدوا أنفسهم في محيط نباتي عام. كان جايمس قد تمرن على البيئة الدغلية في ساوث كارولينا ولويزيانا، إلا أن ذلك فقط خلال الخريف والشتاء. شعر بقدميه تغليان في الجزمة العسكرية. خلع خوذته. كان اليوم غائماً، إلا أن وهجه خلفهم عبر المشمع المفتوح جعل من المستحيل عليه أن يبقي عينيه مفتوحتين. أومأ إلى الأمام في قيلولة سمراء ونام حتى قفزت الشاحنة وسمع هدير الانفجارات حوله. كان فيشر وإيفانز قد انبطحا على أرضية العربة بين حقائبهما، وانبطح جايمس فوقهما. كانت الشاحنة قد توقفت. صفقت أبوابها بعنف. الرجلان الجالسان في المقدمة وقفا على مصدّ الشاحنة ينظران إلى الجنود الثلاثة المتكومين «قلت لك إنهم مخنثون»، قال أحدهما. الثاني أمسك سيجارته بصورة ملتوية وأشعل بها ما اتضح أنه خيط إشعال مفرقعة نارية، رماها بجانبهم. صوت انفجار آخر يصم الآذان. كان الجنود الثلاثة مرعوبين من قسوة

المزحة. كاد جايمس يبكي من شدة الخوف، وقال إيفانز: «لو كنا نحمل البنادق لأطلقنا الرصاص على رأس هذا الشاب وتركناه جقة هامدة، ألا يعرف ذلك؟». أما فيشر فصاح: «يا إلهي». وراح يركل بشراسة جدار المقصورة الخلفية. توقفت الشاحنة ثانية «الآن أرأيت ماذا فعلت»، صاح هيوستن «هذان الوغدان سيقتلاننا الآن!». فقط أحدهما - فلات - قفز إلى المؤخرة وصاح: «أيها الجنود. أيها الجنود الملاعين. تلقفوا». واحدة بعد الأخرى قذف ثلاث علب من جعة بادوايزر «كانت تلك مزحة غبية»، قال معترفاً.

قال فيشر: «أنت محق.. اللعنة».

«حسناً، على أية حال، هذه جعة بادوايزر حقيقية مع فتاحات يدوية. اشربوها، ولا ضغينة».

استمر فيشر بدور الناطق باسم المجموعة «بل ضغينة! يا إلهي! ما أنتما، جاسوسان لعينان للفييتكونغ». فتح علبته فطرطشت الرغوة في كل مكان وصاح: «اللعنة!».

«إننا نقوم بجولة جانبية بهدف الراحة والاسترخاء[1]، هل ضاجعتم آسيويات يوماً؟».

عاود الثلاثة الجلوس على مقاعدهم. لم يجب أحد.

«أكرر: هل ضاجعتم يوماً آسيويات؟».

ظلوا يتأملون السؤال السؤال.

«أظن أنني حصلت على انتباهكم الآن»، قال فلات، ونزل عن المصدّ وتابعوا رحلتهم.

«يا ربي!»[2]، قال فيشر.

(1) R and R detour : اختصار لـ Relaxation and Rest والمقصود أنهما سيحرفان عن وجهتهما للذهاب إلى مكان ما لنيل المتعة.

(2) في العامية الإنجليزية وكما سبق وأشرنا يستعمل اسم الرب في سياق مختلف، هنا هو شتيمة خالصة، ولذلك يحتجّ رفيقه على ذكره لاسم الربّ في هذا السياق.

«لا تقل يا ربي»، قال إيفانز.

«ماذا يفترض بي أن أقول؟».

«لا أعرف. أنّى لي أن أعرف؟».

وضع جايمس جعته بين قدميه وهو يفتحها. رمى الفتاحة في داخل العلبة ورفعها إلى فمه وازدرد البادوايزر الساخنة حتى ارتطمت الفتاحة بلسانه، من دون أن يتوقف عن الارتشاف.

هبّت عاصفة، وأمطرت وابلاً من المطر لخمس دقائق، قبل أن تهدأ ويحل محلها ضباب يصعب معه التنفس. انزلق جايمس على المقعد إلى طرف الشاحنة وجازف بالنظر إلى الخارج إلى حرب فييتنام - مطر يقطر من وريقات شجر عملاقة، عربات مشوهة، أناس قصار القامة - الشاحنة تخفض سرعتها، المحرك يزعق عالياً، والوحل يغلي تحت العجلات الضخمة - مشاة حفاة يبتعدون عن الطريق، وجوه سمراء تعبر، حفرة بعد حفرة بعد حفرة، الجعة تخض في معدته. مسح وجهه بطرف قميصه، وغطى جبينه بيده، وراح يراقب الغروب وهو يهبط تحت مستوى الغيوم، ويحول ألوان العالم داكنة وكثيفة في آن. دخلوا إلى شارع رئيسي. بدت كل النباتات على جانب الطريق ميتة. وقد اصطبغ الرصيف الإسمنتي باللون الأحمر بفعل كل الوحول التي تحتك به. شتى أنواع المركبات تستعمل هذا الطريق، الدراجات الهوائية والدراجات البخارية الصغيرة ومركبات أكبر من الواضح أنها تحاكي مثل هذه المراكب التي تجرّها عجلتان، وعربات تجرها الثيران وأخرى تجرها الأيدي، ومشاة أنصاف عراة يعتمرون قبعات أسطوانية، محنيي الهامات تحت صرر كبيرة. اندفعت الشاحنة شرقاً على طول الطريق وسط قرع متكرر للبوق، والكثير من التأرجح ذات اليمين وذات الشمال، والتوقف عن السير واستئنافه. لبعض الوقت مشوا ببطء شديد حتى إن عربة ذات دولابين تمكنت من مجاراتهم، وحملق جايمس طويلاً بالوجه الأحمق، المثير للشفقة لجاموس ماء.

فجأة هبطت العتمة. لبعض الوقت قلت المركبات كثيراً، ثم بدت سرعتهم تتباطأ، وأنهم دخلوا أو اقتربوا من دخول بلدة ما. توقفت الشاحنة أمام بناء مصنوع غالباً من قصب الخيزران، وقد أضيئت اللافتة على واجهته إضاءة خافتة بلمبة حمراء وكتب عليها كوكا كولا وصالون لونغ برانش. طافياً في غيمته الحمراء، بدا المكان حاراً، رطباً، غامضاً، وموحشاً. وكانت الموسيقى تهدر في داخله. مال هيوستن إلى الخارج ونظر إلى الأمام ورأى الكثير من الأشياء، الأبنية ظليلة والأضواء الصغيرة المتحركة للدراجات هوائية. بين الشاحنة والحانة على أية حال، امتدت رقعة طويلة من الظلمة.

اقترب مستقبلاهم أو القابضان عليهم. قال فلات: «اخرجوا من شاحنتي».

قال هيوستن: «حقاً؟».

«ترفّق بهم يا فلات، هيا».

وافق فلات: «حسناً، أعتذر لأنني كنت أعبث عليكم. أنتم يا شباب أفضل ما حصل طوال الأسبوع. اضطرارنا إيصالكم في مثل هذا الوقت المتأخر يعني أنه من رجاحة الرأي أن نبيت ليلتنا هنا في بيان هوا. فاستمتعوا بوقتكم وفي الأثناء عليّ الدخول هنا إلى لونغ تايم ومقابلة جاسوستين مهمتين من جواسيس العدو».

قال إيفانز: «سوف ندخل معك، صحّ؟».

«لا. لا تستطيعون الدخول إلى هذا المكان».

«لا نستطيع».

«لا، غير مسموح لكم بذلك».

قال جايمس: «حسناً، ألن تدخل أنت الآن؟».

«أنا في مهمة رسمية»، قال فلات «يحسن يا شباب أن تجدوا لأنفسكم بقعة أخرى في آخر الشارع هناك. اذهبوا إلى الفلور شو[1]».

(1) Floor Show: يفترض أنه ديسكوتيك تقوم فيه الفتيات بالرقص على إيقاعات الأغنيات =

«في آخر الشارع؟»، سأله فيشر. «هذا ليس بشارع، إنه معتم».

«سوف يرافقكم العريف جوليت إلى البلدة».

«حسناً، اللعنة. سوف أتولى الأمر»، قال جوليت «هيا جميعاً، اركبوا ولنذهب».

«أوه لا. الشاحنة تبقى هنا».

«إنها قريبة جداً من أي مكان آخر!».

قال فلات: «أيها الرجال، امضوا. تحركوا في رتل وصلوا لئلا تقع مؤخراتكم في كمين ما في أول ليلة لكم في الميدان. أتحملون أيّ مال».

قال جوليت: «اللعنة، إنهم لا يحملون أي مال».

«لا تني تكرر اللعنة وكأنها اسمي»، قال فلات «كف تكرار اللعنة كأنها اسمي. كم معكم يا شباب؟ لأنه في هذا العالم المعاصر الكجنون الذي تعيشون فيه، لا تستطيعون المضاجعة من دون مال. ألديكم ما يكفي لشرب الجعة؟».

«بكم الجعة؟».

«معي دولاران»، اعترف جايمس.

«نقد أمريكي أم حوالات عسكرية[1]».

«أوراق دولار عادية».

«أيها العريف جوليت خذ هؤلاء الشباب الجدد إلى الفلور شو».

فلات وجوليت، مرتطمين ببعضهما ومعترضين طريق واحدهما الآخر، موحيين بهالة من الاعتماد المتبادل والازدراء تجاه بعضهما، مثل الشقيقين، وضعا بندقيتهما الأم 16 في صندوق العدة في الشاحنة. وقال جوليت للمجندين «أين

= المسجلة أو بالغناء والرقص، وتكون مثل هذه الأمكنة عادة صغيرة المساحة تبثّ فيها الموسيقى من مكبّرات صوتية ضخمة؛ لكن في سياق الرواية فإنها حانات وضيعة لمعاقرة الخمرة وممارسة الجنس لقاء المال.

(1) MPC: Military Payment Certificate: طريقة في التداول المالي اتبعها الجيش الأمريكي في فييتنام بغرض التخفيف من تداول الدولار هناك.

أسلحتكم؟».

صاح فيشر: «اللعنة، قلت لكم».

قال جايمس: «ليس معنا أيّ أسلحة».

قال فلات: «يا للغرابة».

«هل سنحصل عليها؟».

«أجل، أظن أننا نستطيع أن نمدكم بالأسلحة التي تريدون»، أكد لهم جوليت «هذه حرب».

دخل فلات إلى حانة لونغ برانش، تاركاً إياهم مع جوليت الذي قال: «لن أقولها حقاً، لكنني أشعر بالرغبة في أن أقول اللعنة».

استدار وتوجه نحو البلدة. لم يكن أمامهم من خيار سوى اللحاق به.

«أين نحن؟».

«في بيان هوا. لا نتجاوز الحدّ. هناك كلها قوات جوية».

كانت عتمة. كانت هذه فيتنام. «اللعنة» قال جايمس، محاولاً أن يبقى صوته منخفضاً قدر الإمكان في العتمة.

«والقصد من قولك اللعنة؟».

«القصد أن المكان أعتم من الجحيم».

قال إيفانز: «يجب أن يروك صورة عن مدى الظلمة هنا قبل أن توقع على التجنيد».

«أنا لم أوقع، لقد جروا مؤخرتي إلى التجنيد. وقد تأهلت للتدريب على الطيران المروحي».

سأله إيفانز: «إذن ما الذي تفعله هنا؟».

«ما الذي تفعله أنت هنا؟».

قال إيفانز: «أنا تطوعت. لماذا؟ لسببين: الفضول زائد الغباء. ماذا عنك أيها الكاوبوي؟».

بعد أن ذكر أن أمه تعمل في مزرعة أصبح جايمس هيوستن كاوبوي. قال: «الغباء فحسب، على ما أظن».

قال فيشر: «أتظن أنه ثمة أي ألغام هنا؟ ألغام على هذه الطريق؟ مفخخات أو ما شابه؟».

«اخرسوا جميعاً»، قال جوليت، وصمتوا فوراً.

اشتمّ جايمس رائحة طبيخ، أبخرة عشبية. مشوا باتجاه الأضواء الباهتة، التي لم تعد بعيدة جداً الآن، جزماتهم تصدر صريراً على الأرض، وقربهم تقرقع. شعر أنه لن يعرف يوماً ما يفوق هذا الشعور، كان واثقاً من ذلك: مقدس، فخور، ضائع، مختبئ، وعلى قيد الحياة.

كسر فيشر الصمت: «أيمكنك رجاء أن تخبرنا فحسب إلى أين نذهب؟».

توقف جوليت لكي يشعل سيجارة، مرسلاً فوق المنطقة ومضاً من ولاعته «إلى ذلك المكان الذي يدعى فلور شو. في السابق كانت مثل هذه الأمكنة غريبة جداً بسبب غياب الموسيقى»، لوح بالولاعة فانطفأت شعلة الولاعة: «أترون؟ لا قناصة».

«ما الذي تعنيه بالفلور شوز؟».

«لابدّ من أنها تحسنت كثيراً. سمعت أنه بات فيها جكبكس».

«وماذا يوجد فيها؟».

«أغان يا رجل، أنغام كما تعلم».

«من أين حصلوا على جكبكس لعين؟».

«من أين تظن، من نادي الضباط في مكان ما. أحدهم باعهم إياه خلسة».

«ولا تعرف ماذا يوجد في هذه الأمكنة؟».

«أنى لي أن أعرف أيها الجندي. لا فكرة لديّ البتة».

«لكن ما أعنيه... مجرد فكرة عامة».

توقف جوليت، ورفع رأسه نحو السماء: «يا ربي العزيز. لم أذهب لرؤية

الشيء اللعين بعد».

«طيب، طيب».

«إني في طريقي إلى هناك الآن».

«طيب، طيب».

«في طريقي إلى هناك معكم».

لافتة مكسورة أمام المكان كتب عليها «فلور شو». بدا داخل المكان أشبه بحظيرة، إلا أنه وبدلاً من الماعز والدجاج كان ثمة أناس، معظمهم نسوة صغيرات. وراء المشرب المصنوع من الخشب الرقائقي، كان ثمة لافتة نيون خضراء كتب عليها «ليتل كينجز أل». جلسوا إلى إحدى الطاولات: «أنت يا سيدي ما اسمك؟».

«هيوستن».

قال جوليت: «اشتر لي جعة يا هيوستن».

«سوف أشتري لك واحدة ليس إلا».

«أف، يا ويلتاه، إنك تقلص رقمي».

«ما الذي تعنيه بذلك؟».

«يعني أنني بحاجة إلى دولارين».

اقتربت إحدى النسوة. «أتريدون فلور شو؟»، بدا أنها خمنت أن جوليت هو الشخص الذي يجدر بها التكلم إليه، ربما لأنه لم يجلس بعد. كانت ترتدي فستاناً أزرق قصيراً ضيقاً، وابتسمت كاشفة عن فراغ في موضع أحد الأسنان الأمامية.

«لا فلور شو. الجعة الآن. والفلور شو لاحقاً».

«سوف أكون نادلتكم»، قالت.

«أعطني دولارين»، قال، «أربع زجاجات جعة».

قال جايمس: «أريد لاكي ليجير».

«لا لاكي. بوس بوو ريبون»[1].

«بابست؟ لا شيء سوى البابست؟».

«بوس بوو ريبون أو 33».

قال جوليت: «أحضري لنا 33».

«أريد بابست»، قال جايمس.

قال جوليت: «تريد الأرخص، أحضريها بالزجاجة، لا تحضري لي أية أكواب قذرة».

أخذت مال هيوستن ومضت.

بدا فيشر مرعوباً، وقال: «حسناً، إذن!».

«أيها الشباب»، قال جوليت «سوف أخرج من هنا».

«ماذا؟».

«عليّ أن أؤدي بعض المهمات. أنتم أيها الأولاد ابقوا هنا».

«ماذا؟ إلى متى علينا البقاء هنا».

«إلى أن أعود».

«كم من الوقت هذا يا رجل؟».

قال فيشر: «أيها المعاون جوليت رجاء، لقد جئنا للتو من الولايات. ولا نعرف أين نحن».

«أنا أعرف أين أنتم. فابقوا هنا حتى أعود».

عادت المرأة حاملة أربع زجاجات من أعناقها، اثنتان في كل يد. اعترضها جوليت، وأخذ زجاجة وقال «شكراً جزيلاً لك»، واختفى.

وجلسوا هناك بينما المرأة مسحت العرق عن زجاجات الجعة بخرقة كبيرة. كانت ضئيلة جداً وتضع ماكياجاً شديد البياض بالنسبة إلى جلدها القاتم.

«هذه الجعة طَعمها مثل الدواء»، أعلن فيشر.

(1) تحريف لاسم Pabst Blue Ribbon: جعة أمريكية أما جعة 33 فهي صناعة فيتنامية.

قال إيفانز: «ما اسم هذه البلدة؟».

رفع جايمس جعته إلى فمه وتجرع وحاول أن يفكر. شرب نصفها دفعة واحدة، إلا أنه لم يتذكر. كان طعم الجعة كأي جعة أخرى. قال: «لسنا بحاجة إليهم اليانكيز[1] على أية حال».

قال فيشر: «أنا بحاجة إليهما. أنا ضائع وأنا يانكي أيضاً»، أشار.

قالت المرأة: «أتريدون فلور شو؟».

قال إيفانز: «الجعة الآن، الفلور شو لاحقاً، ماشي؟».

انحنت وقالت مباشرة لجايمس: «أتريد بو جاب[2]؟».

«ماذا قالت؟».

قال جايمس: «عذراً، أتقصدين أن تقولي، بلو جوب».

«هراء».

«هذا ما قالته».

«أوه يا إلهي»، قال فيشر.

«بكم هذا؟».

«مرة واحدة فوراً بدولارين».

«أتصدقون هذا؟».

قال جايمس: «فليقرضني أحدكم دولارين».

«أنت من يحمل المال».

قال جايمس: «لم يعد معي».

قال إيفانز: «ما اسمك؟».

«اسمي لاورا».

---

(1) Yankees: عادة هم سكان الولايات الشمالية في أمريكا، وذلك في مقابل الولايات الجنوبية تحديداً.

(2) Bo-jup: تحريف للفظة blow job: الجنس الفموي.

«تقصدين لورا، صح؟».

«أنا أمنحك بو جوب جيد».

«الجعة الآن والبو جوب لاحقاً»، قال إيفانز. بدا ممقتع اللون مذهولاً.

بسرعة أنهى جايمس قنينته، الشيء الوحيد في هذه البيئة الذي شعر أنه مؤهل للتعامل معه. في أحد أركان المكان جلست إلى طاولات عدة ألصقت معاً مجموعة من الشبان يرتدون بزات بيضاء، بحارة من بلد أجنبي، جميعهم يحملون أو يعتمرون قبعات لم يتضح له لونها تماماً في هذه العتمة، وغالبيتهم مع عاهرات في أحضانهم. وعلى مقربة منهم أخذ ينبض الجكبكس أحمر متوهجاً كالكور. وفي بقعة مركزية أخذ ثلاثة أزواج يرقصون رقصاً رومانسياً بطيئاً بالكاد متحركين على إيقاعات أغنية «<You>ve Lost That Lovin> Feelin»[1]. جندي طويل قبل رفيقته قبلة طويلة مروعة، محتضناً إياها، منحنياً فوقها وملتهماً وجهها. ولم يتوقف الأزواج عن الرقص خلال توقف الأغنية في الجكبكس تمهيداً للأغنية التالية. حين بدأت أغنية بيتش بويز «Barbara Ann»، غنى البحارة الأجانب معها بصورة فوضوية وأحس جايمس بالرغبة في الانضمام إليهم إلا أنه كان أكثر خجلاً من أن يفعل ذلك. مهما تبدّل إيقاع الأغنية فقد ظلّ الراقصون واقفين كالزومبيز، متجمّدين في حال من الذهول. «أظن أن هؤلاء الشبان الذين يدون بحارة، فرنسيون»، قال إيفانز «أجل، إنهم فرنسيون».

جلس جنود المشاة الثلاثة يتفرجون على الراقصين في حين غنت امرأة ما في الجكبكس أغنية «Makin' Whoopee»، ثم غنت أخرى «The Girl from Ipanema».

حين جاءت لورا وسألتهم مجدداً عن «الفلور شو»، سألها فيشر: «Voulez

(1) أغنية أمريكية احتلت المراتب الأولى عام 1964، لفرقة The Righteous Brothers، الأغنية التي تعتبر اليوم الأغنية الأكثر بثاً في أمريكا في القرن العشرين.

«vous coucher avec moi?»[1]، فأجابته: «Mais oui، monsieur، boo– coo fuck– you»[2]. وغرق الثلاثة في حرج رهيب، وتركتهم الفتاة سريعاً صارفة النظر عنهم.

«اشترِ لي قنينة يا هيوستن».

«لقد اشتريت لك واحدة. إنه دورك الآن».

قال له إيفانز: «يا شمام الاصطناعي؟»[3].

«ما هذا؟ ما هو شمام الاصطناعي؟».

«أظن أنه واضح تماماً».

لم يظن جايمس ذلك، فسأل فيشر: «ما هو شمام الاصطناعي؟».

«أمعك أيّ مال؟».

«أين دولاريّ؟».

«اسألهم؟».

«ألم يرجعوا أي فكة؟».

«اسألهم».

«لن أسأل أحداً شيئاً».

قال إيفانز: «اخرس ودعني أقم بالعد. أتعرف. في هذه الغرفة ثمة نسوة أكثر من الرجال. هناك خمس عشرة امرأة».

«هل ترغب في مضاجعة إحداهن؟».

«ماذا تقصد؟ بالطبع أرغب في مضاجعتهن جميعاً».

(1) بالأصل بالفرنسية: أتمسحين لي بمضاجعتك؟».

(2) بالأصل بالفرنسية: «نعم سيدي، بكل تأكيد، اللعنة عليك»، boo coo هنا تحريف لكلمة beau coup التي أحضرها الأمريكيون معهم إلى بلادهم من فييتنام التي يتكلم أهلها الفرنسية بفعل الاستعمار الفرنسي سابقاً. غير أن الفتاة حرفت استعمال fuck you لتصبح بمعنى الشتيمة لا المضاجعة.

(3) Dildo-sniffer: شتيمة ذات طابع جنسي، علماً أن ديلدو هو العضو الذكري الاصطناعي.

قال فيشر: «إنهن دميمات نوعاً ما».

قال جايمس: «نوعاً ما، صحيح، إنما ليس تماماً». حملق في واحدة في طرف الغرفة – مفلطحة الأنف، مثيرة الشفتين. أثارته نظرتها الساهمة الغامضة.

قال إيفانز لفيشر: «سوف أشتري الجعة، ثم تشتري أنت».

«اتفقنا».

«اتفقنا».

«إذن أحضرها».

«أحضرها أنت».

«أنت من سيشتريها، إذن أحضرها أنت».

قال إيفانز: «حسناً أيها اللعين، هل الجميع في الحادية والعشرين؟ أيمكنني إلقاء نظرة على هويتيكما؟».

قال جايمس: «هل ستحضر هذه الجعة أم لا؟».

«نعم». وعبر إيفانز الغرفة إلى العتمة المكتظة بالدخان، وكأنه يزحف خارجاً من الخنادق، وكأنها الحرب أخيراً.

حين عاد بدا راضياً عن نفسه. «جعة أخرى وأصبح مستعداً للرقص. لكن حقاً هيوستن، كم عمرك؟».

«لا أعرف».

«لا تعرف؟ لا تعرف؟ أنا في التاسعة عشرة. ها قد أخبرتك، فأخبرني».

«الثامنة عشرة».

«الثامنة عشرة».

«أنا أيضاً»، قال فيشر.

بدأت على الجكبكس أغنية «Walk On By»، لديون وارويك.

عاهرة سمينة بدا أنها ترقص وحدها على مقربة منهم استدارت ببطء، وبفعلها هذا كشفت عن رجل قصير يكاد يتدلى من عنقها، ورأسه على صدرها.

كعب جزمته الكاوبوي ارتفع بوصتين مما جعل عجزه يبدو كالمرأة تماماً. بدأ فيشر بالضحك على الاثنين من غير أن يتمكن من ضبط نفسه.

انفصل الرجل عن شريكته وجاء إلى طاولتهم. كان يتبسم. لكن حين وقف فيشر، قال له الرجل الصغير: «أتريد أن أصرعك أرضاً؟».

«لا».

«إذن، لا تقف طويلاً جداً وقريباً جداً، كم طولك؟».

«بما فيه الكفاية».

«بما فيه الكفاية لكي تصرع أرضاً»، قال الرجل، بصورة أساسية للآخرين. كان يرتدي جينزاً وقميص مَدراس. كان قصيراً، عريضاً ودائري الرأس. «كم طولك؟».

«لا أعرف».

«كم قدم وبوصة أيها اليانكي؟».

«ستة أقدام وخمس بوصات».

«يا إلهي الرحيم».

قال فيشر: «ما كنت لتتمكن من صرعي أرضاً».

تدخل جايمس: «إنه يتكلم بودّ فحسب».

قال فيشر: «إنني أقول ما أفكر به فحسب، حول صرعه إياي أرضاً».

«يبدو أنه نمت لك عضلات الجعة الآن أيها الصديق».

«إنني أقرّ بحقيقة فحسب».

«أوه أجل، لقد انتفخت عضلات الجعة وملأته كله».

«من أنت؟».

«أنا والش من البحرية التجارية الأسترالية. ووزني تسعة مثاقيل[1] وطولي

---

(1) Stone: وحدة وزن بريطانية وأسترالية، المثقال الواحد يساوي 14 باونداً أو 6،35 كيلوغراماً، أي أن وزن الرجل قرابة 57 كيلوغراماً.

152سنتمتراً، وسوف أقاتلكم جميعاً معاً، أو واحداً واحداً. لنبدأ بالأقوى بينكم. من هو أقواكم؟ هيا. أأنت الأقوى؟».

قال جايمس: «لا أظن ذلك».

«لن ترغب بأن تتحدّاني، سواء أكنت الأقوى أم لا»، قال الأسترالي، ثم توجه لفيشر: «ماذا عنك أيها الضخم؟ أتظن أنك تستطيع إلصاقي بالسقف، أيها الضخم؟».

قال فيشر ضاحكاً: «أنت مجرد رجل صغير تافه لكنني قادر على إلصاقك بالسقف».

ثارت ثائرة والش الصغير: «سوف تلصقني بالسقف؟ اخرج إلى هنا. اخرج إلى هنا، تعال وألصقني بالسقف أرضاً، هيا إلى الخارج». ومضى مسرعاً باتجاه المدخل.

تبعه فيشر، مشدوهاً نوعاً ما «أوه اللعنة»، قال «سوف أتعرض للضرب على يدّ مصارع قزم».

رافقه هيوستن وإيفانز. في الشارع الموحل، الذي لم يصلهم من الضوء فيه إلا ما تسرّب من مدخل الحانة، أخذ والش يستعد للعراك عبر تحريك كتفيه ويديه، وتقويس جسده إلى الخلف، والانحناء إلى الأمام، ملامساً التراب بيديه «هيا». انحنى فيشر ماداً ذراعيه، وكأنه يستعد لحمل طفل. أما خصمه فقد راح يتحرك ذات اليمين وذات اليسار، ويحرك رأسه، وأمال كتفه اليسرى في مناورة سريعة، ثم رشق بيده اليمنى تراباً على عيني فيشر. نهض فيشر وهو يرمش، مغمضاً عينيه نصف إغماضة، فاتحاً فمه. ركله الأسترالي على بطنه، وركض خلفه، وسدّد له ضربتين سريعتين بعقب قدمه، الأولى على ظاهر ركبته، ثم على ظهره، فأوقع الفتى الكبير على وجهه وهو يحمي خصيتيه بيديه.

مال عليه الأسترالي صارخاً: «قم، أيها القذر الكسول!».

في هذه الأثناء كان البحارة الفرنسيون وفتياتهم قد خرجوا للفرجة، لكن كان

العراك قد انتهى.

ساعد والش فيشر للوقوف على قدميه. ومدّ جايمس وإيفانز يد المساعدة. «هيا انهض، انهض. يكفي شيطنة، حان وقت احتساء جعة ثقيلة بيننا نحن الفتية».

في الداخل انضم إلى طاولة الشبان، جاذباً عاهرته السمينة لتجلس على ركبتيه. «لا تتعارك مع الرجل القصير. إياك وقتال الرجل القصير. إننا هنا بينكم أنتم العمالقة لأننا تمكنا من الاستمرار، وتمكنا من ذلك لأننا أقوى من السماء. حسناً إذن! جعة للجميع بحق الرب!»، صرخ فجأة. «أشمّ رائحة بتول! من البتول هنا؟»، وراح يطالع وجوههم الفارغة. «ألم يحظ أحدكم بمضاجعة؟ لا بأس بذلك. الجعة على حسابي أيها الفتية. لقد تنمّرت عليكم، لقد لاعبتكم بطريقة مخزية، وأنا وغد من أحط الناس. لكن بحق المسيح، أنا لا أزن أكثر من تسعة مثاقيل. وأنا قصير مثل طائر غريد. أليس كذلك حبيبتي؟ صغير- صغير!».

قالت فتاته: «أحب الصغير الصغير، لا أحب العضو الكبير».

أحاطت بهم الفتيات. جلست إحداهن في حضن فيشر، ووقفت أخرى بجانب كرسي جايمس، مداعبة أذنيه. ثم انحنت وهمست: «لنذهب ونتضاجع». وقالت تلك التي في حضن فيشر: «أنا أحب العضو الكبير». وتدلى صندلها الزوريس من أصابع قدمها على الأرض. كان وجهها غريباً غريب. وجنتان ضخمتان مائلتان. بدت أشبه بقزم. قال لها «قومي عني. خصيتاي تؤلمانني. أنا لا أحبك».

«طولي تسعة وخمسون وثلاثة أرباع البوصة. والبقاء على قيد الحياة هو جلّ همي من هذا العلو. يجب أن أكون عدوانياً». لكز والش ردف المرأة وقال: «أريد جعة لجميع هؤلاء الشبان الشجعان من الجيش الأمريكي. أترون أيها الشبان الشجعان اللافتة في الخارج؟ في الأيام الخوالي كان هذا المكان يدعى حانة لو وكان ثمة لافتة كوكا كولا كبيرة كتب عليها حانة لو، واللافتة الصغيرة في المدخل تقول «فلور شو في أي وقت» لكن ذات ليلة ركل أسترالي ثمل من البحرية اللافتة ركلة كاراتيه وحطمها. أنا. أجل! كان أنا من أعطى هذا المكان

شهرته. من أين أنت أيها الشاب الضخم؟».

«بطسبورغ وأتمنى لو كنت هناك».

«أنت فتى شجاع أيها البطسبورغي. ها أنا أمدّ يدي لك عربون الصداقة. لا تعارك أبداً الرجل القصير. إنه متدرب على إسقاطك. لقد جلت العالم على متن السفن، وتعلمت أن أعود بالنصر. طولي 152 سنتمتراً، ولن أكتسب المزيد من الطول. والفلور شو على حسابي».

حاول جايمس مراقصة المرأة. التصقت به، ناعمة وحارة، كان شعرها خشناً تفوح منه رائحة أشبه ببودرة الأطفال. حين سألها عن اسمها قالت: «سمني على هواك..»– شفتاها، مكتنزتان. كان الإيقاع صاخباً إلا أنهما رقصا ببطء في الضوء الياقوتي المنبعث من الجكبكس. سدّد والش ثمن الجعة. غنوا أغنيات مع البحارة الفرنسيين، الذين رقص أحدهم على الطاولة بثيابه التحتية في حين خضّ الآخرون زجاجات الجعة ورشوه برغوتها. تصارع والش معهم بالأيدي وهزمهم جميعاً. سدد كلفة الفلور شو، لكن كان عليهم أن يدفعوا الرجل في زي عصابات مقلم دولارين إضافيين، قال: «من أجل الجكبكس». ذهبوا إلى المخدع في مؤخّر المكان واقتعددوا الأرض ثم دخلت امرأة وأقفلت الباب، وتخلصت من فستانها من دون أن تنزع سيجارتها ووقفت عارية أمامهم مستبقية حذاءها الأحمر عالي الكعب، نافثة الدخان من فمها. كان جسدها كاملاً في كل جزء منه «ما.. ما.. ما اسمك؟»، هتف إيفانز، وقالت: «اسمي فيرجن». في الخارج تكررت على الجكبكس أغنية «لقد فقدت ذلك الإحساس الجميل»، وبدأت فيرجين العارية تتحرك «إنني مهتاجة الليلة، مهتاجة جداً، جداً»، قالت منتحبة. فقد جايمس الإحساس بيديه أو رجليه أو شفتيه أو لسانه. واقفة على بعد أقل من متر من وجهه رقصت لدقيقة على الموسيقى ثم جلست على السرير، وباعدت واسعاً ركبتيها، وأدخلت فلتر السيجارة بين شفتي بظرها ونفخت الدخان، بينما تنبعث من الجكبكس في الغرفة المجاورة أغنية «إشباع»، للرولينغ ستونز. حينئذ

شعر جايمس وكأن رأسه قد بُتر ورمي في مياه تغلي. أمالت فيرجين جسدها إلى الخلف، والسرير يسند رأسها وكتفيها فحسب، وحذاءها العالي مزروع على الأرضية، وجسمها يلتف على إيقاعات «باربرا آن» وراحوا جميعاً يغنون بمرافقة الأغنية... أيها الرب العظيم، جزء منه صلى، إذا كانت هذه الحرب، فلا تدع السلام يأتي البتة.

اجتمع الكوتشي كوتي[1] الثلاثة من أجل واحدة من مداولاتهم. لاذوا بأنفسهم واحتكروا الفسحة الظليلة بجانب «الملجأ واحد» في هذه الصبيحة المشمس، ولم يفكّر أحد من فرقة «إيكو» الاستطلاعية بالاقتراب منهم. كان الرجل الأسود مخيفاً بصورة خاصة. كان قد أنهى جولة[2] مع كتيبة «دوريات الاستطلاع طويلة المدى»[3] التي تتنقل ليلاً في المناطق العلوية بسرعة شديدة وتخطف حياة أي رجل أو امرأة أو طفل تصادفه. كان شعره بمثابة انفجار من الكتل المتوحشة وقد طلا وجهه مثل هندي أحمر ويتنقل في الأرجاء بسترة عسكرية ممزقة الكمّين. مقارنة به فإن الهندي الأحمر الحقيقي بين هؤلاء الثلاثة، ذلك الشاب الهزيل المتعب، مقوس الرجلين، الآتي من مكان ما من جنوب غرب أمريكا، بدا عاقلاً على نحو ما. وكان الثالث إيطالياً أو ربما من أصل أكثر أجنبية، ربما كان يونانياً، أو أرمنياً. لم يكن يتكلم البتة، ولا حتى مع مرؤوسه المباشر، الكولونيل.

(1) Kootchie kooti: يأتي شرحها لاحقاً في سياق النص.

(2) Term of Duty: هي المدة التي يخدمها الجندي في الحرب، خاصة خارج أراضي بلاده، وهي قد تمتد من ستة أشهر إلى سنة أو سنتين، وقد تمدّد اختيارياً وفي بعض الحالات يفرض تمديدها بحسب احتياجات الجيش.

(3) Long Range Reconnaissance Patrol: أنشئت خلال حرب فيتنام وهي عبارة عن فرق خاصة قامت القوات الخاصة بتدريبها ابتداء من أواسط الستينيات من القرن الماضي بهدف تعقّب المقاتلين المعادين في داخل المناطق المعادية، وهي فرق استطلاع تتمتع بمهارات قتالية عالية وتتكون من أربعة إلى ستة جنود.

في الأثناء، في تلك اللحظات، لم يشأ الكولونيل ساندز أن يصمت البتة. ولم يكن كولونيلاً حقيقياً، بقدر ما كان كولونيلاً شرفياً سميناً من الجنوب، وقد أسماه الجنود «الكولونيل ساندرز»[1]، من وراء ظهره، وكانوا يشيرون إلى تلك الاجتماعات الصباحية في المعسكر الواقع على السفح الغربي من جبل الحظ السعيد، بوصفها «ساعة السلطة».

إلا أن الكولونيل لم يكن مغفلاً. كان يتمتع بحسّ حاد بما يعتمل في خواطرهم. «أنتم تدركون أيها الرجال أنني مدني. إنني أتشاور مع ملازمكم، ولا أوجه له الأوامر. بيد أنني أدير عملياتنا بصورة عامة». وقف في مواجهة الضوء الساطع للصباح الاستوائي واضعاً يديه على وركيه «قبل اثني عشر أسبوعاً، في التاسع عشر من نوفمبر الماضي، فريق مدرستي الأم، نوتردام، لعب ما كان يفترض أن يكون أكثر مباراة دموية في التاريخ ضد فريق متشيغن ستايت. كلاهما فريق من الضواحي. كلاهما لم يتعرض للهزيمة. كلاهما يتوق لخوض المعركة». انتعل الكولونيل جزمة قماشية مثلهما، وجينز ليفيز جديداً، وصديرية صياد كثيرة الجيوب، تي شيرت بيضاء، ونظارات رايبان، وقد نتأ من جيبه الخلفي اللسان الأزرق لقبعة بايسبول «قبل أسبوع من المباراة رمى طلبة متشيغن ستايت منشورات من الجو على معسكر نوتردام. وكانت المنشورات موجهة لأهل قرية نوتردام المحبين للسلام». سألوهم: «لماذا تناضلون ضدنا؟ لمَ تصرون على الاعتقاد الخاطئ بأنكم تستطيعون تحقيق الفوز، بحرية وسهولة، ضدنا؟ لقد كذب عليكم قادتكم. لقد دفعوكم إلى الاعتقاد بأنكم تستطيعون الفوز. لقد أعطوكم آمالاً زائفة».

ما الذي كان يثرثر بشأنه؟ كان الكولونيل جزئياً بمثابة مزحة، وجزئياً لغزاً مشؤوماً. أحياناً يبدو متبجحاً كذاباً، وفي أحيان أخرى وكأنه من آل كينيدي.

•

(1) Colonel Sanders: هارلند دافيد ساندرز (1890—1980) المعروف بلقب الكولونيل ساندرز، هو مؤسس شركة كنتاكي.

كان يحبّ أن يقود به أحد السكروي لوت[1] في أرجاء الجبل في الجيب العسكري بينما يمضغ السيجار ويحتسي الشراب من ربعية ويسكي، واضعاً رشاش أم 16 بين ركبتيه، قافزاً لكي يطلق النار على النمور أو الفهود أو الخنازير البرية.

«الآن مباراة نوتردام – متشيغن ستايت هذه التي أخبرتكم عنها قد سميت مباراة القرن. أهميتها بالنسبة إلي لا تنحصر في كونها استعراضاً رسمياً للأيرلندي المقاتل، بل بوصفي عدواً للفييتكونغ الآن وهنا. كنت أحاول الحصول على تسجيلات فيديو لهذه المباراة. آمل أن أحصل على فيلم من رحلة القطار التي قام بها أيرلندينا المقاتل إلى الملعب الإسباركي في إيست لانسينج، متشيغن. أناس يقفون في حقول الذرة ومزارع الألبان قرب السكة الحديدية رافعين لافتات تقول: «يا مريم المباركة الممتلئة نعمة، نوتردام في المرتبة الثانية» أريد أن أري كل واحد منكم ما رآه الأيرلندي، متجهاً إلى ملعب محتشد بستة وسبعين ألف متفرج يهتفون ويرقصون ويتأرجحون ويصرخون. أتمنى لو نجلس جميعاً معاً ونشاهد المباراة».

«لعب الأيرلندي تحت غيمة من سوء الحظ. مُستقبل الضربات الأساسي عندنا، نيك إيدي، زحط على الجليد في أثناء ترجله من القطار وكسر كتفه قبل أن تبدأ المباراة حتى. وجاءت النكسة الثانية عندما، بعد الشوط الأول من المباراة– غادر لاعب الوسط الأفضل لدينا الملعب محمولاً على حمالة. ثم سقط الظهير الربعي تيري هانرتي في كومة وحملوه إلى الخارج بكتف مخلوعة. إذن حتى الربع الثاني من المباراة كان فريق متشيغن يهوي علينا بالأهداف، عشرة لصفر. إلا أن هذا الظهير الربعي المصاب بالسكري المسمى كولي أوبراين تمكن بطريقة ما من تمرير تمريرة 34 إلى مستقبل ثان يدعى بوب غلاديو – وهو ليس اسماً إيرلندياً حتى – ثم صد اللاعبون الأيرلنديون لاعبي متشيغن ستايت حتى قام الراكل[2] في فريقنا

(1) Screwy Loot: يأتي شرحها لاحقاً في سياق النص نفسه.

(2) Kicker: في لعبة البايسبول هو اللاعب الذي يقوم بركل الكرة في وضعيات معينة خلال المباراة.

بتسجيل هدف في بداية الربع الرابع.

وها نحن، لعبة متقاربة، عشرة لعشرة. ولم يبق من الوقت سوى دقيقة ونصف. استحوذ الأيرلنديون على الكرة وراء الخطّ الخاص بنا. وها هو الملعب. وها هو الهدف. وها هم الرجال.

إلا أن المدرب الرئيسي، المدرب بارسيجيان، اختار أن يستهلك الوقت حتى النهاية. اختار أن يغادر الملعب من دون انتصار.

«والآن لم فعلوا ذلك؟

«لأن ذلك لن يقلص حظوظهم بالفوز في البطولة الوطنية. كان التعادل يقيهم في المكان الأول على المستوى الوطني، وبعد أسبوعين تمكنوا بالفعل من تحقيق بالبطولة. هزموا فريق يو أس سي بفارق 51 نقطة للاشيء.

«الآن أتحسبون أنني سأخبركم أن هذا كان حكيماً؟ حسناً، ربما كان كذلك. ربما كان حكيماً، إلا أنه كان خطأ.

«لأنه في ذلك اليوم في إيست لانسينغ، ضدّ أشرس خصم، غادروا الملعب من دون انتصار».

راح العرق يتصبب من قبعته إلى وجهه، إلا أنه لم يمسحه. رفع يديه عن وركيه وضرب قبضته اليمنى براحة يده اليسرى، قبضة عريضة عند البراجم كقبضة أي ملاكم من الوزن الثقيل. «بحق الرب» قال الكولونيل «سوف أحصل على تسجيل لهذه المباراة. سوف نجلس ونشاهدها معاً هنا في هذا المعسكر.

«الآن اسمعوني. لا أريدكم أن تشعروا بالتشوش حيال سبب إخباري لكم بهذا. أخبركم هذا لأنه هذا بالضبط ما نحن أنفسنا، هنا بالضبط، نواجهه دوماً ومن دون تغير. بصورة ثابتة نواجه منبسطاً من الأرض وعدواً. ولكي نتخلى عن رقعة الأرض سعياً وراء نظرية ما حول المستقبل ليست الطريقة التي نقوم بها بالأشياء هنا. الآن، مهمتكم هي أن تبقوا هذه التلة آمنة كمهبط لطائراتنا هنا، وأن تجدوا مداخل الأنفاق وتعلموها على الخريطة. ليس عليكم النزول إلى هذه

الأنفاق. لدينا أناس يقومون بهذه المهمة».

بالتأكيد كان هناك أناس لهذه المهمة: الكوتشي كوتي سيئو الطباع. هؤلاء ينزلقون بوجوههم أولاً داخل الفوهات المظلمة حاملين بيد وممسكين خصاهم بالأخرى واضعين المصباح اليدوي بين أسنانهم، ويتحركون في أي مكان في منطقة كو تشي. كانت كنية «كوتشي كوتيز» رائعة، أما فرقة الاستطلاع فلم يكن لديهم كنية برّاقة، ولكن بفضل قربهم من «كاو فوك» فلم يكن من مناص من أن يعرفوا باسم «كاوفاكرز»، وهو حظ غبي إلى حدّ ما. لم يتمكنوا حتى من كتابة الاسم على أيّ شيء بسبب لغته الفاحشة.

«سوف ننتصر في هذه الحرب»، أكان ما زال يتكلم؟ «وجهود هذه الكتيبة بالذات ستكون أساسية في هذا السياق. فكروا بنا بوصفنا عملاء. هذه الأرض تحت أقدامنا هي حيث يضع الفييتكونغ قلبهم الوطني. هذه الأرض هي خرافتهم. إذا اخترقنا هذه الأرض، فإننا نخترق قلبهم، خرافتهم، وروحهم. هذا اختراق حقيقي. وهذه مهمتنا: اختراق خرافة الأرض.

أي أسئلة؟».

تلا ذلك صمت طويل أصغوا خلاله إلى الطيور وهدير طائرة مروحية أعلى الجبل.

نزع الكولونيل نظارته الشمسية وأخذ يحدّق في الكتيبة كلها مباشرة «إليكم ما قلته حول مباريات التعادل حين لعبت للأيرلندي: كنا نقول إن مباراة التعادل أشبه بتقبيل أختك. جئت إلى جنوب شرق آسيا لكي أشارك في مهمات طيران مع النمور الطائرة ضد اليابانيين، وبقيت في جنوب شرق آسيا لكي أحارب الشيوعيين، وأقول لكم الآن شيئاً، بكل جدية أعمق نوع من الوعود: حين أموت، فسوف يكون ذلك في جنوب شرق آسيا، وسأموت مقاتلاً».

نظر إلى السكريوي لوت، الذي قال: «انصراف!».

مصوا كل إلى مهمته. سكروي وسارج والكوتشي كوتيز اجتمعوا مع

الكولونيل عند «الملجأ واحد». كانت الكتيبة تحتقر إجمالاً هذا المدني، إلا أنهم كانوا يافعين في نهاية المطاف، ولديهم علم بخبرته وقد تكوّنت لديهم خرافة غامضة بأنه مصدر بركة ما بالنسبة إليهم، ذلك أنه كان بعضهم - من أمثال فلات وجوليت، وهذان «م. خ. م»[1] في الوقت الحالي إنما على الأرجح هما «م. م. د. ت»[2]- ممن قاموا بجولات كاملة وبدأوا بجولات خدمتهم الثانية ومع ذلك لم يتعرضوا لأي نيران من العدو.

زهاء الساعة الحادية عشرة - بتأخير خمس عشرة ساعة - سمعوا شاحنة «أم 35» تتوقف: فلات وجوليت جاءا بثلاثة بدلاء[3]، أحدهم قصير والثاني متوسط الطول والثالث طويل.

كان سارج[4] واقفاً هناك لكي يستقبلهم. الرقيب أول هارمون، وهو رجل مسفوع الجلد من الشمس يطوي كميه إلى عضلات زنديه، ثانياً طماقي قدميه بعناية ومصففاً شعره الأشقر إلى حدّ البياض. بدا أنه لا يتعرق البتة. «أعتبركما عائدين بعد فرار من الخدمة أخذتما خلاله مركبة حكومية».

«لا، لا، لا، لا، لا»، قال فلات «لا سارج، الأمر ليس هكذا على الإطلاق. هؤلاء الشبان يمكنهم أن يشرحوا الأمر».

«بل أنتما من ستفسران»، قال الرقيب هارمون.

«أمرك سارج».

«أنتم أيها الشباب انضموا إلى الملجأ أربعة»، قال هارمون للبدلاء، وأخذ فلات وجوليت إلى «الملجأ واحد».

---

(1) MIA: أي Missed in Action، أي مفقود خلال العمليات الحربية أو المعارك (م. خ.م).

(2) AWOL: Absence Without Leave: أي متغيب من دون تصريح (م. م. د. ت) أو فار من الخدمة.

(3) Replacements: الجنود الذين يؤتى بهم للحيلولة محلّ جنود قتلوا.

(4) Sarge: اختصار لرتبة Sergeant أي الرقيب، يستعملها الجنود هكذا من دون أل التعريف تحبباً وألفة تجاه رقيبهم.

ما إن تواروا عن الأنظار، حتى رمى المجند غيتي الذي كان دوماً مستاء من شيء ما، خوذته على الأرض المبللة وجلس عليها مباعداً بين قدميه وضاماً ركبتيه مثل فتاة صغيرة، واضعاً ساعده في حضنه.

صاح أحدهم: «سارج...».

رفع جيتي سلاحه فوق رأسه حتى يروه جميعاً وتوعّد بقتل أول ابن عاهرة يقترب مسافة ستة أقدام منه.

عاد الرقيب هارمون لكي يجد البدلاء الثلاثة شاخصين نحو المجند غيتي.

«حركوا هذا الرجل»، قال الرقيب.

كان الأطول حانقاً، يكاد يبكي: «نحن لا نعرف الرجل حتى. لقد وصلنا للتو».

صاح غيتي: «أريد أن يدرك الجميع فحسب!».

التفت الرقيب إلى فلات وجوليت المقعيين قرب باب «الملجأ واحد»: «مهلاً قليلاً عليه».

«آه».

«كان على ما يرام حتى ظهرتما الآن. كفا عن استفزازه».

«اسمع سارج».

«لقد جعلتني أكرر كلامي. لقد انتهيت من هذا الكلام».

«حاضر سارج».

«لا داعي للأجوبة. سوف أنتبه إلى تصرفاتك».

كان الرقيب واحداً من أولئك الشبان النموذجيين اللماعين، طويلاً، قوياً، مسترخياً، شديد الشقرة، له حاجبانن أشقران، متساويان، وعينان زرقاوان تسببان الإرباك، تشعّ زرقتهما عن بعد خمسة عشر قدماً. جندي قديم، مليء بالندوب، أحد الناجين من «بورك تشوب هيل»، إحدى أكثر معارك الحرب الكورية بطولية، التي تحولت لاحقاً إلى فيلم من بطولة جريجوري بيك.

قال: «فقدتم أسلحتكم».

استمسك الثلاثة الجدد بالصمت.

«أنتم جميعاً مسالمون؟».

«حضرة الرقيب، لقد تمّ نقلنا بالخطأ. ذهبنا إلى إدواردز بدلاً من سان دييغو[1] وذهبنا إلى مكان ما في اليابان بدلاً من جوام[2]».

«وضعونا على طائرة شحن أيها الرقيب».

«لم يعطنا أحد أي سلاح. لم يقل لنا أحد شيئاً».

«إنني أمزح معكم فحسب. لدينا أسلحة لكم. ما لا أملكه هو هدر الوقت في انتظار شاحنتي. لماذا تطلبكم الأمر خمس عشرة ساعة إضافية لكي تشقوا طريقكم مسافة ثمانية وستين كيلومتراً على طرقات معبّدة؟».

«لقد تمّ توجيهنا خطأ تماماً».

«وتأخرت الطائرة، تأخرت تماماً».

«أمضينا ساعات وساعات في اليابان».

«أظن أن ساعتي توقفت. أجل. أترون؟ لقد توقفت، سارج».

«لم نعرف حتى في أيّ بلدة كنا».

«أو في أي إقليم».

انتظرت الكتيبة لكي ترى كيف سيتعامل هؤلاء الثلاثة مع هذا التحقيق. بدا أنهم لا يستطيعون أن يتذكروا ما إذا كانوا قد تمرنوا على قول ذلك مع جوليت وفلات. إلا أنهم واصلوا الكلام على هذا النحو، غير موضحين أيّ شيء.

«اسمعوا».

«أجل سارج».

(1) Edwards قاعدة عسكرية جوية أمريكية تقع جنوب غرب المنطقة التجارية في نورث إدواردز، كاليفورنيا، أما San Diego فقاعدة عسكرية بحرية تقع في سان دييغو، كاليفورنيا.

(2) Guam: جزيرة تقع في غرب المحيط الهادئ وهي أرض أمريكية تقع في مجموعة جزر ماريانا، وفيها قاعدة عسكرية أمريكية.

«أنتم الآن في كاو فوك، كتيبة إيكو الاستطلاعية من سرية دلتا. إننا في الزاوية الجنوب غربية من منطقة كو تشي في فيتنام الجنوبية - منطقة، لا مقاطعة. هل سمعتم عن المثلث الحديدي؟[1] لسنا في المثلث الحديدي، إننا في مكان يقع إلى جنوب غرب المثلث الحديدي، في منطقة صديقة. ونحن نحتفظ بهذه المنطقة آمنة لمهبط الطائرات أعلى الجبل الذي من غير المسموح لنا حالياً بتسميته قاعدة لأسباب تتعلق بالبروتوكول العسكري. كتيبة إيكو تتمركز في الأسفل هنا. وبقية السرية في الجبل. هل سمعتم تلك الموعظة القائلة: لا تكن دبوساً على خريطة؟ حسناً، هذه هنا هي دبوس على الخريطة. لا نسميها قاعدة إلا أنها قاعدة دائمة، ولدينا نوعان من الدوريات الدائمة. حول الجبل ثم إلى أعلاه، أو إلى أعلى الجبل ثم حوله.

«نحن لدينا دشات جيدة هنا. لدينا أربعة عشر رجلاً وثلاثة دشات، لكن لا مراحيض كيميائية[2]. إذن عليكم أن تحفروا الكايبو الخاص بكم بعيداً في الأدغال. لا أريدكم أن تزكموا أنفي بالرائحة. ليس لدينا فوضى هنا. كل شيء منتظم وفقاً للحصص الغذائية. إذا وسختم الجبل، تتقلص وجباتكم إلى وجبتين ساخنتين في اليوم، أو وجبة واحدة في اليوم، احسبوا ذلك مع رفاقكم، وإذا سمعت الكثير من النواح حول أناس يشتكون من نقص الوجبات الساخنة بحيث أضطر إلى التفكير في جدول معقد، فسوف أستاء كثيراً وأسعى إلى جعل حياتكم جحيماً. كونوا مريحين لي، أكن مريحاً لكم، هذا هو النظام هنا. أبقوا أموركم منتظمة وسوف لن تشعروا بوجودي. أي أسئلة. لا أسئلة. جيد. الآن.. هناك وحدات عسكرية في مسرح العمليات الواسع هذا يعيش فيها الجنود تمرداً مفتوحاً مع ضباطهم. هذه ليست واحدة من تلك الوحدات. أنا هنا لكي أنفذ أوامر الملازم

(1) Iron Triangle: منطقة تبلغ مساحتها 310 كيلومتر مربع في إقليم بين دوونغ في فيتنام، وسمي كذلك كونه كان معقلاً لمقاتلي الفيتكونغ خلال حرب فيتنام.

(2) مراحيض خارجية من دون تمديدات صحية للتخلص من الفضلات، لذا تضاف إليها مواد كيميائية لتحليل هذه الفضلات.

بيري وأن أشرف على أن تبلوا جميعاً على السواء. هل تسمعون ما أقول؟».

«أجل حضرة الرقيب».

«إنني سلس ومريح إلا أنني أعني ما أقول».

«حاضر سارج».

«الآن، أيها المجنّدون إيفانز، هيوستن، وفيشر. لقد سمعتم الخطاب تواً. هل لديكم أيّ أسئلة؟ لا؟ إنني موجود للإجابة عن الأسئلة طوال الوقت».

«ما هي الحصص؟».

«الحصص؟ الحصص. انظر إلى فمي، دشّات[1]. ألديكم أيّ أسئلة أخرى؟».

«ما الكايبو؟».

«إنها الحفرة التي تتبرزون فيها أيها المجند. أظن أنها كلمة فلبينية».

«سارج، نحتاج إلى النوم».

«حسن. امضوا إلى النوم. أريد أجسادكم على توقيت الولايات المتحدة الأمريكية، لأنني أريدكم أن تكونوا صاحين في الليالي. سوف تتولون الحراسة لبعض الوقت. استقروا في الملجأ أربعة. إذا أردتم أن تعلقوا لأنفسكم أراجيح شبكية بين الأشجار فلا بأس بذلك. ليس من تشارلي[2] في هذه الأنحاء. فلتقابلوا المعاون آيمز للحصول على الأراجيح الشبكية للنوم والأسلحة».

لم يتمكنوا من العثور على المعاون آيمز. في مقر منامتهم الجديد، وهو حجرة محصنة رملية السقف تفوح منها رائحة الجوارب القذرة ومواد قتل البق، وجدوا أربعة أسرة نقالة، ثلاثة منها خالية من الفوضى. مسح إيفانز الطين الجاف عن أحدها وجلس قائلاً: «فقط ثلاثمئة وستة وأربعين يوماً إضافياً من هذا البراز».

بينما يرتبون أمورهم، ظهر صديقهم فلات عند المدخل: «أهلاً بكم إلى الحرب العالمية الثالثة. هاي، أنا آسف على الحقارة الصغيرة التي قمت بها بالمفرقعات.

(1) Showers يلفظ النقيب هذه الكلمة Shares أي حصص.

(2) Charlie: الاسم الذي يطلقه الجنود الأمريكيون على مقاتلي الفييتكونغ.

تعالوا إلى الحانة القرمزية وسوف أضيّفكم شراباً».

«الحانة القرمزية».

«إذا كانت قرمزية فلست بذاهب».

«أتخشى من أكلة لحوم البشر القرمزيين»، سأله فلات.

«لست خائفاً. إنني متعب»، قال المجنّد هيوستن.

«حسناً. لكنني مدين لكم بشراب»، لوح لهم فلات بإصبعه الوسطى ورحل.

فيشر الطويل جداً، لاعب الوسط في فريق البايسبول في الثانوية، أخذ رأسه يحف بالسقف البلاستيكي وهو يتحرك في المكان. «هذا ليس بسيء»، قال.

اضطجعوا على أسرتهم، دون حراك. بعد مدة، تناقش هيوستن وإيفانز حول كيفية الحصول على كوكا كولا. إحساس غامر بالحرج ومراقبة الذات منعهما من الحراك. إلا أنهم لم يناموا. سمعوا صوت فلات في الخارج، ونهض ثلاثتهم وتبعوه إلى الحانة القرمزية.

الطريق المعبدة التي شقّتها البلدوزرات وخرّبتها الجيبات العسكرية، كانت محفّرة جداً إلى درجة أنهم لم يتمكنوا من السير عليها. فالتزموا بحافة الطريق. مرّ بهم جيب من منطقة المهبط في أعلى الجبل وأطلق بوقه. «لا تلوحوا، لا تلوحوا لهم، إنهم لا يتوقفون البتة»، قال فلات، وركل المصد الخلفي بينما مرت المركبة مسرعة وسط غيمة من دخان العادم.

الكثيرون من قرويي «كاو فوك»، الذين لا يعتبرون أهلاً للثقة، حمّلوا في شاحنات ذات يوم ونقلوا إلى حيث يعلم الرب. أما حقول الأرز فذهبت إلى الجحيم والأعشاب المجففة حولت الأرض إلى رقع من الهجران. الآن أصبحت القرية معسكراً متداعياً للحلفاء المستبدلين، يهيمن عليه معبد النجمة الجديدة في الكفر الجنوبي، وفي الشمال الحانة القرمزية.

«أنتم انتظروا هنا»، قال فلات عند اقترابهم من الحانة القرمزية.

«لماذا بحق الله؟».

«أمازحكم فحسب».

كان لدى الرقيب شأن يقضيه في الجبل، فكانت نصف الكتيبة في الحانة. جلسوا جميعاً حول طاولتين ألصقتا ببعضهما. في يوم الدفع يكون ثمة الكثير من النسوة، أما اليوم فكان ثمة واحدة فحسب، ترتدي بنطالاً وقميصاً، وتنتعل حذاء أسود عالي الكعب وقد طلت أظافرها بالأحمر، وجلست إلى طاولة تطالع صحيفة. قال فلات: «أربع زجاجات جعة حبيبتي»، فردّت «لست عبدتك»، فقام الباباسان[1] الموجود دوماً في المكان، بإحضار الجعة من ثلاجة مليئة بالكعك المصنوع من الأرز الأصفر البني. قبل أن يفتح جعته قام فلات بسكب ماء ميّود من قربته على سطحها وحذا الآخرون حذوه موحّلين القش تحت أقدامهم، في حين حملقت بهم عيون حفنة من الكلاب الهزيلة الواقفة بالمدخل.

حاول البدلاء أن يسألوا فلات ما قد يكون هدف فرقتهم، مهمتها، وحاول فلات أن يقول لهم إنها بصورة أساسية الأمن الواسع النطاق لمنطقة المهبط. وقال آخر «نحن نعمل للسي أي آيه».

«ظننت أن هذه وحدة استطلاع».

«هذه ليست وحدة استطلاع. لا نعرف ما نحن».

«لو كنت أعمل للسي آي آيه فأين قبعتي الخضراء».

وبهذه السرعة تماماً - على الأرجح لم يصحوا بعد من ثمالة الليلة السابقة - ثمل الوافدون الجدد في الحانة القرمزية.

«ثمة شيء في شأنك يا هيوستن، أنت نوع من الكاوبوي، لكنّ ثمة شيئاً فيك: تتمتّع بسمو ما. لديك أسلوب ما».

(1) Papasan و Mamasan: عن اليابانية حيث كلمة «سان» تلحق بالكلمة من باب الاحترام للشخص المخاطب، إلا أن الباباسان والماماسان اللذان شاع استعمالهما خلال حرب فيتنام من قبل الجنود الأمريكيين هما في الغالب مرادفان لقواد وقوادة، وإن كانت مهمتهما أحياناً قد تقتصر على مجرد إدارة الحانة وتقديم الشراب.

«شكراً يا شريك».

«لا، أعني ذلك. أعنيه. إنني ثمل، لكن، تعرف ماذا أعني».

«أجل، أجل، أجل. تعني أنك لوطي وتريد أن تضاجعني».

«سدّ بوزك. من الذي ضرط؟».

«ما قصدك. المنطقة برمتها تفوح منها رائحة مقرفة».

«ذلك الذي شمّها هو من بثّها».

«ذلك الذي رصدها أطلقها».

«ذلك الذي استشعرها نشرها»[1].

الشبان الذين يعيشون أعلى الجبل حول مهبط المروحيات مباشرة، كانوا دوماً مغطين بالغبار؛ ولذلك يفضلون حلق شعورهم بدلاً من الاضطرار إلى التعامل مع شعور قذرة. عرّف فلات البدلاء إلى رجلين منهم بالقول: «اسألوهم عن اسميهما».

«تعني كليهما؟».

«أجل يا فتحة الشرج، كلاهما، كلاهما».

قال الكاوبوي: «هاي، اسمع، أنا لست فتحة شرجك».

ساد صمت. ثم انفجروا جميعاً بالضحك، بمن فيهم الكاوبوي.

قال: «حسناً، ما اسمكما؟».

فأجاب الأول: «قذّاف الدم»[2].

«تمزح».

«لا، إنه قذّاف الدم».

«هذا صحيح، هذا اسمه الحقيقي».

---

(1) التعابير الثلاثة تستعمل في العامية الأمريكية، خاصة بين الأطفال، للقول إن من تذمر من رائحة الغازات متهماً جاره بإطلاقها هو من أطلق هذه الغازات.

(2) Blood Gutter.

«قذّاف الدم، يا له من اسم رائع لعين يا رجل. إنه أروع اسم في العالم».

«لكنه ليس بمثل روعة اسم هذا الرجل».

«ما اسمه؟».

«ربّ النار[1]».

«ربّ النار؟».

«أجل، جوزيف ويلسون فاير غاد».

«يا للروعة».

وقال ربّ النار: «وهو اسمه قذّاف الدم».

«روعة»

قال قذّاف الدم: «نحن صديقان سافلان إذن، ونتحرك معاً، إنه أمر منطقي فحسب».

دخل المجند غيتي وجلس بمفرده.

«غيتي بيرد، أين مسدسك الضخم عيار 45 ملم؟».

«أخذه الرقيب»، قال المجند غيتي.

«من أين لك بهذا المسدس أيها المجند غيتي».

«لقد قايضت عليه».

«قايضت بمؤخرتي... لقد سرقته».

دخل المجند غيتي في واحدة من غفواته التي يزعم فيها أنه أصمّ ويتكلم إلى نفسه. «لا أعرف لماذا أتذكر الديار بهذه القوة».

«لا يهمكم أمر غيتي بيرد، إنه مجرد معتوه».

الجميع، بمن فيهم غيتي، توقفوا عن الكلام حين دخل الكوتشي كوتي الثلاثة. جاء الثلاثة بكراس حول الطاولة وجلسوا، وراح أحدهم يتجشأ بصوت عال.

من الأفضل عدم التكلم حتى يتكلموا هم، إلا أن فلات بدا مدفوعاً إلى

(1) Firegod.

السؤال: «هاي، هل عاد الرقيب من الجبل؟».

قال المتوحش الأسود: «لا يزال فوق، ما زلتم آمنين».

لم يستطع فلات أن يخرس «أنت هندي»، قال لفأر الأنفاق الهندي، «وابن الزانية هيوستن هذا كاوبوي».

«أأنت كاوبوي؟».

«ليس في الديار، هنا فحسب».

وحده كان ما زال المجند غيتي ذاهلاً يكلم نفسه: «إنني في الرحلة الخطأ، إنني في الرحلة الخطأ. الرحلة... الخطأ»، مكرراً هذه الجملة مرة بعد مرة.

احتسى الآخران جعتهما فحسب، إلا أن الكوتشي الأسود أخذ يحملق بسخط بالمجند غيتي «إنه يزعجني بهرائه. إنه يثير الغضب في داخلي».

قال فلات: «لا يقصد شيئاً بذلك».

«أعرف أنه لا يقصد شيئاً. لن أؤذيه. هل يبدو عليّ أنني قد أؤذي أحداً».

«لا».

«لا؟ أشعر أنني راغب في أذية أحدهم».

توقف جيب ثان في الخارج. قال أحد الواصلين الجدد: «اللعنة، الملازم بيري».

«الرقيب ليس معه، لذا اللعنة عليه».

وجهوا الشتائم بالجملة للملازم وهو يدخل راسماً على وجهه ابتسامة حكيمة مصطنعة قائلاً: «أقترح أن تتوقفوا عن العبث معي»، رامياً أكياساً بلاستيكية من مسحوق الطلك الذي يصير موحلاً في غضون أربع دقائق من استعماله، إلا أن الجميع استعمله.

أحضر لنفسه زجاجة من الكوكا كولا وجليس بمفرده مثلما فعل المجنّد غيتي. من وقت لوقت كان يسكب «الرم» من قارورة كروم في الزجاجة. وفي لحظة معينة التفت نحوهم جميعاً محاولاً أن يبدو رجلاً من هذا العالم وأشار إلى

الكاوبوي وقال «أنت، أتعرف ما هو الواقع؟».

«ماذا؟».

«جواب خاطئ».

كان هكذا، هذا كل الأمر، خاصة حين يثمل، أي معظم الوقت؛ أما في الأوقات الأخرى فكان في الأكثر يافعاً فحسب ومغفلاً فحسب، مثل غالبيتهم.

لاحقاً قال من دون أن ينظر إلى أيّ منهم: «أنا مستعد لمضاجعة ملاك الموت، لكنني أرفض أن أقبّل شقيقتي». لم يجبه أحد.

قال الكوبوي «إنه أبله أليس كذلك؟».

«ما هو؟».

«أبله؟».

«ما هو؟».

«قلت إنه أبله، إنه محطّم تماماً».

«هذه هي، لقد أصبت! إنه سكروي لوت!»[1].

حين نهض سكروي لوت لكي يرحل نظر إلى الواصلين الجدد ولا سيما إلى فيشر، ذلك الطويل الذي كسر سنه الأمامي في أثناء لعب كرة السلة وقال: «الفيلم لن ينتهي قبل أن يموت الجميع». خرج بخطوات متباعدة مترنحة.

ثم جلسوا وأخذوا يطلعون المجنّدين الجدد على ما جريات الأمور شيئاً فشيء.

«أنعمل مع المخابرات؟».

«أنتم تعملون مع العمليات النفسية».

«هل تعمل العمليات النفسية مع المخابرات؟».

أحد الجدد، إيفانز، كان ثملاً للغاية، وأخذ يكرر بلا توقف: »فلنواجه الأمر، فلنواجه الأمر، فلنواجه الأمر».

(1) Screwy Loot: لوت اختصار Lieutenant أي الملازم وسكروي بمعنى مغفّل أو مدمّر أو محطّم.

«أتفهمون ما الذي يحدث؟ بقية اللواء الثالث يؤكلون أحياء. بقية فرقة المشاة الخامسة والعشرين برمتها».

«في الحقيقة حين يؤكلون على قيد الحياة، فإنهم يكونون موتى».

«اخرس. ولكن هذا صحيح. إنهم موتى، على نحو ما أكره أن أكون».

كانت «الحانة القرمزية» مشيّدة من القصب ومسقوفة بالقش. وكان ثمة طبقة من نوع ما من القش تغطي الأرضية أيضاً. وتحت ذلك الوسخ. ولم يكن لها جدران، بل ستائر من الخرز فحسب، رسمت عليها مشاهد استوائية متنوعة باهتة - أشجار نخيل وجبال. وكان ثمة خندق عميق يحيط بالحانة من الجهات الثلاث لكي يحميها من أن تُغمر بالمياه عندما ينهمر وابل المطر على البلدة. كانت مجرد كرخانة كبيرة مفروشة بطاولات وكراس متداعية، كلها من ممتلكات الحكومة الأمريكية. وكان ثمة مولد «ماش» كهربائي صاخب وضع في الخارج يزود الحانة بالطاقة، وكان ثمة ثلاث مراوح وضعت على امتداد الجانب الغربي تدير وجوهها ذات اليمين وذات اليسار كأنها تتابع الحديث.

«أجل، أجل، أجل، فلنواجه الأمر».

«هذا نخب الملاعين المحظوظين».

«من هم؟».

«نحن جميعاً الملاعين المحظوظين، لأننا نقوم بخمس دوريات تقريباً في الشهر في منطقة غير معادية بالكامل».

«مرة في الأسبوع تقريباً، أجل، وبقية الوقت نحيد عن درب الجميع فحسب».

«هذا واجبنا المقدّس. أعطني نَفَساً[1]».

«ماذا؟».

(1) Toke: تسمية عامية لحشيشة الكيف.

«نفس؟ سيجاريلو[1]؟ من تشكيلة الدخان؟ لكي أتمكن من تدخينه؟».

«حسناً. أنت تسميها نفساً؟».

«المشكلة هي أنك حين لا تقوم بمهمات فإنك تنفق كل راتبك.. هذه عقبة رهيبة في الواقع».

«لأنه، أعني، فلنواجه الأمر».

كان ثمة طاولة قرب الثلاجة تخدم كمشرب. وقد وضعت عليها مشغلة أسطوانات محمولة، ورزمة من الأسطوانات، وزينة مشرب تدعى «المصباح النجمي»[2]، وهو كناية عن كوز كهرماني اللون يمكنك فيه أن تراقب الحركات المضيئة غير المفهومة التي تكاد تكون متواترة إنما الغير متكررة، للشمع السائل في الزيت الحار. الفتاة ذات طلاء الأظافر الأحمر كانت تتحكم بالأسطوانات. لا يُسمح بالطلبات. وإذا سألتها عن اسمها فإنها تجيبك: «أي اسم تشاء؟ أنا أتخذ الاسم الذي تريده».

القارس والبعوض تملأ الجو. والباباسان يطاردها بالمذبة وبعبوة من قاتل الحشرات «رايد».

ثمل فئران الأنفاق وطلبوا المزيد من الشراب على نحو لم يجعلهم أقل إثارة للهلع. واحد منهم فحسب أسود اللون، إلا أنهم جميعاً يتكلمون مثل شاب البستوني[3]، متلفظين بأشياء غريبة. فلاسفة. كل أطفال الرب لديهم أنفاق. كل شخص لديه نفق خاص. شربوا وشربوا حتى ذبلت عيونهم تماماً وبدوا كالعميان، إلا أنهم عدا ذلك لم تبد عليهم الثمالة، ما عدا أن واحداً منهم حين احتاج إلى أن يبول فك بنطاله وفعلها هناك عند الطاولة، في الواقع على جزمته العسكرية... لا يحصل كثيراً أن ترى سوداً وبيضاً يتسكعون معاً... الناس غالباً يقوون مع

(1) Cigarillo: هو مصغر السيجار، وهو عادة بخس الثمن يستعمل غالباً لتدخين حشيشة الكيف.

(2) Lava Lamp: مصباح يبث الضوء شاع في الستينيات من القرن الماضي، وهو لأغراض الزينة أكثر منه للاستعمال العملي.

(3) Spades: الأمريكي من أصل أفريقي.

أشباههم...

تفهم مينه خيبة أمل سكيب، لكنّ الحياة تمضي كالعاصفة، والكولونيل، عم سكيب، هو الشخص المهيمن في المشهد. كان منطقياً أن يلوذ به. وإذا رغب الكولونيل بإبعاد ابن أخيه عن الطريق، فلا بأس بهذا. ذلك أنه بفضل الكولونيل لم يعد مينه نفسه يقود الطائرات وبات لديه أمل بالنجاة من هذه الحرب. في هذه الأيام يقود الطائرات المروحية فحسب، ولصالح الكولونيل فحسب. وغالباً ما يتنقّل بثياب مدنية ويمضي الكثير من الأيام حرّاً في سايغون. له عشيقة هناك، الآنسة كام، وهي كاثوليكية، وكان يرافقها القداس في صباحات الأحد ويمضي فترات بعد الظهر في منزلها في رفقة عائلتها الكبيرة.

الطيران يتطلب تركيزاً ويرهق الفكر. لذا استمتع بهذه الرحلة كراكب في الشيفروليه السوداء، من دون ما يفعله سوى النظر إلى الدمار المحيط بالطريق 22 والتفكير في الآنسة كام.

كان زوج خالته هاو قد نبّهه إلى أن سكيب يتكلم الفييتنامية. وبالتالي، خلال إيصالهما الأمريكي إلى مقره الجديد في منطقة «الجبال المنسية»، لم يتكلم وزوج خالته كثيراً. جلس مينه في المقدمة وسكيب في الخلف بجانب أحد صناديقه، وقاد العم هاو السيارة واضعاً كلتا يديه على المقود، ورأسه إلى الأمام، بكل تركيز، وفاغراً فاه كالطفل. هبّت عاصفة فجأة، مبكرة بعض الشيء هذا العام، وأخذ المطر يطرطق على سقف الشيفروليه السوداء. حاول العم هاو أن يتكلم الإنجليزية إلا أن السيد سكيب لم يجب كثيراً «ربما يجدر بنا ألا نتكلم».

«آه، صديقي هاو»، قال سكيب «إن المطر يشعرني بالحزن».

حاول مينه التكلم قليلاً بالإنجليزية هو الآخر «من الجيد أن يتعلم المرء أن يبتهج بالمطر. ستكون سعيداً للغاية، لأنه هناك الكثير من المطر». بالإنجليزية لم يبد كلامه

فطناً كثيراً.

فرمل العم السيارة، وتمسك مينه أمام قوة الاندفاع - ثور مائي يعبر أمامهم. وعربة شحن آتية من الطريق المعاكس اصطدمت بالثور وبدا أنها ارتدّت إلى الخلف عن بدنه الضخم متوقفة بصورة منحرفة وسط الرصيف المحطم.

أحنى الثور رأسه كأنه يتذكر شيئاً ما، وقف بثبات لثوان، واتجه إلى الأعشاب الطويلة ملوحاً بقرنيه من جانب إلى آخر، وقد أخذ ردفاه يهتزان مثل قبضتين تتناوبان الضرب على كيس ورقي. ناور هاو بالشيفي حول الشاحنة المتوقفة في حين اختفى الحيوان تحت وابل المطر.

ما إن خرجوا من الطريق 22 حتى أصبحت كل الطرق سيئة، بالكاد صالحة للعبور عليها، لكن ما دام العم يبقي العجلات تدور، يمكنهم تجنّب الغرق في الطين. «حين نصل إلى المنحدر الكبير سوف أمضي بسرعة لأنه علينا أن نصعد السفح المقابل».

«المنحدر الكبير، ما هو هذا».

«هضبة تنحدر نزولاً تليها أخرى صعوداً. ثمة طين في الأسفل».

«فهمت». كانا يتحادثان بالفيتنامية.

وجّه العم هاو السيارة نحو المنحدر الطويل وغاصوا مطرطشين في الطين في الأسفل ثم تسلقوا السفح المقابل بصورة شبه عامودية، حتى كادوا يبلغون أعلاه وما عادوا يرون أمامهم سوى السماء. أخذت المكابح تحتك بالأرض وتزعق كالأشباح المعذبة في حين انحدرت الشيفي إلى الوراء حتى استقرّت في بركة من الوحل في الأسفل. أطفأ هاو المحرك وقال السيد سكيب: «حسناً إذن».

نزع مينه صندله، ورفع سرواله فوق ركبته وتدثّر بمعطف البونشو البلاستيكي واتجه إلى منزل أقرب مزارع، الذي تبعه عائداً معه إلى السيارة، جاراً ثوره بحلقة الأنف، وربط حبلاً في المصد الأمامي وأخرجهم من الحفرة.

نظر سكيب من النافذة الخلفية إلى حيث كانوا وقال بالإنجليزية: «من حفرة

إلى أخرى».

لم يكن المكان الذي يتجه إليه سكيب سيئاً جداً. فهو سيحصل على موقد يعمل على الغاز، ونوع من التمديدات الصحية الداخلية، وعلى الأرجح خادمين. حمام ساخن حين يرغب بواحد. الفيلا، كما فهم مينه، تخص رجلاً فرنسياً، طبيباً متخصصاً بمشكلات السمع، متوف الآن. بقدر ما يمكن التحقق منه كان هذا الرجل مفتوناً بأحد أنفاق المنطقة، وذهب لكي يستكشفه، حيث داس على لغم أرضي.

خفّ انهمار المطر إلى طرق خفيف على سقف السيارة. فتح مينه عينيه. كان نائماً. أوقف العم السيارة ثانية. بدا أن الطريق تنتهي مجدداً هنا، وتتحوّل إلى غدير يغمر جانبيها، وتساءل مينه إذا كانوا الآن سينتظرون مراكبياً هزيلاً يضع قلنسوة لكي يحمل الأمريكي إلى وجهة نفيه. إلا أن هاو تقدّم بهم ببطء إلى الأمام. لم يكن غديراً البتة، بل مجرد نهير متفرّع من غدير ما لم يستطيعوا رؤيته.

توقف المطر مع دخولهم ببطء إلى قرية الجبل المنسي. تلألأت شمس الأصيل فوق العالم المبلل، وقد بدأ الناس يتحركون في الخارج وكأنه لم يكن ثمة عاصفة على الإطلاق، حاملين صررهم على الطريق، كانسين وريقات النخيل من أمام منازلهم. في الأزقة الوسخة، في الأمكنة المظللة الأقل بللاً، كان الأولاد يقفزون مستبدلين الحبل بسلاسل بلاستيكية شاحبة.

توقفوا في مدخل الفيلا ولم يكد مينه يلقي نظرة عليها حتى وجد نفسه منخرطاً في مغامرة صغيرة - الكثير من الصراخ المنبعث من وراء المنزل، ثم ظهر شيخ يبدو خادم المنزل أو البباسان، ملوحاً بمجرفة فوق رأسه وصارخاً حول وجود أفعى ما. قفز مينه لكي يتبعه، والعم وسكيب على مقربة خلفه، ووصلوا إلى حية عاصرة عملاقة تمضي متلوية في الفناء الخلفي، أصلة بنية مخططة تفوق أيّ واحد منهم طولاً، بل تفوقهم مجتمعين طولاً. «دعني أحاول، دعني أحاول»، قال مينه. ضرب الشيخ بمدمته مرة أخرى بلا فائدة ثم استسلم وناول المدمة لمينه. ماذا الآن؟

لم يرد أن يشوه جلد الأفعى الثمين. اتجهت الأفعى إلى الضفة خلف المنزل. ركض خلفها وضربها بالمدمة بقوة، آملاً بأن يقطع رأسها، إلا أن الشوكة انغرزت في جذعها، وإذا بها تنتر جسدها بقوة مخيفة خالعة مقبض المدمة من يده وماضية متلوية في الأجمة جارة المدمة معها. تعقّبها مينه والخادم، ضاربين الأجمة المبللة بأيديهم، وقد باتا كلاهما في المياه الآن، وصرخ رجل البيت «ها هو الوحش!». وظهر من وراء نبتة بونسيتا قاطرة حاملاً الذيل «إنها شبه ميتة!». إلا أنها كانت لا تزال تتلوى وأفلتت من قبضته. تمكن مينه من الإمساك بالمدمة، وداس على جذع الأفعى، ثم استلّ المدمة من جذعها وهوى بها مرات عدة على رأسها – الذي كان هشاً بصورة مفاجأة فاثقب بسهولة.

ارتخى وجه العجوز بصورة إيجابية، وقد ارتسمت عليه ابتسامة واسعة «تعال، تعال، سنأخذها إلى عائلتي!».

كان قد ظهر قس المنطقة الكاثوليكي محيياً إياهم. خاطب سكيب بالإنجليزية: «ليس من الضروري قتل حيوانات كهذه. الكثير من الناس يربونها كحيوانات أليفة. إلا أنها كبيرة كفاية لسلخ جلدها، من المؤسف أنه لم يعد ملوناً. بعضها أحمر وبعضها برتقالي». كان القسّ شاباً يرتدي ثياباً أنيقة، على الأغلب من المدينة، ويضع ياقة القس «يجب أن تزور مسكني»، قال، وأجابه سكيب أنه سيفعل.

ثم سار مينه والعجوز مستعرضين فريستهما في الشارع الرئيسي للقرية، مينه في المقدمة، وصديقه في الخلف، وبينهما الأفعى البالغ طولها أربعة أمتار، وذراعاهما الحرتان تطوّحان لكي تتوازنا مع ثقل وزنها ميتة، وصغار الأطفال يجرون خلفهما، صارخين مغنين.

بقي السيد سكيب في المنزل مع القس، وإلا كان مينه أكّد له في تلك اللحظة: «هذا بشير رائع لوصولك».

وصل وليام «سكيب» ساندز من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إلى الفيلا في كاو كوين، التي تعني «الجبل المنسي». مع حقيبته المصنوعة من الدّفل[1] وصناديق عمه الثلاثة في اللحظة نفسها التي أفسح فيها مطر شديد في المجال لطقس جيد مشمس، لم يشعر أن له دوراً فيه.

كان فوس قد ادّعى أن لديه عملاً ما له، ادعى أنه سيبقيه على مقربة منه. غير أن هذا لم يفضِ إلى شيء، بل أبقى ساندز في الخفاء، غير قريب على الإطلاق، في كوخ مكيف في مجمّع «الماك في» (قيادة الإسناد العسكري) في «تان سن نوت»، كجزء من مشروع قصير الأمد مكرس لإمداد سيل من شذرات المعلومات التي تدعى نظام ملفات كوردز/ الفينيق[2]، تجمع فيه كل ملحوظة أرسلها أي كان سمع أو رأى شيئاً في أي مكان في فييتنام الجنوبية. وقد أنفق العاملون في المشروع المكونين من ثمانية عشر رجلاً وامرأتين، والذين جنّدت بالكامل من هيئة الموظفين، جلّ طاقتهم محاولين تحليل المواد التي تصل إليهم، منتجين صناديق من الصفحات التي يمكن أن تشكل ممراً يبلغ عرضه ثماني بوصات ونصف البوصة يلتف ثلاثة أضعاف حول الأرض، أو أن تغطي كلياً ولاية كونيتيكت، ويزيد وزنها على مجموع الحيوانات ذات الجلد السميك في سبعة عشر عرضاً من عروض سيرك «بارنوم وبايلي»، وهكذا دواليك. الصدمة واليأس. تقدير لضحايا الكوارث البحرية مع انقضاض شلالات المطر على المقرّ. ذات يوم جاءت الأوامر بوضع

---

(1) Duffel: نسيج صوفي ثقيل.

(2) CORDS/Phoenix: تشير الأولى إلى طائر الفينيق الفيتنامي، أما الثانية فهي اختصار لـ Civil Operations and Revolutionary Development Support: برنامج مشترك بين المخابرات الأمريكية وحكومة فييتنام الجنوبية، يهدف إلى القضاء على البنية التحتية للفييتكونغ وذلك عبر اعتقالهم وسجنهم أو اغتيالهم. خلال ثلاث سنوات من عمر البرنامج، بين 1968 و1971 تمّ القبض على زهاء سبعين ألفاً من ناشطي الفييتكونغ وقتل ما يزيد على ستة وعشرين ألفاً منهم. وفي حين تضطلع قوات فييتنام الجنوبية بالتطبيق العملي للبرنامج فإن المعلومات الاستخبارية كانت تقدّمها وكالة المخابرات الأمريكية.

كل الصناديق على عربات يدوية وجرها عبر ممر من شجر السدر تحت الشمس الاستوائية إلى منشأة للتخزين في المجمّع نفسه. نهاية المشروع الذي بات شيئاً من الماضي.

بعد ذلك، الانتظار في كاو كوين «الجبل المنسي»، «جبل النسيان»، أو «انس هذا الجبل» – الذي اعتبره «دامولوج 2»، مرة أخرى بعيداً عن آخر الطرق المعبّدة المأهولة، وعن إمدادات الكهرباء.

تناول برفقة هاو ومينه وجبة من الأرز والسمك أعدّها الأخوان فانز، الخادمان العجوزان اللذان يهتمان بالمكان، واللذان سيخاطبهما بالسيد تاو والسيدة ديو، ثم تركه رفيقاه مع وعود بأن هاو سيعود كل أسبوع أو عشرة أيام حاملاً له البريد والكتب والمؤونة.

كان مسكن سكيب الجديد يستمدّ المياه من خزان على سطحه كما فيه تمديدات صحية داخلية، حمام في الطابق الأرضي فيه مرحاض ومغسلة، وواحد آخر في الأعلى، فيه حوض استحمام ومرحاض ويغطي جدرانه ورق جدران رسمت عليه حوريات البحر، ويلتمع بشكل غريب. حين فتح مصراعي النافذة في حمامه، طارت من المرحاض نصف دزينة من العث والتصقت بفروة رأسه.

لا شيء يعمل على الكهرباء. كان لديه مصابيح تعمل على غاز البوتان ولها ظلات نحاسية، وغرف فرشت بالأثاث المصنوع من الروطان الذي تقشّر طلاؤه. عندما يهطل المطر، وسوف يهطل لأشهر بصورة يومية ابتداء من الآن، فقد كان ثمة أباجورات خشبية لصد الريح. أما المياه التي تتسرب من ثقوب صغيرة في الأعلى فكانت تسقط في أوعية صغيرة وزعت في أرجاء الردهة. بيد أن موقع المنزل كان جيداً بالنسبة إلى هبوب الريح، وكان ينطوي على إحساس حميم. كانت الأشياء محسوسة في هذا المنزل، حيث يغرفون الملح والبهار – مثل السكر – من فناجين صغيرة، بدلاً من حاويات البهارات ذات الثقوب؛ وقد احتلّ سريره في الطابق العلوي زاوية محجوبة من البيت بعيداً من الجناح الرئيسي المتواضع

المفتوح على كل حركة من الجو الليلي القائظ.

مع آخر ضوء للنهار قام بجولة حول الفيلا، وهي بناء من طابقين مصنوع بصورة أساسية من مواد خشنة صلبة مثل الباطون والطين. دبابير سوداء صغيرة تتسلل داخلة خارجة من ثقوب أحدثها الرصاص في الجدران الخارجية، تعود إلى المعارك التي شهدتها المنطقة في أيام الفرنسيين. وكان ثمة قناة من الباطون تمتد حول البيت، حاملة المطر إلى غدير صغير يجري على مقربة. ألقى نظرة إلى الأسفل هناك: أطفال مغامرون يمرون سريعاً على طوافات ارتجلت تماماً من أي شيء: أي شيء قابل للطفو - الحطب، جوز الهند، وريقات النخيل - وأخذوا ينادونه.

توفي مالك الفيلا، الطبيب الفرنسي، من دون أن يتبقى أيّ أثر مادي له، كما فهم ساندز، سوى طبقة رقيقة على جدران نفق، غير أن أحذيته ما زالت مصطفة عند باب البيت، ثلاثة أزواج، صندلان، وخفان، وجزمة مطاطية خضراء فاتحة. أما حذاؤه الرياضي فقد تلاشى مع بقية جسده. وقد جاء الطبيب، د. بونكيت، من أوروبا في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي برفقته زوجته التي عادت– بحسب الباباسان السيد تاو – بعد فترة قصيرة جداً إلى مرسيليا، والتي لم يبق في أرجاء البيت أيّ أثر يدل على عيشها يوماً فيه، إلا إذا كانت هي التي اختارت ورق الجدران في حمام الطابق العلوي، الحوريات الكثيرات البرّاقات. بيد أن الطبيب المختفي خلّف حضوراً طاغياً، فمنذ وفاته بقي كل شيء في البيت على حاله. في حجرة المكتب عالية السقف بجوار غرفة المعيشة اختفى سطح مكتبه الضخم المصنوع من خشب الماهاجوني تحت الكتب والصحف التي ثبتت بتمثال من الخزف يمثّل أذناً بشرية – من الداخل والخارج – مع أجزاء قابلة للفصل، إضافة إلى دواة وصحن سجائر، وما إلى ذلك من أشياء، وقد مالت علبته التي تضم ثلاثة

غلايين ميرشوم[1] في زاوية صغيرة، وثمة ريقات من الصحف أو أوراق التواليت البيج الصلبة التي تلعب دور مؤشرات الصفحات تنبثق خارجة من مواضع عدة، ولابدّ من أن إحدى هذه الصفحات تؤشّر إلى آخر كلمة قرأها قبل أن يضع نظارته جانباً، ويخرج للنزهة، ويتبخّر. ما عدا ازدحام مكتبه كانت حجرة المكتب نظيفة مرتبة، وقد غطّي أثاثها بصفحات من صحيفتي سايغون بوست ولوموند وأغلقت مصاريعها. فتح سكيب برقة أغلفة الكتب، محاذراً ألا يبدّل أمكنتها، وكأن مالكها قد يأتي متفحصاً. كان الطبيب يعامل صفحات الكتب بفظاظة، إذ تلطّخت ببقع من الشاي والحبر، وعلّمت فقرات كبيرة منها بالخط العريض. وقد كتبت، فوق تاريخ اقتناء الكتاب، بخط اليد نفسه، على الصفحة الداخلية من غلاف كل كتاب كلمة «بونكيت». لم يعثر على كتاب واحد من دون هذه الكلمة. إضافة إلى ذلك فقد جمع الطبيب أعداداً تعود إلى سبعة عشر عاماً من مجلة «الأنثروبولوجي»، وهي فصلية بحجم كتاب، 68 عدداً مرقماً لها أغطية ورقية سميكة، كلها بلون البيج. والعديد من الدوريات الأكاديمية التي صنّفت جميعاً بحسب السنة في الورق البني نفسه. كتاب له غلاف قماشي خمري داكن بعنوان «نيكولاس نيكلبي»[2] كان الوحيد باللغة الإنجليزية. كان سكيب قد قرأه في الجامعة ولم يستطع أن يتذكر منه شيئاً سوى أنه في مكان ما منه يصف ديكنز الأمل البشري بأنه شيء «كونيّ كالموت».

بعد أسبوع عاد هاو كما وعد، محضراً معه الكثير من الصناديق الكرتونية غير المجموعة لتخزين أغراض الطبيب بوكيت، إضافة إلى بريد سكيب. سرّ سكيب بالصناديق التي لم يطلبها، إنما التي خمّن هاو أنه سيحتاج إليها. تضمّن البريد رسالة مجنونة يائسة من كاثي جونز. من الواضح أنها في هذه الأيام تلعب دور

(1) معدن أبيض رقيق يصنع منه نوع من الغلايين.

(2) Nicholas Nickleby: رواية تشارلز ديكنز الثالثة نشرها متسلسلة بين عام 1839 و1839.

الارتباط بين مؤسسة «ICER»[1] والعديد من دور الأيتام، وحياتها الجديدة الآن، الأشياء التي شهدتها، حولت إيمانها الكالفيني بالجبرية - أو كما اعتبره سكيب إيمانها القاتل[2] بالكالفينية - إلى شيء قاتم تماماً:

ربما هناك أشياء لا تجدر بي قراءتها. لكنني أودّ أن أخبرك أيضاً بأنني آمنت بالجبرية منذ زمن، وحتى قبل أن أتيقن من موت تيموثي. بعض الناس مقدر لهم منذ بدء الخليقة أن يعيشوا في الجحيم إلى الأبد، وفي رأيي إنهم لا يحصلون حتى على طعم الحياة الاعتيادية، بل يبدأون بعيش جحيمهم منذ الولادة، لقد رأينا ذلك، وأعرف أنك رأيته على الأقل في دامولوج، وإذا كنت قد وصلت إلى فيتنام، فإنك بلا ريب تشاهده بالألوان، وأنا أشفق عليك، لكنني أضحك.

ربما بعضهم في الجنة، وبعضهم في الجحيم، وبعضهم في اليمبوس[3]، أو أن العوالم تنفصل جغرافياً - في حقيقة الأمر، هل سبق وأخبرتك بأنني وجدت الإشارة إلى «الخدم المختلفين» التي سألتني عنها عندما كنا نمارس الحب ليلة بعد ليلة في وكر شغفنا المهلوس الصغير في دامولوج؟ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورينثوس، أهو الإصحاح الثاني عشر؟

صحيح، لقد تحققت منه الآن، 12: 6/5

إلا أنني لم أتعرف الاقتباس في ترجمة الملك جيمس، وأنا معتادة على «الترجمة الأمريكية المنقّحة»[4] الذي يقول «وأنواع خدم موجودة، لكن الربّ

---

(1) International Council of Religious Education: المجلس الدولي للتربية الدينية.

(2) لعب على مفردتي Fatalism، أي الجبرية، و fatal أي القاتل أو الفتّاك.

(3) Limbo: أو المطهر، في العقيدة الكاثوليكية هو حيّز يقع على مشارف السماء تسكنه أرواح البررة من غير المؤمنين وأرواح الخيرين الذين نشأوا في أزمنة الكفر ولكن لا جناح عليهم لعدم إدراكهم رسالة السيد المسيح.

(4) تعود «ترجمة الملك جايمس» إلى العام 16011 وهي الترجمة المرخصة من قبل الكنيسة للكتاب المقدّس من اللاتينية إلى الإنجليزية. أما الترجمة المنقّحة فهي ترجمة أنجزت للكتاب المقدس في منتصف القرن العشرين، بناء على الترجمة الأمريكية المرخصة من قبل الكنيسة الصادرة عام =

نفسه؛ وأنواع عمل موجودة، ولكن الله واحد الذي يعمل الكلّ في الكلّ». لذا فإن «أنواع التدبير»[1] مترجمة بصورة مناسبة أكثر إلى «خدمة» - وهي لا تشير إلى نظام ملائكي ما، أفهمت الفكرة؟

أتمنى لو كنت هنا لكي أتكلم معك، إلا أننا لا نتكلم كثيراً، أليس كذلك؟ كل مرة نكون فيها معاً ينتهي بنا الأمر سريعاً إلى «أن نجتمع معاً». بالكاد أعرفك. إلا أنني أكتب لك.

هل تقرأ هذه الرسالة حتى؟

في حقيقة الأمر لا، لا.

بين شلالات المطر هبّ نسيم من الغدير أجفل البق وأبقى المكتبة منعشة. صار يمضي الأماسي في رداء الطبيب الحريري، منقباً في مكتبته التي تحتوي على زهاء 800 كتاب فرنسي، وفي البداية بالكاد تجاوز الصف السفلي.

شغل نفسه في تركيب الصناديق الكرتونية. وقد جلب له هاو لفافة من لصاق الورق، بيد أنها تحوّلت بفضل هذا الطقس إلى عجلة صلبة ملتصقة ببعضها وغير قابلة للاستعمال. منذ ماركو بولو، فكر، هذا المناخ هزم الحضارة الغربية.

أرسل السيد تاو إلى متجر القرية لكي يحضر له الحبال وأخبر السيدة ديو إنه ذاهب لاحتساء الشاي مع القسّ.

يقع بيت الأب باتريس الصغير على بعد بضع مئات من الأمتار من الشارع الرئيسي، في نهاية درب مفروش بالألواح الخشبية الرثة للعبور بين الحفر.

كان الأب باتريس كثير التنقل في المنطقة، فلم يمضِ ساندز الكثير من الوقت

= 1901، وكان الهدف من الترجمة المنقّحة تسهيل الكثير من الألفاظ والتعابير التي باتت تعدّ مهملة في اللغة الإنجليزية مما يعوّق فهم الكتاب المقدّس بالنسبة إلى الأجيال الشابة.

(1) هي في ترجمة الملك جايمس differences of administrations التي يفهم منها أن «الخدم» أو المدبّرين إنما هم ملائكة يتولون أمور البشر أو على الأقل هكذا كانت قد أشارت كاثي سابقاً.

معه. حتى إنه لم يخبره بأنه كاثوليكي. ربما لن يفعل. ربما، فكر، سئمت من عقيدتي. ليس لأنها اختُبرت وتحطمت، مثل عقيدة كاثي، بل لأنها لم تمارس فحسب. والكنيسة الصغيرة المشرّعة ليست إلا سقفاً من الصفيح رفع على أعمدة خشبية فوق أرضية خرسانية، أهنا تحدث دراما الخلاص؟ وجد القس، رجل صغير في حديقته الصغيرة، له وجه دائري شبيه بوجه القرد، تتوسّطه فتحتا أنف أكثر مما هما أنف، وعينان ضخمتان جاحظتان كعيون عظاءة. وأكثر من كونه إكزوتياً بدا من الفضاء الخارجي. أحضر لضيفه الشاي الحار في كوب لشرب الماء وجلسا في الحديقة على مقعدين خشبيين رطبين في حين الشتوة الأخيرة ما زالت تقطر من نباتات البونسيتا الاستوائية الطويلة. جرّب ساندز لغته الفييتنامية.

«لفظك جيد»، قال له الشاب، ثم أخذ يتكلم بصورة غير مفهومة لنحو نصف دقيقة، وكان سكيب قد تمرن على فييتناميته مع خادمي الفيلا ووجدها ميئوساً منها.

«آسف جداً، لكنني لا أفهم، أيمكنك التكلم ببطء أكثر».

«سوف أتكلم بمزيد من البطء، آسف».

«هلا كررت ما قلته رجاء؟».

«أجل بالطبع، كنت أتمنى لك أن يمضي عملك جيداً هنا».

«أظن أنه كذلك، شكراً لك».

«أنت مع المجلس المسكوني الكندي».

«أجل».

«إنه مشروع لترجمة الكتاب المقدّس».

«لدينا العديد من المشاريع. وهذا أحدها».

«أأنت أحد المترجمين سيد بينيت؟».

«أحاول تحسين لغتي الفييتنامية. من المحتمل أن أساعد لاحقاً في الترجمة».

«لنتكلم بالإنجليزية»، قال له القس بالإنجليزية.

«كما تحب».

قال الأب باتريس: «هل سأسمع اعترافك؟».

«لا».

«الحمد لله، أنت لست كاثوليكياً؟».

«أنا من الأدفنتست السبتيين».

«لا أعرف شيئاً عن أتباع هذا المذهب».

«إنه مذهب بروتستانتي».

«بالطبع. الرب لا يبالي من هو بروتستانتي، ومن هو كاثوليكي. الرب نفسه ليس كاثوليكياً».

«لم أفكر في هذا».

«ما هو كون الرب هذا؟ أهو مسرحية؟ أهو حلم؟ ربما كان كابوساً»، ابتسم القس إلا أنه بدا حانقاً.

«هذا سؤال كبير. أظن أنه يرتقي إلى مستوى اللغز».

«إنني أقرأ أحد أروع الكتب».

انتظره سكيب حتى ينهي كلامه، إلا أنه لم يقل شيئاً عن الكتاب.

«لقد التقيت السيد الكولونيل ساندز، هناك في فيلتك. أهو صديقك؟ زميلك؟».

«إنه عمي، كما أنه صديقي».

«الكولونيل يذهلني. لا أفهمه. لكن لا أظن أنه يجدر بنا التكلم عليهعنه صحّ؟».

«لست متأكداً من مقصدك».

«أظن أننا يجب أن نحدّ أنفسنا».

رأى ساندز أن القس رجل حاذق لكنه لا يستطيع إنهاء أفكاره بالإنجليزية.

سأل القسّ:

«أتستطيع مساعدتي على جمع الحكايات الشعبية في هذه المنطقة؟».

«الحكايات الشعبية؟ أتقصد قصص الجن؟».

«أجل، إنها هواية شخصية لي. لا علاقة لها مرتبطة بعملي».

«لا علاقة لها بعملك على الكتاب المقدّس؟».

«حسناً، بالطبع تساعدني كمترجم. تساعدني على فهم لغة الخرافة».

«لكن هل تقول إن الكتاب المقدّس خرافة؟».

«على الإطلاق. أقول إنه مكتوب بلغة الخرافة».

«بالطبع. بالتأكيد. يمكنني المساعدة. أتحب الأغنيات أيضاً، ربما؟».

«الأغنيات؟ بالطبع».

«سوف أغني لك أغنية فيتنامية»، قال القس.

حملق في عيني سكيب. بدت ملامح وجهه تصفو، وكذلك نظراته. طوال دقيقة تقريباً غنى بصورة رائعة تماماً بصوت واضح وقوي، غير مرتبك، منطلق تماماً. كانت النغمة عالية وفيها شيء من التوق.

«أتفهم الأغنية؟».

ظلّ سكيب صامتاً.

«لم تفهمها؟ إنها تتكلم عن جندي يرابض طوال ثلاث سنوات في قاعدة متقدّمة، بعيداً عن قريته. إنه مستوحش جداً ويعمل جاهداً على قطع الخيزران طوال اليوم. جسده يؤلمه. يأكل فقط براعم الخيزران وبعض الفاكهة، وليس له من أصدقاء سوى الخيزران. ويرى سمكة في الحوض، تسبح وحدها، أيضاً بلا أصدقاء. أظن أننا كذلك - السيد بينيت والأب باتريس. ألا توافقني الرأي؟ أنا بعيد عن بيتي وقريتي، وأنت بعيد عن كندا».

لم يقل المزيد.

«أهذه نهاية الأغنية؟».

«النهاية. يرى السمكة تسبح وحيدة».

«أظن أن فيك روح أيرلندية سيدي».

«لماذا؟».

«ألأيرلنديون يحبون الغناء».

«أحياناً هناك مسابقات في الغناء، وأنا أحتل موقعاً جيداً جداً. هذه هوايتي أيضاً، مثل هوايتك. في هذه المنطقة، على كل رجل أن يغني. يجب أن نغني للشياطين».

«حقاً؟».

«سيد بينيت، هذا صحيح، الشياطين حية هنا».

«فهمت».

«إذا فعلت شيئاً عديم الاحترام، على سبيل المثال إذا تبرزت في الغابة، فسوف تعاني من حيلهم. قد تسقط الأشجار عليك، أغصان ضخمة قد تنكسر وترتطم برأسك، أو تسقط في حفرة وتحطّم عظامك. قد تكون طريقة صادمة لمعرفة أنه ثمة أرواح هنا في الغابة».

قال سكيب: «أجل، سوف أشعر بالصدمة إذا حدث ذلك لي».

«بعض الأطباء الصينيين في الإقليم يمارسون طبهم هنا. إنهم ملمون بشأن هذه الأرواح. سوف أصحبك إلى الدكان يوماً ما. أترغب في الذهاب؟ لديهم هناك أمور مذهلة. وهذا الطبيب الشعبي يحتفظ عملياً بكافة أجزاء نمر في مرطبانات وعلب صغيرة. إذا طحن العظام وأطعمها لكلب فسيصير الكلب شرساً. أتعرف أنه حتى الشمع من أذني النمر يمكنه أن يشفي من مرض ما؟ والشعر القاسي من ذيل الفيل يمكنه أن يقلل ألم المرأة خلال المخاض. كما أنهم يطحنون أسنان الفيل لوعظامه كي يدهنوا بها بعض أنواع الجروح لشفائها. ويطحنون عظام الغزال ويخلطونها مع الكحول لكي يصنعوا نوعاً شريراً من الشراب. وهذا يجعل الرجل قوياً جداً في الجنس. وحيوانات أخرى أيضاً. العديد من الأفاعي. العديد من الحيوانات. ربما الحشرات أيضاً، لا أعرف. الطبيب الصيني ملمّ بهذه الأمور».

«سوف أستمتع على الأرجح بمشاهدة مجموعة كهذه».

«كل شيء ليس خرافياً مع هؤلاء القوم. بعض الأشياء موثقة سلفاً. القبائل تقيم المعابد والمذابح في الغابة. بيت صغير للأرواح مصنوع من البامبو، ربما من أصداف جوز الهند. الأرواح هنا، تعيش هنا، يجب أن أصدق ذلك من الأدلة. كما في حالة شاب تبول بطريقة مزدرية أمام مذبح في الغابة، ثم عانى انهياراً عقلياً تاماً».

«شيء صادم».

«اسمي ثونغ نات»، قال الأب باتريس «أتمنى أن تصبح صديقين».

«أتطلع قدماً لذلك، أرجوك نادني سكيب».

وهكذا مضى الأمر، شرب الشاي مع القس، نزهات عندما لا يكون مطر، تمارين رياضية. اعتاد على تصفّح مجلات الطبيب الفرنسي، مترجماً فقرات قد علّم تحتها الطبيب. كما اعتنى بملفات الكولونيل. أحياناً يسمع أصوات مروحيات ومقاتلات وقاذفات بعيدة، ويشعر أنه عالق في فقاعة زاهية من عدم الأهمية.

في الزيارة التالية أحضر هاو رسالة من الرائد إدي أجوينالدو، مرسلة من السفارة في مانيلا إلى سفارة سايغون، في سان فرانسيسكو.

لقد قررت الزواج من شابة رائعة تماماً. بالتأكيد أعرف أنك ستفاجأ. أستطيع أن أتخيلك واقفاً أمامي فاغراً فمك دهشة. اسمها إيموجين. وهي ابنة سيناتور فيلانويفا. أنوي أن أصبح سياسياً محلياً، ليس فاسداً كثيراً، إنما ثرياً بالتأكيد، ويمكنك الاعتماد عليّ لمساعدتك في جني المال إذا عدت إلى أرضنا الجميلة.

تلقيت زيارة مثيرة للفضول من «السيد فلان»، من دائرتك السياسية في مانيلا. أتردد في الإشارة إليه بتحديد أكثر من ذلك. لقد عبر عن اهتمام كبير بصداقتنا وعلاقتنا، أعني صداقتي، وعلاقتك. أتمنى أن تفهم من أقصد. وهذا

القدر من إبداء الاهتمام من قبل السيد فلان غريب جداً على جماعتك. يجب أن أقول إنه ترك فيّ بعض الاضطراب. وبعد رحيله ذهبت فوراً إلى الخزانة لكي أسكب لنفسي شراباً قوياً، والآن جلست لكي أكتب لك هذه الرسالة فوراً. أشعر أن ثمة ما هو طارئ. لم يمكن الاعتماد عليّ لمعرفة كل شيء، لكنني أكشف لك عن إحساسي بالأشياء والذي يطلعني بأنه يجب التكلم إلى صديقنا وعلاقتنا حول هذا الأمر فوراً. حول الاهتمام القوي به، حول النبرة العدوانية من قبل شخص يفترض أن يكون زميل صديقنا وعلاقتنا. أظن أنه عليك أن تحذره فوراً لكي يبدأ بأن يلحظ النظرات الاعتيادية حتى عندما يشعر بأنه في أأمن أحواله.

سكيب، في ميندناو كان ذلك عملاً أخرق. غلطة لا تغتفر، وتستحق الكثير من الندم. لا يمكنني قول شيء أكثر من ذلك.

بكل إخلاص

«إدي»، بيد تلقي التحية

حلم جايمس بمعارك حامية الوطيس: رأى نفسه يطلق رصاصاً عديم النفع من بندقية معطلة. الأحلام هي بمثابة رسائل، يعرف ذلك، ويمقت هذه الرسائل بالتحديد، تلك الإنذارات بأنه في المعارك سيكون بلا حول ولا قوة، من دون ان يعني ذلك أنه شهد أي معركة خارج هذه الكوابيس.

المروحيات الآتية والذاهبة من منطقة المهبط تحمل الإمدادات فحسب، لا فرق قتالية. ومن وقت لآخر جريح ما يجب إنزاله لأنه لم يستطع المضي أبعد من ذلك، لكن جنود «إيكو» كانوا يسمعون فحسب عن هذه الأمور.

لم يمانع جايمس الدوريات. الدورية تستغرق يومين. تمضي كتيبتك غرباً في خط متعرج، عبر منطقة المهبط، وحولها باتجاه الجنوب، على طول طريق قديمة إلى الأرض البور المليئة بالجروف، المتشكلة من الأعشاب الجافة – ثم عودة

إلى المعسكر. أو الالتفاف شمالاً، ثم شرقاً صعوداً عبر المهبط ثم نزولاً الجبل إلى المعسكر. وفي الطريق تخيم ليلة، ولا يحدث شيء على الإطلاق.

في الجانب الغربي من كاو فوك، كانت لا تزال فييتنام التي لم تمسسها بعد المبيدات العشبية والمليئة بالأجمات وحقول الأرز، حيث يستطيع العدو أن يكمن بسهولة، فكان يجدر به أن يكون مخيفاً، لكنه لم يكن كذلك. المزارعون انتشروا على طول السفح، مشتغلين في أرضهم، وملوّحين بالسلام دوماً. قيل إنه لم تكن لعائلاتهم أيّ مشكلات مع الفرنسيين أو الفييتكونغ أو الأمريكيين.

لا شيء يحدث على الجانب الشمالي أيضاً، إلا أنه لم يكن مأهولاً، وكان صخرياً، تخترقه الوهاد، وغالباً ما تلتقط وريقة شجر مقلوبة بصورة خاطئة الضوء فيلوح وميض أبيض عالياً فوق أحد الجروف - وكأن أحدهم يختبئ هناك - وترعبه. وأي جذع ساقط يبدو، للوهلة الأولى، أشبه بقنّاص يكمن بين حثالة العشب.

«ما هذا هناك؟».

«هذا روث فيل».

«أتظن أنهم يزرعون الألغام في هذه الأشياء؟».

«أوه أجل، أجل، أجل. إنهم يفخخون كل شيء لعين».

قال بلاك مان: «هذا روث ثور. ليس من فيلة في هذه الأنحاء».

«هناك الكثير منها».

«ليس على هذا الجبل. هذا غائط ثور».

«إنه كبير».

«الثيران كبيرة أيها المغفّل».

«ما هذا الذي يبرز من الغائط؟ فطر؟».

«الفطر ينبت من أي شيء لعين. ينبثق فوراً». قال بلاك مان[1] «ينمو بسرعة

(1) هكذا في الأصل Black Man كاسم لا كصفة، كما يحدث غالباً في تسمية الجنود =

شديدة إلى حدّ أنك تستطيع أن تراه في أثناء ذلك. بطريقة هورمونية وما شابه، إنها رحلة».

«حسناً، على أية حال، لم يكن ثمة ألغام في تلك الرقعة».

«هذه رقعة واحدة من الغائط التي احتلنا عليها».

«لقد رصدنا كومة البراز تلك».

«بقي أمامنا 76 مليون كومة أخرى فحسب».

«أجل»، قال بلاك مان «الكثير من الغائط الملغم ينقض علينا، روث فئران، روث خفافيش... لكنك لا تتلقاه، إنك تنحرف عنه فحسب بعقلك المطلق».

في الوقت الحالي كان بلاك مان الأسود الوحيد في معسكر «إيكو». بلاك مان فعل هذا. بلاك مان فعل ذلك. بلاك مان له اسم، إلا أنه ظلّ سرياً. «لا أريد أن يناديني أحد بأي اسم آخر سوى بلاك مان»، قال بإصرار «لن أعيش في ظل الاسم العبودي الذي أعطاني إياه أسلافي». غطى شارته التعريفية بورق لاصق، ورفض أن يطلع أحداً على مضمونها.

قال لهم بلاك مان: «أنا رجل أسود ولي عضو أسود. لكنه ليس بذلك الحجم الكبير. الكثير من الشبان يحبون الافتخار بعضوهم الضخم ذي العشر بوصات. لكن إذا كانت أعضاؤهم هذه بقوة عضوي البالغ ست بوصات، فإن هذا العالم المحزن سينفجر إلى اثنين. هذا مقدار القوة التي أملكها في عضوي الصغير ذي الست بوصات».

كان فيشر وإيفانز هما صديقا جايمس الوحيدان، أصدقاء مدى الحياة. فكر، أيضاً، ربما سارج يستلطفه. أما بالنسبة إلى بقية كتيبة إيكو، فكانوا يتكلمون بلغة غريبة، ومعظم الوقت شعر جايمس بالخوف والغضب وبأنه منبوذ من قبلهم.

اشتاق إلى البيت. الآن فهم ما الذي لابدّ عناه لشقيقه بيل أن يتصل من هونولولو إلى الهاتف في مطبخ أمه. ندم على بروده الاعتيادي مع شقيقه عندما

= لبعضهم بعض.

كان يتصل. تخيلات يتكلم ويضحك فيها مع شقيقه، ومع أصدقائه، ويسيطر على أوغاد إيكو أولئك، أحلام بألا يكون هنا، أن يكون في أي مكان إلا هنا، أن يكون في مكان ما يكون مكاناً آخر، ألا يكون قد سمع بحياته بهذا المكان.

يمكنك الحصول على إذن مغادرة ثم على توصيلة إلى قاعدة الفرقة الخامسة والعشرين مشاة أو حتى إلى سايغون على إحدى تلك الشاحنات التي تذهب من المهبط كل يوم.

لم يكن السارج، الرقيب هارمون، مختلفاً كثيراً عن الآخرين مثلما أوحى في البداية. كان بذيء اللسان يحتسي الجعة، وإن كان لا يشرب أكثر من قنينة أو اثنتين في الجلسة الواحدة، أما رذيلته الأخرى الوحيدة فكانت مضغ التبغ، النشوق، وقد أسمى بعض الفتيان ذلك تخزيناً، وكانوا يحذون حذوه في ذلك، انطلاقاً من إعجابهم به. كان يكبرهم في السن ويشبه الجنود في الأفلام الحربية - شعر أشقر فاتح جداً وعينان زرقاوان ووجه مسمر، وابتسامة تمتد إلى زاوية فمه مثل إلفس بريسلي، فتظهر إحدى أسنانه المكسورة في ذلك الجانب، لكن أسنانه كانت ناصعة البياض، ولم تبد بذلك القدر من السوء، وشعر جايمس إلى حدّ ما أنه لا يمانع بأن تكون له سن مكسورة مثل هذه. وكانت لفيشر سن مكسورة أيضاً، إلا أنها بدت من النوع الذي ترغب في أن تصلحه. كما أن الزيّ العسكري الذي يرتديه الرقيب يناسبه تماماً، حتى يجعلك تشعر بأن الجو الاستوائي ليس بالقائظ حقاً.

كان فلات قد تنبأ بأن رواتبهم لن تجد طريقها إليهم هنا في ظل جبل الحظ السعيد، إلا أنه كان مخطئاً، وحتى شهر مايو دأب جايمس على إرسال جزء من راتبه الشهري إلى أمه في فينيكس. وذات مرة أرسلت له رسالة قصيرة في مغلّف كبير، وقد كتبت على ورقة زهرية، لا بدّ من أنها سرقتها من مكان ما. شكرته في الرسالة قائلة: «إننا نبلي حسناً، الرب يوازي بين مدخولنا ونفقاتنا».

كان يوم الجمعة الثاني من شهر يونيو مختلفاً بعض الشيء. كان عيد ميلاد

جايمس في اليوم السابق، فحصل هو وفيشر وإيفانز على إذن مغادرة من المعسكر وذهبوا إلى القرية. قرر إيفانز أنه عليهم جميعاً أن يمارسوا الجنس. «هيا»، قال «إننا في حرب. إننا رجال».

«لا أرى أية حرب».

«إنها في كل مكان حولنا، أو على الأقل في مكان ما حولنا، ولا أريد أن أموت فيها قبل أن أمارس الجنس».

ذهبوا إلى الحانة القرمزية، وفوق أكياس محشوّة بالقش في صف من الأكواخ الواقعة خلفها فقد إيفانز وفيشر عذريتهما، وخان جايمس ستيفاني دايل مع فتاة على الأقل ليست لها أسنان رهيبة، أو ليست لها أسنان - يستطيع رؤيتها - على الإطلاق، لأنها لم تكن مضطرة إلى الابتسام أو التكلم، وبالتالي لم يكن مطلوباً أي كذب للبدء بالأمور، ولا أيّ صدق أيضا، وراحت تئن كالمسعورة وحلقت به إلى الأعالي عبر غيمة من الشهوة الجذلة.

التقى المجندون الثلاثة بعد ذلك في المشرب. ما زال أمامهم ست عشرة ساعة من تصريح الخروج، وقد فعلوا حتى الآن كل ما يمكنهم فعله في العالم.

رفع إيفانز كأسه: «احصل على بعضه».

«بربّك».

«ماذا».

«لا تتكلم هكذا، هذا تكلف».

«متكلف في مؤخرتي. هذا ليس تكلفاً. إنها طبيعتي».

«طبيعتك إذن؟ أأنت احصل على بعضه؟».

«دعني أخبرك شيئاً يا رجل، دعني أخبرك شيئاً أيها اللعين»، مسح إيفانز الجعة عن ذقنه وقال «طيب، طيب، لقد كنت بكراً، ها أنا ذا أقرّ بذلك. كانت هذه المرة الأولى لي».

حملقا به حتى وجد نفسه مضطراً إلى أن يسألهما: «ماذا عنكما؟».

قال فيشر: «أجل، وأنا أيضاً».

«حسناً، وأنت كاوبوي؟».

«لا، لم أكن».

«أنت متمسك بهذه الكذبة».

«أجل».

«حسن. لطالما كنت أكثر تقدما منا بقليل».

«لكن ثمة كذبة سئمت منها. اليوم ليس عيد ميلادي التاسع عشر، إنه الثامن عشر فحسب».

«ماذا؟».

«ماذا؟».

«لقد بلغت الثامنة عشرة فحسب».

«تعني أنك كنت في السابعة عشرة».

«بكل تأكيد».

«يا إلهي! لقد كنت طفلاً».

«ليس بعد الآن».

مدّ إيفانز يده عبر الطاولة المتهالكة لكي يصافح يده. «حتى إنك أكثر تقدماً مما توقعت».

احتفاء بعيد ميلاده، تكفّل جايمس بجولات عدة من الشراب. كان سعيداً منتشياً ضحوكاً. الآن بعد أن وصل إلى حيث الرطوبة رهيبة والجعة رخيصة ومطلقة، فقد فهم بالفعل معنى الجعة والغرض منها.

شربوا حتى هبط الليل. فيشر، الكاثوليكي، وقع تحت وطأة غيمة سوداء من الندم. «سوف أصاب بمرض جنسي بالتأكيد».

«لا يمكن للمرض الجنسي أن ينتقل بوجود الواقي».

«أجل»، قال فيشر الشاعر بالذنب «هذا إذا تمكنت من فتح العلبة».

«ماذا؟».

«لم أستعمله! لم أستطع فتح العلبة الصغيرة! كانت أصابعي ترتعش توتراً!».

«استعمل أسنانك في المرة المقبلة، أيها المغفل المثير للشفقة».

عادوا في العتمة. رفض فيشر أي مؤاساة قدماها له «سوف يبتليني الربّ بمرض جنسي».

«هل ستؤدي شعيرة الاعتراف بسبب هذا؟».

«يجدر بي ذلك».

قال إيفانز: «الكاثوليكية توحي بالشهوانية...».

بدا فيشر مجروحاً: «هذا كلام شرير حقاً».

«أتعتنق ديانة ما؟»، سأل إيفانز جايمس.

«الآن أعتنق، أجل بكل تأكيد. عقيدتي هي الجنس المقدّس».

لم يكن أحد منهم يحمل مصباحاً يدوياً، فأعيتهم الرؤية، فأخذوا يرتطمون بالطين الذي جفّ حتى استحال حجارة، ويتعثرون ما بين الحفر. هتف إيفانز: «لقد فعلناها!».

«أعرف! لقد فعلناها! كان ذلك مثل...»، كان فيشر عاجزاً عن الكلام.

«أعرف!»، قال إيفانز «إنه مثل اللعنة... لقد قذفت بقوة رهيبة حتى كاد ينفجر عضوي».

رجاهما فيشر: «هيا يا شباب، أصدقاني القول، هل استعملتما الواقي؟».

«بكل تأكيد استعملت الواقي».

«يحسن بك أن تستعمل واحداً في المرة المقبلة»، قال جايمس لفيشر.

«أي مرة قادمة؟ لن أفعلها ثانية أبداً».

«هراء».

«أرجو من الرب فقط ألا أصاب بمرض جنسي. يؤلم كالجحيم أن تتبول، ثم

إن الإبرة تؤلم أيضاً».

«إنها أشبه بالسكين في مؤخرتك».

«إنها ثاني أسوأ حقنة بعد داء الكلب».

«على الأقل لا يصاب المرء بهذا الداء من عاهرة».

«حقاً؟».

«اللعنة، لا أعرف».

«ليس إن لم تعضك».

حاولوا، لدى عودتهم عادوا إلى المعسكر، البقاء هادئين، لكن مع عثورهم على الملجأ الرابع، همس إيفانز بصوت مرتفع «لا أصدق ذلك! إذا كنت سأموت، فعلى الأقل لن أموت بتولاً».

جلس فيشر محدودب الظهر على سريره. بدا كالمصاب بدوار البحر «أشعر أنني شرير جداً. لم يكن عليّ فعل ذلك البتة. المرة الأولى لي، ودفعت المال لكي أقوم بها».

استلقى إيفانز على سريره، مربّتاً عضوه: «يا رجل، أريد أن أقبل عضوي لأنني مغرم جداً به لأنه قادر على المضاجعة!».

صاح أحدهم في حجرة أخرى محصنة: «حسناً ضاجع نفسك، واخرس».

ركع فيشر على الأرض في العتمة: «أرجوك يا رب، أرجوك يا مريم المقدسة ويا يسوع ويا كل القديسين، لا تدعوني أصب بمرض جنسي».

«لا أعرف كيف أصف هذا»، قال إيفانز، «ولكن بعد أن انتهيت كنت مضطجعاً فوقها وهي ضمت رجليها معاً ونوعاً ما... فركت ساقيها معاً.. وشعرت... شعوراً رائعاً حقاً».

قال جايمس: «كنت خائفاً طوال الوقت، وكأن في معدتي قرحة طوال الوقت، هنا تماماً»، ولمس أسفل عظام صدره «لكن للمرة الأولى في هذه الحفرة اللعينة شعرت أنني غير مضطر إلى الخوف بعد الآن. لأنني ثمل حقاً وقد بلغت

الثامنة عشرة أخيراً».

«أوه يا رجل»، قال فيشر «لقد امتصّت مادتي. لقد سلبتني طاقتي. إنهن يعملن لصالح تشارلي. أولئك العاهرات يعملن لصالح العدو».

في يونيو، خلال المطر، واعد رجل يدعى كولن رابابورت كاثي جونز على الطريق السريعة في موضع قريب من مركز التمريض الذي تعمل فيه في «سا ديك» في دلتا الميكونغ. جاء بسيارة لاند روفر. وكان يقوم بجولة لصالح «منظمة الطفولة العالمية»، التي كان يعمل لصالحها في تلك الأيام. ساعدها على وضع حقيبة ظهرها ودراجتها الهوائية السوداء المهلهلة في صندوق مركبته، واتجها إلى ميتم يبعد ثمانية كيلومترات على الطريق التي عبّدها الأمريكيون.

كانت قد التقته مرات عدة في مانيلا قبل زمن طويل. كان كولن نحيفاً حينذاك، أما الآن فقد اكتسب سمنة بعد أن عاش في الولايات المتحدة خلال العام الماضي أو أكثر. بينما يقود السيارة وضع جانباً قبعته القش ومسح جبينه بمنديل رطب. لطالما كان شديد الصلع. لا يمكن للمرء أن يكون أكثر صلعاً من كولن رابابورت.

«ما شعورك حيال زيارتك هذه؟».

«يا إلهي كاثي، كنت أحسب أن الفقر سيء بما فيه الكفاية».

«أوليس كذلك؟».

«أعني، لم أتساءل يوماً عما يمكن أن تفعله الحرب».

«بعد مدة تصبح طريفة فحسب. لا أمزح. تصاب بالسأم إلى درجة أنك تبدأ بالضحك».

حين وصلا إلى ميتم الإمبراطور «باو داي»، وجدا مجموعة من النزلاء الرثين يقطعون حفنة من الخضروات المتعفنة، في قدر تغلي من مياه المطر. «ها هو فان»،

قالت لرابابورت حين اقترب منهم أحد الفتيان راكضاً وهو يمسح يديه بقميصه «مس كاثي، رائع منك أن تزورينا، تعالي، سأصحبك». قال فان مصافحاً رابابورت، وهو يقودهما عبر الدرج المعتم إلى الطابق الثالث من هذا المعمل السابق، حيث يعيش في ست زرائب مسورة بالأسلاك وزّعت على الأرضية المفتوحة الفسيحة مئتا طفل، مرتّبين وفقاً لأعمارهم. كان المكان يعجّ بالذباب ورائحة البول والفضلات. جعل فان الأطفال البالغين من العمر ثماني سنوات ينهضون ويقفون في طوابير في سراويلهم القصيرة وقمصانهم القطنية الرثة المهترئة لكي ينشدوا أغنية ترحيباً بالضيفين، والتي وقف خلالها رابابورت ساكناً وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة متجلدة، ثم عادت به كاثي عبر الدرج ثم إلى الخارج إلى جناح مرضى الملاريا، وهو كناية عن سقيفة سقفت بالتنك، يضطجع في داخلها اثنا عشر مريضاً في العتمة والصمت. تنقّلت كاثي بينهم متفحّصة عيونهم وأفواههم «لم يمت أحد منهم»، قالت لكولن.

حين خرجا رأيا اثنان من الأيتام يحملان قدراً إلى المبنى الرئيسي، وأحدهما يحمل مغرفة بيده الأخرى.

قال كولن: «أوه يا إلهي، هذا طعامهم».

أخذته إلى ظلّ شجرة وقعدا على التراب.

قال: «حسبت هذه قمامة، مياهاً وسخة».

«نحن في المطهر نترنّم إعجاباً بالجحيم».

«أظن أنني فهمتك».

جاء فان يحمل كوبين من الشاي.

قالت كاثي: «هيا اشربه إنهم يغلون المياه».

وضع كولن الكوب بين رجليه. أخرج سيجاراً من جيب صدرته الأيسر وولاعة من الجيب الأيمن «إنها فوضى، أليس كذلك؟».

«الكوكب برمته. زمن شرير... أنا آسفة، إنني أتكلم كالمجنونة؟».

من الواضح أنه اعتبرها كذلك حقاً «لم تكن لدي فكرة عن مدى تعبك».

لم يقل المزيد بينما أنهى كوب الشاي. دخن معظم السيجار، ثم أطفأه بجذع الشجرة ووضع البقية في جيب صدرته.

سرعان ما بدأت تمطر بغزارة، وجلسا في اللاند روفر بينما يطرطش وابل المطر على المدخل الإسفلتي محولاً سطحه إلى مسكبة من المسامير الجليدية «سوف أرى إذا كنت أستطيع جلب الإمدادات لك هنا»، قال «أودّ أن أحوّل حمولة طائرة كاملة لك. أظن أنني أستطيع ذلك. سوف أرى».

«جيد، شكراً لك».

«أثمة أمر آخر يمكنني فعله؟».

«أيمكنني الحصول على بقية السيجار الذي في جيبك؟».

«أتمزحين؟».

«لا».

«أتدخنين السجار؟».

«من وقت لآخر».

«أظن أنه يستحسن أن ندعك تفعلين ما تشائين»، قال، «يا إلهي، يجب أن نحصل لك على بعض المساعدة».

قالت: «لدي لان ولي».

«من؟».

«سوف تلتقي لان. هي ولي تهتمان بالمركز في غيابي».

«أوه، حسن، أهما مدربتان؟».

«إنهما مصدر عون كبير. ليستا مؤهلتين بصورة رسمية. لكنهما فعالتان جداً».

«كاثي، لهذا السبب تركت ICER. إنهم يرمونك في وسط الأدغال فحسب مع خريطة وبوصلة».

«بيد أننا نتلقى المساعدة من كل مكان. الجنود الأمريكيون يعطوننا بعض المواد. نبذل قصارى جهدنا».

«الأمريكيون يساعدونكم؟».

«حصلت على نصف لتر من الكسيلوكاين الأسبوع الفائت. أمضيت يوم أمس وصباح اليوم في قلع الأسنان. إنهم يحبون الكسيلوكاين. وإلا يقصدون شخصاً محلياً يقوم بذلك بكماشة كبيرة واضعاً قدمه على صدورهم. وإذا لم يكن متوافراً فإنهم يخلعون السن بمسمار. مسمار نجارة. يتطلب ذلك اليوم بطوله. إنهم رواقيون جداً».

«ليسوا مثل الفلبينيين، صحّ؟».

«الفلبينيون لديهم اعتزاز كبير بالنفس، لكنهم ليسوا رواقيين».

«لا يخجلون أبداً من آلامهم».

«سواء أصدقت ذلك أم لا، فإنني أحب هنا أكثر. في هذا البلد لم يبق شيء سوى الحقيقة».

«ماشي إذن»، قال كولن، وأدركت من نبرته أنها لابدّ تتكلم بجنون ثانية.

حين عادت إلى مركز التمريض في ذلك المساء أرسلت مساعدتيها إلى البيت وقامت بغلي بعض الأرز في موقد بريموس.

خلال اليومين الأخيرين احتلّ طفل مريض أرجوحتها الشبكية. هرست أرزاً في زبدية بعقب يدها وأطعمت المريض من أصابعها، مسندة رأسه الأشبه بقشرة بيض فارغة بيدها الأخرى. الطعام لا ينزل في حلقه. جرّبت أن تشربه نقيع الأرز والكوكا كولا في رضاعة أطفال، لكن الطفل، وهو صبي في الخامسة أو السادسة لم يمتصّ السائل. في صباح الغد أو الذي يليه سيكون على الأرجح في عداد الأموات. وإذا عاش؟ مصيره في أحد زرائب ميتم «باو داي».

جلست على كرسي كبير من الروطان وأخذت تدخّن عقب السيجار الذي أخذته من كولن رابابورت. كانت القرية غارقة في الظلام. الأطفال يئنون

والكلاب تنبح والنساء ينادين بأصواتهم الصغيرة. الأضواء الأمامية لبعض الدراجات الهوائية تتحرك هنا وهناك بعيداً على الطريق. ظلّت تدخن حتى شعرت بالدوار واخضرار الوجه فرمت السيجار، ثم أعادت كرسيها إلى الداخل، ووضعته قرب لفافة طرد البعوض، بجوار الطفل الذي يتنفس بصوت عال على الأرجوحة الشبكية، وأغفت. في أحلامها رأت أناساً يتكلمون بجلاء باللغة الصينية وفهمت ما كانوا يقولون.

في الصباح التالي رفع الطفل رأسه من تلقاء نفسه وارتشف المياه والكوكا كولا من فنجان. كانت النجاة نسمة تلامس بعضهم ولا تلامس بعضهم الآخر. أتت بعقب السيجارة من حيث رمته، ونظفته بأصابعها ودخنته احتفالاً.

جاء السيد بوكيت، شقيق الطبيب المتوفي، إلى الفيلا على متن شاحنة صغيرة وسائق لكي يأخذ أغراض الطبيب المتوفي، ويرتب أمور ملكيته.

رتب ساندز الأمر بحيث يكون في الأثناء في القرية مع الأب باتريس، لكن حين عاد في نهاية اليوم، وجد الشقيق لا يزال هناك، فرنسي هرم إلى حدّ ما، ضخم الجثة، طويل الوجه، توحي ملابسه – سروال زيتي قصير وصديرية متناسبة معه تضمّ العديد من الجيوب – أنه ذاهب إلى الصيد، أخذ يهوّي وجهه بطاقية قماشية ذات خيط مطاطي يثبتها بالرأس. شرب وساندز الشاي معاً. كانت إنجليزيته أفضل من عادية. ولم يأت في البداية على ذكر أخيه، بل تكلم عن النساء «مع تقدّمي في السن، باتت تجذبني النسوة المسنات أكثر. الجلد الذي اعتاد أن يكون بشعاً، يمكن أن يبدو فاتناً الآن. الشرايين الرفيعة الأرجوانية، كما تعرف، الهزيلة جداً. إنه سرّ رائع. النوع الجديد من النعمة، نعمة النسوة الهادئات، إنهن حتى أكثر إثارة. الآن صرت أعشق النساء في رسومات عصر النهضة. ممتلئات جداً، وناعمات جداً من الداخل. هل لك عشيقة محلية؟».

لم يجب ساندز.

«لا؟ لا أعرف هذا البلد، لكنني ظننت أنه أمر اعتيادي أن تكون للرجل عشيقة. من الأفضل أن تكون أرملة. امرأة ناضجة، كما كنت أقول لك. تكون قد اختبرت الحب، وصارت تعرف كيف تتصرف في السرير».

«كنت فضولياً حيال أخيك»، كان هذا كل ما استطاع سكيب قوله.

«كان كلود توأمي. لكننا لم نكن متشابهين. وصلني خبر بموته، ولم أبك. فكرت فجأة، أوه لا، لا، لا. لم أعرفه، ولا قليلاً حتى. نشأنا معاً، لكننا لم نتكلم في أيّ شيء، عشنا في بيت واحد فحسب. فيما يخصني، كان أشبه بزائر، إنما لم يأتِ لزيارتي بل لزيارة والدي، أختي، شيء من هذا القبيل. الآن صبيحة اليوم، وقد رأيت كل شيء، هذا المنزل الذي عاش فيه، أعرف عنه أكثر بكثير مما عرفت من سنوات صبانا التي عشناها معاً. ناظراً في أرجاء هذا المكان تساءلت إذا كنت سأجد طبعة معينة من لوحة معينة كانت معلقة في غرفتنا في تلك الأيام. أجل أعرف، لا يعقل أن يكون ما زال محتفظاً بها بعد كل هذه السنوات. لوحة المهرج الراقد، أو اسم مشابه. مهرج مغمض العينين - أهو ميت؟ غائب عن الوعي؟ لماذا عيناه مغمضتان؟ ظلت لسنوات معلقة فوق سريره. وكانت تخيفني في طفولتي. وحقيقة أن المهرج لا يخيفه - كانت تخيفني أكثر. وقد عاش طويلاً في هذا المكان، ولم يكن خائفاً. أنا أشعر بالخوف». تنهد السيد بوكيت «لقد حمّلنا الصناديق كما ترى. شكراً لك لأنك وضّبت الكثير لنا. سوف أترك الأثاث وما شابه. أحد أفراد العائلة سيأتي للعيش هنا يوماً ما - حين ينتهي أمر الشيوعيين. حين تهزموهم. أما الآن، فسوف أؤجّر البيت لمجلسك المسكوني و...»، نظر إلى سكيب بطريقة مغايرة «أنت لست مع المخابرات أو شيء من هذا القبيل، صح؟».

«لا».

«حسناً»، ضحك، «لست قلقاً».

«لا حاجة إلى أن تقلق».

كان سكيب قد ترك جانباً بعض الأشياء القابلة للكسر، تاركاً للشقيق مسؤولية توضيبها. اختار السيد بوكيت أن يترك تمثال الأذن البشرية الخزفي. «لقد قطعت كل هذه المسافة إلى هنا. لا جدوى من إعادتها، من المحزن جداً أخذها. علينا أن ننقذ الكتب والأوراق من أجل مكتبة العائلة. شقيقتنا شغوفة بذلك. الأوراق، الأوراق. بالنسبة إليها هي إرثنا الوحيد، لكنني أقول لها، لَم يجب أن يكون لنا أيّ إرث على الإطلاق؟ الأشياء تدمر مراراً، الجيدة منها والرديئة على السواء. الكثير من الحروب والعواصف على الأرض. دمار فوق دمار. ماذا حصل لكلود؟ هكذا فجأة انفجر، لم يبق منه شيء. الأمر نفسه ينطبق علينا جميعاً - رماد، بوف، هذا هو إرثنا. لا. لن آخذ هذه القطعة. إنها بالغة الهشاشة». بأصابعه السميكة فصل الأخ كل جزء من الأذن وأخذ يتأمله- الأذن الخارجية مع صوانها وشحمتها، ثم القناة، والطبلة ثم تجويفة الأذن بالكامل. وحتى العظام الداخلية الدقيقة قد تمّت صياغتها بدقة. «آه! صغيرة جداً، كاملة جداً، قطعة أثرية، ربما كانت من أيام دراسته، أظن ذلك. حصل كلود على شهادته في 1920 أو 1921». قال فجأة: «أتعرف النفق الذي انفجر فيه كلود؟ أرأيته؟».

«لا، آسف، لم أفعل».

«أتتكلم الفرنسية؟ قليلاً؟».

انتقلا إلى التكلم بالفرنسية، وسرعان ما أصبحت المحادثة عادية. من الواضح أن هذا الرجل الضخم الصلب يستمتع بالحديث الصريح بلغة ليس ذرباً فيها بما فيه الكفاية حتى يتمكن من تمويه نفسه فيها.

حثّ ساندز السيد بوكيت على البقاء حتى الصباح، إلا أنه بدا خائفاً من أن يمكث الليل هنا، مع أن الطرقات ستكون خطرة. كل شيء أصبح في الشاحنة. رحل مع هبوط الظلمة.

قبل أسابيع من ذلك، كان السيد بوكيت قد أرسل رسالة إلى بريد المجلس

المسكوني الصوري، يحدّد فيه يوم وصوله. في الأثناء، صار ساندز متعلقاً إلى حدّ ما بنصوص الرجل المتوفي - بضع مجلات فصلية غامضة وكتب مغبرة - ووضع هذه الأشياء في خزانته، خبأها من أقرباء الطبيب وورثته. فغادر الشقيق من دونها.

وبعد أسابيع، ما زال ساندز يعمل على ترجمة الفقرات التي وضع الطبيب خطوطاً تحتها - كتابات فلسفية من وضع مفكرين فرنسيين لم يسمع بهم ساندز، وكان ثمة فيها فقرات مجردة تثير حنقه، على سبيل المثال من مقال يدعى «رحلة في بلاد التراهوماراس»، وهي من تأليف شخص يدعى أنطونان أرتو:

Que La nature, par un caprice étrange, montr tout à coup un corpse d) homme qu)on torture sur un rocher, on peut penser d)abord que ce n) est qu)un caprice et que ce caprice ne signife rien. Main quand, pendant des jours de cheval, le même charme intelligent se répète, et que la Nature obstinément manifeste la même idée; quand le mêmes formes la pathétiques reviennent; quand de têtes de dieux connus apparaissent sur les rochers, et qu)un thème de mort se dégage dont c)est l)homme qui fait obstinément les frais – et à la forme écartelée de l)homme respondent celles, devenues moins obscures, plus dégagéls d)une petrifiante matière - des dieux qui l)ont depuis toujours torturé; quand tout un pays sur la Terre développe une philosophie parallèle à celle des hommes; quand on sait que les premiers hommes utilisèrent un langage de signes, et qu)on retrouve formidablement agrandie cette langue sur les rochers; certes, on ne peut plus penser que ce soit là un caprice, et que ce caprice ne signifie rien.

مع قلم من الحبر وورقة بيضاء ومجموعة من القواميس دخل في معركة مع هذا الغموض الرهيب:

عندما - بنزوة غريبة - تصوّر الطبيعة فجأةعلى صخرة جسد رجل تعرض للتعذيب، يمكن أن يظنّ المرء أنها مجرد صدفة، وأن هذه الصدفة لا تعني شيئاً. لكن عندئذ، خلال أيام وأيام على صهوة حصان، يرى السحر الذكي نفسه يكرر نفسه، وعندما تعلن الطبيعة بعناد الفكرة نفسها؛ عندما تتكرر الأشكال المثيرة للشفقة نفسها؛ عندما تظهر رؤوس آلهة معروفة في الصخور، وعندما تظهر ثيمة الموت بصورة معاندة يدفع الإنسان ثمنها؛ عندما الجسد المبتور للإنسان يجاب عنه - بصورة أقل غموضاً، وأكثر انفصالاً عن مسألة تحجرية - بأشكال الآلهة الذين لطالما عذبوه؛ عندما تقوم منطقة بأكملها من الأرض بتطوير فلسفة موازية لسكانها؛ عندما يعرف الإنسان أن البشر الأوائل استعملوا لغة الإشارات، وعندما يكتشف أن هذه اللغة تبرز مضخّمة بصورة هائلة على الصخور؛ عندئذ بالتأكيد لا يسعه أن يفكر أكثر من ذلك أن هذه مجرد صدفة، وأن هذه الصدفة لا تعني شيئاً.

بيد أن ما قصد السيد أرتو الغامض إلى قوله بقي غير محدّد، كما ما يسميه بلد التراهوماراس، سواء أكان في مكان ما في العالم الجديد، أم في رأس أرتو فحسب[1]؛ إلا أن أسباب الطبيب لاختيار هذه الفقرة كانت واضحة: المسافر الأبيض في الأرض الغريبة المستغلقة.

كان الطبيب نفسه مستغلقاً. من الواضح أنه توقف عن ممارسة الطب قبل

(1) Taeahumaras هم سكان شمال المسكيك الأصليون، وقد عاش أرتو بين ظهرانيهم في أواسط الثلاثينيات من القرن العشرين، ووضع كتابه «رحلة في بلاد التراهوماراس» الذي نشر بالفرنسية عام 1945. وأنطونان أرتو هو المؤلف المسرحي المعروف صاحب ما يعرف باسم «مسرح القسوة».

وقت طويل من وفاته، إلا أنه أبى العودة إلى الديار. ظن ساندز أنه فهم.

وقد احتفظ ساندز، بالإضافة إلى الكتب العديدة، بأحد دفاتر الملحوظات، ملحوظات الطبيب السريعة الخاصة. سرقها. وقد كتبت هذه الملحوظات بخط يد مربع قوي وأخذ ساندز يترجمها، جنباً إلى جنب فقرات الطبيب المفضلة، وذلك في دفتر ملحوظات خاص به.

البروفسور العزيز جورج باتاي:

في مارس 1954قرأت مخطوط مقالتك «رسوم ما قبل التاريخ: لاسكوس، أو ولادة الفن» زذلك في مكتبة الفنون الجميلة في السوربون، حيث كانت زوجة أخي تعمل، كنت عائداً في زيارة إلى فرنسا من الصين الهندية حيث عشتُ زهاء ثلاثين عاماً.

تعرف سكيب العنوان –Naissance de l'art Lascaux, ou, La : – مجلد ضخم رائع يضمّ صوراً للتصاوير المرسومة على جدارن الكهوف في منطقة لاسكوكس في فرنسا؛ لام نفسه لأنه لم يحتفظ بالكتاب، غير أنه بدا له أكثر قيمة من أن يسرقه.

لقد اقتيت الكتاب مؤخراً، مع الصور الفوتوغرافية. إنه بالتأكيد رائع.

هل لي أن ألفت انتباهك إلى كتاب وضعه جان جبسر[1]، وهو بروفسور نمساوي متخصص في الحضارات المقارنة – أهو بعنوان الكهف والتيه؟ أقتبس من كتابه هذا:

«أن نعود إلى الكهف، حتى في الفكر، هو أن ننكفئ إلى حالة ما قبل الولادة».

«الكهف هو شكل أمومي، مطريركي، للعالم».

«كنيسة مريم قديسة البحر في كامارج في جنوبي فرنسا حيث يعبد الغجر سارة، المادونا السوداء».

(1) Jean Gebser (1905–1973): عالم ألسنيات وشاعر نمساوي.

(سيد باتاي: في إسبانيا ثلاثة آلاف غجري يعيشون في الكهوف قرب غرناطة).

(سيد باتاي: هل العقل هو المتاهة التي يشق فيها الوعي طريقه، أم أنه الفراغ اللامحدود الذي تبرز فيه أفكار محدودة معينة وتختفي؟).

(سيد باتاي: نفكر في الأشياء التي في الكهوف بوصفها سوداء، لكن أوليست هي بيضاء، شبه شفافة، شديدة البياض...).

«تيسيوس عبر دخوله المتاهة يعود إلى الرحم لكي يكسب ولادة ثانية محتملة - ضمانة ضد الموت الثاني المحتوم والرهيب».

(سيد باتاي: في العام 1914 اكتشف الكونت بيجو كهف الإخوة الثلاثة في البيرينيه -نفق يمكن اختراقه فحسب عبر ممر ملتو أشبه بقناة الولادة ينتهي بحجرة فسيحة مغطاة بصور من العصر الحجري تعود إلى 12000 سنة، وتمثل الصيد، بما في ذلك حيوانات منقرضة مذهلة. وكانت تستعمل هذه الحجرة لأدخال الفتيان إلى مراتب الرجولة في شعيرة تمثّل الموت والولادة الجديدة).

«إذا كان الكهف يمثل الأمان والسلام وزوال الخطر، فإن المتاهة تعبير عن السعي، عن الحراك، والخطر».

(... السعي إلى مخرج يا سيد باتاي، السعي إلى مفر؟ أم السعي إلى سرّ ما في قلب الأشياء؟).

(بعد أكثر من ستين سنة من حياتي، ها أنا أرى نفسي).

(فوضى، وتشرذم، وخوف: هذا ما يجتذبني: ما أشتهيه: أن أكون حراً).

مرحى!

رسالة بوكيت غير المنتهية إلى باتاي - وهي رسالة متقدة العاطفة، ومعقدة، ومسهبة - كان ما زال سكيب يعمل عليها.

بعد شهر في جحره هذا سمح للأب باتريس بإغرائه للخروج لمشاهدة النفق الذي اختفى فيه بوكيت.عبرا القرية ثم خرجا من طرفها الشمالي وسارا على طول الدرب المتجهة غرباً، بالكاد مسافة نصف كيلومتر. عند قاعدة سفح هضبة متأكلة بفعل المطر وجدا تجويفاً في الأرض، لا أكثر. فالانفجار القاتل قد قوّض المدخل، في حين عمل المطر على سده. كما أشياء كثيرة أخرى في هذا البلد، كانت أعماقه مقفلة دونه.

أعلن القس: «هذه ليست منطقة خطيرة، لم يكن النفق قيد الاستعمال».

«من وضع اللغم الأرضي؟».

«أنا واثق من أنه أخذ الديناميت معه. بعض الديناميت لكي يتجاوز المدخل المتداعي ربما، ثم فجر نفسه».

خلال مسيرهما عائدين إلى القرية قال سكيب للقس: «يسرّني أنني لم أضطر إلى الدخول».

«إلى داخل النفق؟ لمَ فكرت بذلك أساساً؟».

«لم أفكر».

«عذراً؟».

«أنا جبان أيها الأب باتريس».

«جيد، ستعيش أكثر».

جاء القس مرات عدة إلى الفيلا لتناول العشاء. ولو لم تكن واجباته تجاه الرعية تأخذه بعيداً لكان زاره كل مساء. كان الطعام رائعاً، فقد اتضح أن السيدة ديو تجيد تحضر الأومليت، والصلصات، والمقبلات، وكل ما يخطر على البال من الأطعمة بالفرنسية، وعلى الرغم من أنه لم تكن لديها في أكثر الأحيان مكونات إكزوتية، فقد كانت تقدم وجبات بسيطة شهية من السمك الطازج أو لحم الخنزير بالأرز والخضروات البرية، والفواكه المحلية للتحلية. وكانت تخبز الخبز في أقراص ذهبية ولفائف لذيذة: في هذا المكان، شعر ساندز، يمكنه العيش على

الخبز والماء فحسب.

خلال تلك الأسابيع العشرة الماطرة، لم يأت الكولونيل. وباستثناء زيارة القس لمرتين أو ثلاث مرات شهرياً، ونجوين هاو بالقدر نفسه تقريباً، بقي سكيب بلا أيّ رفقة، وعاد إلى عزلته الطبيعية - كان يعرف هذا عن نفسه، الطفل الوحيد لأم أرملة عاملة- إلى عزلة فترات بعد الظهر الماطرة في المدرسة. في أصغر الغرف العلوية الثلاث سعى وراء ندائه كحكم على التواريخ المتشظية في مل عمه «2242». سعي فاتر الهمة. لكان بمقدوره أن يتحمل هذا القدر فحسب في جلسة واحدة. بطاقات الكولونيل التصنيفية رتبت أبجدياً بحسب أسماء الأشخاص المستجوبين أو المذكورين في التحقيقات بين العامين 1952 و1963، في أرجاء ما بات الآن فيتنام الجنوبية. كان قد انتهى من مرحلة القص واللصق وبدأ بوضع عناوين عريضة جديدة لكل من البطاقات المزدوجة التسعمائة ألف، وبترتيبها وفقاً لأسماء الأمكنة المذكورة، بحيث أنه يوماً ما - ليس عما قريب - يصبح من الممكن مراجعة هذه المعلومات ربطاً بالمناطق والقرى والمدن. لماذا بادئ ذي بدء لم تصنّف ضمن هذه الفئات؟ ولمَ عليه أن يهتم؟ كما في كوردز/ الفينيق، فقد خرج الضباط وطرحوا الأسئلة، وسجلوا المحلوظات، وانتقلوا إلى مراكز أخرى. تاق لكي يتعثر بدليل يقوده إلى اكتشاف كبير ما - رئيس الوزراء كي[1] يتجسس لصالح الفييتكونغ، أو ضريح إمبراطوري يحتوي على الملايين من غنائم الفرنسيين - لكن لا، لا شيء هنا، كله بلا قيمة، تحسس ذلك بأصابعه على تلك البطاقات. ليس أن المعلومات كانت تافهة فحسب ومشوشة على غرار تلك الخاصة بكوردز/ الفينيق، لكن أيضاً تجاوزها الزمن. تلك البطاقات بقياس خمس بثلاث بوصات لم تعد سوى أدوات تذكارية. وبهذا كانت تنطوي على سحر ما.

في بداية أغسطس أحضر له هاو نزولاً عند طلبه قاموساً أكبر إنجليزياً فرنسياً،

(1) نجوين كاو كي (ولد في 1930): رئيس وزراء فييتنام الجنوبية بين 1965 و1967.

ومجموعة من الأوراق المصوّرة من الكولونيل: نسخة من مقالة شهيرة من مجلة «دراسات استخبارية» بعنوان «ملاحظات حول العميل المزدوج»، بقلم جون بي ديمر جونيور[1]؛ ومسودة جزئية لمقالة الكولونيل نفسه، تلك التي تسبّبت له ببعض المشكلات، وهي كناية عن سبع أوراق مطبوعة مع ملحوظات بخط اليد - أفكار أكثر إثارة من النصوص الفرنسية، أكثر شؤماً من إنذارات إدي إيجوالدو المبهمة. وهي من جهة منطقية تماماً، ومن جهة أخرى تنمّ بصورة مقلقة عن عدم الولاء.

كان قد الصق الكولونيل ملحوظة فوق مقالة ديمر «العميل المزدوج»:

سكيبر، فلتطلع على كتابات جي بي ديمر، وألق نظرة على هذه الصفحات من مسودتي. لدي المزيد، لكنه يفتقر إلى التنظيم. سوف أرسله لك على نحو متقطع، وإلا فستفقد صوابك وأنت تحاول فهم مضمونه.

تذكر ساندز جيداً بعد ظهر اليوم الأخير الذي سمع فيه للمرة الأخيرة عن «ملاحظات حول العميل المزدوج». لم يتذكره بسبب الإتيان على ذكره، بل بسبب تعليقات أخرى سمح الكولونيل لنفسه بإبدائها.

كان يأتي من وقت لآخر مع الرقيب ستورم لكي ينقذ ابن أخيه مؤقتاً من كوردز/ الفينيق، فيصطحبه إلى الغداء، وفي ذلك اليوم على سطيحة فندق نيو بالاس. أعلى الدرج لافتة تعلن «مهرجان الهمبرغر» المقام أيضاً في ذلك اليوم. لاحظ سكيب أن الطقس عاد غائماً، وعلّق جيمي ستورم: «ليس من سماء في المناطق الاستوائية»، كان جيمي بثيابه المدنية، وكان شديد الهياج، حتى ظنّ سكيب أنه قد تناول البنزدرين.

جلس الكولونيل بصورة منحرفة على كرسيه مسنداً يده اليمنى على الدرابزين، وقد امتدّ نصف مدينة سايغون الشرقي وراءه وأمامه بوفيه طويل، من الواضح أنه مخصص لمهرجان الهمبرجر، حاملاً بيده اليمنى كأس كوكتيل. قال:

---

(1) نشرت هذه الدراسة عام 1962.

«الوكالة في حالة صدمة. قضية كنيدي وخليج الخنازير تركتانا نرتعش. لا نعرف كيف نتصرف، كيف ننفذ مهماتنا. في كوبا نرتكب الحماقات كوكالة وكأمة في آن معاً. إننا روسيا النصف الغربي من الكرة الأرضية».

سأله ساندز: «وكيف ترى أمورنا هنا؟ في الوقت الحالي؟».

«هذا يعتمد على الفييتناميين يا سكيب. اعتدنا أن نقول (الأمر يعتمد على الفييتناميين)، ما دام هذا الكلام يبدو لغواً، لكن هذه هي الحقيقة. السؤال هو كيف نساعدهم؟ أنت، أنا، نحن، الجالسون إلى هذه الطاولة. أعني نحن الثلاثة. أظن أننا نتبنى مقاربة جديدة. يجب أن نكون أكثر عدوانية في التعامل مع المعلومات».

«عدوانية؟».

«نحن الثلاثة».

«نحن؟».

«السؤال حول جمع المعلومات الاستخبارية هو أين تتوقف عن القيام بالمبادرة؟ هل نخرج إلى هناك وننقض على الأدغال بعدوانية، نجمع كل شيء، بعدوانية، ثم نتركها بسلبية للآخرين لكي يقوموا بغربلتها؟ لا. الغربلة تستمر بلا توقف، عند كل مستوى من المستويات».

جيمي: «الانتخاب».

«وأنا لا أحب الانتخاب اللعين يا سكيبر. ما يجري غربلته، بين أشياء أخرى، هو تلك المعلومة المحددة التي ستجعل الحياة غير سارة لنا من خلال إقلاقها لمسؤولينا. وما يبقى هو كذبة تحط على سطح المكتب، كذبة سعيدة، كذبة بحجم عملاق».

جيمي: «عملاق سعيد».

«الأكاذيب تصعد إلى الأعلى وما يعاود النزول منها هو السياسة البائسة، السياسة الخاطئة. الأفكار الحمقاء تتولد على امتداد الدرب المرسوم، وهنا في

الميدان، تبدأ أطرافنا بالارتعاش بطريقة غريبة. ثم حين نؤمر بذلك نكتب تقريراً يقول بعناية وتصميم إننا تحركنا في الأرجاء متسببين بالفوضى يا سكيب. ميندناو. إننا ننتقل من كوننا فاترين وغير مؤثرين إلى كوننا متوقّدين حماسة وسخفاء».

جيمي: «متوقّدون حماسة، هذه كلمة جيدة».

قال الكولونيل: «ولِمَ علينا أن ننتظر أن يأتينا السخف من مركز القفير؟ لم لا نضع سيناريواتنا الخاصة؟».

عند هذه النقطة لاحظ جيمي ستورم زبونة جالسة إلى طاولة أخرى، آسيوية طويلة، جذابة، نحيفة بصورة صادمة، مجلببة بالحرير، وقال: «أرغب في الوصول إلى شيئها الرائع».

ضحك الكولونيل: «ها!».

أخذ ممازحه قطعة لحم من الصلصة بإصبعه ووضعها في فمه، وقال: «أو ربما سكيب يريد ذلك».

... مسودة المقالة تبدأ بملحوظة مصوّرة بخط يد الكولونيل الذي يستعمل الأحرف الكبيرة في كتابة الكلمات:

ليس لدينا مقدمة بعد

نريد إعادة إحياء التمييز بين التحليل والاستخبارات - وضوح الفكر، نقاء اللغة، صوابية الخطاب، إلخ، وضوح الحقائق، تقدير كيف أن الافتقار إلى الوضوح أدى إلى الانحراف التام لدور المخابرات في وكالتنا. أهدافها ودوافعها. وسائلها. مناهجها.

لنعتبر هذا المهمة الأساسية - التمييز بين التحليل والمخابرات.

أورويل - «السياسة واللغة الإنجليزية»[1].

هذا فيما يخصّ المقدمة...

(1) مقالة شهيرة للكاتب البريطاني جورج أورويل نشرها عام 1942 يرى فيها أن النثر السياسي في اللغة الإنجليزية تشكّل لكي يجعل «الأكاذيب تبدو صادقة والجريمة محترمة».

بصورة أساسية لكي نقول هنا إننا نتكلم عن أدوار الأجهزة السرية – المخابرات والتحليل، وانهيار الحواجز بين الاثنين إلخ.

على الصفحة التالية تبدأ المادة المطبوعة. توقع سكيب فوضى محرجة. لكنه مع بداية الجملة الثالثة رأى بوضوح أن الكولونيل حصل بالتأكيد على مساعدة:

التداخل المفسد للدورين

إن الاستعارات التي نستعملها فيما يخصّ عملية الاتصال تقدّم نموذجنا لهذا النقاش. نتكلم عن «خطوط» اتصال و«تسلسل» قيادي، مذكرين أنفسنا أن المعلومات تنتقل بصورة عامودية مترابطة عبر الرتب الوظيفية لأولئك الذين يفسرونها. وفيما يخصّ أدوار خدماتنا الاستخبارية، فإننا نرى أن هذه الحركة تنبع من الميدان وتنتهي في الأرشيف، أو في التخطيط، أو في العمليات. إن المعلومات التي يجمعها بصعوبة الضابط في الميدان، تتباطأ وهي تمضي صعوداً عبر التسلسل القيادي، وفي النهاية تجد نفسها متجمدة لاعتبارات تتعلق بتأثيرها، على عمليات أخرى، وعلى أهداف القيادات العليا، وحتى على المسار المهني للشخص الذي يمرر هذه المعلومات – حتى تتسلق المعلومات ذات الصلة بنى موازية لكي تعزّزها، أو – لسوء الحظ، ربما بصورة خطرة، حتى تجد القيادة حاجة إليها كتبرير لهدف سياسي، ويشعر أولئك الذين يمتلكون تلك المعلومات بهذه الحاجة.

هذان التردد والشك هما مؤشر على أن الدور المخابراتي قد تلوث بالدور التحليلي. فالمعلومات يتمّ تفسيرها، وإن بطريقة لا واعية ربما، ويجري سلفاً توقّع تأثيرها على القيادة. نتكلم عن «تأثير القيادة»، على الدور المخابراتي، وحقيقة أننا نمتلك تعبيراً عن ذلك تعترف بوجودها؛ بيد أننا أخفقنا حتى الآن في فهم العمليات والآليات، المتعلقة بتأثير القيادة.

هذه الورقة تقترح، في خطوط عريضة، أن «تأثير القيادة» يعمل عبر التداخل

المفسد للدورين في الإدارات السرية: المخابرات والتحليل.

التداخل المفسد للفئتين

مع التردد الذي تشهده المعلومات خلال صعودها عبر التسلسل القيادي، بانتظار 1) تراكم الضغوط لكي تقودها إلى الأعلى و2) تضافر المواد ذات الصلة، فإن عزل المعلومات البشرية عن المعلومات الاستخباراتية الموثقة يصبح مهدّداً وفي النهاية يتبدد. ولكي نبسّط الأمر، إن الحاجة إلى فحص دقة المصادر تتراجع أمام الضغوط التي تخضع لها العملية. والنتيجة هي التداخل المفسد: المعلومات المستقاة من مصادر بشرية، التي لا يعتمد عليها مثلما هو معروف، تصبح مصدر الدعم لتأويلات مشكوك فيها حول المصادر التوثيقية، وهذه التأويلات ترى بوصفها، في المقابل، تلقي الضوء على المعلومات المستقاة من المصادر البشرية.

إن التلوث المتداخل لهذين الفئتين، الاستخبارات البشرية والاستخبارات التوثيقية، هو عملية فرعية من الانهيار الأشمل بين الدورين، دور المخابرات ودور التحليل.

التداخل المفسد للتردّدين

في الأثناء، فإن عملية التأويل، كما نتذكر، تخضع دوماً للاستباحة والتجنيد في خدمة السياسة. والتداخل المفسد يحول المعلومات إلى غامضة، قابلة للتلاعب، وفي النهاية عديمة الجدوى كأي شيء، إلا كمكون من البيروقراطية الداخلية والكيميائيات السياسية.

إن الفحص التفصيلي للعمليات التي من خلالها يتمّ إيصال احتياجات القيادة عبر التسلسل القيادي يجب أن ينتظر لمناسبة أخرى. عند هذه المرحلة فليكن كافياً أن ندرك أن استشعار احتياجات القيادة ينتقل بالفعل نزولاً عبر التسلسل ضمن النوع نفسه من التردد الذي تصل عبره المعلومات صعوداً إلى الأعلى. والنتيجة

هي التداخل المفسد للتردّدين.

ينبغي التأكيد على أن هذه العملية هي ذات طبيعة مختلفة كلياً عن عملية جمع المعلومات الاستخباراتية التي كانت تقوم بها وكالتنا في صيغتها الأولى، أي مكتب الخدمات الاستراتيجية (أو أس أس). في تلك الحالة، بقي دور المخابرات بمنأى تقريباً عن السياسة، لأن السياسة هي لعبة السلام، في حين لعب هذا المكتب دور بنية قيادية تسعى إلى تحقيق أهداف الحرب. ومنذ تلك المرحلة سمحنا باستمرار النموذج القديم الخاص بعملية استقصاء المعلومات من الميدان إلى الأرشيف، ومن الميدان إلى التخطيط، ومن الميدان إلى التخطيط إلى العملية. بيد أن ذلك النموذج ما عاد يخدمنا بصورة جيدة.

إن نموذج التسلسل الذي يخضع من خلاله اتجاها المعلومات (صعوداً ونزولاً) للتداخل المفسد، هو أصدق تعبيراً عن العمليات الفعلية التي تقوم بها وكالتنا في الوقت الراهن. إن الضغط إلى أسفل مشتق من احتياجات القيادة، بينما الضغط إلى الأعلى مشتق من الحاجة إلى إرضاء القيادة.

عند هذه المرحلة من النقاش دعونا نعترف ثانية بافتقار العملية إلى المنفعة، إذ أننا ألقينا الضوء للتو على فئة الخدمات التي تصبح فيها المعلومات الاستخباراتية مفيدة، أي من خلال السعي إلى تحقيق أهداف الحرب.

التلقيح المتبادل للهدفين

هذه الورقة ستترك السؤال حول كيفية تطبيق دروس هذا النموذج المحسّن على وضعنا الحربي الراهن، في فييتنام الجنوبية مثلاً، سوف تتركه مفتوحاً. بيد أن بعض الأفكار تفرض الأخذ في الاعتبار:

تشنّ المجموعات حرباً إما بهدف تحقيق أهداف سياسية، كما في حالة الثورة، وإما بهدف ضمان البقاء، كما في حالة الثورة المضادة (جملة معترضة طويلة: لنضع جانباً الأمثلة التي يصبح فيها الهدفان غائمين، على سبيل المثال

عندما تنخرط الدول الأمم في عملية بناء الإمبراطورية، أو بناء السوق، أو في الدفاع ضدّ هذين الاعتداءين. إننا نمتنع عمداً عن الاستفاضة والتعقيدات التي قد تنشأ عن طرح نظريات كلاوسفيتز وماكيافيلي على طاولة البحث. نكرر: هدفنا يكمن في استعمال نموذج محسّن لدراسة دور المخابرات في وضعنا الحربي الراهن، وبالتالي فإننا نبسّط الطرح).

هنا سهم في هامش الصفحة يلفت نظر القارئ إلى ملحوظة مكتوبة بخط اليد أسفل الصفحة:

V - حتى الآن جيد. الجزء الختامي هو للقول فحسب إننا ندعو إلى تفكير أوسع من قبل كل الجميع. الفكرة الرئيسية هي أن هدف الفييتكونغ - جيش شمال فييتنام، هو الثورة السياسية المخصبة بصورة متبادلة بحسّ البقاء القومي. علينا هنا أن طرح أفكاراً من قبيل موقف الولايات المتحدة الأمريكية فيما يخص الأهداف - ما الذي نفعله؟ وما هو دور المخابرات في ذلك؟ وكيف نعود إلى حسّ أهداف زمن الحرب وكيف نتصارع مع الوكالة برمتها لكي تعيد إحياء الدور الرئيس لجهاز المخابرات؟

ضرورة النشاط المعزول

إن الولايات المتحدة الأمريكية، في المقابل، حتى في زمن الحرب، لا تتمتع بوضوح الأهداف الحربية. ووضعنا كنتيجة لذلك هو لعبة بيادق تمارس من خلال الأولوية غير المفصح عنها تماماً وهي أن الصفوف الخلفية، القطع القوية، القوى العالمية، لا يجب إدخالها البتة في اللعبة. بالنسبة إلى الوحدات في البيئة المخابراتية فإن هذا الوضع يقترح أنه يجب تأسيس العزل بهدف خلق حلبة من النشاط تستعاد فيها الأهداف الحقيقية والأصلية للعمل المخابراتي، ويعاد إشراكها في العملية. نستعمل كلمة «حلبة» لكن فلنقل بدلاً من ذلك إن جزءاً كبيراً من

سلسلة الاتصالات يجب عزلها ضد الضغوط الآتية من الأعلى ومن الأسفل - ضغوط «احتراس المرؤوس» من الأسفل، وضغوط «تأُثير القيادة» من الأعلى. من الصعب أن ينتج مثل هذا العزل عن أمر تصدره القيادة نفسها، ويجب بدلاً من ذلك أن يأتي كنتيجة لمبادرة من الوكالة أو من أعضاء فيها.

في الهامش...

V - رجاء عدّل هذا لكي يصبح أقل صلفاً، وأكثر غموضاً «ذلك الذي له أذنان ليسمع فليسمع» - ف ك س[1]. لكن V - الوقت مهم جداً. ثمة خطر فقدان الحراك يا صاح.

من الذي ساعده؟ من هو V؟ كان عليه أن يفترض أنه فوس. على الصفحة الأخيرة ملحوظة أخرى بيد الكولونيل.

شجرة الدخان (عامود الدخان، عامود النار)، «الضوء الهادي»، هي هدف مهم لعمل المخابرات - استعادة جمع المعلومات الاستخباراتية بوصفه الدور الرئيس للعمليات المخابراتية، لا تأمين التبريرات للسياسات. لأنه ما لم نفعل ذلك، فإن الخطوة التالية بالنسبة إلى البيروقراطيين الساخرين المجانين بالسلطة المهجوسين بالوظائف، هو استغلال المخابرات في التأثير على السياسة. الخطوة الأخيرة هي خلق أوهام وتقديمها لصناع السياسة لكي يسيطروا بها على اتجاهات الحكم. أيضاً «شجرة الدخان» - لاحظ التشابه مع غيمة الفطر. ها!

ثم الطابعة من جديد، فوس:

قد يفترض المرء خطوة أبعد من الخطوة الأخيرة. فلنفكر في احتمال أن تختار

(1) مختصر اسم الكولونيل فرانسيس كزافييه ساندز.

مجموعة أو زمرة معزولة، ابتداع أوهام مستقلة عن حدس القيادة باحتياجاتها الخاصة. وقد تقدم هذه الأوهام للعدو بهدف التأثير على الخيارات.

ها! أمكنه سماع عمه يضحك. كما على سطيحة فندق «نيو بالاس» ضحك على تلميحات جيمي الفظة. في حين يمص جيمي أصابعه، قال الكولونيل لسكيب «أتتذكر مقالة جي بي ديمر عن العميل المزدوج؟».

«قرأتها ألف مرة».

«أفترض أنك حصلت على عميل مزدوج».

«أحصلنا على واحد؟».

«افترض».

«حسناً».

«وافترض أنك أردت أن تمنحه معلومات معينة زائفة».

قال سكيب: «معلومات زائفة»؟ لا أذكر أي طرح لهذا في مقالة ديمر؟».

«أحضر له نسخة رجاء أيها الرقيب».

«أحضر له نسخة عن ماذا؟».

«إنها مقالة بعنوان ملحوظات حول العميل المزدوج ضمن مجموعة أعدادي من دراسات استخباراتية. عدد شتاء 1962».

«يا لقوة ذاكرتك».

«افترض أن هانوي صدّقت أن عنصراً متمرداً في قيادة الولايات المتحدة الأمريكية قرر أن يفجر قنبلة نووية في ميناء هايبهونغ».

«أتمزح؟».

«ألن يعبث هذا بعقل هو شي قليلاً فحسب؟ إذا ظنّ أن حفنة من المجانين قرروا أن ينهوا المسألة من دون الحصول على إذن مسبق بذلك؟».

«إننا نطرح فرضيات على ما آمل».

«سكيب، هل تحمل قنبلة نووية في جيبك؟».

«لا».

«أتعرف من أين تحصل على واحدة؟».

«لا».

«لا. هذه العمليات النفسية. إننا نناقش مسألة إفقاد العدو القدرة على الحكم بتوازن».

«ليس لدينا حدود فيما يخص عملية التفكير»، أعلن الرقيب ستورم «الأمر أشبه باليوغا أو بعمل روحاني».

تذكر رأياً آخر للرقيب ستورم: «إننا حافة الواقع نفسه. تماماً حيث يتحول إلى حلم».

بعد المرة الأولى التي أمضاها في الحانة القرمزية، أراد جايمس فحسب أن يعود في أول فرصة سانحة ويحتسي الجعة ويمارس الجنس، ثم أن يعود مجدداً بعد ذلك، ولم يستطع أن يتصوّر أيّ هدف أعلى من ذلك.

لم ينسَ أمه. أرسل لها لبضعة أشهر نصف رواتبه الأولى. كان أكتوبر ونوفمبر أبرد وأكثر جفافاً. لم يستطع أن يزدرد الديك الرومي الخاص بعيد الشكر الذي قدموه في قاعدة المهبط. مطاعم الضباط الأخرى تحصل على ديك رومي حقيقي، أما هذا فيتم إخراجه مبيضاً مشبعاً بالماء من صفيحة. «عيد الميلاد»، قال فيشر «سوف يحطم قلوب الجميع».

في البداية أرسل جايمس لستيفي عدداً لا يحصى من الرسائل القصيرة المفعمة بالألم، وأرسل لها بالبريد حلى صغيرة اشتراها من سايغون، وفرح برسائلها له، وحاول أن يتخيل وجهها وصوتها وهو يقرأ كلماتها. ثم ذات يوم شعر أنه ما

عاد قادراً على تذكرها. بالنسبة إلى الشباب الآخرين لم يكن الوضع كذلك. فلم يزدهم امتداد عذابهم إلا هوساً بحبيباتهم في الديار، ومع قصر مخدوميتهم صاروا يعدّون الأيام للحصول على اللحم الأبيض، اللحم الأبيض، الأبيض. لكن جايمس أراد فحسب المزيد مما يحصل عليه في الحانة القرمزية، أياً يكن لون اللحم.

ظلت الاتصالات من ستيفي ترده بلا هوادة، عادة رسائل موجزة كتبتها على عجل في صف الطباعة، من النوع الذي يمكن أن تمرره خلسة لأي كان في المدرسة، وكأن جايمس غاف على مقعده على بعد صفي مقاعد منها، لا مشرّعاً سرواله في الملجأ ملقياً ضوء مصباحه اليدوي تحت بطنه العارية، محملقاً في بقعة حمراء رهيبة من الأكزيما التي بدت في في الضوء المرتعش لوناً متحولاً، شبه أخضر. «لا تحصل عليه من العاهرات، لا تحصل عليه من العاهرات»، قال الرجال الآخرين الذين سألهم مراراً وتكراراً «إنه مجرد شيء صغير يتسبب به التعرق الرهيب في الأدغال، والبراز الذي يعطونه لك يزيله تدريجياً. وليس عليك أن تحلق خصيتيك. لذا لا تقلق. ولا تحلق خصيتيك». رسائل ستيفي، حروف i التي تضع فوقها بدلاً من النقاط دوائر صغيرة، أرعبته بقدر ما أرعبته البقع الحمراء. بالكاد ردّ عليها.

يمكنني أن أصحبك نصف الطريق إلى الحب فحسب، كتب لها ذات مرة، مقتبساً من إحدى قصائد إيفانز لحبيبته.

سوف أبقى في انتظارك، ردت عليه، سأبقى وفية حتى النهاية.

أراد أن يرد قائلاً لا تكوني وفية، لأنني لست وفياً. إلا أنه اكتفى بعدم الردّ ببساطة.

في عيد الميلاد تلقى بطاقة معايدة من أمه وشعر بالنفور من فتحها - لنفترض أنها انتحبت حول المال؟ لكنها كتبت فحسب: «مع الحب، أمك»، وذلك بعد الأشعار التي توجد عادة في بطاقات «هالمارك» التي تحكي عن المخلص ومزود المسيح والرعاة وأول عشية عيد ميلاد مرصعة بالنجوم.

أخذ السكروي لوت مجموعة في دورية، وأول ما تسبّب به سوء طالعه لهم هو أنه اضطرهم إلى عبور حفرة فيها عنصران ميتان من الفييتكونغ. وقد وجدها سكروي بمفرده عندما ترك الدرب لكي يلتف حول شجرة ساقطة فإذا به يطأ عبر غطاء الحفرة الهش على رأس إحدى الجثتين. قام العديد من جنود الاستطلاع بدفع جذع الشجرة جانباً ورفعوا الغطاء المهشّم المكوّن من قصب الخيزران والعشب ليجدوا رجلين ميتين، الواحد فوق الآخر، تخضّلت جثتاهما بالماء وفاحت منهما رائحة مقرفة، وامتلأت محاجرهما بالنمل. كانت الشجرة قد انقلبت عليهما فعلقا في الداخل والمياه الباطنية ارتفعت خلال الليل، من الواضح بسرعة شديدة إلى درجة أنهما لم يتمكنا من حفر طريق للخروج قبل أن يغرقا. أراد سكروي لوت استجواب الجميع في المنطقة. والرجل الأول الذي اقترب، عائداً من الحقل يحمل على كتفه رزمة من الحطب، رمى حمولته وراح يركض يتبعه اثنان من المجموعة. وجلس الآخرون ينتظرون. «هذا الجبل يتبرّز علينا»، قال سكروي لوت. لم يكن معظمهم قد وصل منذ مدة كافية حتى يقدّر التغييرات في الهواء. مع ذهاب فلات وجوليت والمناقلات الدائمة بين الجنود، فإن أقدم من في الفرقة كان الجندي المتقدّم من الدرجة الرابعة [1] هيوستن، المعروف بلقب الكاوبوي، وبلاك مان، الرقيب مجهول الاسم. والآن بات هناك أسود آخر وهو إيفريت، وهو جندي متدرب من الرتبة الأولى، يجيب عندما يناديه أحدهم باسمه، غير أنه لا يكلم إلا الرجل الأسود، وبصوت شبه مكتوم، حتى لا يسمعه أحد. «على ذكر البراز»، قال سكروي لوت، وتوارى وراء أكمة وكان خارجاً يزرر بنطاله

(1) Specialist: في الجيش الأمريكي وبعد رتب E1 وصولاً إلى E3 فإن الجندي يعتبر تحت التدريب أو في بداية التأهيل العسكري، تليها رتب التخصص العسكري أو الدورات المتقدّمة، وهذه الرتبة موازية من حيث الراتب لرتبة العريف.

حين عاد الجنديان اللذان طاردا الرجل، لكن من دونه.

«ألم يحالفكما الحظ؟».

«لقد رحل».

«إنه تحت الأرض سيدي».

«نظن ذلك».

«ثمة نفق سيدي».

«اللعنة. لا تخبروا الكولونيل»، قال لوت.

«إنه هناك».

وقفت الكتيبة كلها حول ما بدا بالتأكيد فوهة بقطر قدمين بقدمين تفضي إلى العالم السفلي. هبط سكروي لوت على ركبتيه وألقى ضوء مصباحه اليدوي إلى داخل الحفرة ونهض مسرعاً، «أجل، هذا هو دأبهم. ينزلون ثلاثة أو أربعة أقدام، ويدخلون برؤوسهم أولاً. تراجعوا». صاح بهم، وسحب صاعق قنبلة يدوية، ورماها في الحفرة وركض كالجحيم. بدا صوت القنبلة صغيراً ومكتوماً. ارتقعت التربة ثم عاودت الهبوط. «اللعنة إذا كنت أعرف»، قال. وأنزل رجلين إلى الحفرة وعاد والآخرون إلى الجثتين.

هنا على السفح الجنوبي من الجبل قاموا بدورية فوق مساحة من الأرض تحولت إلى طريق معبدة. على امتداد خمسة كيلومترات تمكن بلدوزر D6 من شقّ طريق من قاعدة فرقة الاستطلاع. بعد ذلك كان ثمة جرف وواد، يستحيل عبورهما بالمركبات. خابر سكروي لوت عبر اللاسلكي الرقيب هارمون، الذي جاء على متن جيب «لا أريد هذين الميتين اللعينين هنا»، قال لهارمون، «جرهما بعيداً. إذا كان هناك تشارلي في جبلي، فأريدهم أن يتساءلوا ما إذا كنا قد أسرنا هذين الرجلين وهما على قيد الحياة»، قال للآخرين «هذه هي العمليات النفسية. العبث بدماغ تشارلي».

جلس والرقيب في الجيب يتناولان وجبتي تشارلي[1] حتى اقترح الآخرون عليهما فكرة إجبار الرجل على الخروج من النفق، إذا كان ما زال هناك، باستخدام البنزين.

قام ثلاثة جنود بإنزال برميل نصف ممتلئ سعة خمسة وخمسين جالوناً، من مؤخر الجيب ودحرجوه إلى فوهة النفق، ومضى البرميل متعرجاً، والجنود يشتمون ويعزقون العشب. واحتشد الآخرون لكي يراقبوا ما يجري. وقام جنديان بقلب البرميل فوق الفوهة في حين أخذ ثالث يحاول فتح السدّادة بعقب بندقيته الأم 16.

هرع سكروي لوت إليهم ما إن رأى ذلك. فتح فمه قليلاً ورفع رأسه، مقرّعاً الجندي من دون كلام.

شرح الرجل: «إننا في طور السحق».

«واين، سلاحك ليس مطرقة».

«عذراً سيدي، لكنني أقصد فحسب أننا سوف نفجر هذا الفييتكونغ اللعين لكي يخرج من هناك».

تمكنوا من فكّ السدّادة وأفرغوا البرميل في الفوهة، وأخذ الجندي المتدرّب واين، وهو فتى ضخم الجثة فارغ الرأس من أيوا، يحملق في عتمة النفق، ثم أشعل عود ثقاب، ورماه إلى الداخل. قوة الانفجار أطاحته في الهواء، فوق رؤوسهم، ونزولاً عبر ذرى الأشجار، وهو يصرخ كالمدفعية.

قال الرقيب هارمون: «من التالي؟».

سارع شريكا الجندي المتدرّب واين للعثور عليه. عاد يعرج إليهم.

«نسيت أن تقول: نار في الحفرة!».

---

(1) C Rations أو كما كانت تسمى خلال حرب فييتنام Charlie Rations حصص غذائية يحملها الجنود خلال تنقلهم أو خوضهم المعارك.

لم تبدُ إصابته بالغة، «إنني مشهور الآن»، كان هذا كل ما تفوه به.
«لن يرق للكولونيل أنك خرّبت نفقه»، قال بلاك مان لسكروي لوت.
أحلط سكروي لوت الرجل الأسود بذراعه، في حين جاء الرقيب ووقف قبالته.
«يجدر بأحدهم أن يتفحص وضعية الحفرة».
«لمَ لا تنزل بلاك مان؟».
«أنا؟».
«أجل، انزل إلى هناك، وألق نظرة».
«لكي ترى إذا كان هذا من الأنفاق التي لا تنتهي بفتحة».
«لم يبق نفق أيها الملازم، سيدي».
جذب سكروي لوت بلاك مان إليه وقال: «كل أطفال الرب لهم أنفاق».
تكلم كاوبوي: «أظن أنني سأنزل».
نظرت المجموعة بأكملها إليه. ثم أشاحوا جميعاً أنظارهم. وراحوا ينظرون إلى الأعلى والأسفل، وإلى أيّ مكان.
قال الرقيب: «حصلنا على متطوع».
قال سكروي لوت للكاوبوي: «سوف يسرّ الكولونيل بذلك».
في تلك الأيام لم تكن كتيبة الاستطلاع ترى الكولونيل كثيراً. ولم يره المجنّدون الجدد إلا لمحاً من بعيد. سأل كاوبوي هارمون: «أهو كولونيل حقاً؟».
«حسناً، إنه ليس من تلفيقات خيالي فحسب».
«ماذا يفترض أن يعني ذلك؟».
«أظن أنه يعني أنه حقيقي أيها الجندي. أظن أنه إذا داس على أصابعك فستصرخ».
«لا أعرف بهذا الشأن»، قال كاوبوي «لقد جلست في حضن بابا نويل مرات أكثر مما رأيت الكولونيل. فهو بالنسبة إليّ ليس حقيقياً أكثر مما هو بابا

نويل، أليس كذلك؟».

«هاك»، ناوله هارمون مصباحه اليدوي «خذ هذا المصباح الإضافي معك».

أضاء كاوبوي المصباح ونزل برأسه أولاً في الحفرة، على نحو ما رأى بعضهم الكوتشي كوتيز يفعلون.

حين نزل إلى داخل الحفرة، حتى لم يعد يظهر له أثر، وقف الآخرون حول الحفرة ينتظرون. نزول أحدهم إلى هذا العالم الملغز يجب أن يعود عليه ببعض الاحترام، إن لم يكن لحصافته، فعلى الأقل لجنونه.

كانت تروى قصص عن أنفاق تمتد لأميال، وفيها وحوش، زواحف عمياء وحشرات لم تر النور يوماً، وفيها مستشفيات ومواخير، وأشياء رهيبة، أكوام من الفضلات التي خلّفتها أعمال الفييتكونغ الوحشية، أطفال موتى، قساوسة قتلى.

«أمسكوا قدمي»، صاح من داخل الحفرة.

جروه من كاحليه إذ لم يتمكن من أن يعكس اتجاهه داخل النفق، «إنه يمتد إلى زهاء عشرين ياردة»، قال لسكروي لوت.

«ألا يوجد أحد في الداخل؟».

«ليس منذ خرجت»، قال كاوبوي.

أفاقت نحو الخامسة في غرفتها الواقعة في مؤخّر المنزل. كانت النوافذ مغلقة إلا أنها سمعت ذئاب القيوط تنبح وتعول في البعيد، إلى جهة الشرق، باتجاه أرض الخرافات. لا عمل اليوم. بقيت في السرير وأخذت تصلي. صلت لكي يبدأ بيريس العام الجديد بنية أفضل تجاه المدرسة، وأن يجد الرب في قلبه. فليجد بيل الفرح في مهماته، وليجد الرب في قلبه. فليبق جايمس سالماً في الحرب، وليجد الرب في قلبه. بدت الذئاب مثل كلاب مجروحة. من الواضحة أنها تواقة لعودة

المسيح. صلت لكي لا تسمع عواءها. فليبق المسيح حتى تجد آخر روح على الأرض الخلاص. آخر روح تجد الخلاص قد تكون روح أحد فتيانها. على ذلك كان ثمة الكثير من المؤشّرات.

وضعت قدميها على الأرض وارتدت قميصها الصوف فوق منامتها. ما زالت عتمة. استلقت على ظهرها وبعد قليل أدركت أنها نامت مجدداً. لا مزيد من الأحلام. الساعة تتكتك. عقاربها المشعة تفيد إلى أنها لم تبلغ السادسة بعد. نهضت وعثرت على خفيها.

في المطبخ وضعت بضع قطرات من حليب «كارنايشن» في طبق القطة. صلت لكي لا تجدها الذئاب أو تجد جرائها. ليسوا بحاجة إلى جراء هنا... ما زالت ظلمة. بيريس ظلّ مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل يشاهد برامج مرعبة على التلفاز. لم يكن من شيء في وسعها فعله لكي تحميه من الشراك.

أشعلت سيجارة سالم من موقد الفرن. غلت المياه لصنع القهوة وجلست إلى طاولة المطبخ القابلة للطي، ووضعت السيجارة في المنفضة وزررت عنق قميصها بإحدى يديها في حين ارتشفت من فنجانها باليد الأخرى. لطخ خضراء من الضوء إلى جهة الشرق. النافذة متسخة. كانت الصلاة كل ما لديها. الصلاة والنسكافيه وسجائر سالم. هذا هو الوقت الوحيد من اليوم الذي لا تشعر فيه بالجنون.

أراقت بعض القهوة عندما سمعت رنين الهاتف المعلق على الجدار. فليكن الرب في عوننا جميعاً. ذهبت إلى الجدار ورفعت السماعة وأرادت كلمات تلتمس الرحمة من أي كان على الطرف الآخر. أمام رعب الاحتمالات لم تتمكن من أن تقول سوى: «مرحبا؟».

«مرحبا ماما، أنا جايمس».

«من؟».

«ماما، أنا جايمس، ماما. إنني أتصل لكي أعايدك بعيد الميلاد. أظن أنني أتصل في وقت متأخر بعض الشيء».

«جايمس؟».

«أنا جايمس ماما، عيد ميلاد سعيد».

«جايمس؟ جايمس؟ أين أنت؟».

«أنا في فييتنام، مثلما في السابق، مثلما دائماً».

«أأنت بخير يا جايمس؟».

«أنا بخير. في أحسن حال. كيف كان عيد الميلاد معكم جميعاً؟».

«أأنت بخير؟ هل أصبت بأذى؟».

«لا، لا، أنا بخير».

«يخيفني أن أسمعك تتصل بي».

«لا أقصد أن أخيفك، قصدت أن ألقي السلام».

«لكنك بخير».

«أنا بخير ماما، لا تخافي أو ما شابه. اسمعي، لقد أرسلت لك حوالة مالية أخرى».

«أنا ممتنة جداً».

«أعتذر لأنني تراخيت في ذلك لبعض الوقت».

«أعرف أن الأمر صعب. لا أعتمد على هذا المال، لكنني أقول فحسب إنه بالتأكيد يساعدنا».

«سأحاول أن أفعل أفضل من ذلك بكثير. سأفعل حقاً. كيف كان عيد الميلاد؟».

«كان جيداً جايمس. كان جيداً تماماً. يجب أن أجلس الآن. دعني آتي بكرسي، لقد أخفتني».

«لا داعي للجزع ماما، إنني أبلي حسناً هنا».

«يسرني سماع ذلك. هل تخابر ستيفاني؟».

«ستيفي؟».

«ستيفي، هل اتصلت بها؟».

«أنوي الاتصال بها فوراً. إنها التالية على قائمتي».

«ما الوقت عندك؟».

«قرابة الثامنة مساء. نسمي هذا الساعة مئتين بلغة العسكر».

«إنها السادسة – أوه الثامنة – هنا في في فينيكس».

«صحيح».

«ابتعدي من هنا حبوّبتي، لا أقصدك أنت، لدي هذه القطة العجوز هنا».

«أما زالت لديك تلك القطة؟».

«لا، إنها واحدة أخرى».

«ما الذي حصل بتلك القطة؟».

«هربت».

«افترستها الذئاب».

«أتوقع ذلك».

«حسناً، ها قد حصلت على سواها».

«جايمس...»، قالت وتحشرج صوتها.

«ماذا ماما؟».

«جايمس».

«ماما، ليس هناك ما يدعو إلى القلق».

«عليّ أن أقلق».

«ليس الأمر كما تظنين. إننا آمنون جداً حيث نحن. لم أشهد أي قتال. إنها مجرد دوريات. الناس هنا في غاية الودّ».

«حقاً؟».

«أجل، بالتأكيد هم كذلك. كل شيء لطيف».

«ماذا عن الشيوعيين؟».

«لم أر أحداً منهم. إنهم لا يقتربون من ناحيتنا. يخشون ذلك».

«إذا كانت هذه كذبة فأنا أقدّر لك ذلك».

«ليست كذبة».

«وأتوقع أن تعود إلى الديار عما قريب. بعد كم من الوقت؟».

«ماما، لقد اتصلت لكي أقول لك إنني وقعت على فترة خدمة إضافية هنا».

«فترة إضافية؟».

«أجل ماما».

«سنة أخرى؟».

«أجل ماما».

لم تعرف ماذا تقول، فقالت: «أتريد أن تكلم أخاك الصغير؟».

«بيريس؟ طيب. لكن بسرعة».

«إنه يمرّ بمتاعب في المدرسة. أخبرني المدرسون أنه يشرد قليلاً. تارة يكون هنا، وتارة يختفي».

«ماذا يقول هو؟».

«يقول إنه غير مرتاح في المدرسة. قلت له أن يذهب على أية حال. لا أحد يحبّ المدرسة، وإلا ما كانوا ليقدموها بالمجان».

«دعيني أكلمه».

«إنه نائم، دقيقة واحدة».

«ولا يهمك إذن. فقط قولي له إنه من الأفضل له أن يحسّن أموره».

«شكراً جايمس، سأخبره بما يقوله له أخوه».

«حسن، إنني أتكلم على وحدة الإرسال، لذا يحسن بي أن أقفل».

«وحدة إرسال؟».

«أجل ماما، هنا في القاعدة».

«أنت على المذياع؟ وأنا على الهاتف!».

«عام سعيد ماما».

«ولك أيضاً».

«ليكن عامك الجديد سعيداً ماما».

«سيكون. وأنت أيضاً».

«بالتأكيد، حسناً إذن، إلى اللقاء».

«وداعاً جايمس، أصلي من أجلك ليل نهار. لا تصغ إلى ما يقولونه. أنت تحقّق أرادة الرب لكي تبقي الايمان حياً في عالم يغرق في العتمة. هذا واحد من أزمنة العهد القديم».

«أعرف. أسمعك أماه».

«الشيوعيون ملحدون. ينكرون وجود الرب».

«هذا ما يقولونه لي».

«اقرأ العهد القديم، انظر كم من الناس قتلوا باسم الرب. اقرأ سفر صموئيل الأول، وسفر القضاة. كن يد الله العاتية إذا تطلّب الأمر ذلك».

سمعت تنهداً.

«قصدت فحسب رفع معنوياتك. اقرأ الكتاب المقدس يومياً. هناك مشككون وأناس يتظاهرون ويعلم الرب ماذا. إنهم خونة، هذه صفتهم. إذا سمعت بأمر هؤلاء الناس فسدّ أذنيك. أحمد الرب على أنهم لا يقتربون من فينيكس. إذا رأيت تظاهرة واحدة فسوف أركب شاحنة وأدوس المشاركين فيها مثل صخرة تنحدر من جبل».

«يقولون لي إن الوقت انتهى ماما. لذا يحسن بي أن أقول وداعاً، وداعاً».

كان ثمة صوت تشوش في الهاتف. توقف عندما أقفل ابنها الخط. «حسناً»، قالت للا أحد.

نهضت وعلقت السماعة في مكانها.

صباح نادر رائع، بقي نجوين هاو في السرير حتى وقت متأخر، مشاهداً الضباب الخفيف يتقلّب في الضوء خارج نافذة غرفة نومه، مفكراً ما عناه أن يصارع - لا أن يقاتل، بل ببساطة أن يقف بثبات - في وجه تنانين المعوقات الخمسة[1]: الشهوة والبغض والشكّ والكسل والقلق.

أبقاه الكسل في السرير لبعض الوقت. وقاده القلق إلى الباحة الصغيرة وراء المطبخ، حيث شكّلت الشمس المزيد من الضباب. تحت دفئها كل شيء يبثّ أشباحاً. أشجار تبرز من الآجر، تنهض بتردد عميق، ثم تختفي.

بسط هاو منديل زوجته على المقعد الحجري، وجلس بتؤدة، وحاول أن يعثر على فكرة مسالمة في عقله.

في التاسعة والنصف فتح ترانج البوابة الخلفية مصدراً قرقعة. نهض وعثر على المفتاح وفتح القفل. بات الراهب يحمل أوراقا ثبوتية مزورة، متنقلاً بأمان في أرجاء سايغون. بدا في صحة حسنة، وحتى سعيداً. جلسا معاً على المقعد الرخامي مثلما فعلا مرات كثيرة، من دون - في حسبان هاو - أن يحرزا أي تقدّم. في لحظة ما في المستقبل تكمن نقطة التحول.

«أأنت بخير؟».

«كيم مريضة. أسوأ من ذي قبل».

«يؤسفني ذلك».

«كنت أفكر في المعوقات الخمسة».

«أحياناً أفكر بها أنا أيضاً. أتتذكر هذه القصيدة: (إنني عالق في العالم مثل دخان يهبّ في كل الأرجاء)؟».

«لقد هزمتني التنانين»، قال هاو «جرّتني كثيراً إلى العالم، فلم أعد قادراً على العودة إلى الصمت».

---

(1) في العقيدة البوذية هي الحالات الذهنية الخمس التي تحول دون التأمل.

بدا أن الراهب يفكر في المسألة برمتها. كان هاو أكثر تعباً من أن يستحثه على الكلام. بعد فترة قال الراهب «أحاول العودة أيضاً. أريد أن أجد الصمت ثانية. لكنني لا أستطيع العودة».

«هل ستتوقف عن المحاولة؟».

«أظن أنه عليّ أن أنهي الحياة التي كنت أعيشها. لقد كانت مشوشة جداً».

«سوف أكون صريحاً معك. أنت أربكتني أيضاً».

«هل تنتقدني لأن الأمر تطلب وقتاً طويلاً جداً؟».

«لقد تكلمت بشأنك مع الكولونيل مرات كثيرة. وعبّر عن ارتيابه في أنك تأخذ أموالنا دون وجه حق. لكنك تعاود المجيء باستمرار. قلت له إنك تستحق الدعم لأنك تثابر على العودة».

قال ترانغ: «أذكر عندما جاء الكوادر إلى قريتي في العام 1945 وتلوا علينا جميعاً خطاب هاو. نهضت شابة وقرأته بصوت يشبه الغناء. ورن العالم بكلمات هاو وهو يتكلم بصوت الفتاة الرائع عن الحرية والمساواة، مقتبساً إعلان الاستقلال الأمريكي. وكسب قلبي. ضحيت بكل شيء. تركت بيتي. ونزفت دماً. وعانيت في السجن. أتستطيع انتقادي لأنه تطلبني زمن طويل لخيانة هذا كله؟».

كان هاو مصدوماً: «تتكلم بلغة قوية».

«الحقيقة قوية. ضع الأمر هكذا: توق الناس إلى الحرية قادنا إلى أن نشرب مياهاً آسنة».

سواء أكان يكذب أم لا، فقد انطوى كلامه على قصة قد يفهمها الكولونيل.

«سوف أخبره ذلك، بالكلمات نفسها».

«انتهت مرحلة التفاوض. جئت لكي أطلب، ولكي أعطي».

«ماذا تطلب؟».

«أريد أن أنتهي من هذه الحياة. أريد الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية».

لم يصدق أذنيه. «الولايات المتحدة؟».

«ألا يمكن فعل ذلك؟».

«بالطبع. يمكنهم تدبير كل شيء».

«إذن اطلب منهم أخذي إلى هناك».

«ما الذي تعرضه في المقابل».

«كل ما يريدونه».

«لكن الآن، على الفور، ماذا لديك؟».

«يمكنني أن أخبرك بأن الشائعات حقيقية. سيحصل هجوم كبير في رأس السنة، وسيعمّ أرجاء الجنوب. إنه هجوم كبير».

«أيمكنك تقديم معلومات محدّدة؟ الأمكنة، التوقيت، وما إلى ذلك؟».

«لا يمكنني إعطائكم الكثير، لأن العملية في معظمها سيتولاها الجيش الفيتنامي الشمالي.. لكن في سايغون سنقوم نحن بالهجوم. لقد تمّ الاتصال بخليتنا. سوف نعمل مع مقاتلي الأنفاق. إنهم يخططون لشنّ هجوم على المدينة. سوف يكون علينا على الأرجح أن نقودهم إلى موقعين أو ثلاثة. ما إن تتحدّد لديّ المواقع حتى أخبرك بها».

حار هاو في الردّ، «سوف يقدّر الكولونيل معلومات كهذه».

«إنني شبه متيقن من أنهم يعدّون مثل هذه الهجمات من أجل الهجوم الكبير. أظن أنه سيكون بالتحديد في يوم تيت».

أربع سنوات من الرقص على الحافة، والآن كل هذه المعلومات في أقلّ من دقيقتين. لم يتمكن هاو من إبقاء يديه في حجره. قدّم لترانغ سيجارة أخرى، وأخذ واحدة لنفسه، وأشعل السيجارتين. «أحترم شجاعتك. أنت تستحق الحقيقة مني. ولهذا أقول لك: الكولونيل مهتم بإمكانية أن تصبح عميلاً مزدوجاً. بأن تعود إلى الشمال».

«أستطيع العودة على الأرجح. ثمة برنامج لأخذ رجال القبائل شمالاً لتلقينهم

وتثقيفهم حزبياً الحزبية. الفكرة هي إعادتهم إلى ديارهم بعد ذلك لكي يقوموا بالتنظيم هناك. لديّ صلة ما بهذا البرنامج».

«هل يمكن أن تعود حقاً إلى الشمال؟ لماذا؟».

«يشعرني شرح ذلك بالقنوط».

«وماذا عن أمريكا؟».

«بعد ذلك».

بعد العودة إلى الشمال كعميل مزدوج. شكّ هاو بأن تكون ثمة أي مرحلة تالية. أحسّ بانقباض في قلبه. «لقد كنا صديقين»، قال لترانج.

«عندما يحلّ السلام، سنبقى صديقين».

جلس الرجلان يدخنان على المقعد الرخامي الناعم.

«إذن... جيد؟»، قال ترانج، «لقد عبرنا».

من ملحوظات الدكتور بوكيت:

الليل ثانية، الحشرات صاخبة، الفراشات تنتحر على المصباح. منذ ساعتين جلست على الشرفة أتأمل الغسق، يملؤني الحسد تجاه كل كائن حيّ - الطيور، البق، البراعم، الأشجار، العرائش - تلك التي لا تحمل عبء معرفة الخير والشر.

جلس ساندز على الشرفة في حرّ الأصيل واضعاً دفتر الطبيب في حضنه، بينما يجثم خلفه ويتحلل البيت المليء بالشيفرات والملفات والكلمات والمعلومات والمعلومات المقارنة، مدققاً في سطر غير واضح في الدفتر، إذ يبدو أن الصفحات أقفلت بسرعة على الحبر السائل فتلطخ السطر. مهما قلّب الصفحة من اتجاه لآخر، فقد ظلّت العبارة غير مقروءة.

Lkjflkjlsd kjslfd Lkjflkjl sdkjsfl Lkjflkjl

والغريب أن أولئك الذين يتنقلون عبر هذه المنطقة، قد عطّلوا حواسهم كأنهم

أصيبوا بشلل بليد لكي يبقوا جاهلين بكل شيء.

عندما – بنزوة غريبة – تصوّر الطبيعة فجأةعلى صخرة جسد رجل تعرض للتعذيب، يمكن أن يظنّ المرء أنها مجرد صدفة، وأن هذه الصدفة لا تعني شيئاً. لكن عندئذ، خلال أيام وأيام على صهوة حصان، يرى السحر الذكي نفسه يكرر نفسه، وعندما تعلن الطبيعة بعناد الفكرة نفسها؛ عندما تتكرر الأشكال المثيرة للشفقة نفسها؛ عندما تظهر رؤوس آلهة معروفة في الصخور، وعندما تظهر ثيمة الموت بصورة معاندة يدفع الإنسان ثمنها؛ عندما الجسد المبتور للإنسان يجاب عنه – بصورة أقل غموضاً، وأكثر انفصالاً عن مسألة تحجرية – بأشكال الآلهة الذين لطالما عذبوه؛ عندما تقوم منطقة بأكملها من الأرض بتطوير فلسفة موازية لسكانها؛ عندما يعرف الإنسان أن البشر الأوائل استعملوا لغة الإشارات، وعندما يكتشف أن هذه اللغة تبرز مضخّمة بصورة هائلة على الصخور؛ عندئذ بالتأكيد لا يسعه أن يفكر أكثر من ذلك أن هذه مجرد صدفة، وأن هذه الصدفة لا تعني شيئاً.

1968

قبل ثلاثة أسابيع من موعد تسريحه من البحرية، تشاجر بيل هيوستن مع رجل أسود في مطعم المجنّدين في قاعدة يوكوسوكا، في المطبخ، حيث اختير وثلاثة بحارة آخرين لكي يطلوا الجدران. كان أسلوبه الثابت في الهجوم يقضي بأن يخفض هامته وينقضّ سريعاً على الخصم، مندفعاً بكتفه اليسرى على صدره، في حين يمسك ركبته طارحاً إياه أرضاً بحيث يأتي فوقه، منهالاً بكتفه، بكل ثقله، على بطنه. كما أنه تمرّن على حركات أخرى، لأنه أولى القتال أهمية، إلا أن خطوته الافتتاحية هذه كانت تؤتي أكلها مع الخصوم الأقوياء، أولئك الذين يثبتون في أماكنهم ملوّحين بقبضاتهم. هذا الرجل الأسود الذي كان يتقاتل معه لكمه على جبينه بينما يسرع للإمساك بقدميه، ورأى هيوستن النجوم وأقواس قزح في أثناء وقوعهما على دلو طلاء سعة خمسة جالونات الذي انسكب على الأرض. لم يتعارك سابقاً مع رجل أسود. كان وسط الرجل صلباً كخوذة، وأخذ يتلوى مراوغاً على البلاط في بركة تتسع من الطلاء الأخضر. حاول هيوستن أن يقف، بينما قفز الرجل ناهضاً بخفة دمية ووجه ركلة جانبية لم ينج منها رأس هيوستن إلا لأن الرجل تزحلق ووقع على الطلاء، ماداً يده اليسرى لكي يتفادى الوقوع. إلا أن يده زحطت هي الأخرى، وارتكب هفوة الوقوع على ظهره في محاولته النهوض ثانية، وبحلول ذلك الوقت كان هيوستن قد تمالك نفسه وهوى على معدته بأقصى قوته بقدميه الاثنتين. كانت هذه المناورة تدعى «برونكو ستومب»، وقد عرف عنها أنها تتسبب بالموت، إلا أن هيوستن لم يعرف ماذا يفعل سوى ذلك، وعلى أية حال، وبينما أنهت هذه الحركة الشجار ومنحت هيوستن النصر، فإنها لم تؤدِ إلا لإخراج الريح من مؤخرة الشاب. قام ستة جنود من «خفر السواحل» باعتقال المتعاركَين، بعد أن تحولا إلى كائنين أخضرين يستحيل التمييز بينهما عرقياً. بينما مسح رجال خفر السواحل الطلاء عنهما،

وغطّوا مقاعد الجيب بالمشّمع، واقتادوهما مقيدين بالأصفاد، قرر هيوستن أنه إذا سجنا معاً فسوف يتفادى مباراة ثانية. فمع أنه تمكّن رسمياً من أن يهزم الشاب، إلا أنه هو من توجد كدمة كبيرة بين عينيه، في مكان ما تحت كل هذا الطلاء. «ما كان سبب الشجار؟»، سألهما أحد رجال الدورية وأجاب هيوستن: «قال لي إنني شاذ لعين»، «وأنت نعتني بالزنجي»، قال الشاب. «كان هذا خلال القتال، لذا فهو غير محسوب». كانا ما زالا مستثارين من القتال، فخورين، سعيدين، شعرا بالودّ تجاه بعضهما. «لا تنادني هكذا ثانية»، قال الرجل الأسود، وأجاب هيوستن: «لا أنوي ذلك».

هكذا تلقى البحار هيوستن تسريحاً مبكراً، وأمضى آخر عشرة أيام في البحرية لا كبحار بل كسجين في زنزانة قاعدة يوكوسوكا البحرية.

عند إطلاق سراحه أعطي إيصالاً لرحلة بالطائرة إلى فينيكس. بيد أن السفر جواً كان يشعره بالبؤس. إذ تفرقع أذناه مثل مطرقة على جمجمته، ويشعر بالدوار، وبمذاق الهواء ميتاً. أقسم على أن تكون هذه أول وآخر رحلة جوية يقوم بها في حياته. في مطار لوس أنجليس، كوّر تذكرة السفر إلى فينيكس ورماها في المنفضة، ودخل إلى حمّام الرجال حيث قام بتبديل ملابسه المدنية إلى زيه العسكري، وبصورة البحّار، حصل على توصيلات مجانية إلى الديار حاملاً حقيبته القماش على كتفه عبر صحراء موهافي الساطعة في يناير. رأى ضواحي فينيكس بعد مدة أقل مما توقع. أصبحت أقرب إلى المدينة الآن، العجلات تمضي مسرعة على الأوتوستراد الدولي العاشر، والطائرات تهدر في الأعلى، وتلتمع أضواؤها في الغروب الصحراوي الأزرق. كم الوقت؟ لم يكن يحمل ساعة يد. في الحقيقة، ما اليوم؟ وقف هيوستن تحت عامود إنارة معطّل عند تقاطع الشارعين السابع عشر وتوماس. كان بحوزته سبعة وثلاثين دولاراً. كان في الثانية والعشرين. لم يذق الجعة منذ شهر تقريباً. ولا يملك أية خطة، خابر أمه.

بعد أسبوع، جالساً يشرب القهوة في مطبخ أمه، أجاب بيل على الهاتف.

كان المتصل شقيقه الأصغر جايمس. «من يتكلم؟»، سأل جايمس.

«من ذا الذي يقول من هذا؟»، قال بيل.

«حسناً... إنني».

«كيف هي المضاجعة في سايغون؟».

«أظن أن أمي ليست إلى جانبك».

«لقد ذهبت إلى العمل على ما أظن».

«أوليست الساعة السادسة عندكم؟».

«هنا، لا، إنها قرابة الثامنة».

«ليست الساعة السادسة؟».

«كانت كذلك في السابق، الآن إنها الثامنة».

«ما الذي تفعله هناك عند الثامنة صباحاً؟».

«جالس هنا بمنامتي، أشرب النسكافيه».

«انتهيت من البحرية؟».

«انتهيت منهم، وانتهوا مني».

«تعيش مع الماما؟».

«أزورها فحسب. أين أنت؟».

«في هذه اللحظات؟ في دا نانج».

«أين هذه؟».

«في قاع مكان ما في دلو من البراز».

«لم أرك منذ يوكوهاما قبل عام».

«أجل، هذا صحيح».

«من الغريب قول هذا».

«أجل، نوعاً ما».

«لم أرك منذ يوكوهاما».

قال جايمس: «حسناً...»، وكان صمت.

سأله بيل: «هل تحصل على أيّ مضاجعة؟».

«أوه، أجل».

«كيف هي؟».

«تقريباً كما يمكن أن تتخيل».

قال بيل: «هل تعرف أن فتاتك زارتنا».

«من؟».

«ستيفاني. فتاتك الصغيرة التي كنت تواعدها. أجل. لقد زارتنا».

«وإن يكن؟».

«إنها تزعج أمنا العجوز بشأنك».

«بشأن ماذا؟».

«تقول إنك لم تعد تردّ على رسائلها. تريد أن تطمئن على أحوالك».

«أتعيش هناك الآن، أم ماذا؟».

«ظننت فحسب أنك يجب أن تعرف، وها قد عرفت».

«الآن أعرف إذن. وهذا لا يعني أنني أكترث».

«أنت طريف يا صاح. أجل. إنها مستاءة لأنك مدّدت خدمتك هناك».

«أأنت تعيش هناك حقاً؟».

«إنني في زيارة لبضعة أيام فحسب حتى أحصل على عمل».

«بالتوفيق».

«شكراً لك».

«أين أمي؟ في العمل؟».

«أجل، ما الوقت عندك؟».

«لا يهمني ذلك، إنني في إجازة لثلاثة أيام».

«لابدّ من أنها الساعة سبع عشر ةمئة أو ثماني عشرة مئة».

«ما كنت لأهتم البتة. ليس خلال هذه الأيام الثلاثة».

«وإنه الغد سلفاً، أليس كذلك».

«إنه ليس الغد أبداً، ليس في هذا الفيلم اللعين. ليس هناك سوى اليوم».

«أشهدت أي معارك فعلية؟».

«لقد نزلت في تلك الأنفاق».

«ماذا رأيت؟».

لم يجب شقيقه.

«ماذا عن القتال؟ هل خضت أي معارك؟».

«ليست من النوع الذي قد تلاحظه».

«حقاً؟».

«إنها تجري نوعاً ما بعيداً في مكان ما، ليس هنا البتة. أعني، لقد رأيت شباناً قتلى، وجرحى، وشباناً ممزقين أشلاء، في أرجاء منطقة المهبط».

«بلا مزاح».

«أجل، لذا أجل ثمة هراء يجري في كل مكان، لكنه لا يصل إلى هنا البتة».

«إنك محظوظ على الأرجح».

«تقريباً».

«ماذا أيضاً؟ هيا أخبرني».

«ماذا أيضاً؟ لا أعرف».

«هيا يا أخي. أخبرني عن الفتيات».

جاء صوت أخيه الأصغر بعيداً ذا صدى، عن بعد سبعة أو ثمانية آلاف ميل. صوت أي كان. يتكلم عن الأمر نفسه. «إنهن في كل مكان يا أخي بيل. يسقطن عن الأشجار. لدي واحدة أبقيها في حانة في الفيلا. لم أر فتاة تشبهها من قبل، أعني أبداً. مؤخرتها لا تلامس السرير أبداً وأنا فوقها. لا يمكن أن يزيد وزنها على اثنين وثمانين باونداً، وتبقيني مرفوعاً نصف الطريق إلى السقف. لابدّ من أنها

تتناول وقوداً نووياً على الإفطار. لا أظن أنني أستطيع مجابهتها في قتال».

«يا إلهي، يا إلهي، يا جايمس الصغير. لا أعرف كيف سأحصل على المضاجعة الآن وقد عدت إلى الديار. لا أعرف كيف أتكلم إلى النسوة البيضاوات الطبيعيات».

«يحسن بك العودة إلى البحرية».

«لا أظن أنهم سيقبلون بي».

«لا؟ لن يقبلوا بك؟».

«لقد سئموا مني بعض الشيء، يبدو ذلك».

«حسناً...»، قال جايمس.

«أجل...».

كان يسمع خلال فترات الصمت تشوش يمكن تقريباً خلاله سماع أصوات أخرى.

«كيف حال بيريس؟».

«إنه بخير. إنه شاب طريف أيضاً، مثلك تماماً».

«هل أمي بخير؟».

«بخير تماماً».

«ما زالت على خطّ يسوع».

«بكل تأكيد. هل وصلتك بطاقتي البريدية التي أرسلتها؟».

«أجل، البطاقة البريدية؟ أجل».

«كنت في السجن عندما أرسلت هذه».

«أها».

«أجل...».

«اسمع، لا تخبر الفتاة ستيفي أنني اتصلت».

«ستيفاني؟».

«أجل، لا تخبرها أننا تكلمنا معاً».

«قالت إنك لا ترد عندما تراسلك».

«الجميع يفكرون بفتياتهم في الديار، هذا كل ما يشغل بالهم».

«وما الذي يشغل بالك أنت؟».

«الفتيات والمضاجعة».

«فتيات المواخير، المدفوع لهن».

«ليس من شيء مجاني على كوكب الأرض يا أخي بيل».

شبان قتلى، شبان ممزقون أشلاء. في هذا ربما كان جايمس يكذب. ربما يشعر أنه مطلوب منه، في مخابرة بعيدة عابرة للمحيطات، أن يخبر أشياء تستحق أن تروى. لقد سمع بيل هيوستن بأنه ليس من قتال كثير يجري هناك. ليس مثل «أيوا جيما»[1] على أية حال، ولا مثل «معركة الثغرة»[2]. لم ير بيل هيوستن جدوى من اتهامه بأنه يقول هراء. لم يعد جايمس شقيقه الصغير المغفل. لا تريد أن تسخر منه وتعامله بصلف.

«يجب أن أقفل أخي بيل. قل لأمي إنني أحبها».

«سوف أخبرها. ماذا عن فتاتك ستيفي؟».

«كما قلت لك، لا تذكرني أمامها فحسب».

«حسناً».

«حسناً».

«أبق رأسك منخفضاً جايمس».

«إنه منخفض وسيبقى كذلك»، قال جايمس، وصمت الهاتف بعد ذلك.

(1) واحدة من أشرس المعارك التي خاضها الأمريكيون ضد اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية.

(2) Battle of the Bulge: الاسم الشعبي لهجوم الأردين، الذي شنّه الألمان مع قرب نهاية الحرب العالمية الثانية على قوات الحلفاء في منطقة الأردين الواقعة بين بلجيكا ولوكسمبورغ وفرنسا، تعتبر هذه المعركة الأكثر فداحة على الأمريكيين خلال الحرب العالمية الثانية حيث سقط فيها زهاء تسعة عشر ألف قتيل.

جاء شهر يناير وكاد ينقضي قبل أن يجد بيل هيوستن عملاً في الضواحي الريفية خارج تيمب، بجوار فينيكس. استأجر غرفة في ساوث سنترال ستريت يستطيع سداد إيجارها يومياً أو أسبوعياً أو شهرياً، وصار يستقل الحافلة في ذهابه إلى العمل وعودته منه. عند الساعة العاشرة مساء كل بين يومي الثلاثاء والسبت، كان يصل في العتمة إلى بوابة مصنع «تري سيتي رديميكس» لمواد البناء، للاضطلاع بمهماته كعامل تنظيفات ليلي. وعند العاشرة والنصف يكون آخر عمال المناوبة الثانية قد غادروا، فيرمي جانباً خوذته الإلزامية ويشرف على خمسة عشر أكراً من الصحراء - أكوام من الصخور المسحوقة المصنفة وفقاً للحجم، بحيث أن كل جبل يتخذ بصورة عجيبة الحجم والشكل نفسهما، من الحجارة التي بحجم قبضة اليد، وصولاً إلى استحالتها رملاً. من أحد الأحواض قمعية الشكل يتسرب خيط من التربة الذي يتكوم في نهاية أنبوب على بعد زهاء عشرين قدماً؛ لقاء كل مجرفة زحف على طولها الضيق باتجاه لمبة بعيدة تشتعل في شبكة من الأسلاك، حابساً أنفاسه ومقترباً، غشاوة من التربة تنفجر في حركة بطيئة كلما غرز شفرة المجرفة في الكومة، متراجعاً خطوة بخطوة، حاملاً المجرفة الواحدة ورامياً إياها في التيارات الباردة التي تحيط بالأرض في دائرة. غسل الأحواض الخرسانية تحت حزام الكسارة، بخرطوم مياه عنيف حافاً كل واحد منها بمجرفة مسطحة. كانت الليالي إما سماء محتشدة بالنجوم، وإما باردة فارغة. لكي يحصل على الدفء احتفظ ببراميل سعة خمسة جالونات مليئة بالرمل المشبع بالبنزين تشتعل في أرجاء المكان. وضع حلقة من البراميل بين متاهة الأحزمة تحت الكسارات العملاقة، ولم ينته أبداً. في المساء التالي الأحزمة نفسها، الحركات نفسها، وحتى بعض الحصى والحجارة نفسها، والبيرغر البارد نفسه لـ «الغداء» على الطاولة المغبرة في حجرة المدير عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، يغسل يديه ووجهه أولاً في الحمام الضيق، عنقه الثخينة بنية كرقبة دب، يدخل المياه في منخريه،

ويخرج الغبار بكميات كبيرة. ليس بعد فترة طويلة من الغداء تبدأ الديكة وحدها في المزارع الصغيرة المجاورة بالصياح كالبشر، وقبل الساعة السادسة تكون الشمس قد وصلت وحولت الأسطح الألومونيوم المحيطة إلى مشاعل، ثم عند الساعة السادسة والنصف، مع إنهائه مناوبته، يصل العمال، ويقفون بشاحناتهم في طابور وواحداً بعد الآخر يتقدّمون تحت أكبر الأحواض القمعية وينتظرون في مركباتهم المرتجّة، بينما يتدفق الكونكريت السائل إلى كل شاحنة قبل أن يذهبوا لكي يضعوا أساس مدينة. كان هيوستن يمشي ميلاً إلى محطة الحافلات وهناك ينتظر، مغطى بالرمل ويشعر بالحزن لدى رؤيته غلمان المدارس الثانوية وصاحباتهم السعيدات العهراويات وهم يدخلون إلى الصفوف، إلى عذابهم اليومي الخاص، موزّعين السجائر على بعضم بعض. تذكر هيوستن فعله ذلك، ثم لاحقاً في حمام الذكور... ليس من شيء ألذ من امتلاء الفم بتلك الجرعات السريعة من الدخان... المسروقة من العالم برمته... في قلبه – كما كانت الحال في الثانوية – توقف عن العمل منذ اليوم الأول غير أنه لم يجد مكاناً آخر يذهب إليه.

أوقف سكروي لوت الجيب، وأشار إلى أحد الوافدين الجدد. فهرع شاب جديد إلى الجيب، وعاد يحمل سلسلتين مقرقعتين من الذخائر ورماهما عند قدمي جايمس وهرع عائداً إلى الجيب قائلاً: «إنه يناديني».

«لَم كل هذه الذخيرة؟».

«اللعنة إذا كنت أعرف! إنه يناديني!». عاد المجند الجديد إلى جيب سكروي لوت، وأصغى إليه، وعاد يحمل تنكتين من الوقود.

«حرقها، أحرقها، أحرقها!».

«ماذا؟».

«أحرق الأكواخ! يقول إنه علينا أن نحرقها».

«لماذا؟».

«لا أعرف. ثمة أمر بالغ السوء يجري».

«ماذا تقصد؟».

«يقول ثمة هجوم!».

«أين؟».

«لا أعرف».

حمل جايمس تنكة بينما الرعب يسري من قفا رأسه إلى ظهره ومؤخرته ثم صعوداً، ورشا الوقود على أقرب كوخ وملأوه بالنفط. ومن مكان أعلى التلة سُمعت أصوات انفجارات عميقة متكررة.

المجند الجديد أشعل قداحة زيبو وفجرت الشعلة المكان ورماهما الانفجار إلى الوراء لكن الصوت لم يكن مرتفعاً بقدر الانفجارات المنبعثة من التلال. قال: «هذا كله يا رجل، هذا كله شيء لعين يائس».

أحاط جايمس بأحد الأكواخ ثم بآخر، مرشرشاً الوقود حتى فرغت التنكة فرماها في الحريق ووجدت النار طريقها إليها وأشعلت البخار المحبوس في الداخل فانفجرت التنكة مفرقعة. صاح جايمس: «أرأيت هذا؟»، إلا أن قشّ السقف اضطرم بقوة شديدة إلى درجة أنه لم يتمكن من سماع صوته.

صاح: «ذكرني لَمَ نفعل هذا؟».

«اللعنة إذا كنت أعرف!».

«ذكرني باسمك؟».

«اللعنة إذا كنت أعرف!».

قال جايمس: «إنها فوضى»، لكنه لم يستطع جعل صوته مسموعاً. سمع أعيرة نارية قريبة. هدرت طائرة مروحية فوق رأسه وقذفت صاروخين على الطرف المقابل من الجبل، في موضع غير مرئي، حيث كان جايمس واثقاً من عدم وجود

أيّ أناس أو منشآت. دخان أسود ونيران برتقالية انفجرت من الأرض. هل رأى يوماً أحداً هناك؟ ربما كان بعضهم يتخندقون هناك. لحظهم العاثر، كانوا يحترقون الآن.

صرخ المجند: «يا للروعة!».

انهارت الأكواخ سريعاً. ألقى جايمس نظرة إلى داخل أحدها وهو يحترق، فوجده فارغاً لم يبق فيه حتى قطعة قمامة أو علبة سجائر قديمة. بدأ السقف يتداعى، فتراجع إلى الخلف.

«إنه الهراء بعينه يا رجل»، شرح للمجند، «لأننا نعرف سكان هذه الأكواخ. أعني، لقد سبقت لي رؤيتهم. إننا نمرّ كثيراً من هنا».

«ما زال لديّ بعض الوقود».

«فلنعد إلى تلك الأكواخ هناك».

هرعا محنيي الهامة إلى مجموعة من الأكواخ في واد صغير.

لم يجدا أثراً للحياة هناك.

«اللعنة أين رجالنا؟».

قال المجند: «اللعنة إذا كنت أعرف».

«اذهب وأخبر سارج».

«لن أذهب إلى تلك التلة... هناك أناس يطلقون الرصاص هناك».

«أمن هناك يأتي الرصاص؟».

«أجل. سوف يطلقون عليّ الرصاص كأي تشارلي».

«ظننت أنه يأتي من جهة الشرق».

«اللعنة. إنهم يطلقون الرصاص في كل مكان».

جاء الرقيب هارمون يركض بصورة متعرجة منخفضة على حافة الوادي. وقف منتصباً عندما نزل إلى جانبهما.

«أريدكما أن تحفرا هناك».

«ماذا جرى؟ يبدو أننا كنا فحسب في خضم معركة».

قال الرقيب: «هل استعملت سلاحك؟».

«لا».

«إذن لم تكن في خضم معركة».

«من كان إذن؟».

«ربما كانوا جنودنا!».

قال الرقيب: «هذا الجبل برمته يتعرض للهجوم».

انفجارات ضخمة في أعلى التلة.

«ما هذا؟».

«قصف مدفعي؟».

من الشرق اندلعت أصوات انفجارات أضخم.

«ما هذا؟».

ومن الخلف أيضاً، على مقربة شديدة، المزيد من الانفجارات. «أين هم؟».

«حولنا تماماً. إنه قصفهم المدفعي»، قال الرقيب: «اسمعا. أريدكما أن تحفرا هنا، أتسمعانني؟».

«أجل»، قال المجنّد الجديد.

«إننا في فوضى هنا. إذا فعلنا هذا بشكل صحيح يمكننا التراجع، يمكننا الذهاب غرباً والالتفاف حولهم أعلى التلة. أريد أن يصمد الطرفان، بينما نتراجع من الوسط بهدوء شديد دون أن يلحظوا وجودنا. فإذا انقضوا علينا من الغرب، فقد شوينا. أو شرقاً. في كلا الاتجاهين. لديكما غطاء من النار إلى غربكما. وأنتما الغطاء للشرق. أتسمعانني؟ مقاتلو تشارلي يلتفون عند تلك التلة، لا تفرا. أتسمعانني؟».

«أجل، أجل».

رمى الرقيب حزمة من مخازن الذخائر ذات العشرين طلقة «أبقيا بندقيتكما

على التلقيم الذاتي. أتسمعانني؟».

«أجل، علم».

«سيكون هناك المزيد من الضربات قريباً. ابقيا على أهبة الاستعداد. لا تتحركا وإلا سوف تتعرض مؤخراتكما للقصف».

«علم، علم».

«إذا فعلنا هذا بالشكل الصحيح، فسوف نلتف من وراء ظهورهم وستكونان آمنين لصعود التلة. عند إشارتي. حين تريان إشارتي من الغرب اصعدا التلة إلى المهبط. فقط عند إشارتي».

وضع يده على كتف جايمس وهزه حتى قال جايمس: «علم، عند إشارتك».

عاد الرقيب على أعقابه باتجاه الغرب، ثم تسلق الجرف وهبط من الطرف الآخر.

عند الجانب الجنوبي من أحد الأكواخ، عند ظله، وسعا مصرف مياه بمجرفتيهما، منكمشين مع صوت كل انفجار مدفعي. كان الدويّ يوازي أكبر قصف رعد سمعه جايمس في حياته.

«إنني أفعل هذا أسرع بكثير مما فعلت خلال التدريبات»، قال المجنّد. نزلا إلى الحفرة وقال «اللعنة إذا كنت أعرف... أعطني حلوى M&M».

في حزامه، في مكان أحد خزانات الذخيرة، كان جايمس يضع كيس M&M

«أعطني حفنة منها»، قال المجنّد.

«سأفعل إذا توقفت عن قول: اللعنة إذا كنت أعرف، طوال الوقت».

«إنها عادة، إنني لا أكررها بهذه الكثرة».

«قل، على حدّ علمي أعلم أو قل، يا إلهي، أو قبل مؤخرتي، فقط قم بالتنويع قليلاً».

«علم أيها العريف».

«ما اسمك؟».

«ناش».

«اللعنة»، صاح جايمس. اخترقت أعيرة نارية الأكواخ مفجّرة القش في كل مكان.

كان قد خضع لدورة تدريب أساسي، على استعمال السلاح، على القتال في الأدغال، على القتال الليلي، على البقاء على قيد الحياة، على المراوغة والفرار؛ لكنه أدرك الآن أن أحداً لا يستطيع تدريبه على هذا بأي شكل من الأشكال، وأن مصيره سيكون الموت.

أخفض صوته: «هذه ليست رشاشات أم16، إنها كلاشينكوف بكل تأكيد[1]». زيب، زيب، زيب لعلع الرصاص فوق رأسيهما كالحشرات، زيب، زيب. الغبار وأشلاء القش تحوم في الهواء. وأوراق النخيل تتساقط على بعد أمتار قليلة فحسب.

«إنهم يقتلون كل شيء!»، قال ناش.

«لا يعرفون أننا هنا»، قال جايمس، «لذا اخرس، ماشي؟».

«لم يردّ أي منهما إطلاق النيران.

رشقة من رشاش أوتوماتيكي انطلقت من الغرب. أحدهم يصرخ: «غطوني، غطوني، غطوني، غطوني»، نهض جايمس ورأى بلاك مان ينزل من الجهة الغربية للجرف، صارخاً: «أطلقوا النار! أطلقوا النار! أطلقوا النار!»، مطلقاً النار باتجاه الشرق. وبدأ جايمس يطلق الرصاص باتجاه الشرق. كان بلاك مان يحمل على كتفه رشاش أم 60، جاراً وراءه صندوقاً زنة خمسين كيلوغراماً من الذخيرة. هبط في خندقهما فوقهما مباشرة وفجر طبلتي أذنهما بصراخه: «لا أحد يتجاوز ابن السافلة هذا!». جثم على ركبتيه وأخذ يطلق الرصاص، ناثراً التراب على الأرض فوقه. كان يمشّط حافة الجرف كالبلدوزر. «لدي من الذخيرة ما يكفي لإبادة الجنس البشري».

(1) الأولى أمريكية الصنع والثانية سوفييتية.

لن أخاطب أحداً باسم زنجي ثانية، وعد جايمس في قلبه.

«أتصدق هذا الهراء؟».

«ما الأمر؟ ما الأمر اللعين؟».

«قال الرقيب إن الجبل كله يتعرض للهجوم!».

«الشباب يسيئون التصرف، عادة لا يهاجمون في وضح النهار».

«اللعنة»، قال جايمس».

«ما الأمر؟».

«لا أعرف، إنك تضحكني».

«أنت تضحكني».

«لِمَ نضحك؟».

لم يتمكنا من التوقف. المسألة برمتها. تجعلك تشعر فحسب بالسعادة الغامرة بحيث لا تستطيع كبح جماح نفسك والكف عن الضحك. قال جايمس: «اللعنة إذا كنت أعرف»، وأعاد تلقيم بندقيته وأخذوا ثلاثتهم يضحكون ويطلقون الرصاص حتى أفرغ جايمس مشطين آخرين، وصاح بلاك مان: «توقف، توقف، توقف، أوقف النار اللعينة».

المنطقة المحيطة بهم مباشرة كانت هادئة، وإن ظلوا يسمعون القصف المدفعي أو الرشاش من مكان ما في أعلى التلة.

قال بلاك مان: «أعطني M&M».

«بكل سرور»، قال جايمس وأعطاه الكيس كله. مزقه بلاك مان بفمه وازدرد محتوياته بسرعة.

سمعوا أصواتاً مصدرها الأكمات التي قبل دقائق فحسب أهالوا عليها نيرانهم.

«ما هذا؟ سنجاب من الفييتكونغ؟».

«قرد».

«إنه قرد جبون»، قال جايمس.

ابتسم بلاك مان كاشفاً عن أسنانه المليئة بالشوكولا وقال «ها هي ذي الإشارة. سنذهب إذن».

«إلى أين؟».

«سننتقل إلى الأعلى».

«الأعلى؟ ليس من أعلى هنا».

«سوف ننتقل ما إن يبرد رشاشي. لا أستطيع لمسه الآن».

«ما الذي يجري هنا؟».

«المسه. سوف تذوب أصابعك».

«لن ألمس أي براز».

«ضع مشطك الثاني، كلاكما»، قال بلاك مان «علينا أن نصعد إلى التلة».

«كان ذلك قصف مدفعي يا رجل».

«يجب أن نصعد. فلنقف على أقدامنا».

توجه بلاك مان إلى أعلى التلة حاملاً رشاشه العملاق المدثر بقماشة خضراء على كتفه مثل معول عامل منجم. تبع هيوستن بلاك مان، وتبع ناش هيوستن.

فوقهما انتشرت حقول الأرز على سفح التلة. تحركوا على طول الخندق، مندفعين بصورة عامة إلى الأعلى.

من العدم لعلعت رشقة نارية، وأخذ الرصاص يثقب الماء.

هرعوا بصمت فوق رقع الأرز، وقفزوا إلى الجانب الجاف وزحفوا حتى وجدوا خندقاً ارتموا فيه بعيداً عن أي كان من يحاول قتلهم.

«أنتما لا تفهمان»، قال ناش «أنا غير مستعد لهذا على الإطلاق. لقد وصلت منذ ثلاثة أيام فحسب!».

«وأنا تطوعت لجولة ثانية تواً»، قال جايمس، «لا أعرف أي واحد منا هو المغفل».

عبروا أكواخاً تحترق وقرى فارغة ولم يروا أحداً البتة. في غيابهم التام بدا أن السكان يفرضون حضورهم بقوة. لكن كان ثمة حراك قدماً. سمعوا إطلاق رصاص. وفي لحظة ما سمعوا صوتاً يصرخ بلغة أجنبية. وصلوا إلى قرية فرّ سكانها قبل دقائق معدودات، وحتى إنهم خلّفوا وراءهم جدياً مطوقاً بالأوتاد في حديقة، وقد رفع عنقه وكأنه يعرضها أمام الفأس، إلا أنه كان يتبرز فحسب. في قلب الحرب تماما.

تسلق الجنود الثلاثة نحو قمة التلة.

عند الغروب كانوا قد قطعوا سبعة كيلومترات في جبل مليء بأناس يحاولون قتلهم. بالنسبة إلى جايمس بدا أن التسلق لم يستغرق أي وقت على الإطلاق. اصطبغت السماء باللونين الزهري والأرجواني وهم يتسلقون آخر نصف كيلومتر إلى المهبط، ومع وصولهم إلى القمة رأوا جثة ممدة في زي عسكري أمريكي، وقد تمزّق نصفها السفلي، وتهشّم رأسها تماماً تقريباً، لم يكن جايمس واثقاً من أنها جثة، لأنه لم يكن أحد منهم ينظر إليها حتى.

في مركز المهبط انتظر بعض العاملين الطبيين عودة طوافة، قالوا إنها التفت وغادرت بسبب الإبلاغ عن نيران صاروخية. «ربما كانت مجرد كشافات ضوئية»، شرح معاون لبلاك مان «اخترق أحدها الجانب الأيسر من الطائرة وتوجّب إخراجه»، ومع ذلك لم يأت أحد على ذكر الجثة. لازم جايمس بلاك مان وناش. جلسوا على جدار من الدشم ناظرين نحو الأسفل إلى الجبل الذي أمضوا للتو خمس ساعات وهم يتسلقونه في حركة متعرجة مجنونة. كان الوادي الشرقي يقبع في ظل بارد.

«ما كان هذا كله؟»:

«لا فكرة لدي».

«لقد هاجمونا. إننا عدوّهم».

«لست عدو أحد».

«لا أريد أن أكون صديقاً أو عدواً أو أيّ شيء».

«أين الرقيب؟».

«أين كتيبة الاستطلاع؟».

اقترب منهم نقيب لم يتمكن جايمس من أن يتذكر أنه رآه سابقاً، وقد امتلأ من رأسه إلى أخمص قدميه بالتربة الحمراء، وهو يمضغ عقب سيجار، رامشاً بسبب العرق في عينيه «هذا معسكر القاعدة». طارت فراشة على جبينه «أريد تأمين هذه المنطقة بأسرها».. ثم استدار ورحل.

«أيها النقيب، إننا نبحث عن الرقيب هارمون».

«أين كتيبة الاستطلاع؟».

أشار النقيب إلى بلاك مان وسلاحه الضخم «اعثر على بديل لهذا الرشاش». وغادر. ولم يأت ثلاثتهم بأيّ حركة.

جاء جندي من الكادر الطبي يبدو هيبي المنظر له شارب طويل ويعقد عصبة زرقاء حول رأسه، وأحضر لثلاثتهم وجبات ساخنة موضوعة فوق بعضها بعض، وشكروه بشدة، وإن قال ناش: «لديك واحد من تلك الشوارب العجيبة».

شعر جايمس تجاه جميع أولئك الرجال المحيطين بمودة عميقة لم يألفها من قبل. قال العامل الطبي إنه لديهم قتيل قضى خلال القصف المدفعي. قال جايمس: «لقد رأيت ذلك الشاب! رأيت جثة. لكنني حسبتها شيئاً آخر».

«شيء آخر؟ ما الذي يمكن أن تكونه سوى ذلك يا رجل؟».

«صحيح»، قال بلاك مان، «لقد رأيناه».

«لا أفهم هذا»، قال جايمس. لم يستطع بعد أن يقرر ما إذا كان قد خاض معركة أم لا «أكان هذا الجبل برمته يتعرض للهجوم أم لا؟».

أمر ذاكرته بأن تنتج نوعاً من التاريخ لفترة بعد الظهر هذه. كان كل شيء مفعماً بالفوضى والحركة . كان متأكداً من أمر واحد، أنه في حياته لم يتحرك بمثل

هذه السرعة أو بمثل هذا التيقّن مما يفعله. كل الهراء قد تبدد.

بدا أن المعركة انتهت. لم يكن من تفسير. فمقاتلو العدو لم يقلقوا هذا الجبل يوماً. فجأة تبدد سكان السفح الغربي، ثم جاء أولئك الفييتكونغ، الذين بدورهم تبخروا. أقعى جايمس وتناول النقانق بالفاصولياء. ما زال زيّه تقطر عرقاً. ولاحظ أن ناش أيضاً يتصبب عرقاً. قال جايمس: «كيف حالك؟».

قال ناش: «إنني بخير يا رجل. لماذا؟ ألا تصدقني؟».

ارتبك جايمس ولم يسعه سوى أن يقول: «بلى، أعتقد أنك بخير. بالتأكيد. بلى».

قال ناش: «خصيتاي تتعرقان، هذا كل ما في الأمر، هذا ليس بولاً».

في الغسق قادهم الطاقم الطبي عبر ممر متعرج إلى جدول صغير حيث وجدوا شباناً بلا قمصان يستحمون فوق الخاصرة. أحدهم أقعى على الضفة، عاصراً جوربيه فوق الجدول الموحل. كانوا جميعاً مبتهجين يضحكون ويهتفون. وقد خلعوا جزماتهم وقمصانهم، فالنداء الشرعي للاغتسال يعني أن الأمر انتهى، وأنهم باتوا آمنين تماماً. في الضوء الذابل شعر جايمس بالانتشاء والسعادة، وأعطاه كل وجه ملطّخ من وجوه الشباب إحساساً بالحب الأخوي.

«أنتم يا شباب من كتيبة الاستطلاع الخفيفة».

كان المتكلم جديداً على الأرجح؛ لم يدرك أن كتيبة «إيكو» كانت مزحة. كانوا يتنقلون خفيفين فعلاً. جايمس نفسه لم يحمل أكثر من حقيبة ظهر، مجرد فتى كشافة يحمل ممطراً وعدة حفر، وسبعة مخازن سعة عشرين طلقة، وحفنة من التمائم العاطفية – الواقيات الذكرية، وقطع البوكر والحلوى – ومسحوق طارد للحشرات ومناديل مخضلة بهذه المادة. كان قد استنتج أن احتياج شيء ما كان بصورة عامة أقل إيلاماً من أن يحمله معه.

قال أحدهم: «حسناً، لقد انتهت الحرب. سوف اذهب إلى القرية وأمارس الجنس. هناك عاهرتان تقومان بذلك مجاناً في عيد التيت».

«غداً هو التيت. إنه الثلاثين من يناير يا رجل؟».

«متى؟».

«بل اليوم. يا إلهي».

اقترب منهم أحد جنود المشاة من المهبط مردداً: «اللعنة! اللعنة!»، لاحظ جايمس أنه هو نفسه يبدو مثله على الأرجح - متعرق، متسخ، ومتوحش العينين. «اللعنة! اللعنة!»، قال الفتى. هرع إلى حافة الجرف قبالة المسافة الأرجوانية التي تفصلهم عن ظلال الجبال الأخرى: «اللعنة».

قال له أحد رفاقه: «اللعنة علام؟».

عاد الفتى وجلس وهو يهزّ رأسه. وأمسك يدي صديقيه وكأنها تحية دافئة غريبة «اللعنة. لقد قتلت شاباً».

«أظن ذلك. اللعنة».

«ليس الأمر مختلفاً عن قتل غزال».

«هل قتلت غزالاً يوماً؟».

«أظن أن الأمور اختلطت عليّ من الأفلام. لكن حدث الأمر بسرعة شديدة... بينغ... والآن انتهى».

«لا يبدو أنه انتهى تومي».

«هاي، نصف جمجمته تشظى في الهواء، أيبدو لك أنه انتهى بما فيه الكفاية؟».

«اهدأ، إنك تفقد السيطرة على أعصابك».

«أجل حسناً، يجب أن أسترخي قليلاً».

«هاي، اترك يديّ أيها المخنّث».

كان جايمس قد قتل أحدهم أيضاً. رأى فوهة بندقية تلتمع، فرمى قنبلة على حديقة صغيرة، وبعد الانفجار رأى رجلين يجرّان من المكان إلى الأدغال، ولم يبد على قيد الحياة. استولت الصدمة على جايمس إلى درجة أنه لم يطلق الرصاص على

المنقذّين اللذين ربما يكونان وربما لا يكونان من الفييتكونغ.

كان معه خمسة مخازن عشرين رصاصة وأحضر الملازم ثمانية وعشرين مخزناً إضافياً. وقد أطلق ثلاثمئة رشقة ورمى قنبلتين وركض عشرة كيلومترات وقتل جندياً محتملاً من الفييتكونغ.

أخذ الآخرون يتفرجون بينما أخرج تومي سيجارة وولاعة زيبو من جيب صديريته. أشعل السيجارة ونفخ الدخان بنوع من الثقة بالنفس وقال لزميله: «أقتلت أحداً منهم».

«أظن ذلك».

«أيّ واحد؟».

«لا أعرف أيّ واحد. أنّى لي أن أعرف بحق الجحيم؟».

كان جايمس قد أنهى جولته الأولى بأكملها من دون أن يصيب أحداً، وها هو في بداية دورته الثانية وثمة أناس قد قتلوا.. وهذا الشاب تومي يغني مبتهجاً حول الأمر.

ذهب العامل الطبي إلى خلف الأشجار مع شابين وسرعان ما انبعثت رائحة الحشيشة، لكن لا بأس بذلك، فليفسدوا عقولهم، إنها الحرب.

الشمس، التي تنحدر بعيداً إلى جهة الغرب، برزت من وراء جبل وألقت أشعتها على الوادي. ووراء حقول الأرز اضطرمت الأدغال بألوان ناعمة. ومن مسافة أبعد إلى الأسفل سُمع نخير خنزير يُذبح تحضيراً لعيد التيت. أخذ أحد الفتية يغني إحدى أغنيات البيتلز مبدّلاً كلماتها:

أغمضي عينيك وافتحي ساقيك

وسوف أخصّب بويضاتك...

قال فتى آخر: «اللعنة، أنتم يا شباب كنتم تقاتلون؟ لقد قمنا بدورية نزولاً إلى منتصف الطريق الجبل ثم عدنا أدراجنا، ولم نر شيئاً ولم نضغط على الزناد. سمعنا صواريخ يا رجل، طائرات، مروحيات، قنابل – ولم نرَ شيئاً. سمعنا القصف

المدفعي يا رجل. ولم نرَ أيّ شيء لعين».

جاء شاب يافع قائلاً: «ها قد جاء هانسون جالباً البهجة للجميع»، وفتح رزمة من ست قناني من جعة بدوايزر رماها بين الأقرب إليه، الذين انقضوا عليه كالكلاب المسعورة.

«من هو هانسون؟»، سأله جايمس.

«أنا! أنا هانسون!».

تخيل رأس هانسون وهو ينفجر. كان قد سمع فحسب عن أناس يسقطون موتى بالرصاص العشوائي أو بطلقات قناص كامن: تخطر ببالك فكرة واحدة، تقول كلمة واحدة، ثم تسقط ميتاً. تنحني لكي تعقد شريط حذائك، وإذا برأسك ينفجر. لم يرد أن يسقط صريعاً ولا أن يكون بجوار أيّ شخص آخر يسقط صريعاً.

توجّه بلاك مان إليهم جميعاً بالقول: «عليكم أن تراقبوا الكارما الخاصة بكم في زمن الحرب. لا أحد يغتصب النسوة أو يقتل الحيوانات إلا إذا فسدت الكارما الخاصة به. الكارما أشبه بالعجلة. تديرون عجلة تحتكم، فإذا بها تحرّك عجلة فوقكم. وأنا على مقربة منكم، والكارما الخاصة بكم تلمس الكارما الخاصة بي. عليكم ألا تقلقوا أيّ من الكارما على الإطلاق».

«ما هذا، كلام يخص المسلمين السود؟».

«لست مسلماً؟ لقد عشتُ ورأيت فحسب».

كان يتكلم هراء تاماً ما كان ليطبقه البتة على نفسه. لكنه جعل جلد جايمس يرتعش وهو يسمع هذه الإنذارات.

ما إن حل الظلام لكي يخفيهم عن مسؤوليهم، وجد جنود كتيبة إيكو الثلاثة أراجيح شبكية لا يشغلها أحد بين بعض الأشجار عند الجانب الشرقي من الموقع، أبعد ما يمكنهم الابتعاد عن المكان الذي وصل إليه العدو بعد ظهر ذلك اليوم، وأغفوا فوراً وهم ما زالوا ينتعلون جزماتهم وأحزمتهم. إلى أن يأتي أصحاب

الأراجيح ويطردوهم، كان هذا مبيتهم. هبط الليل. حين اضطجع جايمس جانباً ناظراً بمستوى الأرض، رأى بعض الوميض الفوسفوري بين النبات، وإلا لكان حسب أنه قد أصيب بالعمى. أخذ البعوض يطنّ حول الشبكة. نشر المناديل المخضّلة بطارد الحشرات على كل مواضع الشبكة التي قد تلمسها ذراعاه أو وجنته في أثناء نومه. كان ثمة أشياء تزحف في حثالة العشب. إنه شأن الليل دوماً. لقد أقدم اليوم على قتل أحدهم، قبل أقل من ثماني ساعات. خلال دورة التدريب الأساسي لم يفكر البتة في قتل أحد، بل في أنه قد يُقتل فحسب، في السيارات التي لن يستطيع التسابق بها، والنسوة اللواتي لن يظفر بهن، لأنه سيكون ميتاً. سمع شابين يتكلمان. كان أكثر استثارة من أن ينام. حين يقترب منك الموت تجد نفسك هابطاً إلى روحك مباشرة. أولئك الآخرون شعروا بذلك أيضاً. أحسّ بذلك في أصواتهم.

في الليل رفع جايمس الشبكة وخرج من الأرجوحة ظاناً أنه يفعل ذلك بسبب حاجته إلى التبول، لكنه أدرك عندئذ أن القصف المدفعي قد بدأ في مكان ما أسفل الجبل ثانية. سمع أصواتاً تشتم: اللعنة ، تباً، أو تصيح:، هيا! هيا! هيا! ورأى الكشّافات الضوئية تنير السماء إلى جهة الشرق، وفي نورها الجمريّ الخافت أسفل التلة رأى الجروف العارية بفعل مبيدات الأعشاب ترقص مع ظلالها الخاصة. رأى ومضاً ينطلق من ماسورة رشاش، وسمع صوت بوب بوب بوب المنبعث من بنادق الكلاشنكوف، ورشقات بنادق الأم 16. سمع طائرات مقاتلة. سمع مروحيات. سمع صواريخ. تجمّد قرب أرجوحته، حاملاً سلاحه، خائفاً، بكّاء، مغفلاً، ووحيداً. الآن رأى القصف المدفعي على حقيقته– انفجار أحمر برتقاليّ بحجم بيت – بعد ثانية من ذلك الدوي المرتفع جداً إلى درجة أنه أحسه يثقب طبلتي أذنيه. تبعه دويّ ثان، وثالث، ورابع، أقرب فأقرب. نيران رشاشات تلعلع حوله، فراغة رصاص ارتدّت عن خوذته وبندقيته.

«هاي، هاي، هاي»، شدّه أحدهم من حزامه ودفعه إلى الخلف. كان بلاك

مان «ما الذي تفعله؟».

«أوه لا، اللعنة، اللعنة، اللعنة».

«إنك تركض نحوهم مباشرة، انخفض! انخفضّ».

«عذراً، عذراً، عذراً».

«أوه اللعنة! إنه يرسل إشارات».

قال جايمس: «ماذا؟».

«هيا، هيا، هيا».

سبقه بلاك مان، وحاول جايمس أن يمسك به من قميصه، لكنه كان قد رحل، متقهقراً إلى الخلف. كانت كل المنطقة المحيطة به تتقهقر إلى الخلف. كان ناش بجانبه، طيف في ضوء الخطّطات. «لا تطلق النار! هذا أنا! هذا أنا»، أكنت أطلق الرصاص؟ سأل جايمس، لكنه لم يسمع صوته. كان كل هذا تخاطراً ذهنياً. تحرك من دون أن يلامس الأرض. إلى أين؟ إلى هنا، إلى هنا تماماً. ما زال مع ناش وبلاك مان. قال ناش: «من هؤلاء القوم؟».

«هناك شخص يعطيهم الإحداثيات على القمة الأخرى»، قال بلاك مان: «إنهم يقصفوننا بالمدفعية».

أصوات: «أين جهاز اللاسلكي خاصتي! راديو! راديو!».

«هنا هنا هنا!».

«قل لهم إن المعركة حامية الوطيس هنا فوق. لا أحد ينزل إلى الأسفل!».

«كرر كرر».

«ابقوا بعيداً عن المهبط! إننا نتعرّض للقصف! إننا نتعرض للقصف!».

انبطح جايمس بطنه قابضاً على التراب، بينما الأرض تهتزّ تحته. لم يستطع البقاء ثابتاً. بالكاد تمكن من التنفس.

«ماذا يريد هؤلاء الملاعين!».

سأل جايمس، أأنا أتحرك؟ كانت الظلمة دامسة بما فيه الكفاية لكي يشربها

ومخططة بالأخيلة التي تعقب الكشّافات الضوئية وكشافات البنادق. الآن ساد صمت. ولم يعد يسمع حتى طنين بقة. في مثل هذا الصمت غير المسبوق أدرك جايمس من التكة الصغيرة التي يصدرها خزّان بندقيته أنه فارغ، بينما قبل دقيقتين فحسب كان الدويّ حوله هائلاً إلى حدّ أنه لم يتمكن من سماع صراخه الخاص. في هذا الصمت الجديد لم يرد أن يستبدل مشط الخزان لأنه خشي من أن كل حواس العدو سوف تسمع الصوت، وسوف تمزقه أشلاء، أشلاء، أشلاء.

على بعد كيلومترين إلى الشرق في الظلمة كان ثمة جبل آخر، لم يكن يعرف اسمه، ولم يفكر به يوماً، إلا أنه الآن ثمة إطلاق نار هناك، صوت متقطع عديم الأهمية. والمزيد منه على سفح في الأسفل، ما زال يجري خارج عالمه عالمه، إنما أقرب، متقطّع وجلي. كان يسمع بوضوح ما دام لا يضطر إلى أن يطلق الرصاص بنفسه.

من الغرب جاءت طائرات. «أولئك الأوغاد سيصبحون في عداد الموتى الآن»، قال أحدهم.

أشعلت الصواريخ الجبل برمته تحتهم ووريقات النبات فوق رؤوسهم.

«لا تطلقوا النار، لا تطلقوا النار»، صاح أحدهم وهو يجري قافزاً «هذا هانسون فحسب!». وإذا به يقفز بجانب جايمس قائلاً: «هانسون يقول لعنة لعناء».

بقدر ما أمكن جايمس أن يميز فقد كانوا ستة، بمن فيهم هانسون هذا، منبطحين على بطونهم على العشب، فوق جرف تماماً.

في الصمت بين الضربات الجوية على الجبل في الأسفل تكلم بهدوء، مثل معلق على مباريات الجولف في خضم لحظة متوترة من اللعب «هانسون يبقى منخفضاً. هانسون يحنّ بالعرق على ظهره. إبهام هانسون على صمّام الأمان، أصابعه على الزناد. إذا جاء العدو، فسيجد نفسه في ورطة كبيرة. هانسون سيفجر وجوههم. إصبع هانسون يلحس الزناد مثل البظر. هانسون يحب سلاحه كما

يحب البظر. هانسون يريد العودة إلى الديار. هانسون يريد ملاءات تعبق بالنظافة. ملاءات نظيفة في ألاباما. لا هذه الوسخة في فييتنام».

لم يزعج أحد هانسون حول ذلك. أدركوا أن الأعداء قتلة محترفون، أما هم فمجرد فتية، وأنهم في عداد الموتى. كانوا مسرورين لسماع صوت هانسون وهو يتكلم عن هذه اللحظة بالذات وكأنه يمكن فهمها وربما حتى النجاة منها.

«ماذا يفعل جماعتي الإيكو؟». كان صوت الرقيب هارمون الذي جاء يمشي خلفهم منتصب القامة على وهج قصف آخر في الأسفل. «كم واحد منا هنا؟».

قال بلاك مان: «خمسة إيكو وواحد من الخارج».

قال الرقيب: «ثمة نشاط أسفل هذا المنحدر على بعد مئتي متر تقريباً. سوف نقلّص ذلك إلى خمسين متراً ونطلق النيران. اتبعوني. حين تتضح الرؤية تنبطحون أرضاً وتنظرون، وحين تعتم ثانية تتحركون إلى حيث نظرتم». انحنى ولامس كتف جايمس «إنك تتنفس بعمق شديد. اجعلها أنفاساً سريعة عبر أنفك، وهذا كل ما تحتاج إليه. لا تبدأ بالتنفس بعمق في هذه الأوضاع، وإلا تخشبت يداك وأصابعك».

«حسناً»، قال جايمس، وإن لم يكن واثقاً من أنه فهم عمّ يتكلم.

«هيا بنا»، قال الرقيب، وتحركوا. فوق الوادي الكشافات تعلقت بأذيال دخانها، ثم انفصلت عنها، وانجرفت ساقطة، ومع تحرك جايمس قدماً أمكنه أن يرى قدميه في شبه ضوء دخاني. ما دام يتحرك إلى الأمام فلا شيء يمكنه أن يقتله. كل لحظة تأتي مثل لوحة في كتاب مصوّر، وهو يتموضع بصورة ممتازة داخل كل لوحة. الضربات الجوية تضيء الليل، والكشّافات ترتعش في السماء، والظلال السوداء تتحرك بسرعة حولهم. «بلاك مان»، صاح جايمس «بلاك مان!»، سمع الرشاش الضخم أمامه وانبطح ومضى زحفاً نحوه. لعلع الرصاص في أوراق الشجر حولهم من كل الجهات. أحدهم أصيب، وأخذ يصرخ، بلا توقف. أمامه تماماً شاب راكع وقد نزع خوذته بسبب إصابة في رأسه، لا كان هذا الطبيب الهيبي

وقد ربط منديله حول رأسه، زاماً بين شفتيه إبرتين من المورفين مثل سيجارتين بينما انحنى فوق الجندي الصارخ الذي كان الرقيب «سيرج، سيرج، سيرج!»، قال جايمس، «جيد، جيد، تكلم إليه، لا تتركه يغيب عن الوعي»، قال الطبيب، وقضم طرف الإبرة وغرزها في عنق الرقيب الذي ظلّ يصرخ كطفل، مفرغاً ومالئاً رئتيه مراراً. «انبطح أرضاً، هلا فعلت؟»، قال الطبيب. انحنى جايمس وزحف نحو موقع بلاك مان، مطلقاً الرصاص أسفل التلة نحو وميض ماسورة بندقية تطلق الرصاص. عرف أنه يقتل الناس. أن يتحرك، هذه هي الحيلة. أن يتحرك ويقتل، تملكه شعور رائع.

منذ الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، تحضر كاثي ولادة صعبة. عند الخامسة، لم يكن قد ظهر سوى أعلى الرأس. وبعد ذلك وجه الطفل، بلا عينين ولا أذنين. الأم الصغيرة كابدت لكي تخرج طفلها المشوه، لكن لم يحصل شيء بعد. لم يكن في وسع العائلة تحمل كلفة قابلة. كان ثمة طبيب بريطاني آت على الطريق من «مركز الطب الأحيائي»، حيث يقوم بدراسة أنوع من القردة. كانت كاثي مستعدة لمساعدته تساعده كاثي، ربما لإجراء ولادة قيصرية. كان معها مورفين وليدوكائين. أملت أن يأتي الطبيب بشيء أفضل.

كان الأطباء الفرنسيون يقولون إن الأسمدة الكيميائية تتسبب بهذه الولادات المشوهة. أما الناس أنفسهم ففسروا ذلك بطريقة أخرى، وناشدوا الآلهة التي أهانتها التصرفات الخاطئة لكي تتوقف عن معاقبة الأطفال الرضع البريئين. أي تصرفات خاطئة؟ الأفكار التي في القلب. شابة تحمل وهي يافعة هكذا لا بدّ من أنها تحمل صوراً رهيبة في داخلها. أحلام أو أشواق أو أفكار قذرة. على سريرها في الكوخ المنخفض بدت الصغيرة خالية من أي أفكار. ساقاها منفرجتان، يداها مبيضتان مشدودتان. الجهد، التنفس، الجسد – أجاء ذكر ذلك في رسالة بولس

الرسول إلى أهل كولوسي؟ – شيء ما عن الجسد الذي خيط إلى بعضه بعض بمفاصل ورُبَط... – هذا الجسد لم يبدُ أكثر من ذلك. الحرب عطبت الكثيرين من الأطفال الذين عملت معهم، ساق او اثنتان بترتا، ذراع أو اثنتان – الوجوه احترقت، البصر فقد. ويتّموا. لكن الآن هذه المعجزة كبيرة الرأس، ذات النصف وجه، العالقة في فتحة الرحم، التي تخرج أصلاً مشوهة بفعل الصراع.

عند قرابة العاشرة بات جلياً أن الطبيب لن يأتي. سرعان ما توقف قلب الطفل. أخرجت العائلة من الغرفة وقطعت حبل المشيمة وأخرجت الطفل دامي الأوصال، ونظفت قدر مستطاعها، ثم قرابة منتصف الليل نادت العائلة للدخول ثانية. اضطجعت بينهم، قرب الفتاة. في الليل في الخارج فرقعت الألعاب النارية احتفالاً بالتيت، ولوّحت أيدي المحتفلين بالشعل اليدوية . أغفت.

ثم دوّت انفجارات أكبر، أكبر بكثير. حسبتها عاصفة. الرب بأفكاره البيضاء الكبيرة. إلا أنه كان قتال، بعضه إلى جهة الشرق وبعضه جنوباً، كما لم تسمع من قبل طوال فترة وجودها هنا، انفجارات أشبه بمفرقعات نارية في صفيحة قمامة، إلا أنها بحجم يضاهي الرعد الطبيعي، بدويّ يبلغ العظام. عدت الثواني بين الالتماعات والانفجارات وقدّرت أن بعضها يسقط على بعد كيلومترات قليلة. كان أهل البيت مستيقظين، لكن لم يشعل أحد مصباحاً. بعيداً في الخارج فوق حقول الأرز صوّبت طائرة مروحية شعاع كشّافها الأبيض بين المتعقبات البرتقالية ثم أطلقت زخة رهيبة من رشاشاتها الوامضة. استمرت المعارك لساعات، الأرواح الممزقة تتأرجح في العاصفة. توقف القصف. تبعه إطلاق نار متقطع. وبحلول الفجر كان قد انتهى كل شيء. بدأت أصوات صرّارت الليل، وملأ الأجواء نور بطيء عذب. وأخذ قرد جبون يزعق فوق قمم الأشجار، حتى ليحسب المرء أنه ليس ثمة من سلاح في العالم بأسره. جاء ديك صغير ووقف عند الباب، ورفع منقاره، وصاح مغمضاً عينيه. يحسب المرء أنه السلام على الأرض.

بعد ذلك استدعيت إلى قريبة قريبة تعرضت للقصف، ولم يكن واضحاً ما إذا

كان ذلك من قبل الفييتناميين الجنوبيين أم الأمريكيين، إنما في الحالين فقد وقع خطأ. كانت كاثي قد رأت أناساً محروقين، لكنها لم ترَ قط مكاناً تعرض للحرق. وصلت قبيل الغروب. لطخة سوداء بحجم ملعب كرة مضرب، امتدت من أحد الأطراف، إلى نصف القرية. كان رماد حيث انتصبت في السابق بضعة أكواخ، وحقل أرز مدمر. رائحة القش المحترق، وكل شيء يعبق برائحة الكبريت. على الأرجح لم تكن قذيفة نابالم، كما رأت، بل قنبلة فوسفور أبيض. عندما سمع القرويون هدير طيران منخفض، هرع القرويون للاحتماء في الأدغال. قتل العديدون. ووجدت كاثي فتاة يافعة ما زالت على قيد الحياة، في صدمة عميقة، مليئة بالحروق، عارية. ليس من شيء تستطيع فعله لها، فلم تلمسها. تجمّع القرويون حولها في الغسق. وكان اللون الأخضر المصفر المتوهّج على جلدها يتبارى مع آخر أشعة للنهار. بدت سحرية، وفي خضم تعب كاثي، وذلك الجو التالي للقصف والصمت بدا المشهد حلماً. كانت الفتاة أشبه بإله يستمد قوته من القمر. وحتى بعد توقف كل الإشارات على أنها حية، ظل جلدها يومض في العتمة.

بقيت في القرية حتى الصباح ثم اتجهت على دراجتها الهوائية إلى المركز الطبي الأحيائي. كان قد وصل خبر ليلة أمس أن المنشآت هناك قد تعرضت للقصف. دمرت، هكذا قيل. الفتى الذي جاءها بالخبر، الذي لا يمكن أن يكون عمره أكثر من عشر سنوات ومع ذلك انتقل في الظلمة حاملاً على كتفه منجلاً أشبه بفأس حطاب، واقتادها في ضوء الفجر عبر طريق قادومية تتخلل رقع الأرز والحقول، وداست كاثي على دواستي دراجتها بصعوبة على الطريق، مستعجلة الوصول إلى الزوجين المختصين بالقردة فوراً. قادتها الطريق المختصرة إلى قناة ضيقة تصطف على جانبيها البيوت، وغلى امتداد أرض مسطحة من حقول الأرز. في البعيد مروحية أمريكية تمشّط النهر وقد اصطبغ أحد جوانبها بضوء زهري تحت نور الشروق. هنا وهناك كان المزارعون يعملون في حقول الأرز في مثل هذا الوقت

المبكر، وفي مثل هذا اليوم، منحنين فوق البسلات، بينما حولهم يتسكع البط والدجاج وثور ماء ضخم، بلون بني خفيف، وقد بدا يتضور جوعاً، كل هذه الحيوانات كانت تتصرف وكأن الحرب شيء مستحيل.

ليس قبل وقت طويل من الظهر ارتقت هضبة منخفضة لتجد الدمار على الطرف الآخر. توقفت أعلى الهضبة المحترقة التي ما زال ما الدخان يرتفع من تربتها ونظرت إلى المركز الطبي في الأسفل. الجناح الذي يؤوي القردة قد محي تماماً، لكن ليس الأجنحة السكنية. مشت جارة دراجتها الهوائية فوق الأرض المتفحمة وانحدرت باتجاه المبنى. الشظايا اخترقت جدرانه لكن مصاريع النوافذ بقيت سليمة. رأت فتى يقعي حافي القدمين عند الباب ممسكاً بندقيته المنتصبة بإحدى يديه، باصقاً بين قدميه. نظر إليها وابتسم ابتسامة ناصعة في أُثناء مرورها به.

في غرفة المعيشة وجدت الدكتورة بينجهام، وهي امرأة نحيفة شبه مسنة، ترتدي ثوباً كاكياً ملطخاً بالدم، وقد قصّت شعرها قصيراً كالصبيان، واضعة سيجارة بين شفتيها وهي تحفّض واحداً من صغار القردة موضوعة على إحدى بطانيات الجيش فوق منضدة قهوة منخفضة. أحاطت بها الأسمال والضمادات الملطخة بالدماء. توقفت وأخرجت سيجارتها من فمها ولاقت كاثي بنوع من الابتسامة أو التكشيرة، قردية في حدّ ذاتها، بيما ترقرقت الدموع في عينيها «ماذا أقول الآن؟ ادخلي»، لوحت بسيجارتها بيأس «كوني على قيد الحياة».

بعد أن رأت حجم الدمار، شعرت كاثي بالقلق على العقاقير الطبية. إلا أنها رأت ثلاجتين في المطبخ.

قالت بعد أن جلست: «هذا رهيب».

«هذه كل التي نجت من الموت، بقدر ما أعلم. كانت لدينا أربعة أصناف من قرد اللانغور، الآن بقي اثنان». وبصورة غير متوقعة ضحكت، منهية نوبة الضحك هذه بسعال دخاني مبلل.

قالت كاثي: «هذا رهيب».

«إننا في مكان رهيب».

«إنه عالم متداع».

«سأكون حمقاء لو خالفتك الرأي».

بدت عشرة قردة أو زهاء هذا العدد تسترد عافيتها على البطانية، وقد ارتدت الحفاضات القماشية.

قالت السيدة بينجهام: «عذراً لأننا لم نتمكن من المجيء أمس. هل ساءت الأمور؟ يحسن ألا تجيبي».

«الأم بخير».

«والطفل توفي».

«صحيح».

«عذراً. كنا غارقَين في العمل. كانت الإنفلونزا متفشية بعض الشيء هنا. لكن هذا ما عاد يهم الآن، أليس كذلك؟».

وضعت كاثي حقيبة ظهرها على المنضدة وفتحتها وأخرجت كيساً بلاستيكياً صغيراً مليئاً بسجائر جي أي التي تقدمها كهدايا، وأعطتها كلها للسيدة بينجهام «بعضها يبدو مكسوراً، صح؟»، قالت.

حملت السيدة بينجهام القرد الصغير على رقبتها وكلاهما، هي والكائن ذو الحاجب الكبير نظرا إلى الكيس الصغير من دون فهم. «لدينا اثنا عشر مهداً، لكنها احترقت جميعها».

إنها مجرد قرود، كان هذا كل ما يمكنه فعله لكي تمنع نفسها من الصراخ، قرود، قرود.

في المطبخ كان ثمة خادمة شابة تنتعل صندلاً عالي الكعب وتنورة قصيرة، توقفت عن غسل الحفاضات الصغيرة في المغسلة لكي تبدي اهتماماً بكاثي «ماذا يمكنني أن أجلب لك؟»، سألتها.

قالت السيدة بينجهام «اغربي عن وجهي»، وعادت الفتاة إلى المطبخ.

«هل الطبيب هنا؟».

«إننا ننتظر. بعضها ربما هرب. إنه يبحث عن القرود الناجية».

«أيمكنه العثور عليها والإمساك بها؟».

«إذا كانت مصابة. هذا من نوع الرأس الذهبي». وضعت اللانغور المجروح على البطانية، فاضطجع على ظهره ناظراً إلى الأعلى بعينيه السوداوين وقد بدا شديد الاستثارة. «البقية على الأغلب قضت. كان يمكن أن نقتل جميعاً. الأوغاد. إنهم مرضى نفسيون. أوه حسناً»، قالت، «لقد جننا جميعاً، أليس كذلك، سواء أعترفنا بذلك أم لا».

سرعان ما دخل الطبيب وأشار إلى مجموعة الحيوانات الجريحة.

«انظروا إلى الفييتكونغ».

«أوجدت شيئاً».

هزّ رأسه نفياً.

سألت كاثي: «أكان قصفاً مدفعياً؟».

«صواريخ»، قال الدكتور بينجهام «طائرات، لا صواريخ فحسب».

«نابالم؟».

«على الأرجح».

«لابدّ من أنها كانت كذلك». انهارت زوجته بالبكاء. «ما زال الصراخ في رأسي – الآن بينما أتكلم. لا فكرة لديك. لا فكرة لديك».

«أنت لا تعرفين فحسب»، شرح الطبيب لكاثي «أنا آسف، لكنك لا تعرفين فحسب».

«ميمي»، قالت زوجته للخادمة «أحضري للآنسة الممرضة كوكا كولا رجاء».

قدّمت لها الخادمة كوكا كولا في كوب من مكعبات الثلج وجلسوا في غرفة

المعيشة تحت لمبات تضاء بمولد كهربائي بينما تكلم الدكتور بينجهام عن القردة. الأنواع الأربعة من اللانغور قد أصبحت تعتبر جنسين منفصلين، أحدهما ينقسم إلى ثلاثة أصناف فرعية. من بين هذه، ذو الرأس الذهبي، تراشيبيسوس، بوليسيفالوس، قد بات، بحسب تعبيره «نادراً بصورة مؤلمة»، مع ما يقدر بخمسئة هو العدد المتبقي منها فحسب. والآن تقلص العدد كثيراً. سمحا لكاثي بأن ترضع بالقنينة أنثى لنغور. كانت جذابة إلا أن لطخة زرقاء خرجت كفقاعة من أنفها، وتساءلت إذا كانت ستموت في حضنها.

تصرف الزوجان بكل ودّ، لكن عندما لاحظ الطبيب – وهو رجل ملتح ضخم الجثة في بداية الأربعينات لطالما اعتبرته كاثي شديد الجاذبية، سيد أدغال حقيقي – حقيبة ظهرها المفتوحة على منضدة القهوة، سألها: «ما هذا؟»، ببرود ونفور شديدين، بطريقة بالغة الغرابة.

«إنها آلة لقياس الضغط».

«إنها آلة تسجيل».

«إنها آلة لقياس الضغط».

«أنت تسجلين كلامنا».

«عزيزي إنها لا تشبه البتة آلة التسجيل».

كانت شفتا الطبيب مزمومتين شاحبتين. وأخذ يتنفس بصعوبة من أنفه.

قالت كاثي: «لقد أطفأتها الآن».

«احرصي على ألا تعمل ثانية».

«يظن أنها آلة تسجيل»، قالت السيدو بينجهام.

مدت كاثي يدها إلى كأس الكوكاكولا الموضوع على الأرض قرب كرسيها. كانت تغطيه النمال النارية، التي فرّت إلى الداخل من قيظ النهار في كتيبة يبلغ عرضها زهاء ست بوصات ويعلم الرب بشأن طولها.

«هل سمعت الأخبار عبر المذياع؟»، قالت السيدة بينجهام، «الشمال يهاجم

في شتى الأرجاء. لقد ضربوا السفارة الأمريكية».

«حقاً».

«لقد جرى صدّهم على ما يبدو. هكذا تقول الأنباء. إلا أنها الإذاعة الأمريكية. يريدون أن يبدوا منتصرين، أليس كذلك؟ عزيزي»، قالت لزوجها، الذي كان يهتم بأحد الكائنات الصغيرة، «إنها ميتة، ميتة».

«كنت أعدّل ذراعيها».

«دعيها وشأنها».

انقضت الخادمة على النمل بضربت قوية من مكنسة قصيرة الذراع، وكنستها خارج الباب الأمامي. الفتى الذي يحرس المدخل تقدّم مسافة قدمين إلى يساره. بدت الفتاة صينية، أطول من معظمهن، طويلة حقاً، مع تنورة سوداء قصيرة جداً، وساقين طويلتين.

سألت كاثي: «هل ستبقيان هنا؟».

«نبقى هنا؟».

«أيمكنكما إصلاح الأشياء. هل تظنان أنكما ستتمكنان من إعادة بناء المكان؟».

«ما الذي يمكننا فعله سوى ذلك؟ من سيعتني بها ما عدانا؟ إنها سبعة فحسب، لكن، أعني، مع ذلك. سبعة بقيت من أصل 160».

«168»، صحّح لها الطبيب.

«لديك خزين من المضادات الحيوية، أليس كذلك؟ أتساءل إذا كان هذا ما زال صحيحاً؟». كانت تعلم أنهما يضعان المضادات الحيوية في الثلاجة الثانية.

«اللعنة عليهم، من يحسبون أنفسهم، ما الذي يحاولون فعله؟ أنت كندية أليس كذلك؟ لست أمريكية».

قالت كاثي بهدوء شديد: «إنني أتساءل عن المضادات الحيوية التي لديكما الآن. الآن وقد اختلفت الأمور كثيراً».

«أوه، بحق الرب»، قالت السيدة بينجهام.

«كنت أتساءل عن سبب مجيئك».

«أعرف، أنا آسفة، أعرف»، قالت كاثي، «إنها فحسب طبيعة الأمور. سيكون هذا مصدر عون كبير».

«ألديك مكان بارد للتخزين؟».

«كنت أفكر في منشاة باو داي. لدينا ثلاجتان. سيساعد هذا حقاً. هناك زهاء مئتي طفل».

«كان لدينا مئة وثمانية وستون»، ذكرتها السيدة بينجهام.

«أجل:ـ قالت كاثي، يحدوها توق للكمها على وجهها. سألتهما ثانية: «ماذا ستفعلان؟»».

«سنبقى على الأرجح».

«أجل، سوف نبقى»، قالت السيدة بينجهام، وهي تحملق بالخادمة التي كانت تشطف خرقاً في المغسلة.

«إن مولدكما الكهربائي يعمل جيداً».

«أجل، أجل، ما زالت لدينا الكهرباء».

قال الطبيب: «لصالح من تعملين حقاً؟ ما الذي تسعين إليه؟»».

قفزت زوجته ناهضة «أتريدين الدواء؟ أتريدين الدواء؟»، ركضت إلى الفتاة عند مغسلة المطبخ ورفعت تنورتها من الخلف. من الأسفل كانت الفتاة عارية لا ترتدي شيئاً «هاك»، قالت السيدة بينجهام «هل سنبقى؟ كيف يمكننا أن نغادر!».

«أعطها الدواء».

فتحت باب إحدى الثلاجتين على وسعه وصاحت: «فلتأخذها فوق جثتي!».

«فلتأخذه. إنها بحاجة إليه»، قال الطبيب.

«كان من الغباء منك أن تأتي»، قالت السيدة بينجهام.

«خذيه»، قال الزوج. استمرت الفتاة في العمل عند المغسلة وكأن شيئاً من هذا لم يحدث.

فوق معسكر كتيبة «إيكو»، ومع ارتفاع الشمس، تقيأ الجبل دخاناً أسود كالبركان. حقول الأرز المنتشرة على السفح الغربي، والتي نجت من حربين سابقتين، أصبحت الآن أرضاً خراباً وقد دمرها جيش فييتنام الشمالي أو القصف المدفعي الفييتكونغي، أياً يكن، كما صواريخ الأمريكيين وأسلحتهم الحارقة. بقي معسكر «إيكو» سليماً، وإن أحدثت القذائف حفراً على بعد مئة متر منه. كما لم تصب قرية كاو فوك بالأضرار أيضاً. لكن يبدو أنه جرى تحذير الكثير من القرويين– من خلال الفييتكونغ– أنه جرى الاتصال بهم، وتحويل ولائهم. كان المكان هادئاً بصورة غريبة في بعد ظهر اليوم الذي تلا المذبحة. كانت الحانة القرمزية مقفلة من دون شرح. قبيل فجر الثلاثاء وقع الهجوم؛ وقبيل الظهر كان السكان – وإن استمرّ بعضهم بالعزدة، من دون حقائب أو صرر – قد عادوا إلى ديارهم كأنهم غابوا لبضع دقائق فحسب.

عند الفجر وصل الكولونيل بالمروحية وهبط من الجبل على متن جيب وجال في المنطقة مع سكروي لوت ورجلين آخرين من العمليات النفسية – الملازم ستورم ومدني أشار له الملازم الصغير بوصفه باسم سكيبر.

«يا إلهي»، قال سكروي لوت، «طائرات الأف 16 تلك قد مزقت جبلنا شرّ تمزيق[1]».

(1) F16: من المعلوم أن هذه الطائرات لم تدخل إلى الخدمة حتى عام 1978، أي أنها لم تكن موجودة خلال حرب فييتنام، وهذه من الهفوات التي يرتكبها المؤلف فيما يخص الدقة في استعمال بعض المفردات.

قال الكولونيل: «هذه البداية فحسب. من الآن فصاعداً سوف ينهمر الجحيم من كل هذه السماوات. إنه عار لعين». كان الكولونيل فاقداً صوابه . خلال القتال اختفى أولئك القرويون، غير أن المزارعين على الجانب الآخر من الجبل لم يختفوا – إلا في القصف. لطم رؤوس الكثيرين من رجال المنطقة ممن صفّوا في التراب على عجيزتهم، وقد مدت أقدامهم إلى الأمام، وألصقت كواحلهم معاً، وأوثقت أيديهم وراء ظهورهم. أسر الكوتشي كوتيز مقاتلاً، قالوا إنه من الفييتكونغ، هجم عليهم عليهم برشاش كلاشينكوف وفجر حقيبة ظهر الهندي أشلاء، وهي موضوعة على ظهره. أمسك الهندي أسيرهم معصوب العينين مربوط اليدين وجره إلى الخلف على التربة إلى حثالة من العشب قد نصب عليها الكوتيز خيمهم. االأخذ لرجل الضئيل يشدّ فمه بقوة شديدة حتى لتخال أن فكيه سوف ينخلعان، بينما خلعت مفاصل ذراعيه عن كتفيه، إلا أنه لم يصدر صوتاً عندما علقه الكوتيز من معصميه على غصن شجرة بانيان، وقد ارتفعت قدميه ست بوصات عن الأرض.

كانت معنويات كتيبة «إيكو» منهارة بسبب ما حصل للرقيب الذي نقل إلى المستشفى 12، مصاباً بجروح في رقبته وعموده الفقري وبطنه، وأبقي شبه مشلول هناك، في حالة أخطر من أن يتمّ نقله إلى أمريكا. جلس معظم جنود «إيكو» في صمت مطبق في الحانة القرمزية، شاربين قليلاً فحسب، متبلدين بالحزن، مشمئزين من القوة الماحقة للقدر. جلس الشاب الأسود الجديد معهم، سارداً الأكاذيب حول أناس زعم أنه يعرفهم شخصياً في الديار. تمكّن من التكلم لأنه لم يكن مفطور الفؤاد مثلهم. فهو لم يعرف الرقيب جيداً. جاء من مكان ناء في لويزيانا وبدا خجولاً بين أولئك الشبان وفي الوقت عينه متحمساً للتكلم عن دياره. «لقد ركبتني ساحرة من قبل. أعرف أن ساحرة ركبتني طوال الليل، لأنني أفقت متعباً ملطخاً بالدم عند زاويتي فمي، حيث كنت أعضّ على الرسن. يمكنك أن تعلق حدوة حصان فوق سريرك لكي تصد الساحرات. فقبل أن تتمكن

من الدخول إلى بيتك عليها أن تسير كل الطرق التي سارتها هذه الحدوة. وقد حمل عمي حجراً وكسر ذراع ساحرة ذات ليلة وفي اليوم التالي أقسم بالمسيح كان يوم أحد وإحدى الجارات العجائز كانت ترتّل في الكنيسة وبدأت الفقاقيع تخرج من فمها وسقطت تتلوى أرضاً وقال القس انزعوا الشال عن كتفيها، وفعلوا ذلك ووجدوا ذراعها مكسورة وقال القس جروها إلى الحفرة، وجروها إلى الحفرة وقال القس أحرقوا الساحرة وأحرقوا الساحرة هناك في الحفرة. أقسم أن هذا حصل. لا أحد هناك في الديار يقول عكس ذلك. عمي أخبرني والجميع يعلم بهذه القصة». كان شاباً أسود دائري الوجه، فاحم السواد. لم يوقفه احد عن الكلام، وكان يمكن أن يستمر إلى الأبد، إلا أن ناش دخل وقاطعه قائلاً: «هاي، يجب أن تروا هذا، الكوتيز يعبثون مع الفييتكونغ وحالته يرثى لها، لست أكذب عليكم، يجب أن تروا هذا».

في الخارج، كان بلاك مان واقفاً يتفرج وهو يأكل بيديه حبة مانجا، بقشرتها وكل شيء. كان ثمة مانجا في الجوار - وموز أيضاً، وأحياناً البابايا. قال: «أولئك اللورب[1] عقولهم مشوشة تماماً على البنزدرين والميتامورفين.. إنهم مطفئون تماماً».

أحد اللورب، في الحقيقة أحد الأكثر جنوناً بين جنود الكوتشي كوتيز الخاصين بالكولونيل، ذلك الأسود الذي يرتدي ثياباً بصورة وحشية، وقف في بركة من الدم أمام السجين المعلق، باصقاً على وجهه.

وقف سكروي لوت يشاهد أيضاً مع الرقيب ستورم من العمليات النفسية.

أما الكولونيل فوقف يشاهد تحت خيمة، جالساً على مقعد موضوع على حاوية[2] مليئة بالثقوب، في داخلها بعض الدجاج. لم يبد وسكيبر مهتمين في

(1) Lurp: اختصار لـ Long Range Reconnaisance Patrol الوارد ذكرها في هامش سابق.

(2) Conex Crate: ينطوي هذا التعبير على تناقض، ذلك أن كلمة crate تعني قفص في حين أن conex هي حاوية عسكرية قد يصل حجمها إلى حجم غرفة، وبالتالي فإن الصعود عليها أو النزول منها يحتاج إلى سلم، وهو ما لم يكن مألوفاً خلال حرب فييتنام على ما يشير بعض النقاد. على أية

أن يكون حضورهما معلوماً. اقترب منهما الملازم وقال: «حسناً الآن، الأمر هو كالتالي، المشكلة المتعلقة بهذا النوع من...»، لم ينه جملته. قطب، وابتلع كلامه.

بدا الكوتي الأسود يحاضر فيهم وهو يحفر بطن الرجل بالشفرة السويسرية العسكرية متعددة الاستعمالات. «إنهم يركلون مؤخراتنا وسوف نعرف كل الوقائع. إنهم يهاجمون في كل أنحاء الجنوب. وحتى مجمّع السفارة الأمريكية».

قال الرقيب ستورم من العمليات النفسية: «لا، يا رجل، لا تفعل»، إنما ليس بصوت عال.

صاح كاوبوي: «اطعن هذا اللعين. اجعله يصرخ. أجل، أولاد الكلبة. هكذا صرخ الرقيب». كان وجهه محمراً من شدة الغضب وأخذ يبكي.

«ثمة شيء أريد أن يشاهده ابن السافلة». الآن رفع الكوتي شفرة سكينه السويسرية نحو عيني الرجل.

«افعلها، افعلها»، صاح كاوبوي.

«أريد أن يلقي ابن السافلة هذا... نظرة... حقيقية على شيء ما»، قال الكوتي، «أوه أجل، يبدو مثل البنت الصغيرة الآن»، قال تعليقاً على صراخ الرجل. أوقع السكين على قدمه وأمسك بؤبؤي الرجل المعلقين بأعصاب قرمزية وقلب الجانب الأحمر المليء بالشرايين بحيث بدا البؤبؤان ينظران إلى الخلف إلى المحجرين الفارغين. «انظر جيداً إلى نفسك يا قطعة البراز أنت».

«يا إلهي»، قال الرقيب النحيل القصير.

نزل الكولونيل عن الحاوية ومشى إلى المكان وهو يستلّ مسدسه وأبعد كاوبوي والكوتي من الطزيق وأطلق الرصاص على جمجمة الأسير المعلق.

حال، وكما عند ذكر طائرات الأف 16 يرتكب الكاتب بعض الهفوات لحيث الدقة في استعمال المفردات أو المصطلحات العسكرية وسواها.

قال الرقيب ستورم: «هذا صحيح بحق الرب».

حملق كاوبوي في عيني الكولونيل: «لم تسمع الرقيب وهو يتلوى ألماً ويصرخ حتى فقد صوته»، قال له، «شيء أو اثنان من هذا القبيل، وهذا البراز لن يعود مسلياً أكثر منذ ذلك».

همدت الجثة على الفور، وتدلت قطعة من الدماغ على جانب الوجه.

الملازم الشاب مينه، بوصفه طياراً في قوات الجو الفييتنامية، كان قد وجه ضربات ضد أهداف لا تحصى، ومن حجرة طائرته المقاتلة F–SE، لابدّ من أنه قد أجهز هو نفسه على حيوات المئات، إلا أن هذه الحيوات انتهت بصورة ضبابية، تحت غطاء من النيران والدخان، ومينه لم يرَ بحياته شخصاً يقتل شخصاً آخر.

كان صباحاً، بل ظهيرة، مشمسة. وبدأ القيظ يكون مزعجاً.

أعاد الكولونيل مسدسه إلى غمده وقال: «هناك الكثير مما أنا مستعد لفعله لمحاربة الشيوعية. الكثير جداً. لكن بحق الرب، هناك حدود».

سمع مينه ابن شقيق الكولونيل يضحك. كان سكيب ساندس بالكاد قادراً على أن يسند طوله، وهو يهتزّ من الضحك. استند على على الخيمة حتى كاد يوقعها، ولم يكترث أحد لأمره.

حملق اللورب الأسود في الكولونيل ومسح الدم عن سكينه بلسانه قبل أن يمضي شمالاً إلى الحانة القرمزية.

كان الموقف الذي اتخذه مينه هو أن كل هذا الدمار لا يحدث، أن ريحاً حمقاء من الوهم تهب جارة وراءها السلام والنظام الحقيقيين. قرية كاو فوك، على سبيل المثال، ما الذي حدث هناك؟ معسكر «إيكو»، قاعدة صغيرة الآن، فيها سقائف وحمامات، ومولدا «ماش» كبيرين؛ والمعبد ما زال يهيمن على الجانب الجنوبي لكنه الآن يقف فوق أرضية باطونية مع ممر مبلط يفضي إليه؛ أما

الجانب الشمالي الذي يهيمن عليه مجمّع للاجئين ففيه حاويات وأقفاص الدجاج - كل هذه التغييرات حدثت في غضون العامين الماضيين اللذين كان يوصل الكولونيل خلالهما إلى المكان ومنه. الحانة القرمزية ما زالت هي الكوخ الضخم نفسه الذي تتسكع فيه عاهرات متبلدات الوجوه، زوجات أفنيت عائلاتهن. لا تدخل الفتيات المحليات إلى هذا المكان.

«يا إلهي»، قال جيمي ستورم «هذا زنجي مُدمّر كلياً».

«ومن الذي دمره؟ نحن»، قال الكولونيل، «التاريخ قد يسامحنا على ما نفعله هنا. لكن هذا الرجل لن يفعل. يحسن به ألا يفعل».

لم يكن مينه يعرف هذا اللورب الأسود الذي اقتلع عيني الأسير. إنما في غيابه يتكلم الجميع عنه، مخبرين كيف ينام أرضاً فوق ممطره، في أوقات النهار فحسب. أما في الليل فيتنقّل في الأرجاء، دون أن يعرف أحد إلى أين يذهب. تشكّل شعره في عناقيد يبلغ طول الواحد منها قدماً. وقد قصّ كمي قميصه وسرواله، فلم يعد ثمة ما يقيه الحشرات الضارية سوى النقوش الزاهية من خطوط الطلاء الأحمر والأبيض والأزرق التي تملأ وجهه وأطرافه.

بعد الساعة ستمئة بقليل عاود مينه والأمريكيون الثلاثة الصعود إلى الجبل ومن هناك إلى سايغون في مروحية الكولونيل، وهي طائرة هيوي أضيف إليها مقعدان ومن دون مدفع رشاش، وهي معارة للكولونيل من قبل سلاح الجو الفيتنامي، وإن كان الكولونيل نفسه هو من دبّر أساساً مسألة حصول هذا السلاح على الطائرة. بناء على أوامر الكولونيل أخذهم مينه بضع آلاف قدم بسرعة مئة ميل في الساعة تقريباً. الرقيب ستورم الجالس على خوذته واضعاً بين قدميه بندقيته الأم 16، وقد ارتد شعره إلى الخلف بفعل قوة الرياح، كان من وقت لآخر يصوب بندقيته ويطلق زخات من الرصاص على العالم في الأسفل. أما ابن أخ الكولونيل فقد جلس قرب الرقيب محملقاً من باب الطائرة إلى الأدغال وحقول الأرز، وإلى النيران، الأرض لخراب التي ارتفع منها الدخان كبخار يتصاعد من قدر. طائرتان

مقاتلتان عبرتا على مقربة تحت طائرتهم المروحية إلى درجة أنهما أغرقتا بصخبهما هدير المروحية. اقتربت الطائرتان كثيراً جداً، من طراز أف 104حتى إن مينه كاد يرى الرمز على خوذة أحد الطيارين.

كان سكيب ساندز كثير التبسّم دائم المزاح ، إلا أن مينه بالكاد سمعه يضحك. لماذا ضحك على الرجل المسكين المعذّب؟ بالتأكيد لا أحد رأى المشهد مضحكاً. إلا أنه لابدّ من أنه رأى في المشهد شيئاً ما بالغ المرح.

جلس الكولونيل واضعاً سماعتي الأذن، بجوار مينه شاخصاً محز الأفق وبدا أنه قد نسي فظاعات التعذيب. أما سكيب فأوحى منظره أن هذه الفظاعات ان تفارق خياله يوماً. لم يأت الكولونيل على ذكر تصرفات ابن أخيه. ربما لم تكن تستحق الذكر. ربما سكيب يشكر ربه الآن لأنه ليس لديه سماعتا أذن وأن الصخب الهائل يحول دون الكلام. لكن من يمكنه أن يرى سريرة سواه؟ وغالباً ما شعر مينه على أية حال أن تصرفات الأمريكيين مجرد انفعالات خالية من التفكير. لكنه رأى وجه سكيب بينما عمه يساعده على الصعود إلى الطائرة واعتقد جازماً أن هذا الأمريكي لا يفكر إلا في الرجل المقتول.

لبرهة وجيزة ترك مينه الجنرال يمسك المقود. لم يكن ذلك آمناً، لكن الكولونيل يفعل ما يشاء، ولا شيء يمكن أن يلحق به الأذية. لقد رأى الكولونيل الحرب في أسوأ لحظاتها وذات مرة اعترف له اعترافاً محزناً: لكي ينقذ زملاءه الأسرى من مجزرة، قام الكولونيل، الذي كان في ذلك الوقت طياراً شاباً على غرار مينه نفسه، بقتل أحد رفاقه على متن سفينة يابانية، خنقه بيديه العاريتين. كثيراً ما أفضى له الكولونيل لمثل هذه القصص، لأنه لم يحسب أن مينه يفهمها. بيد أن إنجليزية مينه ما فتئت تتحسن. وكان في مقدوره التكلم بثقة حول أمور تخصّ مجال عمله وأحياناً يفهم محادثة كاملة بين الأمريكيين، وإن كانت تفوته التفاصيل الصغيرة، ولم يكن أن يأمل في المشاركة في الحديث بأي قدر من الذرابة. وظن مينه أنه كان الوحيد على الأرجح الذي يعرف أن الكولونيل له زوجة في دلتا

ميكونج السفلى يسافر لزيارتها غالباً بهذه المروحية بالذات.

تعرض مطار تان سون نوت[1] العسكري في سايغون إلى هجوم صاروخي ثلاث مرات منذ الهجوم الأول الذي وقع قبيل الفجر، لكن لا هجمات في الوقت الراهن، وأذن لهم بالهبوط على مدرجه. تركوا مينه مع الطائرة وعبروا الحقل عبر ريح ملوثة بالنفط تحت سماء رمادية. خارج المحطة انتظر هاو بالشيفروليه، تحت المتراس الباطوني تماماً.

فكر سكيب أنه يجدر به أن يعبّر ولو عن حدّ أدنى من الاهتمام بوجهتهم الآتية، إلا أنه لم شاعراً بأيّ اهتمام. لكنّ ستورم طالب بأن يعرف، وقال الكولونيل «يحسن أن يشرح هاو ذلك»، سكيب وستورم في الخلف، والكولونيل في المقعد الأمامي بجانب هاو الذي كان يدخن سيجارة طويلة ونفضها بإصبعه ناثراً الرماد على بنطاله، وهو ينظر إلى الخارج بقصر نظر ويقود بطريقة متشككة. ترددت في أرجاء المدينة أصداء أعيرة نارية من الوزن الخفيف وهدير المروحيات، وبصورة مثيرة للفضول المفرقعات النارية أيضاً. مروا بكثير من الجثث كثيرة الملقاة على جانب الطريق، لكنهم لم يروا إلا القليل من الخراب، ورأوا أناساً يمضون في حياتهم كالمعتاد، منطلقين جيئة وذهاباً، على دراجاتهم النارية الصغيرة. قال الكولونيل «هل لدينا فكرة كافية عن وجهتنا؟»، لكن بدا أن هاو لم يفهم السؤال، وقال الكولونيل: «هاو، لا أظن أننا نعرف إلى أين نمضي».

«لقد أخبرني بالموقع. وسوف أجده». بعد بضع دقائق قال مستبقاً سؤال الكولونيل التالي: «إن شو لون منطقة شاسعة فيها الكثير من الشوارع».

«هناك، هناك، تلك الجيبات».

---

(1) Tan Son Nhut: مطار تابع لقوات الجو الفييتنامية، كان قاعدة كبيرة للولايات المتحدة الأمريكية خلال حرب فييتنام.

أوقف هاو الشيفروليه قرب ثلاثة جيبات تابعة للجيش الفييتنامي متوقفة بصورة عشوائية حول جثتي رجلين فييتناميين.

«توقف، توقف، امض قدماً وأوقف السيارة»، قال الكولونيل، ومع وقف هاو للمحرك، قال «هاو سوف نرى بعض الفييتكونغ القتلى هنا. أريدك أن تنظر وتتأكد من أن صديقنا ليس بينهم».

هزّ هاو رأسه.

«تعرف من أعني؟».

قال هاو: «صديقنا».

«لا أظن أنه هنا. لا يفترض به. لكنني أريدك أن تتأكيد. حسناً.. فلنمض».

ترجلوا جميعاً من السيارة.

كانت الجثتان مرميتين في وسط الشارع وقد مدت أذرعهما فوق وجهيهما، وقد اخترق الرصاص جسديهما. فصيل من تسعة أو ما شابه من مشاة الجيش الفييتنامي كانت جالسة أو مستندة على الجيبات، وعلى مقربة منهم وقف بصورة شبه متأهبة ضابط صغير يدخن سيجارة، واضعاً إحدى يديه على كوع يده الأخرى.

«الرائد كينغ؟».

«Ce'st mois»[1].

«أنا الكولونيل فرانسيس ساندز – سكيب، أيمكنك أن تترجم لي؟ هذا السيد سكيب، ابن أخي وزميلي. سكيب اشكره على المجيء. اشكراه على إبقائه هذا تحت الحراسة. قل له أنني من أمدّه بالمعلومات».

أغمض الرائد عينيه وابتسم: «لا حاجة إلى ذلك أيها الكولونيل، لقد فهمت عليك».

«لا»، قال سكيب، «إن لهجتك ممتازة».

(1) بالأصل بالفرنسية، «هذا أنا».

«كينج هو اسم صيني، ولكنني لست صينياً».

«كم لغة تجيد؟».

«الفرنسية والإنجليزية والصينية، ولغتي بالطبع. بمَ يمكنني أن أخدمك أيها الكولونيل؟».

قال الكولونيل: «هل جرى كل شيء كما أخبرناكم؟».

«كالسحر»، قال الرائد، «لقد أعددنا لهم كميناً».

«أكان معهم متفجرات؟».

رمى الرائد كينج سيجارته وقادهم جميعاً إلى جيب وضعت على مقعده الخلفي أربع قذائف «من الصين الحمراء»، قال.

«متى جاؤوا إلى هنا؟»، سأله الكولونيل.

«الساعة الثالثة بعد الظهر بالتمام».

قال الكولونيل: «كل شيء كما أخبرناكم به؟».

«كل شيء كان صحيحاً»، قال كينغ، «حسب الإشارة. الساعة ثلاثمئة». أشار بيده إلى الجثتين «اثنان من الفييتكونغ، كما وعدنا».

«ما كان الهدف؟».

«تدمير ذلك الجسر هناك»، قال كينج.

«هل هذه المتفجرات شديدة بما فيه الكفاية لذلك؟».

«سأعطيك أفضل تخمين عندي: أكثر من كافية».

«لا هويات على ما أظن».

«لا بطاقات تعريفية»، هز كينج رأسه نفياً.

«أيها الرائد، لن نزعجك أكثر من ذلك. فقط أردت التأكد من صحة معلوماتنا. سوف نلقي نظرة سريعة ونمضي في طريقنا».

تبع ستورم وسكيب الكولونيل إلى الجسر المخصص لقطع الشارع والذي من الواضح أنه كان مستهدفاً من قبل الرجلين، ووقف عليه. كان ثمة دراجات نارية

تئز تحتهم «لست متأكداً من أنني أرى الجدوى»، قال الكولونيل، «أفترض أن تدمير الجسر كان ليضيّق الشارع هنا. لكنني لست واثقاً من الجدوى»، مشى عائداً إلى السيارة.

مشى ستورم بجانب سكيب وقال: «يتبين لي من الطريقة التي تمشي بها أنك تحب المكان هنا. أنت تمشي ببطء شديد ولا تستنفر جسدك لغير سبب وجيه. أنت تستعمل الهواء حولك». مبدياً هذه الملاحظة بدا خجولاً بصورة غريبة، ليس على الإطلاق ذلك المخبول الصغير قوي الشكيمة «تعرف ما أعنيه؟».

«نوعاً ما».

«أنت تتآلف مع المكان كأحد السكان المحليين»، أكّد له ستورم.

بعد أن صافح الكولونيل ساندز الرائد كينج ودعاه إلى العشاء والشراب ورفض الأخير طلبه بتهذيب، جلس الكولونيل في المقعد الأمامي من الشيفيرولية محتفظاً بوضعية حماسية وقال لهاو «إلى الأوتوستراد 1. فلنحتس شراباً».

قام هاو بالالتفاف عائداً عبر الشارع نفسه وتركوا الجثتين خلفهم.

«اللعنة»، قال الكولونيل «أصبح لدينا عميل مزدوج».

كانوا في مكان ما خارج الأوتوستراد السريع 1 في حانة تقع في زقاق غير معبّد، «حانة جولي بو»، بدا لسكيب أنها بصورة أساسية مرتع للعاهرات ورجال العصابات. غير أنها كانت حانة كتيبة إيكو في سايغون والكثيرين ممن يخدمون في مهبط «كاو فوك»، بيد أن أحداً منهم لم يكن هناك إذ في هذا اليوم لم يسمح بالإجازة لأي من جنود الجيش الفييتنامي الشمالي أو الجنوبي، أو لأي من مقاتلي الفييتكونغ أو القوات الأمريكية. جلس سكيب وستورم والكولونيل على مقاعد طويلة تحت خيمة في الغسق الآخذ بالبرود، وأبقوا راديو السيارة شغالاً على محطة القوات الأمريكية لكي يبقوا مطلعين على ما جريات الأمور. لم ينم سكيب منذ غادر «كاو كوين»، قبل زهاء ثمانية وأربعين ساعة. وافترض أن الكولونيل

وستورم مرهقين مثله، إلا أن أحداً منهم لم يرد أن ينام قبل أن يعرفوا ماذا حدث، وماذا سيحدث تالياً، وما الذي ستؤول إليه الأمور بعد هذا الهجوم الضخم، الذي بدا، في تلك المرحلة، كارثة للعدو.

بين أخبار المذياع التي تبثّ كل ساعة أجرى الكولونيل اتصالات من حجرة قوادة إلى السفارة الأمريكية وتلقى قدراً كبيراً من الأنباء المضطربة والمتناقضة.

«هجمات منسقة في كل أرجاء إقليم كوانج تري. على الأقل إلى هذا الحدّ شمالاً».

«وإلى أيّ حدّ جنوباً؟».

«ضربوا كون ماو هناك».

«في شبه الجزيرة؟ يا إلهي».

«إنهم في كل مكان. وقد تعرضوا للتقل بأعداد هائلة».

شنت قوات جيش فيتنام الشمالي والفيتكونغ هجوماً مشتركاً على كل مركز سكاني كبير نسبياً وعلى كل منشأة عسكرية في الجنوب. «هجوم جريء ومجنون»، قال الكولونيل في البداية، ثم أخذت الأخبار تتراكم وقال الكولونيل: «جريء ومجنون وغبي»، في حين كان الهجوم الشامل مذهلاً في تنسيقه وفي مباغتته، في شراسته وقوته، فإن الهجمات الفردية بدت مفتقرة إلى التخطيط الواضح أو الإسناد الدقيق.

ملأ الكولونيل الكؤوس بويسكي بوشميل - من صندوق زجاجات كان يأخذه معه أينما كان في صندوق السيارة. «إننا نقصف كو تشي بلا توقف. كل بوصة مربعة لا يقف فيها جندي أمريكي سوف تتحول إلى حفرة. قلت لكما إن الجحيم سينهمر. أعتبر هذا تسرعاً. لدينا خطط لتلك الأنفاق».

«لنناقش فحسب الوقائع الفعلية»، قال جيمي ستورم «لا يهمني أمر الأنفاق».

«إننا نطبق مقاربة مختلفة لكي نقاتل العدو. كل شيء إلا ما لدينا»، أصرّ

الكولونيل.

«بدأت برغبة ضارية لكي أشوي عقولهم. الآن أمضي يومي محاولاً حماية رأسي من الانفجار».

أمضى سكيب نصف عام منفياً، مفتقداً هذا، تواقاً له، غير أنه شعر أنه لم يفوّت دقيقة، أنه دخل في وسط محادثة سابقة بين الكولونيل محمرّ العينين والرقيب المتحمّس المرتعش. بدا أن الاثنين يسيران في خطين متوازيين، واثقين من أنهما سيلتقيان في مكان ما في النهاية. احترق مريء سكيب. شرب «سفن أب». بالنسبة إليه أصدق حقيقة شهدها اليوم، هي أن ذلك الرجل مقتلع العينين النازف، الذي قتله عمه بتلك السرعة، كان روحاً بشرية وله عائلة تعرفه بالاسم وتعانقه بحب، وهو، سكيب، الذي يعمل في استخبارات أعظم أمة في التاريخ، يشعر بالاضطراب بسبب الاضطراب الذي تثيره في نفسه هذه المسألة.

«ماذا قلت لك؟»، قال الكولونيل، «حول المركزية؟ الفييتكونغ وجيش فييتنام الشمالي يخضعان لقيادة مصدر واحد».

«غاية في الرقي».

«على الأرجح لا تمكن هزيمته. لا يمكننا الفوز هكذا. لقد عبّر جنودنا قد عبروا عن الأمر بصورة صحيحة. لم يعد الأمر لعبة. هذا البراز هو فوضى. ويجب أن يتوقف هذا البراز».

لم يسمع سكيب عمه يقول، ولو من بعيد، مثل هذا الكلام. كان كل هذا خطأ. كان خطأ تاماً لأنه وفر مدخلاً للكثير مما هو صحيح.

«إذا لم يكن ممكناً مركزتنا، إذا كنا سنتبعثر مثل النمل في دبس السكر، إذن فنحن كأفراد نمل لا يمكننا انتظار أن تأتينا الأوامر من الأعلى».

قال ستورم: «ما القصد؟».

«القصد أنه لدينا عميل مزدوج، وسوف نوظفه بحذر شديد. لكن أمامنا الكثير من التخطيط والتفكير، ولا شيء من هذا يبدأ اليوم. فلنكن سعداء فحسب

لأننا غير مضطرين إلى الجلوس على مؤخراتنا بينما العم هو ينفذ استراتيجية كبرى بعد الأخرى حتى يفلح معه شيء ما. هذه المرة لم يفلح. هذه المرة رموا أنفسهم في معركة واستنزفوا أنفسهم بلا جدوى».

ضحك جيمي ستورم بنوع من الاسترسال السئم بينما سكيب والكولونيل ينظران إليه. سيطر على نفسه «يا إلهي، كيف يمكن أن يبقى المرء 48 ساعة بلا نوم، ثم يخرج بهذا الويسكي الفصيح؟ أبعدي أولئك البغايا عني»، صاح على الماماسان التي تخدم على الطاولات «حسناً أنت»، قال، «أنت تعالي إلى هنا، وفتح ولاعته لكي يشعل سيجارة لامرأة صغيرة ذات فخذين سمينين ترتدي تنورة قصيرة سوداء، شارحاً: «هذه عاهرة عصابية كذابة. أناس طيبون. الأناس الذين أحبهم».

أشعل الكولونيل سيجاره من الولاعة نفسها. كان يدخن سجائر «بلايرز» في علبة مربعة، وهي إذا كان سكيب يتذكر، السجائر التي يدخنها جايمس بوند.

«ما هذا الآن، لن تدخن السيجار؟».

«في بعض الأيام مذاقها تافه فحسب. أما زلت لا تدخن؟».

«لا».

«لا تبدأ بذلك»، مجّ السيجارة، «إنها الحرب يا سكيب».

«أفهم».

نهض سكيب وأخذ يتجول في المكان. نظر إلى الداخل الغامض لحانة جولي بلو. واقفاً عند المدخل أمكنه أن يحس أن الحرّ أكثر بعشر درجات في الداخل. كان المكان شاغراً إلا من الفتيات الثلاث والماماسان وراء المشرب المصنوع من الخشب الرقائقي، التي نادته: «أجل سيدي، أتريد الجعة؟».

«أنا جائع».

«أتريد الحساء».

«الحساء وخبز الباغيت، شكراً لك».

«سوف أجلبها لك. تفضل بالجلوس».

«اسمح لي أن أقدم نفسي لك»، قالت إحدى الفتيات، لكنه أشاح عنها من دون أن يجيبها.

ذهب إلى المصطبة الباطونية المطلة على «عشب الفيل» القاتم وراء حجرات ممارسة الجنس. تبول، وغسل وجهه من حنفية الحوض، ثم عاود إدخال قميصه المتعرق في بنطاله، وقال لنفسه: إنها الحرب يا سكيب. تغلب على الخوف.

عاد إلى رفيقيه.

كان الكولونيل يخبر ستورم: «كان يصعب الحصول على البيض. كنا نتشارك في أشياء كهذه البيض وأي لحم نحصل عليه، والأطباء، أهل الطب، كالذين لدينا، كانوا يقررون من يأكل ماذا من مخزون الأطعمة. كنا نصطاد الكلاب والقردة والجرذان والطيور. وكان لدينا القليل من الدجاج»، قال لسكيب: «سأخبرك بما فعله من أجلي أنديرز بيتشفورك في معسكر السجن. كنت مريضاً، وأطعمني بيضة مسلوقة. كان مسموحاً لأنديرز بيضة في كل يوم لأنه كان في حالة صعبة ويحتاج إلى البروتين، وأعطاني واحدة لأنني كنت مريضاً. ولم أقل له شيئاً، لا شكراً ولا من يحزنون - ابتلعت البيضة سريعاً قبل أن يغير رأيه. لو أن أنديرز بيتشفورك دخل الآن إلى هنا وطلب مني أن أقطع يدي من أجله، لما تردّدت في ذلك. كانت يدي المقطوعة استلقت هنا على هذه الطاولة. هذا ما تهبك إياه الحرب. عائلة أعمق من أواصر الدم. ثم تعود إلى زمن السلم، وعلام تحصل؟ - أعداء يطعنون في الظهر في المكتب في نهاية الردهة. أشخاص مثل جوني بروستر. بروستر هو سافل حقيقي، وهو مستاء مني دوماً. أتعرفه يا سكيب؟».

«ليس بصورة شخصية. ما الذي فعلته وأغضبه منك؟».

«السؤال هو ما الذي فعله بروستر لي؟ جعلني عالقاً وراء مكتب قرابة ستة أشهر العام الماضي أجيب عن الكثير من الأسئلة. حاولوا أن يجعلوه يبدو أشبه بتحقيق صحي. لكنني عرفت حقيقته».

«وما هي؟ ليس مسألة الفلبين؟».

«لا البتة. كان متعلقاً بكاو فوك. بمروحيتي، وكتيبتي. لكنني أبرحته ضرباً، وهل تعرف ماذا؟ توقفت الأسئلة. انتهت الاستراحة وعدت إلى هنا ثانية».

«أقلت إنك أبرحته ضرباً؟».

«في يونيو الماضي»، قال الكولونيل، «ألحقت به الهزيمة».

«ماذا؟».

«سمعك سليم. دعوته إلى لعب كرة اليد. التقينا في حجرة الخزائن، وخرجنا إلى الملعب واقتربت منه ولكمته على ذقنه. اسأل أي ملاكم: لا تريد أن تضرب عند منطقة الذقن. أول ما يعلموه لك، انتبه لذقنك. طرحته أرضاً يا سيدي، ولم أندم على ذلك البتة، لأنه حقير، متملق، ذو طموح سياسي - هل لديك قاموس مترادفات؟ يجب أن أبحث في قاموس المترادفات حتى أعطيك أوصافه الكاملة».

«لم أسمع شيئاً عن هذا».

«لا أعرف أنه أخبر أحداً يوماً. كيف يفعل. ليس من طريقة يحفظ فيها ماء وجهه في ذلك، أن يهرع إلى المسؤولين ويقول إنه تعرض للضرب».

سأل ستورم سكيب: «هل لعبت الكباش يوماً مع هذا الوغد العجوز؟».

«لا»، قال سكيب.

«لم أؤذ ابن العاهرة. جوني بروستر رجل قوي ورشيق. وقد هبط بالمظلة في شمال فرنسا لصالح مكتب الخدمات الاستراتيجية، لكنه أمضى الكثير من الوقت مع المقاومة، وأعادوه زهرياً[1]. جعلوه متعاطفاً مع اليسار. وهو نخبوي. يريد أن يتخلص منا نحن القدماء. الحرب وضعت القليل منا نحن العلاجيم بين الأسماك الذهبية، ويريدون التخلص منا».

أشار إلى هاو الذي جلس في الشيفرولية على بعد ثلاثة ياردات مع الراديو

(1) Pink: تعبير عامي ظهر خلال الحرب الباردة، أي يساري الهوى، أي أقل بقليل من شيوعي.

شغالاً والباب مفتوحاً «هاو، هاو، تعال»، رأى سكيب من الطريقة التي يلوي فيها عمه رأسه ويميله ويومئ بأصابعه أنه ثمل. «أتحتاج إلى أي شيء؟ متى كانت آخر مرة أكلت فيها؟ اجلس يا صديقي، اجلس».

«يمكنني الحصول على شيء من الحانة».

«اجلس، سوف نحضر لك شيئاً، اجلس».

جلس هاو وأومأ الكولونيل للماماسان وقال: «في الواقع أنا لا ألعب كرة اليد. تلك السمعيات الصاخبة، والطابة تصدر ذلك الصوت والحذاء المطاطي يصوصئ - لم ألعبها يوماً. إنها أصعب على الأذنين من مضمار التدرب على إطلاق الرصاص. إنها تصمّ الآذان كالقصف المدفعي». اقتربت الماماسان فقال لها: «أحضري له ما يأكله. ماذا يمكننا أن نجلب لك يا هاو؟ إلام أنت جائع؟».

«سوف أتكلم إليها»، نهض هاو ودخل إلى الحانة مع الماماسان.

قال الكولونيل: «جون بروستر لا يتوقف عن الحراك ويظن أن واشنطن دي سي أكبر بقليل من الكون. ما الذي سيفعلونه لي؟ يطلقون عليّ الرصاص؟ يسجنونني؟ يقتلونني؟ ويل، يا ويل الشاب، أنت تعرف شيئاً عن تاريخي. ما الذي يمكنهم فعله لي الآن؟ كنت سجيناً في اليابان. ما الذي بقي في التجربة البشرية يمكنهم أن يأملوا أو يتوقعوا أن يخيفونني به؟».

جاءت الماماسان مع أربع زبديات من الحساء وطبق من خبز الباجيت في صينية. قسم الكولونيل رغيفاً بالنصف وقال: «أقول لكم بصدق: من الأفضل ألا يكون على هذه الطاولة من يخشى الموت».

«صح لسانك»، قال سكيب.

«كله موت على أية حال»، قال ستورم.

«أوه، لقد نسيت»، قال الكولونيل وفمه مليء بالخبز، «يظن السيد جيمي نفسه محارب ساموراي».

«إنني أتعلم الحركات فحسب يا باباسان. الموت شرط أساسي».

«ما الذي تعرفه عنه حقاً؟».

«لأا. لا. لابدّ من أن الكون نشأ من مكان ما. صح؟ خطأ. لقد نشأ من اللا مكان. من العدم الكبير».

«السيد جيمي من أتباع بوذا».

«أتبع نمطاً مختلفاً تماماً من البوذية».

«السيد الرقيب جيمي يدرس التيبتية».

«أدرس معرفة الحركات بعد الموت. منطقة الباردو[1]. ما الذي تفعله في كل خطوة من رحلتك بعد الموت. إنه مليء بالمنعطفات الخاطئة التي تعيدك إلى هنا يا رجل. إلى كوكب الأرض. أنا لن أعود. إنها حفرة من الغائط».

«إنها حفرة غائط مع أعمال نارية»، قال الكولونيل.

«عد إذا شئت. لكن لا تتوقع رتبتك الحالية».

أدهشته فكرة أن عمه يتحمل هذا المغفل، وحتى يحتفي به.

«أحاولت بعض التأمل في كاو فوك، في المعبد، كولونيل؟».

نظر الكولونيل شزراً إلى ستورم وكأنه يحاول أن يستدعي جواباً وبعد وقفة معتبرة قال: «أنا لا ألعب كرة اليد. مع أنها لعبة قديمة. رياضة. تسلية». تراجع إلى الوراء على كرسيه باسترخاء «تسلية أيرلندية موقرة. جاءت من أيرلندا». أحنى رأسه على صدره وسرعان ما نام بعمق.

هكذا بدأ عام القرد.

سافرت كاثي إلى سايغون لكي تحصل على المساعدة من أي جهة ممكنة، بادئة مع كولن رابابورت في «منظمة الطفولة العالمية». الفييتكونغ وحتى جنود فييتنام الشمالية الشاردون يطوفون في منطقة سا دي، والأمريكيون وجيش جمهورية

(1) Bardo في العقيدة التيبيتية تمثل الباردو ما على المرء فعله بعد الموت لكي ينتقل إلى المرحلة التالية.

فييتنام صاروا عديمي الرحمة والتمييز في مطاردتهم لهم، فلم تعد الإمدادات تصل إلى ميتم باو داي، وسرعان ما سيصبح الوضع مستحيلاً تماماً.

المروحيات الأمريكية تقصف كل ما يتحرك على النهر. ولكي تصل إلى الطريق الموصلة إلى سايغون استعملت دراجتها الهوائية على دروب القنوات الشائكة، غير الموحلة، إنما الزلقة، التي تبطئ العجلات - كم لينة هذه الأرض، كم ثرية وناعمة، كم مخادعة – ومنها إلى حقول الأرز في الأرض المفتوحة. الريح تهبّ فوق حقول الأرز وأشعة الشمس تتنقّل بين الفسائل الخضراء كرعشة تحت الجلد.

انتظرت في مقهى متسخة الأرضية، سقفها من الصفيح، وجدرانها من القش. جلست إلى طاولة تشرب الشاي من علبة تنكية، منتظرة من ينقلها عبر نهر بعرض مئتي قدم تقريباً. عند قدميها لعب طفل مع جراد أخضر بنصف طول ذراعه. تركت الدراجة مع العائلة التي تدير المقهى، التي أخبرتها أنه لم تظهر المروحيات في المنطقة منذ الصباح الباكر. امرأة تقود قارب سامبان، وترتدي قفازين بنفسجيين باهتين وغطاء وجه زهري، أوصلتها إلى الضفة الأخرى. في الطرف الآخر كان ثمة بيوت وحدائق... فتاة في فستان رائع في عريشة صغيرة من العنب، تمدّدت على أحد الأضرحة تحت الخيمة الملونة... حصلت كاثي على توصيلة من مزارع يقود جراراً بثلاث عجلات ينقل ريش البط بأكياس الأرز القديمة، إلى سايغون. بعد بضعة أميال إلى جنوب شرق المدينة افترق درباهما فترجلت.

كانت ترتدي تنورة طويلة، وصندلاً، بلا جوربين. جالسة في كوخ يقدّم الشاي بجوار الطريق الرئيسية رقم 7 شعرت بالعرق ينحدر من ركبتيها إلى بطني ساقيها. فتحت حقيبة ظهرها وأخرجت الكتاب المقدّس لكي تقرأ فيه، لكن العتمة كانت قد بدأت تهبط. أبقت الكتاب في حجرها، ناقرة بإصبعها مؤشّر القراءة. ورد في مكان ما في المزامير: إليك وحدك أخطأت والشرّ قدّام عينيك

صنعت[1]. لدقائق قليلة بينما الانفجارات تدوي قريبة على نحو خاص في ليلة التيت، شعرت أن الكبرياء كله قد سحق، المعرفة برمتها تعطلت، وكذلك الرغبة، كل شيء صار عارياً، في امتثال مذل. بدت خطيئتها ضئيلة، ومثلها خلاصها أو لعنتها..

هبط الليل. وضع رجل كراسي حمراء أمام كوخ الشاي.

استقلت دراجة أجرة إلى المدينة. مكثت في نزل مقابل جامع «جاميا» ذي المصاريع الخضراء، في شارع دونج دو. استلقت على السرير زهاء نصف ساعة لكنها لم تقو على النوم.

قرابة الساعة الحادية عشرة خرجت لتمشي. بينما تشق الطريق، بدا أن سائق دراجة هوائية يحمل على كتفه حزمة حطب بطول ثلاثة أمتار سينعطف ويطيح رأسها بأطراف حزمته. تراجعت إلى الوراء وكاد أن يدهسها جيب أمريكي من النوع الذي يسمونه «ماتس»، العجلات حفّت بقوة بالأرض، وصعدت إحداها فوق حيز الطريق «عذراً سيدتي»، قال جندي المشاة متوحش الوجه الذي يقود المركبة. إذن - أوشكت أن تموت. لم تكترث.

دخلت إلى زقاق مضاء باللون الأحمر. على نافذة جندي يصفع امرأته بينما طفل يجلس على ركبتيه على الفراش يصرخ ماداً وجهه كقبضة...

عبر باب إحدى الحانات رأت اثنين من جنود المشاة الثملين يرقصان بحزن على ضوء الجكبكس، كل بمفرده، مطرق الرأس، مفرقعاً بأصابعه، وهازاً كتفيه ورأسه. توقفت لكي تتفرّج عليهما. في أغنيات الجكبكس أو التي تبث على المذياع على موجة شبكة الإذاعية الأمريكية في فيتنام، لطالما سمعت الرب يناديها: «أحبيني بكل قلبك»، «هذا الشاب مغروم بك»، «كل ما تحتاجين إليه هو الحب»، ولكن الليلة غنى الصوت للجنديين فحسب، ورسالته لم تبلغ الشارع.

مرت بمجند يبول على الحائط. نظر إليها بعينين برّاقتين وقال «إنني أتبول

(1) الكتاب المقدس، المزامير، 51: 4.

منذ ألف عام». صديقه بجانبه كان منحنياً يتقيأ. «لا تهتمي لأمري سيدي، إنني منتش بالحياة».

كان الفييتناميون مريحين لعينيها. ليس لديها أي خلفية مشتركة معهم. أما الجنود الأمريكيون فبدوا كثيراً كالكنديين - يمزقون قلبها في تيار قوي من الفرح والأسف، والذنب والغضب، والانفعال. شاهدت الظهرين العريضين لهذين الاثنين وهما يسيران مبتعدين عنها.

كانوا يرمون القنابل اليدوية عبر الأبواب ويفجرون أيدي وأذرع مزارعين أميين، وكانوا ينقذون جراء الكلاب من الموت جوعاً ويهربونها إلى المسيسيبي بقمصانهم، وكانوا يحرقون قرى بأكملها ويغتصبون الصغيرات، ويسرقون الأدوية في الجيبات لكي ينقذوا حيوات الأيتام.

في الصباح التالي في مكاتب منظمة الطفولة العالمية قال لها كولن رابابورت: «كاثي، أرجوك، دعيني أجد لك سريراً في إحدى المستشفيات».

«هذه ليست المحادثة التي جئت من أجلها».

«أترين شكلك.. إنك مدمرة من التعب».

«لكن إذا كان المرء لا يشعر بذلك، فهذا لا يحتسب».

«لكنك تعرفين».

«أعرف»، قالت، «لكنني لا أشعر بالتعب».

في مطلع فبراير، وجد جايمس هيوستن، في بزته العسكرية المتسخة، توصيلة مع شاحنة تنقل الماء من جبل الحظ السعيد، إلى الطريق السريعة رقم 13، ثم استقلّ سيارة جيب إلى سايغون. كان يمكنه أن يمرّ - وأراد أن يمرّ -بالقاعدة الكبرى لكي يطمئن على الرقيب هارمون في مستشفى الإجلاء رقم 12. لكن الفتية في الشاحنة ظلوا يمضون قدماً، وبقي معهم ببساطة.

سوف يتمّ نقل الرقيب عما قريب إلى اليابان عندما يصبح ممكناً نقله من دون أن يتسبب ذلك بقتله. إذا أراد جايمس أن يزوه، فيحسن به أن يفعل ذلك الآن. هذا بحسب بلاك مان الذي أخبره أن الرقيب مصاب بجروح بالغة، بإصابات دائمة. شيء كبير، من المحتمل أن يكون من طرفهم، قد أصابه مباشرة في المعدة من مسافة قريبة، فوق الحوض، وأكّد بلاك مان لجايمس بأنه لن يكون مسروراً بما سيراه.

اشترى جايمس من أحد باعة شارع «تاي ساك»، قطعة من اللبان، وسيجارة مارلبورو غير أصلية. كان قد دخل في يومه الثالث من الدورة الجديدة في الخدمة. كان صاحياً من الثمالة، متسرباً من الخدمة، ومفلساً تماماً.

كان صديقاه فيشر وإيفانز قد سبقاه إلى فيتنام بيوم واحد. صافحه فيشر الطويل محطّم الأسنان وقال: «أتذكر ليلتنا الأولى هنا؟».

«الفلور شو».

«أتذكر الفلور شو؟».

«بكل تأكيد».

«أتذكر أول مرة مارسنا الجنس فيها في الحانة القرمزية؟».

«بكل تأكيد».

«عندما ينتهي العالم وينزل السيد المسيح في غيمة من المجد وكل هذا الهراء، سيكون هذا ثاني أروع شيء حصل لي. لأنني لن أنسى تلك الليلة في الحانة القرمزية».

تعانقا، وأعمل جايمس تركيزه حتى لا تنهمر دموعه. أقسموا جميعاً على اللقاء ثانية. افترض جايمس أنهم لن يعاودوا الالتقاء.

في «كوزي بار» في شارع «تاي ساك» اقترض جايمس سيجارة أخرى من جندي في القوات الجوية الذي أخبره أنه هندي أحمر من قبيلة شيروكي وأنه من سلالة قادة القبيلة والذي رفض أن يعطي جايمس سيجارة ثانية وبدا على وشك أن

يتخلص منه، حتى قام جايمس، جالساً أخيراً على الكرسي بجانبه، بتعديل وضعية مسدسه تحت قميصه، وعندئذ قال الجندي: «ما هذا هناك؟».

«إنه للأنفاق».

«للأنفاق؟».

«مسدس أوتوماتيكي عيار 38 ملم لقد حصلت على كابت صوت في المعسكر».

«أتعني كاتماً للصوت؟».

«أجل بحق المسيح، ما رائحة البنزين هذه؟».

«أنا أضخ وقود الطائرات طوال اليوم».

«هذه الرائحة منك؟».

«لم أعد أشمها أنا نفسي».

«أف. إنك تدوّخني. اشتر لي جعة، رجاء؟».

«لا يمكنني ذلك. أنت تعرف، ثمة صائغ في تاي ساك، بعته مسدس عيار 45 ملم هذا الصباح».

«يشتري الأسلحة؟».

«بعته مسدساً».

«أتظن سيعجبه مسدسي هذا؟».

«أراهنك على ذلك».

«أراهن أنني أعرف من أين يمكنه الحصول على واحد».

بعد الظهر ذلك اليوم، ثملاً، متغيباً عن الجيش دون إذن، مع وفرة من الدولارات الفيتنامية في الشارع المكتظ بالروائح- رائحة بعد رائحة وهسيس زيوت القلي - توقف جايمس عند متجر واشترى بنطال ليفيز مقلداً وكنزة خفيفة حمراء وسترة صفراء برّاقة رسمت عليها امرأة عارية تقول: «سايغون 1968». كان الطقس أكثر قيظاً لارتداء سترة كهذه، لكنه ارتداها على أية حال لأنها

وضعته في حالة مزاجية ممتازة. اشترى علبتين من المارلبورو الأمريكية الأصلية وقص شعره عند حلاق في الشارع - لم يقص شعره قبلاً إلا في القاعدة الكبرى ، غير أنه كان ثملاً بما فيه الكفاية لكي يجرب شيئاً آخر - وبعد ذلك اشترى خفين أزرقين مخططين بالأسود، وقام بتبديل ملابسه في الشارع، في حين أشاح المارة بأنظارهم عنه بحذر شديد، وحمل بزته العسكرية في كيس تسوّق بني له حمالتين رفيعتين.

فكر أنه يحسن به أن يصحو من الثمالة قبل أن يذهب لمقابلة الرقيب، وقبل أن يصحو يستحسن به أن يثمل أكثر. وفي قرابة الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة تساوم مع سائق دراجة هوائية لكي يوصله إلى فندق رخيص في منطقة تشو لون، لكن في مكان ما على الطريق ثوّرا الخطة وبدلاً من ذلك انتقلا في ساعات الظلمة الخطرة قرابة ستين ميلاً إلى شاطئ بحر الصين، إلى ماخور سمع عنه جايمس يدعى «فرنشيز»، وهو مكان مكان يتمتع بأسطورته الخاصة. عند الثانية بعيد منتصف الليل وصلا إليه، وإذا به مجموعة من الأكواخ المتناثرة قرب قرية للصيد. أيقظ باباسان غاف على سطح المشرب في الكافيه، تبين أنه يفهم القليل من الإنجليزية ويمكنه أن يخمّن البقية، والذي، عندما سأله جايمس، «أأنت فرنشي؟»، أجابه، «فرنشي آت»، لكن فرنشي لم يأت. لا أضواء في الخارج. لم يسمع صوت أيّ مولد كهربائي، ولا رأى أي فتيات، ولا جنوداً آخرين. ولا أحد على الإطلاق. الباباسان العجوز الكئيب قاده عبر المصباح اليدوي إلى «بنغل» ليس أفضل من كوخ قشّ في صف من أكواخ تشبهه تماماً. شعر عانة شخص آخر كان منثوراً على فرشته. نزع الملاءة. كانت الفرشة الرفيعة ملطخة، لكن اللطخ بدت أقدم من شعر العانة. لقاء الغرفة، التي تتضمن مروحة بجوار السرير تعمل على البطاريات، دفع دولاراً لليلة. لم يزعجه إنزال الشبكة. لم يرَ أي بعوض.

في وهج قنديل الكاز عثر على السكين القابلة للطي وكاد يقصّ ساقي سروال بزته العسكرية؛ لكنه فكّر في الأمر فقصّر بنطال ليفيز بدلاً من ذلك. في وقت

إيوائه إلى النوم، كانت ثمالته كانت قد تحوّلت إلى دوار ما بعد الثمالة.

أفاق قرابة الظهر وذهب إلى الكافيه المبقعة بالرمل، حيث قدمت له امرأة الأومليت والشاي الحار ورغيف باجيت صغيراً. ثم طلب منها أن تحضر له الطلبية نفسها ثانية، لكن مع جعة عوضاً عن الشاي.

لم يكن الزبون الوحيد. فعلى بعد طاولتين منه جلس جندي مشاة ذو ساق واحدة، يرتدي بنطال جينز مقصوص الرجلين وقميصاً عسكري مقطوع الكمين، أشقر الشعر مسفوع الجلد من الشمس ويضع نظارات رايبان الشمسية، وكان يحتسي الجعة دون طعام، حاملاً بإصبعه معظم الوقت مسدس تسعة ملمترات من الزناد، قاذفاً عقب المشط في راحة يده ثم معيداً إياه، ثم مخرجاً إياه، ومعيداً إياه من جديد.

قال: «كلنا نموت، أنا سأموت منتش».

لم يرق هذا لجايمس على الإطلاق فنهض وغادر المكان.

اتجه إلى الحاجز البحري المنخفض والشاطئ المدمدم. كان الشاطئ ضيقاً والرمل بنياً. جلس على الجدار الصخري ودخن سيجارة وشاهد ديكاً غارقاً يتقلب مع الموج. لم يكن هذا «فرنشيز» الذي يتكلم عنه الجميع. الجميع قال إن فرنشي يبيع فقط جعة 33 – هذا القدر بدا صحيحاً – وأيضاً سبانيش فلاي[1]. وأيضاً الفتيات – لكنهن كنّ فلاحات – ومع ذلك يبقين فتيات. والجميع قال إنه ثمة معارك بالمسدسات على طريقة الغرب القديم تجري خارج المكان كل ليلة تقريباً. وقالوا إن سائقي الدرجات الهوائية بالأجرة لا يقتربون من المكان بعد هبوط الظلام، وإلا صودرت دراجاتهم للتسابق بها على طول الشاطئ، وعادة إلى البحر نفسه.

دويّ طلقة واحدة أوقفه عن الاسترسال في أفكاره، وهرع إلى المقهى ليرى الكارثة، لكنّ شيئاً لم يحدث. كان الفتى الأشقر يجلس وحيداً هناك.

(1) Spanish Fly: نوع من الكوكتيل الكحولي.

«مرحباً جميعاً»، صاح الفتى، مع أنه لم يكن من أحد هناك، «هذا الفتى يحسب أنه فهم شيئاً!».

وقف جايمس عند الباب ولم يدخل أكثر. كان يودّ شرب جعة، لكنّ السيدة فرت من المكان.

«أتريد أن تلعب لعبة فتل البراونينج؟»[1].

أجاب جايمس: «لا».

«يحسن بك أن ترتدي حفاض بلايتكس المضاد للبراز يا حبّوب».

جلس جايمس على الكرسي المقابل له واضعاً يديه جانباً.

توقف الفتى عن اللعب بالمسدس وأخذ يحك جذل ساقه المبتور بأصابعه، ثم استأنف قذف المشط في راحة يده وإعادته ثانية «لا تجلس إلى طاولتي إذا لم تكن تريد أن تلعب لعبتي».

كان قد أزيل الاسم عن شارته، من الواضح أحرق حرقاً بسيجارة. وبدلاً من القلادة التعريفية تدلت من رقبته فتاحة علب ذات طرف صدئ.

وضع المسدس أمامه على الطاولة قرب علبة دخان «بارليمنتس»، وولاعة زيبو.

«أتحب هذه السجائر؟ بارليمنتس؟».

«ليس كثيراً»، قال جايمس.

«المزيد لي».

نقر العلبة مخرجاً سيجارة ووضعها بين شفتيه، وأشعلها، مستعملاً فقط يده اليمنى خلال هذا كله، تاركاً يده اليسرى على المسدس.

قال له جايمس: «لا أستطيع مشاهدة هذا».

«جيد. هذا ليس السيزك».

«كيف يمكنني الحصول على توصيلة للخروج من مشفى المجانين هذا؟».

---

(1) البراونينغ هو المسدس الذي يحمله، والأرجح أنه يشير إلى لعبة الروليت الروسية المعروفة.

«ابدأ بالسير على الطريق فحسب».

«لا يمكنني الذهاب سيراً إلى سايغون».

حكّ الفتى رأسه بماسورة المسدس «لا، يا رجل، لا. أول ابن سافلة يراك سوف يضع مؤخرتك على دراجته. أو ابن عمه سيفعل». وما عليك إلا أن تبقي مسدّسك مصوّباً إلى رأسه.

«أنزل هذا اللعين، هلا فعلت؟».

«كلنا نموت يا رجل».

«أليس لك اسم حتى؟».

«كادوالدر».

ما رأيك بأن تضع المسدس دقيقة فقط؟ ثم يمكنني احتساء جعة معك».

«أخبرتك باسمي الحقيقي. غلطة كبيرة».

«لِمَ هي غلطة؟».

«الناس يعرفون اسمك»، قال، «وهذا يؤلم».

«أرى أنك تعرضت لانفجار»، قال جايمس، «إنه البراز بعينه».

أغمض الفتى الأشقر عينيه وجلس من دون حراك، متنفساً من منخريه، «أوه يا رجل»، قال بعد قليل، «كلكم زومبي».

اقترب هدير محرّك ثنائي الشوط وتوقف في الخارج. وضع كادوالدر مسدسه على سطح الطاولة. «وصل الفرنسي وصل».

دخل رجل هزيل يرتدي سروال برمودا اسكتلندياً قصيراً، وقميصاً طويل الكمين وينتعل مشاية زوريس. رجل أبيض، أزرق العينين أصلع الرأس. جذب كرسياً كأنما ليجس، إنما تردد، عندما رأى المسدس.

«إنه لك»، قال، ووضع رزمة كرتونية على مقربة من يد كادوالدر.

أسقط كادوالدر سيجارته من يده وتركها مشتعلة على الأرض. مزق العلبة جانبياً ودلق منها دزينة أو ما شابه من الحبوب الكبيرة على الطاولة. وضع أربعاً

منها في جعة 33، التي ارتفع فيها الزبد. رفع نخبه لجايمس. «حان وقت التغيير».

قال جايمس: «فرنشي».

«سي موا».

«أتتكلم الإنجليزية؟».

هزّ رأسه بغير اكتراث.

«ابن السافلة يزمع أن يؤذي نفسه».

هذه المرة ارتعش كلّ جسده- يداه، كتفاه، رافعاً نفسه على أصابع قدميه، وقد ارتسمت ابتسامة على زاوية فمه.

«لم لا نأت بفتاتين؟»، اقترح جايمس.

شاهد كادوالدر الحبوب وهي تذوب في الجعة. «لا يمكنك أن تطلي كل شيء بأفكارك حتى تجعله يبدو منطقياً فحسب».

«أليس من معنى للفتيات؟».

حمل فرنشي الكرسي ووضعه بالمقلوب وجلس مسنداً ذراعيه على ظهر الكرسي.

أخذ كادوالدر يمرر يده في الهواء فوق ساقه وكأنه يتحسس الجزء المبتور منها.

«هذا هو الشيء الوحيد في العالم الذي رأيته وليس هراء».

«أكره أن أكون من يخبرك بذلك، لكن هذا الهراء ليس شيئاً يُذكر، ثمة الشبان تعرضوا لأسوأ من هذا بكثير».

«ها هو التفسير يا فرنشي. كلنا نموت، صح؟ اللعنة عليك». رفع كادوالدر كأسه وشربه في جرعات متتالية. ثم أسند ظهره وبدأ ينظف تحت أظافره بطرف فتاحة العلب المروّس: «هيا حاول أن تأخذ هذا المسدس».

لم يتحرك العجوز: «أتقول إنني بحاجة إلى سلاح؟ ألا تعرف أنني فرنسي. لقد خسرنا حربنا».

«ثمة نهاية واحدة سعيدة يا رجل. إذا لم أفجر هذا العالم فسأكون جباناً مليئاً

بالهراء».

«أراك لاحقاً»، نهض جايمس ببطء وبطريقة أمل أن تكون ودّية.

«لم أؤذ أحداً. لذا لا تخبرني عن الكارما».

«لم أكن أفعل».

«إذن لا تفعل».

«حتى إنني لا أعرف ما هي الكارما».

«يحسن بك ذلك».

«سوف أذهب إلى مكان ما. سوف أسبح. لذا إن انتهى الأمر بك فاعلاً شيئاً ما، فلن تجد هنا من يهتم بذلك».

«فرنشي هنا».

«فرنشي لا يهتم»، قال جايمس، وعاود عبور الممر لكي يجلس على الحاجز البحري.

في غضون دقيقتين فحسب تبعه الفتى الأشقر. بعد أن وضع إبهام كل يد في فم زجاجتي 33، تمكن من حمل زجاجتين وهو يمشي على عكازتين. توقف، معلقاً على العكازتين كالفزاعة، وقطرات من إحدى الزجاجتين تنقط من إصبعه إلى وجه جايمس مباشرة. «بوصفي حاصلاً على وسام القلب القرمزي، يمكنني العبث معكم جميعاً قدر ما أشاء، وإنها لمسألة شاقة».

«إنها كذلك حكماً».

«لا يمكنك مهاجمة مشلول مثير للشفقة».

«حكماً لا أستطيع».

«أمسك هاتين الزجاجتين لي». رمى العكازة اليسرى واستعان بالثانية أخفض حتى ينخفض ويجلس على الرمل قبل أن يتركها تقع من يده. أعاد إليه جايمس زجاجة واحتفظ بالثانية.

«السلام والحب، يا إخوتي الأمريكيين».

«حسناً إذن، السلام والحب».

«لقد هرقت الجعة».

«ليس مهماً».

«عذراً على ذلك على ما أظن».

«هل تشعر بالألم في قدمك؟».

«يمكنني أن أنعتك بالمغفّل اللعين لطرحك سؤالاً مغفلاً لعيناً كهذا، ولا يمكنك فعل شيء لأنني كسيح. أتريد بعض الحبوب؟».

«ليس الآن، شكراً لك».

«كل حبة تحتوي على ثلاثين ملغراماً من الكودايين».

«جربت الحشيشة مرّات قليلة... اللعنة، كنت أكثر ثمالة من هذا».

«قدمي غير المرئية تؤلم».

«ما اسم هذه المنطقة؟».

«إننا في فان تيت أو موي ني».

«لم أر قوارب كهذه من قبل».

«هذه الدنجي. القوارب الحقيقية تصطاد في الأعماق».

«تبدو مثل زبديات الحساء».

«ما أنت؟ متغيّب من دون تصريح، مفقود خلال العمليات الحربية، أم فار من الخدمة».

«متغيب دون تصريح».

«أنا فار[1]».

«أنا متغيب فحسب، كما أظن».

«بعد ثلاثين يوماً يصبح فراراً».

(1) هذه أيضاً من الأمور غير المنطقية تماماً في الرواية إذ أن الجندي المصاب ولاسيما إصابة بالغة كهذه، يعاد عادة إلى بلده، ولا يبقى في الجيش حتى يعدّ فاراً من الخدمة.

«لم أصل إلى الثلاثين بعد».

قدمي فرت من الخدمة. فتبعت مثالها. فررت من شاطئ الصين».

«ألم يعجبك المكان؟».

«ذلك العلاج الفيزيائي الباسم؟ اللعنة لا. أنا أحبّ أن أشرب وأصرخ وآخذ الحبوب».

«لا حاجة لأن تخبرني بذلك».

«أجل، عذراً على ذلك أيها المجنّد. لقد انجرفت في المزاج».

«هذه إذن فان تيت، كما تظن؟».

«أجل أو موي ني».

«وهذا حقاً الماخور الشهير؟ سمعت أن هذا المكان لا يهدأ».

«كان كذلك خلال الأسبوعين الماضيين. لكنه لم يعد كذلك منذ الهجوم الكبير. لقد انتصر العدو على فرنشي».

«إلى أين ذهب الجميع؟».

«في الغالب عادوا إلى وحداتهم أو إلى أمكنة أخرى، لا أعرف. أنت تأتي في الاتجاه المعاكس».

«أظن ذلك».

«لقد فررت في عزّ الحركة، يا فتى، هذا فرار».

«لمَ تحاول إقناعي بأنني فار؟».

«إنني أفلسف الأمر يا أخي، لا أحاول إقناعك. هاي، لو أنني تعرضت لإطلاق الرصاص عليّ لكنت غادرت أيضاً.. إنما مهلاً، لقد رحلت أصلاً!».

«أنا لم أفرّ لهذا السبب».

«لمَ إذن؟».

«كان عليّ أن أرى صديقاً».

«من هو؟».

«شاب يفترض أن يكون في المشفى رقم 12 هناك».

«إذن فررت لكي تراه؟ أم أنك فررت لكي لا تضطر إلى ذلك؟».

«أجل، مضحك. ذكرني باسمك؟».

كادوالدر».

«لا تستفزني يا كادوالدر. لدي قدمان أستطيع أن أركلك بهما».

«ماذا سأناديك؟».

«جايمس».

«ليس جيم؟».

«إطلاقاً ليس جيم».

أنهيا الجعة ورميا الزجاجتين إلى الماء.

ذهب جايمس عبر أشجار جوز الهند على الشاطئ، يتبعه كادوالدر بخطوات واسعة ثلاثية الأقدام، بينما أوقف جايمس أحد القوارب الدائرية الغريبة - كناية عن سلال عملاقة بعرض ستة أو سبعة أقدام، من القش المحيك والخشب، المطلية بما يشبه الورنيش، وأخذ يجره بقوة نحو الشاطئ. أطفال صغار عراة جاؤوا لكي يتفرجوا، ولو كان هناك بالغون في الأكواخ المحيطة، فإن أحداً منهم لم يظهر.

توقف لكي يلتقط أنفاسه، قبل بضعة ياردات من المياه «أين تضع مسدسك الجبار؟».

رفع كادوالدر قميصه، وبرز عقب المسدس عند خاصرته.

«إذا كنت ستركب معي، فإنه عرضة للبلبل، لأنني معرّض لإغراقنا».

«ارفع ذلك القارب هناك».

رفع جايمس حافة قارب مقلوب آخر، ولف كادوالدر المسدس والسجائر والولاعة في قميصه وطرح القميص تحت القارب. وفعل جايمس الأمر نفسه بعلبة المارلبورو، وفي اندفاعة أخيرة أوصل القارب إلى المياه.

عندما بلغت المياه صدره، وضع كادوالدر العكازتين في القارب ثم تسلق

راكباً. كان ثمة مجداف واحد، «روك أند رول»، صاح كادوالدر بينما جايمس كاد يوقعهما «إذا علقنا في التيار الخطأ فلن نرى اليابسة ثانية. أيهمك ذلك؟».

حاول جايمس أن يجدف في اتجاهات متعاكسة. لم يعرف أين يقف، أو إذا كان يقف أساساً في هذا المكان المترجرج. «إنه لا يتحرك؟ كيف يبحرون بهذا الشيء؟».

«أعطني المجداف. إنني بحار في دمي».

وقف الأطفال على الشاطئ وشاهدوا القارب ينجرف مبتعداً. وأخذت الماعز تثغو في أيكة من أشجار جوز الهند. سرعان ما لم يعد جايمس يسمع شيئاً سوى الموج خلفه. وراء الشاطئ الأيكة، ووراء الأيكة أكواخ القش... فكر أنها ترتفع مثل رؤوس أعودا الثقاب.

«إننا ضائعان في البحر»، صاح كادوالدر، «رأسي يطفو من رمزية الأمر».

«أنت تذكرني بشقيقي الصغير».

«لمَ... ما مشكلته؟».

«لا أستطيع تحديد السبب. لكنك تذكرني به فحسب».

طفا بهما القارب فوق المياه وحملهما التيار بعيداً من فييتنام.

«حسناً جايمس، ستبقى لفترة؟».

«ربما، لا أعرف».

«يمكنني أن أكلم فرنشي لكي يخصم لك».

«لدي المال. لا أحتاج إلى خصم».

«هذا موقف غريب نوعاً ما».

«كل ما أقوله إنني لا أحتاج إلى خدمات».

«أين صرت في دورتك؟».

«بدأت في دورتي الثانية تواً».

«أنت كتلة من المواقف الغريبة. لا أفهم لمَ يستمر أحدهم في دورة ثانية في

هذا المكان».

«لا سبب لذلك»، اعترف جايمس، «هل أوشكت على الانتهاء؟».

«ليس إلى هذه الدرجة».

«كم بقي لك؟».

«ثمانية أشهر. ستة أشهر وثمانية أيام عندما تعرضت للإصابة. نصف المدة وثمانية أيام. يا للأمر اللعين».

«بقدر ما هو تناول البراز إذا كنت الفتى الجديد».

«أجل، الأمر دائماً لعين، تناول البراز. هذا جزء من الخطة».

وقف كادوالدر على قدمه الوحيدة، وانزلق جانبياً في المياه، وأخذ يطرطش في المياه.

«هاي يا رجل».

«هاي ماذا؟».

«عد إلى القارب».

«لَم».

«على الأقل ابق مكانك».

«انا في مكاني. أنت من يتحرك».

«لا أستطيع التجديف بهذا الشيء، إنني أوشك على فقدانك».

«حقاً؟».

«كادوالدر، كادوالدر».

«وداعاً أيها السفلة!».

«إننا على بعد ميل من الشاطئ».

طاف كادوالدر على ظهره على بعد مئة قدم منه».

«كادوالدر!».

جدّف جايمس بقوة لكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك. أمكنه أن يلمح الفتى

فقط عندما ينخفض الموج. كادوالدر طاف على ظهره، محدقاً إلى الأعلى محركاً قدمه «أنت تسير في الاتجاه الصحيح!»، صاح جايمس، لكن كادوالدر لم يمكنه سماعه أو لم يهمه ذلك. اعتقد جايمس ان أحدهما يحرز تقدماً باتجاه الآخر، وهذا ألهمه. بدا أن المجداف يعمل بصورة أفضل إذا حركه إلى الأمام والخلف مثل ذيل السمكة. أضناه الجهد. اقترب من كادوالدر وأمسك بيده، إلا أنه صده عنه، فتشبث جايمس شعره. أذعن كادوالدر وتمسك بطرف القارب. لم تعد لجايمس أي قوة لكي يرفعه. ولا نفس لكي يشتمه. كان صدره منتفخاً والطعم القصديري للتعب يملأ فمه.

كادوالدر ركل مبتعداً، تقلب، وبدأ يسبح نحو الشاطئ. جايمس جدّف خلفه. بدا التيار لصالحهما الآن.

حفّ القارب بالرمل وقلبته موجة صغيرة. خرج جايمس وجره إلى اليابسة.

استلقى كادوالدر على ظهره على بعد مئة ياردة منه واتجه جايمس نحوه، وهو يجرّ عكازة بكل يدّ مخلفاً وراءه خطين على الرمل. في الأثناء جرّ الموج القارب. وأخذ يتأرجح فوق الماء وبدا متجهاً نحو البحر.

«أنت مدمّر يا رجل. مدمّر كلياً من الداخل».

«هذا واضح».

«لقد طفح الكيل بي يا رجل».

«أعطني عكازتي».

«رمى جايمس كل واحدة منهما أبعد ما يمكنه «أحضر عكازيتيك اللعينتين».

ذهب إلى حيث وضعا حاجياتهما واستعادها وتفحص مسدس كادوالدر، براونينج هاي باور.

«هاي»، ناداه، «هذا خاص بالضباط، أأنت ضابط؟».

زحف كادوالدر بصعوبة على الرمل مثل شخصية سينمائية طرحها البحر.

«أأنت ضابط؟».

«أنا مدني، إنني فار لعين».

جرّ نفسه عند قدميّ جايمس. أخرج جايمس مشط البراوني وأرجع الزناد لكي يوقف حركة آخر رصاصة، وقال «الآن يمكنك اللعب به قدر ما تشاء».

«اللعنة عليك، لديّ الكثير من الذخيرة».

«استمتع إذن، وسوف آخذ المسدس».

«أعد إلي مسدّسي».

«لن يحدث البتة، وإلا قتلت نفسك».

«إنك تسرق مسدسي».

«يبدو ذلك».

«اللعنة على مؤخرتك اللعينة. إنه بطاقة عبوري إلى الفردوس».

أشعلا سيجارتين من ولاعة كادوالدر وقال جايمس:

«يجب أن أرحل».

استدار ومشي مبتعداً.

«توقف. هذا أمر. أنا ملازم يا رجل».

«ليس في حربي»، قال جايمس من وراء ظهره.

وهو يتجه عبر الفتحة في الحاجز البحري سمع الملازم كادوالدر يصرخ: «اقتل فييتكونغ من أجلي يا رجل!».

حصل جايمس على توصيلة في جيب عكسري مع رجلين من كتيبة المشاة الخامسة والعشرين من وسط سايغون إلى القاعدة الكبيرة. أنزلوه أمام بوابة مستشفى الإجلاء رقم 12 في حوّامة من الغبار، ودخل من دون أن يكلم أحداً ليتوه فوراً بين كل هذه الحجرات التي يغمرها صمت المرض وروائح العقاقير الطبية الحادة. كان قد احتسى الكثير من الجعة تلك الصبيحة وشعر بأنه مهتاجاً

وفارغاً. أولاً قالوا له الحجرة سي – 3، ثم سي 4، والممرضة في السي 4 قالت تخميناً سي 5 أو سي 6، وأخيراً الممرضة في السي 6 أعطته دونتس، وقالت إنها تهتم بحالات الولادة وبعض الحالات السيئة وأخذته إلى ستارة أمام ما يشبه الحجرة وقالت له: «جيم؟ أينادونك جيم؟»، ولم تفتح الستارة.

«بل أعرف أكثر باسم جايمس».

أزاحتها قليلاً «الرقيب هارمون؟»، قالت الممرضة، «جايمس هنا. جايمس من وحدتك».

لم يكن الرقيب في وضع جيد على الإطلاق. وقف جايمس قرب سريره وقال: «هاي سارج»، وحاول أن يطلع بشيء آخر يقوله، إلا أنه لم يستطع. أراد جايمس أن يقول: الآن الشباب سيشربون من دونك، وأن يقول: كانوا يعيثون الخراب في أرجاء المكان، وأن يقول: وأنا أيضاً كنت أعيث الخراب في المكان. كان غاضباً من أحدهم في المكان ومن المحتمل أن يكون الرقيب نفسه، الذي لم يبد مختلفاً عن الميت، في مرحلة تتجاوز بالتأكيد أن يستحث بأخبار التصرفات غير المنضبطة. بدا مثل وحش فرنكنشتين المقطع أجزاء، وقد ربط إلى الأنابيب التي ستوقظه على هيئة نهائية مربكة ومعذبة. كان له حتى براغ معدنية لماعة تبرز من صدغيه كوحش فرنكنشتين- لأي غرض؟ كان ثمة ملاءة تغطيه نزولاً إلى حيث يفترض أن تكون سرّته، لو كان له بطن بدلاً من شيء بدا ملصقاً معاً مثل أشلاء من مسلخ. وكان ثمة جهاز بجوار السرير يصدر هسيساً متكرراً، وأرقام حمراء على شاشة تعلن نبضه: 73، 67، 70.

«ما الغرض من هذا الأنبوب الخارج من فمه؟».

«جايمس، الرقيب لا يتنفس وحده تماماً بعد».

قرّبت الممرضة له كرسياً، وجلس قرب السرير وأمسك يد الرقيب. فقاعة انتقلت عبر المحقنة في معصم الرقيب: «سارج».

مالت عينا الرقيب شديدتا الزرقة، اللتان تطفوان وحدهما في محجريهما، نحو

جايمس وتوقفتا هناك. أصدر الرقيب صوت طقطقة بلسانه على سقف حلقه.

«أتراني؟».

طقطق الرقيب بلسانه ثانية، تسك تسك، وكأنه يدلّع طفلاً، تسك، تسك. الشفتان بيضاوان ومتشققتان، تتقشران.

مال جايمس مقترباً ونظر في عيني الرقيب. رموش العينين الملتصقة بالدمع، شعت فجأة، كما في رسم طفل. عينان زرقاوان رائعتان. لو كانا لامرأة لما أمكنك التوقف عن النظر إليهما.

«ما هذا الصوت الذي يصدره؟»، سأل، إلا أن الممرضة كانت قد رحلت. «ما الذي تحاول قوله سارج؟»، مسح الدموع التي ترقرقت في عينيه هو وتمخط وبصق في السلة البنية المليئة بالقطن وبالمحارم المتسخة. «لقد جئت فحسب»، قال جايمس، «فقط لكي أسلم عليك. لأرى إذا كنت محتاجاً إلى شيء ما. أمور من هذا القبيل».

كل بضع ثوان، ذلك الصوت المطقطق. أكانت شيفرة مورس؟ «سارج، لقد نسيت شيفرة مورس»، قال.

دخلت ممرضتان وأبعدتا جايمس جانباً وأخرجتا الأنبوب من بين شفتي الرقيب وأدخلتا واحداً آخر في حلقه. أصدر الأنبوب صوت حفّ وشفط، وارتفعت الأرقام على الشاشة بسرعة —121، 130، 145، 162، 184، 203. وبعد دقيقة أعادتا الأنبوب وعاد الرقيب قادراً على التنفس ثانية وانخفضت الأرقام ببطء.

«اللعنة»، قال جايمس.

«إننا نبقي رئتيه نظيفتين»، قالت إحدى الممرضتين.

«لم تقوما حتى بإلقاء التحية»، قال جايمس.

«مرحباً أيها الرقيب»، قالت الممرضة، ثم رحلتا وجلس جايمس ثانية، وأمسك يد الرقيب الذي

أخذت عيناه تطوفان مشعّتين متوسّلتين. كان يؤدّي كل التعابير بعينيه. بكى

جايمس مثل كلب ينبح. الواقع والصواب ينسكبان منه، نقاوة النحيب، البكاء فحسب، ومن يبالي – هذا أكبر من كل ألاعيبك. الدموع انحدرت إلى الوراء من عيني الرقيب فوق صدغيه وإلى أذنيه، إلا أنه أصدر صوتاً عدا ذلك الذي يصدره بلسانه.

«هذا جايمس يا دكتور»، قالت الممرضة. كانت قد دخلت مع طبيب تلوح عليه السعادة. «جايمس هو من وحدة الرقيب هارمون».

«كيف حالك اليوم أيها الرقيب؟».

«ماذا جرى؟»، سأل جايمس.

«ماذا تقصد؟».

«ماذ حدث؟ ماذا جرى؟ كيف جرح؟».

قال الطبيب: «ماذا جرى لك أيها الرقيب؟».

تمتم الرقيب بشفتيه المتقشّرتين وطرطق بلسانه.

«يصدر هذا الصوت»، قال جايمس، «أيمكنك سماعه؟».

«ماذا جرى لك أيها الرقيب؟ أتتذكر؟ تكلمنا عن الأمر البارحة؟».

وقّت الرقيب حركة شفتيه مع صوت جهازه، وقال: «أنا، أنا»، أو حرّك شفتيه بطريقة أوحت بأن هذا ما يقوله.

«أتتذكر ما تكلمنا عنه؟ قلنا إنك ربما أصبت بضوء إشارة؟ أنك ربما أصبت من الخلف؟».

«ظننت أنه أصيب في الوسط، في المعدة، ظننت...».

«الشعلة اخترقت أسفل الضفيرة الشمسية وصعدت نحو العمود الفقري، بقدر ما نعرف. فتحت كل ظهره».

«أصيب بضوء إشارة؟».

«صحيح».

«أتعني ذلك حقاً».

«صحيح. تسببت بالكثير من الضرر في العضلات والرئتين والعمود الفقري. وصولاً إلى الفقرة الثانية. الكثير من الأضرار أليس كذلك أيها الرقيب؟».

محركاً شفتيه، محاولاً أن يصدر بريقه أصواتاً حلقية، محاولاً أن يشكّل عبارة. بقدر ما تمكن جايمس أن يفهم: «إنني فوضى كاملة»، تلك كانت رسالته.

خطوط الهاتف كانت عشرة، إلا أنه كان ثمة ثلاثة أخرى مخصصة للضباط في نادي الضباط، فذهب إلى هناك. بعد أن طلب عاملة الهاتف أبقى يده اليمنى على عقب مسدسه الجديد وعيناه شاخصتان نحو كل من يقترب. كانت الهواتف الثلاثة له وحده.

أعطى عاملة الهاتف رقم ستيفي، تسلسل لا ينسي من الأرقام، فقد طلبه مئات المرات قبل آلاف السنين، في الثانوية.

أجابت أمها: «مرحبا؟»، ناعسة وربما خائفة.

أقفل الخطّ.

أعطاه ملازم جعة بدوايزر. أولئك الشباب ليسوا سيئين جداً. أبعد يده عن المسدس وأشعل سيجارة، ثم اتصل بالبيت.

«ما الوقت عندك؟»، سألته أمه.

«لا أعرف. بعد الظهر».

«جايمس، ماذا قررت؟ في ما يخص البقاء هناك؟ ماذا قررت بهذا الشأن؟».

«لقد مدّدت بقائي هنا قليلاً».

«لمَ قد ترغب في البقاء؟ ألا تدرك أنك أدّيت واجبك تجاه بلدك بقدر ما فعل أيّ شخص آخر؟».

«صحيح... شعرت أن الأمر لم ينته بعد».

«لا تجرؤ على التمديد مرة ثالثة بعد هذه المرة».

«لقد كنت متهرباً من واجباتي. قد لا يرغبون فيّ مرة ثالثة».

«حسناً، لن أكون متفاجئة. لعلك على الأرجح مصاب بارتجاج دماغي».

«افترضي أنهم سرحوني... ربما أستطيع العودة إلى فينيكس».

«أجل، أجل حبيبي. إلى أين قد تفكر بالذهاب سوى ذلك؟».

«لا أعرف، إلى جزيرة ما ربما».

«ما الذي تعنيه، جزيرة؟ نحن لا نعيش في جزيرة».

«كيف حال الجميع؟ كيف حال بيريس؟».

«بيريس يتعاطى المخدرات!».

«يا للربّ».

«لا تشتم».

«اللعنة، اللعنة، أيّ نوع من المخدّرات؟».

«كل ما تصل إليه يده».

«كم عمره؟».

«لم يبلغ الثانية عشرة بعد!».

«يا للوغد الصغير. حسناً، حسناً، هل تصلك أخبار من بي جونيور؟».

«بيل جونيور، لقد أخذوه منذ شهر تقريباً».

«أخذوه إلى أين؟».

«أخذوه، أخذوه، هذا كل ما أعرفه».

صمت جايمس لكي يمجّ آخر نفس من سجارته ويطفئ السيجارة «أتعنين أنه في السجن؟».

«واحد يتعاطى المخدرات، والثاني في السجن».

«لأي سبب؟».

«لا أعرف. شيء من هذا، وشيء من ذاك. دخل إلى السجن بعد أسبوع من السنة الجديدة ولم يخرج حتى العاشر من فبراير. احتجزوه ثلاثة أسابيع. كان عليه أن يعترف بالذنب ويحصل على حكم سنتين قابل للتعليق وإلا كانوا أبقوه في

السجن. أولئك الجماعة ملوا من سوء التصرفات».

«أهو في أريزونا؟».

«أجل، حكم معلّق. إذا بقي على هذا السلوك فسوف يضعونه في سجن فلورنس مع أبيك. كما الأب كما الابن».

«أليس هذا رائعاً».

«لا تتذاكى حول الأمر. الروح القدس كان يحاول الدخول إلى أرواح رجال هذه العائلة منذ أجيال، لكن أتظن أنه صنع أكثر من مجرد ثقب صغير؟».

«أجل، أتعرفين؟ ربما الروح القدس ليس مقدساً إلى هذا الحدّ».

«ما الذي تعينه بحق الرب؟».

«لا أعرف. ربما تحتاجين إلى أن تري الدنيا قليلاً أكثر قبل ان تبدأي بالتكلم عن الروح القدس».

«جايمس، هل تذهب إلى الكنيسة؟».

«لا».

«جايمس، هل تصلي؟».

«لمن؟».

بدأت أمه بالبكاء.

«يا امرأة دعيني أخبرك شيئاً عن الروح القدس. إنه مجنون».

«جايمس»، قالت.

لم يشعر بشيء حقاً، لا الأسف ولا الرضى، لكنه قال لها، «أماه، حسناً، أعتذر على ذلك. أعتذر».

«هلا صليت؟ هلا صليت معي يا بني؟».

«هيا».

«ربي العزيز، مخلصي العزيز، أبانا الذي في السماوات»، قالت، وأبعد السماعة عن أذنيه، مفكراً في أنه إذا جاء الروح القدس يوماً إلى فييتنام الجنوبية،

فستتعرض خصيتاه لإطلاق النار.

على المشرب رأى رجالاً يحتسون الويسكي من كؤوس فيها مكعبات من الثلج. ضابط بالزي العسكري حملق بأصابعه وهي تمزق منديل الورقي تحت كأسه.

في تلك اللحظة تذكر فجأة الرقيب هارمون:

أوه يا إلهي، يريد ماء.

«بني»، قالت أمه، «أما زلت على الخط؟».

الشفتان المتشققتان الجافتان - ظمئتان، متقشرتان. كان يؤشّر بلسانه.

«شكراً على الصلاة يا أماه»، قال، وأقفل السماعة.

فتح جعته وشربها حتى آخر قطرة. كانت أفضل ما تذوقه يوماً. الأسوأ والأفضل.

حلم جايمس أنه لم يتمكن من العثور على سيارته. تحول المرأب إلى قرية من الشوارع الضيقة الملتوية. لم يرد طلب النجدة، لأنه يحمل بندقيته الأم 16، وأولئك الناس قد يعتقلوه. كان الوقت ينفد. هذا ما تذكره عندما أفاق على الحصيرة في ثيابه المدنية المخضلة بالعرق، بيد أن الحلم كان فيه مليون هامش، جادات من الأحداث الملتوية والتعقيدات التي لا تقال. حلم كثيراً كل ليلة. بدا ذلك أشبه بالعمل. النوم يشعره بالتعب.

نهض لكي يشغل المكيّف، لكنه لم يجد واحداً. كان ثمة جكبكس ينبض تحت قدميه. وشبكة بعوض معلقة بالمسامير فوق النافذة المفتوحة. فكر أنه ضوء نهار، إلا أنها لم تكن سوى لمبات اللافتات الصفراء في الخارج. عثر على خفيه الأزرقين ونزل الدرج إلى جانب المبنى لكي يحضر الجعة. كان هذا زقاقاً مسدوداً، غير معبد، وكان عليه الانتباه للبرك الموحلة. حانة «جولي بلو». جلس مع بعض الشباب، أيضاً من الكتيبة الخامسة والعشرين، أيضاً من الاستطلاع، من

«اللورب». أعطوه بعض مخدّر «السبيد» فتنشّط فوراً. لم يكن أي نسوة معهم. لمعت عيونهم كالحيوانات. هؤلاء الشباب كانوا يتعاطون الأسيد، أشياء تتلف أعصابهم، وتلخبط أدمغتهم كلياً. «تعال معنا. إننا نمضي فحسب. نعيش الليل. نتعاطى السبيد. نضاجع. نقتل. ندمر». أراد أن يجعل الأمور تحدث لكنه لم يستطع. أدرك أنه عليه الذهاب مع هؤلاء الشباب فحسب، أن يصير لورب، أن يتحول. وعيناه ستتحولان مثل عيونهم. قال، أتعرفون بلاك مان؟»، «أجل»، قالوا، «نعرف بلاك مان، إنه يمضي معنا». يمكنه أن يريني كيف أتحول، قال «يمكنه أن يريني كيف أتحوّل»، قال جايمس، «إذن قم بذلك، ألم تفعل شيئاً سوى هذا؟»، بلى بالتأكيد قال، آن أوان الانطلاق مع الوحوش.

«ألديك وقت تمضيه في الخدمة؟».

«أنا في دورتي الثانية».

«أيمنحونك تسريحاً إلى الديار؟».

«لا أريد تسريحاً».

«ألا تريد تسريحاً؟».

«هذه الحرب هي داري».

«جيد. اذهب إلى الديار وينتهي بك الأمر إلى لعب الورق حتى تبليها، رزمة ورق بعد رزمة. جالساً على النافذة تفعل ذلك».

«تسعة وتسعون بالمئة من البراز الذي يجري في رأسي بصورة يومية هو ضدّ القانون»، قال أحدهم، «لكن ليس هنا. هنا البراز الذي في رأسي هو القانون، ولا شيء سوى القانون».

«لديهم نظريات عن الحرب يا رجل، نظريات. لا يمكننا ذلك. لا يمكننا ذلك هنا. لدينا مهمة. لا حرب. بل مهمة».

«التحرك والقتل، صح؟».

«أصبت. هذا اللعين يفهم الأمور».

«مئة بالمئة».

«إذن احتفظ بهذا الفهم».

«أنت تعرف ما هو المحارب المزدوج؟ تضاجع امرأة ثم تشطبها».

«الجميع هنا محارب مزدوج».

«أحقاً؟».

«نخب كل ميت لعين».

غادروا، وشرب الجعة ورأى فتاة هوى مصابة بندوب في ساقيها. كان ثمة بعوضتان تقفزان بغباء على الجدار قرب رأسه. وإلا لكانت له اللحظة وحده بمفرده. الموسيقى تضجّ، أغنيات كونتري، أشياء ذهنية، الرولينج ستونز. على المشرب، ووراءه – التراقص البطيء لمصباح نجمي، شلال متلألئ على لافتة جعة «هام»، ساعة مشكالية تعرض الدقائق، المعابد الصغيرة المضاءة.

لا يمكنني أن أتصور أنه حقيقي جداً، أو غير حقيقي كفاية، قال جايمس لأحدهم... أو قال أحدهم له...

ثم دخل الكولونيل، المدني، الجيد بوصفه رئيس الكتيبة «د»، زوج أب كتيبة «إيكو» إلى هذا الحدّ أو ذاك.

ملأ المدخل، القميص مفتوح، يتنفس بقوة، محيطاً بيديه عاهرتين صغيرتين تبتسمان كاشفتين عن جسر أسنان ذهبي. لم يبد على الإطلاق متوازناً. «ساعدني أيها الجندي».

«أجلساه هنا».

ساعدوه على المقعد المسحوق في السقيفة الوحيدة – كل شيء آخر كان طاولات. أومأ طالباً الشراب. تحت الضوء الخافت، بدا وجهه أرجوانياً ثم شاحباً جداً. إحدى الفتيات انحشرت قربه ووسعت فتحة قميصه وأخذت تمسح صدره المتعرق الشاحب، المغطى بالشعر الفضي.

«إنني أعاني مشكلة في قلبي».

«هل يجدر بي إحضار المساعدة؟».

«اجلس، اجلس. أمرّ بمشكلة صحية، لكنني في الأغلب أعاني من حرّ شديد والتسمم بسبب براندي الأرز هذا. اطلب البوشميل فيحضرون لك الكوكا كولا المليئة ببراندي الأرز. هذا الشراب ليس للشرب، بيد أنه يقضي على الثآليل بكل تأكيد».

«أجل سيدي».

«أنا جندي قديم في قوات الجو، لكنني أحترم المشاة».

«أعرفك سيدي، أنا مع كتيبة إيكو الاستطلاعية».

«من المشرّف أن تكون جندي مشاة».

«يجب أن أصدقك».

«إذا عانيت من ثألولة يوماً فاقطعها بشفرة وانقعها لعشر دقائق ببراندي الأرز».

«حاضر سيدي، سأفعل».

«أجل بالتأكيد. إيكو. هذا مؤكد. أنت رجل النفق الخاص بي منذ فقدت الكوتشي كوتيز».

«حسناً، لقد نزلت نفقين، هذا كل ما في الأمر. على ما يبدو، ثلاثة أنفاق».

«هذا يحتسب. ثلاث مرات عدد جيد».

«ليس بالكثير».

«يا إلهي، أنت أكبر رجل أنفاق رأيته في حياتي».

«لست كبيراً إلى هذا الحدّ».

«بالنسبة إلى الأنفاق بلى».

«سيدي، هل عرفت بشأن الرقيب هارمون؟».

«فهمت أنه أصيب».

«أجل سيدي، شلّ بالكامل حتى رقبته».

«شل؟ يا إلهي».

«وصولاً إلى رقبته. جسده ممزق من القدمين صعوداً».

«يا للخزي اللعين».

«سوف أنتقل إلى اللورب، أريد إيلام أولئك السفلة».

«ليس من خزي في الكراهية يا بني، ليس في الحرب».

«لست ولدك».

«اعذر الافتراض».

«إنني أسرف في الشرب الليلة».

«أحسّ بخسارتك. الرقيب رجل جيد».

«إلى أين ذهب الكوتيز سيدي؟».

«لقد مُنعت من استعمالهم. تمّ نقل اثنين منهم. المهبط برمته سوف يزال. لا مزيد من الكوتيز. لا مزيد من المروحيات».

«هذا ما ظننته. لم أرك منذ مدة».

«كل شيء ينهار. في الديار وفي الخارج. في الديار أظن أن زوجتي وابنتي تقرعان الطبل نفسه مع البتنيك».

«وأنا سأتسكع في هذه الفوضى».

«عذراً. إنني سكران ومريض ومحرج... كنت أقول... الكراهية.. أجل سيدي... إنه حب الوطن ما يقودنا قدما، لكن آجلاً أم عاجلاً يصبح الانتقام هو الدافع».

افترض جايمس أن الكولونيل يعرف بهذا الشأن. ها هو رجل سمين المؤخرة يناقش في موضوع الثآليل، وها هو أيضاً أسطورة حية، حياة كاملة من الدم والحرب والنساء.

«أذهبت إلى مدرسة الأنفاق؟».

«لا».

«أتريدني أن أرسلك إليها؟».

«أريد تدريب اللورب».

«منذ متى أنت هنا؟».

«مضى شهر منذ دورتي الثانية».

«إذا أخذت الدورة، فسوف يطلبون منك دورة ثالثة على الأرجح».

«هذا جيد. وهل تستطيع تدبير مسألة التغيب هذه؟».

«التغيب؟».

«إنني مفقود منذ ثلاثة أسابيع، هذه حقيقة الأمر».

«عد إلى كتيبتك غداً، هذا أول ما يجدر بك فعله».

«أجل سيدي».

«نظف نفسك وعد».

«أول شيء في الصباح سيدي».

«سوف ندبر الأمر ونضعك في دورة دوريات الاستطلاع طويل المدى».

كانت أمطار الصيف محتبسة. أما اليوم فأمطرت.

عاد سكيب مشياً على الأقدام كيلومترات عدة بمفرده من قرية زارها مع الأب باتريس. لم تبلغ العاشرة بحسب ساعة معصمه الخاصة بقوات الجو، هدية تلقاه في صباه من الكولونيل... مارتن لوثر كينغ قتل. روبرت كينيدي قتل. الكوريون الشماليون ما زالوا يحتجزون سفينة بحرية أمريكية وطاقمها. المارينز محاصرون في كي سان، المشاة يذبحون جميع سكان قرية ماي لاي[1]، حمقى طوال الشعور

(1) مجزرة ماي لاي: واحدة من أبشع الجرائم التي ارتكبها الأمريكيون في فيتنام. حيث أقدمت كتيبة من الجنود الأمريكيين على اقتحام قرية وقتل ما بين 347 و504 مدنياً، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ وذلك بعد عمليات اغتصاب واسعة وتشويه للجثث. حوكم في هذه المجزرة 26 جندياً لكن أدين واحد فحسب قضى ثلاث سنوات من الإقامة الجبرية فحسب. غير أن الخطأ =

يحسبون أنفسهم أسمى أخلاقياً يتظاهرون في شوارع شيكاغو، ويحسبون الفشل الدموي لهجوم التيت نوعاً من النصر الروحي. ثم في مايو هجوم آخر واسع النطاق، أضعف، إلا أنه واسع الصدى مثله تقريباً. التهم مجلتي «تايم» و«نيوزويك» وقرأ كل هذه الأخبار هناك، إلا أن هذه الأحداث بدت بالنسبة إليه مستحيلة الحدوث، متخيلة. في غضون ستة أو سبعة أشهر الديار غرقت الديار التي نفي منها في محيط تاريخها المستقبلي. بيد أن كليمنتس، تكساس، ما زالت على حالها، هذا يمكنه أن يكون واثقاً منه؛ إذ لا يأتي على كليمنتس، تكساس، سوى صيف واحد؛ صيف واحد بأسراب جراده الصاخبة وطيور السوادية، وروائح الخبز والصابون وبرسيم المروج، والحقيقة المذهلة للطفولة. تبدّد، تبدّد بغباء، ليس هذا الصيف، بل ذاته هي التي تبدّدت. رحلت، هجرت، تغيرت هيئتها. أبطلت وحوّلت، إذا وصل الأمر إلى ذلك. أحب وقاتل من أجل ذكرى. وللعالم الذي يرث هذه الذكرى الحق، لم يستطع ألا يرى ذلك، بأن يمضي قدماً من دون أن تعترض المثل المقتولة طريقه. في الأثناء تلألأ الهواء حوله بحشد من الحشرات الصغيرة. أقرب إلى الأرض ازداد الجوّ احتشاداً - البط والدجاج، الأطفال، الكلاب، القطط، الخنانيص. لقد هرع على متن دراجة الكاهن النارية سعياً وراء الحكايات والأمثلة بين أبناء الرعية المتناثرين. وقد حصل على حكاية واحدة من امرأة عجوز، كاثوليكية، صديقة للقس. الأب باتريس تابع مسيره غرباً في حين عاد سكيب إلى البيت سيراً على الأقدام.

بعد نصف ساعة من المسير أمطرت واحتمى تحت سقيفة متجر صغير فيه باباسان يغطي وجهه بقناع جلدي ويدخن سيجارة بتكاسل فاتن وليس لديه ما يقوله. حين ابتسم له سكيب، انفتح وجه الشيخ في ابتسامة كبيرة برزت خلالها

= الذي يرتكبه الكاتب هنا هو الإشارة إلى ذيوع خبر المجزرة في العام 1968 في حين لم ينتشر هذا الخبر حتى العام 1969 حيث كانت ردة الفعل الشعبية كبيرة في أمريكا ومن تعبيراتها التظاهرة المذكورة تالياً.

أسنانه البيضاء التي تبدو سليمة. كانت العاصفة وابلاً غير مؤذ قاطعته على أية حال هبّات ريح انقضت على النباتات وجعّدت الرزم الكبيرة على جانب الطريق. اشترى سكيب شراب «نامبر وان» في واحدة من نكهاتها التي لا يمكن تمييزها وشربها بسرعة. خاطب الشيخ بالإنجليزية: «أتعرف ماذا أظن؟ أظن أنني ربما أفكر كثيراً». توقف المطر. قبالة الطريق أمام منزل صغير شابة تلاعب طفلاً بالكاد يحبو «البيكابو»[1]، والطفل يتمايل على أطراف أصابعه بينما أخته التي تكبره قليلاً في السن ترقص ارتجالاً، مؤدية بذراعيها حركات متوازية، وثلاثتهم يبتسمون وكأن العالم لا يمتدّ أبعد من حدود سعادتهم.

صبيحة اليوم تأثر بالحكاية التي سمعها والتي تبدأ: كان يا ما كان، كانت حرب؛ ترك جندي زوجته وطفله وذهب لكي يدافع عن بلده. في غيابه الزوجة الشابة بالبيت والحديقة وبالطفل. وكل مساء عند الغروب كانت تقف على ضفة النهر خلف بيتهم مترقبة أن يحمل زوجها إلى البيت.

ذات ليلة هبت عاصفة فوق البيت الصغير وأخذت ترجّ السقف والجدران وتسببت بانطفاء المصباح، فأخذ الطفل يبكي جزعاً. احتضنته أمه وأعادت إشعال المصباح. وبينما تفعل ذلك امتدّ ظلها على الجدار عند الباب، وطمأنت ابنها بالإشارة إليه قائلة: ليس من شيء نخشاه الليلة، أترى؟ البابا واقف عند الباب». على الفور اطمأن الصبي لرؤيته هذا الظل. كل مساء بعد ذلك، عندما تعود إلى البيت بعد الوقوف على ضفة عند النهر بانتظار أن يعود زوجها مع الغروب، ينادي طفلها أباه، وهي تضيء المصباح، وكل مساء ينحني أمام الظل على الجدار ويقول: «عمت مساء يا أبي!»، وينام بسلام.

عندما عاد الجندي إلى عائلته الصغيرة، كاد قلب زوجته ينفجر فرحاً، وقالت له باكية: «يجب أن تشكر أسلافنا، أرجوك حضّر المذبح واعتن بولدنا»، قالت،

(1) لعبة يلعبها شخص بالغ أو على الأقل أكبر سناً مع طفل، مغطياً وجهه بيديه، ثم كاشفاً إياه فجأة، هاتفاً: «بيكابو... لقد رأيتك». ما يقابلها في بعض بلدان العالم العربي كلمة «بقوسة».

«بينما أحضر الطعام لوجبة شكر».

وحيداً مع الطفل قال الرجل: «تعال إلي، أنا والدك»، لكن الطفل أجاب: «والدي ليس هنا الآن. كل مساء أقول عمت مساء لأبي، أنت لست أبي»، حين سمع الرجل هذه الكلمات مات على الفور حبه لزوجته.

عندما عادت زوجته من السوق أحست بغمامة موت في بيتها. رفض زوجها أن يمنحها الحق في قول أيّ كلمة. طوى حصيرة الصلاة وحرمها من استعمالها. انحنى بصمت أمام الوجبة التي حضّرتها وعندما برد الطعام وما عاد يستحق الأكل،، خرج من البيت.

لأيا وأيام انتظرت زوجته عودته، واقفة على ضفة النهر مثلما كانت تفعل عندما ذهب إلى الحرب. ذات يوم غلبها اليأس، فأخذت طفلها إلى بيت الجيران، وقبلته وعانقته للمرة الأخيرة، وهرعت إلى النهر وأغرقت نفسها.

وصل خبر موتها إلى زوجها في قرية على امتداد النهر. حطّمت الصدمة الجليد في قلبه. عاد إلى البيت لكي يعتني بابنه. وذات مساء بينما هو جالس أمام فراش الصبي مشعلاً مصباح الزيت، ظهر ظله على الجدار قرب الباب. فصفق الصبي بيديه وانحنى أمام الظل وقال: «عمت مساء يا أبي». فوراً أدركالرجل فعلته. تلك الليلة بينما الصبي نائم بنى مذبحاً على ضفة النهر وركع أمامه لساعات، لكي يعلم أسلافه بمدى ندمه على فشله. قبل الفجر تماماً أخذ ابنه النائم إلى ضفة النهر، ومعاً تبعاً الزوجة المخلصة إلى مياه الموت.

أخبرت العجوز الحكاية من دون أيّ تعبير أو عاطفة ملموسة. أخذت الحكاية بمجامع قلبه. الطفل والأم وحيدان في حياتهما. الرجل والمرأة اللذان أساءا فهم واحدهما الآخر، الظل الذي هو الأب. النهر الذي جرف تاريخهم جميعاً.

دخل إلى واد يجري في وسطه غدير واسع ضحل، وهذه المرة علق في وابل المطر. مشى تحت المطر محتمياً بمظلة سوداء، بينما أخذ الغدير يزبد تحت المطر الشديد، ليتدفق بعدها بسلاسة، بنياً ومنتفخاً، مع دوامات مزبدة. عاد مجدداً إلى

الأرض المستوية، المفروشة بحقول الأرز، التي تهيمن على المشهد في أرجاء «كاو كوين».

مرّ بالمساكن، ليست أكواخ فلاحين بل منازل صغيرة تتقدمها الحدائق، وتنتصب خلفها الأضرحة المستطيلة فوق قبور العائلة مع نصف أغطيتها، مثل أسرة أطفال حجرية كبيرة. هنا وهناك على طول الطريق أناس أشعلوا النار في أكوام نفايات الحي المبللة وأرسلوا دخاناً ذكرته بروائح الخريف في طفولته.

أضافت العجوز مقطعاً ختامياً للحكاية: بعد الموت المأساوي، أمطرت السماء على الجبال. وفاض النهر الذي أغرق العائلة، صارت مياهه غاضبة، وحتى أكبر الحجارة فيه أخذت تتقلب، ولم يهدأ صخب غضبها ثانية أبداً. وحتى في الأشهر الجافة، عندما تنساب مياه النهر بهدوء، فإن النهر يهدر مع ذلك. حفنة من الرمل منه تتسبب بصوت هادر. ارم التراب في قدر واملأ القدر ماء، وإذا به يغلي في ثوان.

حين عاد إلى الفيلا وجد الشيفرولية السوداء عند المدخل، وكان عمه جالساً على الأريكة في غرفة المعيشة، مربتاً رأس كلب ضخم يعيش في البيت مؤخراً. رفع الكولونيل رأسه ولوح لسكيب قائلاً: «إنني أتعرض للابتلاع من قبل أريكتك»، ساعده سكيب على الوقوف. «لقد التهمتني هذه الوسادات»، بدا متورّد الوجه، بيد أنه تحت هذا الاحمرار كان شاحباً، «وساداتك الحريرية».

احتل نجوين هاو كرسياً من الخيزران قرب منضدة القهوة المنخفضة السوداء، ومع أنه جلس في المكان نفسه فقد أفلح في أن يبدو أبعد بكثير، لم يقل شيئاً، لم يهز رأسه ولا ابتسم.

«ما الوقت الآن؟»، سأل الكولونيل.

«قرابة الواحدة. أأنت جائع؟ وبالمناسبة أهلاً بك».

قيل له أن يتوقع مجيء الكولونيل في وقت ما بعد موسم المطر، وكان هذا كل

شيء. كان الكولونيل هو من أخبره بذلك في حقيقة الأمر.

«لقد طلبت القهوة»، قال الكولونيل.

أخذ الكلب يعض أعضائه التناسلية الخاصة بصوت هرير موسيقي متحمّس.

«لقد اقتنيتَ كلباً».

«إنه للسيد ثو. أظن أننا قد نأكله».

سمع صوت مياه المرحاض في التواليت في الأسفل. خرج جيمي ستورم بملابس عسكرية نظيفة. معدلاً حاشية قميصه، حملق في الحيوان المستمني، «أظن أن كلبك مغروم».

«كلبي؟ حسبته كلبك».

ضحك ستورم وجلس على الكنبة قائلاً: «أيها الكلب الأخرق المغفّل»، ربّت رأس الكلب ثم تشمّم أصابعه.

«لماذا لم تستقل الطوافة؟»، رؤية جيمي ستورم جعلته يتكلم بخشونة.

«لم تعد الطوافة لي».

«أوه، لمن هي إذن؟».

«ما زالت تنتمي لحلفائنا، لكنهم وضعوها لاستعمال أفضل. ونحن نخلي المهبط – هذا صار رسمياً الآن».

ظننت أن هذا كله كان يحدث قبل أشهر».

«الآلهة تتحرك ببطء، إلا أنها لا تتوقف عن التحرك أبداً. لا مزيد من كاو فوك، منذ بداية سبتمبر هذا».

«أف لذلك».

«حظوظ الحرب»، قال الكولونيل، «على أية حال ما كنت لأركب الطوافة اليوم. هذه زيارة غير رسمية. إنها زيارة عائلية فحسب».

«يستطيع ثو أن يأتي لك بجعة، أو ما رأيك بكأس؟».

«إنه يعدّ القهوة، لنتكلم برؤوس صاحية. أريد إنجاز بعض الأعمال».

«حسناً، أنا لست هنا من أجل قطع الدونتس الثلاث». كان تعبيراً تقوله أمه، وكان يبدو سخيفاً له.

«هل أعدت جيداً قراءة مقالة ديمر؟».

«عن العملاء المزدوجين، نعم سيدي».

قال ستورم: «يا للربّ».

«ماذا؟».

«لقد قرأت هذه المقالة».

«إذن؟».

«لا شيء، إنها غير قابلة للتطبيق».

«أيها الرقيب».

«كولونيل إذا أردت أن تغتال مريم العذراء ببندقية أوزوالد المانليشر، فسوف أكون الراصد الخاص بك».

«أنت تقول إننا لسنا ضمن التوجيهات العامة».

«أجل. تأقلم وارتجل».

«سكيب؟ ما قولك؟».

«سوف أقود سيارة الهروب».

«لن نقوم باغتيال مريم المباركة».

«هل يجب أن أنتظر حتى يتمّ إخباري؟ أم عليّ أن أسأل؟».

«إننا هنا لنناقش فرضيات».

«ليس اغتيالاً إذن».

«لا، بحق الرب، لا».

«في إطار عمليات الخداع».

«إذن أنت تتذكر حديثنا السابق عن هذا النوع من الأمور، حديثنا الافتراضي».

«تكلمت عن عميل مزدوج. عميل افتراضي».

دخل السيد ثو مع صينية من الفناجين وإبريقين وسكب القهوة للأمريكيين والشاي لنجوين هاو. وفي طريقه إلى الخارج دفع الكلب بمشط قدمه من الغرفة.

حرّك الكولونيل قهوته بالمعلقة: «ما هذه المادة؟».

«كريمر؟ هذه بودرة كريما».

«بودرة كريما؟».

«لا، إنها كريمر».

«إنها لا تذوب. أهي مصنوعة من الطين؟».

«أحضرها لنا هاو. أظن أن السيد ديو طلبتها».

«اللعنة، طعمها مثل الإبط».

«يبدو أنها كانت هنا منذ سنوات»، قال ستورم «لقد انسلت فارة من الحضارة نوعاً ما».

«يستطيع المهندسون بناء سدّ حقيقي من هذه المادة. يمكنهم صدّ الفيضانات. الآن، بالنسبة إلى حيلتنا الحربية. العملية».

«العميل المزدوج، الافتراضي».

«لقد تغيرت وضعيته».

«كم يمكنك أن تخبرني؟».

«إنه حرّ. كانت له قدم في الداخل وأخرى في الخارج لفترة طويلة. لكن حين حصل هجوم تيت، تقدّم برأسه أولاً. إنه لنا. إذا استعملناه فإننا نستعمله على المدى الطويل، والقصير. لذا يمكننا إبقاء هذه العملية في الإطار العائلي. هل نحتاج إلى بعض المعلومات؟».

«عملية عائلية. العائلة...».

«نحن الثلاثة فقط، وابن أخت زوجة هاو مينه، قائد طائرتي. لاكي. لقد التقيتماه. لاكي، ونحن الثلاثة».

قال ستورم: «وبيتشفورك».

«وبيتشفورك، في حال احتجنا إليه، بيتشفورك في البلاد».

«ظننت أن البريطانيين خارج هذا».

«لديهم فريقان من القوات الجوية الخاصة هنا في بزات نيوزلندية. وهناك بعض المختصين مع القبعات الخضر. إذن أندريس هنا. إنه مع القوات الجوية الخاصة منذ سنوات».

«الآن على المدى الطويل والقصير، ما معنى هذا؟».

«قلت المدى الطويل والقصير. سنعيد إرساله إلى الشمال لكي يقوم بعملية واحدة، لكي يسلم بعض المعلومات التضليلية. هذه العملية التي جئت بك من أجلها يا سكيب. عملية شجرة الدخان».

انتظر الكولونيل أن يستوعب سكيب هذه المعلومات.

لم يشعر سكيب بأيّ إثارة، بل ببلادة وحزن رجل يتجلد حتى الموت لا أكثر.

«ما مدى خروجنا عن الخطوط الإرشادية العامة؟».

«الخطوط العامة لا تنطبق على الفرضيات. إننا نجري عملية عصف فكري».

«إذن لا تمانع لو لعبت دور ديمر قليلاً؟».

«عليك بذلك. نحتاج إلى محامي شيطان هنا».

«أظن في هذه الحالة أن الشيطان هو أنت».

قال ستورم: «سكيبر مع الملائكة».

«إنه يطرح الأسئلة الصعبة. على أحدهم أن يفعل ذلك. هيا. ما كان ديمر ليقول؟».

«يمكنني أن أقول لك بالضبط أي أسئلة كان ليطرحها. أو على أية حال الأسئلة المهمة – تلك التي فرضت نفسها عليّ».

«مثلاً؟».

«أيمكنك السيطرة على عمله في الاتجاهين؟».

«لا. بل إننا لن نحاول ذلك. هذه عملية لمرة واحدة، عملية في اتجاه واحد. يمكننا أن ننفذ هذه العملية فقط ولا شيء غيرها. لن نكلفه بمهمة أخرى».

«وإذا قام بكشفها؟ إذا كان مزوراً؟».

هزّ الكولونيل رأسه: «لا نكون قد غامرنا بشيء. السؤال التالي».

«هل أخبرك بكل شيء؟ أو على الاقل ما يكفي للبدء باختباره على جهاز كشف الكذب؟ كيف هي معلوماتك؟».

«ضبابية في الوقت الحالي. ما زلنا في إطار التقييم المبدئي. سوف تكون المشرف على العملية».

أنا؟».

«لست هنا بهدف المرح. أنت ضابط التحقيقات».

أخذ سكيب نفساً إرادياً عميقاً ثم زفر: «إذن».

«إذن، السؤال التالي».

«أظن أنك أجبتني سلفاً عن هذا السؤال: كم مدة العملية؟ هل أخضع لجهاز كشف الكذب؟ لكننا سنفعل ذلك لاحقاً».

«لا أريد ذلك. لا أثق بهذه الأجهزة».

«يقول ديمر بضرورة الفحص المستمر (استعمال جهاز كشف الكذب مبكراً وكثيراً)».

«لا جهاز لكشف الكذب. ثمة طريقة واحدة فقط لفحص رجل، وهي عبر الدم. لقد أعطاني دم رفاقه. هذا أفضل مما يمكن أن يخبرنا به أي جهاز».

«لم لا نلجأ إلى الأمرين».

«وحده الدم يخبر. يحتاج إلى أن يشعر أننا نثق به. وهل أنت تثق بي؟ هل يمكنك الاعتماد على تقديري في هذا؟».

«أجل سيدي، لا حاجة إلى جهاز كشف الكذب».

«شكراً سكيب. هذا يعنيني كثيراً». مسح الكولونيل شفته العليا بإصبعه. في

نوع من الذبول الداخلي، وضوء شمس الغروب على وجهه، تمكن من أن يعكس فكرة أن الثقة في تقديره تحتل عنده المقام الأول «ماذا أيضاً؟».

«السؤال الأهم».

«قل يا سيدي».

«هل أبلغت عن الحالة؟».

هزّ الكولونيل كتفيه نفياً.

«دعني أحضر المقالة»، نهض سكيب.

«ها قد قفز الشيطان»، قال ستورم.

رغم تصنيفه كأمر سرّي، فقد تركه على المكتب «لقد وضع لائحة بما يجب أن تفعله وما لا يجب أن تفعله»، قال حين عاد، «البند العاشر».

«لا تقف رجاء».

«استعاد سكيب مقعده «البند العاشر (لا تخطط لعملية تضليلية أو تمرر عمليات تضليلية من دون موافقة المقر الرئيسي المسبقة)».

«هذا ما أتكلم عنه»، قال ستورم، «لكن ما هذا بحق الجحيم».

«البند العشرون: (أبلغ عن الحالة بصورة مستمرة، بسرعة، وبالتفصيل...)، لنر هنا. حسناً، هنا الشيطان يتكلم بصوت عال وواضح: (على الجهاز والضابط اللذين يفكران في استخدام عميل مزدوج أن يزنا صافي الربح الوطني بصورة وافية، وألا ينسيا أن العميل المزدوج هو في الواقع قناة اتصال مع العدو مغضوض الطرف عنها، إن ما نناقشه يرقى إلى مستوى العملية غير المرخص بها».

«أحب الترخيص الذاتي».

«ترخيص ذاتي لإقامة علاقة مع العدو».

قال الكولونيل: «هاو، هلا جئت لي ببعض الحليب الحقيقي من مكان ما على الأرض، رجاء؟».

غادر هاو الغرفة.

جلس الكولونيل مستقيماً، واضعاً يديه على ركبتيه «لا أحد في هذه الغرفة قابل هذا الشخص الافتراضي. إذن ليس من علاقة حتى الآن».

«كولونيل، سيدي، ما دمنا نتكلم في ما بيننا لدقيقة».

«قل ما لديك».

«أفهم أنها عملية عائلية ومما إلى ذلك. لكن هل من الضروري أن نتكلم أمام هاو؟».

«هاو؟ في هذه المرحلة هو يعرف أكثر مما نعرف. فهو من جلب لنا رجلنا. كان الاتصال الأولي».

«ما الذي نعرفه حقاً عنه؟».

«حقا؟ ما الذي نعرفه عن أي كان في صالة المرايا هذه؟».

«لا شيء حقاً».

«اتفقنا. هذه قاعدة أساسية: ثق بالمحليين. هل أخبرتك يوماً بذلك؟».

«كثيراً».

«لا يمكنك الوثوق بأحد في هذا البلد، لكن علينا أن نثق بأحدهم. إننا نتبع حدسنا. ويمكنني أن أقول لك هذا»، قال، مع عودة هاو مع إبريق صغير، «لقد طلبت الحليب وها هو. وهكذا يعمل كل شيء مع السيد هاو». جلس هاو وقال الكولونيل «سيد هاو، إننا نخطط لعملية تضليلية مصرح بها ذاتياً. أأنت معنا».

«بالتأكيد».

«أيكفي هذا؟»، سأل الكولونيل سكيب.

«كثيراً».

«المزيد من الأسئلة؟».

«انتهت»، قال سكيب.

«جيد». أخرج الكولونيل من جيب صديريه نصف دزينة من بطاقات الملحوظات قياس ثلاثة بخمس بوصات من النوع الذي يستعمله سكيب كثيراً،

وبدأ التقديم. «إنه من الحقيبة: عملية تضليل وطني. لكنها لا يمكن أن تكون أي نوع من العمليات إلا إذا جاءت مع خطة. لننتقل إلى هذه المرحلة من الفرضية. كيف نضع معلومات زائفة المصداقية في أيدي العدو؟ بالتحديد في أيدي العم هوشي؟ عبر عميل مزروع يسمح لنفسه بأن يؤسر ويعذب؟ عبر عميل مزدوج يوهمه العدو بأنه ،سرق) وثائق زائفة؟ هذه مهمة شبه مستحيلة، لكن توليفة من الأمرين يمكن أن تكون شبه مثالية. إذ تأتي من مصادر منفصلة، فإن مصداقيتها سوف تتعزز».

«أكل هذا مكتوب على هذه البطاقات الصغيرة؟»، سأل ستورم.

«جيمي»، قال الكولونيل، «إنك تتعبني».

«كل هذا افتراضي»، شعر سكيب أنه من الضروري تأكيد ذلك.

«أجل، لم نخطط لشيء بعد. لا نعرف بعد ما الذي نفعله. ومن هنا الاستجواب التالي. وأنت المستجوب. اسم الرجل هو ترانج. أنت تجيد بعض الفييتنامية. وهو يجيد بعض الإنجليزية، وكلاكما يجيد بعض الفرنسية. صحيح هاو، إنه يجيد بعض الإنجليزية؟».

قال هاو جملته الكاملة الأولى منذ دخوله: «لا، كولونيل، اعذرني، هو لا يجيد الإنجليزية بتاتاً».

«حسناً، لا بأس، لهذا السبب أمضى سكيب عاماً في كارميل».

«سوف نتدبر الأمر»، وعد سكيب.

«أعرف أنك ستفعل.. سيد ثو!»، نادى الكولونيل.

ظهر ثو يحمل منشفة بيده. كان على الأرجح في الستينيات من عمره، إلا أنه لم يبد من الناحية الجسدية متجاوزاً الأربعينيات، وإن ناضجاً فلسفياً، رابط الجأش – وابتسم ابتسامة ناصعة لأن الكولونيل بادره إلى الابتسام.

«سيد ثو، أطلق البوشميل».

شربوا جميعاً البوشميل ممزوجاً بالماء. وحتى هاو قبل واحداً وحمل الكأس

بكلتا يديه من دون أن يشرب منه. وقد غطى الشراب على شحوب الكولونيل، وحين وصل إلى نصف كأسه بدا أنه قد أنقذ من أيّ عوارض مرضية. ومن الواضح أنه كان مريضاً.

من دون أي مرارة يستطيع هو نفسه أن يحس بها، قال سكيب: «أتتساءل عما كنت أفعله؟».

«الأمر بنفسه بالنسبة إلينا جميعاً - الانتظار حتى تظهر استراتيجية ناجعة. في الأثناء ما الذي تفعله لكي تبقى منشغلاً؟».

«لا شيء، إنني مبدد هنا. إنني معطل».

قالا ستورم: «تلك اللغة العسكرية».

«تنطبق هنا».

«حتى هذه المرحلة التي سندخل فيها»، قال الكولونيل، «يتوقف على المرشح إلى دور العميل المزدوج أن يحدد إيقاع الحركة. واسمعوا - إن الأمر الأكثر إقناعاً فيه هو كل هذا التأخر والتردّد. هذا يفيدني بأنه يقدر أيّ خطوة هي هذه، وهو صريح معنا حول كونه متشككاً».

قال هاو: «أجل، إنه نزيه، أنا أعرفه».

«لكنه الآن ملتزم»، قال سكيب.

«لقد صار معنا. هذا صحيح. هذا هو الوضع»، قال الكولونيل، «الآن هو رجلنا وأريده هنا معك. لا أريده في كاو فوك أو سايغون. أريده في منطقة لم يعمل فيها من قبل».

«لكن لم التأخير؟».

«لا يمكنه الاختفاء بهذه البساطة. إنه جزء من خلية. والخلية جزء من شبكة. لا يمكنه أن يأخذ إجازة فحسب. لديه أسباب جيدة لكي يعاود التموضع في هذه المنطقة، أو على الأقل هذا ما يؤكده لنا، لكن هذا يتطلب وقتاً. يقول إنه يتطلب وقتاً وأنا أصدقه».

«في ألأثناء أنا بوغ[1]، أقرأ ديكنز كما تعلم».

«وأنا أقرأ فلمينج. آسف لم أستطع الحصول على أعمال تولستوي».

«أي شيء مليء وسمين أو مليء بالعملاء السريين الفاتنين».

«أقرأت شل سكوت؟»[2].

«أكيد. أتعني السلسلة، ريتشارد أس براثر».

«ماذا عن أعمال ميكي سبيلاين؟»[3].

«جميعها، مراراً وتكراراً».

«هنري ميلر؟».

«أبات ممكناً الحصول على كتب هنري ميلر؟».

«إنه شرعي الآن. ذهب إلى المحكمة. سوف أحضر لك كتبه»[4].

«أحضر لي مدار الجدي. لقد قرأت مدار السرطان».

«لم أحب السرطان. مملة. الجدي جيدة حقاً».

«يا للعجب. لم أكن أعلم أنك متابع إلى هذا الحدّ».

«لقد كتبت في الثلاثينيات يا رجل. سيد ثو!»، نادى، «أأشم رائحة طعام؟»، أنهى كأسه «لنخرج بينما ينتهي الطبخ. لنقم بجولة في السيارة».

«أو سيراً على الأقدام»، قال سكيب، «هناك نفق في نهاية الطريق».

«تمزح، هنا؟».

«لدينا هنا أحدث الأشياء يا عم».

---

(1) Pogue: تعبير احتقاري للعسكري الذي يعمل عملاً مكتبياً أو الذي لا يخوض في الميدان الحربي.

(2) Shell Scott: شخصية تحر خاص هي الأشهر بين الشخصيات التي ابتكرها الكاتب الأمريكي Richard S. Prather.

(3) Mickey Spillane (1918–2006) من أشهر كتاب القصص البوليسية الأمريكيين.

(4) هذه من أخطاء الكاتب أيضاً، ذلك أن الأحداث هنا تجري عام 1966، في حين أن محاكمة هنري ميلر التي اعتبرت فيها أعماله «أدبية» لا شائنة، جرت قبل سنتين في 1964، وبالتالي لم تعد كتبه ممنوعة في الولايات المتحدة الأمريكية.

«لنستكشف»، قال الكولونيل، «ولا تنس الزجاجة».

كانت نزهة فاشلة. مشوا في طريق متعرجة عبر الشارع الرئيسي، متجنبين بريكات الوحيل. «لا تكلمني عن الأحداث الراهنة»، قال الكولونيل، «هذا كل ما أطلبه. يا إلهي. كنيدي آخر. ألا يستطيع أحد أن يقتل العم هوشي؟ هؤلاء الجماعة جديون». صمت كأنما لكي يوضح نقطته التالية، إنما أكثر من ذلك لكي يلتقط أنفاسه. «تقضي عليهم في يناير، فيعودون بأزهى حلة في مايو التالي، وهم جاهزون للمزيد من القتل المريع. أهذا هو النفق؟».

«ما بقي منه».

انتظر الكولونيل بصمت عشر ثوان قبل أن يقطع العشرين ياردة الأخيرة ويقف أمام النفق، الذي أصبح الآن حفرة محتوتة على منحدر صغير.

«حسناً، لا سكيب، لا، لا أظن ذلك. هل رأيت الأنفاق في كو تشي؟ لم ترها، أليس كذلك؟»، لافظاً الاسم كما يلفظه أهل البلد، فخرجت كوشي.

«لا سيدي لم أفعل».

«هذا ليس نفقاً سكيب. يبدو أكثر أن الرجل قد حفره بنفسه. وكأنه كان يحفر كهفاً او ما شابه.. إلا أن الجغرافيا هنا لا تبدو من النوع الذي يمكن أن تجد فيه المغاور... ألا يتطلب ذلك أرضاً كلسية؟».

«مغارة؟».

«ربما هناك صدع سريّ هنا. صدع في صخرة مدفونة».

«أجل، حسناً. كان مفتوناً بالكهوف بكل تأكيد. مهووساً بها. لقد قرأت ملحوظاته».

«أكيد. لكنه ليس نفق فييتكونغ على الأقل. أنفاق الفييتكونغ ليست هكذا على الإطلاق. مداخل تلك تمضي مباشرة إلى الأسفل، مما يزيد من صعوبة اختراقها». لم يستطع سكيب أن يميز ما إذا كان الكولونيل قد خاب أمله من النفق وحده، أم إلى حدّ ما منه هو أيضاً.

تركوا اللغز وراءهم وعادوا إلى الغداء، بينما سكيب يحاول هضم استيائه لأنه اتضح أن النفق ليس نفقاً. ولا حتى، على الأرجح، كهفاً. شعر أن الرجل الميت خانه. بوكيت قد خذله.

عند بوابة الفيلا المنخفضة، مدّ الكولونيل يده إلى كوع هاو. متمسكاً بذراع الرجل الأصغر، انحنى لكي يلتقط جذع شجرة قصفته العاصفة الأخيرة، وكأنه بات مهتماً، فجأة، بالمطروحات، واتكأ عليها كعكازة وهو يرتقي الدرجات الأخيرة إلى المدخل.

كانت السيدة ديو قد أنهت إعداد الغداء. ذهبوا مباشرة إلى مائدة الطعام السوداء، حيث تولى ثو تقديم الطعام، وأخذ سكيب يفكّر بنوع من الاتهام: خلال ستة عشر شهراً، ما عدا القس، كان هؤلاء أوائل ضيوفه على الطعام. طعام محلي اليوم، حساء النودل باللحم، مع أوراق النعناع وبراعم الفاصولياء. إلا أنه كان هناك الخبز الطازج المقطّع على الطريقة الأمريكية، والزبدة أيضاً. وشراب البوشميل خلال هذا كله. لا عيدان لتناول الطعام، ولا حتى لهاو الذي لم يشرب البوشميل أيضاً. وكانت التحلية نوعاً من البودينغ المصنوع من الجوافة.

«نخب الأيرلنديين»، اقترح الكولونيل، وقد فتح خمسية ثانية، أو كما خشي سكيب، ثالثة.

قال ستورم: «اسم ساندز ليس أيرلندياً».

«لا نتكلم عن الأمر»، اعترف سكيب.

قال الكولونيل: «حقاً؟».

«حسناً، أظن أننا لا نفعل».

«انطلقنا باسم شوغنسي، وفجأة على القارب أصبح ساندز».

«هذا ما أخبرتني به العمة غرايس. طوال حياتي تعاملت أمي مع الأمر بوصفه سراً رهيباً وفضيحة».

«لا، إنه مصدر تسلية فحسب، وخزي صغير. ما أخبار أمك؟».

«بأفضل حال على ما أظن، أتلقى رسائل منها. وأرسل لها بطاقات معايدة».

«على أية حال يا جماعة، لم أكن أرفع نخب أمة بأكملها. بل نخب فريقي الحميم فحسب، المقاتلون الأيرلنديون في نوتردام. صحيح أن معظمهم من بولندا. على الأقل كنا كذلك عندما كنت في الفريق – انظر إلى سكيب. انظر إلى وجهه. يظن أن العجوز سوف يبدأ بالمعزوفة نفسها».

«لا عليك عمي، أنا ثمل بما فيه الكفاية، إن كنت ثملاً».

«أجل، أجل، أجل، إنني ممتلئ بالغاز الحار. يمكنك رفع منطاد بغازاتي. هيا، غير الموضوع».

«ذلك المبحث الذي كتبته للجورنال. لم أفهمه».

«ولا أنا».

«هذا لا يغير الموضوع تماماً، إذا كان الموضوع الهواء الحار».

«أنا منيع ضدّ النقد».

«هناك الكثير من المصطلحات الغريبة في المبحث: النشاط المعزول».

«النشاط المعزول: إظهار المبادرة، مثلاً إمساك الثور من قرنيه بينما الضابط الكبير جالس على مؤخرته».

«والآخرون».

«أي آخرين؟ أنا قاموس مصطلحاتك».

«لا أتذكر».

«اللغة الاصطلاحية مهمة. خذ في اعتبارك الجمهور المحتمل. هذه الجماعة كلها هراء. أقرأت (السياسة واللغة الإنجليزية)».

«إمم.. جورج أورويل. أجل».

«حقاً؟».

«أجل، و1984».

«حسناً، العام 1984 آت، ولن يتطلب سبعة عشر عاماً لنصل إلى هناك».

«على أية حال»، قال سكيب.

«أقرب إلى الستة عشر عاماً»، أعلن ستورم.

«ستة عشر ماذا؟».

«ستة عشر عاماً حتى نصل إلى 1984».

«لحظة.. 18 عاماً. ثمانية عشر».

ضحك ستورم، ملوحاً بشريحة من الخبز حول رأسه مقصوص الشعر.

«أيها الشابان»، قال الكولونيل، «العدو لا يفعل ذلك».

«يفعل ماذا؟».

«لا يقوم بالجمع والطرح يا أيها الرقيب».

«ما الذي يفعله العدو كولونيل؟».

«إنهم يدمرون عتادنا الحربي، ويفجرون معه أحشاءنا. إنهم يعيشون في حفر في الأرض. إنهم يتناولون البودينغ. إنهم يأكلون أطفالهم باسم النصر. هذا ما يأكلونه على الغداء. لذا فلننتبه للوضع. لقد حصلنا على واحد منهم إلى جانبنا الآن. يمكنه أن يهزم نصف قوات مشاتنا وحده. لقد عبر كل بوابة. تعرف البوابات الثلاث الخاصة بالفييتكونغ؟ الدم، السجن، وقضاء وقت في الشمال، لقد فعل هذه الأمور الثلاثة. هاو يمكنه أن يخبركما – هذا الرجل يقاتل منذ أيام الفرنسيين. كان معتقلاً في كون داو. وذهب شمالاً وأعيد تثقيفه بعد الانفصال. عاد في أثر العم هوشي وكان يفعل أسوأ ما لديه منذ ذلك الوقت. قبل سنتين في كاو فوك حاول اغتيالي».

«تمزح!».

«بعد سنة تقريباً من اغتيال كنيدي، إذن على الأرجح في نهاية عام 1964. قبل عامين ونصف. اعترف بذلك لهاو».

التفت نحو هاو الذي بقي غير مرئي على الرغم من حضوره على المائدة، وأكّد هاو ذلك. «أخبرني بذلك، هذا صحيح».

«رمى قنبلة على معبد كنت أزوره. إنها من النوع الحقيقي. قنبلة صينية سيئة الصنع».

شعر سكيب أنه فاغر الفم وهو ينظر إلى عمه - ثمل، غير مرغوب فيه - غير محبب البتة.

«السؤال هو، مع هذا النوع من الالتزام، ما الذي يجعله يتحول. ماذا يقول سيد هاو؟».

«لا أعرف»، قال هاو.

«هذا الجزء الذي لا يعجبني. لا يعجبني على الإطلاق».

«لا أعرف»، قال هاو.

«اسمع، اسمع»، قال سكيب، وقد تحمس فجأة، «علينا أن نخلق أموراً زائفة، الخيال. ربما يمكنني المساعدة في ذلك».

«هذا ما قطعت سبعة آلاف ميل لتقوم به. أفترض ذلك. افترض أنه في قصف السفارة العام الماضي تناثرت بعض الأوراق في الريح، فنلقل مسودة ما، دقائق من اجتماع بين بعض القراصنة العجائز الذين يحسبون أنه لديهم سلاح نووي يمكنهم تحويل اتجاهه. هؤلاء الجماعة الرهيبون يريدون تهريبه إلى هانوي لكي يضعوا حداً لهذا الهراء. ما يرونه هراء. وما هو هراء حقاً».

«لحظة»، قال سكيب، «ليس لقاء حقاً حول.. أياً ما كان تسميه - المخطط، المخطط بحدّ ذاته. كان اللقاء حول محاولة وقف المؤامرة. هؤلاء ليسوا المخطّطين، بكلمات أخرى. إنهم الذين يحاولون التحقيق بشأن المخطّطين».

«فهمتك».

«أنا لا»، قال جيمي ستورم.

«الأوراق لا تضم محضر اجتماع الأشخاص الذين يتآمرون»، قال سكيب، وأذناه تئزان من البوشميل، «لا تتحدّث عن المؤامرة الفعلية، بل عن جماعة يقومون بتقييم... ينظم أفكاره لوهلة ثم يتابع: «تطوّر المؤامرة. لذا ثمة هذا

المحضر المشفّر...».

«ليس مشفراً. بل بعض الأجزاء التي نجت من الانفجار. بعض النثرات».

تواصلت أفكار الكولونيل من دون أن يتكلم.

ندم سكيب الآن لعودته إلى هذا الموضوع. كان الكولونيل محقاً في تأجيل الشراب إلى ما بعد النقاش. الآن ها هم يناقشونه ثانية، وهو، من جهته، لا يعرف ما يقوله. إلا أن الكولونيل تجرّع جرعة أخرى من الويسكي، وانتهى النقاش. «أعطني جيانتس!»، قال، «أعني حباً بجوني بروستر؟ لقد أمضى الحرب كلها في واشنطن يلعب كرة اليد ويخطط لكيفية وقف عملية كاو فوك. والآن توقفت – في الأول من سبتمبر، تتوقف نهائياً في كل مكان. اللعين كان في مكتب الخدمات الاستراتيجية. لقد خاض حرباً، وهو يعرف، أو لابدّ من أنه عرف في قديم الزمان، لابدّ من أنه ينتفض في سريره في بعض الليالي ويفكر، لحظة، مهلاً مهلاً، ألم يكن هذا عن شيء آخر؟ لكن قبل أن يتذكر أنه عن إنقاذ الحرية، والخلاص الإنساني، وضوء العالم – فإن تفاهة أحلامه وترهاتها تجرّ رأسه ثانية إلى المخدة، وها هو يشخر ثانية. وفي الصباح التالي يصبح الأمر متعلقاً بلانجلي. الحرب في لانجلي، وهي بين شباب مثله وشباب مثلي، وكلها حول الوكالة. لقد ركلت ابن السافلة هذا على مؤخرته. اللعنة على هؤلاء الملاعين. ماذا يحسب رجال كهؤلاء أن الولايات المتحدة الأمريكية تحاول فعله في فييتنام؟ الآن، مهلاً – وأولئك الملاعين في لانجلي، أولئك السفلة في البنتاغون. أولئك الملاعين! لا يعرفون. لا يعرفون فحسب».

«أحنى رأسه.

«كولونيل»، قال جيمي ستورم.

رفع الكولونيل رأسه.

«كولونيل».

«أجل».

«لقد دمرتني»، قال ستورم.

«أهذا إطراء».

«اللعنة أجل».

«أخرجني إلى السيارة»، قال الكولونيل.

نهض هاو. ولم يفعل أكثر من ذلك.

«مهلاً يا شباب، مهلاً، لَمَ لا تبيتوا الليلة هنا؟».

«لا سكيب، يحسن أن نرحل».

«خذوني معكم. دعوني أتسكع في سايغون. فقط لعطلة الأسبوع».

«لا يمكنني أخذك إلى المدينة يا سكيب».

«هيا، كنت هناك خلال التيت».

«إنني أتعاطف معك. لا أكثر من هذا. أنت جندي».

«ابقوا هنا، رجاء. يمكننا لعب البوكر».

«ألديك ورق؟»، سأله ستورم.

«أجل، أجل، أجل».

«لا، علينا أن نعود».

«أنا بوغ».

قال ستورم: «يظن أنه الطفل الرائع الضائع».

«عجباً»، قال سكيب، «إنه القرن الأمريكي».

قال ستورم: «الروك أند رول جاء ليبقى».

ثمل وفي حال حسنة. نهض سكيب ساندز عميل السي أي أيه، واتجه إلى الدرج. شعر أنه متزن بما فيه لكي يتسلق السلم ويجد غرفته، إنما أكثر دواراً من أن يضطجع على السرير، فجلس على كرسي ماداً رجليه على السرير العالي المنتفخ.

أفاق بعد ساعة وذهب إلى الشرفة لكي يحتسي القهوة الحارة القوية التي لم تساعده على الانتعاش بقدر ما فعل تذكره لأخطائه، تلك الأخطاء التي ارتكبها

في إثر عمه، رجل الأكشن البدائي. الريفي الجلف، كان هذا تعبير ريك فوس. جاء السيد ثو يحمل طبقاً فيه قرص مشتعل لقتل البعوض، وضعه على مسند الكرسي المقابل، وها هو يجد نفسه أمام البساطة بعينها، جمرة البخور البشعة، ذلك الرأس البرتقالي الذي يمضي في طريقه الحلزونية إلى حتفه. شعر أنه محاصر، يتعرض للهجوم، مسكون بمثل تلك المخيلة المتعرّجة: الأنفاق، مشروع المتاهة، السراديب المتعرجة للأذن البشرية... لكن فوق هذا كله طغت الصورة المركزية المختلفة تماماً: شجرة الدخان. أجل، عمه قصد أن يكشف عن نفسه كعمود دخان قاتم وأن ينقضّ على وكالة الاستخبارات، على طريقة عملها نفسها، أن يدمّر تياراتها الجامدة. أو يهاجمها في ملعب كرة اليد.

حليباً حقيقياً في قهوته بسبب قيمته الغذائية. كان طعمه يشبه كثيراً ذلك البديل الكلسي. جاء الكلب الجديد بين ركبتيه وحك خطمه في فنجانه وراح ينبح متمسحاً به بقوة.

العم أف أكس، عمود النار، شجرة الدخان، أراد أن يرفع شجرة ضخمة في مخيلته، غيمة فطر – إن لم تكن غيمة حقيقية فوق أنقاض هانوي، فعندئذ احتمالها المخيف في عقل العم هوتشي، الملك العدو. ومن يستطيع القول إن المحارب الهذياني العجوز لا يتصارع مع حقائق فعلية؟ الاستخبارات، المعلومات، التحليلات، اللعنة عليها جميعاً، وعلى المنطق، والتصنيفات، والتراكيب، والمنطق العام. كل هذا كان أيديولوجيا وأوهام وشعوذة. نيران لكي تضيء العقول، وتحمّي أفعال البشر. وتروع وعيهم. كل هذا مفرقعات نارية – لا الأمور المتعلقة بالتاريخ فحسب، بل بالواقع نفسه، أفكار الرب – عاجزة عن النطق وواضحة: أنماط ساطعة الوضوح، تتسع بلا انتهاء.

أدرك أنه كان في مقدوره، في أي وقت قبل الآن، أن يقول لعمه ببساطة إنه يريد العودة إلى الديار. إلا أنه لا يستطيع الآن الفرار من هذا، من هذا الدخول العميق، وترك السماء تنهار على رأس عمه الضخم. يرفض أن يرى ذلك الرأس

محنياً إلى الأرض.

نادى ثو إلى الشرفة.

«ما قصة هذا الكلب؟».

«Le médicin».

«أهو كلب الطبيب؟».

أومأ ثو، مراهناً على أنه فهمه، ثم انسحب.

سرعان ما جاءت السيدة ديو: «يقول السيد ثو إن الكلب مسكون بروح الدكتور بوكيت. بعد موت الطبيب بعام جاء الكلب».

«ولد الدكتور بوكيت ثانية في هذا الكلب؟».

«أجل. الدكتور بوكيت».

«سيدة ديو».

«أجل، سيد سكيب».

«لِمَ لا يكيمني السيد ثو بالإنجليزية؟».

«إنه لا يتكلم».

«لا يتكلم الإنجليزية؟ أو لا يتكلم بالمرة».

«أجل، أحياناً»، قالت، «لا أعرف».

«جيد»، قال، «آمل أن هذا يوضح الأمور التي تخصك».

كان الكلب في الفناء الآن يحمل عظمة عند إحدى شجرات البابايا الثلاث. وعلى مقربة منه اتكأ السيد ثو على مقبض مدمّة بينما انحنى لكي يشعل عود ثقاب في كومة من النفايات المنزلية. أعجب سكيب بشجرات البابايا بأشكالها الهزيلة ورؤوسها المتعنقدة، والثمار المحتشدة حول أعناقها... تراجع البابا سان العجوز إلى الخلف وأخذ ينظر لكي يتأكد من اشتعال النار بينما رئيسه المولود ثانية، المكوم على نفسه كالدونتس، يعض الهواء في أسفل ذيله.

«عذراً سيد سكيب»، كانت السيدة ديو ما زالت واقفة عند كتفه. «أتريد العشاء؟».

«دعيني أفكر في الأمر، سآتي بعد قليل».

كل شيء في حينه. ربما يرسل في طلب الأب باتريس، ويدعوه إلى العشاء. كنوع من الكفارة ، في حضور القس، سوف يجبر نفسه على تناول وجبة مقززة. لكنه أطرق رأسه وتوصل إلى هذا القرار وهو يحلم. أفاق زهاء التاسعة ليلاً، بحسب ساعة معصمه العسكرية. بوكيت يشخر عند قدميه. كان جائعاً، لكنه أحس بالعالم غريباً حوله. ذهب إلى السرير.

كان الشيري لوت[1] شاباً جاداً بارز العضلات مشدود الجسم، يضع قميصه تحت سرواله الذي يرفع خصره عالياً جداً. لم يكن يدخن، وكان يشرب قليلاً جداً، وعلى نحو حذر. ويتكلم كثيراً عن الجراثيم. الأمراض الاستوائية تستحوذ على تفكيره. من الواضح أنه قرأ كتاباً عن أشياء رهيبة سريعة لا يوجد لقاح ضدها. أما بالنسبة إلى الأعداء، فبالكاد يؤمن بوجودهم. ما كانوا يخيفونه على الإطلاق.

قال الشيري لوت للرقيب بورك: «سوف أبذل قصارى جهدي في عرض القردة هذا. لا يهمني البتة إن كان شرعياً أو غير مبرر وخاطئاً. اليوم نحن أبطال، وغداً نحن نازيون. لا تعرف البتة. لا أحد في هذا الكوكب يعرف شيئاً». كان موقفاً منعشاً إن لم يكن ملهماً. الجميع ما عداه كان يمضي في الاتجاه المعاكس «كنت أواعد دارلين تايلور حتى اصطحبها ذلك الهيبي مايكل كوك إلى حفلة وأعطاها المخدرات وضاجعها وحولها إلى هيبية، وإذا كان مايكل الهيبي اللعين ضد هذه الحرب، فأنا معها. هذا كل ما أعرفه». لم يبد الشيري (الجديد) لوت

(1) Cherry Loot: كلاهما عاميتان، الملازم الجديد. علماً أن Loot هي اختصار لـ Lieutenant و cherry تعني الغرّ أو الجديد.

جديداً على الإطلاق. لم يكن يعرف في أيّ بلد هو، بيد أنه كان في موطنه في الكون.

كان سريعاً، دقيقاً، ومخلصاً. تطلبه الأمر يومان لكي يتكيف مع التغير في التوقيت، وفي صباح اليوم الثالث أفاق، ونظر حوله بعينين صافيتين، وطالب بأن يؤتى إليه بأي مواد أو أشخاص يمكنهم أن يزيدوا من فهمه لأنفاق الفييتكونغ هذه. وتطب ذلك تطلب بضعة شبان واثنان من الرسوم المتجعدة التي رسمها المعاون كاوبوي للسكروي لوت السابق، القديم.

قيل إن سكروي لوت ذهب إلى تان سن نوت، وحصل على توصيلة عبر طيران القيادة إلى هونولولو، وذاب هناك في هذه الجنة العملاقة المحاذية للولايات المتحدة الأمريكية.

أمضى شيري لوت فترة الصباح في كوخه فراداً رسمي المعاون كاوبوي على طاولة قابلة للطي يستعملها كمكتب. طالب بمعلومات خلاقة من الرقيب الذي يعمل تحت إمرته «أليس هناك رادار أو سونار يمكننا استعماله لكي نتعامل بطريقة فعالة مع هذا الهراء؟ أعني، نريد أن نعرف فحسب مواقع هذه الأنفاق. ليس علينا أن نزحف داخل كل واحد لكي نكتشفه أليس كذلك؟ هل نحن بق أم أفاع أو ما شابه؟ أم أننا بشر عقلانيون لدينا ﴾اجل وأدمغة ويمكننا معالجة هذه المشكلة؟».

«لا أظن أننا مضطرون حقاً لفعل ذلك سيدي».

«ماذا؟».

«لا أظن أنه علينا تحديد كل هذه الحفر».

«لقد تلقيت أمراً مباشراً يقضي بإنجاز هذا. هذا هو الهدف الوحيد من وجودنا هنا. وإلا أتعرف ما سنفعله؟ نذهب إلى الطريق رقم واحد ونشم بعض المواد التي ستزهق أرواحنا. هذه هي المهمة البديلة. غيوم من يعلم الرب ماذا سوف تدخل إلى رئتيك وبلا شك تفقدك خصوبتك».

«أهي أوامر صريحة سيدي، أعني سيدي أتعني أنها أوامر مكتوبة؟».

«أعني أنها صريحة في داخل رأسي وأنا أفسرها. أتريدني أن أزعج أحداً لكي يوضح ذلك كتابة؟ لأنهم لم يعلموني في الكلية الحربية كيفية البقاء يوماً واحداً في هذا البراز إلا أنهم علموني بالفعل ألا أتشبث بأذيال معاطف رؤوسائي وألا أحاول لفت انتباههم بأي شكل من الأشكال».

«أشجعك سيدي على هذه السياسة»، قال بورك، «ولكنّ هناك فرقاً يسمونها جرذان الأنفاق ستنزل إلى هناك من أجلك. سأرى إذا كان يمكن نقلهم إلى هنا».

«إننا نعمل تحت إمرة العمليات النفسية في السي أي آيه حتى الأول من سبتمبر، ثم هناك فرصة بأن نعود جميعاً إلى الديار. أقول ثمة فرصة».

«سيدي ثمة إجماع على أن الكولونيل أف أكس قد خرج عن السيطرة».

«دعك من هذا. أنت لا تعرف تاريخ هذه المسألة».

ذرع الشيري لوت المعسكر حاسر الرأس تحت غيوم الظهيرة الخانقة. بدا قلقاً بشدّة، لكن ليس من الحرب، بل من مسؤولياتها. من شيء أكبر، قلق كوني.

انزعجت كتية إيكو أشد الانزعاج جراء الفرق بين السكروي لوت والشيري لوت في طريقة معالجة القمامة. فالسكروي لوت كان يدع القمامة تتراكم فحسب حتى يقوم الرقيب، في البداية هارمون ثم أيمز، وأخيراً الرقيب بورك، بحثهم على تنظيف المنطقة، أما شيري فيطلب القيام بذلك على مدار الساعة، كل شيء في حينه، يريد التخلص منها فوراً. بعدد من الطرق كان شيري لوت أكثر «غرابة»[1] من سكروي لوت. فهذا الأخير لم يكن غير منطقي تماماً حول مسألة القمامة، بل شديد الحساسية فحسب تجاه كل شيء آخر.

كان بلاك مان يفرقع أصابعه، لاوياً وجهه، ورامشاً بعينيه، ثم يفرقعها - شديد

(1) Screwier، لعب على الكلمة هنا.

الحماسة تجاه ما يريد إيصاله لجايمس، حتى مع اقتراب هذا من كوخ الشيري لوت – قائلاً له: «وتنطلق في وجه السيد تشارلي، نحوه مباشرة، كل منكما يخترق الآخر، وإذا بكما تتبدّلان، وليس أنت الذي يأتي إلى هنا معنا يا رجل، مع أصحابك، بل هو. وليس هو الذي يذهب إلى هناك مع التشارلي الآخرين، المقعيين يتناولون ذلك الأرز المتعجّن يا رجل. بل أنت. أوه، إنهم يلعبون معنا لعبة ميكي ماوس بكل السبل الممكنة».

«بلاك مان».

«أجل حبيبي».

«هذا أنا».

«أوه، أوه، اللعنة، أجل، أجل هذا أنت. ستدخل لمقابلة الفتى الجديد؟».

«يبدو ذلك».

بلاك مان يمضغ شفتيه بلا توقف اليوم. «إنه غرّ لكنه يتصرف كأنه لا يعرف ذلك».

قال جايمس: «كيف الأحوال؟».

«جيدة، جيدة. هناك شيطان أو اثنان كفا عن التهامي».

لم يرّ جايمس بلاك مان منذ زمن طويل. منذ التيت.

«حسبتك رحلت».

«لم يكن بالأمر البسيط. كل ذلك الدم اتضح أنه يتدفق من شريان صغير أو ما شابه. اللعنة. ألم تسمع أنني كدت أموت؟».

«أصبت؟».

«لا، لقد جرحت هناك في تو دو بار. تبعني زنجي إلى الحمام».

«تقاتلت معه بالسكاكين؟».

«ابن السافة حطم زجاجة وطعنني في كتفي هنا، وأنا أتبول».

«وحصلت على القلب القرمزي على هذا البراز؟».

«كدت آكل هذا البراز في سبيل بلدي اللعين، وها قد عدت إلى هنا لأشم روائحكم المقرفة».

«لم أعرف شيئاً عن ذلك».

كان بؤبؤا بلاك مان يتأرجحان في رأسه.

قال جايمس: «رأيت الرقيب. أتتذكر الرقيب هارمون؟ الرقيب أول هارمون؟».

«أجل، هارمون. سارج. أجل. أرأيته؟ الآن؟».

«لا، بعد إصابته مباشرة».

«مباشرة بعد ذلك الشيء البشع؟».

«أجل»، قال جايمس.

وقفا في الظل المربّع في الجانب الشرقي من الكوخ. قعد جايمس وأسند ظهره إلى الجدار، لكن بلاك مان لم يستطع الجلوس.

«اسمع يا صاح، قل لي ما اسمك».

«أنت تحلم!».

«أرجوك أخبرني باسمك الأول فحسب».

«تشارلز، تشارلز بلاكمان».

«بلاكمان؟».

«هذا ما أعنيه. هذا الهراء بالضبط. هذا الاسم موجود أصلاً».

«يا إلهي. إنه اسمك أصلاً».

«سوف تدخل لمقابلة الملازم الجديد».

«أظن ذلك».

«لديه بعض الحركات عزيزي».

«أجل، إنه كرة نار صغيرة».

«أجل، كرة نار».

«تشارلز بلاكمان».

«أرأيت؟».

«أظن أن هناك بيضاً اسمهم وايتمان».

«أجل، أجل، لكنك لا تسمع أحداً يضحك، أفهمتني؟».

قال جايمس: «إنني أضحك عليك لكنك تحزنني نوعاً ما».

صفق الباب. خرج الرقيب الصغير من العمليات النفسية من كوخ الملازم وجلس قبالة جايمس مثل هندي في اجتماع للهنود وقال: «يوم رائع آخر. سواء أكنا نعلم ذلك أم لا».

«لأا أظن ذلك».

قرأ الرقيب اسم جايمس وقال: «إذن هيوستن ج، ما المقصود بحرف الجيم، الجلغ[1]؟ أمزح فحسب. عذراً. إنني أتصرف بغباء ثانية هذا الصباح، أوه اللعنة. وأراهن أنك لم تزر هيوستن يوماً».

«لا، إنني من فينيكس».

«الطقس حار هناك. إلام يشير الجيم».

«جايمس».

«ينادونك جيمي؟».

«أحياناً، لكنني أطلب منهم ألا يفعلوا».

«أما أنا فينادونني جيمي. لكن لا تنادني جايمس. أحب اسم جيمي. لا تنادني جايمس قطّ. لنبق الأمر لذيذاً. الجو حار في فينيكس. تصل الحرارة إلى درجة مئة هناك. مئة واثنان مئة وثلاثة مئة وأربعة».

«أأنت ذلك الشاب من العمليات النفسية؟».

«أجل».

(1) Jerk off: عامية أمريكية، أي الاستمناء، لكننا استعملنا كلمة أخرى مستعملة في بعض البلدان العربية لكي تتناسب مع حرف الجيم.

«يا إلهي».

«ماذا».

هزّ جايمس رأسه فحسب.

استلقى جيمي أرضاً وأخفض قبعته فوق وجهه «الجو حار هنا أيضاً. كلمة Vee – Yet – Nam. تعني (التعرّق الدائم) في لغتهم اللعينة».

مجدداً صُفق الباب. خرج رجل واتجه نحو دورة المياه من دون أن يحييهم. وقف ستورم مسرعاً «دور هيوستن فينيكس».

تبع جايمس إلى الداخل ووقف قرب الرقيب بورك ولم يقل أي كلمة بينما أخذ الشيري لوت دوره.

«المعاون كاوبوي».

«أجل سيدي».

«أكنت تظن أنني لن أقترب منك؟».

«في حقيقة الأمر سيدي...».

«لقد احتفظت بالأسوأ إلى النهاية».

نظر جايمس حوله بحثاً عن كرسي، لكن الشيري لوت كان جالساً على الكرسي الوحيد في الغرفة.

«لدينا ستة وستون يوماً بعد في هذا الشيء».

«أجل سيدي».

«قبل أن نفكك هذا الشيء ونعود جميعاً إلى فرقة المشاة الخامسة والعشرين الاعتيادية».

«أجل سيدي».

«لدينا تسعون يوماً، وقد أهدرنا أربعة وعشرين منها. وعلى ذكر ذلك»، قال الملازم، «لقد كنت متهرباً طوال واحد وعشرين يوماً في فبراير الماضي. أعرف تاريخك. أين كنت... تتظاهر في مؤتمر الحزب الديمقراطي؟».

«من؟».

«المؤتمر الوطني الديمقراطي».

قال الرقيب بورك: «سيدي مؤتمر الحزب الديمقراطي عقد الأسبوع الماضي».

«إلى أين فررت أيها المعاون؟».

«كنت في مهمة خاصة».

«لا. كنت ثملاً وفاراً، والكولونيل دبر الأمر مع الملازم السابق، قل حاضر سيدي».

«حاضر سيدي».

نظر الملازم إلى الرقيب من العمليات النفسية وكأنه يتوقع تعليقاً. لم يدل بأيّ تعليق. قال الملازم: «نريد تركيزاً، ما يعني أننا نريد مهمة، ما يعني أننا نريد أهدافاً. وإلا يتم اقتلاعنا وإرسالنا ثلاثين كيلومتراً في هذا الاتجاه، إلى أسوأ مكان في العالم. أرأيت تلك الأرض الخراب هناك على الطريق رقم واحد؟».

«أجل سيدي».

«مهمتنا هي وضع خارطة للأنفاق المحلية. أنت الذي نزل إلى هذه الأنفاق».

«أنا؟»، قال جايمس.

«أنت نزلت إلى الأنفاق».

«قليلاً فحسب»، قال جايمس، «سيدي».

«إذن، ما هو تقريرك؟».

«لا أعرف. مثل ماذا؟».

«ماذا رأيت؟».

«مجرد أنفاق».

«ماذا عنها؟ أخبرني شيئاً».

«كانت جدرانها ناعمة جداً».

«ماذا أيضاً؟».

«إنها ضيقة في الداخل، لا يمكنك الوقوف».

«يجب أن تزحف؟».

«ليس أن تزحف تماماً، أن تبقى منحنياً فحسب».

«يجب أن تكون مجنوناً»، قال الشيري لوت.

«لا شكّ في ذلك سيدي».

«أريد أن أعيدك إلى تلك الأنفاق. أحضر لي هذه الأنفاق مفصلة في خرائط، لا تلك الرسومات السيئة. لقد أحببتَ المكان في الأسفل نوعاً ما، أليس كذلك؟».

«ليس بالضبط».

«حسناً، لا، اللعنة لا، ليس من شيء بالضبط بعد الآن، لكنك أحببت المكان في الأسفل نوعاً ما».

«يمكنك المضي قدماً والتطوع بي إذا كان الأمر يسوءك إلى هذه الدرجة». قال جايمس.

«اسمع أيها الجندي أريد أن أخلق بيئة تبلغ نحو اثنين باثنين كيلومتراً أعرف كل شيء يعيش في داخلها، وكل ما يتنفس فيها».

«كما تعرف، ليس هناك سوى ستة أنفاق هنا. لقد نزلت إليها جميعاً وهي لا تؤدي إلى أي مكان. الأنفاق الحقيقية تقع إلى الشمال من هنا. إلى الشمال الغربي».

«لا تقل لي هذا. أنت تحرمني من سبب العيش».

«أريد تعويضاً عن أدواتي».

«أدواتك إذن».

«دفعت مئتين وثمانية وخمسين ثمناً للبندقية وكاتم الصوت والمصباح اليدوي. يبدو لي أنه كان يجب أن يصرف لي واحد، لكن إذا انتظرت الجيش

لكنت ما زلت أنتظر حتى الآن».

«تعني مئتين وخمسة وثمانين دولاراً؟».

«أجل سيدي».

«ما هذا على خاصرتك؟».

«هاي باور»[1].

«أين الـ 385 خاصتك للأنفاق إذن؟».

«الأمر معقد نوعاً ما».

«حقاً؟ أمن أمر غير معقد في عرض القردة اللعين هذا؟».

«أبداً».

«285؟».

«تقريباً».

«إذا تمكنت من التقدم لمال نقدي فعلي لحصلت عليه لنفسي، يمكنني طلب عدّة للأنفاق. هذا القدر يبدو معقولاً».

«اطلب عدة لي إذن، يمكنني بيعها وهكذا نتعادل».

«هل ستجعلني مزوداً بالبضاعة للسوق السوداء الآن؟».

«أفكر بصوت عال فحسب».

«لا يمكنني أن يكون لدي أناس يفكرون. لا يمكنني السماح بذلك».

«أجل سيدي».

«في الأثناء خلال الستة وستين يوماً المتبقية تحفر في الأرض كل يوم وطوال اليوم وتكتشف الأنفاق لكتيبة إيكو. لا إجازات، لا أذون مغادرة، لا جعة في الحانة القرمزية، قل حاضر سيدي».

«حاضر سيدي».

«انصرف وابدأ بالعمل فوراً».

---

(1) مسدس براونينج 9 ملم.

استدار جايمس لكي يذهب.

«حسناً انتظر».

«ماذا سيدي».

«بعد أن أستنزفك طوال ستة وستين يوماً، ما هي خطتك؟».

«سأذهب إلى نا ترانج للالتحاق بدور لورب».

«بلا هراء. معهد الريكوندو[1]؟ إنه تدريب لا ينتهي يا رجل».

«أعرف».

«أتعرف ضدّ من يقومون بمناوراتهم التدريبية؟».

«أجل».

«الشعبة السابعة في جيش فيتنام الشمالي. يضعونكم في دورية فحسب، ويرون من يأكل من».

ضحك رقيب العمليات النفسية الصغير بسرور. «أخفق في التدريب ومصيرك الموت، والفطر»، قال، «سينبت من مؤخرتك».

«صه أيها الرقيب رجاء. أيها المعاون أهذه دورتك الثانية؟».

«أجل».

«سوف يجبروك على القيام بدورة ثالثة».

«لا أمانع».

«انصرف»، قال الملازم، «حظ حسن. انصرف».

عمل في الترجمة قبيل الغروب على ضوضاء الطيور. أخذ حمام إسفنجة[2]،

(1) Recpndo: كلمة تجمع بين Reconnaissance (الاستطلاع) و Doughboy جندي المشاة.

(2) Sponge Path: عادة للعجائز والأطفال. لا يتم ملء الحوض بالمياه أو استعمال الدوش، بل يكتفى بتبليل الجسد بالماء من خلال إسفنجة.

وللحصول على البرودة فرك حوض الاستحمام في الطابق الأعلى بالكحول المعقمة. ثم لبس سروال السباحة العسكري الإضافي ونزل إلى الأسفل منتعلاً المشاية. «سيد سكيب، أتريد الشاي؟»، سأله السيد ثو بالإنجليزية. «لو سمحت»، أجابه بالفرنسية. جلس إلى المكتب وبدأ بترجمة بعض الفقرات حتى قبل أن يحضر الشاي أو يصفو رأسه من أثر النوم، إذ أنه لطالما وجد هذه الحالة الأثيرة لديه لكي يفهم من خلالها معنى عبارة أجنبية، لكي يلتقط جوهرها. أبقى المصابيح مطفأة وعمل على ضوء الغروب الراشح إلى الغرفة. وبين عبارة وأخرى أخذ يحدق في الأذن البشرية الخزفية، متحسساً بإصبعه المتاهة الرقيقة التي تتكون منها أجزاء الأذن الداخلية، و...

Si incroyable que cela praisse, les Indiens Tarahumaras vivent comme s'ils étaient déjà morts...

ترجمها ساندز:

بقدر ما يبدو هذا غير معقول، فإن هنود التراهومارا يعيشون وكأنهم أموات سلفاً...».

Il me fallait certes de la volonté pour croire que quelque chise allait se passer. Et tout cela, pourqoui? Pour une danse, pour un rite d'Indiens perdus qui ne savent même plus qui ils sont, ni d'où ils viennet et qui, lorsqu'on les interroge, nous réspondent par des contes dont ils ont égaré la liaison et le secret.

تطلبني الأمر التحلّي بإرادة قوية حتى أصدق أن شيئاً ما سيحدث. وكل هذا، من أجل ماذا؟ من أجل رقصة، من أجل شعيرة هنود ضائعين لا يعرفون حتى من هم

أو من أين جاؤوا والذين، عندما نسألهم، يجيبوننا بحكايات أفلت أثرها وسرّها من قبضتهم.

كل يوم بعد ظهر صار يتبع القيلولة الطويلة بلعبة الترجمة هذه، بينما في الخارج واصلت الطيور، بعضها مثابر، بعضها الآخر مستطلع، محقق، منتش جداً، مضطرب - أكثر جلاء، على الأقل من حيث الغرض، من الأغنية الغامضة التي يغنيها السيد أرتو:

Il me sembla partout lire une histoire d'enfantement dans la guerre, une histoire de genèse et de chaos, avec tous ces corps de dieux qui étaient taillés comme des hommes, et ces statues humaines tronconnées

بدا أننا نقرأ حيثما كان قصة ولادة طفل في الحرب، قصة تكوين وفوضى، مع كل أجساد الآلهة هذه التي رسمت كالبشر؛ وتماثيل البشر المبتورة هذه.

أرتو هذا بدا صعباً. ربما كان جاداً، ربما كان فعلاً يسعى إلى فكرة ما. إلا أن إ أم سيوران. نص سيوران. كان تفسخاً. كان... غير عقيم وشهي:

Cet état de stérilité où nous n'avancons ni ne reculons, ce piétinement exceptionnel est bien celui où nous conduit le doute et qui, à maints égards, s'apparente à la «sécheresse» des mystiques

حالة العقم هذه التي لا نتقدم فيها ولا نتراجع، هذا التقدم الغريب في المكان، هو بالضبط حيث يقودنا الشك، حالة تشبه في نواح عدة الأمكنة الجافة للغز...

... nous retombons dans cet état de pure indétermination où, la moindre

certitude nous apparaissant comme un égarement, tout prise de position, tout ce que l'esprit avance ou proclame, prend l'allure d'une divagation. N'importe quelle affirmation nous semble alors aventureuse ou dégradant; de même, n'importe quelle négation.

... إننا نرتدّ إلى تلك الحالة من التشوّش الصرف، حيث - بما أن أي يقينية أياً تكن تبدو لنا منعطفاً ضائعاً - كل تصميم، كل ما تقدمه الروح أو تعلنه، يتخذ هالة الهذيان. ثم كل توكيد، أياً يكن، يبدو طائشاً أو مهيناً؛ والأمر نفسه ينطبق على كل إنكار.

كان ليسعى إلى أيّ ترجمة إنجليزية لو كانت متوافرة. أن يقرأ ويشعر بالمعنى يتفكك تحت الجهد الذهني الذي يبذله - كان تواقاً لهذه المتعة. فكر في كتابة رسالة إلى صديق يقول فيها: أظن أنني قد أكون سيئاً، ربما أكون في حقيقة الأمر شريراً، وإذا كان ثمة شيطان فمن المحتمل أن أكون حليفه... تماماً في قلب قدرتي على إدراك الحقيقة، أريد أن أشلّ، أن أتلاشى... أن يخفق عقلي أمام الحقيقة. أريد أن تغمرني الحقيقة كشيء حسي فحسب ولا شيء آخر. أريدها أن تبللني - أن تكون حقيقية، أن تكون شيئاً...

لم يكتب ذلك قط. لم يعرف من تراه يكون هذا الصديق. لم يكن له صديق في العالم سوى إ. أم سيوران:

Le détracteur de la sagesse, s'il était de plus croyant, ne cesserait de répeter: «Seigneur, aidez-moi à déchoir, à me vautrer dans toutes les erreurs et tous les crimes, inspirezmoi des paroles qui Vous brulent et me dévorent, qui nous réduisent en cendres».

المثني عن الحكمة، إذا كان مؤمناً كذلك، فلن يتوقف عن تكرار: «يا ربي، ساعدني لكي أسقط، لكي أتمرّغ في كل خطأ وكل جريمة، ألهمني بالكلمات لكي أحرقك وأفترسني، مما يحيلنا نحن الاثنان إلى رماد».

لا عجب في أن يكون بوكيت قد كتب في دفتر ملحوظاته:

في مجد الحرب، في نعمة المعركة، في حقيقة الحرب نرى أن ذلك قد يكون صحيحاً. وأن احترامنا للمبادئ قائم على البلاغة والخرافة.

كان قد انتهى فعلياً من ملفات الكولونيل. توصل إلى نتيجة بأنه عمل بلا جدوى، قمامة غير نافعة، ولكن بالنسبة إلى البيروقراطي فلا شيء قمامة حتى يتحدّى روحه ويطرده.

لم ليس في الخارج يلتقي أبناء القرى في المنطقة، جامعاً الحكايات الشعبية؟ لم أرسل ثو لكي يخبر الأب باتريس أنه مصاب بالحمى عندما جاء القس لكي يتوسل وجبة حارة؟

Sans rime ni raison, remettre toujours tout en question, douter même en rêvê!

دونما نظم أو منطق لكي يبقي الأمور عرضة للسؤال، لكي يشكك حتى في الأحلام!

لدى قراءته سيوران عاوده ذلك الشعور الذي راوده في العاشرة من عمره، عندما

أراه ابن عامل سكة حديد صورة فوتوغرافية صغيرة لامرأة تداعب عضواً أسود كبيراً، لا يظهر في الصورة سوى جذع الرجل، أما عينا المرأة المنتشيتان سعادة فتداعبان الكاميرا – أن فضوله تجاه مثل هذه الأفعال لم يكن خيانة تغريبية، بل إنه معروف، مخمّن، مفهوم، وأن الآخرين سيغذّونه.

Le doute s'abat sur nous comme une calamité; loin de le choisir, nous y tombons. Et nous avons beau essayer de nous en arracher ou de l'escamoter, lui ne nous perd pas de vue, car il n'est même pas vrai qu'il s'abat sur nous, il ètait en nous et nous y étions prédestinés.

يقع الشك علينا كالكارثة؛ بعيداً من اختياره، سوف نقع فيه. ومهما حاولنا الخروج منه، ومراوغته، فإننا لا نبارح بصره، ذلك أنها ليست حتى الحقيقة ما يقع علينا – فقد كان الشكّ فينا، وكنا محكومين به.

لقد جاء إلى الحرب لكي يرى الحقائق المجرّدة تصير وقائع. بدلاً من ذلك رأى العكس. كل شيء بات مجرداً الآن.

وحيداً في البيت، وحيداً في الحرب، مع أمثال إ أم سيوران... لا عجب في أن بوكيت اعتاد الخروج إلى الشرفة...

الليل ثانية، الحشرات صاخبة، الفراشات تنتحر على المصباح. منذ ساعتين جلست على الشرفة أتأمل الغسق، يملؤني الحسد تجاه كل كائن حيّ – الطيور، البق، البراعم، الأشجار، العرائش – تلك التي لا تحمل عبء معرفة الخير والشر.

الهاوية ممتلئة بالواقع،

الهاوية تختبر نفسها،

الهاوية
حية.

بين عمل وآخر صار بيل هيوستن يعود إلى أمه، ويقيم معها ومع بيريس، شقيقه البالغ اثني عشر عاماً، مما أشعره أنه في المستوى نفسه مع هذا المراهق الغريب، المليء بالمتاعب كأخويه الكبيرين؛ راسب ومتسرب من الدراسة، متشمم حشاش مدمنٌ على عقاقير السعال. رأت العجوز في ذلك اختباراً لإيمانها ودعوة إلى الصلاة. في أغسطس، وفي استجابة لصلواته هو، حصل على عمل في الجانب الغربي في تحميل بذور الكتان في شاحنات متوسطة الحجم وسرعان ما استأجر غرفة في منطقة يهيمن عليها «الشارع الثاني» وتعرف باسم «دوس»، والتي شعر أنه في أجوائها المعدمة سيتمكن من نسيان أمه وأن يصارع اضطرابه غفلاً عن البشر. كان ليعود إلى البحرية لولا مسألة الصرف من الخدمة. تساءل عن البحرية التجارية لكنه اعتقد أنهم سيرفضون أيضاً. فكر هيوستن في شقيقه الأصغر جايمس، يواجه الحرب، يتعرض للتجربة، يمضي قدماً نيابة عنه على نحو ما. العالم برمته تركه في أعقابه، بينما في «روي راجنز سيد»، كما كثيراً في حياته العملية، كسب رزقه من أداء الحركات نفسها مرة بعد مرة. يصحو قبل شروق الشمس، ثم يقطع الكثير من الأميال داخل وخارج هذه الشاحنات التي تبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً، رائحاً وغادياً، طريق طويلة على سلم الصعود إلى الشاحنة، وكل الطريق إلى الأمام، جاراً أكياساً تزن ثمانين باونداً بالعقافة. هنا وهناك نقاط صغيرة من ضوء النهار في دواخل المركبات التي يتخللها الضوء. موضباً الأكياس في كل طبقة في زاوية قائمة مع الأكياس في الطبقة التي تحتها. ثماني طبقات. تفوح من بذور الكتان رائحة غريبة مغثية. عملوا ساعات صيفية طويلة، من الخامسة حتى التاسعة صباحاً ومن الخامسة إلى التاسعة ليلاً، آخذين ثماني ساعات استراحة

خلال حرّ النهار. وبين النوبات محاولاً ألا يثمل، أو ألا يثمل كثيراً على أية حال.

بعد أن خسر هذه الوظيفة ترك الغرفة وجرّب جمعية «جيش الخلاص» الخيرية، حيث أصروا بقوة على أن يكون صاحياً من الكحول، والذين لا يمكن خداعهم. طرد بسبب روائح الكحول الفواحة منه، كان ليدبر أمره في النوم نهاراً في ساحة وسط البلد والتسكع في الشوارع ليلاً، لكن على الإنسان أن يأكل ومن جمعية «نيو لايف ميشن» حصل فقط على شطيرة زبدة الفستق ظهراً والفرانكس والفاصولياء للعشاء، كلا الوجبتين مع فنجان من الحليب بالشوكولا المعاد تصنيعه. بينما ينتظر هذه الحصة مرتين يومياً في طابور من الفاشلين، سخرت الحياة من جوعه، وتمنى لو كان في مكان فيه سقف ومطبخ، البحرية مرة أخرى، أو مجدداً جيش الخلاص - وحتى السجن. كان قد أمضى ثلاثة أسابيع في سجن فينيكس منتظراً المحاكمة على تهمة الاعتداء ولم يجد وراء القضبان ما يتذمر بشأنه. قدموا له ثلاث وجبات يومياً، والناس كانوا لبقين، ربما كانوا مجرمين، إنما صاحون من الكحول وحسنو التغذية ولا يسيئون التصرف كثيراً. في أي مكان إلا بيت أمه التي حوّل أملها المتحمّس بالجنة البيت إلى جحيم.

في حانة في «سنترال» تعرف إلى امرأة بدينة رائعة من البيما تسمي نفسها نصف هجينة. أخذته إلى الصحراء على الطريق المهجور إلى شرق المدينة وجلسا على غطاء سيارتها البلايموث القديمة في الغسق الآخذ بالبرود بينما تحولت السماء إلى ظلّ باهت من الزرقة. تماشيا معاً هو وامرأته الطيبة ذات الأسنان الأمامية البنية والوجه الأسكيمو. قصيرة ممتلئة. كانت في حقيقة الأمر دائرية. أخذته إلى كوخها شرق طريق بيما، إلى داخل المحمية، وفي غضون أيام تزوجها في حفل أحياه مغفل عجوز ادعى أنه ساحر. هيوستن وزوجته الجديدة عاشا في نعمة لأسبوعين، حتى ظهر شقيقها القاتم الصامت بطريقة مسمومة وسكن معهما. بينما تأخذ قيلولة ذات بعد ظهر أخذ هيوستن ستة دولارات وست سجائر من علبة السيارة - ستة رقم حظه، ومن حسن طالعها أنه لم يكن متبوعاً بصفرين - وعاد بالحافلة

إلى «دوس». أكان بحاجة إلى محام؟ شكّ في الأمر. المرأة شقّت طريقها إلى قلبه، لكن أسبوعين بالكاد يحتسبان. لم ينو تعقيد المغامرة بمسألة الطلاق.

بعد أكتوبر، بعد موسم المطر، الكثير من الصباحات في «كاو كوين» كانت مشرقة قبل فترة العصرية الحتمية المعتمة- أحياناً يتذكر تعليق قاله جيمي ستورم: «ليس من سماء في المناطق الاستوائية» - ومع هبة الضوء هذه انتشر بعض مظاهر الجمال في الحجرات الشرقية من الفيلا، ألواح ضوئية تلوح صلبة بين الأباجورات في الطابق الأعلى، والمطبخ يمتلئ بانعكاسات حادة بين الأواني، ومصاريع نوافذ المكتب القائمة تصير ساطعة بوضوح، كما الفتحات المربعة تحت السقف في الردهة: مسطحات صلبة مثل تمارين رسام صغيرة على المنظور... ثم ترسل له السماء بعد الظهر أشعتها الأبدية المتماثلة، العملية، التي تغرق روحه. في الصباح رآها: احتمالات تترقّب دوماً. عند بعد الظهر لا يعود بمقدوره اتخاذ أي خطوة. تختفي الأرض، يبدّدها الشك.

قالت له السيدة ديو: «هناك سيدة جاءت لرؤيتك سيد سكيب».

قام من المكتب ودخل الردهة، وقابل امرأة غريبة منمشة، سمراء نحيفة، ترتدي قميصاً أبيض له جيوب أمامية، وبنطال رجالي كاكي اللون وقال: «كاثي»، قبل أن يدرك أنه عرفها.

في دامولوج لم يكن لها هذا المظهر المرعوب أو المتّقد، الهستيري أو المفعم بالقلق، الذي يلوح على الكثيرين من جماعة الإرساليات الذين ينشطون في الأدغال. بات لها الآن هذا المظهر. يدها تمسك حافة قبعة قش فلاحية كوزية الشكل، المعروفة باسم «نونج لا». أخذها منها ووضعها على المنضدة في الردهة وتبعتها لتقف هناك وهي تلهث بعض الشيء قليلاً، على مقربة من القبعة.

«أخبروني عن كندي ما يسكن هنا».

«يمكنني جلب بعض الشاي. أترغبين بالشاي؟».

«أهذا أنت؟ أنت الكندي؟».

«قولي الآن سيدتي، شاي أم لا؟».

«ماذا عن ذلك المركّب الكيميائي الحارق الذي ترمونه فوق القرى؟».

«أنا، أنا، أنا خارج هذا كله تماماً».

«كان يجب أن أعرف. عرفت حقاً. مؤسسة آيد! ديل مونتي! كندي! ماذا أيضاً؟ أوركسترا تورونتو السيمفونية؟».

«أدفنتست اليوم السابع».

«أنتم جميعاً.. آه يا ربي. أنتم إثارة للسخرية من أن يسخر المرء منكم».

«إنني أترجم الكتاب المقدس. سوف أعلمك حين أنتهي».

«هذا ليس مضحكاً».

«ألا تظنين أنني أفهم ذلك؟ لقد فقدت حس النكتة منذ زمن طويل. الآن هل ستشربين الشاي معي يا كاثي؟ أم أن هذه زيارة اجتماعية».

«أنا أزور كندياً».

«لكن بصورة اجتماعية، صح؟».

«أجل، أراهن أن لديك عسلاً».

«لا. حليب مكثف، الأمور السكرية».

«لا عسل؟».

«لا شيء من هذا القبيل».

«لا؟ لابدّ من أنك أزعجت ماكنمارا، أهذا هو؟».

«وزير الدفاع؟».

«أجل، لابدّ من أنه عاقبك بالنفي، صح؟».

«أحب هذا المكان كثيراً».

«أنتم الجواسيس دوماً سعداء وفرحون».

«تفضلي بالجلوس». رغم كل الوهم الذي تتضمنه التسمية، والواقع الكئيب لعمله، فقد كان يبهجه أن يُنادى «جاسوساً».

جلست على طرف الكرسي وأجالت نظرها في المكان.

«حسناً، الآن»، قال، «شاي».

«كيف الأحوال في كندا؟».

«بربك الآن، رجاء».

«لا أعرف ماذا أقول. لا أعرف ماذا أقول. إنني فحسب إنني ببساطة، إنني غاضبة». نهضت من دون أي تصميم على وجهها «إنني مغادرة الآن». وكأنها توصلت إلى هذا القرار من خلال إعلانه، هرعت خارجة، وأخذت تلطم دراجتها الهوائية المركونة في الخارج راكلة مسندها الحديدي. دراجة سوداء.

«كاثي، بربك انتظري»، ناداها سكيب، إلا أنه لم يستطع الجري خلفها. قالت إنها غاضبة. لم يظن أنها كثيراً ما كان شعورها مختلفاً عن ذلك.

جلس على الأريكة ومال إلى الأمام، مسنداً كوعيه على ركبتيه، ناظراً إلى المجلات على النضد – تايم ونيوزويك، صورة غلاف لرياضيين أسودين أمريكيين في الأولمبياد يرفع كل منهما قبضته تحية لحركة القوة السوداء. في مكسيكو سيتي، كما يظن، لكنه لا يعرف، لأنه توقف عن قراءة هذه المجلات.

عادت: «لم يصلني منك خبر».

انتظر حتى جلست على الكرسي الكبير قبالته، وجرّته قليلاً في إظهار لحنقها ثم استوت على الخيزران المطقطق، «إذن؟».

«إذن، لقد أرسلت بعض البطاقات البريدية».

«كتبت فيضاً من الرسائل، وحتى إنني أرسلت بعضها بالبريد. أتعرف لماذا قطعت الاتصال بعدها؟».

«آمل أن تخبريني».

«لأنه عندما توفي الأب كاريجنان – هل عرفت أنه مات؟ بالتأكيد عرفت

بذلك، لأن الأخبار وصلت إلينا أن القس قرب كارمن قد غرق، وكنت الوحيد الذي جاء بالخبر للأبرشية. وقد أمضينا ثلاثة أسابيع معاً كعاشقين، ولم تأت قطّ على ذكر الأمر!».

«ألم تصلني رسالة منك قبل عام؟ بعد وقت طويل من قضية القس، من مسألة الغرق هناك».

«تطلب الأمر وقتاً لكنني فهمت الأمر أخيراً: الكذبة لا يستحقون مخاطبتهم».

«ربما لا»، قال، «لكنني قدّرت الرسائل».

بدا أن هذا جعلها تتفكّر قليلاً «لم تجبني حقاً، البطاقات غير محسوبة».

«ربما لم أرد أن أكذب»، صحيح، لكنه ليس حقاً السبب وراء صمته. فقد اعتبر رسائلها مجنونة «أو، حسناً لا، الرسائل صعبة. هذا أقرب إلى الحقيقة».

«كندي مزيف يتكلم عن الحقيقة، بالمناسبة تحت أيّ اسم تعيش؟».

«سكيب».

«سكيب ماذا؟».

«بينيت. لكن غالباً سكيب. ما زلت سكيب».

«بينيت المستعار يريد التكلم عن الحقيقة!».

«لا يمكننا دوماً أن نروي القصة الكاملة عن أنفسنا. كما قلت لي بنفسك يوماً».

«لا أتذكر قولي ذلك، لكنه صحيح بالتأكيد عندما يتعلق الأمر بشخص مثلك، صحيح تماماً في حالتك».

«إذن... ستبقين لفترة».

حملقت به، وعيناها تترقرقان بالدمع. أخرجت غضبها في تنهيدة قوية، وأمكنه أن يرى أنها مسرورة لرؤيته.

أما بالنسبة إلى الجاسوس، فقد سعد أيما سعادة، يداه ارتجفتا من شدة السعادة.

عثر على السيدة ديو وطلب منها إعداد الشاي، والفاكهة والخبز، وعاد إلى ضيفته قائلاً: «اعثريني دقيقتين فحسب»، وعاد إلى المطبخ، مرعوباً من مواجهة كاثي من دون أشياء للأكل والشرب، بينما السيدة ديو تقوم بتحضيرها. أحضر الصينية بنفسه.

هي أيضاً بدت فجأة خجلة «هذا الكلب»، قالت، «يتسكع هنا فحسب».

«إنه الدكتور بوكيت. كان يملك هذا المكان».

«يتصرف كأنه ما زال يملكه».

«لقد تقمص ثانية».

«حقاً. بالتأكيد اختار البلد الخطأ ليولد كلباً فيه».

«لكنه اختار البيت المناسب تماماً».

«سوف ينتهي به الأمر على مائدة أحدهم».

«أظن أنه كبر كثيراً الآن».

أخذ يربّت الكلب وأدرك أن هذا سيوسخ أصابعه. «هاي»، قال، «لا أستطيع أن أطلب منك البقاء حقاً. لست في وضع يؤهلني لكي أكون مضيفاً. على الإطلاق. ليس هذه الأيام. إنني مدفون تحت العمل».

«ماذا؟».

«حسناً، هذا جنون».

«أجل. هو كذلك. أعني...».

«كنت أظن أنني أتماشى مع الأمر، لكنني أظن أنني مصاب بالجزع هنا».

«أتريدني أن أبقى أم أرحل؟».

«أريدك أن تبقي».

اضطربت حركته وأوقع أرضاً رغيفاً صغيراً، فالتقطه الدكتور بوكيت ومضى به. شاهده يمضي، رجل لا يتمتع بردود فعل رشيقة «كنت أسميه الدكتور بوكيت، لكن أظن أنني يجب أن أناديه مسيو. فشهادته الجامعية لن تبقى معه في حياته

الثانية، صح؟ ماذا تفعلين هنا في كاو كوين؟».

«ما الذي أفعله هنا؟».

«أجل».

«أنا مع منظمة WCS حالياً. تركت ICRE».

«WCS».

«منظمة الطفولة العالمية هي شبكة تضم نحو ستين فرعاً حول العالم، تؤمن الخدمات الاجتماعية للأطفال وعائلاتهم منذ عام 1834».

«أنا واثق من أنها تفعل».

«خدمات التبني هي الخدمة الأساسية في المنظمة. في مناطق عديدة، بما فيها هذه، سوف نفعل ما في وسعنا لكي ننسق الجهود لصالح الأيتام».

«لا شك عندي في ذلك».

«توقف. إذن كنت أزور العائلة الإرسالية في باك سي، وأخبروني عنك. عائلة توماس».

«لم ألتقهم قطّ. لم أسمع بهم».

«سمعوا عنك من أحد الكهنة».

«اسمه ثونغ نات – الأب باتريس».

«ما كنت لأعرف. كل ما أعرفه أنني خرجت عن طريقي لكي آتي وألقي التحية على مواطن كندي مثلي، وبدلاً من ذلك وجدتك أنت. الأمريكي الصامت».

«أوه، حسناً»، قال، «شكراً لأنك لم تنعتيني بالبشع».

«لن تسمعني أقولها على أية حال. فأنت أصمّ. كلنا نعرف ذلك عنكم الآن، كلنا إلا أنتم الأمريكيون أنفسكم».

«يبدو أننا كنا متفقين لوهلة قبل قليل».

«عذراً».

لم يعد لديها ما تقوله فراحت تحملق به بطريقة يرثى لها.

«Que Pasa؟»[1].

«Que Pasa». أنت تتكلم كالجنود الأمريكيين».

«أعرف. Que Pasa؟».

«إنني منهكة تماماً».

«أنا واثق من ذلك».

«أعني... أنا التي ينطبق عليها وصف البشع. لقد أنهكني الأمر. أليس كذلك؟».

«اسمعي»، قال، «أنا مسرور جداً لمجيئك. سعيد جداً كاثي».

«حقاً؟».

«هل عليّ أن أصنع مغفلاً من نفسي؟».

«لن أمانع»، قالت.

لحسن الحظ عاد الكلب طلباً للمزيد. سكيب فرك فروه ولقمه قطعاً من المانجا

«وأنت هنا من أجل الأيتام على ما أظن. من أجل منظمة الأطفال...»

هزت رأسها، قطعة من المانجا مغروزة على شوكة ومرفوعة كالعلم، فم مليء بالخبز أيضاً. ابتلعت الخبز، المانجا، وكادت تبتلع الشوكة أيضاً.

«الآن أنا الآسف، لم أكن أفكر، أتريدين وجبة طعام كاملة».

هزّت رأسها، وهي ما زالت تمضغ: «لا شكراً، أجل، أعني، أجل، جئت من أجل التبني. نحن المنظمة الأم لوكالات التبني».

«لو أن كل عائلة في شمال أمريكا تبنت فيتنامياً، لربحنا الحرب».

«شيء من هذا القبيل. لن أمانع إخراج كل الأطفال من البلاد وتركها للقتلة فحسب».

«أأنتم تعانون من صعوبات في التمويل مثل ICRE؟».

---

(1) هكذا في الأصل، بمعنى كيف حالك؟

«أوه بالتأكيد... قياساً بحجم جهودنا. لكن كما قال مرة العمدة لويس: سنجد المال، سنركع أمام الكثيرين من الناس».

«أنت طيبة، تبدين مثله تماماً».

«هل كنت على اتصال به؟».

«لا».

«ولا أنا».

«لنعد إلى الموضوع الآخر»، اقترح، «عندما قلت إنك لن تمانعي لو بدوت مغفلاً».

«دعني آكل أولاً».

خلال بضع دقائق أخذها إلى الطابق الأعلى. مما رآه وهو يصعد الدرج خلفها أنها احتفظت ببعض الوزن في وركيها وفخذيها، لكنها عبرت عن ذلك بصورة صحيحة، الحياة قد لفد استنزفتها الحياة. هو نفسه ذهب في الاتجاه المعاكس. لم يكن لديه ميزان، إلا أن سروايل الاستحمام باتت أضيق عليه وأكثر نزولاً تحت المعدة. لا ميزان لكنه حصل على سماعة طبية وآلة لقياس ضغط الدم. دزينة من الضمادات، ولا شرائط لاصقة. كانت مؤن أزمنة الحرب على هذا النحو، كلها مختزلة. كانت تلك الأفكار التي عصفت به وهو يحاول أن يتصور كيف سيتعامل مع سعادته وشهوته الطاغيتين، أطراف أنامله المرتجفة، قلبه المرتعش، الدوار. ليس أنه فكر أنها ستمانع، لكنها كانت مجنونة – في الحدّ الأدنى معقدة – مجروحة في الصميم، تدّعي السخرية، بالغة الشغف. شديدة الغضب. وكل هذا أثاره. وكانت آخر امرأة نام معها، واحدة من خمس خلال ثلاثين سنة غريبة من حياته. الرجال أصحاب ردود الأفعال السريعة لا يستجوبون فرصهم. الرجال الذين بلا فرص عليهم التوقف عن طرح الأسئلة. ومن الخمس، كانت الوحيدة التي نام معها أكثر من مرة. تقدّمها إلى غرفة نومه، والتفت نحوها، و... لا شيء. لا انفعالات.

«قلت إنني لن أمانع»، قالت، وانغمسا في قبلة غريبة.

«سيد بينيت هل لديك أيّ نبيذ؟».

«أجل، الحمد لله. وربعية ويسكي».

«تبدو حفلة»، قالت، ولامست جبينه برقة باثنين من أناملها. ممسكاً الإصبعين بيده، قادها إلى السرير المزدوج، حيث قرر أن يطبّق ما تعلمه من فقرات هنري ميلر الجريئة، من الصور الفوتوغرافية الصغيرة الشائنة، من أحاديث السكن الداخلي خلال الجامعة. كما في دامولوج، لم يتكلما. كل ما فعلاه كان سراً، لاسيما عن واحدهما الآخر. كما قالت، لا تمانع، وفي الجزء الأخير تماماً رفعت رأسها محملقة بشيء في السقف وصرخت. ولبرهة فكر، أنا جايمس بوند، قبل أن يسقط ثانية في الشك القاتم - آرتو وسيوران، الكلب، الطقس، الجدوى من كل شيء، انتظار اتصال مع عميل مزدوج افتراضي، الأشياء التي أحضر إلى هنا قبل زهاء سنتين لكي ينجزها. وكانت حماقة. عملية البطاقات والحرب نفسها - حماقة فوق حماقة. وهذه المرأة بجانبه التي مارس الحب معها تواً، تتعرق مثل لاعب كرة يد.

شعر ان ثمة مبارزة صغيرة قائمة بينهما حول من سيتكلم قبل الآخر.

«يتطلب ناراً لغلي الماء»، قال، لكن إذا كنت بحاجة إلى حمام...».

«أوه، بربك، سوف أستحم في مياه باردة».

«سوف أبول»، قال، «ثم يمكنك الحصول على الدوش، ماشي؟».

«بينما استحمّت نشف جسده بالملاءة وعاود ارتداء سروال الاستحمام. فكر أن يقرأ قليلاً، لكن الطقس كان مشؤوماً ولم يكن لديه من ضوء سوى ذلك النور الأخضر المنبعث من الغيوم العاصفة. جميع الكتب، فكر، في الأسفل. ليس من شيء يفعله. لا شيء يمكن فعله. جلس إلى منضدة الشاي الصغيرة محدقاً بركبتيه، بقدميه الحافيتين.

عادت لافة المنشفة حول جسدها رافعة شعرها إلى الوراء، وقد اصطبغت وجنتاها باللون الزهري على الرغم من اسمرارهما من الشمس. كاحلان

منتفخان بائسان. ممسكة المنشفة على صدرها، تمطّت، مادة ذراعها اليسرى فحسب، حتى لا تسقط المنشفة. قبالته كرسي، إلا أنها جلست على السرير. «هذا السروال يشبه أول سروال رأيتك فيه. كنت ترتدي سروال استحمام غريب، مثل هذا بالضبط، له جيوب».

«إنه نفسه في حقيقة الأمر. إنه متين كالجحيم».

«ماذا عن سروال البرمودا الغريب ذاك؟».

«لقد تهلهل على ما أظن».

«كان ثمة عاصفة حينذاك أيضاً».

«أول مرة رأيتني فيها كنت أرتدي سروالاً. ذلك المطعم في مالابالاي، أتذكرينه؟».

«أرفض أن أذكره».

جاءت في الوقت المناسب تماماً. كان هذا الجوّ المناسب لها. الضوء المناسب لجلدها الشاحب المحزن تحت الرقبة المسمرة وفوق الكوعين القويين، حتى تتخذ وضعية العذراء الشهيدة، الانتظار غير المتوقع – بطة ساقها اليمنى سميكة ومثل الفلاحة، تتدلى من السرير، وقدمها تكتنفها الظلمة قرب الأرضية الخشبية القديمة، أما الرجل الأخرى فمطوية، أخمصها على الركبة الأخرى، مشكلة الرقم 4 بقدميها بينما تستلقي على ظهرها على السرير، مغطية نهديها بيد، والأخرى وراء رأسها– ضوء غائم، ضوء كنسي. لو رأت كيف يحملق بها لما سمحت بذلك. إلا أنها التفتت نحوه ونظرت إليه بالكامل وكأنه لا يهم، من دون أيّ تغيير في تعابيرها. لم تكن، هي نفسها، وكانت رائعة. كانت لحظاتها رائعة.

أعتمت الغرفة، وحملت الرياح أصواتاً من الفيلا وأصوات أشياء تهتز، وإن كانت الريح قد استكانت قبل هطول المطر، وما هطل منه يمكن أن يهطل في أي يوم صيفي في نيو إنجلند.

«أنت تحملق حقاً».

«أنت مصدر راحة رهيبة. تجعلين كل شيء يزول».

«كل شيء مثل ماذا؟».

«الملل. الملل. والكثير من التفكير. حمى الحجرة[1]».

«أوه نعرف كل شيء عن حمى الحجرة في مانيتوبا[2]. يأتي الربيع ويقفز الشباب إلى شاحناتهم ويقودون مئة ميل للحصول على كأس ويسكي».

«على ذكر الشيطان، أتريدين بعض البوشميل».

«نسينا! بحق الرب – إلام تحملق؟».

«أمسموح بهذا؟».

«ليس عندما يكون أنا. أنا عجوز شمطاء. هذه الشمس تحمّصك مثل الخطمى. إنني مدمرة تماماً».

«هذه شارة مغامراتك فحسب».

«هراء».

«لا».

«أتظن أن هذا المكان مغامرة؟».

«أكيد».

«بيد أنه ليس مسلياً. إنها مغامرة بيد أنها ليست بالمرحة حتى تنتهي. إذا كانت مرحة حينئذ».

أعجبه ذلك كحقيقة واقعة. سكب كأسين من البوشميل الفاتر، وأحضرهما إلى السرير. مستندة إلى الجدار، حملت الكأس بكلتا يديها وتجرعت منه.

«هل يحتسي الأدفنتست الخمر عادة؟».

«بعضهم يفعل، بعضهم لا. هنا في هذه الفوضى أقول إننا جميعاً نفعل عندما

---

(1) Cabin Fever: تعبير أمريكي لا تعرف أصوله بالضبط إلا أنه يشير إلى حالة الرعب النفسي الذي يتسبب به العزل في أمكنة ضيقة.

(2) مقاطعة كندية.

تتسنى لنا الفرصة».

«أين كنتِ؟ في الدلتا».

«في قرية تدعى سا ديك. لكنني اضطررت إلى المغادرة. الأمر مختلف هنا منذ التيت. القذائف الأمريكية الضخمة تلوك كل شيء. على الجميع أن يتوخى الحذر. الكارثة تقف عند الزاوية تماماً. بالنسبة إلى الكثيرين هي هنا أصلاً. هذا رهيب، وضع رهيب. تعتاد على الأمر، ثم تنهض ذات يوم وتجد نفسك غير معتاد بعد الآن. ثم بعد فترة تعتاد الأمر ثانية».

«إذن أنت هنا تبحثين عن الأيتام؟».

«ليس علينا أن نبحث».

«صح، صح».

«إننا نقيم علاقات مع الإرساليات فحسب. إذا استطعنا نريد أن ننجح الأمور، شيء أفضل. أكبر. المنشآت القائمة حالياً فظيعة، كل واحدة منها». في الوقت الراهن الأمور الرهيبة لم تكن تثير اهتمامه. بينما تتكلم أخذ يتفرّس في رأسها متسائلاً ما كان يمكن أن يحاوله رمبرانت في مثل هذا الضوء القاتم».

قالت كاثي: «وكاميرتك».

«الكاميرا».

«أتذكر أنك كنت تحمل كاميرا. أما زالت معك؟».

«تخليت عنها. لا مزيد من الصور. إنها تحول العالم إلى متحف».

«بدلاً من؟».

«بدلاً من سيرك للمجانين».

«احتفظ بصور في خزانته، قرب مسدس الباريتا الذي لم يستعمله قط، «انظري هنا»، ناولها قرابة دزينة من الصور».

«إميتريو دي لويس!».

«ولا صورة لك».

«الجبني! أفتقد إلى هذه الأشياء».

«زهاء خمسين شخصاً يتسلقون ظهرها».

«لا عجب في أن العجلة انفجرت».

قرع الباب. السيدة ديو تطلب الدخول. «سننزل لتناول العشاء»، قال عبر الباب.

«لديّ البخور. أتريد؟».

«حسناً».

دخلت مع ثلاثة أعواد تعبق بعذوبة في يدها وقالت: «أجل، مساء الخير»، ووضعتها على الحامل على رف عال قبالة السرير. «حسناً. العشاء لاحقاً. سوف أخبرك»، قالت، وخرجت مقفلة الباب بهدوء خلفها.

توقف المطر. عبر المنظر المحجوب بستارة، في الدقيقتين من الغسق قبل أن تهبط الظلمة، شاهد ثو يتسلق إحدى أشجار البابايا وراء الفيلا. لأن هذه الأشجار تمتد فوق الضفة والغدير لم يكن بإمكانه إسقاط الثمار، فيواصل تسلقها بقدميه الحافيتين واضعاً سكين مطبخ بين أسنانه، متشبثاً بجذع الشجرة بكلتا يديه، قاطعاً ثمرة بيد وواضعاً إياها تحت ذراعه، ثم نازلاً، وقافزاً مسافة آخر قدمين على الأرض.

«أيمكنني احتساء كأس أخرى؟».

«بكل تأكيد يا رفيقة».

«القليل فحسب».

شعر سكيب بشيء من الانزعاج، فجأة، كاثي تلك كانت تستدعي الاعتذارات منه، وإن مزحت، مستخفة بعذابه – والآن نسيت كل شيء. وخطر له أن أشهر العزلة قد علمته أن يقرأ نفسه، أن يحلل نفسه كعالم؛ إنه الشخص الوحيد في العالم الذي بات مألوفاً بالنسبة إليه.

أمطرت ثانية، ثم كان الليل. لم يعد بوسعها العودة الآن إلى العائلة الإرسالية في

باك سي. ناما جنباً إلى جنب، بلا أغطية، هي مرتدية إحدى تي شيرتاته القاسية المغسولة باليد، وهو بسروال داخلي قصير. بعد الإفطار في صبيحة اليوم التالي عادت إلى باك سي على دراجتها السوداء، ولم يرها سكيب ثانية.

1969

عندما ظهر الأمريكيون الثلاثة عند باب بيته لكي يأخذوه إلى معهد اللغات التابع للقوات المسلحة، شعر هاو بأنه غير واثق من طبيعة هذا اللقاء. الوحيد بينهم – وهو رجل أسود – الذي تكلم، فعل ذلك بلطف بالغ، مقدماً نفسه باسم كنيث جونسون من السفارة الأمريكية. اتجهوا إلى وسط المدينة في سيارة فورد مقفلة مكيفة مع لوحة أرقام دبلوماسية، هاو في الخلف، إلى جانب واحد من الشابين الأصغر سناً.

عند وصولهم إلى وجهتهم، خرج الشابين، وكل واحد فتح أحد الأبواب للركاب في المقعدين الأماميين. اجتاز هاو وكنيث جونسون بمفردهما الحاجز الخرساني نحو مبنى جديد جميل. كان المبنى السابق قد خرب خلال هجوم تيت في العام الماضي. ألفان أو ثلاثة آلاف من الجيش الفيتنامي يدرسون الإنجليزية هنا. كان داخل المبنى يعبق بالداخل بالطلاء الحديث ونشارة الخشب.

على حدّ علمه، لم يكن في المبنى أي مساجين.

هبط به جونسون سلماً إلى قبو المبنى، حيث دخل معه جندي بحرية ببزته العسكرية. كان الطلاب يتدفقون في الطوابق العليا فيتردد وقع أقدامهم على السقف، إلا أنه في رواق القبو سار جونسون وهاو والجندي فحسب. في نهاية الرواق وصلوا إلى باب علقت على الجدار بجانبه لوحة تشبه آلة الحساب، ضغط جونسون بسرعة على أربعة أو خمسة أزرار، وأصدر الباب تكّة.

قال جونسون: «شكراً لك رقيب أوجدن»، ثم دخل وهاو رواقاً اصطفت على جانبيه الأبواب المقفلة. هنا كان المكان هادئاً مكيفاً. قاده جونسون عبر الباب الوحيد المفتوح إلى ردهة صغيرة مفروشة – مثل أي ردهة – بكنبة ومقاعد مبطنة، وأيضاً بثلاجة كهربائية حمراء بكيرة عليها كلمة «كوكا كولا». لم يكن من نوافذ في الغرفة. لابدّ من أن هذا القبو على مسافة عميقة تحت الأرض.

«أتريد كوكا كولا؟».

رفع جونسون باب الثلاجة الثقيلة، وأخرج زجاجة تقطر، ثم فتحها بفتاحة معلقة بجانب الباب، ناول المشروب لضيفه. كان بارداً جداً.

شاعراً أنه ملزم بذلك، تجرّع هاو جرعة. زمّ شفتيه وازدرد الشراب من زاوية فمه اليمنى ثم ابتلعه. كان له سن منخور، ضرس أيسر. كان الكولونيل قد اقترح عليه الذهاب إلى طبيب أسنان.

«اجلس»، قال جونسون، وجلس هاو على حافة الكنبة طاوياً قدميه تحت الكنبة مثل عدّاء.

بقي جونسون واقفاً. كان ضئيل القامة نسبة إلى أمريكي، وقد تبقع قميصه الأبيض عند الإبطين ببقعتين وساعتين. لم يتحدث هاو من قبل مع زنجي.

أخذوه بعد ما يقرب من الساعة على مغادرة كيم إلى السوق. أي أنهم لم يريدوها أن تراهم، وأنهم حريصون على إبقاء زيارته سرية، على ألا يعرف أحد بمكانه.

جلس جونسون بارتياح على الكرسي قبالته وقدم له سيجارة. قبلها هاو، وإن كان يحمل علبة من المارلبورو، وأشعلها بولاعته الخاصة، وأخذ نفساً عميقاً ونفخ الدخان من منخريه. بلا فلتر. بصق بحذر بعض التبغ. حقيقة أن أسلاف هذا الرجل كانوا عبيداً، أشعرته بالحرج.

أعاد السيد جونسون علبة سجائره إلى جيب قميصه من دون أن يشعل واحدة لنفسه، ونهض، «سيد نجوين، هلا عذرتني قليلاً؟»، وفي حين حاول هاو أن يفهم السؤال، خرج الرجل وترك الباب مفتوحاً وتركه وحيداً مع أفكاره، التي لم تكن أفكاراً سعيدة. أوقع عقب سيجارته في الزجاجة فأصدرت صوت هسيس، ثم طفت إلى الأعلى واسودّ لونها، ثم غاصت حتى وسط في الزجاجة.

عبر الباب المفتوح رأى هاو زوجته كيم تمرّ في الردهة برفقة أمريكي آخر. أحسّ بصدع ينفتح في روحه. كانت تنظر إلى قدميها كأنها تمشي على طريق

صخرية. من الواضح أنها لم تلاحظه. عاد الرجل الأسود. «سيد نجوين، فلننتقل بالنقاش إلى مكان جديد، هل تسمح؟»، لم يكن جونسون قد جلس. فهم هاو أنه لا ينوي ذلك، أنه هو نفسه عليه أن ينهض. استسلم للرجل الذي قاده بضع خطوات فحسب عبر الرواق إلى غرفة أخرى، بلا نوافذ، يجلس فيها شاب نحيف هزيل، تنحدر نظاراته الطبية فوق أنفه، ويضع رجلاً على رجل، ناظراً إلى جهة اليسار في الأسفل، إلى محتويات مغلّف أسمر مفتوح على الطاولة أمامه. ابتسم لهاو، قائلاً: «سيد نجوين، أهلاً وسهلاً بك، أريد أن أريك هذا الشيء». نوسّل هاو أملاً في هذه النبرة شبه الودية في صوته. على الطاولة رتبت أجهزة وأسلاك تشبه جهاز إرسال لاسلكي معقد.

«اسمي تيري كروديل. الجميع ينادني كروديل، وآمل أن تناديني كذلك أيضاً. هل تمانع أن أناديك هاو؟».

«ماشي، أجل».

«تفضل بالجلوس، رجاء».

جلس على كرسي خشبي قاس بجانب كرسي كروديل. كان ثمة كرسي ثالث ينتظر إلا أن السيد جونسون بقي متأهباً. هنا كان ثمة نوعان مختلفان تماماً من الأمريكيين، كلاهما يرتديان سراويلهما المكويين، وأحذية لماعة، وقمصاناً بيضاء قصيرة الأكمام: جونسون يقف عرضياً، غير مرتاح نوعاً ما، أسمر البشرة، أسود الرأس، وكروديل مسترخ يتولى القيادة، مع جلد شاحب منمش، وشعر أقرب إلى لون القش.

سأله السيد جونسون: «أتريد أن يأتي سامي؟». لم يجب كروديل.

«سيد هاو»، قال كروديل، «سنجعل هذا اللقاء قصيراً، فلا تقلق».

«هذا جيد».

«ستعود إلى البيت في غضون ساعة».

«اليوم سنزرع شجرة لعيد التيت».

«أتفهم لغتي الإنجليزية؟».

قال هاو: «أحياناً لا أفهم أشياء كثيرة». ما زال يحمل زجاجة الكوكا نصف الممتلئة التي يطفو في داخلها عقب السيجارة. بلطف أخذ كروديل الزجاجة منه ووضعها على الطاولة.

«شراب آخر؟».

«لا شكراً لك. لكنه جيد حقاً».

وضع كروديل نظارته في جيب قميصه ومال لكي يحملق في عيني هاو من دون عدوانية أو خبث إنما بإمعان. كانت له رموش قصيرة ثخينة بلون شعره، وعينان زرقاوان فاتحتان. «لا أريد مترجماً هنا. أيمكننا التكلم بلا مترجم؟».

«أجل، إنجليزيتي ليست جيدة للتكلم، لكنني أفهم أفضل».

«هذا جيد بما فيه الكفاية»، قال كروديل.

وقال لجونسون: «هذا كاف»، فغادر الغرفة مقفلاً الباب خلفه.

«أتعرف ما هذا الجهاز؟».

«ربما لاسلكي».

«إنه جهاز نستطيع أن نعرف من خلاله من يكذب ومن يقول الحقيقة. أو هذا ما يزعمونه».

هل يبث هذا الجهاز الأخبار عن نفسه الآن؟

«كيف يعمل؟».

«ليست مجال اختصاصي، لن نستعملها اليوم».

قال هاو: «أنا أبحث عن السلام الحقيقي. لا أستطيع أن أنتظركم حتى تعقدوا السلام. لا أستطيع أن أنتظركم».

ابتسم كروديل.

«الحرب ليست سلاماً».

نهض كروديل ومضى إلى الباب وفتحه. «كين؟»، نادى، ثم قال، «عذراً سيد

هاو».

دخل جونسون.

«نحتاج إلى مترجم».

«ترك جونسون الباب موارباً. كروديل رتب الكرسي الثالث، قائلاً: «فقط أحدهم لكي يساعدنا على التفاهم».

جلس ووضع مجدداً رجلاً على رجل.

تساءل هاو إذا كانوا سيسمحون له بالتدخين هنا.

«متى كانت آخر مرة رأيت فيها الكولونيل؟».

ربت هاو على المارلبورو في جيبه. أخرج كروديل ولاعة وأشعلها بينما أشعل هاو سيجارته ونفخ الدخان، مفكراً أن الحياة في مدينة المكر والتقلبات تستدعي خطوات بارعة وبعد نظر، وهو يفتقر إلى هذه التركيبة. وجد نفسه غير قادر مثلاً على التعامل مع شقيق زوجته، الذي يدين له بالمال، الذي يعيش في بيت والد هاو منذ وفاة العجوز، عندما انتقلت ملكية البيت له، لكن الذي يرفض الاعتراف بالدين. الأقرباء والعمل: أخفق في التنقل بينهما. ومنذ وفاة والده تسبب بإفلاس دكاكين العائلة. لم يستطع احتمال التجارة اليومية البسيطة؛ أقل بكثير مما كان يفكر هؤلاء الناس عنه الآن. تنشق دخاناً شهياً وقال: «ليس منذ وقت طويل».

«قبل شهر؟ شهرين؟».

«أظن ربما شهرين».

عاد جونسون، «ها هو سامي»، قال، ودخل فييتنامي يافع جداً يرتدي بنطالاً عسكرياً وقميصاً مثل الأمريكيين تماماً، وجلس على الكرسي الخشبي الثالث، بينما غادر جونسون مجدداً وتكلم كروديل بسرعة، ناظراً إلى هاو.

«سيد هاو»، ترجم الفتىٰ، «لقد دعوناك إلى هنا بدلاً من تدبير فرصة لقاء في مكان عام. سأخبرك السبب».

«أخبرني»، قال هاو بالفييتنامية.

«لأننا نريدك أن تفهم أن هذا الاستجواب تقف وراءه حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بثقلها».

بالإنجليزية قال هاو: «أنا صديق للولايات المتحدة».

«ألديك الكثير من الأصدقاء؟».

سأل المترجم: «ماذا يقصد بهذا السؤال؟».

«لست أكيداً. أتريدني أن أستفسر منه؟».

«لَمَ جاؤوا بي إلى هنا؟ لَمَ يسألونني إذا كان لدي الكثير من الأصدقاء؟».

«هذا ليس شأني».

«سامي»، قال كروديل، «اطرح عليه الأسئلة فحسب. أنا أتكلم إليك، وأنت تتكلم إليه. هو يتكلم إليك، وأنت تتكلم إلي. أنتما الاثنان لا تجريان الأحاديث».

«من الأفضل فحسب أن تتكلم إليه وليس إلي»، اقترح الفتى على هاو.

حمل هاو السيجارة بصورة شبه عامودية لكي لا يقع الرماد الذي تراكم نحو بوصتين، ووضع شفتيه تحتها لكي يحصل على مجة. قال كروديل: «نسيت صحون السجائر. عادة لست مدخناً».

قال سامي: «أيمكنني الإتيان بواحدة؟».

«صحن سجائر؟ رجاء، لو سمحت».

عاد وحيداً مع كروديل الشاحب ثانية. الكثير من الأصدقاء؟ ليس كثيراً. ربما الأصدقاء الخطأ. لقد تشبث بالكولونيل كأنه شجرة عملاقة، متوقعاً أن تحمله بعيداً من العاصفة. لكن الشجرة لا تذهب إلى أيّ مكان.

طرق سامي الباب وعاد يحمل صحن سجائر وسيجارته المشتعلة أيضاً، لكنه وضع صحن السجائر على المنضدة أمام هاو، ونفّض فيها رماد سيجارته. «أهذا جيد؟».

«دخن»، قال كروديل، «دخن مثل دريسدن[1] يا رجل»، وقرب هاو سيجارته بتؤدة فوق المنفضة وترك الرماد يسقط فيها.

«سجائر أمريكية»، قال، «أفضلها أكثر من الفييتنامية»، وأطفأ السيجارة وجلس مستقيماً على كرسيه.

«من هو الصديق الذي يزورك؟ ذلك المنتمي إلى الفييتكونغ».

سؤال بسيط بما فيه الكفاية. لكن الطريق للإجابة تبدأ على مسافة منه وتمر في دغل من التواريخ غير المهمة. تكلم عن تدريبه في معبد النجمة الجديدة. كيف أن العقائد بدت، على نحو ما، أعذاراً جبانة يتلطى خلفها المسنون، لكن بعد ذلك، في منصف العمر – الآن – بدأ يكتشف أهميتها. تكلم على المعيقات الخمسة – إنها بالفعل تعوق – والحقائق الأربع السامية – كانت بالفعل صحيحة. عندما لم يعد لديه ما يقوله، نفث المترجم سامي دخان سيجارته وقال: «بوذي».

قال كروديل: «لكل عقيدته. لست هنا باسم أي ملابس سوى فرقة المشاة الخامسة. إذن اسم صديقك هو ترانج، صح؟».

«ترانج. صديق قديم جداً. درسنا معاً في معبد النجمة الجديدة».

«تحت أيّ اسم يتحرّك الآن؟».

«لا أعرف».

«ما اسمه الكامل؟».

«لا أعرف».

«درست معه، ولا تعرف اسمه الكامل؟».

قال هاو بالإنجليزية: «مهلاً رجاء».

«سيد هاو، اسمه هو ترانج ثان».

«أظن ذلك».

«متى كانت آخر مرة قصدك فيها في منزلك؟».

(1) Dresden: المدينة الألمانية التي أحرقها الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية.

«رجاء لحظة».

...وكيم في الرواق، مطرقة الرأس. هل دبروا الأمر على هذا النحو؟ محتمل. على الأرجح. لأي غاية؟ لم يرد أن يفكر بهذا كثيراً. أمل أن يفهم موقفه. أمل أن يكون مستوعباً أهدافه. قال، بالإنجليزية: «أريد الذهاب من هنا إلى مكان جيد. إلى سنغافورة».

«سينغافورة؟».

«أجل، ربما سنغافورة».

«وحدك؟».

«مع زوجتي أيضاً، رجاء».

«أنت وزوجتك تريدان الهجرة إلى سنغافورة».

«تماماً».

«أهذا خيارك الأول».

«أريد الذهاب إلى أمريكا».

«إذن لمَ قلت سنغافورة؟».

«يقول الكولونيل إنه في مقدوري الذهاب إلى سنغافورة».

«الكولونيلساندز؟».

«إنه صديقي».

«إنه لا يعرف عمّ يتكلم. ماليزيا مكان أفضل. هذه هي الوجهة، إذا كنا من سنساعدك».

لم يرد مساعدتهم. لكن الخيار بدا محصوراً بين العون أو الأذية.

«إننا نستبق الأمور قليلاً. هل فهمت تعبيري هذا؟».

«أحياناً لا أفهم».

«نحتاج إلى التكلم لاحقاً حول أمور من قبيل إلى أين سنرسلك. الآن نحتاج إلى أن نصبح أصدقاء. لا أكثر».

«هذه أشياء سيئة».

«ما الأشياء السيئة؟».

«الآن».

«الآن أشياء سيئة؟ هنا والآن؟».

«أجل رجاء، أنا صديق الكولونيل».

«لديك الأصدقاء الخطأ».

«لا، إنه رجل طيب».

«قطعاً. رجل طيب. عليك ان تسأل نفسك لماذا الاسم التشفيري للكثير من العمليات كان المتاهة». لم يترجم الفتى. «أتريد كولا أخرى؟».

«لا شكراً لك. عذراً سني منخور».

«هاو، هذه ليست أشياء سيئة. في حقيقة الأمر، إذا لم أكن قادراً على سكب كوكا أخرى في حلقك، فأظن أن اللقاء انتهى اليوم. فقط أردت أن أعرفك بنفسي. وقد فعلت ذلك، وليس لدي ما الكثير لأقوله، سوى أنني آمل أن نصبح صديقين. من وقت لآخر سأتصل بك، وأحضرك إلى هنا. يمكننا التحدث. نوثق تعارفنا، نشرب الكولا. موافق؟».

«أجل. كوكا»، قال هاو بالإنجليزية.

«أتحتاج إلى أن يترجم سامي ما قلته الآن؟».

«لا، لا بأس. لقد فهمت».

«أظن أننا فقدنا السيارة. دعني أعطيك أجرة سيارة الأجرة. سوف تزرع شجرة للتيت؟».

«أجل، كل سنة».

«كومكوات؟ مع ثمار البرتقال؟».

«كومكوات».

«إنها رائعة».

«أجل، هذا من لطفك».

«مثل تلك التي لديك الآن في فناء بيتك الأمامي».

«أجل».

«لقد زرعت واحدة العام الماضي؟ كم واحدة صار لديك؟».

«عشر أشجار».

«ومع هذه تصبح إحدى عشرة».

«أجل، إحدى عشرة». إحدى عشرة سنة منذ توفي والدي.

بدا أن كروديل يتفحص جهاز كشف الكذب، المصنوع من مكونات كثيرة موضوعة على الطاولة «يا إلهي، هلا نظرت إلى كل هذه الأسلاك». لم يأت على ذكر إبقاء هذه الزيارة سراً عن الكولونيل. على الأرجح أن ذلك يناسب أهدافهم. أو خمنوا أنه لن يخبره أبداً لأن هذا سيؤدي فحسب إلى طرح الأسئلة، وسوف يصارع مع الأكاذيب. لكن ترانج... هل عليه أن يخبر ترانج؟».

قال كروديل: «لم هذا كله بحق السماء؟... هذا الشيء من الواضح أنه يتم وصله بأصابعك...».

سوف ينتظر المرة المقبلة التي يرى فيها ترانج وعندئذ سيقرر مقدار ما سيخبره به.

قال كروديل: «ذات يوم سوف نجلس أنا وأنت وأحد التقنيين ونعرف كيف تعمل هذه الآلة».

قال هاو: «مثل بعضه».

«مثل بعضه؟».

عنى أن كل شيء سيان، لا يهم، الجميع يكذب.

انتظرت كيم عند مدخل البيت قرب النبتة التي لفّت جذورها بورقة صحيفة،

حتى عاد زوجها إلى البيت على دراجة أجرة. شاهدته ينزل من العربة ويسدّد الأجرة للسائق ويأتي إليها مبتسماً، وكأن شيئاً لم يكن.

«أولئك الناس سألوني عن ترانج»، قالت، «صديقك».

«سألوني أيضاً»، قال.

«أرأيتني هناك؟».

«رأيتك في القبو».

«ماذا يريدون؟».

«الأمر كله يتعلق بترانج. أظن أنه في مأزق».

«قالوا إنه يأتي لزيارتنا».

«لا، ترانج لا يأتي إلى هنا. هل رأيته يوماً هنا؟».

«لا. سألوني إذا كان يأتي إلى هنا وقلت لا».

«سألوني أيضاً وقلت لا، إنه لا يأتي إلى بيتي».

«جيد. لو كان شبح جدتي يطارك الليلة صائحاً بك، فسأقول لك ماذا ستقول لك: لا تبعثر معروفك هنا وهناك».

«هذه نهاية المسألة»، قال، «لا مشكلة».

«هذه بالضبط بالحجم نفسه ككل الأخريات»، قالت، قاصدة الشجيرة، «عرجت على السوق في طريقي إلى البيت».

«كيم»، قال زوجها، «اسمعيني: أنت تعرفين من أنا».

«لم أستطيع أن أجد المعول»، قالت، «أتتوقع مني أن أحفر بيدي».

«أنت تعرفينني»، قال.

«لا تقع في المشكلات».

«أريد السلام».

«فلتسمع كلام جدتي إذن، لطالما قالت لنا لا تبعثروا معروفكم في الغابة. ازرعوه حيث سينبت ويغذيكم».

«نصيحة جيدة».

«هل أولئك الأمريكيون غاضبون منك؟».

«لا، كل شيء على ما يرام».

«هل أعطوك المال لأجرة الدراجة؟».

«أكثر مما يكفي».

«أنا أيضاً. أين المعول؟».

«لا أعرف».

مضيا إلى طرف السياج الحديدي المنخفض، وهناك، مستعملاً طرف قضيب خشبي صغير ويديه وأصابعه، حفر حفرة، ووضعا النبتة فيها. من الشارع التالي سمعا جلبة غناء ومفرقعات وصراخ أطفال. بمشط قدمها ملأت الحفرة بالتربة ثانية، محاذرة لكي لا يمتلئ صندلها. حدق زوجها بهذه العملية وكأنه يتمنى أن يصير صغيراً ويرمي نفسه هناك.

غداً ستعرف طالعها. كانت تتطلع قدماً لذلك. الآن بدا الأمر عقاباً.

«آه»، قال، «تذكرت».

«ماذا؟».

«المعول في...».

«أين؟».

«لا. ليس هناك»، قال.

وصل العميل المزدوج.

جاء إلى الفيلا في شيفروليه سوداء، مع حاشية من المرافقين مكونة من هاو وجيمي ستورم والكولونيل، وحتى مينه ابن أخت زوجة هاو اليافع، القبطان السابق لطائرة الكولونيل، الذي عاد الآن إلى قوات الجو الفييتنامية، لكنه لم يكن

اليوم بالبزة الرسمية. بدا هذا الحشد غير ضروري بالنسبة إلى سكيب.

جلسوا جميعاً في غرفة المعيشة- العميل المزدوج ترانج على الأريكة، بين الكولونيل بقميصه الهاواي المبهرج وجيمي ستورم بالبزة العسكرية - وطلب ساندز القهوة وأخذ يمعن النظر في هذا الشخص الذي انتظر سنتين حتى يراه.

كان ترانج بطول خمسة أقدام وست بوصات، ومتقوّس الساقين. كان يمكن أن يكون في أي عمر بين الثلاثين والخمسين، لكن سكيب فهم أنه كان رفيق هاو القديم في الدراسة، وهذا يجعله بعمر الأربعين تقريباً. لم يزيت شعره الذي انتصب في سوط رأسه، وكان جلده داكناً من النوع الذي تترك أقل الخدوش أثرها عليه. حاجبان كثيفان معقودان معاً فوق أنفه. أذنان كبيرتان، وذقن واهنة. وجه قبيح، إنما ودود. كان يرتدي بنطال جينز أزرق يبدو آسيوي الصنع وقد طلي بطريقة غريبة، وتي شيرت خضراء صغيرة قليلاً عليه - كلاهما يبدو جديداً تماماً - وحذاء تنس أسود عال، من الواضح أنه آسيوي الصنع هو الآخر، وجديد أيضاً. ولا جوربان. أبقى يديه على ركبتيه وكلا قدميه على الأرض. بين قدميه كان حقيبة ظهر خضراء حشيشية، جديدة على الأرجح، يبدو من تهدّلها أنها فارغة. بطريقة لطيفة، لاقى ترانج عينيه. بياض عينيه فيهما لطخة من الصفار. ربما سلوكه المسترخي هذا سببه المرض.

في هذه اللحظة، الأكثر شرعية وأصلية في رحلة سكيب كـ «محارب بارد»[1]، بدا عمه مشتتاً، غير راغب في الجلوس، متنقلاً من نافذة إلى أخرى مستطلعاً الخارج، وأخفق في تعريفه وترانج إلى واحدهما الآخر.

«سكيب تعال معي. أريد أن أخبرك شيئاً. رافقني إلى الخارج».

وقفا خارج المدخل في الصباح الرطب الحار. سكيب مفكراً أنه يجدر به الصعود إلى الأعلى وارتداء شيء آخر سوى سروال الاستحمام والتي شيرت،

(1) Cold Warrior: اسم يطلق أولئك الذين كانوا يرسمون السياسات ويطبقونها خلال الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتي سابقاً والولايات المتحدة الأمريكية.

وقال الكولونيل: «سكيب، لديّ أخبار سيئة».

«تبدو أقرب إلى الأخبار الطيبة».

«أجل، هذا هو، هذا رجلنا».

«هذه أخبار جيدة».

«لا. أجل»، قال الكولونيل، «الآن سكيب، لقد توفيت أمك. بياتريس. بيا».

صدمه الخبر كضربة على الصدر. إلا أن معناه فاته تماماً.

«اللعنة ماذا؟»، قال سكيب.

«التوقيت رهيب، والبرقية عمرها ثلاثة أيام».

«لا، لا أصدق ذلك».

«سكيب، اجلس. فلنجلس». جلسا على الدرجة الغرانيت الباردة المحتوتة. مدّ عمه يده إلى جيب سترته بيده اليمنى، ووضع اليسرى على كتف سكيب الأيمن. الآن سكيب أمسك بيده ورقة صفراء شاحبة. كلما استذكر لاحقاً هذه اللحظة لم يستطع حذف هذه التفاصيل، كانت تفرض نفسها عليه.

قال الكولونيل: «سأعود مع شراب»، وتركه وحيداً مع البرقية. قرأها مرات عدة. فيها يشرح قس أمه أنها توفيت بسبب تعقيدات تبعت عملية روتينية جذرية لاستئصال الرحم. أياً كان ما يعنيه ذلك. قدم له القس تعازيه وفوق كل شيء صلواته.

عاد الكولونيل يحمل كأساً.

«عملية روتينية جذرية»، قال سكيب، «ما رأيك بهذا».

«خذ رجاء. خذ. تحتاج إلى جرعة قوية».

«يا إلهي، حسناً».

وقف عمه قربه ماداً الكأس نحوه، لكن سكيب لم يستطع أخذه، باسطاً راحتيه إلى الأعلى وفيهما البرقية أشبه بكومة رماد كبيرة «سوف تفوتني الجنازة».

«هذه أمور سيئة».

«آمل أن يكون أحدهم هناك».

«كانت امرأة صالحة. أنا واثق من أن لديها الكثير من المعزين».

شرب الكولونيل نصف الكأس الذي أحضره لابن أخيه «وصلت البرقية قبل ثلاثة أيام. كنت في كاو فوك. اتصلوا بي عبر اللاسلكي وأخبروني أن برقية وصلت، وأردت أن أتصل بأحدهم لكي يخبرني بمضمونها، لكنني أخفقت في جعل ذلك أولوية - ثمة الكثير من البرقيات، وعلى الأرجح معظمها تافه كما تعرف... وبكل صدق يا سكيب كنت مشتت البال».

«حسناً، لا، لا داعي لأن.. أنت تعرف».

«لقد انتهى كل شيء. لم يعد هناك إيكو. بفضل جوني بروستر، على الأرجح. لكن ربما لا. كل ما أعرفه أنهم سوف يزيحوننا من الدرب لكي يتمكنوا من تدمير المكان بالكامل».

«يا إلهي».

«أعتذر على التأخر. حين عدت قال ترانج إنه مستعد للتحرك. وسط المشاعر الجياشة المتعلقة بخسارة كاو فوك. كدت أنسى أمره كلياً».

«الجنازة بعد غد».

«اذهب إذا كنت تشعر أنه عليك ذلك».

«من الواضح أنني لا أستطيع».

«الجماعة في الديار يتفهمون الأمر. يعرفون أنك تخوض حرباً».

«أيمكنني الحصول على كأسي؟».

«أوه اللعنة».

غبّ سكيب الكأس دفعة واحدة.

«سكيب سوف أتركك بضع دقائق لكي تستجمع شتات نفسك. ثم سوف تحتاج إلى العودة جاهزاً للقيام بعملك».

«أعرف، يا إلهي، كلا الأمرين في يوم واحد».

«أنا آسف، لكن هكذا جرت الأمور».

«بالتأكيد، سوف آتي».

أخذ سكيب ينظر إلى الطريق وراء البوابة. غير مفكر في أمه على الإطلاق. افترض أنه سيفكر بها لاحقاً. لم يستطع أن يتنبأ بترتيب هذه الأحداث العاطفية، فأمه لم تمت من قبل. ولا أحد آخر مقرب منه. أما والده فتوفي قبل أن يتمكن من تذكره. عمه فرانسيس فقد ابناً شاباً، غرق أثناء الإبحار قبالة «كايب كود»، هذا إذا استثنينا كل الرفاق الذين سقطوا في الحرب. سكيب نفسه شاهد عمه يقتل رجلاً معلقاً من غصن شجرة. خمّن ماذا؟ الناس يموتون. تمنى لو أنه لا يضطر إلى عيش هذه اللحظة بمفرده. كان ذلك بلا جدوى. سرّ عندما عاد عمه وجلس بجانبه.

«حسناً عماه. أنا ابن أخيك اليتيم».

«بياتريس كانت زوجة رائعة لشقيقي. لم أفكر في الأمر من قبل يا سكيب، لكن لابدّ من أنه مات في خضم سعادته. كانت حياته قصيرة لكنها جعلتها سعيدة جداً».

«لقد قتلوها. القتلة».

«لا، لا، لا. إنهم يجيدون عملهم. لقد رأيت ما يمكنهم فعله. تأخذ لهم جندي مشاة مقطعاً أشلاء، وبعد سنة تجده جاهزاً للاستعراض العسكري».

طوى سكيب البرقية مرة ثم مرة أخرى لكنه لم يستطع أن يختار في أي جيب يضعها. فرماها على الطريق.

«أتعرف ماذا؟ كان والدك يعرف ما هي الأمور المهمة. تزوج باكراً. لم يكن مثل بقيتنا. اللعنة، في عائلتنا ولا واحد منا يشبه بقيتنا. طولي خمسة أقدام وثماني بوصات مع الحذاء. عمك راي ستة أقدام وأربع بوصات».

«أهو الذي يكبرك مباشرة؟».

«راي؟ يصغرني بعامين وثلاثة أشهر».

«أوه».

«ما أريد قوله هو أن لك عائلة. لست يتيماً. أظن أن هذا ما أقصد قوله».

«شكراً لك».

«أعني ذلك. لكنك تعرف ذلك. لطالما كنت تعرف. الآن اسمع، إنها أمور سيئة، والتوقيت رهيب...».

«سأكون بخير... فلندخل».

قال السيد سكيب إن القس المحلي ربما يعرف أين يباع نوع معين من لحاء الشجر المسحوق الذي أرادت كيم أن تخمر منه شاياً علاجياً. هذه الأيام تبدو بصحة جيدة. غير أن الأعشاب والعقاقير ما زالت تبهجها. هاو وابن أخت زوجته تركا الأمريكيين وذهبا بحثاً عن منزل القس، سالكين الدرب المحاذي للغدير مسافة مئتي متر فحسب، مارين وراء سلسلة من الأفنية الصغيرة، كل واحد مع نصب أو اثنين أو ثلاثة تغطي أضرحة العائلة ودخلا إلى الفناء الخلفي لكنيسة كاثوليكية.

في المنازل على امتداد الغدير نسوة عجائز يسلقن أرز اليوم فوق الفحم أو الحطب، لكن لا دخان يتصاعد من منزل القس. اضطر مينه إلى الصفير مرتين. خرج الرجل القصير من خلف المنزل حافي القدمين، مبكلاً حزامه، ومزرراً قميصه الأمريكي الطرز طويل الذيل الذي يصل تقريباً إلى ركبتيه.

استاء هاو من عثورهما عليه في البيت. كان يريد فقط أن يكلم ابن أخت زوجته عن تجارة العائلة.

«أجل أعرفك»، قال القس عندما شرع هاو يعرّفه على نفسه، وشرح له هاو أنه يحتاج إلى الأعشاب من أجل زوجته، وأيضاً، ربما شيئاً ما لألم الأسنان.

«أستطيع أن أدلك على الطريق، لكن لا يمكنني مرافقتك».

«هذا جيد».

«لن أخرج اليوم»، قال القس، «سأبقى في البيت. رأيت حلماً مهماً».

سأله مينه: «هل يقول لك الحلم بأن تبقى في البيت اليوم؟».

«لا، أريد فحسب أن أكون ساكناً وأن أتذكر وأفهم».

تمنى هاو لو لم يكن مضطراً إلى التكلم مع أمثال هؤلاءالناس. لكن زوجته – أشباح، أحلام، عقاقير، شتى أنواع الهراء. وها هو إذن «أتعرف عن محضّر عقاقير طبيعية أم لا؟».

«خذ الطريق شمالاً إلى خارج البلدة. وحين تصل إلى الكفر الصغير، اسأل عن عائلة صينية. ليسوا صينيين حقاً»، أضاف.

«شكراً لك».

عادا إلى الفيلا على الطريق. قرر هاو أن هذا السعي وراء العلاجات الزائفة سينتهي هنا. لا مساحيق سحرية لكيم. سوف يختلق كذبة. «لا يهم»، قال لمينه، «لقد أردت أن أتكلم إليك فحسب. لم نرك منذ أسابيع. ثلاثة أشهر على الأقل».

«عذراً عمي:، قال مينه، «إنني عبد الجنرال. لا أستطيع الإفلات».

«وآخر مرة زرتنا فيها لم تبق حتى لتناول الشاي. لم تأت إلى المدينة من أجلنا، بل لرؤية حبيبتك تلك».

«الأمر صعب عمي».

«طلبت من الكولونيل أن يأتي بك إلى بيتي اليوم، وإلا لما كنت أتيت على الأرجح».

«والكولونيل جاء بي إلى هنا».

«هل الأمر غير ملائم إلى هذه الدرجة؟».

«إنها رحلة. قد لا آتي بالضرورة، لكنني أحب أن أراك، ومن الجيد رؤية الكولونيل».

«ثمة مشكلة مع شقيق زوجتي، هاي».

«أعرف بشأنها، خالي هاي».

«إنها مستحيلة. هل لديك أسلحة في مروحيتك؟».

«إنها مروحية الجنرال فان».

«أيّ نوع من الأسلحة؟».

«رشاش مدفعي واحد».

«أريدك أن تهاجم البيت».

«بيت العم هاي؟».

«ليس بيته. إنه بيتي. وهو مدين لي بإيجار أحد عشر عاماً».

«تريدني أن أقصف البيت؟»، قال مينه، لافظاً كلمة «أقصف» بالإنجليزية.

«لا»، أجاب هاو بالإنجليزية، «لا أن تقصفه، لا أن تقصفه، بل أن تدمره».

«مع كل حبي واحترامي عمي، لكن هذه ليست فكرة جيدة».

«أنت ترى مقدار غضبي».

«أرى».

«إذن عد إلى لاب فانج. تكلم إلى خالك هاي، وأخبره بمقدار غضبي. هل ستذهب إلى البيت على التيت؟».

«لا، لا أستطيع. سوف أذهب إلى عيد ميلاد زوجة خالي».

«زوجته؟».

«في مارس».

«متى تحديداً؟».

«في الثامن عشر من مارس».

«كلمه رجاء».

«إنه رجل عنيد. لا أريد أن أفسد عيد ميلاد العمة جيانج».

«أفسده، لا يهمني. أنت ترى مقدار غضبي».

وصلا إلى البوابة الحديد المنخفضة للفيلا الكبيرة التي في داخلها صديقه القديم ترانج المحاط بالأمريكيين، يقامر بتهور بمستقبله. إذن. لطالما كان ترانج جدياً. هاو لم يصدقه يوماً.

في الداخل كان الكولونيل يتكلم، جالساً على أريكة بجوار ترانج مع فنجان شاي بيد ويده الأخرى ملقاة على كتف ترانج. لم ير هاو الكولونيل كثيراً مؤخراً، وعلى أية حال كان جزءاً منه الآن. على الجانب الآخر من ترانج جلس جيمي ستورم، شابكاً ذراعيه على صدره وواضعاً رجلاً على رجل، وكأن أحدهم ربطه هكذا وتركه بلا حول ولا قوة. بيد أن ترانج بدا مرتاحاً تماماً.

جلس هاو ومينه على كرسيين في الحدّ الفاصل بين غرفة المعيشة والمكتب، ليس في الداخل تماماً ولا في خارج المجموعة تماماً. توقف الكولونيل عن التكلم إلى سكيب لكي يقاطع نفسه قائلاً: «إنهما عائلتان تساعد واحدتهما الأخرى. في النهاية الأمر كله يتعلق بالعائلة. ألديك عائلة سيد ترانج؟».

بدا ترانج مرتبكاً وترجم هاو.

قال ترانج لهاو: «لي أخت في بن تري. أمي توفيت منذ زمن طويل. كما تذكر».

تكلم هاو بالفييتنامية «زوجة شقيق الكولونيل توفيت قبل بضعة أيام. والدة ابن شقيقه الموجود هنا».

«هذا الرجل معنا الآن؟».

أومأ هاو مرة.

«يبدو أن له عائلة»، قال الكولونيل.

قال هاو له إن ترانج له أخت واحدة لم يرها منذ سنوات عديدة.

ربت الكويونيل كتف ترانج. «هذا الرجل هو الجيد. لقد كان في المجال منذ العام 46. أكثر من عشرين عاماً».

لم يقل السيد جيمي كلمة. ولم يرتح هاو للطريقة التي يحملق بها.

قال ترانج: «والدة هذا الشاب توفيت لتوها؟».

«عمه جاء بالرسالة هذا الصباح».

«رجاء أبلغه تعازيّ».

إلا أن الكولونيل كان يخاطب سكيب: «ما أريدك أن تفهمه أكثر من أي شيء آخر هو أنك لا تدير هذا الرجل. بمعنى من المعاني إنك حتى لا تجمع المعلومات. وقطعاً لا تستجوب. قطعاً لا. فقط أدّ دور الاسفنجة».

«أفهم سيدي».

«إذا اعتبرت أنك تتعلم فحسب، وأنك تحصل على القصة بصورة عامة فقط، فسنكون جميعاً في حال أفضل».

«حسناً».

«ولا أريدك أن تبذل جهداً في أي خيال مستفيض، أيضاً. أياً كان ما يسألك إياه أريدك أن تكون صادقاً تماماً معه، ما دمت متأكداً أنه لا يبحث عن المعلومات».

«حسناً».

«لكن أعني، إذا سألك عن خلفيتك، عائلتك، حياتك، كل شيء، أخبره كل شيء».

«جيد جداً».

«ماذا يقول؟»، سأل ترانج هاو.

«إنه يعطيه التعليمات. طلب من أخيه أن يكون صادقاً معك».

«هلا قلت نيابة عني أنني ممتن؟».

أراد هاو أن يصرخ: إنني أكذب عليكم جميعاً.

«أنتما الاثنان ستضطران إلى إيجاد القواسم المشتركة بينكما» قال الكولونيل لسكيب.

قال سكيب: «سوف نتفق».

في طريق العودة إلى سايغون، ركب مينه في المقعد الخلفي مع جيمي ستورم. لم يعرف لمذا طُلب إليه مرافقتهم. لأنهما كانا عائلتين تساعد واحدتهما الأخرى، فهم هذا، ومع ذلك، لم يلعب أيّ دور. قبل شهر واحد فحسب كان ليكره هذا الوقت خارج إجازته، لكن الآنسة كام، عشيقته – والدها صار بارداً تجاه مينه، وأقفل باب البيت في وجهه، ورفضت هي التقاءه سراً. من الواضح أن الأب اعتمد على تزويج عائلته لثروة العم هاو. لابدّ من أنه عرف أنه لا وجود للثروة.

مشكلات العم هاو سلبته التفكير السليم. ذلك الانهمام بالبيت في ميكونغ والإيجار الذي يعرف قطعاً أنه لن يراه يوماً، وفكرة أن يقتل مينه الزمرة كلها، كل هذا كان بالغ السخف. في الأُثناء لم يأت هاو حتى على ذكر الكولونيل، ولاسيما على التغير فيه. كان الكولونيل شاحباً، يتنفس بصعوبة، ويتجرع طوال الصباح البوشميل بدلاً من ازدراده، ويحمل الكأس بأصابعه بدلاً من الإمساك به بقبضته. وجيمي ستورم بقي على غير عادته صامتاً بغير قصد، أو ربما ادّعى ذلك، في ظلّ وحدة الكولونيل المتعمقة.

مينه نفسه لم ير الكولونيل كثيراً منذ إعادة مروحية C&C إلى القوات الجوية الفييتنامية، ومعها مينه الذي بقي طيارها. باستثناء المدفع الرشاش عيار 30 ملم الذي يريده العم هاو أن يشن به هجوماً على عائلته، لم يكن في الطائرة أي أسلحة هجومية؛ وفّرت عليه المعارك وبقي بمثابة سيارة أجرة جوية، الآن تحت إمرة الجنرال فان الذي أعطاه إجازة أسبوع غير مسبوقة. أحسّ بالامتنان، لكنه رأى هذه المرونة كجزء من نمط جديد. موقف العسكر تغير. لم يعجبه ذلك. لقد خبت النيران.

«هاو»، قال الكولونيل، «أوقف السيارة».

كانوا قد وصلوا إلى الطريق 22. أوقف هاو السيارة جانباً وترجل منها الكولونيل لكي يبول، كما افترض مينه.

لكنه وقف فحسب قرب المركبة، مركزاً، كما بدا، على غيمة وحيدة في السماء فوقهم مثل قمر صغير نحيف ربما على بعد عشرات الكيلومترات، ربما فوق بحر الصين، الذي كان مرئياً من قبلهم. تحرك الكولونيل إلى مقدم السيارة، واضعاً براجم إحدى يديه على غطائها، ويده اليمنى على وركه، وانتظر في منظر التربة البنية، التي كانت في السابق أدغالاً كثيفة وحقول أرز، وباتت الآن ركاماً مسمماً، لا شيء سوى هياكل عظمية وتشقّقات، وراح يحملق في الغيمة وكأنه يحاول التأثير على حركتها، محملقا بها حتى يمضي بها مسارها جنوباً خارج دربهم.

عاد إلى السيارة «حسناً انطلق».

بقي الآخرون صامتين، بمن فيهم الرقيب. كان مينه قد أحس مرة بالتآلف مع إيقاعات الرفيقين. فاستشعر مسافة فارغة حيث يفترض أن يقوم ستورم بتعليق جاف، أو بإلقاء إحدى دعاباته.

أدرك سكيب أنه بالغ في التحضير. ما الذي بقي له خلال العامين الماضيين سوى أن يحفظ متاهات الشك ومقالة جي بي ديمر «ملحوظات حول العميل المزدوج؟».

«بناء على التجربة»، حذر ديمر قارئه، فإن بعض الناس الذين يضطلعون بدور العميل المزدوج - ربما الأغلبية من الراغبين بذلك، في حقيقة الأمر، لديهم عددا من السمات المشتركة... يصف المحللون النفسيون مثل هؤلاء الأشخاص بالتخاطريين.

إنهم هادئون بصورة غير اعتيادية وثابتون تحت الضغط لكنهم لا يتحملون الرتابة أو الضجر.

لا يشكلون علاقات عاطفية دائمة وعميقة مع الأناس الآخرين لأن موقفهم

تجاههم استغلالي.

يتمتعون بذكاء فوق المعدل الاعتيادي. وهم متحدثون جيدون - أحياناً بلغتين أو أكثر.

إنهم شكاكون وحتى ساخرون حول دوافع الآخرين وقدراتهم إلا أنهم لديهم تقديرات مبالغ بها حول قدراتهم الخاصة.

يتقرّر الاعتماد عليهم كعملاء إلى حدّ كبير بناء على مدى توافق تعليمات الضابط المسؤول عن حالتهم مع ما يعتبرونه أفضل مصالحهم.

إنهم طموحون فقط بالمعنى قصير المدى: يريدون أكثر ويريدونه الآن. ليس لديهم الصبر لكي يكدحوا من أجل مكافأة بعيدة.

إنهم بطبيعتهم سريون ويتمتعون بالسرية والخداع بحد ذاتهما.

العميل المزدوج الذي لم يقابل جي بي ديمر قطّ قال لساندز: «هذا الشاي شهي. أحبه قوياً».

حمل سكيب معجمين من مكتبته ووضعهما على منضدة القهوة. افترض أن هذا الرجل انتظر تعليمات لا يمكنه إعطاءها له، في حين أنه هو، سكيب، الضابط الميداني، ماذا يريد؟ أن يتوقف عن الانتظار. أن يخدم. أن يجعل نفسه لا يستغنى عنه في استثمار هذا الرجل ضدّ شعبه. أن يعرف هذا الرجل، وعمه كان محقاً، لن تدخل إلى عقل الخائن بثلاثين سؤال نعم ولا وثلاثة خطوط تتعرّج على جهاز كشف الكذب. الأفضل التخبط والتراجع والضياع، القواميس ثنائية اللغة والأهداف غير المتناسبة. وحتى مع هذه الصعوبات ومع إحراقه كل الجسور خلفه، فإن هذا الترانج أحب الشاي الذي قدمه له، وسمح لنفسه بأن يكون مفتوناً تماماً بحلوى السيدة ديو، واستمتع بتعرفه إلى السيد بوكيت وأوصى بتحميص الكلب على سفود بدلاً من سلقه مقطعاً. ليس من نظرات مراوغة، ولا من توتر في الأصابع، لا شيء من هذا القبيل. أين هو يوضاس؟ بدأ سكيب يتساءل إن لم

يكن هذا ربما مجرد أحد جيران هاو، الذي جاء إلى هنا بسبب سوء تواصل غريب. العميل المزدوج لا يجيد إلا القليل من الإنجليزية، ومعرفة سكيب بالفييتنامية كانت ببساطة غير مناسبة. وكلاهما تكلم الفرنسية بأقل من الذرابة الفعلية. باللغات الثلاث معاً قد يحرزان تقدماً منعرجاً نحو فهم واحدهما الآخر.

«في الولايات المتحدة لا نأكل الكلاب. الكلاب صديقتنا».

«لكنك لست في الولايات المتحدة الآن. هذه فييتنام. أنت بعيد عن الديار وهذا يوم حزين. سيد سكيب، إنني حزين جداً من أجلك. أتمنى لو أنني جئت في يوم آخر».

«أعرفت أن أمي توفيت؟».

«صديقي هاو شرح لي. إنني حزين جداً من أجلك».

«شكراً لك».

«كم كان عمرها؟».

«اثنان وخمسون عاماً».

«عدت من الشمال في 1964. بعد عشر سنوات في ذلك المكان. كانت الرحلة إلى الديار شاقة جداً. طوال الطريق فكرت بأمي، وحبي لها استيقظ ثانية بقوة. تذكرت الكثير من الأشياء المتعلقة بها التي لم أكن أعرف أنني أتذكرها. حزنت كثيراً حين فكرت أنني سأجدها أكبر سناً عندما أعود إليها. أردت أن تكون أمي شابة ثانية. لكن حين وصلت إلى بن تري كانت قد توفيت منذ ستة أشهر. عاشت تقريباً حتى الستين. كان اسمها داو، وهو نوع من الزهور. فقطفت زهور الداو من أجل نصبها».

«ألديك زوجة؟ أطفال؟».

«لا، لا أحد».

«ماذا عن والدك؟».

«توفي في صغري. قتله الفرنسيون».

«والدي أيضاً. قتله اليابانيون».

«ألك زوجة؟ بعض الأطفال؟».

«ليس بعد».

«إذن الأمر صعب جداً. أرى ذلك. صعب جداً حين يرحل الوالد الثاني. كيف توفيت أمك؟».

«لست أكيداً. جراحة ما كانت سيئة العواقب. ماذا عن أمك؟».

«مرض. قالت أختي إن مرضها استمر أربعة أشهر. ماتت والدتنا بينما كنت أنا نفسي مريضاً جداً وتوقفت على الطريق من الشمال. أصبت بالحمى. ليس مثل الملاريا. شيء مختلف. ارتميت على أرجوحة شبكية طوال أسبوعين. جاء رفاق مرضى آخرون وعلقوا أراجيحهم في المكان نفسه واستلقوا هناك من دون أن يقدّم لنا أحد يد العون. بعد بضعة أيام بعض الأراجيح حملت جثثاً. نجوت من مرضي وانتظرت لكي أتحسس بيدي أمي حولي. حزنت كثيراً حين وجدتها قد توفيت، لكن في تلك الأيام كنت قوياً وشغفي بالقضية كان أكبر بكثير من حزني. أرسلت إلى كاو فوك، حيث كانت إحدى مهماتي اغتيال عمك. لكنني لم أقتله. أخفقت متفجرتي. ألست مسروراً؟».

«كثيراً».

«لو أنها انفجرت لقتل صديقي هاو أيضاً. لكن القضية عنت لي أكثر من هاو. كنت قد خسرت الكثير من رفاقي. كلما دفنت صديقاً تكسب عدواً. هذا يدعوك بعمق أكبر إلى القضية. ثم يأتي الوقت عندما تقتل صديقك. وهذا قد يأخذك بعيداً عن القضية. ويمكن أن تكون له نتيجة معاكسة أيضاً - أن يصم أذنيك تجاه صوتك الخاص عندما يريد أن يطرح الأسئلة».

«وأنت بدأت بطرح الأسئلة. أهذا ما جاء بك إلينا؟».

«كانت لديّ أسئلة منذ البداية لكنني لم أعرها آذاناً صاغية».

«ما الذي تغير بالنسبة إليك يا ترانج؟».

«لا أعرف، ربما موت أبي. بالنسبة إلى رجل لا أطفال له من صلبه، هذا تغير كبير. ثم يحين وقت موتك الخاص. يمكن أن يأتي في أي وقت، حتى قبل موت جسدك».

«ما الذي تعنيه بالضبط؟ لا أظن أنني فهمت قصدك؟».

«ربما لا تريد أن تفهمه».

خلال العشاء، عندما أبقى ضيفه الفييتنامي القذر كلامه بالحدّ الأدنى، تأمل سكيب بيئته من جديد - متسائلاً ما الذي يراه الزائر - خشب ماهاغوني قديم جيد، وأثاث من الخيزران، وباب أمامي ضخم في حين أن البيوت في هذه المنطقة تكون عادة بلا أبواب، تحميه ليلاً بوابة حديدية، وجدران من الجص مزينة برسوم على خشب مصقول، مشاهد رعوية بالريشة: مشاهد داخلية صامتة مع أشجار جوز الهند في عالم بلا روح لتتمزّق فيه. السيدة ديو قدمت مرق النودل باللحم، والخضروات، والأرز المطبوخ على البخار. هذا الصباح أضافت باقات صغيرة إنما مفاجئة من الزهور في أرجاء البيت. أدرك سكيب أنها تفعل ذلك يومياً. بالكاد لاحظ ذلك قبلاً. هي والسيد ثو يعيشان أعلى النهر من الفيلا في كوخ محاط بأشجار النخيل والفرنجيباني ذات الزهور البيضاء... في مرحلة ما غطى العميل المزدوج فمه بيده وتثاءب.

«تشعر بالنعاس؟».

«ليس بعد. أين سأنام؟».

«لدي غرفة جاهزة في الأعلى».

«لا يهم، في أي مكان».

«ليست بالعظيمة».

حينئذ أعلن ترانج أنه يريد مسدساً أو يحمل واحداً.

«عذراً؟».

قال ذلك ثانية، بالفرنسية، «ألديك مسدس لي؟».

«لا، لا شيء من هذا القبيل».

أعاده هذا الطلب إلى الوضع القائم. توقف عن التفكير بالرجل بوصفه أياً كان على وجه الخصوص. إنه ضيف، شخص يستحق حسن الضيافة، ولا شيء آخر.

«للحماية فحسب».

«لن تحتاج إلى حماية. أنت بأمان هنا».

«حسناً، أصدقك».

كتحلية قدّمت السيدة ديو الكاسترد بالبيض. أخرج ترانغ وسكيب القاموسين «عذراً على ضعف لغتي الفييتنامية، لقد درست، إلا أنني بالكاد أفهم كلمة مما تقول».

«يقول لي الناس إنني بتّ أتكلم بلكنة شمالية. لكنني لم ألتقط الكثير سوى ذلك من هناك. في الشمال نحن الجنوبيون نبقى معاً. لدينا نمط عيش هنا. وهو مختلف عن نمط العيش هناك في الأعلى».

قال سكيب: «هذا ينطبق على بلدنا أيضاً».

«كيف هم الجنوبيون في بلدك؟».

«إنهم مشهورون بكرمهم الشديد وببطئهم في التكلم. بين عائلاتهم وأصدقائهم هم شديدو الانفتاح عاطفياً. أما في الشمال فيعتقد أننا أكثر تحفظاً، أكثر حذراً، نعطي الأقل من أنفسنا. هذا ما يعرف عنا. لكن ثمة استثناءات. مسقط رأس الإنسان يمكنه أن يخبرك بكل شيء. وكما تعرف، كانت لدينا حرب أهلية أيضاً. الشمال ضدّ الجنوب».

«أجل، نعرف تاريخكم. ندرس تاريخكم، ورواياتكم، وأشعاركم».

«حقاً؟».

«بالطبع. حتى قبل أن يأتي جيشكم إلى فييتنام، كان الأمريكيون مهمين في العالم. أهم أمة رأسمالية في العالم. أنا أحب إدجار ألن بو كثيراً».

تالياً تكلما عن غلطة الحرب، من دون ذكر غلطة من هي. «في فييتنام»، قال

ترانج، «لدينا النموذج الكونفوشيوسي لأزمنة الاستقرار - للحكمة، والسلوك الاجتماعي، وهكذا دواليك. ولدينا النموذج البوذي لأزمنة المآسي والحرب - لقبول الحقائق، وللاحتفاظ بفردية التفكير».

«أجل، سمعت بذلك».

«لن تتوقف الحرب يوماً».

«لكن عليها أن تتوقف».

«لا أستطيع أن أتوقع رؤية النهاية. أريد الذهاب إلى أمريكا».

«نفهم ذلك. ويمكن تدبيره». تخيل رجله واقفاً على ناصية شارع في سان فرانسيسكو، منتظراً أن تضيء إشارة «امشِ». بعض زملاء دراسة سكيب في الطفولة انحدروا من آباء مهاجرين، غالبيتهم من الإسكندنافيين. وقد زار منازلهم الخانقة، شعر باختناق رئتيه في الروائح الغريبة، ونظر إلى الحلى الصغيرة التي لا يمكن تخيلها والصور الفوتوغرافية القديمة لعسكريين تبرز أرياش وراء قبعاتهم عديمة الحواف لبزاتهم العسكرية، وسمع الأهل يتخبطون في قواعد اللغة ويرمون كلمات صغيرة، يلفظونها بثقل وبجدية، كل ما يتعلق بهم يمثل جهداً بالنسبة لأولادهم، الذين تحملوا آباءهم بصمت وهرعوا متجاوزين مواعظ أمهاتهم، «أجل أماه، أجل، طيب أماه، يجب أن أذهب ماما». بطبيعة الحال في عمره نسي سكيب أولئك البالغين، أبطال المغامرة العنيدة، عابري المحيطات، المنفيين. على الجانب الآخر، الطفل الذي من أجله جازفوا بحيواتهم يرفع كميه ضيقين أعلى ذراعيه، ويصفف شعره إلى الخلف بمصفف شعر «ويلدروت»، ويكذب بشأن الفتيات، ويجرى العمليات الجراحية على المفرقعات وكرات الجولف والقطط الميتة، ويقذف البصاق السميك على عواميد الإنارة، ويضحك كالأمريكيين، ويشتم من دون لكنة. إلا أن صديقه المفضّل في الصف السابع، ريكي ساش الليتواني - على الأرجح من «ساز»، إذ يتذكر ذلك الآن، كان يقول «رجاء»، و«شكراً لك»، بقدر ما يقول، «اللعنة عليك»، ويعقد شريط حذائه بعقدة

مزدوجة كبيرة. لا شيء آخر يكشف أمره. بالنسبة إلى الآسيويين لم يكن الأمر بهذه السهولة. «بالطبع»، قال سكيب، «لقد تساءلنا عن دوافعك».

«أتريدون سبباً عملياً؟».

«أيمكنك إعطائي واحداً؟».

«لا».

«أنت تفهم: بالنسبة إلينا، هذا سؤال مهم».

«تحتاج إلى شيء بسيط. تحتاج إلى سماعي أقول إنني سرقت بعض تمويلات الحزب الشيوعي أو إنني مغروم بامرأة محرّمة عليّ وعلينا أن نهرب».

«شيء من هذا القبيل».

«لا شيء من هذا القبيل».

«أيمكنك أن تخبرني؟».

«مع كل حركة أقوم بها في خيانة رفاقي وقضيتي، أشعر بألم في روحي، إلا أنه ألم العودة إلى الحياة».

أيعبر هذا الكلام عن التشظيات الحادة لقلب ممزق، أم عن مياه المجاري السامية؟

«ترانج، تقول إنك تريد أمريكا. لكنك تقول إنك ستذهب شمالاً».

«الشمال أولاً. ثم أمريكا. أعرف طريقاً إلى الشمال».

«ذكر الكولونيل أنك عملت مع البدائيين».

«بعض الفتية من با دين. هذا صحيح. كان ثمة برنامج لتجنيد القبائل أو على الأقل تلقينهم. لا أعرف ماذا حصل للبرنامج. ثمة الكثير من الجهد المهدور. والموت عديم الجدوى».

«الكولونيل مهتم بأمثال هؤلاء».

«هذا صحيح، يريدني أن أرافق مجموعة إلى الشمال ثانية».

«لمَ قد ترغب بالعودة إلى الشمال؟».

«السؤال هو لماذا لم أخرج قبل اثني عشر عاماً، عندما ذهبت إلى الشمال وكرهت المكان هناك؟ في العام 1954 بقي بعض الناس في الجنوب لأنهم عرفوا أن الحزب لا يتوقع حدوث شيء في غضون العامين المقبلين، لا انتخابات، ولا لمّ شمل. أما بقيتنا فلم يكونوا بهذا الذكاء. فركبنا السفن إلى الشمال والأمل نصب عيوننا، ولم نر شيئاً. ساقونا إلى الشمال لكي يجعلوننا ننسى ديارنا وعائلاتنا وأرضنا الحقيقية. لكن ما حدث أن ذاكرتي ازدادت صفاء فحسب. تذكرت التربة الحمراء في بين تري، لا تلك الصفراء في الشمال. تذكرت أيام الجنوب الدافئة، لا ليالي الشمال المصقعة. تذكرت السعادة في قريتي، لا التنافس والسرقة في الكولخوز. حياة العائلة، حياة القرية، هذه هي الحياة الجماعية، لا الكولخوز. لا يمكنك رمي الناس معاً ومنعهم من المغادرة والقول لهم إنهم مجتمع متحد عبر العقيدة. حسبت أن ماركس سيعيد إلينا عائلاتنا وقرانا. هذا لأنني فكرت فحسب في النهاية التي تكلم عنها ماركس: لا أعرف الإنجليزية أو الفرنسية، إلا أنه يقول إنه في نهاية المستقبل الدولة هي مثل عريشة ستموت وتسقط. هذا ما توقعته. أتعرف ماركس؟ أتعرف عبارته هذه؟».

«أعرف الإنجليزية». تصفحا القواميس معاً واستخرج ساندز تعبيراً بديلاً هو «ذبول الدولة».

«أجل، ذبول الدولة. وعندما تذبل، فإنها تترك عائلتي وقريتي. هذا ما رأيته في نهاية المستقبل: رحيل الفرنسيين، رحيل الأمريكيين، رحيل الشيوعيين، عودة قريتي، عودة عائلتي. إلا أنهم كذبوا علينا».

«متى أدركت أنهم كذبوا؟».

«بعيد عودتي من الشمال. لكن هذا لم يهمني وقتذاك. كان الأمريكيون هنا. علينا أولاً أن نتعامل معهم، ثم يمكننا التعامل مع الحقيقة. كنت مخطئاً. الحقيقة هي الأهم. الحقيقة أولاً. دائماً الحقيقة. كل شيء آخر ينبع من الحقيقة».

«أوافق. لكن عن أيّ حقيقة تتكلم؟».

«يصف بوذا الحقائق الأربع: دوكا، سامودايا، نيرودا، ماجا. الحياة معاناة. المعاناة تأتي من التعلق. يمكن الانعتاق من التعلق. الدرب الثمانيّ يؤدي إلى هذا الانعتاق».

«أتؤمن بذلك؟».

«ليس كله. يمكنني أن أخبرك فحسب عن خبرتي. أعرف من الخبرة أن الحياة معاناة، وأن المعاناة تنبع من تعلقنا بأشياء زائلة».

«حسناً، هذه حقائق. ما يمكن أن نسميه في أمريكا: حقائق الحياة».

«إذن ما هي الحقيقة بالنسبة إليكم في أمريكا؟».

«شيء أبعد من الوقائع. أفترض أننا نعتبر أن كلمة الرب هي الحقيقة».

«وما هي كلمة الرب لأمريكا؟».

«دعني أفكر»، وضع يده ثانية على القاموس الفرنسي الإنجليزي. إلا أنه شعر بالتعب. عشر دقائق من المحادثة جرتهما عبر مئات الكلمات في القاموس وتطلبت زهاء ساعتين. عرف الكلمة فحسب كما نقلتها بياتريس ساندز، أمه اللوثرية: الحياة، أرادت أن تقول له في اللحظات التي حوّلتها، اللحظات التي أشعرته بالحرج لأنه رآها كامرأة لا ترتقي إلى مستواهم، امرأة عالقة في حبال الغسيل في فناء مليء بالأعشاب الطويلة على سكة الحديد، ليست الحياة إلا طفولة خلودنا. أماه، الآن تعرفين إن كان ذلك صحيحاً. وأصلي للرب ألا تكوني مخطئة. أما بالنسبة إلى أمريكا، الحقوق غير القابلة للمصادرة، الحكم بالتراضي، الشهادات الجامعية، الجبال، الانتخابات، المقابر، الاستعراضات... «حسناً كل هذا يمكن النقاش حوله»، قال بالإنجليزية، «في أي لغة يمكن التجادل حول ذلك. غير أن الحقائق التي تسميها لا يمكن التجادل حولها. لكن ثمة شيء أبعد منها»، جرب بالفرنسية، «ثمة حقيقة، لكن لا يمكن قولها، إنها هنا».

«أجل، ليس من شيء آخر. هذا المكان، هذه اللحظة الآن».

«الآن أنا جدّ متعب سيد ثان».

«وأنا أيضاً سيد سكيب. هل أنجزنا ما فيه الكفاية اليوم؟».

«أنجزنا ما فيه الكفاية».

أخذ ترانج إلى الطابق الأعلى، عبر الرواق الصغير نفسه من غرفته،، في الغرفة المليئة بملفات الكولونيل، التي أمل أن العميل المزدوج سينام في وسطها نوماً عميقاً. أغفا سكيب، لكن ليس عميقاً. أفاق في الظلمة ونظر إلى الوقت على ساعته المضيئة: الثانية والربع. حلم بأمه بياتريس. التفاصيل تبخرت وهو يحاول تذكرها، وبقي حزنه فحسب، ونوع من الإثارة. كان كل شيء بالنسبة إليها. هذا يمكن أن يتوقف الآن. لا مزيد من طفل الأرملة الوحيد – ما إن ركب رحلة القطار الطويلة إلى بوسطن، نظر من السيارة وهي تمضي ببطء عبر المناظر في وسط البلد – شيكاغو؟ بوفالو؟ لكي يرى صبيين في الشارع خارج محل بقالة صغير، أو فتى في الثامنة أو التاسعة، مشعثين، متسخين، يدخنون السجائر، وافترض أنه لابدّ من أنهم يتامى. بعد ذلك، هذا ما كانه.

ثم سحقه الندم جسدياً، وأخذ الدم يضطرب في رأسه، كافح لكي يتنفس– لم يتصل بها، لم يراسلها، تركها تمضي إلى موتها على عربة مدولبة وحيدة في خوف وارتباك وسط غربي عاجز مهذب اعتذاري. طرح شبكة البعوض جانباً، وضع قدميه على الأرض، رفع كتفيه، رفع وجهه، وأخذ يتنفس في أنفاس صغيرة. ربما شراب ينفع.

دخل ترانج إلى الطابق الأعلى في البيت الكبير في حجرة تخزين مليئة بالصناديق، على سرير مصنوع من ألواح ممدودة بين صندوقين ومغطاة بقش التاتامي الياباني. ممثل السي آي آيه، أعطاه مصباحاً على الغاز، وكانت معه رواية واقعية إشتراكية بالفييتنامية لم يهتم بإنهائها ونسخة من «البؤساء» بالفرنسية. قرأها مرات كثيرة حتى لم تعد تثير اهتمامه. استلقى في الظلمة مستشعراً البيت حوله ومتسائلاً إذا ما

كان نام يوماً في مسكن بهذا الحجم، خارج معبد النجمة الجديدة في طفولته.

سمع الباب الآخر في الرواق يفتح. بالخطو الهادئ لقدميه الحافيتين عبر السيد سكيب أمام حجرة التخزين ونزل إلى الطابق السفلي.

ماذا الآن؟ الحزن، الأرق، اعتقد ترانج. أصوات من المطبخ - من الأفضل تركه وشأنه. فقد رحلت أمه.

أماه، ما زلت حزيناً على رحيلك.

اضطجع في الظلمة عشر دقائق ثم نهض وتبعه. في الأسفل وجد الأمريكي بالسروال القصير والكنزة الخفيفة، جالساً في المكتبة بجانب مصباح غاز يهسهس، وبيده كتاب، وكأس فيه ثلج بجانبه. «أحظيت بقسط من النوم؟».

«ليس بعد».

«إنني أتناول بعض الويسكي الأيرلندي. أتريد بعضاً منه».

«حسناً، سوف أجربه».

همّ السيد سكيب بالنهوض، ثم قال: «لدينا كؤوس في المطبخ»، ثم عاد إلى الكرسي.

حين وجد ترانج كأساً وعاد، كان الأمريكي يتصفح واحداً من كتب عباراته. مد يده إلى الأرض قرب كرسيه ورفع قنينة الويسكي. مدّ ترانج الكأس وسكب له قليلاً فيه.

«هل أشربه بسرعة أم ببطء؟».

«كيف تشرب براندي الأرز؟».

«بشيء من البطء»، قال ترانج، وارتشف من كأسه. فوّاح ودوائي، «إنه جيد جداً».

«اجلس رجاء».

جلس ترانج على الكرسي عند المكتب، بصورة جانبية.

قال السيد سكيب: «كنت أبحث عن اسمك»، أقفل كتاب عباراته.

«إنه يعني لون السماء، وهناك زهرة بهذا اللون أيضاً، بالاسم نفسه».

«لا أعرفها. أتعني زرقة السماء؟».

«أزرق كالسماء».

«وترانج تعني الولاء أليس كذلك؟».

«الولاء للبلد. من الطريف اليوم أنني أحمل هذا الاسم».

كانت المكتبة مليئة بالرفوف المليئة بالكتب. شبكة مشدودة غطت كلّ من النافذتين، وأيضاً الأطناف في الغرفة الرئيسية، والزخارف الحديدية في كل من جانبي الباب الخشبي إلى الخارج. ومع ذلك فالبعوض الصغير كان ينقض على المصباح ويموت.

«لديك الكثير من الكتب».

«ليست لي».

«من يعيش هنا؟».

«أنا وشبح فحسب».

«شبح من؟».

«المالك السابق. الرجل الذي بنى البيت».

«فهمت. ظننت أنك ربما تقصدني أنا».

أفرغ السيد سكيب كأسه وسكب المزيد من الويسكي فوق ما تبقى من الثلج. لم يتكلم.

«ربما كنت أتطفل».

«لا. أقدر هذه الصحبة».

أنهى الأمريكي كأسه «ظننت أنك ستكون يوضاس»، قال، «لكنك أقرب إلى المسيح».

«آمل أن يكون هذا جيداً».

«إنه ما هو. أتريد المزيد».

«سوف أنهي كأسي ببطء».

قال الأمريكي بالإنجليزية: «لقد ذهبت إلى هناك. أنت هناك، أليس كذلك؟ كيف هو أن تحمل روحين في جسد واحد؟ إنها الحقيقة، أليس كذلك. إنها ما نحن حقاً. بقيتنا هو مجرد نصف ما يجدر أن نكونه. أنت هناك، أنت هناك، لكنك قتلت أحدهم لكي تصل إلى هناك. لقد قتلت... ماذا»، ترانج لم يتمكن من متابعة ما يقوله.

والتنازل للحقيقة، التنازل الأخير، اليأس الذي يتحول إلى تحرر، أين الكلمة التي تعبر عن ذلك بين كل هذه الكتب؟

بصمت سكب الأمريكي كأساً آخر لنفسه وشربه ببطء. لم يغادر ترانج، وإن بدا جلياً أن الأمريكي غير راغب في المحادثة.

في الصباح التالي جاء صديقه هاو ثانية. قدّمت المرأة الفطور، وهو وسكيب وهاو تناولوا الطعام معاً، إلا أن ترانج استشعر بعض المتاعب.

سألهما السيد سكيب عن أيامهما في معبد النجمة الجديدة. أخبراه عن الأيام التي سرقا فيها البراندي خلال احتفالات التيت، وعن الضحك والغناء؛ ثلاثتهم يتصرفون كطلاب في تمرين على اللغة الأجنبية يدعى «الفطور مع أمريكي».

«ترانج، المكتبة كلها لك اليوم. يجب أن أذهب إلى سايغون في مهمة. سأعود قبيل الظهر يوم غد».

«سأبقى وحدي؟».

«إن لم يكن لديك مانع».

رافقهما ترانج إلى السيارة السوداء. استبقى هاو لدقيقة وسأله: «ما الخطب؟».

«اجتماع سريع فحسب».

«أخبرني».

«لا يمكنني. لا أعرف».

«لا شيء خطيراً؟».

«لا أظن ذلك».

سمعهما الأمريكي. واقفاً على الجانب الآخر من السيارة، تكلم عبر سطح السيارة الحار «لقد دعاني صديق إلى الغداء. زميل. أظن أنه يحسن بي أن أرى ماذا يريد».

«ربما ثمة مكان أكثر أمناً لي حتى تعود».

«لا، لا، لا، أحد يعرف أنك هنا».

«لكنهم يعرفون أنك هنا».

«هذه ليست مشكلة»، قال الأمريكي. ولم يصدقه ترانج.

استقلّ ديتريتش فست من الدائرة الخامسة في جهاز الأمن الفدرالي في ألمانيا الغربية، رحلة ليلية في المطار الوطني قرب واشنطن، دي سي، ولمدة ثماني عشرة ساعة لم يكن لديه ما يفعله سوى القراءة والنوم ولا شيء يفكر فيه سوى أزمة والده الصحية. سبعة، ثمانية أشهر، منذ رأى العجوز خارج المستشفى. المرارة؛ الكبد؛ القلب؛ سلسلة من النوبات القلبية الصغيرة؛ نزيف في الأمعاء مع فقدان الكثير من الدم وعمليات نقل دم؛ أنبوبة للتغذية في معدته؛ وآخر المستجدات فقر الدم. أبى العجوز أن يموت. لكنه سيموت. ربما يكون قد مات. ربما قبل قليل عندما نمت أرخيت رأسي ونمت. ربما الآن وأنا أنظر إلى كتاب أحجيات غبي. «كلود»، ناداه العجوز عندما زاره في أكتوبر - الأسلاك والأنابيب، تبرز من كل مكان فيه، عينان زرقاوان تشعان في الهواء، «انظروا إنه كلود»، قال للغرفة الفائحة بالبول، الفارغة سوى ذلك، وقال فست: «لا، هذا ديرك»، وأغمض والده عينيه.

عند الثالثة عصراً في التوقيت المحلي حطت طائرة فست في هونج كونج. أعطى

سائق سيارة الأجرة تعليمات غير دقيقة وأجبر، على بعد بضعة أحياء من فندقه، على الخروج من السيارة ومتابعة طريقه سيراً على الأقدام. حتى هذه المركبة الصغيرة كانت كبيرة جداً على تلك الشوارع الصغيرة. بهذه الحقيبة الوحيدة دخل فست زقاقاً مليئاً بالسلالم محتشداً بالدكاكين عديمة الأبواب، والتي لا تبيع إلا الخردة.

على طريق أوسع، أوقف دراجة أجرة وركب خلف شيخ نحيل يرتدي شيئاً يشبه الحفاض قاده سريعاً إلى الفندق، الذي كان يقع مباشرة بعد ثلاثة أبنية، مثلما كان يمكن أن يخبره الشيخ بسهولة. بعد دقيقتين من ركوبه الدراجة وصل فست. إشارة مطبوعة وراء قضبان مقود الدراجة سجلت عليها الأجرة الرسمية، ولرحلة قصيرة المسافة كهذه كان فست مديناً للرجل بأربعة أو خمسة من دولارات هونغ كونغ؛ إلا أن العجوز ضرب كفاً بكف وصاح: «عشرون دولاراً! عشرون دولاراً!». لم يحقد فست عليه. ففي سنه، يستحق الشيخ كل ما يمكنه تحصيله من عمل كهذا. إلا أن فست كان يؤمن بالتعامل المنصف في العمل. فرفض أن يدفع، ليجد نفسه في غضون ثوان محاصراً بالدرجات والسائقين المحفّضين من كل الأحجام، يدمدمون، يرغون ويزبدون. ظن أنه لمح سكيناً. جاء صبي غاضب وأبعدهم جميعاً بإيماءات سحرية من يده. بقي السائق الشيخ. يفضل أن يموت. أعطاه فست العشرين دولاراً. صعد إلى غرفته وأغفا طوال العصر، وأفاق عند الثانية بعد منتصف الليل، وقرأ رواية بوليسية قصيرة لجورج سيمنون، بالإنجليزية. اتصل بعامل الفندق وطلب اتصالين إلى برلين، إلا أن رقم أمه كان في مكان ما في حقيبته، فتخلى عن الأمر. كان يتصل بها غالباً في وقت متأخر، تقريباً كل يوم في الأسابيع الأخيرة، بينما تتعامل مع مسألة تدهور صحة أبيه.

استحمّ عند الثامنة وارتدى ملابسه، ونزل إلى ردهة الفندق، لكي يقابل عميل الاتصال. شربا القهوة، جالسين قبالة بعضهما على مقاعد كبيرة مريحة من الماهاغوني. كان الرجل أمريكياً، شاباً، معجباً بالمهمة الموكلة إليه، شغوفاً بعض

الشيء بدوره. في البداية أطلع فست على وجهته. بالطبع كان يعرف وجهته، كانت التذكرة في جيبه.

«أتحمل الهوية لي؟».

انحنى الشاب لكي يحث في حقيبته الجلدية الموضوعة بين قدميه. «لدينا نسختان لك»، سلمه مغلفاً أسمر. «بينما تقوم بالمهمة استعمل هذا الذي فيه تأشيرة دخول مسبقة التاريخ. دمره قبل أن تغادر. أما لخروجك، فاستعمل هذا المنتهية صلاحيتها».

«ما الوقت المقرّر لهذه المهمة؟».

«أتعني بحسب التأشيرتين؟ تلك المنتهية صلاحيتها تقول إنك دخلت في... ماذا تقول؟ الحادي عشر من فبراير، على ما أظن. إذن ستضطر إلى البقاء هنا حتى ذلك الحين، على الأقل. لكن التأشيرة صالحة لستة أشهر».

لم يعجبه تعبير ستة أشهر. لكن هدف التأشيرة المؤخّر تاريخا أسبوعين القول إنه دخل بعد فترة المهمة. أخذها بالتالي، بما أنهم لم يخططوا لمدة أكثر من أسبوعين.

وضع فست المغلف في حضنه، وفكّ الإبزيمين معاً، وفتح المغلف، ورفع لسانه المفتوح لكي يلقي نظرة إلى داخله. جوازا سفر ألمانيان - أخرج أحدهما وقرأ الاسم - كلود جانتر رينهارد.

«مثير للاهتمام، اسم ابني كلود»، على اسم أبي العجوز. وأخي الذي قتل ببطولة.

«أياً كان أعلى الرزمة».

«بالطبع، مجرد مصادفة».

نظر إلى صورته. لطالما بدا أشبه بفتى مدلل، إلا أن اللحية غطت النعومة، وجعلته يبدو، كما ظن، أقرب إلى سيجموند فرويد أو إرنست همنغواي. في الملابس، ربما، بدا سميناً، إلا أنه شعر بنفسه متيناً. حتى في أمريكا جعلوه يأخذ الدورات باستمرار، بما فيها الرياضية الصعبة المتعلقة بالعمليات الميدانية. إلا أنه

كان في السادسة والثلاثين وشهرين. لا يمكن أن يستمر هذا. في الحقيقة فكر أن الأمر انتهى فيما يخص المهمات مع الأمريكي.

«تدخل في جواز سفرك الخاص. أياً كان ما تسافر به حالياً».

«بالطبع».

بينما دفع الرجل ثمن لفائف الخبز والقهوة ونهض ليغادر، متقمصاً سلوكاً اعتيادياً لا يطاق. وذكر، كأنما بعد تفكير، إشارات المرور والوقت والمكان المدبر للقاء فست في سايغون.

لم يعد فست يثق بسائقي هونج كونج. تجاوز الغداء وذهب إلى المطار قبل ساعتين ووصل بلا عناء وجلس يشاهد بقية المسافرين يجتمعون من أجل رحلتهم إلى الديار، آسيويون مبتهجون موسرون عائدون من العطل في هونج كونج أو بانكوك أو مانيلا، حاملين أكياس تسوق فاتحة اللون، مبتسمين، وحتى ضاحكين. لم يعرف ماذا كان يتوقع - الأفراد المحاصرون في تعداد سكاني مدمر، الأكتاف المحنية، الوجوه المكشرة - لم يفكر كثيراً بهذه الحرب، لم يتوقع المجيء إليها، وكان متأكداً من أنه جرى إرساله وفقاً لمشورة خاطئة، مثل أيّ شخص آخر. أعطته المضيفة كيساً أرجوانياً من أكياس الطيران الفييتنامي، وحمله مفتوحاً في حضنه ناظراً إلى الغيوم تحته، وأغفا حتى العصر عندما لامست المضيفة نفسها كتفيه لكي تقول له إنهم بدأوا بالهبوط إلى تان سون نوت.

في محطة مخربة محتشدة بالجنود الأمريكيين والآسيويين، تكومت على أرضها الصناديق والمتاع، وجد رجله، زنجي يحمل لافتة صغيرة كتب عليها «ميكر للنقليات»، «سيد رينهارد»، قال الرجل، «أدعى كنيث جونسون، أمن شخص آخر معك؟».

«لا أعرف».

«ولا أنا. لكننا سنأخذ كل الآتين». رجل بهيج. لم يكن من أحد سواه.

«كيف كانت الرحلة؟».

«كل الرحلات تنتهي على الأرض».

«هذا ما يقوله المغفلون. يا إلهي»، قال، «من يختلق هذه العبارات السرية؟»[1].

«لا أعرف»، قال فست، ولم يضف شيئاً، وإن كان قد فهم أن تلك كانت على الأرجح لحظة إلقاء دعابة.

خرجا عبر المدخل الرئيسي إلى صف من سيارات الأجرة التي قفز سائقوها ملوحين، وقال جونسون، «هناك حجز لك باسم رينهارد في مكان يدعى كوان فو سا، تحمل أوراقاً ثبوتية بهذا الاسم، صح؟».

«صح».

«حسناً، انطلق سيد رينهارد».

«لا أفهم».

«هذا أبعد ما أصل إليه. إنني أؤكد الوصول فحسب».

«فهمت».

«سوف تراني غداً. لمحاً فحسب».

«في الاجتماع».

«أجل. لمحاً فحسب».

«هل سأستعمل كلمة السرّ نفسها؟».

«لا. سأكون هناك لكي أعرف بك».

تصافحا، ووضعه كنيث جونسون في سيارة أجرة وكلّم السائق بإيجاز ثم رحل.

«أتتكلم الإنجليزية؟».

«أجل سيدي، قليلاً».

«أتعرف مكان فندقي؟».

(1) العبارتان الأخيرتان هما بمثابة الرمز التعريفي المتبادل بين العميلين.

«أجل سيدي، فندق كوان فو سا».

«ماذا يعني هذا الاسم؟».

لم يحصل على جواب. دخلت سيارة الأجرة الطريق المؤدية إلى المدينة، وعبر جادة محتشدة بالأبنية المطلية باللون الزهري أو الأزرق أو الأصفر، وأبطأ سرعته، ثم توقف، تحرك مسافة سيارتين. توقف. قال له السائق إنه رأس السنة. الجميع ذاهب إلى مكان ما، «ما هي السنة الجديدة في هذا الوقت؟»، سأله فست. «سنة الكلب؟ سنة الماعز؟». قال له السائق إنه لا يعرف. موجة طنانة من الدراجات النارية تدفقت حول المركبات الأكبر. وإحداها تركبها امرأة، بصورة جانبية، واضعة رجلاً على رجل، متصفحة مجلة. المحركات تقذف الدخان. أشجار النخيل بدت غير صحية البتة. رأى أربعة من فتيان الشوارع يلعبون الورق على الرصيف مقابل السجائر.

لماذا جعلوه يتوقف في هونج كونج لكي يأخذ وثائق أعدّت في سايغون؟

تحرك السير ثانية. على شواهد قبور في مقبرة صغيرة رأى رموزاً على هيئة صليب معقوف، وصلباناً معقوفة محفورة على باب معبدها الصغير. صدمه المشهد. مضت سنوات مذ رأى واحداً، إلا في الصور الفوتوغرافية. بما فيها اثنتان أو ثلاث لوالده. أخذ ينظر إلى لافتات الشوارع والماركات، محاولاً حفظها كلها في رأسه، لكي يحدد موضعه. نظر إلى ساعته. بعد تسع عشرة ساعة سوف يستمع إلى ملخص حول البرنامج والمنهج. المعاملة الفظة على يد كنيث جونسون أنبأته بالكثير. زملاؤه يريدونه فحسب عن مسافة. ربما أرسل إلى هنا من بعد أمريكي، ربما من بعد كنيث جونسون نفسه.

بدأت تمطر مطراً خفيفاً لكنّ الجو لم يكن أكثر برداً عندما خرج من السيارة عند الفندق. جلست امرأة فوق صندلها عند الباب. خمن أن الأمريكيين لا ينزلون هنا. كانت هذه المرأة الحماية الوحيدة للفندق.

بينما يقوم بإجراءات تسجيل النزول في الفندق، أخذت موظفة الاستقبال

ومساعدتها أو صديقتها، تدندنان أشعاراً غير مفهومة مع المذياع.

«ما اسمك؟»، سأل الموظفة.

«ثويت».

«ثويت، أيمكنني إجراء مخابرة دولية؟».

«لا، سيدي. الكابل فحسب. البرقية فقط».

كانت ترتدي تنورة زرقاء وبلوزة بيضاء متجعدة. أثارت اهتمامه. وجه غريب رقيق. لا مجوهرات، لا ماكياج، لكن على الأرجح معظمهن كنّ عاهرات.

استحم وبدّل ملابسه وخرج إلى الشارع، متسائلاً أين يمكن أن يجد هاتفاً دولياً لكي يتصل بأمه. كان قد هبط الليل. في الأفق فوق المدينة، مزّقت المروحيات الهواء بشفراتها، وطلقات الإشارة خططت الذرى المعتمة في أعالي السماء. ومن خلف الأفق، عصفت القنابل. في الأسفل هنا، أعداد لا تحصى من أبواق السيارات والمحركات الصغيرة. الراديوهات تبث موسيقى محلية سخيفة.

أكياس الرمل اصطفت على أطراف الأرصفة. مشى على الرصيف المتصدع، منتبهاً لطريقه بين الحفر وأقدام الناس الممدودة، والدراجات النارية المركونة، وطارده المتسولون والقوادون وأطفال وضعاء مخنثون عرضوا عليه «سجائر، حشيش، جنس، يو جلوب، أفيون».

«خبز»، قال.

«لا خبز بسبب عيد السنة الجديدة»، شرح له أحد الباعة.

تخلى عن الأمل بالعثور على هاتف وعاد لكي يتناول العشاء في مكان فيه مضيفات يرتدين تنانير حمراء مهدبة وقبعات كاوبوي حمراء صغيرة وأحزمة مسدسات بلاستيكية غربية مع قرب فارغة. قالت النادلة إنه بسبب رأس السنة الجديدة لن يقدموا الخبز اليوم.

كان فست قد رأى اللافتات وإعلانات الشوارع التي تقول «شوك مونغ نام موي»، وفهم أنهم يتمنون عاماً جديداً سعيداً، وإن كان يمكن أن تعني ببساطة

«الوباء رهيب».

أفاق ليلاً مثلما فعل ليلة البارحة. سمع أعيرة نارية في الخارج. خرج من شبكة سريره ومضى مقرفصاً إلى النافذة وألقى نظرة من حافتها. امرأة تمشي على ضوء مصباح ورقي. يدها تلوح بالضوء من مقبضه السلكي الشبيه بالمخلب. الأطفال هرعوا متجاوزينها في الشارع، مطلقين المفرقعات. سمع أصوات موسيقى وغناء. أوى إلى السرير ثانية. لم يتغير نمطه بعد، لن يغفو الليلة ثانية. كان معه كتابان وقد قرأ كلاهما. مروحة السقف تدور بأقصى سرعتها لكنها لا تجلب له البرودة. من النافذة استمرّ الجنون. بدا له عبثياً أن يسلي الناس المحاصرون بالحرب أنفسهم بإشعال المفرقعات.

بقي في السرير معيداً قراءة جورج سيمنون، وأغفا عند الفجر، وأفاق نحو العاشرة صباحاً.

قبل وقت قصير من موعد الغداء، استقل سيارة أجرة إلى محل «سانغ فو للخرائط» الذي لا يبعد كما أكد له السائق سوى بضعة أبنية من الفندق، لكن الذي يصعب العثور عليها. في الداخل، حيّاه شاب حيوي بالإنجليزية. عندما شرح له فست أنه يريد أحدث خريطة متوافرة للمنطقة، قاده الشاب عبر أدراج ضيقة إلى حجرة مليئة بالنسوة الجالسات وراء طاولات رسم تحت أنابيب نيون دائرية، وسرعان ما خرج إلى صباح سايغون وبيده ثلاث خرائط ملفوفة في كيس بني بالأربطة المطاطية: ملونة يدوياً، خرائط باللغة الفرنسية: فييتنام الشمالية؛ فييتنام الجنوبية؛ سايغون.

كان اليوم مشمساً صافياً حاراً نيراً، مع ظلال داكنة على الأرصفة تحت الأشجار. مشى مجموعة من المباني وأوقف سيارة أجرة. قال له السائق إنه بسبب رأس السنة الجديدة لا يستطيع أن يشغّل العداد وإنه سيضطر إلى أن يدفع له بوفرة. مشمئزاً، خرج فست من السيارة وركب دراجة أجرة إلى حيث موعده ووصل، وفقاً لساعته، قبل أربع دقائق إلى مطعم «الببغاء الأصفر»، وهو مطعم ضيق جداً

يشبه كثيراً حجرات الطعام في القطارات، وقد اصطفت طاولات لشخصين فقط على الجدارين، وبينهما ممر ضيق. لم يستقبله نادل، بل شاب يقف وراء صندوق المحاسبة، الذي رفع حاجبيه.

«أتتكلم الإنجليزية؟»، سأل عامل الصندوق.

«أجل، رجاء».

«هل في مطعمكم حمام؟».

«عذراً، لا أفهم».

«أعني مرحاض مع فلاش».

«لا أفهم ما تقول».

«أين حمامكم؟».

«أجل سيدي، في الخلف».

اتخذ مقعداً. كان كل من في المكان فيتناميين تقريباً.

على بعد ثلاث طاولات فحسب، جلس أمريكي عرفه من المهمة السابقة في جزر الفلبين، ابن أخ الكولونيل المتفاخر الذي يستمتع كثيراً بممازحة الفلبينيين. أهو عميل الاتصال الخاص به؟ شعر ببعض الدفء، فهو يقف على أرض مألوفة، وثمة صديق لكي يعمل معه، أو على أية حال أحد المعارف.

مبادئ الصنعة الأساسية ألا يحيي أحدهما الآخر من دون كلمة السرّ. اتجه فست إلى حمام الرجال، ماراً عن كثب بطاولة الأمريكي. أسند رزمته الأنبوبية على الجدار الرطب، وغسل يديه، وانتظر هناك ثلاث دقائق، حتى الثانية عشرة والنصف تماماً. وحين عاد كان الأمريكي قد رحل ولوح له أمريكي آخر من طاولة أخرى - جونسون، الذي استقبله في المطار أمس قبل أن يختفي سريعاً. ضابط فيتنامي يرتدي نظارات شمسية، كان يجلس قبالة الزنجي؛ لا شيء أمامه على الطاولة سوى علبة سجائر.

نهض جونسون عندما اقترب فست. «سيد رينهارد، أعرفك بالرائد كينج».

«تشرفنا»، قال كينج، ومدّ يده للمصافحة.

«أين يمكنني الجلوس؟».

«خذ مكاني»، قال جونسون، «لقد تأخرت، أنت بين يدين قديرتين».

«أهي مسألة محلية؟».

«ماذا لديك هناك؟».

«خرائط للمنطقة. اشتريتها قبل دقائق فحسب».

«رافقني إلى الباب».

عند المدخل سلمه جونسون بطاقة عمل عليها اسم كنيث جونسون من «ميكر للتصدير». «في حال حدث أمر غير متوقع، اذهب إلى قبو معهد اللغات الخاص بالقوات المسلحة. لقد دونت لك عنوان الشارع في الخلف هنا. القبو، ماشي؟ سوف يستقبلك جندي مارينز أمريكي، فسلمه هذه البطاقة».

«شكراً جزيلاً».

«هذا فقط كملاذ أخير. فقط وبالمطلق».

«أجل، أفهمك. ملاذ أخير».

مجدداً اختفى الرجل الأسود كإنسان مطارد.

وضع فست البطاقة في حافظة نقوده، مستغرقاً وقتاً إضافياً وحده. ضابط ارتباط محليّ آخر، هذا يعني النوع نفسه من العمل كالذي في الفلبين. وراء الطاولة نزع الفيتنامي نظاراته الشمسية لكي ينظر إلى قائمة المأكولات. بدت بزته الكاكية قديمة، أما جزمته السوداء فلماعة. مهمة محلية. لم يرتح فست لذلك.

جلس قبالة ضابط الاتصال.

«سيد رينهارد، ماذا ستأكل؟».

«لا شيء».

«لاشيء، بعض الشاي إذن؟».

«الشاي، حسناً. والخبز إذا أمكن».

«بالطبع ممكن. سوف أتناول فو بان، مرق النودلز مع اللحم. إنه زهيد الثمن هنا».

من دون النظارات الشمسية بدت عينا الرائد فست أصغر وسوداوين لماعتين. بينما جال فست على الوجوه المحيطة به وجد لكل منهم ما يميزه، لكن كل الوجوه، بما فيها وجه هذا الرجل، كانت تشبه وجه عاملة الفندق ثويت، أو أي وجه آخر رآه في المدينة. بدت لغتهم مستحيلة. لاحظ فست أنه الزبون الأبيض الوحيد في المطعم.

بقي على عناده ولم يتناول سوى الخبز والشاي الخفيف. سأله الرائد عما رآه من المدينة، وهو يضع في مرق النودلز سلطة من الخضار والبراعم الذابلة ويتناولها بشراسة، مستعملاً عيدان أكل مطلية بالمينا لكل شيء، بما في ذلك، على نحو ما، السوائل، وتكلم على أيام دراسته الجامعية في سايغون.

«أيعجبك خبز الباجيت هذا؟».

«أجل»، أجاب فست بجدية، «إنه رائع».

«أشياء كثيرة بقيت من الفرنسيين».

«أرى ذلك، بالطبع».

أزاح كينج طبقه الفارغ جانباً، وأخرج سيجارة من جيبه، وولاعة من سترته: «هلا قدّمت لك سيجارة، وولعة أيضاً؟».

«لا، شكراً لك».

بنظرة فسرها فست على أنها نظرة ازدراء خفيفة أو خيبة أمل، أخرج الرائد ولاعته «إنها كوليبري أوف لندن، غاز».

«أهذا مكان مناسب لمناقشة العمل؟».

«بالطبع. لهذا السبب نحن هنا. لدي شيء لك». مدّ يده إلى الأرض عند قدميه، حتى كادت ذقنه ترتطم بسطح الطاولة، وعاود النهوض مع حقيبة يد بنية في حضنه. «لدي البضاعة»، كانت رزمة ملفوفة في ورق بني وخيط. «الآن

أصبح لديك رزمتان. أقلت إن معك بعض الخرائط هنا؟».

«أجل».

«خشيت أن تكون بندقية».

«لا. أهذا مسدس؟».

«أجل. استعمل الكاتم».

«أهو كما طلبت؟».

«إنه أوتوماتيكي عيار 38 ملم».

«طلبت عيار 22 ملم».

«ليس لدينا شيء بهذا الصغر».

«هل هناك صور تعقّب؟».

«في الوقت الحالي لم يكن ثمة تعقّب».

«ماذا يمكنك أن تخبرني عن الهدف؟».

«لا أعرفه بعد؟ سوف تعلم بشأنه».

«كم أتوقع البقاء في سايغون؟».

«في الوقت الحالي المواعيد غير أكيدة».

«قيل لي إنني سأحصل على الجدول الزمني في هذا اللقاء».

أطال كينج مسألة إطفاء السيجارة في صحن سجاشر صغير متسخ. طوى يديه في حضنه. وقال: «لقد فقدناه».

شعر فست أن هذا الرجل يتسلى. ماذا الآن؟ حتى التعليق على انعدام الكفاءة هذه بدا عديم الجدوى. «إنني هنا من باب اللياقة فحسب».

«سوف نجده».

«أيمكنك فهمي؟ إذا بقيت أو رحلت، هذا يتعلق بي كلياً. قراري. هذا تقريري الملخص».

«يمكنني أن أعطيك الوقائع فحسب. ثم عليك اتخاذ قرارك بنفسك»، أعلن

الرائد، وكأن فست لم يقل الشيء نفسه تواً.

«حسناً، أعطني الوقائع. من هو الهدف؟».

«فييتكونغي».

بقي فست صامتاً.

«لا تصدقني».

«هناك جيشان هنا لقتل الفييتكونغ».

أشعل كينج سيجارة أخرى بولاعته الفاخرة. «جيشان، أجل، واليوم لدينا شخص إضافي، يتناول الغداء معي. تعزيزات».

الآن صدقه فست. هذا الرجل كان غاضباً. ربما المغالاة في هذه العملية أهانه، وقرر أن ينظر إليها بوصفه تسلية.

«أستطيع القول لك إنه من السهل العثور عليه. الأمريكيون يعملون على ذلك».

«إذن أنت تعرفه».

«يمكنني أن أكون أكثر تحديداً بقليل. الحقيقة أننا لا نعرف موقعه، ونحن نحاول الحصول على معلومات محددة من دون التسبب بكشف المصدر».

«لديك مصدر، لكنك لا تريد تعريضه للخطر».

«صحيح. علينا أن نكون حذرين. لا نستطيع وضع مسدس على رأس أحدهم في هذه الحالة. أترى ماذا أعني؟».

«هذا ليس مجال عملي أيها الرائد».

«نحتاج إلى مصادرنا من أجل المستقبل».

«أفهم».

«في الأثناء، لدينا نقطة اتصال آمنة قرب فندقك».

«أريد نقطة أخرى».

«نقطتا اتصال».

«لا واحدة فحسب. حمام هذا المطعم، تحت المغسلة».

«سوف تلقي نظرة عليها كل يوم؟ من العناء الكثير الوصول إلى هنا».

«لا. سوف تقوم بذلك بعد ثلاثة أيام. الرسالة سوف تطلعك على موقع النقطة الجديدة».

لدقيقة كاملة لم يكن لدى الرائد ردّ: «لن أختلف معك»، قال أخيراً، «لكن لا تجعل النقطة الجديدة بعيدة كثيراً من هنا».

«اتفقنا إذن؟».

«اتفقنا سيد رينهارد».

افترقا، وحاملاً كيسيه الورقين البنيين اللذين يحتويان على الخرائط والمسدس مشى على الرصيف باحثاً عن سيارة أجرة. أخذ يلهث إلا أنه حافظ على إيقاعه في المشي، متحدياً أياً كان في أن يقاطع مساره، بينما المتسولون يهرعون نحوه لكي يعرضوا تشوهاتهم، رؤوسهم المسحوقة، أطفالهم الملطخين بالتقرّحات، وماذا يريد هذا المتسول، ينقض على خاصرتي بعروض الأفيون واليو جلوب والحشيشة ثم ما هو اليو جلوب؟ كانت الساعة الثالثة عصراً قبل أن يصل إلى كوان فو سا.

في الصباح التالي انتقل من الفندق. بادرته ثويات الجالسة وراء المنضدة في الأسفل: «سوف تغادر الفندق؟»، وذلك عندما رأت حقيبته، وقال لها أجل. وانتظر وسيلة نقل، سألها عن معنى اسم الفندق. «يعني، حول البلدة»، أجابت.

«فهمت».

«هل ستغادر إلى أوروبا؟».

«أمامي الكثير من السفر».

«حسن. هذا جيد لعملك».

«هذه السنة الجديدة».

«نسميها تيت».

«سنة سعيدة».

ضحكت، وكأنها فوجئت بشدة فطنته، «سنة سعيدة!».

«أهي سنة الكلب؟ المعزاة؟ القرد؟».

«ليس الآن، سنة القرد انتهت. الآن ستكون سنة الديك».

بعد ساعة دخل إلى الغرفة 214 في الكونتيننتال. كان هذا المكان شهيراً ومكلفاً إلى حدّ ما، وفيه تكييف هوائي. تناول الغداء في مطعم في الأسفل يغص بالأوروبيين والأمريكيين. بعدها خرج إلى الساحة أمام الفندق، حيث بدا أن سبعة أو ثمانية احتفالات تجري في آن معاً، كل واحد منها بمعزل عن الآخر، جميعها تحت أنظار مسلحين في تشكيلة من البزات والخوذات - شرطة محلية، شرطة عسكرية أمريكية، جنود مشاة أمريكيين وفييتناميين.

تكلم فست إلى سائق دراجة هوائية، مشى معه إلى شارع جانبي وعرفه إلى فتاة في مقهى، ثم عرض إيصالهما إلى غرفة في فندق لم يسمع به فست قبلاً.

«سوف نذهب إلى غرفتي».

شرح السائق ذلك للفتاة، وأومأت برأسها مبتسمة، وعانقت ذراع فست العليا عناقاً كاملاً وألقت رأسها على كتفه. شعرها الأسود الفاحم يفوح برائحة الفانيلا. ربما استعملت هذا بالضبط كعطر. لم يكن راغباً فيها، لكن شيئاً من هذا القبيل كان ضرورياً. تعلم في هذه المهمات أنه يأتي كمفترس، عليه أن يقتحم الأرض، أن ينقض على أهلها، أن يرتكب جريمة صغيرة استرضاء لآلهة الظلام. وعندئذ ستسمح له بالدخول.

أمضى ريتشارد فوس الصباح في السفارة قارئاً ومصنفاً البرقيات التي وصلت طوال عطلة الأسبوع والمصنفة «سرية»، والتي يتدرج تحتها كل شيء تقريباً. كل شيء ذي أهمية تمّ التعامل معه، لكنّ أحدهم - أياً كان - من العمليات الداخلية،

يجب أن يطلع على كل كلمة، كانت هذه القاعدة. «أرسلها تحت تصنيف سرّي»، قال له رئيسه الأول في لانجلي ذات مرة «وإلا فلن يقرأوها». لم يمانع أن يقضي الساعات منعزلاً في العمل، مفضلاً ذلك على تناول الشراب مع دبلوماسيين أجانب وأنصاف أصحاب مقام فييتناميين، وإذا مدد كروديل الغداء مع سكيب ساندز بما فيه الكفاية إلى بعد الظهر، فيمكنه العودة إلى هنا، ويتفحص البرقيات الجديدة، ويجد عذراً للبقاء خلال ساعة الكوكتيل.

عند الظهر غادر السفارة وشق طريقه في الحيّ وعبر «تو دو»، عبر حشد الباعة والمحتفلين الذين طوال الأسبوع جعلوا الطريق مستحيلاً بالنسبة إلى السيارات. عثر على سيارة أجرة في زقاق جانبي. من أجل هذه الرحلة الصغيرة انطلق مسبقاً بنصف ساعة، ومع ذلك وصل متأخراً عشر دقائق إلى مطعم «الببغاء الأخضر».

وقف سكيب ساندز في الخارج تحت شمس الظهر، ماسحاً العرق عن عينيه وقد بدا عليه الارتباك – أولسنا جميعاً كذلك في هذه الأيام، فكر فوس. لقد ازداد سكيب سمنة. أولسنا جميعاً كذلك. ألسنا جميعاً سمينين ومتعرقين ومرتبكين.

فتح فوس باب سيارة الأجرة وأومأ له: «مضى زمن طويل يا صاح! تعال، لقد فكرت بمكان أفضل».

«جيد، ابتعد قليلاً»، صعد سكيب بجانبه «رأيت شخصاً لا أحبه».

«من؟».

«رجل من مانيلا. لنتحرك، حسناً؟ أحتاج إلى هواء».

«اعبر النهر»، قال فوس للسائق.

«ماذا عن الريكس؟».

«لا يمكننا الذهاب إلى وسط البلد»، قال فوس، «لديهم نقاط تفتيش في كل مكان. العم هوشي لن يباغتنا نائمين! إننا على أتمّ الاستعداد منذ عام كامل».

«ماذا يحدث عبر النهر؟».

«لا شيء يا أخي. إنه أشبه بالحياة الحقيقية. بعض الراهبات افتتحن مطعماً

فرنسياً الشهر الماضي».

«راهبات؟ أيمكنهن الطبخ؟».

«بصورة ممتازة. لا أحد يذهب إلى هناك بعد، لكنهم سيفعلون».

قال السائق: «هناك جسر غير جيد. سأسلك جسراً آخر».

«هيا، اجن دولاراً»، قال فوس.

قالساندز: «ما أخبار العائلة؟».

«بأحسن حال. لم أرهم منذ أبريل. فاتني عيد ميلاد سيليست».

«كم صار عمرها؟».

«يا إلهي... لا، انتظر، أربع سنوات. ماذا عنك، ما زلت عازباً؟».

«أخشى ذلك».

«كلياً؟ لا خطيبة في أمريكا؟».

«ليس بعد، أعزب بالكامل».

عبرا الجسر إلى الجانب الشرقي، حيث المراكب وأشياء متعددة غير قابلة للغرق احتشدت على الضفة.

«يا إلهي.. رائحة النهر أسوأ من أي وقت مضى».

«أهلاً بعودتك».

«شكراً، على ما أظن».

«لا، أقصد ما أقول، تسرني رؤيتك»، قال فوس، وعنى ذلك، «كم مضى على رحيلك؟».

«إنني أدخل وأخرج».

«إذن كنت في الخارج كل هذا الوقت؟».

«لقد عدت لأسبوع فحسب أو نحوه. أجمع الحكايات. ما أخبار القتال؟».

«أوه، إننا نفوز».

«أخيراً أحدهم يعرف».

«أنت تجمع القصص؟».

«القصص أجل، الحكايات الشعبية، الخرافات».

«إذن جئت إلى المكان المناسب من أجل هذه الأمور»، لم يضحك أيّ منهما.

«الحكايات الشعبية».

«أجل، أتذكر لانسدال».

«لم أعرف لانسدال أبداً».

«معرفة الشعب... الأغنيات والحكايات».

سمع فوس نفسه يتنهد: «كسب القلوب والعقول».

«أجل، درست هذا من أجل مشروع التخرج في المعهد البحري».

«هناك في... أين؟».

«كارميل».

«لم أذهب إلى هناك أبداً».

«مكان رائع».

حديث صغير، فكر فوس، عند الوصول إلى بوابة الدخول. كان عليه أن يتولى توجيه السائق، فوفّر عليه ذلك الكلام.

بضعة أحياء فحسب عبر النهر، وليس بعيداً عن الحي الذي يقع فيه مقر العمليات النفسية القديم التابع للسي آي أيه، حيث عاش فوس وسكيب لبضعة أسابيع معاً، وجدا «الشي أورلينز». «أحب هذه الكروم»، قال فوس مشيراً إلى النبات المعرّش الذي يكاد يخفي واجهة المكان، «بالكاد يمكنك الرؤية عبر النوافذ. الخصوصية». أبدو كالمغفل.

«أما زلت تقيم في المكان القديم؟».

«المكان القديم لم يعد مستعملاً. أظن أن الجيش حصل عليه. أنا في مقر مايركورد».

التفت النباتات المعرشة حول المبنى وتكاثرت حول النوافذ الخشبية المشبكة

لتنشر على الشرفة المبلطة ظلاً بارداً. انبعثت الموسيقى من مكبر صوت مغلف بنسيج من القنّب في الزاوية الأبرد من التعريشة – الفلامنكو، الغيتار الكلاسيكي – وتحت مكبر الصوت، قرب النافورة الصغيرة، جلس ثلاثة ضباط من فرقة الخيالة الخامسة يضعون شارات صفراء كبيرة[1] أعلى أكمامهم، يأكلون بصمت، وباستثنائهم كان المكان فارغاً. جلسا وطلب ساندز سفن أب وغرينادين. «سوف أشرب المارتيني»، قال فوس.

«لا أحب الزيتون»، قال ساندز، بينما تساءل فوس كيف يرد على مثل هذا الكلام، تابع ساندز: «لم أقصد أن أبدو ساخراً قبل قليل».

«أنا من بدا ساخراً. وأظن أنني قصدت ذلك نوعاً ما».

«لا، لا، أفهم. لدينا جميعاً أسئلة».

«أجل، واليسار يظنون أنه ليس لدينا أسئلة، أننا جميعنا مغفلون وحمقى، وأنه يجب أن يكون ثمة من يصرخ بنا في قفانا – أيحسبون أنفسهم مثقفين؟ من يرغب في أن يكون مثقفاً؟ من يهتم بمدى قوة معداتك إن لم تكن قادراً على تشغيلها بأمان؟ ما الذي يملكه المثقفون؟».

«الشطرنج».

«شيوعية حولاء. حيوات جنسية منحرفة غير مشبعة ولا صحية».

لم يقل ساندز شيئاً. بدا صافي العينين كأكثر ما يكون، وأعمى بالقدر ذاته. فكر فوس، أين المرح في هذا كله. كروديل أنت براز.

«سكيب، سكيبر، ما الأمر؟».

«توفيت أمي».

«أوه اللعنة».

«وصلني الخبر بالأمس فقط».

«يؤسفني ذلك».

(1) هذه الشارات لا يضعها إلا ضباط فرقة الخيالة الأولى في الجيش الأمريكي.

«حسناً، إنني أتعامل مع الأمر».

«أظن أنه عليك ذلك».

«أعرف. ماذا يمكننا أن نقول؟ فلنأكل».

كانت قائمة الطعام خفيفة، سلطات وسلطعونات، وسندويشات، ونصح فوس بالسلطة الفرنسية، التي وعد أنها مصنوعة من التونة الحقيقية والتي رفضها سكيب بسبب الزيتون، وطلب سلطة السبانخ بالروبيان، وأزجيا الوقت بانتظار مجيء الطعام يطالعان بإعجاب قائمة طعام العشاء: لحم الخنزير المشوي، لحم الضأن بالفستق الحلبي، تونة مع الصنوبر والجوز، أولئك الراهبات يطبخن كل شيء – ناهيك عن والخصوصية – إذا كان المطعم مداراً بالفعل من قبل الراهبات. لم يرَ أي راهبة في المكان، «أفضل من نادي اليخوت»، قال لساندز، «وأرخص». كان جائعاً وتناول السلطة لتسكيت جوعه. لكن ساندز، بعد تناول بضع قضمات من السبانخ والروبيان، انسحب بوضوح من المشهد وبدأ ينخز بشوكته في طبقه، محركاً مرق البرتقال ونبات الكبر الخضراء، وأحسّ فوس بشعور رهيب حيال وضع ساندز وقال: «من الصعب تصديق أن الناس في الديار يمكن أن يموتوا. يشعر المرء أن كل الموت يجري هنا. كل موت العالم».

رفع سكيب نظره مستغرباً وقال: «هذا صحيح. لقد انتابني الإحساس نفسه تماماً».

«كلنا نشعر كذلك. أتذكر التيت الماضي؟».

«أجل».

«كنت هنا؟».

«في الأرجاء».

«في كاو فوك؟».

«فيها وخارجها».

«كان يصلك البريد بانتظام إلى السفارة».

«أوه، ما زلت تذكر هذه الأمور؟».

«كل تفصيل صغير، أحدهم يقوم بتتبعه. لكن من يتتبع ذلك الذي يقوم بالتتبع؟ إذن كاو فوك. أجل. لقد قمتم بعمل جميل في المتاهة».

«أجل شكراً، أتعني هذا حقاً؟».

توقفت سيارة أجرة أمام المطعم، وحتى عبر التعريشة تمكن فوس من رؤية القادم.

«حسناً سكيب»، اعترف بانزعاج مفاجئ، «لا، ليس حقاً. ما الذي أعرفه أصلاً عن المتاهة؟ إنني أحاول أن أكون، بصورة عامة وغامضة، مجاملاً».

«حسناً. بصورة عامة وغامضة شكراً لك. انظر ريك»، قال ساندز، «ربما يمكننا التكلم صراحة».

«دائماً، دائماً».

في هذه اللحظة ظهر كروديل، واتجه مباشرة إلى طاولتهما وكأنه طالع خريطة وخطط طريقه سلفاً. طويل نحيف – ليس بما فيه الكفاية للانضمام إلى فريق كرة السلة الجامعي، إلا أنه مارسها بالتأكيد في الثانوية. أوحى مظهره الجسدي بمظهر مثقف مترهل بليد. صورة مضللة. كان شعره أحمر بصورة نموذجية. وكان فوس يعتقد أن ذوي الشعر الأحمر يتخلصون من نمشهم مع انتهاء الطفولة، إلا أن كروديل ما زال لديه الكثير منها على وجنتيه. كان فوس يدرك أنه يفكر بهذه الأمور أكثر مما ينبغي، بحيث باتت مصدر إزعاج له: طول كورديل ونمطه، تفكيره، نمشه – لأن كروديل كان يخيفه.

«أريد حساء!».

قال ساندز: «لست واثقاً من أن لديهم حساء».

«غريب. لا حساء».

«ليس على الغداء».

«تيري كروديل».

تصافح الاثنان. قال فوس: «سكيب ساندز».

جلس كروديل وقال: «بالتأكيد، ونادى عبر الغرفة: «مارتيني؟ وسلطة...»، أشار بإصبع نحيل إلى طبق فوس وقال بالفرنسية: «كهذا».

«وبعض الشاي»، قال ساندز.

«وشاي رجاء».

قال ساندز: «كنا ننتظر قدومك تيري؟».

«سوف أبقى في هذا الجانب من النهر. لا شيء في الجانب الآخر سوى الأعلام والرايات والمفرقعات. إذن... عدت إلى كاو فوك؟ أم أنك لم ترحل قط».

حافظ ساندز على ملامحه، إلا أنه لم يستطع إخفاء تفاجؤه «أفترض أنك تعمل معنا».

«معنا من؟».

«نحن. جهاز المخابرات».

«أنا مع مركز الأمن الإقليمي».

«مركزك هنا؟».

«إنني في زيارة لكوكبكم الرائع».

«أول مرة تأتي إلى البلاد؟».

رمش كروديل وحملق. «كنت أدخل وأخرج منذ 1959. إنني منذ ما قبل إدارة كينيدي».

«روعة. تبدو أصغر سناً».

«عرجت على كاو فوك مرة أواثنتين، كيف المشهد هناك هذه الأيام؟».

«أهدأ بكثير. هادئ».

«هلا فككوا تلك القاعدة العسكرية تلك؟».

«لا أعرف الوضع الرسمي لذلك».

«لكن ماذا ترى؟».

«يصعب تحديد إلى أيّ مرحلة وصلوا»، رفع ساندز رأسه وأجال نظره وكأنه يبحث عن النادل «لا أعرف ما إذا كانوا يقومون بتفكيكه أم أنهم هجروه فحسب. لكنني أقول إن المعبد البوذي هو مركز الأشياء ثانية».

«هل يأتي الفييتكونغ؟».

«لم يزعجني أحد».

«ما الذي يكلفونك بفعله هناك؟».

«أجمع القصص. الحكايات الشعبية».

«بربك! ريك، هنا، ظن أنك غادرت البلد».

«أدخل وأخرج».

«إذن القاعدة قد فككت؟».

«لا نسميها قاعدة. مهبط طائرات». بدا ساندز راضياً بصورة متعذرة الفهم.

«هل تذهب إلى الحانة القرمزية من وقت لآخر؟».

ضحك سكيب: «فقط في ساعة الكوكتيل الشرعية».

«اتعرف سكيب؟ يسرني أننا التقينا أخيراً».

«عذراً منكما»، قال فوس، واستأذن.

ذهب إلى الحمام ووجد مبولته مليئة بمكعبات الثلج، إسراف مذهل.

تمنى فوس لو أن كروديل بقي بعيداً لمدة أطول عن الغداء. ربما حديث صريح في نهاية المطاف، بينه وساندز - إلى من يمكنك التكلم بصراحة سوى رجل في طريقه إلى الخارج؟ ومع أنه يعمل في المخابرات منذ ست سنوات فحسب، إلا أنه كانت تحدوه الرغبة في الزحف من مياهها إلى كهف يعترف فيه لحلزون عملاق. عبثي، أجل. لكن فيه العناصر الصحيحة. الهواء والغرق. الظلمة، الرطوبة.

يا لها من فوضى عملاقة غبية.

أحد ضباط الجيش انضم إليه في الحمام، صقري الوجه، حليق الشعر، وثمة

شارة رائد على كتفيه والشارة الصفراء التي تفيد أنه من سلاح الفرسان الخامس، رجل خال من الأسرار، يبول أمام الآخرين. بينما الرائد يسكب بوله بتأمل فوق مكعبات الثلج، غسل فوس يديه وجففهما بإحدى المناشف الموضوعة بجانب المغسلة ورمى المنديل في سلة. هذا المكان ينطوي على رقي ما. فوق المرآة الضبابية المصفرة التي تعكس وجهه وكأنه ضحية اجتياح نباتي من التهاب الكبد كتبت بأحرف أنثوية دقيقة، تذكر بالراهبات عبارة:

!Bon appétit

عندما عاد فوس إلى الطاولة كانا قد دخلا في الموضوع الذي أراد كروديل أن يثيره، على الأقل أن يبدأ به - مقالة الكولونيل المجنونة - وكان كروديل يستعرض. تمكن من أن يبدو خبيراً بصورة متخفّفة في كل مجال من المجالات الذي يقع في مجال المحادثة. لم يمانع فوس ذلك كثيراً، إلا أن ما عناه أنه وجده في تلك اللحظات يتنمّر على ساندز. أراد كروديل أن يعرف منه هل فكر الكولونيل بمدى خطورة مسألة تعقب «تأثير القيادة» تلك؟ ألم يكتب الأخوان مايو عن الطبيب كورجاس[1]، «إن الذين يحققون العظمة لا يعملون بطريقة أكثر تعقيداً من الرجل العادي، بل بطريقة أكثر بساطة؟»، ألم تكن مشكلة محاولة إظهار «تأثير القيادة»، عبر الاختبارات، هي أن كل هذه الاختبارات تقريباً، تلك التي يعرف كروديل بشأنها على أية حال، قد نفذت بهدف تحديد تأثير التدخل، وإيجاد علاج أو عقار جديد، لا بهدف إثبات حضور أو غياب عامل سببي ما؟ مثل اختبارات ليند في القرن الثامن عشر حول علاجات داء الإسقربوط[2]، أو إذا أردنا مثالاً

(1) الأخوان مايو هما مؤسسا «مايو كلينيك» الطبية الشهيرة، وقد عملا خلال الحرب العالمية الأولى ضمن فريق الجنرال الجراح وليام سي كورجاس.

(2) هو الطبيب البحري جايمس ليند (1716—1794): الذي اكتشف أن داء الإسقربوط يمكن علاجه من خلال اللجوء إلى الحمضيات.

أحدث تجارب سالك[1] على اللقاحات؟ وفي المقابل... لعل ساندز سمع بلجنة الحمى الصفراء التي تشكلت في القرن التاسع عشر[2]، والعلم الجديد في ذلك الحين أي علم البكتيريا البيولوجية؟ مع جهود والتر ريد وجايمس كارول؟ ربما يمكن إجراء التجارب، ولكن ما الذي يمكن أن يخدم كأداة استدلال اختبارية تبيّن «لتأثير القيادة»؟ وألم يكن الكفاح ضد الملاريا والتيفوئيد والحمى الصفراء، حرباً بقدر ما هي هذه الحرب؟... ألم يمت جسي لازيار[3] شهيداً في مصح للمرضى في هافانا، وقد قضى عليه المرض الذي كان يحاول التغلب عليه؟ الحروب تطلبت أفكاراً جديدة؛ وربما الكولونيل وجد واحدة: هل نستطيع ربما، فقط ربما، أن نحقن العناصر التي نظن أنها ستستثير «تأثير القيادة»، في قنوات معلومات مختارة سلفاً؟ هيمن فضول عليه كروديل عليه، وشحنت أمنية صادقة بالتواصل سماته، وقد رفع يديه أمام وجهه، أصابعه متفرقة، ورأسه مائل إلى الأمام، وهو يصوّب بحذر وشغف، وكأن كل مفاهيمه كناية عن كرة سلة - لكن، بحق الرب، من كان الكولونيل في هذا كله، والتر ريد المحقق الحذر، أو جيوسيبي ساناريلي[4]، الرجل الذي يمتلك الجواب السريع عن السؤال الخطأ؟ احتاج الكولونيل إلى أريستيد أجرامونتي[5] لكي يدخل إلى هناك وينبش في الجثث. أيعرف سكيب

(1) الطبيب والباحث الأمريكي المعروف يوناس إدوارد سالك (1914–1995) الذي أجرى أولى الاختبارات على لقاح شلل الأطفال.

(2) تشكلت في العام 1900 وقد ترأسها الطبيب في الجيش الأمريكي والتر ريد (1851–1902) وهذه اللجنة اكتشفت أن الحمى الصفراء يتسبب بها البعوض لا الاتصال المباشر بالمريض.

(3) Jesse Lazear (1866–1900): كان عضواً في لجنة الحمى الصفراء وقد قضى خلال اختبار أجراه على نفسه دون علم زملائه.

(4) Guiseppe Sanarell: عالم إيطالي في البكتيريا أجرى اختباراً في الأرجنتين في منتصف التسعينيات من القرن التاسع عشر على خمسة مرضى بحقنهم من دون علمهم بجرثومة تؤدي للإصابة بالحمى الصفراء والذي أثبت فريق والتر ريد خطأ نظريته حول هذه الحمى.

(5) Aristides Agramonte (1869–1931): طبيب كوبي شارك في فريق والتر ريد، ويجدر أن اختبارات هذا الفريق تمّت في كوبا.

عمل أجرامونتي؟ أيعرف سكيب بأنه بذلك الشارب والجبهة العالية بدا شبيهاً به؟

هذا السؤال الأخير بدا مختلفاً عن كونه بلاغياً. توقف كروديل. انتظر.

لم يستطع فوس أن يعرف ما إذا كان ساندز غبياً أم أنه بوذا نفسه. ما مصدر هذه المسرة الجلية المتلألئة في عينيه؟

قال ساندز: «يا للرب».

«أجل، إنه أمر غريب حقاً».

«ما يهمك بهذا كله تيري؟».

«اهتمام أكاديمي صرف. احتواء الأمراض شغفاً عندي في الكلية، قبل الدخول إلى كلية الطب. ثم خرجت وجلت في عالمنا، ولم أفكر أبداً أنني سأرى شيئاً من ذلك المجال الذي ينطبق على حقلنا، حقل المخابرات».

«تلك المقالة ليست إلا مسودة، لن ينهيها البتة».

«ما تحتاج إلى فعله هو إثبات وجود (تأثير القيادة). ما تحتاج إليه هو عزل القنوات المختلفة تلك التي تجري صعوداً عبر التسلسل القيادي، وأن تقوم بضخّ معلومات عشوائية بين هذه القنوات، لكي ترى كم ستتشوه. كيف، إذا جاز لنا القول (تنظف) قناة؟ تحتاج إلى قنوات تتعرض لإصابة وأخرى تظلّ بمنأى عن الإصابة. هذا ليس جديداً. الحمى الصفراء مجدداً، شلل الأطفال، إلخ. ما تحتاج إليه حقاً هو جهازا مخابرات أو أكثر، لا صلة بين بعضها بعض - اجعل بعض حلفائنا يشاركون. سيكون ذلك مثيراً للاهتمام. سيوصلنا إلى مكان ما. قد يؤدي إلى ثورة. لكن أنحن بحاجة إلى البدء بواحدة قبل أن نحتاج حقاً إلى ذلك؟».

«لست متأكداً من أنني أفهم مقصدك بذلك».

«إنه من المذهل فحسب أنه فتح السؤال برمته. أعني الكولونيل، من الممكن خلق علامات استدلال استخباراتية، وتتبعها صعوداً ونزولاً عبر التسلسل القيادي، ثم خروجاً إلى صفوف العامة، واستخلاص النتائج حول طريقة قيامنا

بالأمور؟ فكرة عجيبة يا رجل. عمك ثوري غريب».

«هل التقيته؟».

«مرة أو اثنتين. يمتعني. إنه شخصية مهمة. أعني، كاو فوك، هذه توضح النقطة. ما دمنا نستطيع تعقب الأمور التي قالها لأحدهم، لقائد سكير ما من إحدى مجموعات الهجوم المروحية، بهدف تأمين مهبط آمن على ذلك الجبل في 1964، ثم عندما وصلت فرقة المشاة الخامسة والعشرين استعار نوعاً ما كتيبة وأبقاها هناك أربعة وعشرين شهراً، بحجة تلو الأخرى، وجاعلاً هذه الفرقة تحرس ذلك المهبط وكأنه قاعدة. ثم باعنا القرية بوصفها أفضل مكان لإخلائه من سكانه وموضعتهم في مكان آخر. وفي رأس الجبل كانت لديه ستة كتائب تمضي صعوداً ونزولاً ومروحيته الخاصة. هذه شخصية ضخمة مثيرة للإعجاب يا رجل. لسوء الحظ، خلال هجوم التيت وقع لديه ضحايا وفقد كتيبة كاملة يمكننا أن نأمل بأن يكونوا حالياً أسرى حرب، وبدأ الجماعة يسألون ماذا بحق السماء يجري في كاو فوك. لولا ما جرى في التيت الماضي لكان على الأرجح قد شكّل الآن سريته الخاصة. وهو ليس بأي شكل من الأشكال متصل بالجيش! - إلا كضابط ارتباط مع العمليات النفسية، الذين بالكاد أي منهم رأى الرجل يوماً. فعل ذلك كله بناء على سلطته الخاصة. أعني يا رجل لقد فعل ذلك كله بناء على الشجاعة والهراء. أيمكنك تصديق ذلك؟».

«يبدو أنك تعرف عنه أكثر مما أعرف».

«ثمة الكثير مما يثير الإعجاب هنا. إنه محارب...».

«بطل حرب حقيقي تيري».

«بالطبع، فلنقل بطل حرب، لديه ميداليات لا تحصى، حسناً، إلا أنه ليس جاسوساً، ليس من ذلك النوع. يشك بأن الجميع ضده، لكنه يتصرف وكأنه ليس له عدو في العالم. أتعرف ما أخبرني به أحدهم مرة عن الكولونيل؟ أن أعداءه هم أصدقاؤه الذين لم يهزمهم بعد».

«جون بروستر، صح؟».

«من؟».

«سمعتني».

«في حقيقة الأمر، ربما كان جون. لا أذكر. اسمع، هيا جاك... عملك لديه ما يعلمنا إياه، وهو: ثق بالمحليين. لم ينفصل يوماً عنهم. فهو يعمل معهم، وقد انضم إليهم. لكن بفعله ذلك، فصل نفسه عنا، عن جماعته».

قال سكيب: «أظن أنك تسيء تفسير الوقائع، ثم تضخم سوء تفسيرك. أو على الأقل تسمح لسوء فهمك بأن يضخم نفسه».

«أقرأت الأمريكي الصامت؟».

قال سكيب: «بو كو... فاك يو[1]».

قال فوس: «واو، كان هذا سريعاً. ظننت أننا سنؤجل الهراء قليلاً».

«أجل، أجل»، رمش كروديل. ولا شيء آخر. «كان يعيش في الكونتيننتال عندما كتب روايته هذه».

«جراهام جرين. جار الكولونيل».

«سكيب... رجل يتفوق على معلميه. هذا محتوم».

«اسمع»، قال سكيب، «فهمت الفكرة».

«إذن اشرحها لي».

«أنت اشرحها».

«لقد كنت أشرحها. إذا أراد الكولونيل أن يصنع حساً اختبارياً من نظرياته، إذن دعه يقترح دراسة مهمة عشوائية مستعملاً نظامين - نظام سيطرة، ونظام يقدم فيه عميلاً ما أو محفزاً ما يمكن قياس تأثيره على نظام السيطرة من دون العميل. فكر ثانية: الاقتراحات القديمة لحالة شلل الأطفال، تلك الأيام عندما كانوا يجربون أي فكرة تخطر ببالهم - براز الكلاب، بحق السماء، حقن

(1) Bocoo (تحريف لكلمة كثيراً الفرنسية) فاك يو: اللعنة عليك.

مرضى شلل الأطفال ببولهم. هذا هو الكولونيل يا رجل. يدخل البول إلى نظام الاستخبارات. أعني»، قال كروديل «حتى في واشنطن كان أسطورياً لوجباته الهيدرولية التي تدوم ثلاث ساعات».

التفت ساندز إلى فوس: «اللعنة عليك أيضاً فوس». نهض، «على هذه السيرة، عليّ أن أتبول».

«أذب لنفسك بعض الثلج»، قال فوس.

«ماذا؟».

«سترى».

غادر وظلّ كروديل ينظر إليه حتى اختفى داخل المطعم.

«يا إلهي تيري. ما الذي أخّرك إلى هذا الحد؟».

«ريك؟ أتعرف دورك؟».

لم يجب فوس. نظر إلى كروديل وهو يتجرع من المارتيني خاصته.

«أثمة نافذة هناك؟».

«لن يخرج من النافذة».

«كيف تعرف؟».

«إنه يتسلى كثيراً».

«وهل تتسلى أنت؟».

فكر فوس في أن يطلب كأساً أخرى، لكنه شعر بأن التعليق حول الوجبات الهيدرولية جعلت مثل هذا الشيء غير مستحب.

«إذا تهجم، فسأرد، فقط لكي أبقي التوازن لصالحي، أوكي؟ والأمور ستتسارع قليلاً».

«بكل تأكيد».

«لا بأس بالنسبة إلي. وأنت لديك دور لتلعبه. عندما ينحرف التوازن كثيراً، تقفز إلى جانبي، بطريقة عرضية».

«هذا واضح بالنسبة إلي».

«في الطريق إلى هنا اشتريت شيئاً من المتجر».

«أيّ متجر؟».

عاودت كروديل الحماسة «هلا نظرت إلى هذا؟»، وأخرج من جيب صدره ما بدا ولاعة سجائر ضخمة. حاملاً إياها براحته ضغط على جانبها بإبهامه «افتحها، و... إذ». في داخلها بكرتان صغيرتان «وها هو الشريط.. أتراه؟ ذلك الشريط الصغير؟ هذا قطره واحد إلى ألف بوصة يا رجل»[1].

أشخاص من «مركز مانيلا الأمني الإقليمي» كانوا يأتون إلى المدينة بصورة منتظمة، واعتقد فوس أنه يعرفهم جميعاً؛ لم يكن كروديل واحداً منهم. لقد أنشأ ورشة في قبو معهد اللغات، والعمليات الداخلية أمرت بإعطائه ما يحتاج إليه، واليوم كان بحاجة إلى آلة تسجيل من القرن الحادي والعشرين.

«أنتم يا شباب لديكم كل الأشياء العظيمة».

«هذه الأشياء موجودة منذ سنوات».

عادساندز. دجس وأمسك كروديل المسجلة، وجهها ما زال مفتوحاً. «انظر».

«أين الشريط؟».

«يجب أن يكون الضوء صحيحاً. أترى؟».

قال فوس: «واحد من ألف بوصة».

«أهي شغالة؟».

«لم لا بحق السماء؟»، قال كروديل، وأقفل الغطاء وتركه بينهم على مفرش الطاولة الكتان «فلنجربها... إننا هنا في صالة أراغون[2] للرقص مع قائد الفرقة الاستثنائي سكيبر ساندز... ساندز. ألماني؟ إنجليزي؟».

(1) تكنولوجيا الآلات المسجلة التي بحجم قدّاحات لم تكن موجودة في العام 1968.

(2) واحدة من أشهر صالات الرقص وأضخمها في شيكاغو.

«لا. أيرلندي».

أيرلندي؟».

«جدي الأكبر جاء من شوغنيس. يبدو أنه بدأ يسمي نفسه ساندز على متن السفينة».

«نوع من المرتد».

«لم ألتقه. ما كنت لأعرف».

«أكان واقعاً في المتاعب».

«لا. أيمكنني أن أسألك شيئاً؟».

«أكيد.

«أأنا واقع في المتاعب؟».

«صالة أراغون هي مكان للموسيقى والرقص. لا أحد واقع في المتاعب هنا».

«اللعنة. لم لا تخضعوني لجهاز كشف الكذب؟».

«هذا ليس مستبعداً».

«أعني الآن كروديل».

«لا سكيب. ليس الآن. يجب أن نحضرك إذا أردت أن ينتهي بك الأمر مع فحص كذب لائق».

«وقتما تشاء».

«أكيد، علم».

«ماذا عن عائلة كروديل، أهي فرنسية؟».

«لا أعرف. أجل، فرنسية. ربما كان الاسك تحريفاً لكورديل... أين العم فرانسيس يا سكيب؟».

«لا أعرف. هنا في المدينة على ما أفترض».

«أتعرف أنه استدعي إلى لانجلي قبل سبعة أو ثمانية أسابيع... على أية حال في

بداية نوفمبر الماضي؟».

«لم أكن أعرف هذا».

«لا، لأنه لم يذهب أبداً».

«يذهب إلى حيث يشاء».

«أجل، وحين يشاء، يستل مسدساً ويقتل سجيناً مقيداً بكل بساطة».

«حقاً، بربك».

«ألم يعدم أسيراً في كاو فوك خلال هجوم التيت الكبير؟».

«لا أعرف شيئاً بهذا الخصوص».

«حسناً، من المعلوم أنك تعلم شيئاً عنه. نعلم أنك تعلم».

«أنا واثق من أنكم تخلطون هذه مع قصة من الحرب العالمية الثانية».

«هل أعدم سجيناً حينذاك أيضاً؟ سيكون علينا التدقيق في ذلك. لكنك متمركز في كاو فوك حالياً، صح؟ وفي تيت الماضي أيضاً؟ هل كاو فوك هي مركزك، إلى هذا الحدّ أو ذاك؟».

«في الداخل أجل. أنا في الداخل والخارج. غالباً في الخارج. أحتفظ ببعض الأشياء هناك».

«حسناً، أنت تمضي الكثير من الوقت هناك. أنت محكوم بأن يكون لديك بعض الأشياء. عندما نقول إن لك بعض الأشياء هناك، فنحن نتحدث عن بعض أشياء الكولونيل من ضمنها، صح؟ صناديقه وما شابه».

«صناديقه؟».

«تعرف، هنا صلب المسألة. أعتقد أن أولئك الجماعة الذين نكن لهم شديد الإعجاب، أعتقد أن كل واحد منهم قد ابتعد عن القضية، على طريقته الخاصة. نحن نقاتل الشيوعية، لكننا أنفسنا نتحرك في تجمع. في قفير».

«أتظن أنهم ما عادوا يؤمنون بالحرية؟».

«أظن أنهم تبلدت أحاسيسهم فحسب».

صمت.

قال كروديل: «ما رأيك يا سكيب؟».

«أظن أنه موضوع أكثر تعقيداً من أن يناقش».

قال كروديل: «ماذا في الصناديق؟».

احتفظ سكيب بالصمت.

«لمَ الصمت؟».

«أيفترض بي أن أجيب فجأة فقط لأنك سألت فجأة؟».

ثلاثة منها، ثلاثة صناديق. كانت معك في كلارك فيلد في الحادي والثلاثين من ديسمبر، 1966، ووصلت معك إلى فيلا المخابرات الأمريكية هنا في شارع تشي لانغ في ليلة رأس السنة».

لم يلمس ساندز كوب شايه مرة. كان تركيزه مذهلاً.

«أودّ أن أسألك ماذا تفعل في كاو فوك»، قال كروديل.

«حسناً، لا أظن أنه يفترض حتى أن ترغب في معرفة ذلك».

تفرّس به كروديل: «لعنة لعناء».

تفرّس به ساندز.

«أنت في العمل. أنت تدير أمراً ما. أمراً أو شخصاً».

«من بالضبط أنت؟».

«حسناً، فلنعاود التعريف بأنفسنا. أنا تيرنس كروديل. ضابط في الأمن الإقليمي».

«تهانينا».

«دورك. قاعدة سياغون فيها فرعان، عمليات الارتباط والعمليات الداخلية. في أي منهما أنت يا سكيب؟».

«أنا في العمليات، أعمل بصورة خاصة مع العمليات النفسية في الجيش».

تراجع كروديل إلى الخلف وتنهد، «أنا عمليات، أعمل مع العمليات النفسية»،

قال، وفكر فوس: أظن أنك تسير على الحبال.

باشمئزاز فعلي أجبر فوس نفسه على النظر إلى القذر.

«أنت تتذكر الصناديق؟ تلك الصناديق الثلاثة؟ بالتأكيد تتذكرها. لا أظن أنك قد نسيتها. أتتذكر الاسم الذي عليها؟».

«لا، لا أتذكر».

«أيمكنني أن أسألك تحت أيّ اسم تعمل؟».

«اسمي هو وليام مايكل ساندز؟».

«ما الاسم على جواز سفرك؟».

«هذا هو الاسم على جواز سفري».

قال كروديل: «أين مخبأ الكولونيل؟».

«لديه غرفة في الكونتيننتال، هذا آخر ما أعرفه».

«فهمت أن له معارف في دلتا ميكونج. واحد على وجه الخصوص. أنثى؟».

«هذا جديد عليّ».

«قرب بين داي».

«أخبار مستقبلية».

توقفت مركبة في الخارج. نهض سكيب وذهب إلى طرف السطيحة، وتكلم عبر العريش: «استبق هذه السيارة لي لو سمحت؟».

كان ما زال المنديل محشوراً في حزامه. كانت هذه الحركة الوحيدة التي رآه فوس يقوم بها طوال اليوم.

عاد ووضع منديله على الطاولة، وقال: «الغداء عليكما شباب»، ومضى خارجاً.

متيقن من أنه يدفع الكثير، ومن أن الجنود الأمريكيين ورجال الأعمال المحليين

يحصلون على أسعار أرخص، أمضى فست بعد الظهر مع الشابة ذات الشعر الفوّاح برائحة الفانيلا، التي تقاضت منه ثلاثين دولاراً لقاء أربع ساعات في هذه الغرفة المكيفة. تكومت تحت الملاءات، وأصرت على استعمال الهاتف عدة مرات، وإن لم يفكر أن ثمة من تتصل به، وأنها تمثل المحادثة فحسب، أخذت تنتف الشعر في لحيته وعلى صدره، وحاولت أن تفقأ البثور المسودّة على أنفه - في الواقع لم تتوقف عن مداعبة أنفه - سعيدة بالأبعاد الأوروبية، وبصورة عامة تصرفت على سجيتها كمومس حمقاء، تماماً مثلما كان فست زبوناً غبياً. طلب الشامبانيا إلى الغرفة ورفضتها - مثرثرة، ضاحكة، خائفة - كأنما ترفض عرضاً في لعبة غريبة مسرحها غرفة النوم. شرب فست القنينة بمفرده. رفضت أن تتناول الطعام. ثم استحم بينما ادعت التحدث على الهاتف. كان أعظم آماله حول هذا الفندق- أن اتصالاته تبلغ برلين، حيث يمكنه معرفة أخبار والده - قد تبدّد. كانت الخطوط سيئة. وكان عليه أن يبقي مكان وجوده سراً. من الواضح أنه من الممكن الاتصال ببرلين، إنما ليس من الفندق. وعده البواب بأن يدبر الأمر، أن يأخذه بنفسه إلى مكان ما.، في الأثناء قد يموت العجوز. الآن هو ميت وأنا أستحم بمياه فاترة ملوثة وثمة عاهرة تعبق رائحتها في سريري. الناس يموتون وأنت تفكر في أمر آخر. هكذا يجري الأمر. كلود فعل ذلك؛ أصابه في الحنجرة قنّاص من المقاومة الفرنسية. والدهما كان رجلاً قوياً، وطنياً ألمانياً، من معارف هينريتش هيملر. وكان أخوه الأكبر ضابطاً في الأس أس[1]. كانت هذه وقائع. لم تكن موضع جدال أو ستر أو ازدراء. وكلود ضحى بحياته من أجل النازيين، وهذه حقيقة أخرى. لكن كلود كان أكثر من مجرد واقعة: كان أسطورة العائلة التي لا تفارق شفتي والده؛ كان ميتاً، إنما طوال مرحلة شباب فست بدا أكثر حياة من أبيه نفسه. أعطى الفتاة بعض المال الفييتنامي، لم يكترث بالمبلغ، وطلب منها الانصراف.

(1) SS (Schutzstaffel): جهاز الشرطة الخاصة في الحزب النازي، الذي كان يتولى حراسة هيتلر.

بينما يصدح المحتفلون في الساحة في الخارج بالموسيقى والمتفجرات الحربية، تآلفت الهزيمة والنصر معاً. تناول العشاء في غرفته واستعد للنوم باكراً. كانت لديه نقطة اتصال، نقطة لقاء، ونقطة ملاذ أخير. ابتداء من هذه اللحظة لن يتمكن أحد من العثور عليه، لا سيما متولو أمره المحليون. تسببت له الشامبانيا بصداع حرمه من النوم. جلس إلى منضدة الكتابة في الغرفة 214 وأخذ يفحص معداته ويفككها. كان المسدس مدخراً. تأكد من أنه لن يعلّق. فككه. كلا المشطين دخلا فيه بسهولة والرصاصات دارت عبره دون صوت تقريباً وهو يحرك المزلاق إلى الأمام والخلف. كلا كاتمي الصوت والفوهة التي ترافقهما كانا من صنع المصنع. أحدهم حرص على ذلك. لكن اللقاء عديم الجدوى في هونغ كونغ، التعامل معه بسرعة على يدي كنيث جونسون، وذلك الإحساس بأنه يجري تمريره من ابن عم لابن عم، دائماً أبعد عن المصدر... وأنه ليس ثمة أيّ استخدام له على الإطلاق. ليس أنها المرة الأولى التي يعمل فيها لصالح وكالة أخرى. قبل تسع أو عشر سنوات اغتال جزائرياً في مدريد؛ كما اغتال رجلاً على يخت في كومو، إيطاليا، ظنّ فست أنه عضو في المافيا. وفي الفلبين، اغتيال القس الأمريكي. ولا واحد منهم عدو لبلاده. إحدى عشرة عملية بالإجمال، بما فيها هذه العملية. شوالتر وصفها «عاجلة»، ومع ذلك فقد استضافهم في عطلة لأسبوعين قبل أن يأتي على ذكر أمر مهمة، ثم اختفى أيّ ذكر للموضوع حتى قبل شهر من الآن، وحتى حينئذ لم يجر أيّ نقاش في السيناريوات المحتملة، والآن ها هو المسدس بين يديه... وهل كانوا ليختاروني أصلاً لو أنني أخذت العائلة إلى برلين في عطلتنا الصيفية، لو لم أتجنب كالجبان أن ألقي نظرة أخرى على سرير أبي المحتضر، لو لم أهدر إجازتي معرفاً كلود الصغير ودورا على نيو إنجلند من النافذة الصغيرة في بيت مستأجر على عجلات؟ في كايب كود ركنوا العربة وراء منزل شوالتر الصيفي. كلا العائلتين تعرفان بعضهما معرفة وثيقة، بل تعتبران أنهما مرتبطتان بأواصر الصادقة، بيد أنه لم يرتبط بتشارلز شوالتر في أي عملية. كان الأخير مشرفاً عليه لا أكثر. لم يبد

شوالتر أي أوهام، ولا هو أيضاً، ولذلك راق واحدهما للآخر. لذلك وثق به فست. ابق أسبوعاً آخر، ظلّ يقول له، يوماً آخر، بالطبع سيبقى، فهو رئيسه. ميج أيضاً – حتى بعد أسبوعين مع أنابيب ممدودة من نافذة مطبخها إلى عربتهم، ثلاثة ضيوف يستهلكون المياه الحارة ويستعملون جميع مناشفها، ووسط تذمّر دورا من لانجلي، مسهبة في الحديث بإنجليزيتها الذربة عن الأمريكيين الأغبياء، وكلود الصغير يلتهم محتويات ثلاجتها، متكلماً إليها عن المدرسة والرياضة، لأنها رائعة ولأنها تصغي – ميج أيضاً ظلت تصرّ: ابقوا قليلاً، نحن نحب ذلك، المكان موحش هنا في الغابات الرملية. طوال أسبوعين، صارت ابتسامات ميج جافة، ممزوجة بضيق صدر غير مرئي. الضغط أنهك قوتها وجمالها، وبدا أنه يقلل من مستوى ذكائها. أخذ تشارلز فست إلى شاطئ الأطلسي في الكايب، وحدهما فحسب، لكي يريه بيت الشاطئ الذي يفكر في شرائه. امتدح فست البيت لكنه ما كان ليعيش هناك. مصاريع النوافذ ترتجّ في الريح العاصفة، والأمواج لا تبعد سوى ياردات قليلة عن دعامات البيت. شوالتر وقف على شرفة منزله المستقبلية أمام محيطه الأطلسي المستقبلي، وقد تبعثرت خصلات شعره الرمادية في كل الاتجاهات وكأنه شاعر، «ثمة مهمة في سايغون. أريد أن أكلفك بها، إنها مهمة سريعة».

«في سايغون».

«أو في ضواحيها».

الفلبين والآن هذا. ولماذا يرسله عبر العالم في مهمة مفردة في حين أن ثمة جيوشاً تزحف في المنطقة؟

«المسافة عشرة آلاف ميل من هنا»، قال فست.

«هذا دقيق تقريباً».

«هل تلحقني ببرنامج الفينيق».

«ليس الفينيق، ولا ICE–X. لا نريد أن يعلم جماعتنا بهذا».

«إنه هدف حساس تماماً ربما».

«أظن ذلك». قال شوالتر ذلك بطريقة عنت أنه فكر بالأمر، ربما، ليس هدفاً حساساً بقدر ما هي عملية بلا إحساس «لقد تلقى وعداً بحمايتنا».

«فهمت. كم يمكنك أن تخبرني بعد؟».

«لا شيء. سوف نتكلم أكثر في لانجلي، عندما نعود في الوقت المناسب».

«هل سأسمع من جماعتي قبل ذلك؟».

«اعتبر أنك تسمع مني الآن».

«نحتاج إلى تأكيد حول ذلك».

«لا حاجة، و... ديرك».

«أجل تشارلز».

«إنها حرب. اذهب واستعمل مسدساً».

أصبح معه الآن مسدس أوتوماتيكي عيار 39 ملم، أمريكي جداً وحربي. يستطيع بواسطته على الأرجح أن يطلق رصاصات عيار ثلاث بوصات من مسافة أربعين قدماً. بعد هذا المدى ليس أكيداً من التصويب. ليس جيداً بقدر بندقية النفخ. ولكن أنى له أن يعرف قبل أن يصوب ويطلق النار؟

لا مجموعة عمل، لا نقاش للسيناريوات، لا تمرين على السلاح.

لَمَ لم يعطوه وثائق أمريكية هنا في سايغون، جواز سفر رسمي مع تأشيرات فيتنامية أصلية؟ لَمَ التوقف في هونغ كونغ للحصول على جواز وتأشيرة ألمانيتين؟

لأن الوثائق كانت مزورة. وكالة الاستخبارات الألمانية لا علاقة لها بهذه العملية. ومع ذلك فإن شوالتر أخبره بما يتجاوز التلميح إلى أن الوكالة تدعمها. من دون التكليف الواضح من قبل وكالته لم يكن أكثر من مجرم.

كان ثمة خط. لقد عبره. لكن الشيوعيين عبروه أيضاً. مجرمون؟ في الصين، في أوكرانيا، فعلوا أكثر مما كان ليسمح المجرم هتلر لنفسه حتى بالتفكير فيه. هذا لا يمكن قوله بصوت عال، لكن يجب تذكره. أحياناً، ربما – بغية التعامل مع عدو

كهذا – يجب اجتياز الخط إلى طرفه هو.

أشعره جبنه الشخصي بالحنق؛ آلمه جسدياً، في معدته. لو أنه ذهب إلى برلين في الصيف بدلاً من نيو إنجلند... لو لم يتجنب اللحظة الأخيرة مع أبيه، الذي لا يحبه... سيان، فأنا أقف بجانبك. أيها الأب العجوز، لقد قاتلت الشيوعيين وها أنا أقاتلهم أيضاً.

خرج سكيب ساندز من سايغون على الطريق رقم واحد، في شاحنة نقل وحصل على توصيلة مجانية إلى كاو كوين على دراجة نارية تجر وراءها عربة صغيرة من الألواح قياس ثمانية أقدام، في رحلة استمرت ساعتين.

في منتصف الطريق، فوجئ برؤية شيفروليه الكولونيل السوداء تمضي في الاتجاه المعاكس، ولوح بكلتا ذارعيه، حتى كاد يفقد مكانه خلف السائق الشاب. فات الأوان. الشيفروليه مضت في طريقها. تعرف ساندز هاو لكنه لم يتمكن من رؤية الركاب.

في الفيلا وجد الفورد سيدان البيضاء مركونة في الخارج. الكولونيل ينتظر في الداخل، على الأريكة في غرفة المعيشة، يشرب كوب قهوة ويطالع كتاباً.

«أين ترانج؟».

«رحل»، قال الكولونيل، «كان علينا إخراجه من هنا».

لم يستطع أن يستوعب خيبة أمله الشخصية الساحقة. فنقل العميل المزدوج لبضعة أيام فكرة كان ليقترحها بنفسه.

«إلى أين رحل؟».

«لا أظن أنني أستطيع إخبارك».

«حسناً، موافق، كتدبير مؤقت...».

«ليس مؤقتاً. لقد انتهى الأمر».

«أنت تنهي العملية؟».

«انتهت بالنسبة إليك. فيما يخص مشاركتك بها».

«لكن لماذا؟».

«كف عن التصرف كمغفّل».

لم يجد سكيب رداً.

«اجلس سكيب، اجلس، أريد أن أتكلم معك».

يبدو أن الكولونيل أحضر معه بعض البريد: مغلفان على منضدة القهوة. «هل هذا يخصني؟».

«اجلس أرجوك».

جلس على الكرسي المجاور «ما هذا الكتاب؟».

رفع الكولونيل غلاف الكتاب: أصول التوتاليتارية، «حنة أرندت».

«المرأة التي كتبت عن محاكمة أيخمان».

«عندما يعصى عليّ النوم أقوم بقراءته. ولم أنم منذ مدة طويلة يا صديقي. ولا غفلة عين. أمسك هذا الكتاب وأشاهد الكلمات وهي تمرّ». ترك الصفحات تنفتح وقرأ بصوت عال:... في المراحل الأخيرة للتوتاليتارية يظهر الشر المطلق مطلقاً لأنه لم يعد ممكناً استدلاله من الدوافع البشرية المفهومة». طرح الكتاب على المنضدة «هناك ما يجعلك ترتعش في كل صفحة. هؤلاء اليهود مهووسون، مثلما يجدر بهم أن يكونوا. نحن مهووسون بقدرهم. غير أنهم يخبرون الحقيقة عما يواجهونه. الشرّ المطلق».

فنجان الكولونيل، كما رأى، كان فيه قهوة سوداء. ربما يكون صاحياً، لم يشمّ سكيب رائحة خمرة، لكنه بدا ثملاً تماماً.

«عمتك بريدي تريد الطلاق مني».

قال سكيب: «لكنها كاثوليكية».

«لم يعد أحد كاثوليكياً. ليس حقاً. لم أحضر القدّاس منذ سنوات».

«وإذن... هل فقدت إيمانك بالرب؟».

«أجل، فقدته، وأنت؟».

«بالتأكيد».

أخذ الكولونيل نفساً عميقاً، وكأنه يتنهد، لكنه حملق فحسب بسكيب.

«سيد ترانج أنا معجب بك»، قال.

نظر سكيب خلفه. كانا وحدهما.

«تريد الطلاق؟ قالت ذلك فعلياً؟».

«غادرت ماكلين عندما غادرت العام الفائت. العام قبل الأخير. قبل التيت. أتتذكر كيف كنا نحدّد الزمن منذ اغتيال كنيدي، والآن منذ التيت؟».

«وقالت لك حينئذ؟».

«قالت لي لكنني لم أصدقها. وهذا جيد لها. لن أعترض على ذلك».

«هل قدّمت أي سبب؟».

«يعلم الرب أن لديها ما يكفي من الأسباب».

«لكن بالتحديد؟... أم أن الأمر لا يخصني».

«تقول إنني أخوض هذه الحرب لكي أهرب من إخفاقاتي في الحياة، وهي محقة حول الهروب. إنني هنا لأنني أرفض العودة إلى مسقط رأسي. ولمَ أعود؟ مكان محير مليء باليساريين المخنثين غريبي الأطوار. وماذا لو عدت حقاً؟ ماذا بعدئذ؟ أتقاعد في نورث كارولينا وأموت ويطلقون اسمي على جسر طوله أربعين قدماً فوق غدير ما. على أية حال، إنها محقة. الحرب مع الشر المطلق هي عذر كاف لكي تدير ظهرها لبقية الأمور. لذا إنها تطلقني».

«وهذا أحبطك»، قال سكيب، «حظّ تماماً من عزيمتك».

الآن ترك الكولونيل نفسه يتنهد بعمق. «الكثير من المتاعب هنا مؤخراً. حمولتي الخاصة من الهراء، هذه المسألة مع ترانج... أمك وكل شيء... أنا آسف يا سكيب... إنني آسف».

«بخصوص أمي؟ أم بخصوص المسألة برمتها؟».

«بخصوص كل شيء. بخصوص أمك بالتأكيد... بخصوص كل ما أتحمل اللائمة عليه في الموضوع. والذي هو معظمه. لكنّ أحداً منا لن يخرج من هنا سعيداً. لقد خسرنا هذه الحرب. خسرنا العزم».

تكلم عن نفسك، كان سكيب راغباً في أن يقول له، لكنه أدرك فوراً أن ذلك رد فعل متفائل. قال: «أتريد شراباً؟».

«لا، لا أريد شراباً».

«حسناً».

«فلتشرب أنت».

نادى ثو. قال الكولونيل: «السيد ثو أعد القهوة وأرسلته إلى البيت».

ذهب سكيب إلى المطبخ وسكب لنفسه كأساً وتجرعه دفعة واحدة. سكب آخر وعاد إلى مقعده قبالة عمه، وقد شلّ الخوف حركته. حياه بالكأس. تلك الجرعة الثانية جعلت عينيه تغرورقان بالدموع، وقال الكولونيل: «هذا سيهدئ قشعريرة بدنك!»، بنوع من الافتعال الجاف الذي هو نفسه بدا مجفلاً منه. جلس حاملاً كوب القهوة، وعيناه ترمشان بمواجهة ضوء لم يستطعسكيب تبينه، ذلك أن الغروب كان وشيكاً... «لن أشعر بالمؤاساة حتى من الملائكة»، قال.

كان سكيب واعياً بأن مشاعره هي مشاعر طفل أمام شخص بالغ - أمام أمه، على سبيل المثال، في نوبات وحدتها - راغباً في أن تمرّ اللحظة فحسب، منتظراً أن يسمع عبارة «هذا كل شيء، يمكنك الذهاب»، منتظراً نهاية لهذه الحميمية المعتدية.

طوال ثوان طويلة حملق به عمه وكأنهما لم يلتقيا قبلاً «أسمعت خطاب تنصيب نيكسون؟».

«لا»، قال سكيب، «جزءاً منه».

«تكلم عن الإيفاء بالالتزامات، حفظ شرفنا - لا عن النصر، لا عن مستقبل

فييتنام أو مستقبل الفتية الذين نراهم هنا. نيكسون. بصرف النظر عما يقوله، يمكنك أن ترى ذلك في عينيه: لقد لعب اللعبة كلها في رأسه، حركة بعد حركة، ونحن نخسر. هكذا يرى الأمر. من انتخبتَ، الديمقراطيين؟».

«لا أحد. نسيت الحصول على بطاقة انتخابية».

«لطالما صوّت للديمقراطيين، هذه المرة بتردد. همفري[1] كان ليخرجنا بسرعة أكبر، على ما أظن. الصبيان الكبار يرون الصورة الكبيرة. نخسر إذن. في الصورة الكبيرة هذا غير مهم. عندما يصل الأمر إلى التوازن الجيو سياسي، مجرد حقيقة أننا خضنا الحرب، كافية. بالنسبة إلى أمريكا سيكون كل شيء على ما يرام في نهاية المطاف. لكنني لا أقاتل من أجل أمريكا. أنا أقاتل من أجل لاكي وهاو وأمثال طباخك ومدبرة منزلك. إنني أقاتل من أجل الحرية للأفراد الحقيقيين هنا، على هذه الأرض، في فييتنام، وأكره أن أخسر. هذا يفطر فؤادي يا سكيب».

«تظن أننا سنخسر حقاً؟ أهذا رأيك، في نهاية المطاف؟».

«في نهاية المطاف؟»، بدا عمه متفاجئاً بالكلمة، «في نهاية المطاف أظن... أننا سنسَامَح. أظن أننا سنطوف في الظلمة لزمن طويل، وبعض ما فعلناه هنا لن يصوّب البتة، لكننا سنسامح. ماذا عنك؟ ما رأيك سكيب؟».

«عماه، إننا في حال من الفوضى. الفوضى».

«نصف الوكالة بقيت خارج هذه الحرب. لقد عرضت عليك العمل في تايبيه[2]، وكان يمكنني جعل ذلك يحدث».

«لا أعني الجهود الأمريكية هنا، أعني نحن، أنا وأنت، وأولئك الآخرين. إننا نواجه مشكلة مع وكالتنا هنا».

«أحقاً؟ هذا حسن. لم أشعر يوماً بأي ولاء تجاه أي وكالة سكيب. ولائي فقط

(1) Hubert Humphrey (1911–1978): كان مرشح الحزب الديمقراطي في الانتخابات الرئاسية لعام 1968 لكنه خسر أمام الجمهوري ريتشارد نيكسون.

(2) عاصمة تايوان.

لرفاق السلاح. أنت تقاتل من أجل ذلك الرجل على يمينك وذلك الذي على يسارك. إنه كليشيه، لكن الكليشيهات صحيحة غالباً».

«هذا شعوري كذلك».

«أحقاً؟».

«أعني حول من تقاتل من أجله. حقاً أشعر كذلك».

«هل... ماذا كنت تفعل في سايغون؟».

«أجل»، قال سكيب، «هذا ما كنت أخبرك عنه».

«لا، لم تكن».

«أعني بدأت به».

«إذن أنهه».

«أجل. ريك فوس أرسل رسالة بالبريد يقول فيها إنه يريد مقابلتي. فكرت بأنه يحسن بي أن أذهب، لذا...». تمنى لو أنه لم يضف الكلمة الأخيرة، مثل تلميذ مدرسة متردد.

تململ الكولونيل في مكانه وكأنه سيقف إلا أنه بقي مكانه، عالقاً بين تياراته الخاصة، فاركاً وجهه بأصابعه، «تناولت العشاء مع بيتشفورك قبل يومين... لا أظن أننا قلنا كلمتين لبعضنا. فقط جلسنا هناك على سطيحة نادي اليخوت متأملين النهر وهو يتدفق. لم نتكلم. لم نضطر إلى...

«ذات يوم في المعسكر، في بورما، في فورتي كيلو، هناك في بورما، عندما كنت مريضاً بالحمى وافترضت أنني سأموت، أعطاني بيضة. سلقها وقشرها وأطعمني إياها قضمة قضمة. أحد أفضل الأمور التي فعلها من أجل أيّ كان. فعل كرم حقيقي. لكنه لا يتذكر الحادثة. يظن أنه لابدّ من أن يكون شخصاً آخر. لكنه كان هو. أتذكر من كان. أنديرز بيتشفورك أعطاني بيضة.

«أن نعيش بعد هذه الويلات معاً ثم أن نجلس ببساطة ونتناول وجبة في مكان مثل نادي اليخوت، أن نتشارك قليلاً من الراحة... ليس لديك أدنى فكرة. هذا

أفضل من اللحظة التي تمدّ فيها ابنتي الصغيرة، آني البالغة أربع سنوات، يدها الصغيرة نحوي و... أن أسير ممسكاً يد ابنتي الصغيرة. وأنظر وأراها تنظر إليّ. الحب الذي يجمع بين الرفاق هو يمثل هذه الكثافة.

«وكل ما أستطيع قوله هو اللعنة على ريك فوس، اللعنة على فوس لما فعله. لا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر. لا يمكنني أن أريه حتى لمحة عما فاته. لن يعرف أبداً. كل ما يمكنني قوله، فوس: اللعنة عليك».

انتظر ساندز لكي يتأكد من أنه انتهى.

«كولونيل أنت وأنا صديقان».

قال الكولونيل: «أجل سكيب إننا صديقان».

«نحن معاً في هذا».

رفع الكولونيل فنجان القهوة وأمسكه بكلتا يديه «أخبرت فوس بكل شيء، صح؟».

«أحقاً فعلت؟».

«ألم تفعل؟».

«تناولنا الغداء».

عمّ سألك؟».

«أظن أنه كان فضولياً عن أين كنت، لكنني لم أعطه فرصة للسؤال. إنني مربك جداً، لكي أصدقك القول».

«وهل تركته يستمتع بحالة مشابهة من الإرباك».

«أجل سيدي، أنا أكيد من أنني فعلت. كان ثمة رجل آخر، كروديل».

«لا أعرفه، كروديل؟».

«من مركز الأمن القومي».

«ماذا أيضاً؟».

«لم يكن هناك سوانا. تناولنا الغداء. لكنني رأيت الألماني».

«أي ألماني؟».

«ذلك الرجل من سان ماركوس. وميندناو».

«المدعو الملحق العسكري؟ من المخابرات الألمانية».

«لا يهم من أين هو، إنه في سايغون الآن».

«إذ، إنهم يحضّرون لأمر ما. وهذا سبب إضافي لإخراج ترانج من هنا. أكان الألماني مع فوس؟».

«لا، رأيته قبل ذلك، قبل الغداء».

«الألماني؟».

«صح. كان وحده. ربما لا تكون له أي صلة بنا».

«إن لم يكن معنا فهو ضدنا»، تفرّس بسكيب، «لنفترض ذلك فحسب حول الجميع».

«لم أدل بأي معلومة».

«ماذا كنت تفعل مع فوس؟».

«تناولنا الغداء، الغداء، هذا كل شيء».

«ذلك الرجل كروديل. ماذا كان يريد؟».

«إنه يسعى وراء رأسك. رؤوسنا جميعاً».

«وتركوك تغادر؟».

«أجل سيدي».

نهض الكولونيل بعزم وكأنه بحاجة إلى شيء ما لكنه وقف فحسب خلف النافذة وأخذ ينظر إلى الفناء، وقد تقوست قامته إلى الخلف قليلاً، واضعاً يديه على خاصرته وصولاً حتى عموده الفقري، وقد نتأت ربلتاه من بنطاله الأسود، وبرزت بطنه الكبيرة إلى الأمام. وقفة رجل عجوز. أنفاس مجهدة حادة. كان يختنق بانفعالاته.

قال سكيب: «شعرت بنوع من التعاطف من قبل فوس».

«لا، لم تشعر. لا تخدع. مع كل احترامي لأم ريك فوس، ومع أملي بنجاة روحه، فذلك الرجل ابن عاهرة لعين».

جلس ثانية على الأريكة ورفع ثنية ساقي بنطاله، حيث لم تكن مرئية فتات القماش على فخذيه. «سكيب، اسمعني جيداً. ليس من سفر جنباً إلى جنب في الأمكنة الضيقة. في الأمكنة الضيقة تتسلق وحدك. يجب أن تكون المساحة كافية حتى تعتقد أن ثمة من يقف وراءك».

«أنا أقف وراءك تماماً».

«لا. أظن أنك بدأت عملية إنقاذ مؤخرتك. اذهب وأنه العمل. أنقذ نفسك».

«عماه...».

«أظن أنني سأعود إلى أمريكا. لقد تمّ استدعائي قبل أسابيع».

«أعلم، أخبرني كروديل».

«سأبذل قصارى جهدي لكي أبقيك خارج الموضوع».

«عمي، ابق هنا».

«لقد وضعت يدي على المحراث[1]، ليس من عودة إلى الوراء».

«أعني هنا، في هذه الفيلا. فهم لا علم لديهم بشأن هذا المكان».

«إذا كانوا يعرفون شيئاً فهو عن هذا المكان، لأنك أخبرتهم».

«لم يسألوني البتة. تكلموا فقط عن كاو فوك. وكأنهم يحسبونني متمركزاً هناك».

«هذا ما تقوله أنت».

«لا يعرفون بشأن كاو كوين على الإطلاق. ولا شيء. أياً كان من وشى بنا،

(1) يقتبس هنا من الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، 9: 62، «فقال له يسوع ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله»، وقبل ذلك نقرأ في الإصحاح نفسه: «وفيما هم سائرون في الطريق قال له واحد يا سيد أتبعك أينما تمضي، فقال له يسوع: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه».

فهو لم يخبرهم».

«سكيب أظن أنه كان أنت».

«عمي، لا، لا، لا».

«من إذن؟ ليس ستورم».

«ما كنت لأفكر به. لكنني لا أعرف».

«لا. لن يحسّ بالضغط. إنه قرد. هذا ما نحبه فيه».

«هاو؟».

«هاو رجل طيب. وترانج صديقه. لن يحدث هذا».

«ماذا عن مينه؟».

«لاكي؟ لا يبدو في موضع أن يتعرض للضغط أيضاً. وأعرفه منذ كان ولداً».

«إذن لِمَ تتهمني؟ لقد عرفتني طوال حياتي. والدي هو شقيقك».

«لا يمكنني أن أشرح ذلك سكيب. ثمة شيء فيك فحسب. ليس لديك أيّ ولاء على الإطلاق».

«عمي، كولونيل... أنا لم أخنك».

«أأنا مغفل فحسب؟».

«عمي»، قال سكيب، «أنا أحبك. لا يمكن أن أفعل شيئاً كهذا. أحبك عمي».

«قد يكون هذا صحيحاً. قد يكون صحيحاً تماماً. لكن الحب والولاء أمران مختلفان»، تفرّس بسكيب وفي عينيه حاجة رهيبة. «ما رأيي في نهاية المطاف، في المحصلة الأخيرة؟ أظن أن الشاب يجد حظه في الحرب. وأنا مسرور أنك نجحت في ذلك». استند على ظهر الأريكة بارتياح، وتنهّد: «تكلم إلى مؤخرتي. رأسي يؤلمني».

مهمات ساندز – وإن لم تكن له أيّ مهمات – منعته من حضور الحفل التأبيني

للكولونيل، ولا ذلك الذي أقامته العائلة بعد أسبوعين في بوسطن، ولا الذي أقامه الجيش في الشهر التالي في بيسيدا، ميريلاند. تعرض الكولونيل للطعن حتى الموت في دا نانغ على يدّ مومس - ذبح على يد شقيق عشيقته الفيتنامية في دلتا ميكونغ -عانى التعذيب حتى الموت، أو تمّ اغتياله على يد عملاء للأعداء - هكذا تطورت قصة موته عبر سلسلة من التقارير، وصولاً إلى قصة غير جديرة بالاحترام.

عندما علم ساندز بذلك كان خلف الفيلا يشاهد ثلاثة صبية يضايقون ثور ماء مسترخ في بركة من الوحل على الضفة الأخرى من الغدير. أحدهم ركل كفله بكعب قدمه الحافية بينما أخذ الآخران يخزان ظهره بعصي صغيرة. الثور، أو المؤشرات عليه، منخراه، وقرناه، ووركاه الأعجفان وظهره، كلها لم تبدِ أي حركة. امرأة، أمهم، شخص ذو سلطة عليهم، ظهرت من وراء البوجنفيلا المزهرة فوقهم وأغوت الحيوان ببعض الخضروات، ومثل حقيقة جيولوجية نهض من سباته. سمع ساندز محرك سيارة، وأبواباً تنصفق. أدرك ذلك بعد معرفته بما جرى. عائداً إلى البيت التقى هاو ومينه وهما خارجان بحثاً عنه. كان هاو يحمل الكثير من الطرود البريدية. وشيء ما في الطريقة التي مكث فيها مينه في الخف، كان بمثابة إدراك حزين للحاجة إلى الخصوصية بين عمه ورجل البيت - وسأل سكيب: «ما الأمر؟».

«سيد سكيب، ربما سينبئك البريد بأن الكولونيل قد توفي».

«توفي؟».

«إنها أخبار مشؤومة. سمعناها من السيد الرقيب. أعطاني رسالة لك».

فاقداً القدرة على الكلام قادهما إلى حجرة الطعام حيث جلسوا إلى الطاولة. أحد المغلّفات كان بلا طابعْ بريدي. فتحه بشفرة سكينه القابلة للطي.

سكيب...

بعض الفتيان من الطوابق العليا الثلاث، أتوا بي من جحر لكي يطرحوا عليّ الأسئلة. يبدو أنه أسوأ أنواع الأخبار. يقولون إن الكولونيل توفي. لم ينجز المهمة.

بعضهم أطفأ ضوءه لكنهم لا يعرفون من. هذا ما يقولونه.

هذا كل ما لديّ لأقوله. سوف أعرف المزيد. ما إن أعرف من وماذا فسوف أمرر لك الخبر وأقسم بأنني سأكون قذراً كالجحيم.. سوف أشرب دم ابن القحبة.

بي أس ستورم

«لا أصدق ذلك، لا أصدق ذلك»، إلا أنه صدّق الخبر.

«السيد جيمي قال ذلك».

بحث عن الكلمات لكنه سمع نفسه يقول: «السيدة ديو تعدّ الغداء».

لم يردّ كلاهما.

«أين ترانج؟».

قال هاو: «إنه في الميكونج، لقد أخذناه».

«هل يعرف بشأن هذا؟».

«ليس بعد. مينه سيذهب إليه».

«يمكنني أن أعطيك بعض المال له».

«القليل فقط يكون جيداً».

«حسناً».

«السيدة ديو تـ... هل أكلتما؟ سأخبرها. بعض الحساء. سأقول لها».

وسط ذهوله من مقدرة الاحتياجات الصغيرة على التغلب على لحظة كهذه، أمر بإحضار الحساء والأرز إلى المائدة. أكل ضيفاه ببطء، وبأقصى صمت ممكن، في حين تجاهل سكيب وجبته وفتح المغلفين الآخرين اللذين احتويا على ثلاث

رسائل، وقصيدة:

30 يناير، 1969

عزيزي سكيب،

اسمي القس بول، من الكنيسة اللوثرية الأولى هنا في كليمنتس. آمل ألا تمانع بمخاطبتك سكيب، وبأنني كتبت لك بضعة كلمات عن أمك الرائعة. إنني جالس إلى مكتبي الآن، وقد اعتادت زيارتي والجلوس على الكرسي المجاور للمكتب مباشرة. يمكنني القول تقريباً إنها حاضرة هنا حالياً، على الأقلّ بالروح. لقد عدت للتو من جنازتها. كم كان من الملهم أن أكتشف بكم من البشر قد أثّرت، وكم من الحيوات قد أغنت، على طريقتها الهادئة والمتواضعة جداً.

لم ألتقك، لكن أمك كانت عزيزة علينا جميعاً في الكنيسة. لم تكن من الذين يحضرون دوماً يوم الأحد، لكنها دأبت على زيارتي في مكتبي مرة أو مرتين أسبوعياً. كانت تأتي بعد الظهر فقط لكي تلقي التحية وتتحدث، وكثيراً ما سألتني عن القداس الذي أحضر له الأحد التالي. وعندما تتحول المحادثة إلى ما أفكر به وما سأقوله، فهذا يعني بصورة عامة أنني سأتمكن من مخاطبة رعيتي يوم الأحد المقبل بمزيد من الدفء. هكذا وبصورة عفوية ساهمت بهذه الطريقة اللطيفة. لذا ومع أنني لا أسميها من مرتادي الكنيسة يوم الأحد، فقد كانت روحها حاضرة معنا في آحاد كثيرة. وروحها تبقى.

خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة أو نحوها كانت أمك روحانية كثيراً. يبدو أنها خاضت منعطفاً روحانياً. بدت أنها تستشعر شيئاً ما، كما لو أن روحها استشعرت أن رحلتها ستتجه إلى البيت. آمل أنني لا أتطفل بقول هذا، أو نوعاً ما «أخرج عن الخط»، مثلما يقول الفتية.

أضع طياً هذه الرسالة التي كانت بصدد إرسالها لك. وجدتها مطوية وجاهزة للإرسال بالبريد. لم يكن المغلف مختوماً، لكنه كان موجهاً لك، لذا أضع طابعاً

بريدياً وأرسلها لك (لم أقرأها).

بول كونيف

قس

كنيسة كليمنتس اللوثرية الأولى

(«القس بول»).

ولدي العزيز سكيبر

إنه يوم الأحد. قرأت قصيدة في «كانساس سيتي تايمز» كتبها شاعر توفي قبل ست سنوات، أسمع باسمه للمرة الأولى. سوف أضمها إلى الرسالة لكنني أريد الاحتفاظ بالنسخة المطبوعة لذا سوف أنسخها وسوف تضطر إلى قراءتها بخطّ يدي.

كتبت لك ثلاث أو أربع رسائل وكان عليّ أن أرميها، لأنني وجدت أنها ستبدو غير مشجعة. أعرف أنك تفعل ما تشعر أنه الأفضل لبلدك. آمل ذلك على أية حال. آمل ألا تكون عالقاً هناك فحسب. الناس يمكنهم أن يعلقوا في أشياء ولا يجدوا الطريق الصحيح لكي يخرجوا أنفسهم. وها أنا أعيد الكلام نفسه. يكفي من كلامي هذا.

لدي موعدان مع الطبيب يومي الاثنين والخميس الأسبوع المقبل. يحبون إجراء الفحوصات. لا شيء جدياً. لكن منذ التغير الحياتي الذي خضته عرفت بضعة مشكلات. تحصل على رعاية طبية جيدة هناك، أليس كذلك؟ أنا واثقة من أنهم يؤمنون لكم الأفضل.

حسناً، ها هي القصيدة. إنها غير مقفاة، ولكي تشعر بها حقاً عليك أن تقرأها عدة مرات. أحذرك، إنها حزينة بعض الشيء.

مرثية الأرملة في الربيع

بقلم: وليام كارلوس وليامز (1883–1963)

الأسف فنائي الخاص
حينما العشب الجديد
يشتعل مثلما اشتعل
كثيراً من قبل
لكن ليس بالنيران الباردة
التي تحاصرني هذا العام.
خمسة وثلاثون عاماً
عشت مع زوجي
شجرة الخوخ بيضاء اليوم
مع كثير من الزهور.
كثير من الزهور
تملأ أغصان الكرز
ملونة بعض الشجيرات
بالأصفر وبعضها بالأحمر
لكن الحزن في قلبي
أقوى منها
لأنه ورغم أنها كانت بهجتي سابقاً
اليوم ألاحظها
وأشيح نظري مغفلة.
اليوم أخبرني ابني

أنه في المروج
على حافة الأشجار الثقيلة
في المدى، رأى
أشجاراً لها زهور بيضاء.
أشعر أنني أرغب
بالذهاب إلى هناك
وأن أسقط بين هذه الزهور
وأن أغرق في السبخة قربها.

لقد حذرتك! إنها حزينة جداً! لذا لن أرسلها. قرأتها وأنا جالسة قرب النافذة ويديّ في حضني. بكيت كثيرة حتى بللت الدموع يديّ.

وفكرت، حسناً، هذه قصيدة. قصيدة بلا قواف. إنها تذكرك فحسب بأشياء وتعتصرها منك.

أفكر بك

أمك

عزيزي سكيب

أظن أنك سمعت بأن الحياة الدنيوية تحطّ من الحياة الروحية. هذا ما يخبرنا به الجميع. ما لا يبدو أنهم يدركونه هو أن الأمر يمضي بالعكس، وأن الحياة الروحية هي التي تفسد الحياة الدنيوية. فهي تمنح كل متعة مذاقاً كريهاً بعدها. الأمر الوحيد الذي تشعر بأنه صحيح هو السعي إلى الرب، وإن كان هذا لا يشعرك بالسرور دوماً أو بأنه أمر طبيعي.

إذن، في لحظة أريد أن أكون أماً طبيعية، وبعدها بعشر ثوان من كوني كذلك، ومن تصرفي كذلك، أشعر بالرغبة في الفرار إلى الرب، الذي لا أحبه إلى هذه

الدرجة. أحبك أكثر.

لكن عليّ أن أسعى إلى إرادة الرب. إرادة الرب بالنسبة إليّ هي المسعى الوحيد الذي على قدميّ القيام به. الرومانسية ليست جزءاً من هذا. الفرار من أجل علاقة عاطفية. الفرار إلى كاو كوين.

أتفهم الرسالة؟ ربما. ربما لا.

يمكنني قول المزيد لكنني سأكرر نفسي فحسب بكلمات مختلفة.

كاثي

ملاحظة: قلبت عملة معدنية لكي أقرّر، وها أنا أوجه هذه الرسالة باسم وليام ساندز. ربما ستصلك وربما لا.

تفحص المغلف. جاءت الرسالة عبر مكتب البريد الأمريكي في سان فرانسيسكو.

وداعاً للنساء في حياته. وللكثير سواهن.

«أأنت واثق من أن الكولونيل رحل؟ توفي؟»، سأل مينه.

«أجل. إذا كان حياً لكنت ما زلت أشعر به». وضع مينه عيدان الأكل ولامس صدره بلطف لكي يشير أين يشعر به.

«أعرف ما تعنيه».

«الكولونيل مات، أشعر بذلك في قلبي».

«أجل، قطعاً. أشعر بذلك أنا الآخر».

أخذ سكيب يجيل نظره في المكان، نحو بلاطات الأرضية، والجدران، والفتحات المغطاة بشباك العنكبوب على الأطناف، باحثاً عن دليل على شكل الأيام الآتية.

كل ما نظر إليه كان محتشداً بصورة يتعذر اجتنابها بذكرى محددة، تافهة،

لحظة اختبرها منذ سنوات طويلة، الذهاب مع زملاء في السنة الجامعية الأولى من لويسفيل إلى بلومينجتون بعد عطلة نهاية الأسبوع، يداه على المقود، الثالثة فجراً، الأضواء الأمامية للسيارة تفتح خمسين ياردة من الصمت كهرماني اللون في الظلمة. مكيّف السيارة ينفث الهواء الدافئ، الرائحة الثملة لشبان في سيارة مقفلة. أصدقاؤه ناموا وقاد السيارة بينما تنبعث الموسيقى من الراديو، والليل الأمريكي المغطى بالنجوم، لا متناه تماماً، يحاصر العالم.

صبيحة السابع عشر من مارس، قبل يوم من عيد ميلاد العمة جيانج، جلس نجوين مينه، الطيار في قوات الجوّ الفييتنامية، أمام زبدية من النودلز، إلى واحدة من طاولات كثيرة تحت سقيفة محطة الحافلات الضخمة في حي تشو لون في سايغون. كان جائعاً وكانت النودلز شهية. رماها رمياً على وجهه بالعيدان وازدردها سريعاً، ماسحاً ذقنه بمنديل أبيض بعد كلّ مرة يمتلئ فيها فمه.

قدور الأرز والقريدس التي ينبعث منها البخار، كل هذه الحافلات، كل دخان الديزل هذا، الأبواق كانت تفقده صوابه... ربما شعر بمقدار بسيط جداً بأنه أكثر حساسية لأنه لا يحب العودة إلى قريته.

ضابطا صفّ أمريكيان ينظمان جنود المشاة الفييتناميين الذين يقومون بدورية في محطة حافلات تشو لون. لقد ضاعفوا من عدد الدوريات منذ الهجوم الشيوعي في مايو الماضي، الذي جاء بعد خمسة أشهر فحسب من هجوم تيت الكبير. اجتمع الرقيبان مع قائد الدورية وثلاثتهم قعدوا أرضاً على أعقاب أقدامهم ليتناقشوا. جماعة مينه أقعوا أرضاً، واضعين أذرعهم حول ركبهم.

مضى الآن على موت الكولونيل أكثر من شهر. لم يره مينه كثيراً خلال العام الماضي، لكنه بقي، بالنسبة إليه، حقيقة كبرى. من دون حقيقة أن الكولونيل يلوح بين نظره وهذين الأمريكيين، فإنهما يقفان بوضوح كوحشين فارغين،

مربكين، متجهمين، غبيين، طفلين، يحملان أسلحة مذخرة. فكرة أنهم يقاتلون إلى جانب أيّ كان كانت فكرة حمقاء.

في الحافلة اختار مقعداً عند النافذة وفتح الزجاج قليلاً وزرر قميصه عند العنق. خرجت الحافلة من المدينة على الطريق السريع السابع، وهي طريق جيدة شقها الأمريكيون، متجاوزة عربات تجرها الحمير، دراجات أجرة، وشاحنات صغيرة ثلاثية العجلات، وعابرة حقول الأرز حيث محاريث أحادية الشفرات تجرها الثيران شاقة أخاديد في الطين، وحيث طيور مالك الحزين تبرز من الفسائل في رقع قريبة قد تمّ زرعها، ونسوة يبعن البنزين في أوعية زجاجية، عبر مواقد حجرية يرتفع منها دخان الحطب، ليتحول إلى فحم لطبخ مماثل لذلك الذي تشقى عماته وبنات عمه حتى في هذه اللحظات على الأرجح تحضيراً لعيد ميلاد العمة جيانج. زوج خالته العم هاو أراده أن يسوي مسألة ملكية البيت وأجرته، وهي مسألة مؤجلة منذ سنوات، لكن الآن بات العم متحرّقاً للانتهاء منها. وعليه أن يقابل ذلك الرجل ترانج، ويرسله إلى سايغون.

ولَم يركب حافلة؟ ما زال عمه يستعمل الشيفروليه الأمريكية، كان يمكن أن يذهبا بالسيارة معاً. لأن عمه رجل جبان يمكن أن يمزقه العم هوي بأسنانه. لقد تجنب هاو شقيق زوجته في الرحلة الأخيرة. أنزل ترانج، وضعه في غرفة فوق مقهى، ومنذ شهر الآن يقيم ترانج هناك كغريب، إن لم يكن قد فرّ.

ترجّل مينه على جانب الطريق واشترى لفافة خبز وكوب شاي في دكان تذكرته صاحبته وسألته عن عائلته وأخبرته بأن قوارب النقل بالأجرة عادت إلى العمل هذه الأيام، لكن ليس بأعداد كبيرة. كانت القرية تقع على بعد ميلين من النهر المعتكر. مشى. بعد المدينة، بدأت رائحة الأشياء تختلف. المياه التي تفوح منها رائحة عفنة. الدخان المنبعث من أكوام القمامة وحثالة العشب المشتعل عابقاً بالأسطورة، وحتى بفضلات الدجاج. كل شيء كان يحمله... إلى أين؟ إلى هنا. لكن ليس إلى هذه اللحظة. هنا اصطاد على ظهر ثور إلى جانب شقيقه ثو الذي

تشبث بخيط طائرة ورقية تنساب مع الريح في الأعلى... حتى في ذلك الحين كان خيطاهما يغوصان في أعماق متعاكسة. أحدهما إلى الثانوية وسلاح الجو والثاني إلى الرهبنة.

رأى حركة قوارب قليلة على الماء. امرأة عجوز ذات وجه مليء بالتجاعيد عبرت بقاربها فوق المياه الضحلة، وكل دفعة تقوم بها بالقضيب تهدّد بأن تخطف آخر أنفاسها.

مشى مينه تحت سماء رمادية، والحزن يكاد يخنقه. دخل إلى أيكة موز وقطف ثلاث حبات وأكلها رامياً القشور في المياه كما كان هو وثو يفعلان في عالم أفضل.

تخيل شقيقه يحترق - كثيراً ما تخيل ذلك - جسد ثو في النيران، ألم رهيب في الخارج، يصعد إلى منخريه وإلى داخل جسده. ثم كما قرد يمسك غصنين للحظة، يترك الأول ويتعلق بالثاني، لم يعد الجسد، بل النيران.

لم تكن «لاب فونج» مجرد قرية. بل ميناء محتشداً، وسوقاً فيه الكثير من الدكاكين، كل شيء ما زال على حاله، كل شيء.

وجد ترانج ثان يتناول غداءه على الطاولة الوحيدة في المقهى. ابنة صاحب المقهى تجلس قبالة ضيفها من دون طعام لها، محملقة به بوجه فارغ.

«مرحباً».

«مرحباً».

«هل غرفتك جيدة؟».

«تعال لتر».

خرجا وصعدا السلم الجانبي. على سلم الدرج المطل على الخلف قال ترانج: «الغرفة صغيرة، فلنتكلم هنا».

«حسناً».

«لا يجب أن أبقى هنا أكثر من ذلك. ثمة حركة للفييتكونغ هنا. الآن لا بدّ من أن الكوادر أبلغوا عن ذكر وحيد يجري دراسة زراعية غامضة».

«هاو يريد مقابلتك».

«أهو هنا؟».

«في سايغون. سوف يلتقيك هناك غداً».

«هل سأسافر معك؟».

«لا. غداً صباحاً اذهب إلى الطريق السريع واركب الحافلة المبكرة إلى تشو لون. هاو سيلتقيك عند المحطة».

«المهم أن أغادر هذا المكان. تلك الفتاة تريد أن تتزوجني. كل يوم تقدم لي الغداء وتسألني ماذا أدرس في الأرياف. إنها كذبة مريعة. غامضة جداً. أبقى صاحياً طوال الليل أقرأ، وفي الصباح أرتدي ملابسي، وأتناول فطوري، وأخرج لكي أنام في الحقول حتى الظهر».

«أأنت خائف؟».

«إنني أفكر في المهمة».

صدقه مينه.

«سيد ثان، الكولونيل قد توفي».

قال ترانج: «أتريد سيجارة؟».

«شكراً لك».

دخنا لدقيقة بينما ترانج يفكر وأخيراً قال: «لقد كان صديقك. الأمر محزن لك».

«إنه كذلك، ويعني أن عمليتك لن تكتمل».

«أثمة شيء آخر، عملية أخرى».

«هاو سيعتني بك».

«ما هي الخطة التي في فكرك لي؟».

«لقد رتب العم هاو لقاء. وقد أبلغني بالتعليمات».

«وهل تأتي تلك التعليمات من الأمريكي الآخر؟».

«سكيبساندز؟ لا».

كان ترانج صامتاً.

«ما المشكلة؟».

رمى ترانج سيجارته ورسم السكون على وجهه وتجاهل السؤال، لكن مينه كان يعلم ما المشكلة. لقد اتخذ ترانج قراره، وعبر الجسر، وإذا به يجد الكولونيل ميتاً على الطرف الآخر.

«سيد ثان أظن أن عمي لديه العديد من الاتصالات مع الأمريكيين. أعرف أن صداقتكما متينة. هاو سيعتني بك». كان يعرف أنه لا يجدر به التكلم على هذا النحو، إلا أن هشاشة الرجل كانت تدعو إلى الشفقة.

ترك مينه العميل المزدوج لمصيره وسلك الدرب المحاذية للقناة القديمة. أمامه عجوز يجرّ ثور ماء من الحلقة في أنفه، وتبعه مينه، الحيوان يتمايل على إيقاع الدغل، مشحوناً بالعذاب. الدخان الكثيف ذاته يتصاعد من أكوام القمامة، البيوت القشّ نفسها، ثم بيت عمه مع قرميده الطيني البرتقالي المطلي بالعفن الفطري، البوابة المنخفضة تركت مفتوحة، متر من الحجر المصبوب تعلوه بوابة معدنية طليت بالأخضر، وقد عربشت زهور الزنبق المروسة على القضبان الصدئة - التي باتت أكثر صدءاً الآن - السلسلة التي تصل حتى الخصر والتي تفصل هذا المسكن عن مسكن الجيران في الطرف الآخر، الحديقة الأمامية التي تضمّ مقاماً دينياً خشبياً صغيراً ودزينة أو نحوها من أشجار «بونج ماي» التزيينية، التي يقال إنها تجلب الحظ الحسن، إلا أنها لم تفعل، والشرفة الأمامية الصغيرة ذات الأعمدة المفروشة أرضيتها بالبلاط اللماع، سقيفة صغيرة من البني البنفسجي ما زال يجدها مهدئة جداً للنفس.

لدى عبوره البوابة هرع نحوه ثلاثة أطفال وكأنه يحمل سلاحاً. خلع حذاءه ونزع جوربيه عند المدخل قبل أن يدخل إلى البيت.

فتاتان، ابنتا عمومة لم يتعرفهما، تغسلان الملابس في قدر فوق نيران خلف البيت. العمة جيانج تطبخ في سقيفة المطبخ. صراخ الأطفال جعلها تأتي لترى، فعبرت الفناء ماسحة يديها بقميصها وشدّت معصميه بقوة.

«قلت لك إنني سآتي».

«لا، لم تقل لي!».

«كتبت لك رسالة».

«كان هذا قبل زمن طويل! أصدقك الآن».

«لقد وفيت بوعدي».

«سوف أوقظ خالك».

قادته إلى غرفة المعيشة وتركته هناك. المقام الديني نفسه في صندوقه السماوي فوق الخزانة المطلية بالورنيش الأسود، أطول منه بقدمين. مرايا رسمت عليها تصاميم هندسية زينت المقام من الداخل، وإلى جانبه الشمعدان الضخم نفسه، أواني فاكهة، عيدان طويلة من البخور في آنية نحاسية على هيئة أسد، صف من شموع النذور الصغيرة، وشجرة بونج ماي صغيرة في إناء، ربما هي نفسها التي يذكرها من أيام طفولته. لا يستطيع أن يكون واثقاً من ذلك.

جاء خاله من حجرة النوم الصالحة، تلك التي في داخل المنزل نفسه، وقد بدا عليه النعاس والسكون، أسمر نحيفاً، بالكاد تغير على الإطلاق، يكل حزام سرواله الطويل ويزرر قميصه من دون أن يقول شيئاً. تبعته العمة جيانج، مربتة زوجها بعصبية على رأسه. رأس صغير، وجه مدور، تجتمع عناصره في وسط الوجه. كما دائماً، كان وجهه خلواً من التعابير.

جلسوا الثلاثة على الأرضية المبلطة حفاة الأقدام، يحتسون الشاي ويتناولون الحلوى من زبدية بلاستكية كبيرة ذهبية اللون على نمط تاج أحد الملوك في إحدى

القصص الشعبية. سألته العمة جيانج عن حياته العاطفية وعن تفكيره بالزواج، وعن سلاح الجو، وعن الجنرال فان العظيم، وليس عن شقيقها هاو أبداً. العم هوي بالكاد تكلم. لم يجد مينه حاجة للإتيان على ذكر البيت، والإيجار المتأخر. فهو لم يعد بعد كل هذه السنوات إلا لأن هاو أرسله في عمل إلى هنا.

بعد نصف ساعة قال العم هوي: «ماذا عن الطعام؟».

«أنا ذاهبة»، قالت زوجته، وثلاثتهم نهضوا عن الأرض.

أخذه العم في جولة عبر الممرات وعرف ابن أخته بفخر إلى أناس يذكرهم مينه من طفولته. سأله الجميع لماذا لم يأت إلى عيد ميلاد عمته مرتدياً البزة العسكرية. في منزل شقيق هوي الأصغر تركتهم المرأة وحدهم بينما احتشد الكثير من الأقارب الذكور احتشدوا لكي يحيوا الطيار العائد. هذا الأخ، توان، وإن كان يُسمّى عم مينه، لم يكن يمت له بقرابة دم. بدا أن توان قد تغير. ليس من شيء فيه بدا صحيحاً. ربما عانى من جلطة ما. على جانبه الأيمن بدا ذائباً - الجفن، الكتف، قدمه اليمنى بدت تغور عند الركبة. عينه اليمنى بدت مفتوحة واسعاً. ربما تعرض لإصابة. الفييتكونغ، وفقاً للأمريكيين، ينشطون على امتداد الميكونج كله منذ هجوم تيت، وإن لم يكن مينه واثقاً من ذلك. ربما كان عمه توان واحداً من الفييتكونغ. لم يأت مينه على ذكر إعاقته. لم يفعل أحد. دخن الرجال السجائر وشربوا الشاي بفناجين صغيرة. عندما سأل أحد الحاضرين مينه عن عمته وعمه في سايغون، قاطع العم هوي شرح مينه المهذب حول سعادتهما، قائلاً: «إنه يؤجرني بيت بلا أرض. عليّ أن أستأجر أرضاً من سانج العجوز. سانج يحصل على أربعين بالمئة من محصولي. وهاو يظنّ أنه يعاني».

عادا إلى البيت، واضطجع هاو لقيلولة في سرير طفولته.

أفاق مرتبكاً. في مكان ما أسلاف ديكة طفولته كانت تصيح مثل طفل مخنوق، وللحظة حسب أنه الفجر. جلبة الأطفال وهم يتضاحكون ويتصايحون. وصلت العائلة - لابدّ من أنها نهاية العصر. الغرفة، المسقوفة بألواح صلبة من

الصفيح، كانت واجهة أكثر منها جداراً، وأزاح شبكة البعوض وجلس على السرير لكي يرى، على بعد أمتار، الأنصاب التي تغطي صورتي اثنين من أعمامه الكبار. على هذا السرير اعتاد أن ينام مع شقيقه الصغير. رائحة الملاءات جديدة نظيفة إلا أنها تغطي الفرشة نفسها وعبقها المتعفن بفعل التعرق والبطانة القديمة، وفوق رأسه السقف المطلي بالزنك نفسه الذي جاء وشقيقه للعيش تحته بعد وفاة أمهما، مع العائلة التي لم تكن عائلتهما. وكونهما غريبين فقد تقرّبا من بعضهما أكثر كحال الأطفال الوحيدين، من دون أي حسّ بأن الزمن قد يفصلهما عن واحدهما الآخر.

عند الخامسة من بعد الظهر استدعى العم هوي العائلة إلى غرفة المعيشة.

انتظروا حتى أضاء الشموع عند المقام الديني أمام البيت، متنقلاً بين أشجار الأفوكاتو والكومكوات، عبر سراويل وقمصان وكنزات جيرانه المعلقة بعلاقات بلاستيكية ملونة على امتداد السور المتشكل من السلسلة الفاصلة. انحنى إجلالاً، وجاء إلى الغرفة الأمامية من دون أن يحيي أحداً، وعبر البيت لكي يقف أمام أنصاب الأضرحة، ثم عاود الدخول ووضع بطانيتين على الأرض في صدر الغرفة. ثم جلس شابك القدمين مستقيم الظهر أمامهم جميعاً. الآخرون، الأطفال، العمات، أبناء وبنات العمومة، العائلة التي هو كبيرها، جلست إلى الجدران، الأصغر سناً منهم وراء حدود الحجرة تماماً، محيطين عامودي الشرفة مسندين ظهورهم عليهما، مثل أسرى موثقين إلى الأشجار. أصغت العائلة إليه بصمت وهو يجّه كلامه إلى مينه: «لطالما كانت أختي وصهري جائرين تجاه هذه العائلة، وأنت أيضاً كنت جائراً تجاه هذه العائلة. لقد ذهب والدك إلى الثانوية بينما حرثت وحصدت. وعندما مات قالوا إنه مرض أصيب به بسبب ذهابه إلى الجبال، لكنني أظن أنها كانت ضربة مباشرة من روح والدنا، الذي مات وهو يكدح رافضاً التخلي عن رقع الأرز حيث ابنه، شقيقي، والدك، كان يجب أن

يعمل بدلاً من الذهاب إلى الثانوية. تزوجت أختي عمك هاو، وهو رجل أعمال، لكي يؤمن لابني أختها حياة في المدينة وتعليماً في المدارس ويحضرهم للازدهار. زوجها، هاو، لم يكن لديه حاجة لهذا البيت. والده تركه له. زوج أختي هاو لم يعش فيه البتة. زاره في طفولته، ثم انقطع عن المجيء عندما توفي جداه. ثم كان هذا البيت فارغاً. ثم توفي والد هاو. زوج أختي هاو هو آخر المتبقين من العائلة. لم تعد لديه عائلة. يسمينا عائلته، لكنه يعاملنا كالجياد والثيران. الأناس الذين تراهم في هذه الغرفة اعتنوا بهذا البيت من أجل زوج أختي هاو. هذا البيت كان ليتداعى ويدمر في الأعاصير، وكانت الحشائش لتخترق الجدران، ولم يكن شيء فيه ليبقى واقفاً لولا كدّنا اليومي. أترى الضمادات على يدي؟ أترى ظهر زوجتي المحنيّ؟ هل رأيت زوجتي وهي تكنس الغبار عن الجدران هذا الصباح بعد أن سارت إلى حقل الأرز وعادت؟ هل رأيتها وهي تطبخ لك وجبة رائعة لكي تشاركها معنا جميعاً؟ هل رأيت المائدة العامرة؟ أيمكنك أن تشم الحساء الشهي؟ انظر إلى الدجاج، الكلب، الفاكهة، وشمّ بخار الأرز - أترى العرق على وجهها من البخار؟ كل من تراه في هذه الغرفة يعمل هكذا لكي تتمكنوا أنتم من العيش في المدينة. لا ندفع الإيجار. هذا اتفاقنا مع زوج أختي هاو. قال لنا إن عنايتنا بهذا البيت تسدد ثمن الإيجار. لقد عملنا جميعاً أكثر مما كان يجدر بنا أن نفعل. بدلاً من العمل كالجياد والثيران كان علينا أن ندفع الإيجار وندع البيت يتداعى حولنا. سوف أحرق هذا المبنى أرضاً. هذا الرجل هاو أرسلك لكي تقول لي إنه عليّ أن أشتري بيتاً لي، وقد جئت بلا أيّ شرف أو حب لعائلتك لكي تبلغني برسالته هذه. هذا زمن حروب. ليس لدينا ما نعتمد عليه سوى عائلتنا. أنت إنسان خال من الحب، ومن الشرف، ابن لص يسرق البيت من هذه العائلة. الجميع هنا سيموت عندما أحرق هذا المبنى الذي ليس بيتاً لأنه يسرقه. عمتك أعدت لك وجبة رائعة. تناول الوجبة تحت هذا السقف ثم عد إلى المدينة وقل للرجل الذي تزوجت أختي منه إنه ليس له عائلة سوى زوجته لأن هذا المبنى صار رماداً، وكلنا متنا».

فضّ عمه رجليه المتشابكتين ونهض واقفاً، ويداه مطويتان أمامه.

قال مينه: «شكراً لك يا عماه».

صفق العم هوي بيديه وتقدم إلى المائدة وحمل طبقاً من رزمة الأطباق الخزفية. وتبعه الآخرون بصمت، مالئين أطباقهم أو زبدياتهم من الفاكهة المحتشدة، الأرز المتبخر والحساء، وأشلاء الكلب والدجاج.

بعض الأطفال كانوا أصغر من أن يفهموا الخطاب. أكلوا سريعاً وتركوا زبدياتهم على الأرض، وهرعوا يتضاحكون إلى الفناء، وعادوا طلباً للمزيد من الطعام. الأطفال الأكبر سناً بدأوا يلعبون أيضاً. أما البالغون فتكلموا عن أمور أخرى، في البداية بشيء من التحفظ والخجل، ثم باهتمام فعلي، أخيراً بقدر من الحماسة. وأنشدت الشابات الأغنيات. اقترح عمه أن يقول لهاو أن البيت وساكنيه قد دمروا بقنبلة أمريكية. شكره مينه مرة أخرى.

عندما أفاق صبيحة اليوم التالي كان عمه قد خرج إلى حقول الأرز. تناول مينه القهوة مع عمته وبعض أولاد العم، وعانقهم واحداً واحداً، وخرج يمشي على الطريق المحاذية للقناة إلى المدينة، حيث سيكون عليه أن يشرح لعمه هاو أن الحصول على مال من عمه هوي يبدو عناء أكثر مما يستحق.

جثا سكيب أمام أحد الصناديق، وأخذ يرفع رزم البطاقات - رائحة ورق ولصوق، بعض الغثيان، الغضب، تلك الأشهر الطويلة مع هذه الروائح في فمه، ذهبت كلها هدراً - حتى عثر على الملفات التي تبدأ بحرف T، وأخذ يقلّب حواف البطاقات، وسحب ثلاثة منها مكتوبة بخطّ عمه:

إلى س.

انتصب عامود من الدخان فوق الطوف مثل شجرة سدر، ناشراً عطراً حلواً

جداً في العالم إلى درجة أن الأمم هتفت: «من هذه الطالعة من البرية كأعمدة من دخان بالمر واللبان وبكل أذرة التاجر؟».

نشيد الأناشيد، 3: 6

إلى س.

وأعطي عجائب في السماء والأرض دماً وناراً وأعمدة دخان. تتحول الشمس إلى ظلمة، والقمر إلى دم، قبل أن يجيء يوم الرب المخوّف.

سفر يوئيل، 2: 30، 31

إلى س.

«عمود سحاب»، سفر الخروج، 33:9، 10... وفي الترجمة الحرفية «شجرة دخان».

مضى عليه ستة أسابيع في فيلا بوكيت منذ وفاة عمه، حالة من التشوش والعقبى عديمة الجدوى، نكهة جديدة لأسره هذا. جاء هاو مرة أسبوعياً مع المجلات والبطاقات البريدية المعزية بموت بياتريس ساندز. لا حركة من قبل مركز الأمن الإقليمي أو أياً كانت الجهة التي يعمل كروديل لصالحها، في ما يتعلق بمسألة مشاركته في مخطط مشبوه. بالتأكيد مع موت المخطط الأساسي ورحيله، فقد لاح نوع ما من العفو. انتظر أن يأتيه هاو بمذكرة الاستدعاء. لم تبلغه أي كلمة من أي مسؤول.

رأى ساندز أنه من المناسب، في الوقت الحالي، أن يقوم بتدوين ملحوظات لنوع ما من السيرة الغيرية لمجلة دراسات استخبارية التابعة للوكالة، شيء يكون أكثر توسعاً وأكثر إضاءة وتعمقاً على تجربة الكولونيل فرانسيس كزافييه ساندز، بدلاً

من بضعة أسطر من النعي نشرت قبل عشرة أيام في صفحة «أحداث مهمة» في مجلة نيوزويك. جلس إلى المكتب في الغرفة العليا التي شغلها مؤخراً ترانج، عميل الكولونيل المزدوج، وفتح صفحة فارغة في دفتر اليوميات. ما الذي يعرفه هو ولا تعرفه نيوزويك؟ نتف معلومات متناثرة. عمته غرايس، التي تزوجت من العائلة، قالت إنهم من آل شوجنسي من مقاطعة لمريك، أما لماذا اختار جده الأكبر، تشارلز شوجنسي، اسمساندز، وما إذاكان اسمه تشارلز حقاً، فقد بقي ذلك طي الكتمان. وكانت العمة غرايس قد روت لسكيب في صباه أن تشارلز وصل إلى بوسطن، كالجميع، على متن سفينة أمريكية، لأن الطائرات لم تكن قد اخترعت بعد؛ ربما وصل المهاجر الجديد إلى الشاطئ مع طاقم السفينة وقدّم نفسه كمواطن أمريكي، متقمصاً اسم القبطان. عمل على رصيف الميناء، وتزوج عند أول فرصة سانحة، وصار أباً لولدين، فتاة وصبي، ومات في الثلاثينيات من عمره من دون أن يكون قد رأى من أمريكا أكثر من ميناء بوسطن. وفهم سكيب أن ابنه فيرغوس كدح أكثر من تشارلز، وأنجب أولاداً أكثر - رايموند، وفرانسيس ووليام، ثم فتاتين، مولي ولويز - وعاش أطول، حتى الخمسينيات من عمره. وقد درس الصبية الثلاثة في مدرسة سانت ماري الابتدائية. وعند هذه النقطة يتحول تاريخ العائلة بصورة أساسية، مثلما سردته غرايس، إلى تاريخ فرانسيس، الأخ الأوسط. فرانسيس طرد من المدرسة بسبب سلوك مشين، ثم عاد لدراسة الثانوية في سانت ماري، حيث انضمّ إلى فريق كرة القدم، وتصرف بنزاهة ودرس باجتهاد، وكسب منحة دراسية إلى نوتردام. في سقوطه وخلاصه حول نفسه إلى شخصية قوية، الشخص الذي تتجه إليه الأنظار، القدوة، الذي سقط على وجهه ثم نهض ووصل إلى نوتردام.

لم تكن ذكريات الكولونيل نفسه تواريخ، بل مجرد خبريات. لم تكن تشكل سيرة ذاتية. دخل نوتردام، إذا كان سكيب يتذكر جيداً، في العام 1930 أو 1931. مجدداً علامات جيدة، طالب سنة أولى يلعب مع نوتردام خلال السنة الأخيرة

من قيادة المدرب نوت روكني الذي لم يأت الكولونيل كثيراً على ذكره، وفهم سكيب أن المدرب الشهير لم يبد اهتماماً بخريجي السنة الأولى. انتقل فرانسيس إلى اللاعبين الأساسيين في منتصف عامه الثاني. تخرج متفوقاً في صفه، من دون أن يفعل شيئاً، حتى ذلك الحين، لكي يميز نفسه عن أيّ شاب قوي متحمس، ما عدا في تعليمه، الذي منحه فرصة تتجاوز الخيارات الواضحة للطبقة البوسطنية الوسطى التي ينتمي إليها - أرصفة الميناء، جهاز الشرطة - لكن التي يبدو أنه تخلى عنها عند تخرجه، ساعياً وراء المغامرات.

أياً كان ما اختبره فرانسيس وجعل منه رجلاً مجنوناً وبطلاً، فقد عثر عليه في مرحلة ما، كما استخلص سكيب، بين عامي 1935 و1937، وهي فترة غامضة في سيرة عمه. يبدو أنه اتجه غرباً. وقد سمع سكيب كلاماً عن تنقله في قطارات الشحن وإقامته في مخيمات المتشردين ومشاركته في مباريات «الروديو»، كما سمع عن بيت دعارة في دنفر، وفترة سجن، وزواج قصير غامض - كل هذا من والدته بياتريس، ولا شيء منه من الكولونيل نفسه. ولكن أكثر من مرة أشار الكولونيل إلى تجارب طيران قام بها - إذ عمل على إيصال السياسيين الذين يجولون على المزارع وفي رش الحقول بالأسمدة، كما عمل على مقربة من المدرجات وحظائر الطيران، لا شيء اعتقد أنه يستحق الإسهاب فيه - وعن ارتباط ما بالعمال الصينيين في سان فرانسيسكو خلال الحقبة عينها، عندما كانت اليابان تشن الحرب في أرضهم. سواء أكان أحد الطيارين الذين التقاهم، أو حدث ما يتعلق بالصينيين أمسك به من رأسه ووجهه نحو بقية حياته، فلم يكن سكيب يعرف ببساطة؛ في نهاية العام 1937، على أية حال، عاد فرانسيس الشاب، الذي أصبح في السادسة والعشرين، إلى بوسطن، وعثر على عمل في الميناء، وتسجل في كلية المدينة لدورات ليلية مصممة للمساعدة على النجاح في امتحان الدخول إلى كلية الطيران في سلاح الجو. دخل الجيش، تدرب في تنيسي على طائرات «ستيرمان» وفي مسيسيبي ولاحقاً فلوريدا على طاشرات «فالتي

فاليانتس» منخفضة الجناحين، وبحلول العام 1939، برتبة كابتن، كان يقود طائرة «بي 40 وارهوك» المقاتلة متدرباً – في الوقت الذي يفترض أن ينام فيه – على قيادة طائرات أكبر، بما فيها القاذفات.

في العام 1938 تزوج من بريدجد مكارثي، صديقة من الطفولة. وبحلول العام 1940 كانت له ابنة، آن، وابن على الطريق، فرانسيس جونيور، الذي غرق في صيف 1953، أثناء إبحاره في سباق من ميناء بوسطن إلى نانتكت. ولا مرة سمع سكيب عمه يأتي على ذكر هذه المأساة.

باكراً في 1941 استقال الكابتن ساندز من الجيش وفقاً لاتفاق ما بين الصينيين والحكومة الأمريكية والشركة شبه العسكرية «الشركة المركزية لتصنيع الطائرات»، لكي يطير، مع زهاء مئة أمريكي آخرين، كمرتزقة لسلاح الجو في جمهورية الصين في مجموعة كلير شينولت التطوعية الأمريكية، المعروفة باسم «النمور الطائرة»، بمهمة حماية طريق بورما التي تشكل خط الإمداد للقوات الصينية. كل متطوع أمريكي تلقى وعداً بإعادته إلى الجيش برتبته السابقة مع مبلغ 600 دولار شهرياً ومبلغ 500 دولار لقاء كل طائرة يابانية يقوم بإسقاطها. عندئذ قاد الكابتن طائرته «بي 40» في أكثر من أربعين طلعة جوية، وكسب حصته من الغنائم. بيد أنه في ديسمبر 1941 – بعد أيام من موت شقيقه في بيرل هاربور – وقد عرض أن يحل محل زميل مصاب بالملاريا كطيار لطائرة «دي سي 3» معدلة خلال هبوط بالمظلات للكوماندوس البريطاني، من بينهم أنديرز بيتشفورك، فوجئ الكابتن خلال رحلة العودة بتعرضه لنيران مضادة يابانية للطائرات، وتحطمت طائرته بين المستنقعات، لكن ليس قبل – كما زعم – أن يتعرض الجانح الثاني للإصابة. على الرغم من مساعدة السكان المحليين، فقد قبض عليه اليابانيون وأجبر – ومعه بيتشفورك الذي قبض عليه أيضاً، وواحد وستين ألف أسير آخر، على العمل في طريق سكة حديد سيام – بورما: المرض، الضرب، التعذيب، الجوع. مرة قدمت له بيضة مسلوقة. بطريقة غامضة وضع على سفينة خارجة من بانكوك

للنقل ربما إلى لوزون، ربما إلى اليابان نفسها، تمكن الكابتن من الفرار قبالة ساحل ميناداناو عبر حيلة رهيبة. أحد السجناء الآخرين أصيب بالجنون خلال حجزهم في سجن يكاد يفتقر إلى الهواء، وتوعّد آسروهم بأن يقفلوا البويب ويتركوهم جميعاً يختنقون إن لم يتوقف عن الصراخ. الكابتن ساندز، الذي اختير من قبل الأسرى، قام بخنق الرجل حتى الموت. كان الفرار ممنوعاً؛ أولئك الذين يتركون في الخلف سيعاقبون؛ لكن الكابتن، وقد لطخ روحه في مساعدة الآخرين، طالب بحق القيام بمحاولة عبر رفعه إلى البويب مع جثة ضحيته. إذا رماه اليابانيون من السفينة بصفته ميتاً، كما أمل، فسيمر هروبه دون انتباه. نجحت الحيلة. وعلى الرغم من الوهن الذي لحق به بعد عام من سوء المعاملة والعمل الشاق فقد تمكن من السباحة لأميال، وعاش لأسابيع في الأدغال، وعاش لسنتين في سلسة من قرى الجزر في بحر سولو قبل أن يتمكن من العثور على مكان على سفينة شحن أخذته إلى أستراليا. فوراً عاود الانضمام إلى سلاح الجو الأمريكي وعاد إلى بورما في طلعة جوية سرية، على الأغلب مع وحدات كوماندوس بريطانية. كسب تنويهات مثيرة للإعجاب، وارتفعت رتبته سريعاً، وخرج من الحرب كولونيلاً، الكولونيل، الشخصية الحديدية التي حطمت المطارق.

رأى الكولونيل العنف بوصفه بشرياً بلا مناص، والمحاربين بوصفهم متمتعين بنوع خاص من البركة. لابدّ من أن الانتماء إلى الجيش في زمن السلم أثار حنقه. ليس طويلاً بعد الحرب توقفت الترقيات. هنا فترة مظلمة أخرى. بالنسبة إلى ضابط فإن نهاية الترقية كانت علامة سيئة تعادل الصرف من الخدمة. السبب المحدد لمشكلته مع الجيش - الانتهاك أو المخالفة، الخطوة الخطأ - لم يجد طريقه إلى سجله، إلا أن السبب العام لذلك كان واضحاً بما فيه الكفاية. عرف الكولونيل كيف يقود، لكنه لا يستطيع أن يقاد.

كما فهم سكيب الأمر، تقدم الكولونيل بطلب انتساب إلى المخابرات ما إن شكلها ترومان في 1947، لكنه لم يقبل مرات عدة، وفي الأثناء خدم في قواعد جوية

جنوبية عدة، فترة مؤقتة حول خلالها لهجته البوسطنية إلى شيء فريد، وقوى من عادات شربه الخمرة. قبلته الوكالة في بداية الخمسينات، وافد متأخر ضمن الجيل الأول ذلك، دخيل من دون أيّ خلفية في «مكتب الخدمات الاستراتيجية» إنما يتمتع بخبرات كبيرة في جنوب شرق آسيا، حيث كانت الصين الحمراء آخذة في الصعود. في الفلبين، ولاوس وفييتنام، وأحياناً – في البداية – في مالايا مع أنديرز بيتشفورك والطيران الاستطلاعي المالاوي، للمرح فحسب – دائماً في دور شبه عسكري، عموماً خارج حصانة لانجلي، يتركز غالباً في أوروبا الشرقية والسوفييت.

في لوزون عمل بكثافة مع إدوراد ج. لانسدال، في التصدي للتهديد الشيوعي هناك، لاسيما لمقاتلي الهوكبالهاب (جيش الشعب ضد اليابانيين). معسكرات الاعتقال شكلت شخصيته: الإيمان بالنفس، التعلم في سياق العمل، القتال من دون تفكير بالاستسلام، الأمور الخاصة بالأبطال. أما لانسدال فشكل مناهجه: ثق بالسكان المحليين، تعلم أغنياتهم وقصصهم، كافح لكسب قلوبهم وعقولهم. عل نحو مثير، وربما غامض، بدا أن الكولونيل لم يكن له أيّ اتصال بالجنرال لانسدال خلا فترة خدمته في فييتنام.

فييتنام كانت ذروة حياة الكولونيل المهنية، ومحطة إخفاقه أيضاً. لو ترك يعمل على هواه هناك لكان ربما ربح الحملة بمفرده، أما الآن فقد بات التهديد الآسيوي محمولاً على محمل الجدّ، لانجلي بدأت تسدي الاهتمام. تدخل الكونغرس. استاء الكولونيل علانية لإلغاء الانتخابات الموعودة، وتأجيل إعادة التوحيد الموعودة. مع وصول الجيش الأمريكي بقوة أكبر، وجد الكولونيل بانتظاره. القوات الخاصة أو القبعات الخضر لم تعطَ له – ربما بسبب اتساع نطاق تركيزه، ولأن مصادر سلطته ضبابية جداً. فجعل نفسه لا يستغنى عنه في مجموعة معينة للهجوم بالمروحيات، ثم في 1965، مع الفرقة 25 في سلاح المشاة. صار ملك كاو فوك، العمليات النفسية، المتاهة. وشجرة الدخان.

أكثر من أي شيء آخر، ساهم الوقت الذي أمضاه الكولونيل مع لانسدال في الفلبين في تحديد رؤيته. بعد أن آمن بسطوة الخرافة، أصبح كذلك هو نفسه، جزئياً في حياته، وخصوصاً في موته. بحسب نجوين مينه، الطيار الشاب الذي أسماه الكولونيل لاكي، فإن الكولونيل كانت له زوجة في أو بالقرب من «بين داي»، قرية في دلتا ميكونغ. بعد القبض على الكولونيل وقتله على أيدي الفييتكونغ، أعيد جسده إلى القرية إما ليضرب به المثال للآخرين وإما تكريماً للطريقة التي تحمل بها عذاباته الأخيرة – سلم إلى أرملته مع أصابعه، عينيه، لسانه، كلها أشلاء، وكل عظامه محطمة. فقام أبناء تلك القرية، التي كانت يوماً رعية كاثوليكية، بدفن جثته في فناء الكنيسة – التي كانت من الخيزران ولا شيء بقي منها في ذلك الحين – في تابوت من خشب الماهاجوني الخام المختوم بالقطران. بعدها مباشرة، قبل أن يصب الباطون فوق التابوت أمطرت لأيام متواصلة، وهو أمر نادر جداً في ذلك الوقت من السنة. تحت وابل المطر، ومن دون جذور تمسكها، صارت التربة البنية سائلاً إلى درجة أنه بعد ثلاثة أسابيع من وجود التابوت تحت الأرض ارتفع إلى السطح وعاد الكولونيل من العالم السفلي. رفع القرويون غطاء التابوت فوجدوا طياراً أمريكياً رائعاً أسود الشعر أصابع يديه وقدميه لم تمس؛ الكولونيل الشاب فرانسيس، بلا أيّ تشوهات. أحاطوه بالحجارة، طعنوا تابوته بالثقوب لكي تدخل المياه، وأغرقوه ثانية في قبره. ومع ذلك لم يحمله القبر. المزيد من المطر، القناة القريبة فاضت على فناء الكنيسة ورفعت الكولونيل في تابوته. وشوهد وهو يشق طريقه فوق نهر هاو؛ رأوا التابوت في آن هاو، كاو كوان، كا جوي، متجهاً إلى فم دين آن وإلى بحر جنوب الصين.

جيمي ستورم، فور سماعه الشائعة سافر إلى القرية. وجد امرأة يبدو أنها كانت زوجة الكولونيل، ورافقه القرويون إلى قبر الأمريكي. كان المكان بحالة جيدة، أما فيما يخص من يرقد هناك، ومنذ متى، وبقية الأمور، فقد وجد ستورم نفسه وحيداً، لا أحد يتكلم الإنجليزية، ولغتهم الفرنسية سيئة، ولغته أسوأ – فغادر

من دون أن يعلم شيئاً. أما سكيب فحصل على هذه الرواية بعد المرور بحجب متتالية، من هاو، ثم من مينه، الذي وجه ستورم إلى القرية.

بيد أن سكيب سمع خبراً من العمة غرايس، وأيضاً توكيد نيوزويك أن الكولونيل دفن في ماستشوستس – دون تكريم عسكري، استجابة لطلب زوجته. سكيب آثر الخرافة، فقد تضمنت الحقيقة. في هذا العالم وقف عمه بشموخ، وهو شموخ يزداد ضخامة في مخيلته الخاصة. أسف سكيب للدور الذي أسند إلى الكولونيل في النهاية، بوصفه خائناً للصورة. ففي نهاية المطاف لم يبحث الكولونيل عن أسباب تدهور العملية فحسب، بل أسباب تحطم فؤاده أيضاً، بحث عن الخيانة في صلب الأشياء على هيئة قذارة كلاسيكية، وما الذي يمكن أن يكون أقذر، أكثر رومانسية بصورة قاتمة، من خيانة أحد أفراد أسرته له، ابن أخيه، من لحمه ودمه؟ روح أكبر من هذا العالم. رفض أن يرى السقوط كأمر نموذجي، رفض التعاون مع أمثال ماركوس أوريلوس «قد تفطر قلبي»، كتب الإمبراطور العجوز، «لكن البشر سيستمرون كما السابق». كتب نفسه على نطاق واسع، تبع ملحمة رحلته الخاصة، طارد خرافته وصولاً إلى متاهة من الأنفاق إلى أرض خرافية من قصص الأطفال صعوداً إلى شجرة دخان.

جاءت مذكرات الاستدعاءات في مغلف مستعمل موجه له عبر العمليات النفسية، بعد ثمانية أسابيع من موت الكولونيل. الغداء ثانية. فوس ثانية. ساندز توقع كروديل أيضاً.

طلب من هاو أن يتركه عند الدوار قرب النهر ومشى بضعة أحياء إلى الكونتيننتال، ودخل يتعرق بكثافة. في الردهة، جلس فيك روس على كرسي مقوس على النمط الياباني. وحده. نهض فوس وصافح سكيب بشيء من الإرهاق، وكأنه وصل إلى هذا المكان بعد قطع أنهار وجبال. «آسف بشأن الكولونيل!».

«لقد كان رجلاً عظيماً».

«بكل تأكيد. وأنا آسف».

«وأنا كذلك».

«جميعنا كذلك. مؤخراً نحن رزمة واحدة من المتأسفين».

كانت قرابة الحادية عشرة ظهراً. قالساندز: «هل تشعر بالجوع؟».

«لنسم هذا ما قبل الغداء. أردت أن أستبق الأمور هنا».

«تستبق الأمور؟ لم لا يعجبني كيف يبدو هذا؟».

«أحتاج إلى أن ألتهم مهانة صغيرة قبلاً».

«لا حاجة لذلك. هلا جلسنا؟».

«مهلك. لدينا زهاء خمس دقائق».

«إلى أين سنذهب؟».

«هلا تركتني أتكلم؟».

بالطبع».

«شكراً، شكراً جزيلاً»، قال فوس، «إليك خطابي. منذ اللحظة التي سمعت فيها بموت الكولونيل، كنت أشعر أنني قطعة ملكية من البراز. بعض الشباب يظنون أنه كان متبجحاً، بدائياً. لا يشاركهم الجميع هذا الرأي. بعض الشباب يعتبرون أنه كان رجلاً عظيماً بحق. لم أبدأ واحداً منهم، لكنني انتهيت كذلك. وهذا اعتذار، رغم ضآلة قيمته. كنت مخطئاً بأن أمرر مسودة مقالته تلك. أولاً، لم يكن هو من كتبه حقاً. فقد كتبت تسعين بالمئة منه، ولم أمانع بأن أجعله يظهر بمظهر سيء. وأظن أنني مررته فقط لكي أسدي خدمة لبعض من لا يحبونه، الذين أظن الآن أنهم سفلة تماماً. وأنا آسف جداً يا سكيب».

«قبل الاعتذار».

«حسناً اسمع»، قال فوس، «إليك المشكلة. المقالة حركت الآلة. والآن قد رحل، لذا... فلنأمل أن يكون هذا كاف، صح؟ لكن الآلة عليها أن تقوم بمزيد من

المضغ قبل أن تخمد هذه المسألة. يجب أن تتم الأمور دورتها فحسب. لا يمكن اختصارها. لذا تمّ استدعاؤك للعودة إلى لانجلي».

«هل أفسر هذا كأمر؟».

«صح. إننا نعيدك إلى الوطن».

«حسناً. هل سيرغب المركز هنا بالتحدث إليّ أولاً؟».

«أظن أنك ستتعرض لمراجعة سريعة».

«لست مرتبطاً فعلياً بالمركز. أنا من العمليات النفسية».

«أنت في البلاد. وهذا كل شيء. إنك في مسرح العمليات. سيريدون كل المعلومات قبل أن تدلي بها للانجلي».

«من هم؟».

«تيري كلوديل».

«تبدو حفلة».

«يريد إخضاعك لجهاز كشف الكذب».

«لكم ذلك. أنا مستعد لكل ما من شأنه تقديم العون»، قال سكيب.

خمّن سكيب أن معظم الأدوات المحتشدة على الطاولة التي بحجم طاولات المؤتمرات تخص جهاز كشف الكذب. ميكروفون على حامل أمامه، وقربه مسجلة كبيرة.أخذ ينظر إلى دوران بكرتيها، واحدة سريعة والأخرى بطيئة. وبجانب المسجلة قبعة كروديل الخضراء. وقد ارتدى زيّ القوات الخاصة هذا، وشارة نقيب على عروته.

«حسناً، أظن أن هذا... لا أعرف ما هذا».

«ما هو؟».

«قلت إنني لا أعرف».

«قلت إن لديك فكرة».

«فكرة؟».

«قلت إنك تظن أنك تعرف ما هذا».

«متى قلت ذلك؟».

كروديل ضغط على ذراع في المسجلة وعثر على المكان، صوت سكيب وهو يقول: حسناً أظن أن هذا... «ها هي».

«هذه مجرد... إنني أتمتم».

توقف الكابتن كروديل وحدق بضع ثوان قبل أن يقول: «جيد بما فيه الكفاية. جيد جداً. كنت أتأكد فحسب».

ضغط على زر وهو يرفع يده عن الذراع وعاودت البكرتان دورانهما.

«أأنت حقاً من القوات الخاصة؟ أم أنه زيّ؟».

«إنه زيّ».

«متجر من هذا؟».

«نحن مع مركز الخدمات الإقليمية، نوعاً ما».

«ظننت أن مقركم في مانيلا».

«هذا مقر مؤقت».

«وأنت جندي حقيقي».

«بربك».

«بربك أنت. ها قد أتيت إليك. إنني هنا. السؤال هو أين أنت؟».

«أحياناً تكون وراء المكتب وأحياناً في الميدان، لكن هذه المادة، شجرة الدخان هذه، ليست شيئاً مكتبياً ولا ميدانياً. إنها تقع في مكان ما بين أدغال الرومانسية والاضطراب العقلي». أوقف كروديل المسجلة وقال: «إن برازكم هذا فوضى»، وشغل المسجلة ثانية.

«كان مجرد تمرين افتراضي. سيناريو. حرب نفسية».

«لن يفيدك التلاعب بالتعابير».

«كابتن، لست هنا لأساعد نفسي. أنا هنا لكي أساعدك».

«تحت أيّ غطاء تعمل هنا ضمن فيلق المشاة الخامس؟ تحت أيّ اسم».

«أستعمل وثائقي الخاصة».

«لا غطاء».

«إنه أنا فحسب».

«أريدك أن توضح لي بعض التعابير من هذه المقالة التي تحمل عنوان... حسناً، لا عنوان. لكن أوضح لي بعض التعابير».

«بكل سرور، بقدر ما أستطيع إذا كان هذا يساعد».

«العزل – هذا يعني فحسب أن تضع أصابعك في أذنيك عندما يصدر أحدهم أمراً».

«هذا تبسيط، لكن هذه خلاصة التعبير».

«بصورة أساسية قطع نفسك عن التسلسل القيادي».

«مجدداً هذا تبسيط».

«من دون تسلسل قيادي، ما نحصل عليه هو الإقطاعية. الآن، بالطبع نحن نتكلم بصورة مجازية عن الإقطاعية الإدارية. لكن في هذه الحالة أظن أن الإقطاعية كانت حقيقية. نظن أن عمك، الكولونيل، كان إقطاعياً».

قال سكيب: «أظن أنك وصلت إلى طريق لغوي مسدود».

«إنني كذلك بقدر اقتراح نشاط خياني».

«أظن أننا ننظر إلى متاهة لغوية».

«(خطر فقدان الحراك)».

«ماذا؟».

«فقدان ثم شَرْطَة يليها الحراك».

«أوه، بحق السماء. (حرّك الأمور وإلا خسرت). يردد ذلك طوال الوقت. كان يردده بالأحرى».

«من دون تسلسل قيادي فإن ما تحصل عليه هو قائد ميليشيا. كان يدير وكالته الصغيرة الخاصة».

«وتعبير (حرّك الأمور وإلا خسرت) يثبت ذلك؟».

«مقالته تثبت أنه اعتبر ذلك واجبه. كان يدير فرع عمليات خاص به – اغتيالات في مينداناو، على سبيل المثال. وعميله المزدوج الخاص أيضاً، هنا تماماً».

«أين؟».

«هنا؟ أنت تعرف... في مكان صغير يدعى فييتنام الجنوبية».

«أيّ عميل مزدوج؟».

«سكيب، لا أقصدك أنت!».

«الآن تثير اشمئزازي. حرفياً».

«نحن لا نتهمك بالخيانة».

«ماذا إذن؟ إذا كان من اتهام فقل لي ما هو. لا تخبرني بما ليس هو».

«نريد اسماً فحسب. إذا كان الاسم الذي لدينا أصلاً، فستكون قد أكّدته».

«أعطني الاسم الذي لديك وسأعطيك التأكيد لو استطعت».

«سكيب، أنت تعمل... لصالحنا».

«أجل، أفعل، وبكل فخر، ولكن...».

«ماذا إذن سكيب».

«تستطيع فهم تردّدي».

«لا سكيب، لا أستطيع».

«من مكاني هذا، فإن المنطقة التي تخوض فيها، حدودها إذا كان لها حدود، تبدو ضبابية بعض الشيء. أشعر بالحاجة للحصول على تأكيدات منك بأننا سنبقي الكلام... في أمور مهمة».

«تأكيدات؟ ماذا؟ أنا لا أؤكد شيئاً».

«فلنقل إنني لا أريد المخاطرة بالمصالح المتداخلة».

أوقف كروديل المسجلة ثانية: «أية مصالح؟».

«أية مصالح».

«يا لها من ترهات».

«هذا ما أفكر به بالضبط».

«حسناً، اللعنة»، أجفل كروديل، أخذ يحملق بالأرض لثلاثين ثانية ثم رفع رأسه ثانية «إنني مستعد لإسقاط هذا السطر. فقط أكد لي، أكد لي، أنه لا وجود لعملية غير مصرح لها».

«كان تمريناً افتراضياً. لو كانت هناك عملية حقاً، لكانت منتهية. يمكنني أن أؤكد لك ذلك».

«انتهت تماماً».

«وكأنها لم تكن يوماً».

«حسناً. لنتوقف عن التسبب بالصداع لبعضنا»، تابع كروديل التسجيل، «بالنسبة إلى التمرين الافتراضي في الحرب النفسية الذي يحمل اسم شجرة الدخان. في حديثنا الأخير تكلمنا أنا وأنت عن بعض الملفات».

«ملفات؟».

«أين هي ملفات الكولونيل؟».

«ملفات؟».

«قاعدة البيانات المتعلقة بشجرة الدخان».

«إلى أين تريد الوصول من هذا كله؟».

«يا له من سؤال سخيف».

«لا علم لي بأي ملفات».

«يا له من جواب سخيف».

«حدّد لي ما تعنيه. أنا هنا لأساعد».

«يا للهراء».

«أقول إن الهراء كله منك».

«مجموعة الكولونيل من البطاقات قياس 3×5 بوصة».

«أوه أجل. تلك كانت مواد أرشيفية. لا أعرف إلام آل مصيرها».

«متى كانت آخر مرة رأيت فيها المواد؟».

«في الفلبين... كنت أصنف بعضها، ثم أخذها مني. راجع مكتب الخدمات الإقليمية هناك. ربما أحدهم يعرف. راجع في كلارك فيلد. هناك رأيت المواد آخر مرة».

«فوس رأى تلك الصناديق هناك. في سايغون. في مقر السي آي أيه بعد وصولك تماماً».

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. أو أنه مشكوك فيه كثيراً. فقد أخذت مني في كلارك».

«كانت هنا».

«إذن نقلت إلى هنا بعد أن أخذت مني».

«سكيب. أي نوع من المسار المهني تعتقد أنك تتبعه؟».

«نوع من المسار المتعرج. الموجه إلى الأسفل. أيمكنني أن أخبرك عن الملفات. لقد كانت أرشيفية بطبيعتها، فات أوانها كثيراً، لا أهمية راهنة لها. لو كانت معي لما كان لدي سبب لكي أخفيها، لا دافع. لو كانت لدي، لكنت سلمتها فوراً».

«أتعرف ما أحبه في أسلوبك؟ نقبض عليك متلبساً بالكذب وأنت تواصل وتواصل».

«أوصلني بالجهاز. سوف أنجح».

«أوه سوف نوصلك به».

«سوف أنجح، فلننتقل إلى الجهاز».

«إضافة إلى ت. ب».

لم يقل سكيب شيئاً.

«تحليل بول؟».

«أوه. لا بأس بهذا».

«الكثير من استعمال المهدئات في الفيلق الخامس. لا نعرف من يمكن أن يعلق في الشباك».

«جئ لي بجرّة وسأبول فيها».

أوقف كروديل آلة التسجيل، وقف مستنداً إلى الطاولة ثم أمسك الشريط الكهربائي الموصول بها وسحبه من القابس من الجدار، فارتدّ القابس بسرعة باتجاه وجهه فتفاداه وأخذ يرمش بتردد، قبل أن يعاود الجلوس قائلاً: «سكيب، لا أصدق هذا. لم أرَ أحداً يؤذي نفسه إلى هذا الحدّ وبمثل هذه الصورة النهائية. ومن دون سبب وجيه. ما العبرة؟».

«لا أعرف يا رجل، ثمة شيء فيك يثير استيائي فحسب».

«أنت جيد تماماً في هذا. أتمنى لو كنت تعمل معنا».

«لن أقترب من هذا الهراء».

«رائع. فلنلتق الجهاز. سأعود». خرج، تاركاً ساندز بمفرده.

بعد ثوان سمع ساندز حركة في الردهة. لمح نجوين هاو يمرّ بالباب برفقة رجل أسود.

طوال عشر دقائق جلس ساندز بمفرده إلى طاولة المؤتمرات وأفكاره تتخبط في الفراغ.

عاد كروديل مع رجل متوسط العمر، من الواضح أنه مدني، وقدمه على أنه تشامبرز، التقني، «تشامبرز يمارس هذا منذ وقت أطول من الوقت الذي كنا جميعاً نكذب فيه».

«حقاً؟».

قال تشامبرز: «أكثر من عشرين عاماً».

«أنا في نهاية الرواق إذا احتجت إلي»، قال كروديل وخرج بينما جلس تشامبرز قرب ساندز ونظر تحت الطاولة.

حين جلس ثانية قال: «لقد خضعت لجهاز كشف الكذب من قبل».

«أجل مرة واحدة، ماذا هنالك تحت الطاولة؟».

«إنني أتأكد فحسب من أنه غير موصول».

«أوه».

«هذا التشغيل التجريبي».

«أوه».

«إذن خضعت للجهاز قبلاً، مرة واحدة فحسب؟».

«أجل. من أجل التصريح الرسمي».

«حسناً، الآن هذا الاختبار. سوف نقودك على الأرجح عبر الخطوات نفسها التي خضعت لها في المرة السابقة من أجل التصريح الأمني. ما نسعى إليه هو الحدّ الأدنى من الضغط الناشئ من الاختبار. بكلمات أخرى، ها ها، استرخ يا صاح».

«أنا مسترخ».

«بكل تأكيد. ماشي. لديّ سؤالان».

«ماشي».

«هل تدربت على أساليب تجنب قول الحقيقة خلال خضوعك لجهاز فحص الكذب؟».

«أخبرت بذلك ولم أتدرب. ذكروا الأمر لي».

«لم تتلق تدريباً باستعمال الجهاز الفعلي؟».

«لا، أبداً».

«بعد الجلسة سيجري فحصك جسدياً. سوف نفحص لسانك لنر ما إذا كنت تعضّ عليه، ويديك بحثاً عن آثار شد بالأظافر، وهكذا دواليك».

«لقد سمعت عن هذه الأشياء، لكنني لا أتذكر متى يفترض أن تستعملها. عندما تكذب أو عندما تقول الحقيقة، أم...».

«هل تدرّبت على تقنيات إبطاء التنفس والمحافظة على الهدوء تحت الضغط، هذا النوع من الأمور؟».

«ليس لهذه الأهداف. لم أتدرب على ذلك. فقط... ابق متماسكاً عندما تلعلع الأسلحة، تنفس ببطء عندما ينبض قلبك بسرعة شديدة، هذا النوع من الأمور».

«إذن، الخطوة الأولى: هذا الاختبار يتكون من عشرين سؤالاً. لدي الأسئلة هنا، وسوف تقرأها بصمت بمفردك. نفعل هذا لكي نزيل أيّ عنصر مفاجأة من الرسم البياني. هل تفهم هدف الاطلاع المسبق على الأسئلة؟».

«أجل، إزالة ردود الفعل المتفاجئة».

فتح تشامبرز مغلفاً أسمر وسلمه إياه. كانت الأسئلة مطبوعة على ورقة واحدة معلقة بطية المغلف الداخلي بمشبك أوراق. قرأ سكيب الأسئلة.

«في هذه المرحلة أثمة ما تحتاج إلى الاستيضاح عنه حول العملية؟».

«هل سيكون هناك اختبارات أخرى؟ بعد هذا الاختبار؟».

«أوه حسناً. الاختبار نفسه يتكون من أربع اختبارات، كل واحد منها يتضمن أسئلة مختلفة، رغم أن بعض الأسئلة قد يتكرر في اختبارات تالية أو في الاختبارات كلها. عذراً. نسيت أن أقول هذا. أمن شيء آخر تحتاج إلى استيضاحه في هذه المرحلة؟».

«لا أظن ذلك».

«إذا احتجت إلى أيّ توضيح في أي مرحلة، فما عليك إلا أن تسأل. لكي تألف هذا الإجراء مسبقاً، سوف أصلك بالجهاز من دون أن أشغله. الجهاز لن يكون شغالاً. هل تفهم أن الجهاز لن يكون شغالاً؟».

«الجهاز مطفأ، أجل».

«عندما يعمل الجهاز سوف يتحرك الشريط الورقي، وتلك الإبر الثلاث

ستتحرك صعوداً ونزولاً لكي تنشئ خطوطاً على الشريط».

«فهمت».

«عليّ أن أطلب منك نزع قميصك رجاء».

أذعن ساندز وعلق قميصه على ظهر كرسيه.

«والساعة، ضعها على الطاولة فحسب. أأنت أعسر أم أيمن؟».

«أيمن».

«هلا وضعت يدك اليمنى هنا على الطاولة رجاء؟ مدها مفتوحة فحسب». لفّ تشامبرز سوار جهاز قياس ضغط الدم حول زند ساندز. «سوف نسجل ضغط الدم، والتنفس، ورد فعل الجلد الاستثاري. لو تميل إلى الأمام رجاء». مال ساندز إلى الأمام ولف شامبرز أنبوباً مطاطياً لونه بيج حول صدره ووصل طرفيه بمشبك معدني صغير «أهو مشدود أكثر من اللزوم؟».

«لا، لا أعرف. أنت التقني».

«هذه المشابك توضع على أطراف أصابعك هنا. هذا يعطينا درجة حرارة الجلد». بعد مشابك الأصابع، أخذ تشامبرز يتحسس الوصلات برقة، السوار والأنبوب والمشابك، وقام بتعديلات صغيرة، ثم أسند ظهره على الكرسي.

«مرتاح؟».

«قطعاً لا».

«حسناً، لا أحد يكون مرتاحاً. لقد اطلعت على الأسئلة، صح؟».

«أجل».

«التي بعضها يبدو على الأرجح غبياً، وبعضها يبدو غير ذي صلة بالموضوع. بعضها يبدو بوضوح حقيقياً وبعضها الآخر زائفاً. هكذا نحصل على قراءة لردة فعلك على فئات مختلفة. إنني أؤكد لك فحسب إن كل هذا له سبب».

«أفهم».

«جيد جداً. في هذه المرحلة من الاختبار التجريبي، سوف أقرأ الأسئلة عليك

لكي تسمعها بصوتي ونزيل عامل الضغط العشوائي المتولد من أي مفاجأة. لا تجب عن الأسئلة. سوف أقرأها فحسب. يمكنك إيقافي متى شئت لمناقشة أي سؤال». أخذ تشامبرز المغلف الخاص به وفتحه في حضنه. «مستعد؟».

«هيا».

«هل اسمك وليام ساندز؟...هل ولدت في ميامي فلوريدا؟.... هل تعرف مكان الصناديق التي تحتوي على ملفات الكولونيل فرانسيس كزافييه ساندز؟... هل تخرجت في جامعة إنديانا؟».

«عذراً».

«نعم».

«لدي شهادتان. بكالوريوس من إنديانا وماجستير من جامعة جورج واشنطن. إذن لن أعرف بالضبط...».

«إذن، بكالوريوس من جامعة إنديانا، صح؟».

«صح».

«حسناً، سيكون السؤال على النحو التالي: أأنت حاصل على شهادة بكالوريوس من جامعة إنديانا؟».

«ماشي».

«طيب. تستمر الأسئلة كالآتي: أتعرف ترانج تان؟... أأنت ابن أخ الكولونيل فرانسيس كزافييه ساندز؟... هل أرتدي قميصاً قصير الكم؟... أتستمتع بالكذب؟».

«لحظة».

«أجل».

«ذلك المتعلق بما إذا كنت ابن أخ... أظن أنني ابن أخ أحدهم سواء أكان حياً أم ميتاً».

«همم... أتعرف ماذا؟ عليّ أن أتأكد من هذا. عذراً».

وقف تشامبرز وغادر الغرفة، آخذاً معه الملف.

أخذ ساندز ينتظر ورأى الباب يُفتح، الذي وراءه اعتقد أنه قد يمرّ أياً من معارفه، مينه، ستورم، ترانج، أمه، عمه، والده، موكب من الأشباح.

عندما عاد تشامبرز قال: «غيرنا سؤالين. سوف أستمر بتلاوتها الآن، ثم يمكنك قراءتها وحدك ثانية، موافق؟».

«أجل، حسناً».

«هل تعرف أين هو ترانج تان؟... هل ولدت في ديسمبر؟... هل مركزك في كاو فوك، بفييتنام الجنوبية؟... هل تعرف مكان الملفات التي جمعها الكلونيل فرانسيس كزافييه ساندز؟... هل التقيت يوماً رجلاً يدعى ترانج ثان؟... ألديك ابن يدعى جون؟... هل الأضواء منارة في هذه الغرفة؟... أكان ترانج ثان متعاوناً يوماً مع الفييتكونغ؟... هل شهدت على اتصال مباشر بين ترانج ثان والكولونيل فرانسيس كزافييه ساندز؟... هل تعرف أين هي ملفات الكولونيل حالياً؟... ألديك شهادة ماجستير من جامعة جورج واشنطن؟... هل تعرف المكان المحتمل لملفات الكولونيل؟...

«هذا كل شيء. لننزع الأشرطة عنك». مع إزالة تشامبرز سوار الزند وأنبوب الصدر ومشابك الأصابع، ارتدى ساندز القميص من دون أن يزرره. قال تشامبرز: «سوف أترك ورقة الأسئلة معك قليلاً. اقرأها مجدداً بينما استأذن ثانية».

جلس ساندز ينظر إلى الأسئلة من دون أن يراها.

«لو زررت قميصك»، سمع أحدهم يقول، «يمكننا الذهاب إلى الغداء».

وقف كروديل وفوس بالباب وفيهما شيء من مزاج الأخوين الأكبرين اللذين دفعا للتو الأجرة في ماخور.

«ماذا؟».

«وقت الغداء».

«الغداء؟».

«إنها الثانية وربعاً»، قال كروديل، «أأنت جائع؟».

«أتعني الخروج؟».

«أجل. الريكس أو مكان آخر. فلنذهب إلى الريكس».

«حسناً».

«موافق؟».

«لا مانع عندي».

«إنها فترة استراحة. سوف تقرأ الأسئلة بصورة أفضل إذا سمعتها ثم نسيت أمرها قليلاً».

«أنساها. بكل تأكيد».

تبعهما عبر الصالة عبر رقيب البحرية والباب الإلكتروني المشفر وصعوداً عبر السلالم.

قبل أن يهبط الدرجات ثانية، توقف كروديل لكي يعتمر قبعته الخضراء ويثبتها على رأسه. كانت شارة القبعة شيئاً لم يره ساندز من قبل، سوداء وبيضاء ورمادية، يزنرها خط أصفر. مشوا نحو حاجز الشارع الباطوني وقال سكيب: «شعرك طويل بعض الشيء على البزة، صح؟».

«لا أرتدي البزة كثيراً».

«ما شارتك هذه»، سأله سكيب مشيراً إلى شارة القبعة.

«مركز جي أف كي[1] للقوات الخاصة»، قال كروديل.

«أين يقع هذا؟»، سأله ساندز، وبينما يعبرون الحواجز بدأ بالجري بكل سرعته حتى وصل إلى تقاطع طرق، انعطف يميناً، وركض في الدرب الأقل ازدحاماً. حيث امرأة تقطع الشارع بطفليها، أبطأ سيره لكي يمشي معهم وشقوا طريقهم بين المركبات الصغيرة إلى الجانب الآخر، ثم استأنف الجري في سلسلة من التعرجات قائمة الزوايا زهاء نصف ميل، من دون أن ينظر إلى الخلف. في شارع

(1) JFK: مختصر الاسم الثلاثي للرئيس كنيدي.

لويس باستور، دخل إلى حديقة وأخذ يمشي تحت الأشجار الكثيفة، متبنياً مشية تعلمها في كشافة أمريكا: خمسون خطوة مشياً، وخمسون خطوة هرولة.

راقب حركة الرصيف وراء الأشجار ولم ير أحداً سوى أهل سايغون المحمومين بشهوة البقاء على قيد الحياة، وهم يشقون طريقهم عبر الزمن اليومي. لكي يصل إلى هنا لابدّ من أنه قفز فوق دشم رمل، وخارج الشارع وداخله، لابدّ من أنه توقف، تقهقر إلى الخلف، تعرّج يساراً ويميناً مثل لاينباكر في كرة القدم الأمريكية، وأوقع بعض أولئك الأناس الطيبين على الرصيف، لكنه لا يتذكر شيئاً من هذا.

خارجاً من الحديقة أوقف سيارة أجرة وارتمى متعرقاً على مقعدها الخلفي وطلب من السائق إيصاله إلى محطة تشو لون. في هذا الوقت المتأخر من اليوم لابدّ من أن الحافلات أوقفت رحلاتها. حتى تستأنفها صبيحة الغد فسوف يلوذ في حانة أو معبد أو كنيسة أو كرخانة أو وكراً للأفيون. مطارد. خائن.

فاحت من حذائه الجلد رائحة الميازيب التي جرى عبرها. أخفض نافذة السيارة.

ندم لأنه اضطر لعدم القيام بالاختبار. بين الأسئلة وجد واحداً ذا معنى:

«هل تستمتع بالكذب؟».

«أجل»، كان ليجيب بصدق.

بصورة عامة اعتاد ديتريتش فست أن يتناول الغداء في مطعم يقدم الحساء في نهاية شارع «تو دو» الكبير الذي يبعد بضعة أحياء عن الكونتيننتال. أما لتناول العشاء فكان يعثر على مطاعم أفضل، ليس من بينها ما يقدّم الأطعمة الألمانية، إنما كانت جيدة بما فيه الكفاية إلى درجة أنه بدأ يقلق من ازدياد وزنه. بحلول هذا الوقت بات يألف كل مطعم يمكنه الدخول إليه. لم يحب سيارات الأجرة. ارتاح أكثر للتعامل مع الفتية الذين يقودون درّاجات الأجرة.

استعمل نقطة الاتصال في حمام «الببغاء الأخضر» مرة واحدة فحسب – لكي يعلمهم بموقع النقطة التالية. اختار مطعماً قبالة الساحة من الكونتيننتال حيث يستطيع رؤية الناس الداخلين والخارجين. وحده الرائد كينج استعمل هذه النقطة.

قال لإدارة الفندق إن غرفته ضيقة جداً، فنقلوه إلى أخرى في الجانب الغربي تدخلها الشمس كثيراً في العصارى. في تلك الليلة وضع التكييف في أعلى درجات البرودة، وعند الصباح كان صوته قد خمد وسدّت فتحاته بالجليد. اتصل بخدمة الغرف مشتكياً. جاء عاملان وقالا إنه إذا وضع المكيف على الدرجة الوسطى فسيذوب الجليد وسيعمل التكييف بصورة أفضل. رحلا متكلمين إلى واحدهما الآخر بنبرة أحسّ فيها نعرة، حدة، انزعاجاً، نوعاً من التذمر.

كان قد خطط لإمضاء أسبوعين في سايغون. وها هو هنا منذ زهاء شهرين. كل بضعة أيام يختلق عذراً للإدارة لكي ينتقل إلى غرفة أخرى.

سكن هدفه في غرفة في حي صيني فيتنامي مختلط على طرف منطقة تشو لون. في الطرف المقابل من موقع تنفيذ المهمة، ثمة دكان واحد يبيع الأقمشة وعلى الأرجح يخيط الأثواب النسائية أيضاً. على ذلك الجانب ضمّ بقية الحيّ أبواباً مقفلة وزقاقين يبدو أن نسوة صاخبات وأطفالاً يمضون فيهما معظم حياتهم اليومية: أقفاص مكان الطاولات وصناديق مكان الكراسي، مواقد تفوح روائحها، وأحواض غسيل خشبية ترشح ماء وحبال غسيل. تمكن فست من أن يمكث قليلاً، غير أنه ليس من مقهى في الشارع، لا عذر لوقوفه هناك. وقف بجوار متجر القماش وكأنه ينتظر أحدهم.

كان مدخل النزل مشابهاً تماماً للأبواب الخشبية الأخرى في الحي. بجواره أدار مالك الفندق عمله داخل مكتب له واجهة زجاجية. أشار الرائد كينج إلى هذا الرجل بوصفه «مصدر متاعب». جلس في مكتبه وحده، مدخناً سيجارة

بجو من التأمل الرقيق، بين مروحتين كهربائيتين وضعتا بطريقة حصيفة على المنضدة حتى لا تبعثرا أوراقه. كان بوسع فست أن يخمن مهنته تخميناً فحسب – مضارب، محام، مراب – وذلك وفقاً للشخصيات الصينية المرسومة على الواجهة. بينما كان فست واقفاً على الرصيف المقابل، وصل رجل يحمل ملفاً من الورق المقوى تحت ذراعه وجلس على كرسي أمام المنضدة زاماً ركبتيه إلى بعضهما والملف في حضنه، مسلماً الرجل الوثائق تباعاً.

بعد عشر دقائق شعر فست بالارتياب وغادر الحي.

بحلول اللقاء الرابع كان فست قد حسم أمره بأن الاتصال مع الأمريكيين يتمّ في اتجاه واحد فحسب. ربما توقفت جميع الاتصالات. على أية حال لم يكن لدى الرائد كينج وسيلة لمراجعة الأمريكيين بمخاوفه. إما هذا وإما أن كينج لا يبالي بالعملية ببساطة.

«لا أحب السيناريو الذي نتبعه، فيه الكثير من المصادفات غير المتوقعة».

«هناك دوماً متاعب».

«ذهبت لاستطلاع الموقع. إنه صعب. لا أستطيع المراقبة بصورة مستمرة. ليس من مقهى في الشارع ولا فنادق أستطيع أن أتخذ منها نقطة مراقبة. ليس في وسعي التيقن من ميدان العملية».

أجفل الرائد: «سيد رينهارد، أتتكلم الفرنسية؟».

«لا».

«لا أفهم تماماً لغتك الإنجليزية».

«عندما أدخل الغرفة، يجب أن أتأكد من أنه سيكون وحيداً».

«إنه وحيد»، كان الرائد يبتسم «إنه بلا اسم. أحضره إلى هذا الموقع رجل اتصال يثق به. هذا الرجل أعطانا المفاتيح. واحد للباب المؤدي إلى الشارع، وآخر للغرفة».

«إذن أعطني المفاتيح رجاء».

«أفضل أن أعطيك إياها بعد أربعة أيام من الآن».

«ألديك المفتاحان؟».

«سوف أحصل عليهما بعد أربعة أيام».

«متى موعد التنفيذ؟».

«بعد أسبوع من الآن».

«أيمكنك تكليف بعض الناس بمراقبة الموقع؟ يجب أن نكون واثقين من الميدان».

«ماذا تعني؟ لا يمكنه الخروج. إنه المكان الوحيد الآمن له. هذا ما يعتقده. يمكنك أن تطمئن لذلك».

أيها المهرج البني الصغير. تطلب مني الدخول شاهراً مسدسي من باب مقفل شاهراً المسدس وأن أكون مطمئناً.

«هل لي التقدم باقتراح؟».

«بالطبع سيد رينهارد».

«دعني آخذه إلى الخارج، بعيداً من غرفته».

«تأخذه؟ هل تنوي خطفه؟».

«ادعه إلى اجتماع في موقع يمكننا مراقبته. ربما يستطيع رجل الاتصال ترتيب ذلك. سوف نراقب المكان سلفاً قبل اللقاء. ثم يصبح الميدان لنا».

زمّ الرائد شفتيه وكأنه يفكر في الاحتمالات، «ربما هذا يجعل تنظيف المكان صعباً».

«أيجب تنظيف المكان؟».

«ليس من قبلك سيد رينهارد. هذا مخطط له. كل شيء مخطط له سيد رينهارد».

«تقول إنه فات أوان تغيير الخطة».

«علينا المضي قدماً بثقة».

في طريق العودة إلى غرفته توقف عند كشك في الساحة ومن دون أن يساوم على السعر اشترى قاموساً إنجليزياً كبيراً من زهاء ألفي صفحة. في مكتب الاستقبال في الكونتيننتال طلب الأغراض التي يحتفظ بها في خزنة الفندق، فأحضر له الموظف كيس سفر الطيران الفييتنامي. في غرفته أخرج المعدات من الحقيبة ورفع صوت الراديو عالياً. كانت الثانية ظهراً: محطة الجيش الأمريكي تبث أنباء عن رحلة مرتقبة إلى القمر. ركب كاتم الصوت للمسدس ووضع القاموس في حوض الاستحمام، وأطلق أربع طلقات عليه من مسافة متر واحد.

الصفحة الأولى التي لم تصب هي 1833. مثلما توقع، من مسافة قصيرة قد يصدر السلاح صوتاً. المزيد من الهراء. أطلب عيار 22 ملم، وتحضر لي مدفعاً صغيراً. لا يمكنني الاتصال ببرلين، بينما رواد الفضاء متجهون إلى القمر.

عادت الحرارة إلى الخطوط الهاتفية، تمكن من إجراء الاتصال، والده توفي.

انتظر سنتين لسماع هذا الخبر، إلا أنه أذهله تماماً. العجوز ربح أيامه نفساً بنفس عبر اعتلال طويل بحيث بدا أن أنفاسه هذه لن تنقطع. لم يهزمه شيء محدّد. مات في غرفته في المستشفى وهو غاف بعد الفطور. على الهاتف بدت أمه متعبة، أو غير متأثرة.

اتصل بدورا أيضاً، وانهمر بالبكاء وهو يخبرها بموت والده. «سوف أتصل ثانية عما قريب. الخطوط تعمل». لابدّ من أنه بدا وكأن الأخبار الطيبة حول شبكة الهاتف قد فطرت قلبه.

بما أن وكيل سفريات صيني يدير هذا النزل المكون من أربع غرف، فقد افترض ترانج أن رجال الأعمال الصينيين يرتادون هذا المكان.

خلال النهار يكون الشارع صاخباً، وبعد التاسعة أو العاشرة ليلاً يهدأ إلى حدّ كبير – أصوات سيارات بعيدة، مقاتلات بعيدة، مروحيات أقرب بكثير، فوق المدينة نفسها. لم يمكث من قبل في غرفة فندق في المدينة. كان يحمل مفتاحاً للمدخل من الشارع وآخر لغرفته، كلاهما في علاقة خشبية حفر عليها الرقم 1.

ينفتح الباب المفضي إلى الشارع على بيت درج ضيق يؤدي إلى رواق ضيق عالي السقف فيه غرفتان على كلّ من جداريه الجصيين وينتهي بحمام مع مغسلة، وحوض ومرحاض تنزل فيه الماء عندما يجذب سلسلة. في الصباحات يسمع وقع أقدام تمشي الرواق وجيرانه يفتحون صنبور الماء ويبصقون في الحمام، وليلاً يسمع الرجل في الغرفة المجاورة يسعل وينتقل من سريره إلى النافذة ويبصق إلى الزقاق في الأسفل.

كانت الكهرباء متوافرة. في أعلى بيت الدرج وأيضاً على سقف الحمام علقت لمبتين من الفلورسنت تظلان مضاءتين طوال الليل، إلا أنه لم يكن من إضاءة في غرفته. كان لديه مصباح يعمل على الغاز، ومرتبة رفيعة فوق إطار من الخيزران، وشبكة سرير دائرية مقببة، ومنضدة صغيرة مربعة وضع عليها المصباح، وعلبة من أعواد الثقاب، وصدفة بطلينوس كبيرة يستعملها كصحن سجائر.

كل ليلة يتناول عشاءه في مقهى على بعد شارع من النزل ويشتري مؤونته من الطعام حتى اليوم التالي. هاو أعطاه مالاً وطلب منه البقاء في الداخل قدر الإمكان حتى ينهي الأمريكيون، على الأرجح خلال أسبوع أو نحوه، ترتيباتهم. لكنه كان مضطراً إلى الخروج يومياً. لن يحرم نفسه. إنه في سايغون منذ أربعة أيام.

لم يكن من ضرورة لتحذيره بشأن التواري عن الأنظار. إذا تعرف إليه أي كان فالأمر في حكم المنتهي. أفهم كوادر الحزب أنه سيغيب بضعة أيام فحسب يزور خلالها عائلته في «بين تري» بمناسبة احتفالات التيت؛ وها هو غائب عن السمع منذ زهاء شهرين. ليس من تفسير أو كذبة لمثل هذا التغيب، يمكن أن تجنبه «التأهيل» – ساعات من النقاشات الجماعية، حتى تصبح مقتنعاً أكثر من

أي شخص آخر في الغرفة بأنك اجتزت الخط، وتطالب بأن تعاقب. حرص على إفهام الأمريكيين هذه المشكلة. ربما الأمريكيون يعرفون مرتدين آخرين من الفييتكونغ يمكنهم أن يلفقوا قصة - لا يمكنه تخيل ذلك، نوبة مرض أو إصابة - ويأتون بمن يشهد على مكانهم في خلال تغيبهم.

لن أتناول الأرز مجدداً اليوم. بل النودلز، إذا كانت بصلصة هويسين. كانوا يقدمونه بالأمس، لكنني تناولت النودلز.

الأسابيع القليلة الأخيرة، أولاً في تلك الغرفة فوق المقهى في ميكونغ، والآن في هذه الغرفة فوق مكتب وكيل السفريات، كانت أشبه بالحجز، لكن في ظل ظروف سارة بصورة مختلفة تماماً عما يعرفه عن السجن. في الزنزانة في «كون داو» نام على أرض حجرية مع اثني عشر رجلاً آخر، أحياناً على لوح باطوني غلت إليه قدميه. الحرس يقومون بدورياتهم على ممرات متقاطعة فوقهم، ويبولون عليهم أحياناً، أو يرمون البراز من دلو. الزنزانة نفسها لم تكن طويلة كفاية لرجلين، ونصف ذلك عرضاً. المساجين جميعاً اعتنوا ببعضهم بعض، لا شيء يفصل بينهم وبين القضية إلا الموت. ثم نهاية الحكم الفرنسي، التحرر، الرحلة شمالاً بالسفينة، والخولكوز، المزرعة التعاونية - مواطنو المستقبل الجماعي المتوترون عموماً، الذين تنفجر ثائرتهم من وقت لآخر، اليائسون دوماً، الذين يعيشون في غباء وغضب وخنوع. مواطنو المستقبل وجدوا القليل لكي يقولوه له. كان أكبر سناً وقد عبر البوابات الثلاث - السجن، الدم، وإنكار الذات - كل منها قادته أعمق إلى الكذبة التي علقوا بها جميعاً. والبوابة الأخيرة، التي لا رقم لها: التخلي عن الأصدقاء والأقارب، بوابته إلى السجن الحقيقي. ما إن تخلط في آن معاً دمك وقوتك وأيامك، حتى تنتمي إلى القضية. لكن الخيانة هي الأمر الأساسي.

أسعد أيام حياته كانت تلك التي أمضاها خارجاً من جبال «ترونغ سون»، متجهاً إلى دياره في طقس حسن بعد أسابيع من التسلق تحت المطر على السفح

الشمالي من الجبل، بعد الوباء الذي كاد يقتله، بعد معسكرات الفارين الذين يرتجفون جميعاً من الحمى، بعد أكوام القبور التي تعلوها عيدان البخور أو المحفرة والجثث الملتهمة أشلاء من قبل النمور الجائعة، والآن الرحلة السهلة نزولاً نحو «بين تري»، هواء الجنوب يملأ رئتيه، أشعة الشمس تسقط عبر سقيفة الأدغال، والأزهار التي تحمل اسم أمه. لكنني دخلت أرضاً كانت أمي ميتة فيها وكل الجميع ادعوا أنهم ليسوا موتى. حملتني قدماي عبر الجبال، لكنني لم أصل قطّ إلى البيت.

الخيانة أمدّت بالزخم رحلة خروجه. والخيانة سوف تعيده.

في سروال الاستحمام المشجر، جلس ساندز عاري الصدر على المقعد الخيزران في الشرفة الخلفية الصغيرة مستقبلاً النسيم الآتي من الغدير وشارباً مزيجاً من السكر وحليب جوز الهند وأشياء لن يرغب على الأرجح في أن يعرف اسمها. كل دخان الفضلات هذا، عفن الغدير الذي يشعره بالمغص، البعوض الذي يفقده صوابه. جلبة الجداجد. الحشرات التي تخفق على وجهه.

سمع صوت مركبة تعبر الدرب وتعرف صوتاً يشبه الجيب العسكري.

أربعة أيام منذ فراره، ولا أحد جاء حتى الآن. الآلهة تتحرك ببطء. أو أنهم أدركوا أنه فرّ بلا خطة، ولا مال، قفز من النافذة إلى الليل البري، وماذا – مكث في العتمة، بانتظار اعتقاله.

عندما سمع فرامل الجيب أمام البيت نهض ودخل إلى البيت.

في هذا الوقت الحار من النهار، يعلق سكيب شبكة البعوض على الباب الأمامي ويتركه مفتوحاً. شاهد عبر الباب المفتوح جيمي ستورم، بالزي العسكري والفانلة البنية وهو يعبر البوابة المنخفضة ويرتقي الدرج.

فتح ساندز الشبكة التي أقفلت بعد دخول ضيفه.

كان ستورم يحمل طرداً بريدياً على صدره. لم يقل مرحباً. بل بادر ساندز: «فوس لم يعد مشاركاً».

«عذراً؟».

«لم ينجز المهمة».

«أنت تقول إنه ماذا.. إنه...».

«حمّل في كيس الجثث. لقد أخفق تماماً».

بيده الأخرى لكم ستورم ساندز لكمة قوية فوق بطنه. رئتاه أفرغتا، وانكمش حجابه الحاجز، أعماه الدوار. انهار على ركبتيه، ثم سقط جانبياً على الأرضية المبلطة.

استعاد بعض وعيه وتنفسه بينما ستورم يلكز أذنه برأس جزمته القماشية.

«يمكنني أن أحطم رأسك بقدمي الآن، كما تعلم؟».

«أعلم»، تمكن ساندز من القول.

رمى المجلات تباعاً على وجه سكيب، قارئاً عناوينها أولاً: «هذه نيوزويك خاصتك. هذه تايم. ما هذه؟ – الرياضة المصورة اللعينة...».

«ستورم...».

«لقد حشرتنا في زاوية حرجة جداً. وضعتنا في مأزق فعلي».

«ستورم.. فلنتكلم».

«ما الذي يجعلك تظن أنني أريد التكلم إليك؟ ما الذي يجعلك تظن أنني سأناقش اللعبة مع جندي بيروقراطي مرمي على الأرض في ضربة قاتلة؟ أهذا ما علموه إياك في معهد القتال غير المسلح؟».

في حقيقة الأمر، يصنح الطالب بأن يكوّر نفسه حول أعضائه الحيوية، و«يصلي لوصول الفرسان». ولكن ذلك عندما يواجع عصابة ما، لا عندما يتمّ إسقاطه أرضاً على يد مهاجم واحد. رجل مرمي على الأرض الصلبة يمكنه أن يجد نقطة تفوق على رجل يقف متوازناً على رجل واحدة بينما يركل بالرجل

الأخرى، هذا ما تقوله الحكمة، إلا أن ساندز لم يكن مهتماً باختبارها.

«ولا تقل لي إنك فعلت ما كان عليك فعله. ذلك الهراء. فقط قل إنك فعلت ما فعلته يا رجل. قل إنك فعلته».

«لم أقل شيئاً»، قال سكيب، «حول فعل أيّ شيء».

«علينا أن نتكلم على مستوى آخر يا رجل، لأنك ترفض السقوط. ترفض السقوط. هذا ما يحدث. اللعنة إذن». أخذ يركل ساندز على رأسه وهو يتكلم.

«هل انتهيت؟ أتمنى أن تكون قد انتهيت».

«أجل لقد انتهيت. لا، لم أنته». ولكله مرتين على صدره.

استدار لكي يرحل، وصل إلى الباب، ثم عاد.

«أتظن أنني أبالي؟ خسرنا الحرب إذن، ماذا يعني؟ هل سيذهب أطفال أمريكا إلى ثانوية العم هوشي لكي يحفظوا خطاب جيتسبرغ للينين اللعين؟ هل سيغتصب العدو نساءنا في الشوارع؟ اللعنة لا. الأمر كله هراء يا رجل. سواء ربحنا أم خسرنا، سوف نكون على ما يرام. لكننا هنا. أنا وأنت وأولئك السفلة الآخرون. إنه برازنا الذي نتعامل معه. لَم لا بحق الجحيم إذن؟ السبب الكامن المهم هو (اللعنة، فلنفعل بذلك فحسب). إما أن تفهم هذا وإما ألا تفهمه».

«أجل، هذه كانت إلى هذا الحد أو ذاك نظرية عمي».

«الكولونيل على قيد الحياة».

«حقاً؟».

«أليس كذلك؟».

«لا».

«بلى، أيها اللعين».

«هذا مجرد براز».

«أجل، هو كذلك. لكنك لا تفهم. هذا بالضبط ما يدير التفاعلات. عبق البراز».

«هل ستدعني أنهض أم لا؟».

جلس ستورم على الأريكة، متنفساً بصعوبة.

«حسناً، سوف أجلس هنا فحسب، لقد تعبت».

«لقد أحبطت ما كنا نقوم به. بالنسبة إليك العمليات النفسية هي طعام أطفال. أقول لك يا رجل، إن الهراء هو المكان الذي تربح فيه الحرب أو تخسرها. لا يهم مدى ضربنا لمؤخراتهم في الميدان أو العكس».

«الكولونيل مات».

قال ستورم: «أجل. أنت جندي بيروقراطي. اختبئ هنا فحسب مثل قطعة من البوشار في رحمك الصغير هذا. يا مفقسة الخيانة أنت».

على مراحل مؤلمة تمكن ساندز من الوصول إلى الكرسي وانهار ثانية.

«كيف تشعر يا سكيبر، كالغائط كما آمل».

«جيمي».

«أجل».

«هل مات ريك فوس».

«كثيراً جداً».

«أقتلت ريك فوس؟».

«لا أيها اللعين، الفييتكونغ قتلوه. أحدهم أسقط مروحيته. يظنون على أية حال أنها هوت».

«ريك فوس مات؟».

«الجميع على متنها. بوف».

«ماذا كان يفعل في مروحية؟».

«يتسكع هنا وهناك كالمخنث، كعادته دوماً».

«يا إلهي، كانت له زوجة وأطفال».

«حسناً ليس بعد الآن جاك. سرعان ما سيحصل عليهم رجل آخر. هكذا

تمضي الترهات».

كان لفوس فتاة صغيرة، تذكر سكيب. مال إلى الأمام وأخذ كأس حليب جوز الهند عن الطاولة ووضع الكأس البارد على وجنتيه.

«إذن سكيبي الصغير، أين كنت الخميس الماضي؟».

«في سايغون».

«أين أيضاً؟».

«كنت أخضع لجهاز كذب الكشف».

«أجل، بالتأكيد كنت».

مال ساندز إلى الأمام على كرسيه. كان يحتفظ بمسدس البريتا عيار 25 ملم، في درج خزانة في الأعلى وكان لديه الدافع، المؤقت إنما الذي يكاد لا يقاوم، بأن ينهض ويطلق الرصاص على جيمي ستورم في وجهه. عندما زال هذا الشعور أحسّ بنفسه ضعيفاً إلى درجة الشلل. غطى وجهه بيديه «اسمع، هل ستغادر أم لا؟».

«أجل أنا راحل. جئت لكي أخبرك فحسب أن الكارما حولت صديقك الحميم إلى حساء».

«يا إلهي، فوس المسكين».

«أجل فوس المسكين. أتمنى لو أكون من يخبر زوجته. أتمنى أن يكون له أطفال رائعون. أتمنى أن يكون قد تذكرهم في أثناء سقوطه».

فجأة أمسك ساندز بعض مكعبات الثلج من كأسه ورماها على وجهه «آه اللعنة»، قال جيمي، «عذراً، هيا، ارم المزيد». كانت عيناه تستصرخان ذلك، تستصرخان العقاب «المرة الأولى التي رأيتك فيها فكرت هذا الشاب يبدو غامضاً. يبدو عليه تعبير (كيف أسرق محفظتك). إنه هنا في رحلة للأولاد. إنه هنا لكي يلعب الأبطال والحرامية. جئت إلى هنا لكي تلعب بالصنارة وتستعرض قصبتك الحارة اللعينة».

«إذا كنت قد انتهيت من ضربي، أرغب في أن ترحل».

«أضربك؟ اللعنة عليك. الآن الكولونيل يتعرض للتعذيب. في هذه اللحظات يحطمون كل عظمة في جسمه».

«جيمي بربك».

«أتتذكر كيف خدع اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، لقد ادعى أنه ميت».

«جيد لك، أبق الأسطورة حية».

«لست صوت العقل اللعين. لكنني أفكر بالأمور، أتحسس الوقائع. إنها سحيقة. ليس ثمة الكثير يجري هنا».

«جيمي الكولونيل مات. وكل شيء انهار».

«ماذا قال؟ ماذا قال ألف مرة؟ كيف نضع معلومات زائفة بين يدي العدو؟ تحديداً بين يدي العم هوشي؟ السيناريو الأول: عبر عميل مزدوج يدعي أنه سرق الوثائق المزيفة. ثانياً: استعمل أمريكياً حقيقياً، مزروعاً يعرض نفسه للأسر. لكن فكرته المفضلة كانت استعمال الاثنين. عندما تأتي المعلومة من مصدرين منفصلين فإنها تكتسب مصداقية».

«جيمي ركّز».

«لا يا رجل، هذا منطقي جداً. إنه واضح تماماً. لقد اختلق هذه الترهات من دون أن يخبرنا. إنه في مهمة، ونحن في أسوأ حال. لا نستطيع مساعدته. ثمة أمر بارد يجري، بارد جداً. ونحن الزنوج».

«لم يقوم بمثل هذه الحيلة من دون أن يطلعنا عليها؟».

«لماذا؟ لأنك واش، وبيروقراطي. ومخنث. يجب أن أضاجعك في مؤخرتك».

«ركز، هلا ركزت؟ من قال لك إنهم حققوا معي؟».

«أعرف أشياء».

«هاو قال لك».

«عليك اللعنة».

«ستورم، إنه هاو. إنه هاو».

ماذا بشأنه؟».

«الواشي، المخبر، إنه هاو».

«اللعنة عليك، محاولة جيدة».

«جيمي إنه هاو».

«انتبه للكارما خاصتك. انظر إلى كارمتك. راقب بينما تلتهمك ببطء من أصابع قدميك صعوداً، أيها اللعين».

«لقد استجوبوني في معهد اللغات، وكان هاو هناك».

«اللعنة». احتاج ستورم لحظة لكي يفكر بهذا الأمر، «كان معكم هناك؟».

«لا، لكنني رأيته في الرواق».

«ربما كان يأخذ دروساً».

«لديهم مركز في القبو. مكتب الخدمات الإقليمية أو سواهم. رأيت هاو يمرّ وأنا جالس هناك. أرادوني أن أروه».

نظر إليه ستورم لبضع ثوان. جهاز كشف الكذب البشري «ماذا قلت لك، إنها حرب روك أند رول. الملاعين لا يفهمون هذا الهراء». نهض ومسح وجهه بفانلته، كاشفاً الساقين الحمراوين والتنورة الخضراء لراقصة هولا موشومة على صدره، «اللعنة، اللعنة، اللعنة».

«لندع هاو وشأنه، إنه يحاول أن يعيش فحسب».

«أجل اللعنة. هذا المكان ديزني لاند مع صاروخ حشيشة. هل جربت هذا البراز؟ الأسيد».

«لم أحظ بالمتعة».

«ابق بعيداً عنه سكيبر، أنت نعّوم جداً».

لديه موقع العملية. ولديه مفتاحين يتيحان له الدخول إليه. لديه سلاح، وجدول زمني، ونقطة ملاذ أخير. إلا أنه يفتقر إلى أكثر ما يحتاج إليه.

لم يكن لديه فريق عمل. ثمة الكثير مما عليه القيام به بمفرده. عليه مراقبة نقطة الاتصال لأنه لا يثق بمكلفيه المباشرين، وعليه أن يبذل قصارى جهده لمراقبة موقع العملية. حتى لو كان هناك ثلاثة منه، فإن تدريبه السريع على المراقبة لن يفيده. كان، بالأمريكية الصريحة، «القاتل» فحسب، الشخص الذي يضغط على الزناد.

أمضى الهدف زهاء أسبوع في هذا الموقع. تكهن فست أنه ما لم يوصل إليه أحدهم وجبات الطعام فإنه سيضطر آجلاً أم عاجلاً إلى الخروج لإحضارها، وغالباً في العتمة. على أية حال، الليل هو الوقت الوحيد المتاح للمراقبة، فحينئذ يكون ظلاً بين الظلال. لم يرصد شيئاً ليلة أمس، على الأقل قبل العاشرة أو نحوها، عندما تخلى عن نقطة مراقبته. جاء أبكر بقليل هذا المساء، عند الغروب، وطاف الحي منتظراً هبوط الظلمة.

لم يحدث الغروب تغييراً كبيراً على الحياة في الأزقة. إذا كان من تغير فهو صراخ الأطفال بأصوات أعلى، ويبدو أن حضور الرجال، المتجمهين أو غير المبالين، العائدين من أي شأن كانوا يقومون به نهاراً، يجعل النسوة يزعقن أكثر. اشتاق فست إلى عائلته الهادئة بالمقارنة. دورا تتكلم كثيراً وكلود ربما يتكلم بحماقة، لكن ليس بأصوات تنافس صخب المدينة. اشتاق إلى العائلة إجمالاً. لمَ لا؟ لقد جعله موت العجوز عاطفياً وفلسفياً. في البداية هزه الخبر، لكنه سرعان ما تكيف مع خسارة متوقعة منذ زمن طويل. بعد بضعة أيام هاجمه الحزن مجدداً، وأدرك أن العجوز ما زال ميتاً. وكأن جزءاً منه كان يصدق أن والده قد توفي، والجزء الآخر يعتقد أنه سيزوره ويتكلم إليه حول الأمر.

قرر ألا يعتبر هذه العملية نوعاً من النصب العاطفي لمعاداة والده للشيوعية.

عملية تفتقر بشدة إلى الحسّ الاحترافي، غامضة بصورة غير ضرورية، ستكون بمثابة تذكار هزلي لرجل رأى واجباته بوضوح والتزم بها طوال حياته.

بينما يطوف الحي للمرة الرابعة وصل إلى ناصية الشارع حيث رأى رجلاً يغادر النزل من الباب الجانبي.

لابدّ من أن يكون هو. الآخرون الذين رآهم يخرجون كانوا يرتدون البناطيل والكنزات الخفيفة أو في حالة زوجين عجوزين، تلك البناطيل الطويلة التي نراها في الكتب الهزلية الصينية، والأهم أنهم كانوا يتحركون بحرية، يقطعون الشارع، إذا كان هذا ما يريدونه، حالما يخرجون من النزل. أما هذا فيرتدي الجينز وكنزة خفيفة ويمشي بمحاذاة الجدران، في الظلال، حتى يصل إلى نهاية الحي. مع عبوره الناصية، بدأ فست بلحاقه. تابع الهدف السير والتف فست عند الناصية في الوقت المناسب حتى يراه ينعطف يميناً في نهايته. بدأ فست يمشي هرولة، بمحاذاة الجدران أيضاً. ومع انعطافه يميناً أبطأ إلى سرعة المشي. بات الهدف يبعد عنه عشرين ياردة فحسب. الآن باتا يمشيان في الشارع الموازي لذلك الذي يقيم فيه الهدف. انعطف إلى مدخل مضاء. استمر فست بالسير، ورآه يجلس على طاولة في مقهى، ويكلم الباباسان. عندما وصل فست إلى التقاطع التالي استدار وعاود المشي أمام المقهى. جلس الرجل أمام زبدية طعام وعيدان أكل وإبريق شاي.

اتجه فست مسرعاً إلى الناصية، استدار يساراً، ثم عاود المشي هرولة. كانت المفاتيح في جيبه.

في نهاية الحي عبر الشارع، وقف في الظل وأخذ يراقب النافذة في الطابق الثاني من النزل. ولا نافذة من جهته كانت مضاءة. في الأفق البعيد، خطّطات برتقالية تمضي صعوداً. العرض يأتي ليلياً، نوع من المحاكاة الساخرة للشفق في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. صخب المروحيات والطائرات يأتي ويروح. الضوضاء العامة للمدينة تتناهى إلى السمع من شوارع أكثر ازدحاماً. مرت دراجتا أجرة، ومشاة، لكن الحيّ، باستثناء الزقاقين الصاخبين، كان أهدأ

من غالبية سايغون في مثل هذا الوقت.

أخرج مسدسه من قرابه، تحت القميص وكاتم الصوت من جيب بنطاله ووصلهما ببعضهما. لم يكن بحاجة إلى السلاح الآن لكن ليلة غد سيكون بيده ابتداء من هذه النقطة. تعرق بغزارة. ليلة غد سوف يحضر منديله ويجفف راحتيه جيداً قبل أن يمسك السلاح.

أمام الباب الجانبي حمل أحد المفتاحين بيسراه والمسدس بيمناه وجرب المفتاح. كان المفتاح الصحيح. وضعه في جيب قميصه الخلفي الأيسر وعبر الباب، ثم تركه مفتوحاً. تحت ضوء لمبة فلورسنت عارية منقطة بالحشرات كان ثمة سلم دقيق إلى الأعلى. كبس زراً على الجدار إلى يساره، فنتج عن ذلك ثانيتين من الظلمة التامة ثم عاود كبس الزرّ. عاد الضوء ثانية. أخرج المفتاح الثاني من جيبه الأمامي وصعد الدرج من دون أن يكتم خطواته وكأنه واحد من الساكنين، وأدخل المفتاح في قفل الباب الأول إلى اليمين، فانفتح إلى الداخل إلى جهة اليمين. فتحه على وسعه وتراجع إلى الخلف ووقف جانبياً متأهباً بالمسدس. كانت الغرفة معتمة مثلما توقع. لم يسمع صوتاً من الداخل. في الطرف المقابل نافذة مفردة تطل على المبنى المقابل.

جرب فتح الباب وقفله. عند اجتيازه زاوية 60 درجة أصدرت المفصلات صريراً. كذلك قفل الباب يحتاج إلى بعض التزييت، لكنه لم يفكر في جلب أي زيت، ألا يعرفون أنه القاتل فحسب؟

تاركاً الباب مفتوحاً خطا إلى الخارج. في حال كان الضوء مقفلاً في الرواق فستكون عتمة دامسة، ومع ذلك فلكي ينهي العملية سيضطر إلى إطفاء ضوء الرواق قبل الدخول. تحسس الجدار من جانبي الباب بحثاً عن مفتاح ضوء ولم يجد شيئاً. أعاد المسدس إلى قربته وأخرج المصباح اليدوي من جيب قميصه لكي يرسل دائرته الصغيرة في أرجاء الغرفة - لا مفتاح على الجدار، لا لمبة على السقف.

سرير ضيق تعلوه شبكة بعوض، منضدة عليها مصباح وصدفة بحرية كبيرة. على الأرض قربها، بنطال مطوي وكنزة خفيفة، وحقيبة ظهر أيضاً، اختلس النظر إليها سريعاً - كتابان، زوج من السراويل الداخلية. رفع المرتبة الرفيعة وعبر الفراغات الواسعة بين ألواح هيكل السرير تأكد من أن الأرضية تحت السرير عارية. اضطجع على جانبه وألقى الضوء على الجوانب الداخلية من الألواح والطاولة الصغيرة، لا شيء مخبأ في أي من هذين المكانين. عاود النهوض.

جال في الغرفة بالضوء اليدوي، متحسساً الجدران الجصية، ممعناً النظر بألواح الأرضية على وجه الخصوص، باحثاً عن أيّ ألواح مرتخية.

كانت النافذة مفتوحة، المبنى في الخارج قريب إلى درجة أنه يمكنه لمسه. يعلم الرب من يعيش في تلك المساحة الضيقة الفاصلة. مدّ يده إلى الخارج وتحسس إفريز النافذة. لاشيء معلقاً على الجدار الخارجي، لا شيء مخبوءاً من أيّ نوع.

لم يكن من مكان آخر للاحتفاظ بسلاح. إما أن الرجل يحمل واحداً معه، وإما ليس لديه سلاح، مثلما أكّد له الرائد كينج. أما بالنسبة إلى استعمال شيء مرتجل، فإذا أفاق الرجل قد يستعمل الطاولة أو الصدفة البحرية التي يبدو أنها تؤدي دور صحن سجائر.

كان واثقاً تماماً من أن الرجل غير مسلح. لكن أياً كان يمكنه شراء سكين. أو أن يحمل حبلاً للخنق.

على ضوء المصباح الصغير فحص المرتبة بدقة. حائلة اللون على أحد أطرافها، على الأرجح حيث يلقي الرجل رأسه.

المشكلة، كما رآها فست، هي أن رجلاً محترساً، وفوق هذا حساساً بفعل الضغط، قد يصحو على أصغر صوت وينهض من السرير ويستعد لأي شيء.

من الجنون بكل بساطة أن يدخل الباب، مفترضاً أنه يمكنه صعود الدرج دون صوت، ومع ذلك فإن الأمر يعتمد على مدى عمق نوم الرجل عندما يدير فست المفتاح.

لم لا يقتله الآن؟

في غضون عشر أو خمس عشرة دقيقة سوف يدخل الرجل من هذا الباب، بعد أن ينهي عشاءه. قد يقتله ويذهب مباشرة إلى معهد اللغات التابع لسلاح الجو ويشرح لهم أنه اضطر إلى الارتجال. التكيف والارتجال، إنه القول المأثور في مجال عمله.

لكن ما لم يجبر على ذلك، على المرء أن يلتزم بخطة العملية، أو ما يشبهها، أو أشلاءها. لطالما التزم بالخطط التي لم تخذله يوماً.

لقد شدّد الرائد كينج على القيام بالعملية ليل الغد، تحديداً عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل. بعد ذلك بساعة سوف يتم تنظيف الموقع، والتخلص من الجثة. من الواضح أن ذلك الجزء من العملية كان ثابتاً. عليه أن يعمل في هذا الإطار. ازدرى فكرة أن السيناريو يبدو متركزاً على عملية التنظيف بدلاً من القتل الفعلي.

لكن لنفترض أن الرجل تناول طعامه الليلة بسرعة، لنفترض أنه أنهى طعامه، وأنه الآن يصعد الدرج، تخيله واقفاً بالباب - سوف أقتله. وإذا اخترت أن أنتظر هنا خمس عشرة دقيقة، وحذ ذلك؟ ما الفرق سواء تم اختيار اللحظة عبر الحرص أو استدعتها الظروف؟

فحص مجدداً الجدران والأرضية الخشبية، محاذراً أنه استغرق وقتاً أكثر مما يلزم، أنه يستجلب تغييراً في الخطة، يتحدى القدر، مصير الضحية. لكن الرجل استغرق وقته، من الواضح أنه يتذوق نزهته - من قد لا يفعل ذلك في مكانه؟ وفي غضون خمس دقائق إضافية أقفل فست الباب وراءه وهبط السلم والمسدس مضغوط على فخذه اليمنى، كما سيفعل ليلة غد، وخرج إلى الشارع. أخفى المسدس وأقفل الباب خلفه من دون أن ينظر حوله وسار مباشرة إلى الطرف المقابل من الشارع وانتظر في ظل مدخل دكان الأقمشة.

انتظر خمس عشرة دقيقة إضافية عندما جاء الهدف من الاتجاه المعاكس ودخل

إلى المبنى من الباب الجانبي.

عاود فست عبور الشارع ووقف في المسافة الضيقة بين البناءين لكي يشاهد النوافذ فوقه. بعد أقل من دقيقة كان الرجل الصغير قد دخل، وميض صغير في النافذة الأقرب حلّ محله ضوء أقوى مع إضاءة الرجل لمصباحه.

كانت تلك النافذة الصحيحة. إنه الهدف الصحيح.

لنفترض أنه ليلة الغد خرج إلى العشاء ومات فور عودته، بدلاً من الثانية فجراً؟ افترض أن الجسد اضطجع في الغرفة لبضع ساعات، بدلاً من ستين دقيقة؟ تيبس الأعضاء قد يتسبب بمشكلة لفريق التخلص من الجثة، لكن فست شكك بذلك. ضمان الإنجاز يجعل التغيير مستحقاً - الفرق بين دخول غرفة مظلمة تماماً يمكن أن يحصل فيها كل شيء، أو الانتظار في حجرة مظلمة تماماً مجيء رجل كان يظنها فارغة.

سيعود غداً في مثل هذا الوقت. إذا خرج الرجل، فسيكون فست بانتظاره عندما يعود.

جلس ترانج ثان على السرير ينهي كوكا كولا فاترة. من دون ساعة يد أو جدار كان يعرف فحسب أنها تجاوزت الساعة الثالثة، ليس كثيراً. لديه ساعتان كاملتان قبل أن يأتي الغروب ويحرره.

حاول الجلوس مستقيم الظهر على السرير مركزاً فحسب على تنفسه. على تنفسه لا غير.

أن أحافظ على سكوني، في حين أكون راغباً في الحراك، وأن أترك نفاد صبري يُسحق، إنها متعة تبدو شبه محرمة بسبب جيشان النفس الصغير الذي تتضمنه. مثل سرقة براندي الأرز. عندما سرق هاو الزجاجة من كوخ الرجل العجوز. خبأها الرجل في رماد الموقد لأن زوجته كانت متوفاة ولم يكن يطبخ لنفسه قطّ.

كانت ممتلئة إلى نصفها تقريباً، وشربناها كله من دون حتى أن نمسح السخام عن القنينة، وبأيد مسودّة ووجهين مسودّين طفنا فوق غيمة من الثمالة، مغنيين أغنيات رائعة. ضحك المعلم. لطالما أسماني الراهب. كان يظن أنني سأستمر.

في تلك الأيام كان يعرف كيف يجلس بلا حراك. تعلم أن يعيش جزءاً كبيراً من كل يوم في الصمت تحت العالم. الآن العالم يعيش في رأسه، يحتلّ عزلته مثل فيروس، الأفكار تزحف، تخترق، تمطر تأملاته، وكل واحدة منها تطعنه.

حاول التأمل جاثياً على ركبتيه أرضاً، لكن هذا أبطأ فحسب مرور الوقت. كان ما زال ضوء، ما زالت الساعة قبل الخامسة بكثير، عندما سمع وقع أقدام على السلم وطرق على الباب وفتح القفل والباب ليجد الرقيب الأمريكي حاد الملامح أمامه.

«007 أتتذكرني؟».

تحرك إلى الداخل وهو يتكلم، وتنحى ترانج جانباً لكنه لم يقفل الباب إلا عندما أشار له الأمريكي بأن يفعل ذلك.

«كيف يمضي الأمر يا أخي؟ أما زلت تضحك؟».

تذكر ارانج اسمه، السيد جيمي.

«أوه أجل»، قال السيد جيمي، «الأمر أشبه بالقفز إلى كومة غائط من العناكب الميتة وأحب ذلك».

دفع الحرج بترانج إلى أن يتبسم.

«أين هاو؟»، نظر الأمريكي إلى ساعته، «اللعين ليس هنا، أهذه رسالة اليوم؟». مشى السيد جيمي بضع خطوات إلى النافذة، وضع يديه على الحافة، ومدّ رأسه إلى الخارج لكي ينظر إلى المسافة الضيقة التي يبدو منها جزء من الشارع له. ثم التفت ثانية نحو ترانج، «حسناً، أكره أن أقول كلاماً سلبياً. لن أقول ذلك بعد. لكنني سأقوله: ذلك اللعين الصغير ليس بآت. وهذا يعني أننا إما تعرضنا للخداع جزئياً أو كلياً. ألديك زجاجة كولا أخرى؟».

«لا شكراً لك».

عبر السيد جيمي الغرفة ثانية وجلس قرب الباب وظهره إلى الجدار ماداً إحدى رجليه ورافعاً إحدى ركبتيه. من الواضح أنه يقصد البقاء. «أتدخن؟».

«أحب السجائر».

ذهب إلى جيب قميصه وأشعل سيجارة ورمى له العلبة والولاعة.

«مارلبورو».

«أجل، إنني أحاول أن أفكر. فلنصمت إذن».

نهض ترانج وأقفل الباب وجلس على السرير يدخن، منفضاً الرماد في عنق زجاجة الكولا الفارغة.

«عندما أمجّ النفس الأخير من هذه الوالدة. ينتهي الأمر. أخرج من هنا، أو أنني سأبقى هنا خلال هذه المدة». مجّ الرقيب نفساً عميقاً من سيجارته «اللعنة إنني هنا لهذه المدة».

أنهيا سيجارتيهما بصمت ورمى ترانج سيجارته في عنق الزجاجة بينما وضعها الرقيب تحت قدمه على الأرض. عند تلك المرحلة أدرك ترانج أنه لم يقدم له صحن السجائر، أو استعملها هو نفسه.

«اسمع، هل هاو صديقك؟».

«هاو صديقي».

«صديق حميم؟».

«صديق حميم».

«صديق حقيقي؟». أطبق السيد جيمي يديه معاً. «حقيقي على طول الخط، حتى الجحيم؟».

شعر ترانج أنه ربما فهمَ السؤال. فمطّ شفتيه ورفع راحتيه وهزّ كتفيه، مثلما رأى الفرنسيين يفعلون.

قفز الرقيب واقفاً، لكنه لم يكن مغادراً. اقترب من ترانج ماداً علبة السجائر

والرعب باد في عينيه «عميل مزدوج؟ يا لها من مزحة لعينة. في دلو البراز هذا فييتنام الجنوبية، كل كائن حيّ هو مزدوج».

قبل ترانج سيجارة أخرى ورفع راحته وهزّ رأسه أمام ولاعة الرقيب. وضع السيجارة على الطاولة.

«لابدّ من أنك تظن أنني فقدت صوابي. أنني هناك في هذا. يجب أن أوافق. لكنني ما زلت أصغي إلى هرائي الخاص يا رفيق، لأنه الشيء الوحيد الذي يحدث».

«سيد جيمي رجاء تكلم ببطء».

«أتتكلم الإنجليزية؟».

«قليلاً جداً».

«نحن لا نفهم بعضنا. لا تواصل، أتفهمني؟ لا أعرف أسماء كل الأشياء في لغتك. لديك كل الأسماء. لديك إياها فيما يتعلق بالأمكنة الأساسية. ما لا تفهمه هو لماذا تطفو في منطقة خارجة كلياً عن قوانين الطبيعة. أعني، كل القوانين تطبق في داخل فييتنام، لكن من خارج بقية كوكب الأرض، تلك القوانين لا تنطبق على فييتنام. إننا محاصرون ضمن منطقة أو حالة من العزلة، وأنت تتدرج نوعاً ما من معرفة الأسماء هنا إلى أن تكون قادراً على أن تنجو من هذه المنطقة. تنجو من هذه المنطقة المحيطة بنا ولا يمكنهم لمسك».

أصغى ترانج جيداً، محاولاً أن يشعر بالرجل. استشعر ذعراً وغضباً. «ماذا رجاء؟».

«من لا يستطيع لمسك؟».

«ماذا؟».

«كل من ترك هنا بصماته التافهة التي أراها تلمع في كل مكان مثل بوزو المهرّج[1]، هدف لعين. كل شيء لعين. إذن اخرج من المنطقة أيها العميل 99.

(1) Bozo the Clown: شخصية أمريكية شهيرة في قصص الأطفال اخترعها في العام 1946 =

البراز سيبدأ بالانهمار».

استشعر الخوف والتبجّح.

«والكولونيل – العملية – ماشي، افهم هذا، أنت مشارك، أنت مساهم. هذا أمر مهم. إننا جزء من هذا. الكولونيل يا رجل. الكولونيل».

«الكولونيل ساند».

«جيد جداً... بوووو. كولونيل – سان. إنه يلعب بالخيطان، ونحن نرقص مثل امرأة لها رجل واحدة».

«حسناً»، قال ترانج بيأس.

ضم الرقيب يده على هيئة فم يفتح ويقفل بسرعة. ثم وضعها على أذنه: «هاو قال لي. هاو. رجل سيقتل ترانج. Un homme. Assasiner».

لو أن هاو قال ذلك، فيمكن الوثوق به، «الليلة؟».

نهض الرقيب وألصق معصمه في وجه ترانج وأشار إلى الأرقام على ساعته: «الثانية بعد منتصف الليل».

«الساعة الثانية».

«أوه الساعة 200».

«الثانية فجراً».

«إلا إذا نصب المزدوج اللعين فخاً لنا لكي نقتل على يد فريق كامل أو ما شابه. لكنني لن أهرع خائفاً في الخلاء مثل سنجاب على عجلة أو – أجل بلى، بلى، سأفعل، دعنا لا نخدع بعضنا. لكنني لن أرحل. لا أنوي أن أرحل. ما يأتي سيأتي. إنني أنظر فحسب إلى الأمر كأي جنون يرمي قمامته عليّ، يجب أن يكون درساً يا رجل، درس سادي هتلري ما يريدني أن أتعلمه. لهذا السبب لا أحب الأمر. لأنني لا أحبْ التعلم. لا أحب المدرسة. لا أحب الدروس. فكرة الانضباط ترعبني وتغضبني. لكن هاو قال إنه سيلاقيتي هنا عند الرابعة مع المال،

= ألان لفينغستون، وخلال السنوات التالية باتت معروفة جداً في الإعلانات التلفزيونية.

وهاو كان يكذب. هاو متغيّب حقير. هاو ليس صديق أحد. ذلك الفييتنامي الصغير هو شيطان حقيقي. كان عليّ أن أكسر رقبته وأضاجع جثته لو ام تكن زوجته في البيت. وقد عرف ذلك. لكنه كان وضعاً شبه عمومي. اللعنة، كان عليّ أن أقتلها هي أيضاً. أجل. إذن هذا سلاح».

رفع طرف قميصه وأخرج المسدس الأوتوماتيكي من حزامه: «توصيلة خاصة للسنيور السيد ترانج».

تراجع ترانج إلى الخلف ورفع يديه ببطء.

«لا يا رجل، اللعنة، هلا تعلمت الإنجليزية؟». أمسك السلاح جانبياً، مقلباً إياه في هذا الاتجاه وذاك، مسدس Vz—50 صنع أوروبا الشرقية.

ذهب لكي يطل من النافذة ثانية. وضع المسدس في خاصرته وأشعل سيجارة أخرى ورمى عود الثقاب من النافذة. «حسناً، اللعنة، أجل طيب»، قال الرقيب، «اسمع، أود أن أنصب فخاً لهذا الحقير في الشارع، لكنني لا أعرف من هو. لا نعرف شيئاً حتى يطرق الباب. إننا نتحرك في العتمة. الوضع الطبيعي!». دخن وأجال نظره في أرجاء الغرفة من دون أن ينظر إلى شيء محدّد. «لا وسادة لعينة»، لقد تخيلت وسادة. اللعنة! أليس لديك أيّ وسائد؟».

«سيد جيمي، رجاء تكلم ببطء».

«يجب أن نقوم بذلك بهدوء. وسائد. بهدوء». حاكى بيده حركة إشهار المسدس، في حين وضع اصبعه على شفتيه مصدراً صوت «ششششششششش».

نستعمل السكين إذن. أدى ترانج بقبضته حركة طعن بالخنجر.

«أين خنجرك يا رجل؟ أرني مادتك».

هزّ ترانج كتفيه.

بحث الرقيب في جيبه وأخرج سكيناً قابلة للطي، «هذه ربما مدية بثلاث بوصات»، فتحها، «فيها ملعقة وشوكة أيضاً، بعد ذلك يمكننا أن نأكله».

مدّ ترانج يده ليأخذها.

وضع ترانج المدية المفتوحة بجانبه على المرتبة. ومد يده، «سلاح».

أخرج السيرجنت المسدس من حزامه وناوله إياه بشيء من الراحة. أخرج ترانج المشط، وأفرغ الرصاصات على مرتبته، تسع رصاصات 7,65 ملم، بما فيها الرصاصة التي في بيت النار.

«هذا سلاح شيوعي يعتدّ به. من نوع الفييتكونغ. مرتفع الثمن».

هل أشار إلى أنه يريد مالاً لقاء المسدس؟ قرر ترانج أن أي كلام أقل من واضح من الأفضل تجاهله. جالساً على السرير أعاد تذخير المسدس وأدخل المشط، وجهز رصاصة في بيت النار، ورفع صمام الأمان. عندما سقط الزناد، قفز الرقيب الصغير أرضاً وقال: «اللعنة علي»، من الواضح أنه لم يكن يعرف بشأن صمام الأمان. بالتالي المسدس ليس مسدسه.

أخرج ترانج المشط ووضع المسدس والمشط على الطاولة.

«ممتاز، أسرار الآلة».

«هدوء»، قال ترانج، وجرب الفرنسية: «صمتاً».

«لقد فهمت الأمر. إننا ثنائيو اللغة هنا».

ناول الرقيب زجاجة الكولا الفارغة.

«هذا ليس نوع الصفقة التي أقوم بها، غير متوازنة البتة».

وضع ترانج المسدس على المرتبة وأخذ المدية وفتح شقاً بطول نصف متر فيها. وضع المدية جانباً، وأخرج حشوة المرتبة وحشاها في عنق الزجاجة بأصابعه بينما أمسكها الرقيب، «صمتاً».

أمضيا خمسة وأربعين دقيقة يعدّان كاتم صوت للمسدس، واصلين الزجاجة المحشوة بالماسورة، مستعملين أربع خيوط صغيرة من الخيزران من هيكل السرير، ومزقاً من ملاءة السرير وشبكة البعوض. تعرق الرقيب الشاب كثيراً. خلع قميصه المطرز بالزهور. وشم ضخم لامرأة في تنورة عشبية يغطي صدره العاري.

وضعا المسدس وكاتم الصوت على المرتبة. بدا أشبه بشرنقة كبيرة يبرز منها،

من الخلف، مسدس صغير، بدلاً من فراشة.

حاول ترانج بعدة طرق إيصال الفكرة. «كاتم واحد. لمرة واحدة. واحدة فحسب. واحدة فقط».

«فهمت».

قرر ترانج كيف سيستعمل المسدس، ممسكاً الكاتم بإحدى يديه وقد غطاه بقميصه.

عليه أن يفعل ذلك بيده اليسرى. وقف إلى يسار الباب وظهره إلى الجدار وأخذن يتمرن على حركته.

«أنت محتال صغير. يا إلهي». بدا السيد جيمي مثاراً سعيداً. عرف ترانج الشعور، فقد اختبره بقوة قبل العمليات في أيامه الأولى. حتى في تلك اللحظة شيء من ذلك اشتعلت شرارته فيه.

وقف ترانج إلى يسار الباب وظهره إلى الجدار ويده اليسرى مرفوعة وسبابتها تصوب. «هنا أنا»، خطا إلى الأمام، وأخفض السبابة إلى المستوى حيث يفترض أن يكون رأس الرجل، وحرك اصبعه مرة، وتراجع إلى الوراء ثلاث خطوات. كرر الحركات، مشيراً إلى قدميه لكي يطمئن بصورة خاصة أن الرقيب فهم تماماً إلى أين ستقوده خطواته.

«أنت سيد جيمي»، تحرك ترانج لكي يقف ويولي ظهره إلى الجدار إلى يمين الباب، ومد يده اليسرى، وفتحها، متحركاً خطوة إلى يمينه في أثناء ذلك؛ ثم وقف متجمداً: «توقف».

وضع الرقيب إلى الجدار بالوضعية نفسها وجعله يكرر الحركات لكي يفتح الباب واسعاً ويبتعد عن طريق النيران ويتجمد في أرضه.

«يا إلهي»، قال الرقيب، «أحتاج إلى أن أثمل بشدة بعد هذا الهراء».

هزّ ترانج كتفيه.

«أنا مفكر يا رجل، لست قاتلاً».

«قبل أن يبدأ ترانج المناورة المتزامنة تأكد من الخطوات مرة أخرى:

«أنا...»، وضع سبابته على صدغه، «في الرأس. مرة».

«أجل، في الرأس، طلقة واحدة».

«أنت...»، فتح الباب.

«هذا جيد».

بدا من الممكن بالنسبة إلى ترانج أنهما إذا بردا رأس الرصاصة فقد لا تخرج من الجمجمة وتحدث فوضى عارمة. هل الرقيب لا يريد أثراً بعد ذلك؟ كان السؤال أعقد من الإجابة عنه بالتمتمات والإشارات. إذا سمح حظهما، فسوف يتعاملان مع الفوضى في حينه.

أيمكنني الاعتماد على هذا الرجل.

في أعماقه شكّ ترانج بالرقيب. إذا أخفق في السيطرة على حركاته، فهناك احتمال صغير بأن يضع ترانج الطلقة في رأس الرجل الذي جاء لإنقاذه. تأكد من أن الرقيب عرف أنه يجب أن يخطو خطوة واحدة عندما يفتح الباب وألا يتحرك بعد ذلك.

تمرنا على ذلك معاً. فتح ستورم الباب، ثم خطا مبتعداً عن الطريق، وتجمد تماماً في مكانه. وترانج خطا إلى الأمام، وضغط على الزناد ثم تراجع ثلاث خطوات.

سمعا الباب الجانبي يفتح في الأسفل. ومعه فم السيد جيمي. حاول ترانج أن يبتسم مطمئناً إياه وخرج إلى الرواق.

في قاع بيت السلم وكيل السفريات الذي يمتلك المبنى وقف ماداً يده إلى زر الكهرباء على الجدار. أضيء ضوء الرواق مرتعشاً. قال ترانج «مساء الخير»، ورفع الرجل يده محيياً ومودعاً في آن وخرج وأقفل الباب.

كان قد حلّ الغسق. وضع ترانج المسدس الضخم في ما تبقّى من المرتبة وأضاء القنديل ورفع الغاز بحيث أن توهجت الشعلة بلون أبيض.

«سيد جيمي، أنا أذهب».

بدت الفكرة محيرة تماماً للرقيب.

كرّر ترانج: «أنا أخرج».

«أنت خارج؟».

«أخرج. أجل».

«حسناً، ماذا لدينا الليلة يا رجل؟ أثمة دورة ماجونج لا يمكننا تفويتها فحسب؟ لأن هذا ليس وقت النزهات».

«سيد جيمي. أنا أحضر الطعام. جوع».

«ابق هنا. أنا أذهب».

«ابقَ هنا. أنا أذهب».

«يا إلهي».

«أنا أعود». أشار ترانج بخجل إلى ساعة معصم الرقيب. حرك أصبعه على سطحها لكي يشير إلى نصف ساعة. «أعود».

«هذا هراء».

«لا، جيمي». عاصفة هائلة من الإحباط تفجرت في داخله. قال بالفييتنامية: «أحتاج إلى الخروج. أحتاج إلى التفكير. أحتاج إلى التنفس. أحتاج إلى الرحيل. أحتاج إلى التحرك». أمسك المسدس الكبير وعاود إدخال المشط، وجرّ المزلاق إلى الخلف لكي يدخل الرصاصة في بيت النار، ثم أخرج المشط، ووضع فيه الطلقة الناقصة، وأعاد إدخاله. حاملاً المسدس بكلتا يديه قدمه للسيد جيمي، الذي وضعه على السرير المشوه قبل أن يشير إلى ساعته.

«ثلاثون دقيقة؟».

«أنت انتظر».

أخرج الأمريكي محفظة من جيبه الخلفي وأعطاه بضعة أوراق. «أحضر سجائر. مارلبورو. مارلبورو أصلية».

«أنت انتظر».

«مارلبورو أصلية. لا تحضر لي تلك المقلدة».

«مارلبورو»، أكد له ترانج.

في الشارع مشى ترانج بمحاذاة من المباني، لكن بعد أن تجاوز الناصية سار من دون تحفظ. ما فائدة الحذر؟

هاو قد خانه.

أو أن هاو أنقذه أو فعل الأمرين معاً. في ظل الظروف الراهنة لن يتضح الأمر أكثر من ذلك.

عندما وصل إلى شارع «آن دونج»، أوقف بائعاً جوالاً لشراء المارلبورو، الأصلية. أراد الأمريكي الأصلية، هذا ما تمكن من فهمه.

في المقهى جلس إلى طاولته المعتادة. لم يكن دور الصيني العجوز الليلة. كانت المرأة بدلاً منه، عجوز بقدره تقريباً، ربما زوجته. «نودلز رجاء»، قال، إلا أنها هزت رأسها. لم تكن تتكلم الفييتنامية.

حسناً، لم ير أي أي نودلز. ليكن الأرز ثانية. ذهب إلى الصندوق وأشار إلى قدر الأرز على الموقد، وأشار فوقه إلى أباريق الشاي على رف. هزت رأسها بنوع من الموافقة وعاد إلى كرسيه ثانية.

رأى الناس يمرون في الشارع. محاطاً بأناس لا يعرفهم أفاق على العالم في مداه الحقيقي، لا غرفة لها نافذة تطل على جدار، بل العالم كله الذي كان ضائعاً فيه. أياً تكن تفاصيل الوضع، وطبيعة المشكلة، أياً كان من خذله، فقد كان ضائعاً.

وأن يفكّر كم كان يتصرف بحذر، وكم بلا جدوى. ليس أنه ندم على الخطأ. بل على التردد. الشك أمر، والتردد أمر آخر. انتظرت ثلاث سنوات لأقرر. كان عليّ أن أقفز. الشك هو الحقيقة، أما التردد فكذبة.

جاء العجوز إلى المقهى، «أتريد زجاجتي كوكا كولا؟ والخبز؟»، مؤونته اليومية الاعتيادية. لم يفترض أنه بحاجة إليها إذا كان سيهرب. يهرب إلى أين؟ إلى

أين سيذهب؟ ما إن يصل إلى هناك، فماذا سيفعل؟ ولِمَ ينتظر لكي ينصب شركاً للقاتل؟ لم لا يختفي سريعاً ويقاتل في يوم آخر؟ السيد جيمي ينصح بالقتال الآن – يصرّ على ذلك. ومن هو السيد جيمي؟ ظاهرياً هو حليف. وعلى أيّ اساس يمضي قدماً الآن، عدا عن المظاهر؟

لكن ماذا عن هاو: أهو عدو أم حليف؟ شكّ ترانج في أنه سيعرف يوماً.

ربما كان الرقيب يعرف، إلا أن الرجلين غير قادرين على التواصل. هذا قاده إلى التفكير بسكيب ساندز ولفظه الرهيب، كتب عباراته وقواميسه، أمريكي يمكنه التكلم إليه. لكن على حدّ علمه فإن سكيب ساندز قد رتّب هذا. الكولونيل كان ميتاً؛ ربما أصبح رجال الاتصال به عائقاً وباتوا يتعرضون للتصفية. أن يبحث عن سكيب ساندز لم يكن أمراً مستحباً. أن يثق بأي كان على الأرض لم يكن بالأمر المستحب.

شعر بثقل أحزان لا تحصى – لكن كثيرين من الناس لديهم مثل هذه الأحمال، وحتى أكثر. لكن هذه. هذه كانت موحشة جداً.

أحضرت العجوز زبدية الأرز وإبريق الشاي، وعادت ثانية بفنجان شاي وطبقين. شمّ كلاً من السائلين. الأول صلصة هويسين. سكبها فوق الأرز. لا عيدان للأكل. لوح بيده لها وفرك إصبعين معاً. أحضرت له عيداناً مطلية بالمينا ومزينة. حظ حسن، حظ سيء، إلا أن الجوع يأتي كل يوم. أحنى رأسه، رفع الزبدية إلى وجهه، وبدأ بالأكل.

رغم أنه مرئي تماماً في ضوء ما قبل الغروب، وقف فست أمام دكان الأقمشة من دون أيّ ستار. فليتساءلوا حوله. أياً كان ما سيحدث، فهذه ليلته الأخيرة في نقطة المراقبة هذه.

إذا لم يخرج الهدف عند العاشرة أو ما شابه، بعد أن تكون قد أقفلت المقاهي،

إذا كنت واثقاً أنه غير مغادر، إن لم أكن قادراً على الدخول وانتظار الرجل- فالأمر انقضى. لن أدخل البتة.

سوف يذهب بدلاً من ذلك مباشرة إلى معهد اللغات التابع للقوات المسلحة ويبلغ عن إخفاقه ويطالب بإخراجه. وإذا كان المعهد مقفلاً ليلاً - إذا لم يؤخذ هذا الاحتمال، مثل غيره الكثير، في الحسبان، فسوف يقصد السفارة الأمريكية ويقدم بطاقة التعريف الخاصة بكنيث جونسون إلى الحارس. إذا رفضوا استقباله فسيركب سيارة أجرة إلى «تان سون نوت» وينتظر هناك أول طائرة مسافرة إلى أيّ مكان.

هبطت الظلمة، المرأة التي تدير المتجر أقفلت الباب من الداخل وأطفأت الأضواء. لابدّ من أنها تبيت لياليها في مكان ما في قذارة المكان. خطا أبعد نحو الباب، ولم يكن متوارياً.

الباب الجانبي إلى الغرفة فتح بعد خمس عشرة دقيقة من هبوط الليل، واتجه الهدف بصورة مائلة عبر الشارع من دون أن يبقى في الظلال. انتظر فست حتى انعطف الرجل عند الناصية وتبعه في خطوات سريعة كما فعل ليلة أمس، وفعل الأمر نفسه عند الناصية التالية، عندما انعطف الرجل يميناً لكي يتجه ربما إلى المقهى نفسه. في نهاية الحي، لم يستطع فست الانعطاف لكي يتبعه - أوقف الرجل أحد أولاد الشوارع، وراح يتكلم إليه. استمر فست في الشارع، متجهاً إلى موجة من الدراجات النارية الزاعقة بأبواقها من دون أن يتوقف، كما تعلم أن يفعل. يعرفون كيف لا يصطدمون بالمارة.

من الطرف الآخر نظر فست وراءه. كان الرجل يشتري السجائر أو العلكة. ثم دخل إلى المقهى.

استدار فست وعاد إلى الشارع الذي يقع فيه النزل. عند أول بقعة دامسة الظلمة توقف والتقط أنفاسه. أخرج منديلاً ومسح يديه، ووضعه في جيبه الخلفي، وكرر العملية نفسها مع المنديل الثاني. رفع قميصه وأخرج المسدس من

خاصرته وكاتم الصوت من جيبه الأيسر وركبهما معاً وأخرج المفتاح من جيبه الأيسر وسار مباشرة إلى باب المبنى وفتحه. مقفلاً إياه خلفه، وضع المفتاح في جيبه، أخرج الآخر من جيبه الأيمن، وبدأ بصعود الدرج.

يده المتعرقة تدخل المفتاح. يفتح الباب ويزيل الافتراض الوحيد الباقي: أنه خلال ثلاثين سنة غريبة من هذه الحياة تعلم شيئاً سوف يساعده في هذا المجال حيث كل البالغين موتى.

في الداخل كان القنديل مضاء. رجل بلا قميص، رجل أبيض، أمريكي بلا شك، وقف قرب السرير ممسكاً برزمة بدينة.

لقد ابتعد عن تعليماته. ماذا فعل؟

بالإنجليزية قال فست: «عذراً».

مرّ سقف الرواق فوقه، وسارع الدرج بالمرور خلفه ضارباً إياه على ظهره، باب الشارع انتصب بالمقلوب، معلقاً فوقه.

أحس بالضربات على صدره. كان لديه سؤال، لكنه لم يتمكن من أخذ نفس لكي يسأله. باب الشارع فوقه فتح، وشخص قفز عبره إلى العتمة الدامسة في الخارج. شيء لا يصدق بدأ يقترح نفسه.

مقترباً من ناصية الشارع، لاحظ ترانج رجلاً واقفاً على دراجة نارية واضعاً إحدى قدميه على الرصيف، دراجته متوقفة وهو ينظر إلى شيء ما خلف كتفه، في الاتجاه نفسه الذي كان ترانج يمضي فيه. التف ترانج عند المنعطف بحذر.

أمام المبنى وقف عدة رجال يصرخون جميعاً بالصينية. وقف على الرصيف المقابل. في الزقاق الأول الذي مرّ به، بضعة سكان محليين يقومون بمهمات صغيرة بانشغال كبير. لم يرَ أطفالاً بينهم. في نهاية الحيّ المزيد من الدراجات المتوقفة، الناس ينظرون إلى الخلف إلى باب النزل الأمامي، الذي كان مفتوحاً. تعرّف بين

الرجال على صاحب المبنى.

تجاوز المبنى مسرعاً، ملقياً نظرة واحدة على الشارع ليرى رجلاً مرمياً في بيت الدرج وكأنه وقع إلى الخلف، وإحدى ذرايه ملوية تحته، والأخرى ممدودة وراءه. رأى ترانج جثثاً من قبل. كان الرجل ميتاً.

كان يرتدي قميصاً أبيض أو ربما أزرق، وقد تضمخ الآن بالدماء.

بحسب ما يذكر كان السيد جيمي يرتدي قميصاً وردياً وعلى أية حال كان عاري الصدر عندما تركه ترانج.

لم يستطع المغامرة بالإبطاء لكي يرى بصورة أفضل. تابع المشي، من دون أن تكون لديه أيّ وجهة على الإطلاق.

جلس ساندز إلى طاولة الطعام في الفيلا التي تأخر سداد إيجارها على الأرجح، منهياً غداء شهياً حضره خادمان لا يستطيع أن يدفع لهما راتبهما، وفكر أنه إذا كان لا يزال محتفظاً بوظيفته فإن راتبه لن يجده البتة. وأن تلك كانت أصغر مشكلاته.

عندما سمع سيارة على الطريق نهض مسرعاً. توقفت سيارة «شيفرولية إمبالا» بيضاء أمام الفيلا، تيري كروديل وراء المقود.

أخفض كروديل زجاج السيارة الأمامي بمقدار ست بوصات تقريباً، على الأرجح لكي يدخل الهواء، وترجّل من السيارة. كان يرتدي ثياباً مدنية هذه المرة، بما في ذلك سترة كارديجان صفراء، وحمل حقيبة نقلها من يد إلى يد، وبركلة من قدمه أقفل باب السيارة. رآه ساندز يدخل وحده عبر البوابة، وفكر أن «كاو كوين» قد تحولت من أكثر نقطة مراقبة موحشة في العالم، إلى تقاطع الشرق الأقصى. بالطريقة التي تسلق فيها الدرجة الصوان إلى الشرفة، وحمل بها حقيبة يده، ونظر إلى البيت، بدا كروديل أشبه ببائع بوالص تأمين يحدوه الأمل واليأس

في آن معاً.

مع تنحية ساندز شبكة البعوض له، زال كل الشك عن وجه كروديل. ما إن أصبح في الداخل حتى توقف. «الأسد في عرينه».

«أتريد شراباً أو ما شابه؟».

«أجلسني في مكان فيه هواء».

«ثمة شرفة في الخلف، لكنني أظن أن الشمس ما زالت تصلها الآن».

«حسناًن لا بأس هنا».

في غرفة المعيشة وضع كروديل حقيبة يده على منضدة القهوة وجلس على أحد مقاعد الخزيران الكبيرة. «ربما تأتي لي بكأس كبيرة من المياه الباردة. لا أريد أن أفقد برودتي».

«أنباء مطمئنة».

ذهب ساندز إلى المطبخ ووجد السيدة ديو جالسة على مقعد طويل وقدماها على السلم تقشر الفاصولياء في حضنها وترمي القشور في وعاء. هذا هو نوع العمل الذي يريده «هلا أعددت لنا بعض الشاي والشطائر، رجاء؟». غرفت الفاصولياء من حضنها إلى النضد بينما سكب ساندز كوباً كبيراً من المياه من إبريق في الثلاجة. الخوف أوهن يديه فاندلقت المياه على البلاط.

لم ينظر كروديل خلفه مع عودة ساندز إلى الغرفة لكي يجلس قبالته.

«ماذا في الحقيبة يا تيري؟ آلة تسجيل؟».

«أفضل من ذلك».

«آلة كشف كذب مصغرة»؟».

رفع له كروديل سبابته الوسطى.

«لقد وجدتني. عمل ممتاز».

«لديك أصدقاء وشاة».

«ليس عليك أن تخبرني».

«مكان جميل».

«إنه مسكون».

«يبدو كذلك. أجل، قليلاً، إلهي سكيب ما حدث لأذنك؟».

«تعرضت للضرب».

استند كروديل إلى ظهر كرسيه ووضع رجلاً فوق رجل. «أنت شخصية مثيرة للاهتمام. كان ينبغي أن أزورك أكثر. وثمة إحساس بالهدوء هنا».

«أحاول ألا أتحرك كثيراً لكي لا أتعرق. ليس من مكيف هنا».

«سقطت المروحية بريك فوس، لقد توفي».

«أعرف. هذا فظيع».

«شكراً على التعاطف».

ضد إرادته تماماً، أطلق ساندز تنهيدة مرتعشة «ماذا عن هاو؟ أمات هو الآخر؟».

«نجوين هاو؟ ليس تماماً».

«اسمعني، رجاء. إذا كان رجلك، فعليك الانتباه له».

«هاو يقوم بعمل رهيب للانتباه لنفسه. عمل رهيب».

«إنه ليس آمناً تيري، أعني ذلك».

«هاو وزوجته في طريقهما إلى خارج البلاد».

«واو، لا. أنت جاد؟».

«ما هو جاد أن ريك فوس توفي. كان في طريقه لمقابلتك في كاو فوك. والآن هو ميت».

لم تكن لدى ساندز أي فكرة ماذا يقول. الصفير في أذنه المضروبة كان يعذبه. بدأ الإبريق يصفر في المطبخ. «إذن أوضب أغراضي ونرحل؟».

«نوعاً ما».

«لم لم تحضر معك مرافقين من السفارة؟».

«هذا ليس اعتقالاً. لو كان لديك هاتف لاتصلت بك ودعوتك. اسمع سكيب»، قال كروديل، «أريدك أن ترسل الخدم إلى البيت».

«بيتهما على بعد ستين قدماً».

«فقط لكي نحظى ببعض الخصوصية».

«بيتهما مبنى صغير بعيد الباب الخلفي تماماً».

كروديل بالكاد حملق به.

«أيمكننا الحصول على بعض الشاي والشطائر أولاً؟ إنها تعدها الآن. أأنت جائع؟».

«بالتأكيد».

«إنها شهية. إنها تزيل منها الحواف».

«كما في الكونتيننتال».

«أجل يا رجل، يمكنك الاحتفاظ بالحواف لو رغبت..».

«لا شكراً».

أتت السيدة ديو بصينية الشطائر. قفز سكيب ناهضاً وذهب لكي يحضر الشاي. عندما انضمت إليه السيدة ديو في المطبخ قال لها: «الآن أريدك أن تأخذي بقية بعد الظهر عطلة».

«عطلة؟».

«أجل رجاء، نحتاج إلى أن نكون وحدنا في البيت».

«تريدني أن أغادر؟».

«إلى البيت فحسب. آسف، اذهبي إلى البيت فحسب».

«لا تريدني أن أنظف الغداء؟».

«ربما لاحقاً».

«حاضر سيدي».

«سوف أنظفه أنا».

«حسناً».

«كان شهياً جداً».

خرجت من الباب الخفي. وضع ساندز آنية السكر والملاعق وفنجانين وإبريق الشاي على صينية لها مسكتين صغيرتين جداً على أصابعه وحملها إلى الردهة ليجد كروديل يحملق في طبقه من الشطائر منزوعة الحواف. لم يكن قد لمسها.

«إنه الشاي المحلي فحسب»، قال سكيب، «لا حليب اليوم».

«ليس لديك حليب؟».

«أعني إنه الشاي الرخو فحسب.. تعرف... الخفيف، كما تعده».

سكب الشاي وشاهد كروديل يلتهم بضعة شطائر كل واحدة بقضمتين. أدرك أنه مائل إلى الأمام بتوتر وأسند ظهره إلى الخلف وادّعى الاسترخاء. أحس بدافع موروث من بيئته في وسط غرب أمريكا لكي يحث ضيفه على تناول المزيد من الشطائر، المزيد من شرائح الدجاج، ولحم الخنزير، وبعض الزبدة. «خبز طيب»، علق ضيفه. لم يتكلم أي منهما ثانية حتى مسح كروديل يديه بمنديل أزرق.

قال: «أعتقد أن آخر كلماتك لي كانت السؤال عن موقع معهد جي أف كي الحربي».

«فورت براج. أجل. لقد تذكرت ثانية».

«أنا مع الكتيبة الرابعة. مدرّب في ع. ع. خ».

«وما هي ع. ع. خ. هذه؟».

«العمليات العسكرية الخاصة».

«إذن من تدرب؟».

«الشباب، الجماعة».

«حقاً. ما اختصاصك؟».

«العمليات النفسية».

«نقيب تيري تبدو حانقاً عليّ بعض الشيء».

ابتسم كروديل، إنما بصورة طفيفة فحسب: «إذن لم نستطع أن نثير اهتمامك بفحص للكذب».

«لا. كنت لأكذب حول أسئلة السيطرة على أية حال».

«لَم ستفعل ذلك؟».

«فقط لكي أعبث بأسئلة الجولة الأولى».

«سكيب، ليس متوقعاً منك أن تتصرف ونحن نستجوبك كما كنت لتفعل لو أسرك العدو وأخذ يستجوبك. نحن لسنا العدو».

«قال سكيب: «العدو لم يعد تعبيراً أستعمله في حالتي. أبداً».

«لَم لا؟».

«إنه تعبير غبي فحسب يا رجل. هلا نظرت حولك مؤخراً؟ هذه ليست الحرب. إنها مرض. وباء. وكانت تلك جولتي الأولى في ذلك اليوم، مع جهاز كشف كذب زائف. وهذه الجولة الثانية، صح؟».

«لا، خطأ. هذه توصيلة فحسب. نوعاً ما. أعني، إنه مجرد وقت لكي توضب أمورك هنا، هذا كل شيء، إذن أنا هنا لكي آخذك معي».

«إذن لم ما زلنا جالسين؟».

«فضول ثقافي. هذه سقطتي دوماً. من كان الكولونيل؟ ما كان يفعل؟ أعني، مقالته الصغيرة كانت فعل انتحار مهني، لكن ما جاء فيها يصعب دحضه».

«أخبرني بفوس بأنه كتب معظمه».

«الأفكار هي أفكار الكولونيل. شبه الخيانية على الأقل».

«لقد كان رجلاً عظيماً»، قال سكيب، «ولم يكن خائناً بأي شكل من الأشكال».

«نريد جميعاً أن نصدق ذلك سكيب».

«كان قوة طبيعية، تيري، والآن قد رحل. أنا مرتبك وأنت مرتبك. لقد غاب فجأة. وهذا أمر مربك تماماً».

«إذن فلنوجه أنفسنا سكيب، ونتعامل مع فوضى الكولونيل».

«لقد أسأت فهمه كلياً».

«أوه لا، لا تقل هذا، لا تحول هذا إلى فيلم ما يحكي عن والت ويتمان أو ما شابه – الأوغاد قصار النظر ضيقو التفكير الذين يعدمون رؤى الفتى الذهبي. لا تجعل هذا صلب الموضوع. أسألك من كان هذا الرجل، وأنت تغني لي أغنية فيلم حقير».

«مهلاً، مهلاً، كل ما أحاول قوله هو شيء لا تفهمه. لقد عرفته طوال حياتي، وأقسم لك كرو ديل لقد كان بالضبط ما يبدو عليه. لقد كان حقاً المجنون الذي يطير بطائرة اقتلع أحد جناحيها مدخناً سيجاراً وضاحكاً حتى الموت وما إلى ذلك. لكن كان له ذلك الجانب الآخر. أراد أن يكون مثقفاً، أراد أن يكون واسع المعرفة، أراد أن يكون البيروقراطي المهذب. أنا متفاجئ أنه لم يبدأ بتدخين الغليون. أراد أن يصبغ الأمور بصبغة معرفية، أراد أن يراقب أنظمة المعلومات، كان حقاً، في مكان ما في داخله، بيروقراطياً متنكراً».

«وهذا الجزء هو الذي دمّر الأمور بالنسبة إلينا سكيب. فلنتعامل مع هذا الجزء».

«نتعامل معه؟».

«بربك سكيب اعمل معي. نحتاج إلى إعادة كل شيء إلى النور. الكولونيل لم يكن يشارك. لم يمنح مجهوده للصالح العام».

«إذن؟».

صب كروديل ما تبقى من إبريق الشاي في كوبه.

«اسمع تيري، أيفترض أن يصلني شيء ما الآن؟ لأنه لا يصلني».

«أريد أن أسأل عن تلك الملفات».

«إنها فوق. خذها».

«حقاً؟».

«أجل خذها. إنها هراء».

«أنت تدرك في هذه المرحلة أنك لست بحاجة إلى الكذب».

«أدرك ذلك. الملفات فوق. ولا قيمة لها. هذه هي الحقيقة المطلقة».

استرخى كروديل، وكأنه ربما صدق، «كان الرجل شيئاً بالفعل. شيئاً حقاً».

«أجل، أجل، كان الكثير من الأشياء».

«كيف وصف علاقته بجون بروستر؟».

«بروستر؟».

«أجل، أشعر بالفضول. كيف كانت علاقتهما؟».

«متوترة. كان لدى بروستر بعض المخاوف، فوضعه وراء مكتب».

«ها، مخاوف؟».

«حول صحته».

«صحته. نعني بذلك قلبه وشربه، وميله إلى ضرب الناس فجأة على الحنك».

قال سكيب: «قلبه؟».

«أليس هذا ما قتله؟».

«لا فكرة لدي أنه مات. قيل لي إنه اغتيل».

«سمعت كل هذا الهراء أيضاً. أصيب الكولونيل بسكتة هناك في الريكس أو عند بركة السباحة أو في المطعم. على أية حال لم يكن يدافع عن حصن ألامو».

«أوه، أوه، واو».

«ماذا».

«أنت من رجال بروستر».

«أحتقر هذا».

«أجل، لكنني أكرره: أنت من فتيان بروستر. بروستر يريد إلقاء نظرة على الملفات قبل أي شخص آخر، صح؟».

ابتسم كروديل.

«لا تنظر إليّ شزراً تيري وكأنني مغفل».

«لا أستطيع منع نفسي».

«هذا لا يتعلق بعمليتي غير المرخصة المجنونة. هذا فقط يتعلق بحفنة من البطاقات التي قد تجعل صورة أحدهم تبدو سيئة. أحدهم لم يفعل على الأرجح شيئاً يقلق بشأنه».

«هذا هراء».

«أجل، هو كذلك، بكل تأكيد. أعني، بالنظر إلى مدى الفوضى في طبيعة الملفات. لكن هذا ما يحدث هنا، أليس كذلك. يا إلهي. هيا، فلنلق نظرة عليها».

«حقاً؟».

«هيا».

تبعه كروديل صعوداً على الدرج الضيق. في هذا الوقت من النهار الجزء العلوي من الفيلا يخزّن الحرّ مثل علية. أشار ساندز إلى غرفة الضيوف، وفتح باب غرفة نومه لكي يحصلوا على ما أمكن من الهواء. وقف كروديل يجيل نظره في غرفة الضيوف. «أين هي؟».

مرّ ساندز به ورفع حافة أحد الصناديق، «مخبأة بذكاء».

«أهذه هي؟».

«إنها كلها مرتبة أبجدياً. هيا ابحث عن اسم بروستر».

«هيا. لو كان العجوز جدياً لكانت مشفرة».

«ليست مشفرة. انظر إلى أيّ شيء قد يتقاطع مع بروستر، ضع أسماء، أشياء من هذا القبيل».

رفع كروديل غطاء صندوق آخر وأخذ يحملق فيه. «أنت مستعد لتسليمنا هذه؟».

«ألديّ خيار؟».

«فلنحمل هذه الأشياء الجميلة في السيارة، إذا وضبناها جيداً فيمكننا أخذها إلى المدينة في رحلة واحدة».

«إلى معهد اللغات أو أين؟».

«مقر قيادة الإسناد العسكري في تان سون نوت».

«هذا المقر لم يعد موجودا».

«ثمة منشأة صغيرة هناك».

«أوه اللعنة»، قال سكيب.

«ماذا؟».

«لن أرافقك إلى أيّ مكان».

نظر كروديل إليه رافعاً حاجبيه، وأخذ ساندز يحملق برأسه الأحمر، وفكر باقتباس صفحة من كتاب جيمي ستورم ويلكمه لكمة على صدره، تحت الرقبة مباشرة، لكنه غير رأيه. بعد أن خسر قتالاً مؤخراً، شعر بأنه غير راغب في البدء بقتال آخر.

«انتظر»، قال سكيب، «سوف أرتدي ملابسي».

مضى عبر الردهة إلى غرفته، وتبعه كروديل وراقبه وهو يبدل سرواله القصير ببنطال طويل، ويرتدي الجوربين والقميص وينتعل الحذاء. ماذا أيضاً؟ لن يعود. على منضدته رزمة من الصور الفوتوغرافية من الفلبين. وضع نصف دزينة منها في جيبه.

من نضد الزينة أخرج ساعته، جواز سفره، ومسدس البريتا عيار 25 ملم.

«اللعنة»، قال كروديل، «لم يحدث قط».

وضع ساندز جواز السفر في جيبه، ووضع الساعة على معصمه، وتقدم إلى الأمام ووضع المسدس على جبهة كروديل.

«حسناً، حسناً، حسناً، هل صمام الأمان موضوع؟».

«لا»، حاول ساندز أن يفكر، «هنا يصبح الأمر دقيقاً».

«ضع صمام الأمان وتراجع ولنتكلم».

«أنا من يتكلم. وأنت تقوم بما أطلبه منك. ليس عليّ أن أطلق الرصاص لو فعلنا هذا بصورة صحيحة».

«أنا معك»، قال كروديل.

«قف هناك».

«إنني واقف»، وقف كروديل بثبات شديد رافعاً يديه إلى مستوى صدره ومفرقاً أصابعه «ضع صمام الأمان فحسب، هذا كل ما أطلبه».

«ولا كلمة أخرى».

«حسناً».

«أعني ذلك. اجلس على ذلك الكرسي».

جرّ كروديل كرسياً من طاولة الشاي وجلس. فتح ساندز الدرج الأعلى في نضد الزينة وبيد واحدة أخرج جوارب وملابس تحتية، باحثاً عن مواد الإسعاف الأولي الخاصة به. وضع العديد من لفافات الضمادات أعلى النضد «قف، بلا كلام».

وقف كروديل. واضعاً المسدس على ظهره، قرب ساندز الكرسي منه أكثر، «اجلس». جلس كروديل. ضع ذراعيك خلف الكرسي. وافتح فمك، واسعاً». وضع جورباً في فم كروديل. ونازعاً مشبك لفافة الضمادات بأسنانه ومتدبراً الأمر قدر المستطاع بيد واحدة، لفّ وجه كروديل وعنقه بالضمادة ثم طوقه عند الصدر مرات عدة حتى وصل إلى نهاية اللفافة، وأوثق ذراعيه حوله على ظهر الكرسي. بيد واحدة تمكن من صنع عقدة أولية. شعر بالحرج تجاه مواده البدائية، سلك مصباح كهربائي كان ليكون مناسباً، لكن هذا غير ممكن في منزل لا يستعمل الكهرباء.

بدا كروديل، من نمط تنفسه الغاضب، يحاول أن يدلي بتعليق واحد خلال العملية التي كررها ساندز بلفافتين أخريين لكي يربط كلاً من قدمي كروديل إلى

قوائم الكرسي، مؤمناً التعليق بنفسه: ما الذي تفعله؟ ماذا بعد ذلك؟ كيف توثق جندياً من القوات الخاصة إلى كرسي بلفافة ضمادات ومن دون شريط لاصق؟ ستضطر إلى ربط عقدة. أتحتاج إلى يدين لفعل ذلك؟

«سوف أضع المسدس على منضدة الزينة بينما أقيدك جيداً في الأسفل»، قال، «يمكنك أن تجرب القيام بأي حركة وسوف ترى نتيجتها، أو يمكنك الجلوس ساكناً». لم يأتِ كروديل بأي حركة بينما استعمل كروديل لفافتين لكي يوثق معصميه معاً ويشد ذراعيه على ظهر الكرسي بعقدة مناسبة. انحنى ساندز أمامه بالأربع لفافات الباقية وأوثق كل قدم بقوة من دون أن يقلق على دورة أسيره الدموية.

من دون أن يتكلم إلى كروديل غادر الغرفة لكي يجد لاصق توضيب في غرفة المعيشة. عندما عاد لم يكن كروديل، بحسب ما يبدو، قد قام بأي محاولة للهرب. لف ساندز عدة لفات من اللاصق حول فمه، وصدره ورجليه، مغطياً العقد التي كان قد عقدها. «سوف آخذ الملفات إلى الأسفل. سوف أصعد وأنزل الدرج وأطل عليك. إذا رأيت أنك كنت تحاول العبث هنا، محاولاً الإفلات، فأقسم بالله، أنني سأقتلك».

خلال رحلته الأخيرة إلى الأعلى مال قريباً من أذن كروديل، متنفساً بصعوبة من المجهود الذي قام به، وقال: «سوف أحرق ملفات الكولونيل. أتعرف لماذا؟». توقف، وكأن أحمر الرأس قد يجيب عبر بوصة خانقة من الشاش. أبقى كروديل عينيه مغمضتين وركز على التنفس من منخريه. «لا؟ حسناً فكر في الأمر». خيب الخطاب أمله. غادر الغرفة شاعراً بالحرج وذهب إلى خلف المنزل إلى كومة ثو التي يستعملها لحرق النفايات، حيث وضع أكوام من البطاقات والأوراق بعرض خمسة أقدام ربما وارتفاع قدمين في أعلاها، نصب تافه، فكر، لعمل سنتين من عمره ويعلم الرب كم سنة من حياة الكولونيل فرانسيس كزافييه ساندز. هبّ النسيم قوياً، وحمل بعض البطاقات بعيداً فوق الغدير.

نفد منه الوقود قبل أن تشتعل الكومة. ذهب إلى المطبخ لإحضار شيء أكثر إشعالاً وسمع كروديل في الأعلى يصدر جلبة على الأرض، ماشياً فوقها، ربما، على طريقة قرد يقفز على مؤخرته. لم يهمّ ذلك.

حمل علبة كاملة من أعواد الثقاب إلى الخارج وتجاوز الكومة المحترقة ونادى ثو، الذي جاء من منزله حافي القدمين، في سروال طويل وكنزة خفيفة، «سيد ثو أين الكاز؟».

«الكاز؟ أجل. لدي».

«أحضر الكاز رجاء وأحرق هذه الأوراق».

«الآن؟».

«أجل الآن رجاء».

ذهب ثو إلى جانب المنزل وعاد مع صفيحة سعة جالونين قديمة ورش على الكومة بينما انحنى سكيب وأشعل أعواد الثقاب أسفلها. ارتفعت ألسنة اللهب، وتراجع إلى الوراء. وقف مع ثو وشاهد لدقيقة. على الجانب الآخر من الغدير وعلى امتداد التيار، فوق أشجار جوز الهند والبابايا، دخان بني ورمادي ارتفع أيضاً من كومة نفايات أحد الجيران.

يا إلهي، فكر، أي أحمق كان ذلك العجوز.

ذهب ثو لإحضار محراك الجمر. عاد سكيب إلى البيت.

ذهل لرؤية كروديل في المطبخ، ما زال على الكرسي، منحنياً إلى الأمام، يداه حرتين، يقطع بسكين لتقطيع الخبز الوثاق الذي ما زال يربط قدمه اليسرى.

بحث ساندز عن مسدسه في جيبه وصوبه نحوه مع وقوفه.

فوراً جلس: «ليس عليك أن تطلق النار عليّ! ليس عليك ذلك!».

«أتعرف ما الذي سأفعله؟ أتشم الدخان؟ إنني أحرق الملفات».

«الأمر لا يتعلق بالملفات، اللعنة يا رجل. لست مضطراً إلى إطلاق النار على أحد».

«ماذا يحدث إن لم أفعل؟».

«أستطيع أن أؤكد لك تماماً أن هذه نهاية الموضوع. أريد أن أحرك يدي. أريد أن أفرك قدمي. إنهما مخدرتان، لقد قطعت دورتي الدموية. يا إلهي. أي حقير لعين أنت. هيا أطلق النار. لدي ستة آلاف دولار لك. اللعنة عليك».

«لديك ماذا؟».

مال كروديل إلى الأمام وبصق بلغماً دموياً على الأرض «شيء حقير جداً حصل سكيب. هناك عميل للمخابرات الألمانية تمت تصفيته أمس في سايغون. رجل يدعى فست».

«بحق الرب»، قال ساندز، «أعرف الرجل».

«ديتريتش فست؟».

«ليس بالاسم، لكنني التقيته في الفلبين، وأنا واثق أنني رأيته في مطعم الببغاء الأخضر، في اليوم نفسه الذي التقيتك فيه».

«حسناً»، قال كروديل، «إنها صفقة فاشلة. لقد أخفقت. كان علينا إيقافها، لكن الأمور تطور زخماً خاصاً بها. وكان هدفاً شرعياً من الفييتكونغ».

«أوه اللعنة، ترانج ثان؟».

لا جواب.

«ترانج قتل الألماني؟».

«عميلك غير المصرح به».

«إذن أين هو الآن؟».

«من؟».

«ترانج ثان، اللعنة».

«هائم في الأرض».

«حياً».

«هذه هي الفرضية».

«يا إلهي. رجل بلا بلد، كيف لابدّ هو شعوره؟».
«أنت قل لي. كما تفعل أنت تقريباً».
«ومطاردة ترانج كانت مهمتك؟ مسؤوليتك؟ من أدار العملية؟».
«هذا لن يعرف البتة. كل ما سيعرف يوماً هو أنك كنت السبب».
«من أين جاء التصريح؟».
«التصريح مفهوم غير صلب دوماً».
«إذن يتعلق الأمر بعمليات ارتدادية في نهاية الأمر. عمليتك وعمليتي والجميع».
«جميعنا أخفقنا. لكنك أنت من ينتظره السجن. السجن والخزي. لا تشكّ في ذلك ساندز. عندما يبدأ أحدهم تحقيقاً ستكون الشخص الذي سنكون جميعاً مستعدين للإشارة إليه. فما رأيك بمثل هذه الفكرة. ارحل».
من خلف البيت جاء نباح كلب. حاول ساندز أن يتجاهل ذلك ويتحكم بالموقف عبر تسديد المسدس باتجاه كروديل، إلا أنه وجد نفسه عاجزاً. «هل ستساعدونني على الخروج أيها الأوغاد؟».
«لا. لديك جواز سفر. أنا أعطيك المال. اركب طائرة».
«يا إلهي، طائرة إلى أين؟».
«المال في حقيبتي».
تحول النباح في الخارج إلى خربشة تقترب. عبر إطار الباب الشبكي ظهر الأب باتريس وهو يجرّ الدكتور بوكيت من أذنه وينادي فوق احتجاج الكلب.
«سكيب! كلبك رجاء!». فتح الباب وجر الكلب إلى الداخل معه.
«أعطه لثو».
«ثو يقول أن أضعه في البيت». ناظراً إلى المطبخ المليء بالشاش الأبيض والأمريكيين، أحدهما يمسك مسدساً، أخذ القس نفساً عميقاً. «ثو يقول أن أضعه داخل البيت». ترك الكلب يفلت فهرع إلى الدرج. لم يزفر القس الصغير

أنفاسه. مد يده إلى الخلف كأنما لكي يفتح الباب الشبكي خلفه، إلا أن يده لم تلامس الباب، ووقف ماداً ذراعه وكأن ذلك يمنحه التوازن. «ليس مشكلة، لكنه قد يهاجم دجاجاتي هناك، يحسن إبقاءه هنا». ربما لأن صوته بدا أنه أوقف تقدم مأساة، واصل كلامه «رأيت حلماً عنك سكيب. أنت لست في الحلم، إلا أنه كان عن رئيس الولايات المتحدة. عادة الفرنسيون، الأمريكيون، الشيوعيون - لا يأتون إلى عالم الأحلام. يذهبون إلى هناك إلا أنهم لا يؤمنون بها لذلك يبقون أشباحاً». شيء من الهستيريا بدا ينهض فيه وهو يتكلم «سوف أخبرك ماذا حصل لرجل من قريتي يدعى شين. غادر قريتنا عندما مات والده وأخذ الدائنون أرضه. غدا شين فقيراً في ذلك الوقت، غدا معدماً. كان عليه أن يرحل أن يسافر على الساحل وإذا أمكن أن يتعلم صيد السمك. كانت رحلة يائسة لأنه لم يكن يحمل مالاً. نام في الغابة في أثناء سفره. ذات ليلة رأى شين حلماً يقول له أن ينام في فناء كنيسة كاثوليكية في بلدة معينة. كان الفرنسيون هناك. وجده قائد المركز وسلمه. إلا أن شين قال إنني نائم هنا لأن حلماً قال لي أن آتي. أنت أحمق لاعتقادك بالأحلام، هذا ما قاله القائد الفرنسي، ألا تعرف أننا جميعاً نحلم كل ليلة؟ ليلة أمس قال لي حلم في حقيقة الأمر أن سبع قطع ذهبية مدفونة تحت أكبر شجرة بانيان على النهر، أتظن أنني ذهبت أحفر؟ لا تجعلني أضحك. وطرد شين من المدينة. في طريقه على ضفة النهر وجد شين شجرة البانيان الأكبر وحفر طوال اليوم حول قاعدتها، ووجد سبع قطع ذهبية بالضبط. عاد إلى قريتي وعاش بازدهار. هذه قصة حقيقية. أخبرتها لقس فرنسي. قال إنها كذبة. قال إن شين سرق المال وفسر الأمر بحلم. لكن، على أية حال، أشرت له أن شين عاش طويلاً وازدهر. لص يكذب ويسرق لا يمكن أن يزدهر من المال الذي سرقه. القصة حقيقية تماماً. قبل بضع سنوات توفي شين، فجأة. أناس مرضى يأتون إلى قبره لكي يشفوا، خاصة المصابون بالملاريا».

«ثونغ نات».

«أجل».

«توقف».

ثم حلّ صمت، أول صمت تشهده الغرفة منذ دخول القس.

«سكيب»، قال القس وكأنه يلمس شيئاً قابلاً للانفجار، «شيء ما خطأ».

«بحق الرب»، قال كروديل وبدأ يضحك.

«عذراً على الإثارة نات. أيمكنك أن تسدي لي خدمة؟».

بدا القس غير مستعد للإجابة.

هناك حقيبة على منضدة القهوة هناك. هلا جلبتها لي رجاء؟».

«بالطبع لكنني قلق عليك اليوم».

«أين أنا؟»، قال كروديل، «أين أنا بحق الرب؟».

«نات، هلا أحضرت لي الحقيبة؟».

شاهد سكيب القس يتحرك بحذر إلى غرفة المعيشة ليقف أمام منضدة القهوة ضاماً يديه معاً على مستوى الصدر وتساءل إذا كان يصلي.

كروديل ما زال يضحك، وبصق على الأرض ثانية.

«أأنت بخير؟».

«بالحد الأدنى مضروب بقوة، بالحد الأدنى فحسب».

«قل لي لو سمحت، كيف نزلت الدرج من دون أن تدق عنقك؟».

«قفزت وصولاً إلى الدرج وسقطت جانبياً وانزلقت إلى الأسفل، نوعاً ما».

«ولا رضة. لن تحصل على وسام القلب القرمزي».

«ظننت أن كتفي اليمنى خلعت لفترة وجيزة».

«جيد».

«أحتاج إلى أن أتأكد منْ أنك تفهم هذه المسألة حول مقتل عميل المخابرات الألمانية. هل تفهمها؟».

«بالتأكيد. أنا الرجل الساقط».

«أنت لي هارفي أوزوالد حبيبي».

وجد الأب باتريس قوته. وقف بجانب سكيب ماداً الحقيبة بيديه الاثنتين. وضعها سكيب على المجلى وفتحها.

«حقيبة من هذه؟».

«كلها لك، مجاملة».

كان في الحقيبة مغلف فارغ فحسب ورزمة من العملة الأمريكية المربوطة بعصابة مطاطية حمراء.

الشك والخوف سيطرا عليه فجأة.

«إذن أنت، ماذا، مددت يدك إلى جيبك وفجأة خرجت منها كومة من مال الهروب، بهذه البساطة؟».

«أجل بالتأكيد، بهذه السرعة، إننا فعالون جداً».

«ليس غالباً كروديل. غالباً ما تكونون غير فعالين بصورة غير معقولة. وأغبياء. لماذا لم تدخل فحسب وتقول إليك الوضع وتسلمني النقد؟».

«حسناً، بدوتَ شديد الولع بفكرة أن ملفاتك السخيفة هي سبب اهتمام الجميع. أملت فحسب أننا نستطيع ترك الأمور هنا».

مدّ ساندز يده «أعطني مفاتيح السيارة».

«لن يحدث بني. لن تحصل على السيارة، أنا سآخذك».

مائلاً نحو كروديل عن كثب كفاية لكي يتنفس في وجهه وضع سكيب الماسورة على ركبة كروديل «ثلاثة، اثنان، واحد...».

ربّت كروديل على جيبه: «إنها هنا».

«فلنحصل عليها».

سلمه كروديل مفتاحاً واحداً معلقاً ببطاقة تشير إلى أنها من سيارات السفارة.

بيده الحرة مد ساندز يده إلى الحقيبة وأخرج دزينة من العشرينات وحررها من

الرزمة ووضعها على المنضدة «هذه لثو والسيد ديو»، قال للقس. وقال لكروديل: «سوف أخرج من الباب. لو فكرت حتى إنك تتحرك هنا قبل أن أنطلق على الطريق، فسأعود وأطلق عليك النار. بسعادة. أنا جاد في ذلك كروديل. سوف يسعدني ذلك».

خرج من الباب الخلفي بينما كروديل يناديه «لا تهمني سعادتك اللعينة».

مع تشغيله المحرط خرج الأب باتريس من الباب الأمامي. مد ساندز يده اليمنى من النافذة وصافحها القس وقال: «تأخر الوقت على السفر. محيط الطريق 22، منطقة خطرة. تعرف ذلك».

«ثون نات، تشرفت بمعرفتك».

«هل ستعود».

«لا».

«أجل، ربما. لا أحد يعرف».

«حسناً، لا أحد يعرف».

«سيد سكيب حتى أراك ثانية، سوف أصلي من أجلك كل يوم».

«أقدّر ذلك. لقد كنت صديقاً رائعاً».

شغل السيارة وانطلق يرجرج فوق الأرض المحفرة. في المرآة الخلفية رأى كروديل ينضم إلى القس أمام بوابة الفيلا شابكاً ذراعيه على صدره ورجلاه في وضعية الاسترخاء، موحياً بجو من الاستخفاف واللامبالاة.

بجانبه على المقعد وجد سترة كروديل الصفراء الجديدة. رماها من السيارة، وأقفل النافذة وشغل التكييف.

منظمة الطفولة العالمية لديها نظم وإجراءات ومتطلبات، بما فيها زيارة كل شهرين إلى سايغون لوضع التقارير والتوصيات. في النزل في شارع «دونج دو» إن لم

توقظها جلبة الساعات المتأخرة، فإن تمتمات صلوات الفجر المنبعثة من الجامع تفلح في ذلك. الليلة أبواق السيارات وموسيقى الشارع أخرجتها من السرير.

في تلك الليالي المظلمة التي تشعر فيها أن حرارة النفس البشري هي بمثابة حزن ناعس آسن يولد، تغدو مقتنعة بتيهها الذاتي - شفقة بطيئة حارة استوائية على النفس. احتاجت إلى الخروج، إلى أن تجد آخرين، إلى واجباتها في الريف. وإلا غرقت. تعفنت في الأعماق. التهمتها هذه الأرض. أزهرت عنفاً ويأساً جديدين.

همت بعبور الشارع، بيد أنها تراجعت قليلاً إلى الخلف عندما ظهرت فجأة سيارة هوندا صغيرة تجرّ قاطرة بطول ثمانية أقدام. في المدينة الكثير منها يبقي أضواءه الأمامية مطفأ. الموسيقى تندلع من مدخل خلفها. احتاجت إلى شراب بارد، لكن في الداخل كانت الحرارة أكثر ارتفاعاً بعشرة أضعاف ومليئة بشباب في عشرينياتهم تشتعل النيران في أرواحهم. دخلت على أية حال. عبقت الحانة برائحة الجعة والعرق والقصب. تمسكت بجزدانها بقوة وشقت طريقها عبر حشد الرجال إلى المشرب.

امرأتان ترقصان على منصة بالكاد أكبر من قفصي صابون. «ما شرابك؟»، قال لها جندي على المشرب. بسبب ضوء المشرب الأحمر خلفه لم يبد وجهه واضحاً. «أنت هناك أيتها السيدة الجميلة». صوت فتي، لكن أعلى رأسه كان أصلع.

«عذراً؟».

«ما شرابك لأنه على حسابي».

«لن أمانع جعة. ما رأيك بتايجر؟».

«ستأتي إليك. لا تذهبي». تحرك جانبياً وراء رجال على الحانة لكي يحضر التايجر. كاثي نظرت إلى يسارها فرأت عاهرة صغيرة تستند إلى المشرب الخيزراني، وخاصرتها ملوية، ودخان فضي يندفع من شفتيها. لكن أليست هذه

لان؟ لا يمكن أن تكون هي. لكنها كانت هي. «لان»، نادت كاثي، لكن لان لم تتمكن من سماعها.

اقتربت كاثي منها، «مرحباً لان».

رافعة سيجارتها إلى وجهها، انتقلت لان إلى مقعد على المشرب فرغ تواً. كانت قد ساعدت كاثي في عامها الأول في البلد، في «سا ديك»، ثم أجبرتها بعض المتاعب على العودة إلى ديارها، أو قريتها المنقولة ثانية، والآن جلست بشرود وشفتين مصطبغتين بأحمر الشفاه وساقاها عاريتان حتى سروالها الداخلي.

«كيف حالك لان؟ أتتذكرينني؟».

التفتت الفتاة لتتكلم بصوت منخفض إلى الساقي.

«ماذا تريدين؟»، سألها الساقي. لم تعرف كاثي كيف تجيب. الفتاة، أكانت شخصاً آخر، ليست لان؟ - استدارت على كرسيها وأسندت ساعديها على المشرب وأخذت تحملق بالجنود الذين يرقصون في الضوء القرمزي مع نسوة واهنات يجذبونهن بقوة إلى صدورهم وبالكاد يتحركون.

عاد جندي كاثي. «عزيزتي، سوف أحضر الجعة»، قال، «ألا تصدقينني؟».

«سوف أعود فوراً». متشبثة بحقيبتها بكلتا يديها، راوغت الراقصين ومضت إلى الخارج. العفن المظلم المنبعث من الشارع بدا منعشاً الآن. مضت بضع خطوات ودخلت إلى مقهى وجلست وحيدة. احتست زجاجتي جعة الواحدة بعد الأخرى وأدرات كرسيها إلى الجدار وطلبت ثالثة. من حقيبتها أخرجت دفتر ملحوظاتها، وضعته على الطاولة المبقعة المشحمة، ووجدت قلماً. جالسة جانبياً على الطاولة، أخذت تكتب:

عزيزي سكيب

هو هو دي هو هو، هكذا اعتاد أبي أن يتكلم عندما يكون ثملاً، أو شاعراً بخفة الشراب في رأسه. لم يكن يثمل. ولا حتى يشعر بالخفة، فقط...

جاءت الماماسان منتعلة الصندل وسألتها: «أتنتظرين الحافلة؟».
«ليس من حافلة في هذا الوقت من الليل».
«لا حافلة الآن. ليل. خذي سيارة أجرة».
«ألا يمكنني البقاء؟ أيمكنني احتساء بعض الشاي، رجاء؟».
«أكيد! أكيد! خذي سيارة أجرة لاحقاً، ماشي؟».
«شكراً».

فقط يصير سعيداً. اجتماعياً كما تعرف. يكفي بخصوص العائلة. تالياً لدي بعض الآراء لك.

أفكار تتعلق بقشرة أمريكا الأدرينالينية المتضخمة وكذبتها المقدسة. عزيزي سكيب: يجدر بك أن تكون منتبهاً الآن على قلبك البشري وإلا كنت عرضة لتحطيمه بصورة دائمة. مما يؤدي بجهودك إلى الدمار المجنون الفظ هنا.

قد لا تجد مكاناً للتوبة وإن طلبتها بعينين طافرتين بالدمع. من أين يأتي هذا؟ في مكان ما في الكتاب المقدس[1]. ها أنا أعود إلى ذلك! كن حذراً حيال الدموع.

يوم غادرت دامولوج مع عظام تيموثي رأيتك على النبع تستحم.

... ذهبت لكي تودّعه قبل أن تتجه إلى دافاو سيتي ثم مانيلا. من نهاية الزقاق المتسخ رأته يخرج من فندق فريدي كاسترو ذي الثلاث طبقات، ويعبر الفناء بالمشاية والسروال الداخلي القصير ذي النقوش المربعة، حاملاً منشفة بيضاء على كتفيه وإناء صغير بيده. كان يمكن أن تدعه لحمامه وتتجه إلى مدخل فندق كاسترو

(1) العهد الجديد، رسالة إلى العبرانيين، 12: 17، «فإنكم تعلمون أنه أيضاً بعد ذلك لما أراد أن يرث البركة رفض إذ لم يجد للتوبة مكاناً مع أنه طلبها بدموع».

لكي تودّع العائلة، إلا أنها سمعت الأصوات الفرحة التي أطلقها الأطفال وذهبت في النهاية إلى الجدول لكي ترى سكيب ساندز يستحم أمام حشد من الصغار. الأنبوب يأتي من صخرة وتتدفق مياهه إلى حوض طبيعي كبير والأطفال، ربما ثلاث دزينات منهم، اصطفوا حوله كما في مدرّج حلبة صغيرة حيث الأمريكي الشاب يفرك جسده بالصابون ساكباً المياه على رأسه من الإناء الصغير، مغنياً مع جمهوره الصغير:

«ما هو عرضك المفضل!»

«عرض سكيب ساندز!».

«ما هو عرضك المفضل!».

«عرض سكيب ساندز!».

الأطفال يحيطون بك، تجعلهم يضحكون. كانت تلك مرحلة ذهبية نوعاً ما.

وضعت القلم والورقة جانباً وأنهت الزجاجة وعادت إلى النادي الليلي.

مع ثلاث زجاجات جعة في رأسها فإن الصخب بدا أكثر غموضاً في رأسها وعديم الجدوى. لم تجد هناك المرأة التي ربما كانت لان، فقط الصوت المائل لنانسي سيناترا وأولئك العاهرات وجنود المشاة العابثين الدائخين بقدرها على الأقل، المنتشين بقدرها.

«لقد غبت طويلاً بما فيه الكفاية!»، كان ذلك الجندي الأصلع نفسه.

«كنت هنا طوال الوقت».

«حقاً؟ لم يحدث البتة!».

التفت حوله لكي تقف بحيث يلتقط وجهه الضوء. بدا أبله ودوداً. ربما كان جندي احتياط، لكنه ارتدى ثياباً مدنية، وكان ذلك مجرد تخمين. لم يرد شيئاً منها. لو أراد امرأة فإنه محاط بالنسوة. قال لها ذلك. كانت له امرأة في بليكو.

يدفع لها إيجار البيت. لم تكن عاهرة. كانت عشيقته. قتلت عائلتها، إلا ابن شقيق واحد ترك بنصف وجه فحسب. دماغ الصبي تضرر. كان ثمة خزاناً باطونيا في الخارج لجمع المطر. ذات مرة تسلق الصبي الخزان، لا أحد يعرف السبب، ووقع وآذى نفسه. عائلات كثيرة عاشت في المبنى، مجموعة من الأكواخ، إلا أنه من طابقين، وأدراج تقود إلى الخارج، أدراج من الخشب الصلب من دون سياج، بالكاد أكثر من سلم كبير. ليلاً كان يجب تقييد الفتى من قدمه إلى مسمار على الأرض لأنه كان يمشي في نومه، كان يمكن أن يقع ويكسر رقبته. حسناً، لقد شعرت بالحزن على الأطفال لبعض الوقت، لشهر، شهرين، ثلاثة أشهر، والآن أنت حزينة على الأطفال، وعلى الحيوانات، لا تقتلين النسوة، ولا الحيوانات، لكن بعد ذلك تلاحظين أنها منطقة حربية والجميع هنا يعيش فيها. لا تعودين مهتمة سواء عاش هؤلاء الناس أم ماتوا غداً، لا تهتمين سواء عشت أنت نفسك أم مت غداً، تركلين الأطفال جانباً، تقتلين النسوة، وتقتلين الحيوانات.

1970

جلس القرفصاء أمام النافذة يصغي مرتجفاً إلى صوت خطوط التيار العالي المقطوعة وهي تسوط العتمة في الخارج، وأزيزها يقترب أكثر فأكثر، باحثة في العتمة عن الخوف. التيار ينجذب إلى أي بصيص من الخوف في أي قلب ويحرق الروح التي في داخله. كان هذا الموت الحقيقي. بعد ذلك لا أحد يعيش في ذلك القلب، لا أحد ينظر من ذينك العينين. شواط مثل هذا الاحتراق يطفو رائحاً غادياً من الغرفة طوال الليل.

ما إن تسرّب بعض ضوء النهار، حتى بدأت الحشرات بالإقلاع والهبوط في أرجاء الغرفة. المذياع على حافة النافذة قال: «لدي هنا بعض أعضاء كيتشن سانك[1]. لقد سمعتم موسيقى كيتشن سانك، المعروفون بصورة أساسية بـ (صوتهم السعيد). ماذا عن الاسم شباب؟ من أي يأتي الاسم؟».

«حسناً كيني الاسم ابتكره لنا مديرنا تراف نلسون، وقد أحببناه لذا...».

«وماذا عن طريقة تهجئة الاسم؟ C. I. N. Q، هذا غير اعتيادي».

«هذا اللفظ يعني الرقم خمسة بالفرنسية، ونحن خمسة، وطريقة اللفظ بالفرنسية هي سانك، ونحن جميعاً من تكساس، فإذن نلفظها هكذا تقريباً kitchen Sank».

«وأنتم معروفون بالصوت السعيد في أغنياتكم».

«أظن أن هذه نتيجة شخصيات متنوعة، كيني، لأننا جميعاً بصورة عامة سعداء».

«وسأكون سعيداً بالتكلم إليك طوال اليوم، لكنني سأقول وداعاً، ابق سعيداً، وشكراً لك... ذي كيتشن سانك. خمسة شبان سعداء. هذا كيني هال وبرنامج

(1) The kitchen Cinq: فرقة غنائية أمريكية اشتهرت في الستينيات من القرن الماضي.

إن ساوند لشبكة الإذاعة العسكرية».

«وداعاً ليني، وشكراً لك أيضاً».

«فلنعد إلى الموسيقى».

وترك الموسيقى تعزف.

«ما الذي يحترق؟»، سأل، مع أنه يعرف.

«لا أريدك أن تذكر الاحتراق ثانية. أنت تذكر ذلك طوال أربعة وعشرين ساعة».

«جيد جداً».

«إنها تلك المادة المحترقة اللعينة يا رجل، الموستيك، يجب أن تعرف أن هذا كل شيء».

«فهمت. الموستيك».

«الأقراص الخضراء اللعينة التي يشعلونها لإبعاد البعوض؟ أحدهم أشعلها في الأسفل، ماشي؟».

«ماشي».

«مفهوم جايمس؟».

«الخوف يشع منك»، أنذره جايمس، «أتسمع الأزيز؟».

«بربك يا رجل».

«اقهر الخوف».

جلس جوكر بجانبه على السرير.

«أظن أنه عليّ أن أقول لك هذا: إنك مدمّر نهائياً يا رجل».

«يا للاكتشاف الضخم».

«حسناً، أعني، ألا يمكنك أن تهدأ؟».

هزّ جايمس كتفيه. لا فائدة من متابعة هذه المحادثة التافهة الحمقاء.

دخلت مينج من كوكب آخر في مكان ما وقالت: «أتريد نودووز؟».

«لا لا أريد النودلز اللعينة».

«أيمكننا الذهاب إلى مطعم نودووو؟».

«لا، قلت لا. أتحسبينني أريد أن أشاهد زمرة من الفييتناميين يأكلون بوجوههم؟».

«أحتاج إلى بعض المال كاوبوي».

قال جايمس: «تلك النودلز االلعينة السافلة لزلقة المتعرجة».

كانت تحملق به كالسحلية «أعطني مالاً كاوبوي. قل له أن يعطني مالاً»، قالت لجوكر، «أختي جائعة جداً، ومعدتها تؤلمها».

وضع جوكر الفتاة الصغيرة على ركبته وقال: «أنت جميلة كأصين جديدين».

قالت الطفلة شيئاً بالفييتنامية وأجابت مينج بالإنجليزية: «قتل بعض الناس».

قال لها جايمس أن تسكت الطفلة.

قالت مينج: «بوو-كوو فاك يو»، وأخذت البنت إلى الخارج.

قال جوكر: «تلك ليست أختها».

«تقول إنها أختها».

«لعلها ابنتها على الأرجح».

«هذا ليس مهماً على أية حال». نهض، فلك سحابه، ومضى إلى ركن الغرفة حيث تبول في أصص أزرق عليه زهور حمراء. لم يكن هناك مرحاض داخلي. لم ير أين تبول مينج. عندما تريد أن تفعل ذلك تذهب إلى مكان ما في الأسفل.

قال جوكر: «لنذهب. اسمعني يا رجل... كاوبوي؟ كاوبوي؟ أعرف كيف يتمّ هذا الهراء».

«عليّ أن أصدقك».

«ثمة فرق بين وسط البلد والأدغال».

«في كلتا الحالين ليست حياة حقيقية».

«لم أقل هذا. هلا استمعت إلى ما أقوله؟ لم يعد بإمكانك الذهاب إلى وسط البلد».

اتجه جايمس نحو الباب. «تولّ القيادة حبيبي، لا قوة في يديّ!».

كانت ظلمة، لكن الوقت لم يكن متأخراً إلى هذا الحدّ. انتبه له جوكر وهما يسيران درباً طويلة إلى مركز الصليب الأحمر ويقفان طويلاً في طابور. وعندما جاء دور جايمس للتكلم عبر الهاتف تركه جوكر بمفرده بينما يكلم أمه. بالكاد قال مرحباً قبل أن يندم لأنه طلبها. أخذت تنشجّ متألمة.

«لم نسمع عنك منذ لا أعرف كم من الوقت. لا أعرف إن كنت حياً أم ميتاً!».

«ولا أنا. لا أحد يعرف».

«بيل الصغير مسجون!».

«ماذا فعل؟».

«لا أعرف. القليل من كل شيء. إنه مسجون منذ نحو سنة. منذ العشرين من فبراير الماضي».

«في أيّ شهر نحن؟».

«لا تعرف في أيّ شهر نحن؟ إنه يناير». بدت غاضبة، «علام تضحك؟».

«لست أضحك».

«من إذن الذي يضحك في أذني؟».

«هراء. أنا لا أضحك».

«لا تستعمل لغة المراحيض في هاتفي».

«أليس هناك كلمة هراء في مكان ما من الكتاب المقدّس؟».

«أخرج لسانك من المرحاض. أنا أمك أقول لك. أمك التي لا تعرف حتى بمكانك!».

«إنني في ناه ترانج».

«حسناً، الحمد لله»، قالت، «أنه خلصك من فيتنام».
الآن ضحك أحدهم. ربما هو نفسه، وإن لم يكن ثمة ما يدعو إلى الضحك.

في الصباح الباكر من يوم العشرين من فبراير 1970، ركب بيل هيوستن في شاحنة حكومية صغيرة مع ضابطين من الإصلاحية وثلاثة نزلاء آخرين، على الطريق 89 المتجهة إلى فينيكس، بعد أن قضى 12 شهراً من أصل حكم بالحجز تتراوح مدته من عام إلى ثلاثة أعوام في سجن فلورنس، ولم يكن واضحاً له تماماً سبب سوقه إلى السجن أو سبب إطلاق سراحه. يبدو أنه منذ اليوم الذي عاد فيه إلى الديار من البحرية تراكمت عليه سلسلة من الأحكام: إدانة مع وقف العقوبة بسبب سرقة سيارة، حكم معلق بسبب الاعتداء على أحدهم، وهو ما يعني التشاجر في وجود رجال الشرطة لكي يعتقلوك، والخروج بكفالة بسبب الإخفاق في الذهاب إلى المحكمة في تهمة نشل من متجر؛ ثم سرقة صندوق واحد من الجعة، أربع وعشرين صفيحة، أوقعت كل شيء على رأسه. ثملاً كان يمشي في زقاق متفرّع من فورث أفنيو، رأى الباب الخلفي لحانة يفتح لتسليم حمولة من جعة لاكي لاجير، فحمل صندوقاً من الأعلى. كان يفترض أن تكون هذه جعة سعده، إلا أنها تسببت له بأسوأ المصائب. كان على بعد مجموعتين سكنيتين، ينتظر عند إشارة «لا تمشِ» الضوئية، مثل مواطن محترم - منقلاً الصندوق من كتفه اليسرى إلى كتفه اليمنى، ومفكراً أين يمكنه العثور على ثلاجة لهذه الأشياء، عندما أوقفته دورية شرطة. جلستا استماع، الحبس في سجن المقاطعة، ثم السجن وراء أسوار ترتفع خمسة عشر قدماً.

مساقاً إلى السجن قبل عام، ربما على متن هذا هذه الشاحنة نفسها، ربما مع الضابطين عينهما، لكي يتلقى المكافأة العادلة التي وعدته بها أمه ومعلموه، شعر بأنه مثار وبالغ. أصحيح أنهم يحاولون طعنك واغتصابك في السجن؟ إذن لِمَ لم ير

مثل هذه الأمور في سجن مقاطعة ماريكوب؟ ليس أنه شعر بالقلق. فهو لم يخسر شجاراً في حياته وكان يتطلع قدماً إلى ضرب أكبر عدد ممكن من الناس الذين سيحاولون جعله غلاماً لهم. في المقابل، كان أولئك قتلة وما شابه ذلك، ولم يكن لديهم ما يفعلونه سوى التدرب وممارسة الرياضة هناك، إذا ما رغبوا في ذلك. من الأفضل أن يبقي رأسه منخفضاً. أن يتعلم صنعة ذات قيمة. ربما يبدأ بالمصنوعات الجلدية، الأحزمة والأحذية، وعلب السجائر. ففي نهاية المطاف كان معروفاً في الشارع بلقب «بيل الجلدي». أيسمحون لك بصنع قرب للسكاكين؟ شكّ في إمكانية ذلك.

أودع في الزنازين ذات الحراسة المتوسطة، ليجد أن زملاءه ليسوا أكثر شراً من أولئك الذين تسكع معهم في سجن مامور الشرطة، وأن الطعام أفضل قليلاً. كانت لديهم باحة من ربع ميل يمكنهم الركض فيها، ومجموعة كبيرة من الأثقال. في يومه الثاني هناك لعب كظهير أيسر في مباراة بايسبول ودار دورتين في الملعب وتمكن من تسجيل هدف. تسعة أشواط كاملة - فقط ثمانية لاعبين في كل جانب، لكنهم حصلوا على جميع الأدوات، بما فيها الخوذة لرماة الكرات، والحماية الكاملة للاقطي الكرات.

بحلول الشهر الثالث شعر بالإلفة مع المكان. من تلك المسافة، بدت قليلة الأمور التي كان يحسب أنه سيفتقدها. الوظائف التي تنقّل بينها تطلبت منه روحه، وفي المقابل لم تمنحه إلا الفقر، النسوة اللواتي ارتبط بهن تحولن سريعاً إلى مصدر إزعاج. الكحول منحته أوقاتاً من الانتشاء إلا أنها كثيراً ما أوقعته في أيدي رجال الشرطة. بين المواطنين الأحرار كان يشعر بألم دائم في معدته. لم يكن يشعر بأنه يبتلع شيئاً سوى الشراب. لكن منذ يوم وصوله كان متشوقاً ومركزاً مثل كلب صيد على كل وجبة آتية. زاد خمسة عشر باونداً، كلها عضلات، بفضل التمارين السويدية التي اعتاد على ممارسة مئة حركة منها كل صباح. وخلال أربعة أيام في الأسبوع كان يرفع الأثقال. وفي عصارى السبت يلعب الملاكمة،

وقد علمه لاعبان محترفان سابقان أن الشجار فنّ. كانت ريحه مؤاتية، وتمكن من تسديد لكمة. كان أفضل بيل هيوستن منذ ترك البحرية.

وها هو في طريقه الآن إلى الغرب، إلى بيته في فينيكس، عائداً من الطريق التي جاء منها، الشمس خلفه، منطلقاً نحو حياة لم يكن يستطيع تخيلها. أعطوه رقم هاتف ضابط إطلاق السراح المشروط، حوالة بقيمة عشرين دولاراً، والملابس التي اعتقل بها قبل ثلاثة عشر شهراً. استطلع بعينيه الطريق الممتدة أمامه، الصحراء تبدو متجلدة في النور الصباحي، منبسطة وخضراء بعد أمطار الشتاء، الطريق السريعة سوداء ومستقيمة تماماً عبر النافذة الأمامية للشاحنة، وأحس بالمغامرة تتحرك تحته، كما عندما شاهد ساحل جنوب كاليفورنيا وهو يضاءل من عربى القطار خلال رحلته الأولى في السابعة عشرة.

في فينيكس دخل إلى أول حانة وجدها وتقرّب من أول امراة كانت شبه لطيفة تجاهه. قالت إنها مصابة بالصرع، وبدا هذا صحيحاً تقريباً. كل ساعتين كانت تتناول حبة «سكونال». كان في حيازتها العديد من القناني منها لها وادعت إنها حصلت عليها بوصفة طبية. لم تحتج إلى أكثر من زجاجتي جعة حتى تشعر بخفة الثمالة. كان عليه التكلم إليها لوقت طويل.

تسكعا في الشوارع. أرادته أن يمشي من الجهة الخارجية، جهة حافة الرصيف، لأنه – كما أصرت – إذا جعل سيدة تمشي على الطرف فإنه يؤدي دور قوادها. بدت تعرف بشأن هذا كله، إلا أنها لم تطلب مالاً. عندما صعدا إلى غرفتها في فندق يطل على شارع «دوس»، المجاور لسكوند ستريت، اتضح أن «السكونال» الذي تتعاطاه لا يعتمد عليه. ليلاً أخذت ترتعش في السرير. قال: «ما الخطب؟». قالت: «أمرّ بنوبة». بدت مشوشة حيال هويته. قال: «هل بقي أي جعة؟». كانا قد اشتريا رزمة من ست زجاجات فحسب؛ وجد علبتها الكرتونية مسحوقة تحت مؤخرتها العارية. «يستحسن أن أذهب وأرى عائلتي. لقد خرجت لتوي من السجن»، قال.

برد الليل. مشى في «دوس». وشعر بالرغبة في الاستلقاء وأخذ قسط من النوم لكن الآن بات الفجر قريباً، وصار الرصيف مصقعاً، وقد بدأ المتشردون النائمون على الرصيف، ملقين رؤوسهم فوق أذرعهم، يتحركون مستيقظين، أو يهيمون على وجوههم في الشوارع الفارغة. انضم بيل هيوستن إلى موكب الأرواح التي تنتظر شروق الشمس.

مشى حتى صحا من تأثير الشراب، وبقي كذلك حتى ما بعد لقائه الأول مع الضابط المشرف على إطلاق سراحه في مبنى في وسط البلد في شارع جيفرسون، فالامتناع عن الكحول أحد شروط إطلاق سراحه المبكر. بيد أن أحداً لم يكن يدقّق في ذلك، وسرعان ما عاد إلى نمط عيشه السابق، متحكماً بنفسه للتوقف عن الشرب في أيام الثلاثاء من أجل التأكيد الأسبوعي مع الرجل الذي يستطيع إعادته إلى السجن باتصال هاتفي. الضابط المشرف سام ويب، شاب بدين متمدن على نمط المزارعين، سمى هيوستن «كاوبوي وسط البلد»، وأمن له عملاً كمتدرب. بعد شهرين من الحرية جاء هيوستن إلى الاجتماع وأنفاسه تعبق بالويسكي، إلا أن ويب هزأ من المخالفة فحسب، «يمكنني أن أسجنك خلال عطلة السبوع»، قال، «لكنهم سيطلقون سراحك ثانية فحسب. يحتاجون إلى الزنازين في فلورنس للفتية الأكثر شراً».

أنهى هيوستن فترة التدريب وبدأ يتقاضى راتباً كاملاً. قاد شاحنة ذات رافعة شوكية في مخزن للأخشاب يقال إنه الأكبر في الجنوب الغربي، دون أخذ كاليفورنيا في الحسبان. تنقّل طوال اليوم بين الشاحنات ضخمة والمخازن الضخمة ناقلاً أطناناً وأطناناً من الألواح المقطعة حديثاً التي تفوح منها رائحة أشبه بالقيء، واضعاً إياها في أكوام مستطيلة، ثم مفككاً إياها شيئاً فشيئاً. هناك آخرون يستعملون هذه الأخشاب. أما هو فينقلها فحسب. قلما يتواصل مع أحد وإن كان يسرف في الشرب، نائياً بنفسه عن المشكلات، يعيش عيشة شبه منعزلة،

شاعراً بالتردد إلى حد ما، في أن يعود نفسه ثانية، عمل في مخزن الأخشاب حتى الربيع عندما جعله غيابه المتزايد عديم النفع، فطردوه.

كان للمهمة معنى حتى أنجزت. لم يصلوا إلى أيّ نتيجة. بحثوا عن مكان آمن لكي يمضوا الليل. رفض معسكر للقوات الخاصة استقبالهم. على أية حال فإن، وجود القوات الخاصة وحده قد أخلى المنطقة من النشاط، بيد أن أحداً لم يتلق تقريراً بوجودهم. ثمل «اللورب» الستة ثم انطلقوا بناء على معلومات مخابراتية قديمة، عندما كان يجدر بهم أن يكونوا نائمين في «نا ترانج». لم يكن للمهمة أي معنى.

كانت الواقعة واقعة اغتيال أكثر منها كميناً. طوال النصف كيلومتر تقدم جايمس الطريق تحت سماء خالية من النجوم، لكن العتمة تخفي ما تخفيه. تبعها. بعد بضع مئات من الخطوات ستنفرج العتمة وسيصلون إلى مكان يعرفونه حيث يمكنهم الاستراحة وانتظار الفجر، وربما طلب إخراجهم من هناك.

بدأ النيران خلفه بثلاث زخات قصيرة. انبطح أرضاً وزحف عائداً من حيث أتى، لكنه توقف على بعد بضعة ياردات، لأن حياته تشعبت بصورة حادة نحو اليسار، في هذا الموضع تحديداً. سقطت وريقات الشجر عليه بينما أخذ رفاقه يردون على مصدر النيران. سمع وقع أقدام تجري، وألقيت قنبلة بين الأشجار، فدفن رأسه في التراب مع انفجارها. تدحرج يساراً نحو الغابة، متتبعاً الطريق، وأخذ يبحث عن وميض النيران في الجانب الآخر من الدرب. لا شيء. توقف إطلاق النيران، ومعه زعيق الحشرات. لحظة طاغية مسالمة. الهواء له عمق رنان. كل جزئية أخيرة من الهراء تبددت.

زحف قدماً عبر التمزقات المفعمة بالحياة للغابة حتى سمع أحد رجاله يزحف على الدرب، وطرطق بلسانه. سمع أنيناً. اشتم رائحة براز. ارتفع الأنين إلى صراخ لكنه لم يستتبع أي إطلاق نار.

«رجل سقط! رجل سقط!».

«على الدرب! على الدرب!»، كان ذلك صوت ديرتي. سمع جايمس خبط جزمات عسكرية على الدرب فأطلق ثلاث زخات تغطية وتوقف. رأى رجلاً مقعياً فوق الجريح.

«تمسك بكاحله. فلننطلق!».

«اللعنة، ليس من تغطية».

سار جوكر إلى نهاية الدرب وكأنه في حديق عامة «انتهى الأمر». ربض على جانب الدرب شاهراً رشاشه «كان لعيناً واحداً فحسب».

«هراء».

«رأيت كل وميض النيران. لم أشح نظري البتة».

قال ديرتي للمصاب: «انظر هنا، انظر إليّ!».

«لا أستطيع رؤية شيء سوى الهراء».

«بايكرز!».

«من أنت؟».

«أنا ديرتي. هذا أنا. لا تغمض عينيك!».

«اللعنة، لست في هذا العالم يا رجل، لست في هذا العالم».

«أنت هنا، أنت بخير».

«لا أشعر به. إنه هراء».

«أنت هنا».

«لا أشعر بالعالم يا رجل».

«من رمى القنبلة؟».

«أنا»، قال جوكر، «اللعين أطلق ثلاث زخات من الرصاص ثم رحل».

«عيناه فارغتان». مال ديرتي نحوه لكي يشم أنفاسه. «اللعنة»، قال، «لعنة لعناء».

خمستهم كانوا هنا الآن. تقدم جايمس الدرب ثانية وأمسك كل واحد من الآخرين قدماً أو ذراعاً وجروا جثة بايكرز إلى الفسحة التي يعرفونها على بعد ثلاثمئة متر في نهاية الدرب.

«ارفع مؤخرته».

«لقد أصيب من القدمين صعوداً. لقد توفي فوراً».

«لكنني أحب ما فعله يا رجل، لقد بقي ذاته».

«حقاً؟».

«لم يبدأ بالنشيج كطفل صغير يا رجل»، قال ديرتي وهو يبكي.

لم يعرف جايمس بايكرز جيداً، غير أنه شعر تجاهه بالامتنان والحب لأنه تلقى الضربة بدلاً من أحد الآخرين. خاصة بدلاً منه.

«حسناً، سوف نقبض على أحد السكان في إحدى هذه القرى ونوصل لهم الرسالة».

«اللعنة على المخنثين يا رجل. إنهم هم القبعات الخضر. أتصدق هذا الهراء؟».

«لا، لا أصدقه».

«لو سمحوا لنا بالدخول لكان هذا الرجل لا يزال حياً. لكان يضحك الآن».

«فلنجر الاتصال ونخرجه من هنا».

«ليس بعد».

«ديرتي، يا رجل، لقد انتهى الأمر».

«دع اللاسلكي وشأنه»، خبط ديرتي جهازه بقوة.

«سنيور، لن ألمس اللعين».

«من سيرافقني؟».

ذهب ديرتي وكونراد للقبض على أحد السكان وبقي الثلاثة الآخرون مع

الجثة.

«هذا الرجل توفي لأن أولئك الملاعين رفضوا إدخالنا إلى المعسكر».

«المرة المقبلة التي أرى فيها أحداً من المخانيث ذوي القبعات في المدينة فسوف أتعقبه حتى أغرزه في ظهره».

«فلنتصل، ونطلب ضربة جوية على مؤخراتهم الجبانة».

استند جايمس إلى جذع شجرة ولف سيجارة مع بعض الحشيشة. لاحساً الورقة تذوق حديد السلاح على أصابعه.

نهض وأشعلها بينما التف الآخرون حوله لإخفاء الوهج.

«أسمعت ما قاله عن الهراء؟ لقد عرف. لقد عرف».

«انفجر ظهره على أية حال».

«جيد له. وإلا لقضى حياته على الكرسي المتحرك. هذه هي العقوبة يا رجل، أن تتحرك من خلال النفخ في أنبوب».

«كانت الإصابة أسفل من ظهره. كانت ذراعاه سليمتين».

«ما كنت لأستعمل أي كرسي متحرك. بل كنت لأتأرجح على حبل من السقف».

تركهم جايمس وأسند ظهره إلى الشجرة ثانية. لم يرد التكلم على أمور مثل هذه بينما دماغه تنتفخ وتهدأ أخيراً. ألقى رأسه إلى الخلف ونظر إلى السماء. ظلمة. العدم. العدم الصافي. كهرباء صامتة فحسب. روح كل شيء. «لا أؤمن بهذا الهراء»، قال.

«أولئك المخنثون الصغار، برنامجهم مريح تماماً».

«لا يشاركون في أي هراء. لا يحملون شيئاً في حقائبهم».

«فلنطالب بضربة جوية على مؤخراتهم الجبانة اللعينة».

قال جايمس: «تعالوا إلى هنا»، واقترب الآخرون وأقعوا حوله. «أحتاج إلى قنبلة صينية. ما إن أحصل على واحدة حتى أشوي أولئك الملاعين إلى لحم أحمر

ميت».

«الليلة؟».

«ما إن أحصل على واحدة».

«كونراد معه واحدة».

«أعرف».

«فلنشعل بعض الدخان في ليلهم. فلنقض على نحو عشرين من أولئك الملاعين».

ظهر كونراد بينهم صامتاً كفكرة.

«أعدت؟».

«وحدي».

«أين ديرتي؟».

«لديه امرأة».

نهض جايمس، «أعطني تلك القنبلة».

«ماذا».

«تعرف عمّ أتكلم. تلك القنبلة الصينية».

«سوف آخذها إلى الديار».

«أي ديار؟».

«دياري».

«اللعنة على الديار».

«إنها تذكار».

«لا يمكنك أن تعيد معك قنبلة يدوية إلى العالم».

«حسناً، اللعنة على أية حال».

«سوف آتيك بغيرها».

كان كونراد يضعها في جيب صديريته. مد جايمس يده وأخرجها. «ستأتي

معي؟».

«إلى أين؟».

«سنعود إلى حيث ينام أولئك الخضر».

«بلا مزاح؟».

«بلا مزاح».

«سأرافقك إذا انتظرت من أجل التحقيق».

عاد ديرتي يرافق كائناً صغيراً عارياً إلى مجال رؤية جايمس الليلة، كأنما إلى دائرة من ضوء النيران. كانت شفتها السفلى اللماعة نائتة وكأن أحدهم قد ناداها للتو باسم سيء. بدت غاضبة بما فيه الكفاية لكي تقتل، لو كانت تحمل سلاحاً. ألقوها أرضاً وتبادل الآخرون الأدوار معها، لكن ديرتي كان قد انتهى قبل ذلك، وأراد جايمس أن يبقي نفسه شريراً لساعة الصفر خاصته مع القبعات الخضر. عندما انتهى الآخرون لم تعد بحاجة إلى تثبيت. سقط جايمس على ركبتيه ووضع طرف سكينه البوي على بطن المرأة وقال: «ما رتبتك أيها الجندي؟ هل علمك أحد يوماً ماذا تفعل بإحدى هذه السكاكين أيها الجندي، أرأيت واحدة من قبل أيها الجندي؟ ما رتبتك أيها الجندي الصغير؟ إلام تنظر؟ أتظن أنك أمي؟ إنك أمي، ولكن من بحق الجحيم هو أبي». ظلّ يستجوبها حتى باتت يده أضعف من أن تظل ممسكة بمقبض السكين.

بدت فينيكس لناظري بيل هيوستون مدينة أكبر بكثير هذه الأيام. الإعمار في الضواحي بلغ حدود الصحراء. وكانت زحمة السير رهيبة، حتى إنه في الكثير من الصباحات يمتدّ الأفق تحت طبقات من الدخان والضباب البني. كلما أثقلت الدنيا عليه يحمل خيطاً وصنارتين ويجلس على ضفاف إحدى قنوات الريّ حيث سمك السلور ينتظر في تجاهل مسالم للقرن العشرين. قيل له إنها تأتي من

نهر كولورادو، ونصح بأن يستعمل قطعاً من النقانق كطعم وثقالاً بلاستيكياً لكي يبقي صنارته ملامسةً القعر فحسب، لكنه لم يكن لديه واحدة، ولا حتى قصبة وبكرة، ولا أي حظّ، ولم يكن ذلك يزعجه. الانتظار والتأمل، هذه هي الجدوى، مشاهدة المياه وهي تتدفق عبر الصحراء التاريخية، متأملاً أسفارها. غالباً ما بقي هيوستن حتى وقت متأخر مختلساً النظر إلى أولئك الذين يأتون ويذهبون من ذلك المكان الموحش، حتى تمكن ذات ليلة من مفاجأة ثلاثة هبيين يتبادلون المخدرات، فسرق منهم ثلاثمئة دولار نقداً وقطعة من الحشيش المكسيكي الملفوف بورقة سيلوفان حمراء. محدقين في خنجره المرتعش، قال له الفتية إنه حشيش مكسيكي حقير، من النوع العادي، لا شيء خاصاً، لكنه يستطيع بالتأكيد الحصول عليه. تركهم يحتفظون به، وإن كان يمكنه أن يجد وسيلة يبيعه فيها بنفسه. كان ثمة خط لا يتجاوزه. قد يتنمر على صغار الفتية ويسرقهم وقد يطعن أحدهم حتى إذا اضطر إلى ذلك. لكنه لا يتعامل البتة بالمخدرات.

عند اقتراب وقت الإغلاق وقف على الرصيف أمام باب حانة مفتوحة غارقة في أنفاس الكحول الدافئة، موسيقى الكاونتري المنبعثة من الداخل تنقض عليه، تقطعه. خرج رجل قصير يشتم ويحاول أن يقفل الفتحات التي مزقها أحدهم في قميصه. جرذ هزيل، أكبر سناً من أن يخوض شجاراً، مع فم ينزف وإحدى العينين انتفخت حتى كادت تغمض. ابتسم مثل طفل معاقب. «هذا سيشفيني. هذه هي النهاية». مرات كثيرة جداً وعد بيل هيوستن نفسه بالشيء نفسه.

عبّر النقيب غالاسي عن هواجسه تجاه احترام جايمس لذاته، التي كان يلفظها إحرام ذاته[1]. لم يكن برقيب صغير السن، بل حقيقياً، يخدم هنا منذ 1963، وقد قام بمهمات ميدانية وكل شيء، لكنه ترك نفسه ينمي قلقاً تجاه احترام جايمس

(1) الأولى Self-esteem والطريقة التي يلفظها بها النقيب هي Self-steam.

لذاته، وعبر عن ذلك، بينما جلس الرقيب لورين قربه واضعاً قبضتيه على فخذيه، صامتاً تماماً.

«ما اسمك أيها المعاون؟».

«جايمس».

«سوف أناديك جايمس بدلاً من معاون، لأنك سرعان ما ستعود مدنياً هنا. وعلى أية حال، لست بجندي. ألديك ما تقوله بهذا الخصوص؟».

«لا».

«لقد أبرحوك ضرباً، أليس كذلك؟ لقد شوهوك تماماً. أتظن أنك ستحصل على القلب القرمزي لقاء ذلك؟».

«لدي واحد أساساً. وكان هذا هراء أيضاً».

«أترى جايمس، هؤلاء جنود. هؤلاء رجال صالحون. في حقيقة الأمر، أختي متزوجة من جندي من القبعات الخضر. يعرفون ما جاؤوا للقيام به هنا، وهم يقومون به. يعرفون من هو العدو ولن يقدموا على قتل جماعتهم. إنهم أناس إذا حاول أحد من جماعتهم أذيتهم، إذا حاول أمريكي أذيتهم، وحتى أن يرمي قنبلة يدوية في أحضانهم، فإنهم لا يقتلون ذلك الأمريكي، لأن ذلك الأمريكي ليس عدوهم. إنهم يؤذونه أحياناً، لأن ذلك الأمريكي هو ابن عاهرة لعين».

لم يبد جايمس أي تعليق.

«يبرحونك ضرباً كما تستحق. أما زلت تبول دماً؟».

«لا سيدي».

«أيمكنك تناول الطعام الناشف».

«لا أطلب طعاماً ناشفاً».

«هل ستخبرني أنك لم ترم ذلك الشيء؟».

«لم أرم أي قنبلة».

«أيها السافل، لقد سقطت القنبلة من السماء فحسب».

«لا أعرف شيئاً عن أيّ قنبلة. سوف أخبرك شيئاً عنهم أولئك القبعات الخضر: إنهم يتركون جماعتهم في الغابة لكي يتعرضوا للقتل عندما تطلب منهم هذه الجماعة أن تبيت في مركزهم. وقد قتل أحد شبابنا. هل طلقته؟».

«من؟».

«أختك».

«هذا لا يخصك».

«ما اسمك الأول؟».

«لا يخصك أيضاً».

«حسناً جاك، وأنا لا أعتبرك جندياً أيضاً. ليس إذا كنت تدعم أولئك القوات الخاصة السفلة ضد جماعتك من اللورب. اللعنة عليك جاك».

«أتعرف ماذا أظن؟ أظن أن الرقيب وأنا سوف نأخذك إلى الخارج ونبرحك ضرباً كما فعل أولئك القبعات الخضر».

«بعض الهراء على طريقة القبعات الخضر»، قال سيرجنت لورين.

«سوف أحب ذلك كثيراً. هيا بنا».

«اعتذر من النقيب».

«عذراً سيدي».

«الاعتذار قُبل جايمس، أظن أنك فقدت سيطرتك على نفسك وقدرتك على التفكير في هذا الجو الصعب من القتال. أليس كذلك».

«أظن أن ذلك محتمل جداً».

أشعل الكابتن غالاسي سيجارة «كول». مكيف الكوخ لم يكن يفلتر تماماً الروائح المنبعثة من الخارج، روائح أمريكية شهية، شحم، بطاطا مقلية، لحم مقلي، مراحيض معقولة الرائحة، لا مليئة بالبراز الفييتنامي الشرق آسيوي. نفخ الكابتن غالاسي غيمة من الدخان غطت على تلك الروائح.

سكروي لوت كان ليقدم له سيجارة «كول». تمنى جايمس العودة إلى أيام

سكروي لوت، عندما كان الضباط هم المجانين الوحيدون.

«أيمكنني التدخين سيدي؟».

«تفضل».

«ليس لديّ سجائر».

«إذن لا أظن أن ذلك سيكون ممكناً».

«إذن لن أدخن».

«ما الذي حرف تفكيرك؟ هل تتعاطى الكثير من مخدر LSD يا فتى؟».

«لا أتعاطى أيّ مخدرات، إلا كما هو مشار إليه».

«مشار إليه من قبل من؟ تاجر المخدرات الخاص بك؟».

«من قبل متطلبات المهمة سيدي».

«تعني السرعة».

«أعني ما قلته فحسب».

«أتعني أنك سبيدي غونزالس صغير[1]. أتدرك عمق الخراب الذي تعاني منه؟ لقد تجاوزت حدود العقل منذ زمن بعيد. يجدر بك العودة إلى الديار».

«لقد وقعت للتو لدورة أخرى».

«لن تبقى هنا. لا أريدك في حربي».

لم يقل جايمس شيئاً.

«بنطالك متسخ عند الكاحلين».

«كنت أحفر سيدي».

«أم أنك كنت تزحف ثملاً على ركبتيك في شارع ترانج كي قبل أربع ليال».

«قبل أربع ليال؟ لا أعرف سيدي».

«كيف حدث أن توقفت عن الذهاب إلى تدليك منتصف الليل مع

(1) Speedy Gonzales: يلقب بـ «أسرع فأر في المكسيك»، شخصية كرتونية أمريكية، يتميز بسرعته ولكنته المكسيكية.

الشباب؟».

لا جواب.

«لقد حصلت لنفسك على علاقة ثابتة. امرأة ثابتة صغيرة في شارع ترانكي. أكنت في شارع ترانج كي قبل أربع ليال؟».

«أظن ذلك، لا أعرف».

«أكنت هناك؟».

«أظن ذلك».

«أم كنت في دورية».

«لا أعرف».

«ماذا حصل».

«متى؟ في ترانكي؟».

«في تلك الدورية حيث قتلت امرأة، أيها القاتل اللعين».

فجأة امتلأ جايمس بالكراهية تجاه هذين الوغدين لأنهما إذا كانا سيمضيان في هذا فينبغي أن يقدما له كرسياً وسيجارة».

«ماذا حصل لتلك الفييتنامية جايمس؟».

«أي كان يمكن أن يقتل، كانوا عدوانيين، هذا كل شيء».

«أكنت في الدورية؟».

«لا».

«قبل أربع ليال؟».

«لا».

«لا؟ خاطبني بسيدي».

«من وشى بنا؟».

قال الرقيب لورين: «لا يخصك».

«أحدهم يكذب».

«أحدهم يكذب بأي خصوص؟»، سأله الرقيب.

انتظر جايمس النقيب حتى يتكلم.

«أفعلت هذا؟».

«لا أعرف».

«لا تعرف؟ اللعنة يا رجل، سوف تخاطبني بسيدي».

«لا أعرف سيدي».

«أفعلت هذا أم لا؟».

«لا أذكر أي ليلة كانت سيدي. أظن أنني احتسيت الكثير من الجعة الأسبوع الفائت».

قال الرقيب: «شرب حتى الثمالة».

«أتحب الجعة جايمس؟ حسناً ليس من جعة في ليفنورث[1]».

«أكنت هناك؟».

«لا تتطاول عليّ».

«لدي أصدقاء هناك».

«لا تتطاول عليّ».

«اعتذر للكابتن».

«أعتذر سيدي».

«ماذا فعلت بالمرأة».

«كانت من الفييتكونغ».

هراء».

«كانت عاهرة فييتكونغية».

«هراء».

(1) Leavenworth: أكبر سجن فدرالي للذكور تطبق فيه الإجراءات الأمنية القصوى، ويقع في مدينة ليفنورث بكانساس.

«إنها عاهرة، وهذه حرب سيدي».

«لا تخبرني ما هذه. أعرف ما هي. أظن».

«وأنا أيضاً».

«أتنوي القيام بدورة رابعة؟».

«أجل سيدي».

«لا سيدي، لا مزيد لك».

«سيدي، لدي دورية في الساعة ألف وسبعمئة».

«دورية؟ يا إلهي. أولاً نحن لا نرسل شباباً محطمي الأضلاع مجبّري الأذرع في دوريات».

«ليست تجبيرة، إنها مجرد علاقة».

«ثانياً: لا نرسل مدنيين في دوريات».

«لستُ مدنياً».

«حسناً»، قال النقيب، وقد استولى عليه غضب عظيم إلى حدّ أنه أخذ يبتلع كلماته صارخاً: «أتمانع لو قلت لك إنك إن لم تكن مدنياً فأنت لم تسمع بنهاية هذا؟ سوف أتولى هذا الأمر. سأريك، لم تسمع بنهاية المسألة، سأريك، ربما كثيرون سيرونك. ربما الجيش برمته سيريك».

«لا أظن ذلك».

«لا تظن ذلك؟ هل تتصرف بعصيان؟».

«أقول رأيي فحسب».

«ماذا تقول؟».

«لا أعرف».

«ماذا تقول؟».

«أنك تظن أنك ستريني، لكنني لا أظن أنك ستفعل، لأنها كانت عاهرة، وهذه حرب. وهذا ما يحدث، لأنها حرب، لأنها ليست مجرد حرب».

«حسناً، أيهما هي؟ أهي حرب أم أنها ليست مجرد حرب؟».

«إنني أقول لك فحسب».

«أيها الوغد الصغير. إنني في هذه الحرب منذ ما قبل أن تتعلم الاستمناء، أتسمع؟».

«أسمع».

«حسناً»، قال النقيب. لثلاثين ثانية وقفوا فحسب لا يفعلون شيئاً.

قال جايمس: «سيدي النقيب، يجب أن أذهب، يجب أن أغادر».

«لا جايمس، لا يجب. بحق السماء، دورية؟».

«أجل سيدي».

نهض النقيب غالاسي. خطا سريعاً إلى باب المكتب وفتح الباب واسعاً. في الخارج، الغبار، صخب الشاحنات، المروحيات - يوم رمادي ثقيل. «أيها الرقيب»، قال، «تكلم إلى هذا الرجل». غادر وأقفل الباب وراءه، تاركاً الأمور هادئة مجدداً تحت طنين مكيف الهواء.

جلس الرقيب وراء مكتب النقيب وعرض الجلوس على جايمس. لكنه لم يقدّم له سيجارة.

قال لورين: «كان يمكنك أن تقتل أربعة من أولئك الأوغاد... حسناً، أعرف أن الوحيد الذي تأذى هو أنت». بعد قليل أضاف: «لكن هذا الموضوع مع المرأة».

«الهراء يحدث طوال الوقت».

نظر إليه لورين فحسب. حملق به. قال: «جايمس».

«ماذا».

«لا، أنت قل لي ماذا».

قال جايمس: «أعني، من أين جاء هذا الهراء عن امرأة، ماذا يفعل هذا الهراء في فيلمي؟».

«أتحب فيلمك؟».

«إنه حيث لدي تلك الكشافات الحساسة. ولحظة يبدأ الهراء يبدأ عقلي بالعمل بالألوان الطبيعية. وكأنه لدي تلك الكشافات».

«إذن تريد المواصلة فحسب؟».

«أجل».

«في مشاهدة فيلمك بالألوان الطبيعية؟».

«أجل».

«حتى تأكل البراز وتموت؟».

«أجل».

«في هذا أتفق معك جايمس. لا أظن حقاً أنه ينصح بتركك طليقاً في أمريكا. أقول إنه يجدر أن تبقى هنا حتى تقتل. لكن إن لم يكن الأمر بالعكس، لما كان هذا الجيش الأمريكي، صح؟».

«نفعل كل شيء في الظلام أيها الرقيب. الأخطاء تُرتكب».

«أجل، ترتكب. لكن هذه الغلطة الصغيرة مع المرأة تصعد مباشرة إلى مؤخرة النقيب. ثم مع مسألة القنبلة، فإن رائحتك فاحت في كل مكان».

«أيمكنك أن تعطيني سيجارة؟».

«بعد قليل. إنني أقول لك شيئاً».

«حسناً».

«إذن أظن أنه الأمر الحقيقي كاوبوي، أظن أنك ستعود إلى الديار».

«الديار؟».

«من حيث جئت».

«لا أعرف ما أقول».

«قل إنك في فوضى».

«إنني في فوضى».

«إن لم ترد تذكرة للخروج من الجحيم، فإذن أنت تعاني خللاً في تفكيرك، ألست كذلك أيها الجندي؟».

«إذا كنت تتكلم عليّ أن أصغي. لطالما كنت تعرف طبيعة الأمور يا رجل».

«العم هوشي مات[1] يا صاح. لقد ربحتَ الحرب. انتهت».

«حقاً؟».

«وضّب أمتعتك. عد إلى الديار. فوراً».

«فوراً؟».

«قطعاً. اذهب إلى تان سن نوت، واركب طائرة عسكرية وارحل، ارحل فحسب. سأعطيك إذناً، وبعد أن تصبح هناك سنرتب الأوراق لتصبح دائمة».

أخرج الرقيب سيجارة. ثم قدم لجايمس واحدة وأشعل الاثنتين من عود ثقابمن علبة « تدليك منتصف الليل». قال، «سيكون هذا مشرفاً».

«ما الذي سيكون؟».

«التسريح من الخدمة».

«أوه.. أجل، سيكون مشرفاً؟».

«تسريح مشرف».

«إذا كنت تقول هذا».

«أقول مشرف. ودائماً أفعل ما أقول».

في منتصف يونيو، دفع بيل هيوستن كفالة خروج أخيه جايمس من السجن. كان جايمس قد وصل إلى فينيكس قبل أسبوعين، لكنه لم يتصل بأحد، حتى اعتقل بسبب حادثة اعتداء بسيطة، وحينئذ اتصل بأمه. في أثناء خروج جايمس ومروره بمكتب الكفالة، كان يبتسم. وعدا عن ذلك بدا مرتاباً وكأن شيئاً ما سينقض عليه

(1) توفي هوشي مينه في الثاني من سبتمبر 1969.

من وراء ظهره.

«أولاً، لا أبتسم لأنني فخور. أبتسم لأنني مسرور جداً لخروجي».

«أنت محظوظ لأن معي بعض الدولارات».

«آسف لاضطرارك لإنفاقها هكذا».

«عادة أكون على الحديدة، لكن مؤخراً الأمور اختلفت بعض الشيء معي».

«يبدو أنك كسبت بعض الوزن».

«هذا لأنني كنت في سجن فلورنس».

في الشارع أبعد جايمس وجهه عن شعاع الشمس.

«أقدر هذا بيل جونيور. بكل صدق».

«يفضل أن تكون العائلة مفيدة في شيء ما. لأن شيئاً آخر لن يفيد».

«أصبت في ذلك».

«أأنت جاهز لبيرغر؟».

«وهل يرتدي بابا الفاتكيان تنورة؟». أخرج جايمس حثالة تبغ من فمه وبصقها على الرصيف مثل قطعة روث صغيرة. «كم دفعت لذلك الزنجي؟».

«مئة، وإن لم تفعل الصواب وتذهب إلى المحكمة فسأكون مديناً له بألف».

«سأفعل الصواب».

«آمل ذلك».

«سأرد لك المئة أيضاً».

«لا تحمل هماً. فقط عندما تستطيع ذلك».

مدّ بيل هيوستن يده اليمنى لكي يبحث في الجيب الأيسر من بنطاله عن المفاتيح.

«معك سيارة».

«أجل إنها رولز».

«تمزح؟».

«لا أمزح».

كانت سيارة لنكولن قديمة ذات غطاء شبيه بظهر حاملة طائرات. «أجل، ليست رولز. لكنها تتدحرج عندما تضغط على دواسة الوقود».

أخذ جايمس إلى مادكونالدز واشترى له ثلاثة شطائرة من الحجم الأكبر لديهم وكوبين من مخفوق الشوكولا. أكل جايمس بسرعة ثم جلس شابكاً ذراعيه على صدره، محملقاً في الجميع.

«هاي».

تجشأ جايمس بصوت عال.

تكلما عن أمهما. قال جايمس: «كم عمرها على أية حال؟».

«إنها في الثامنة والخمسين على الأقل»، قال بيل، «ربما في التاسعة والخمسين، لكنها تبدو وكأنها تجاوزت المئة».

«أعرف. أجل، تبدو كذلك. ومنذ زمن طويل».

قال بيل: «إذن.. اسمي بيل جونيور. لكن أخطر لك يوماً أمر؟ لقد خطر لي منذ زمن طويل».

«ما هو».

«ليس من بيل سينيور».

سألهما رجل مسن على الطاولة المجاورة: «كم تبلغان من العمر أيها الشابان؟».

نظرا إلى بعضهما. قال العجوز: «أنا في السادسة والستين - الطريق 66؟ هكذا، 66».

«ضاجع نفسك»، قال جايمس.

شاهد بيل هيوستن جايمس وهو يأخذ قليلاً من التبغ من العلبة ويحشوه داخل خده، ثم أقفل العلبة، ومسح أصابعه أسفل سرواله.

«قال الزنجي إنها المرة الرابعة في غضون أسبوعين الذي تعتقلك فيها الشرطة

بسبب الشجار، فكان عليهم أن يوجهوا لك تهمة في النهاية».

«أهذا ما قاله؟».

أزعج ذلك بيل هيوستن، أزعجه بطريقة غير منطقية، أن جايمس يلعب دور الجندي القديم، وكأنه اختبر منطقة سرية وتعرض للتعذيب هناك.

«أتريد المزيد من البيرغر؟».

«أنا بخير».

«حقاً؟ أنت بخير؟».

«أجل».

«يبدو لي العكس تماماً».

في اليوم التالي لخروج جايمس من السجن ذهب إلى مكتب صغير حيث ساعده رجل حزين سمين على ملء بعض الاستمارات. وأخبره بأنه سيبدأ بتلقي الحوالات بعد أربعة أسابيع إن مضت الأمور على ما يرام. أخبره الرجل عن مكان في وسط البلد قد يعطيه فوائد إضافية، وذهب جايمس ليرى الأمر، لكنهم طلبوا منه أن يقف بالطابور هناك وأن يملأ المزيد من الاستمارات الغبية.

لبضعة أيام سمح له بالبقاء في نزل في الجانب الشرقي، في شارع فان بورين، شارع الخارجين عن القانون والعاهرات، الذي يقع على بعد ثلاثين مجمعاً سكنياً عن المكان الذي كانت تسكن فيه أمه قبل أن يرحل إلى جنوب شرق آسيا. ربما ما زالت تقيم هناك.

في الصباحات يخرج للنزهة، نادراً ما يتوقف. إلى الغرب مواخير ومصانع. في اتجاهات أخرى تفسح المدينة الطريق لدروب الضواحي أو الصحراء الفارغة، أو الأراضي المزروعة. كان لا يزال الوقت مبكراً في الصيف الصحراوي، فكان الطقس حاراً، إنما جافاً. ارتدى قبعة كاوبوي من القش ومشى بعكس الشمس

دوماً، سائلاً في المطاعم عن الماء. وعندما تتقدمه الشمس يذهب في الاتجاه المعكس. نصفه فقط يكون محمياً منها. البقية عتمة. أمكنه أن يشعر بقرون استشعاره تموت.

لم يتصل جايمس بستيفي. جاءت لتراه مرة فحسب قبل أن يغادر النزل نهائياً، وخرجا ليحتسيا كأساً، إلا أنه ظل يصيح بها بصورة مستمرة في خمارة آيسي، حتى وبّخه الساقي وطرده، وبقيت ستيفي، قائلة له إنها رأت ما أراد أن يريها إياه وأن الرسالة وصلتها، وإنها ترفض الذهاب إلى أي مكان مع رجل يقابل لطفها بالشتائم والإساءات. بعد أن رماه الساقي القوي إلى الليل نظر جايمس خلفه ورآها تبكي، متمايلة على ضوء الجكبكس. بعد نصف ساعة وجدته ستيفي واقفاً أمام مستشفى المجانين الحكومي في الشارع 24، ناظراً إلى الداخل عبر البوابة ذات القضبان، إلى المروج الواسعة، التي بدت على ضوء المصابيح المائلة فضية وسحرية. كانت قد انتهت من البكاء. قالت له إنها لا تستطيع الكف عن حبه. أقسم لها أنه سيحصل على عمل.

خرج من الحرب بأقل من أربعمئة دولار نقداً. استأجر شقة في مبنى من الخشب الرقائقي نوعاً ما يدعى أجنحة «روب روي»، واشترى دراجة هارلي قطعاً بدأ بتركيبها في غرفة المعيشة وعرف أنه لن يكملها البتة. كره الجارة على الطرف الثاني من الفناء، سحاقية ضخمة تنبعث منها رائحة فم بشعة. يمكن أن يعرف المرء بسهولة أنها كانت جذابة جنسياً في الماضي إلا أنها لطالما كرهت الرجال. لم يعرف جايمس ماذا يفعل. ماذا تريدك هذه الأرواح الصالحة أن تفعل؟ اعتاد في معظم الأماسي أن يقصد حانة على بعد بضعة مبان في الشارع حيث يمكن دوماً تقريباً الانخراط في شجار، أو أن يشرب النبيذ من أكواب بلاستيكية في حانات مليئة بالسكيرين العجائز. انتظر أن تبدأ الحوالات المالية بالوصول. عندما بدأت اشترى مسدس كولت 45 ريفولوفر، ست طلقات، حقيقي. كان واثقاً من أنه في النهاية سيطلق النار على تلك الجارة التي تعيش قبالته، لكنه شعر

أنه ليس من شيء تستطيع أي قوة بشرية فعله حيال ذلك.

بعد شهر في أجنحة «روب روي» انتقل إلى «شقق ماجستيك بالمز القندقية» في الشارع 32، على بعد نصف شارع فوق «بورين». كل صباح كان يجلس عارياً على حافة النافذة المفتوحة، هازاً ركبتيه، ومشاهداً رجلاً أسود عملاقاً في قميص يشبه خيم السيرك، يعبر الشارع آتياً من أي مكان يعيش فيه ويفتح متجر «سيركل كاي» في الناصية.

اعتاد جايمس أن يطوف الحيّ ماراً بالعاهرات المتكاسلات على مقاعد مواقف الحافلات، وبالعجائز الشمطاوات اللواتي يتقدمن بخطواتهن الصغيرة عند تقاطعات الطرق، والنسوة المكسيكيات في كعوبهن العالية وسروايلهن الزهرية الضيقة، اللواتي يوحين بأنهن عاهرات، لكنهن لسن كذلك حقاً.

يجلس في موقف حافلات. يدخن سيجارة «كول». يبصق بين قدميه. وبين أصابعه يمسك عنق نصفية فودكا «بوبوف»، مطرق الرأس تحت التفاهة الساحقة لملايين أولئك الوحوش وألعابهم.

عجوز جالس بجواره مع صحيفة مفتوحة على ركبتيه، قارئاً في شعاع الشمس الساطع، مغمضاً عينيه نصف إغماضة بسبب الشمس، يبدأ بشتم أولئك الناس الذين يحطون من قد الجهود العسكرية في فييتنام. «أولئك الفتية يقومون بالأمر الصحيح. إنهم أولادنا. وهم يفعلون الصواب»، شعر جايمس أنه بالتأكيد بحاجة إلى سيجارة، وقال ذلك، «لا أدخن»، قال الرجل، «حتى إنني لا أشرب القهوة، لقد نشأت كمورموني. أجل. تربيت كمورموني. لكنني لا أؤمن بها الآن. اتعرف لماذا؟ لأنها زائفة». كرر جايمس أنه يرغب في سيجارة، ونهض الرجل وابتعد عنه. وجاء كَلب وتوقف ونظر إليه وقال جايمس: «ليدك وجه يا صاح»، وفرك أذنيه وقال: «أجل يا صاح، لديك وجه».

ذات ليلة في خمّارة «آيسز» صادف أخاه الأكبر بيل وصديق له يدعى بات

باترسون. كان هذا قد خرج من سجن ولاية أريزونا في فلورنس للتو، حيث تعارف الاثنان. كان شاباً نحيفاً منتصب القامة يبدو كأنه قفز كما هو من روك أند رول الخمسينات، شعره مصفف في ذيل بطة وقميصه القصير مشدود فوق عضلاته، وياقته مرفوعة.

شرح بيل لأخيه القليل عن السجن: «لديك أصحابك، وهم لديهم أصحابهم، اعتماداً على لون جلدك. لا يتعلق الأمر بالخطأ والصواب. إنه من يتبع من – من الناس إلى جوارك. وأنت مدين لهم».

«أعرف ذلك».

«أعرف أنك تعرف. بالتأكيد تعرف. فقد عرفت التجربة من الجانبين».

«لم يحدث هذا قطّ».

«لكن ما أقوله أنك لا بدّ عشت الكثير من الخبرات».

«لم يحدث قط، لم يحدث قط».

أخذ بيل جونيور يقلّب كأسه بين يديه مقطب الحاجبين: «يزعجني كثيراً كيف تتصرف جايمس». تنحنح، وتأكد من أن الساقي لا ينظر وبصق على الأرض، «أنت تتصرف مثل (جايمس عاد إلى العالم. والعالم بثرة كبيرة عجوز لذا يريد جايمس أن يتبول في وجهه)، كم تنوي أن تبقى سافلاً؟».

«حتى يقنعني شيء ما بالعكس».

أنهى بيل كأسه ونهض وخرج من الباب.

قال باترسون لجايمس: «إليك هذا السؤال: أهذه خمّارة آيسز، كما عندما نقول في القمار (يا رجل، لدي زوجان من الأصات؟) أم أنها حانة آيسز، كما عندما نقول (هذه الحانة ملك قطة تدعى آيسز؟)»، أشار إلى النادلة قائلاً: «إنها آلة شابة حارة صغيرة». أيّده جايمس في أنها صغيرة الجسم، إلا أنها تتجاوز الشباب بكثير. اللحم تحت ذراعيها يرتج وهي تضع أكواب الجعة في المغسلة وتزيل البقع وتضعها على منشفة. أشار جايمس إلى ذلك قائلاً: «لست أراقب ذراعيها». قال

باترسون: «أنا أراقب مؤخرتها وهي ترتج».

«يحسن بي ان أذهب وأرى ماذا يفعل جونيور».

«اللعنة على ذلك الفتى. سيكون بخير فحسب».

خرج جايمس إلى الرصيف، لكنه لم يجد بيل. كان ثمة شاب فحسب يزعج المارة، محاولاً أن يبيعهم القميص الذي يرتديه. عاد جايمس إلى آيسز وانضم إلى باترسون ثانية، الذي سأله إذا كان يحمل مسدساً، وقال جايمس إنه يحمل واحداً.

«ألم تكن لورب هناك في فييتنام؟».

أجاب جايمس بنعم.

كان باترسون ينوي سرقة كازينو تديره جماعة ما في بيت معزول بالقرب من «جيلا بند» وسأل جايمس إذا ما كان راغباً في جني بعض المال. شرح له باترسون أن سرقة كازينو في الصحراء، في الليل، قد يكون لها بعض سمات الحرب. أجاب جايمس: «حسناً».

قيل لهما إن المريض طفل، ليكتشفا أنه رجل بالغ في الثلاثينات، من الفييتكونغ على الأرجح. في هذه المرحلة اقال لهما لرجال الذين جاؤوا بهما إلى المريض إنه مزارع انفجر فيه لغم أرضي. من طبيعة الجرح - إحدى ذراعيه مبتورة، أما بقية جسمة فمحمية بوضوح، يبدو أنه قصد أن يستخرج اللغم لكي يحوله ضدّ صنّاعه الأمريكيين. كيف تكبّد المريض هذه الإصابة لم يشكل فرقاً بالنسبة إلى الدكتور ماينيشيكو، وكاثي لم تكترث بكل تأكيد. مع الطبيب في سيارته اللاند روفر، تنقلت بين القرى بحريْة أكبر مما لو أنها انتظرت لتفعل ذلك مع أيّ من فرق منظمة الطفولة العالمية، وبمساعدتها له كممرضته سدّدت أتعابه. بين القرى كان الدكتور ماينيشيكو معروفاً بوصفه «الطبيب ماي»، الذي يمكن أن يعني بشيء

من التحريف، «الطبيب الأمريكي»، واليوم أدى هذا إلى ارتباك - كاثي، من الواضح أنها الأنجلوساكسونية، كان يفترض أنها الطبيبة واعتبر القرويون الرجل الياباني القصير الذي يرافقها مساعدها. لم يقم ماي بأي محاولة لكي يصحح لهم معلوماتهم، إلا من خلال تحكمه بالوضع وإعطاء الأوامر. أحبت العمل معه. كان واسع المعرفة، وهذا أمر مطلوب في ظل انعدام الموارد - ويتمتع بروح الدعابة إلى حدّ أنه يبدو عديم الإحساس تجاه الوقائع القاسية. فهمت أنه ثري، من عائلة تعمل في الاستيراد والتصدير في طوكيو. أما إذا كانت عائلته تتاجر مع فيتنام، فلم تعرف.

كان الرجلان اللذان أحضراهما إلى هنا قد أقاما نوعاً من الخيمة من القماش. كان المريض ممدداً على طاولة خشبية تلطخت بدمائه، وقال الرجلان لكاثي إنهما مستعدان لتعقيم الأدوات الطبية فوراً. ومع بدء الدكتور ماي بالفحوصات بدأوا يفهمون دوره الحقيقي، وسألوه إذا كان يجب أن يشعلوا النار الآن. فقال لهم نعم، فوراً.

كان البتر شبه تام بفعل الإصابة نفسها، إلا أن الساعد بقي متصلاً بقطعة عظام، وعضلة ولحم تحت المرفق. في يوم حار جداً وبلا معدات تساعد على معرفة في أي مرحلة بدأ الخلل في شرايين الذراع، فإن أخذ القرار حول ما ينبغي بتره أو الإبقاء عليه، كان عملاً تخمينياً، إلا أن الدكتور ماي كان شديد الإيمان بقدرته الخاصة على الحكم حول مدى انعدام الحياة في أنسجة معينة. «يمكنه الاحتفاظ بالمرفق»، قال، «إنه انفجار صغير. لو لم يكن لغماً أرضياً، لكان من الأفضل بتر الذراع كلها، أليس كذلك؟ لأنها ستموت». ربما كانت لتجادله أنه بما أن هذه فرصة المريض الوحيدة للجراحة، فإن الأعلى كان أفضل وربما ينبغي بتر الذراع برمتها، إلا أن الدكتور ماي لم يكن يوجه كلامه إليها. تكلم إلى نفسه كعادته، دائماً بالإنجليزية. «هذا الرجل قوي تماماً. رجل جيد. ليس حتى في حال صدمة». أخذ المريض يحدق إلى السقف القماشي الذي يحجب الشمس عنهم

وبدا مصمماً على ألا يفقد وعيه. دزينة أو أكثر من جروح الشظايا على وجهه وصدره قد نزعت وقطبت بخيطان الخياطة. إحدى الشظايا التي أصابت وجنته كادت تقتلع عينه اليسرى.

لم يكن لديهم سوى «كسيلوكاين»، لكن الطبيب تمكن بفرح من تخدير المريض أسفل الإبط وبدأ يعمل بينما كاثي تمسح العرق عن وجهه بمنديل معقم بالسبيرتو.

أقعى رفيقا المريض تحت شجرة قريبة، متأهبان لإحضار ما قد يحتاج إليه، وكأن ثمة ما يمكنهما إحضاره. أما عائلة الرجل فبقيت بعيداً عن الطريق في أحد الأكواخ، إلا ماماسان عديمة الأسنان أخذت تؤدي شعيرة خاصة على بعد أمتار قليلة فحسب، تحت الشمس القاسية، في دخان نار الفحم والبخار المتصاعد من القدر الذي تغلى فيه الأدوات: رقصة قوامها حركات مترددة مشوؤمة وقفزات مفاجئة، وحركات متكررة. سمح الدكتور ماي بالعرض من دون تعليق، وكاثي رحبت به على اعتبار أنه يساعد على رفع الروح المعنوية لدى المريض. الفكرة أنه بين أولئك الرثين، المجانين، الذين تدور عيونهم كالدوامات، الذين يرغون عند الفم، بين العرج، بين المتمتمين، بين الراقصين الضاحكين، فإن القليل من حصانة الحب يمكن أن يرفع معنويات المسكين المبارك، الرؤية المحترقة، المتشرد القديس - لطالما تسلت بهذا، بهذه الرومانسية.

أخرج الطبيب ماي المدية من القدر وسكب نصف ربعية من الكحول المعقمة فوقها وقال: «بانزاي»[1]، ضحكت كاثي ورفعت الجلد إلى الوراء في اتجاه المرفق «في زمن حربكم الأهلية»، قال الدكتور ماي، وقد قام بالقطع الأولي وبدأ بالعمل بصورة دائرية حول الطبقة الأولى من اللحم وصولاً إلى الطبقة المسطحة تحتها «كان البتر عملاً رهيباً القيام به. الآن يمكننا أن نكون متفائلين».

«حربنا الأهلية؟»، قالت، «أتعني الحرب الأهلية الأمريكية؟».

(1) Banzai، تحية يابانية، هنا بمعنى «بصحتك».

«أجل».

«أنا من كندا»، قالت، «أنا كندية».

«فهمت. الحرب بين الاتحاد والكونفدرالية».

«لم يكن الكنديون جزءاً من تلك الحرب».

«فهمت... كندا».

«أنت تعرف أنني من كندا».

«أجل، لكنني فكرت أن كندا هي من الولايات المتحدة».

«نحن إلى الشمال من هناك».

«غالباً إلى الشمال أو الجنوب. قلما تكون الحرب الأهلية شرقية أو غربية».

أرخت قبضتها عن الجلد، وعندما انكمش قام الدكتور ماي، ضاغطاً براحة يده على ظهر المدية وهازاً المقبض صعوداً ونزولاً، قطع في الطبقة السفلية والطبقة الأولى من العضل، ومع انكماش كل طبقة قطع إلى التالية. كلما صادف شرياناً كانت كاثي تقطبه بخيط. بيديها قامت بضغط إلى الأعلى على جذع العضل الأساسي. بعد انكماش العضلات العميقة، أخذ الطبيب منشاره من القدر وبدأ بالعظم بينما أخذت هي تسكب «السالين» على الموضع من إبرة كبيرة.

وضع الطبيب الذراع المبتورة على الأرض بين قدميه وأخذ المنديل ومسح وجهه، بينما واحداً بعد الآخر نزعت كاثي جذول الأعصاب الكبرى إلى الأمام وقطعتها إلى أعلى ما يمكن الوصول إليه. أحد الشرايين ظل ينزف، فقطبته ثانية.

نظفت الأدوات وأعادت توضيبها بينما أمسك الدكتور ماي يد العجوز المجنونة ورقص قليلاً معها. أنجز جذلاً مقعراً جيداً - كان تقنياً ممتازاً ولديه حاسة سادسة طبية أصلية - لكن كاثي تساءلت إذا كانا قد تركا الكثير من الذراع. بلغة فييتنامية ذربة أعطى الطبيب تعليماته لمرافقي المريض لكي يعتنيا بالجذل، ومنع انكماش الجلد عبر استعمال اللاصق السريع وضمادة آيس. لم يكن لديه الأدوات التي تسمح له بأن يغطي بالجبس بقية الذراع، لكن هذا لم يكن مهماً.

نظرة واحدة إلى وجه المريض تؤكد أنه سيعيش. كان لدى كاثي سبع حقنات من المورفين في حقيبتها الطبية، تركتها جميعاً معه لأنه بدا جلياً أنه سيعيش.

صعد الدكتور ماي إلى اللاند روفر وأخذ قربة الماء من المقعد الأمامي واستمتع بشربة ماء طويلة ثم أعطاها لكاثي. لكنها امتنعت.

«لا أرى أنك تشربين ما يكفي من المياه كاثي».

«أشرب الكثير».

«أنت متكيفة تماماً مع المناطق الاستوائية. كم تطلبك الأمر حتى تتكيفي؟».

«عشت في الفلبين سنتين قبل أن آتي إلى هنا».

«أنت هنا منذ خمس سنوات، صح؟».

«تقريباً خمس سنوات».

«أجل. كم ستبقين؟».

«حتى تنتهي الحرب».

في صباح مشمس من نوفمبر قبل أسبوعين فحسب من إرساله إلى السجن، تزوج جايمس ستيفي في المحكمة.

حضرت عائلته مراسم الزواج. في ثوب كنسي منتفخ عند الكتفين، بدت أمه شبيهة بنفسها كواحدة من نساء أوكلاهوما. أما بيل فارتدى بيل معطفاً رياضياً أبيض فوق قميص أبيض، ومع وقوف العائلة كلها أمام القاضي المدني، تعرق وكأنه يحاكم، بينما بيريس الصغير يتكلف الابتسام والضحك كفتاة، وكان يشبه الفتاة أيضاً، مع شعره الذي طال وصولاً إلى كتفيه تقريباً.

اعتقد والدا ستيفي أنها تتزوج من مجرم. في البداية وعدا بالحضور، لكنهما بقيا بعيداً في النهاية.

بعد مغادرة العروسين الجديدين المحكمة رأى العريس على الطريق «دوس»،

ذلك الجزء من الجادة الثانية حيث ينام المتشردون في المزاريب، وبعد «دوس» الحي الذي عاش فيه.

بعد ذلك شووا ستيك لحم العجل في ساوث ماونتن بارك. ثمل بيل جونيور حتى احمرّت عيناه، وبيريس، الذي كان في الرابعة عشرة لكنه لم يبد أكبر من الحادية عشرة، دخن السجائر علانية. وبقيت أمهم بعيدة في زاوية، مستعدة للوعظ، أو لمعاودة سرد مآسي العائلة، لكل من هو مستعد للإصغاء.

لم يغير الزفاف الكثير. ظل جايمس يعيش في شقته وبقيت ستيفي في منزل أهلها بينما يتعامل جايمس مع تهم الاعتداء المتعمد والسطو المسلح. كان قد التمس البراءة وخرج بكفالة، لكنه سرعان ما مثل ثانية أمام القاضي وغير قصته وتلقى الحكم. لم يكن ثمة الكثير من الشك متصل بمصيره. ومع ذلك فقد أصر محاميه المعين من قبل المحكمة على اتخاذ كل خطوات العملية لكي يحصل على أفضل صفقة من المدعي العام. جايمس وباترسون المهووس بالروك أند رول أبليا حسناً في البداية، إلا أن حظهما نفد واعتقلهمتهما الشرطة من دون حادثة خارج حانة بعد زهاء ساعة من سرقتهما الرابعة. باترسون الخارج بإطلاق سراح مشروط، عاد مباشرة إلى سجن فلورنس.

في هذا، في جنايته الأولى، وبفضل سجله الحربي، كان بوسع جايمس أن يتوقع أن يقضي عقوبة لا تتجاوز أكثر من ثلاث سنوات، على الأرجح سنتين. أقسمت ستيفي أنها ستنتظره. كان في وسع جايمس الفرار إلى المكسيك، لكنه كان سئماً، سئماً جداً.

قبل أربعة أيام من السجن، أربعة أيام من طعام السجن، متزوج منذ عشرة أيام، ولم يتذوق بعد وجبة من طبخ زوجته، ذهب جايمس بحثاً عن إفطار في جادة ساوث سنترال. جلس في مطعم بين حفنة من الزبائن المعتوهين، رجل يكشر، وآخر يشتم، وطلب بيضة. مالكة المكان السمينة وهي امرأة صينية على الأغلب

وقفت عند الصندوق تتناول فطورها المكون من دقيق الشوفان من فنجان قهوة. قطعت نصف شريحة خبز بأسنانها وطحنتها، مواصلة الكلام بفم ممتلئ بما لابدّ من أنها ظنته لغة إنجليزية، لكن جايمس لم يتمكن من فهم كلمة واحدة - كانت لها تلك الطريقة الأنفية المنتحبة في الكلام. فجأة وبصورة قوية جداً اخترقت أنفه ولسانه رائحة نا ترانج وطعمها.

انصرف إلى مشاهدة رجل يشغل المقصورة المجاورة لطاولته، وقد جلس جانبياً ماداً رجليه نحو الممر «إنني معدّل كلياً لأبلغ هذه السرعة. أجل»، قال بتهذيب شديد، «إنني فتى صغير بالغ السرعة».

«لست في مزاج لكي أجد هذا مثيراً للاهتمام»، قال جايمس.

«أتعرف أين كنت قبل سبع ساعات وعشرين دقيقة؟ كنت في البيت. أتعرف أين البيت؟ سان دييغو. أتعرف ما كنت أفعله؟ واقفاً أمام مرآة - مرآة بالحجم الكامل، ماشي - عارياً تماماً، مع مسدس 357 بهذه اليد، رافعاً إياه إلى رأسي هكذا تماماً. كنت سأقتل نفسي. هل تصدقني؟».

وضع جايمس الشوكة من يده.

«أجل. مررت بمشكلة صغيرة مع القمار. صغيرة؟ لقد أضعت كل ما أملكه. زوجتي. أطفالي. بيتي. إنني مفلس. حصلت هي على البيت. ومليون سنة من الدفعات فوقه. اللعنة. كنت مستعداً لتفجير دماغي في غرفة نوم أختي. أجل بالتأكيد. اللعنة أجل. لكنني لم أرد أن تعود أختي إلى البيت وتجد فوضى كهذه. لذا فكرت بأنني بحاجة إلى الخروج بطريقة أنهي بها برنامج الرعب هذا تكون سريعة وغير مؤلمة ولن يعرفوا أنني من فعلت ذلك بنفسي. لذا ارتديت ملابسي وقررت أنني سأقوم بذلك على هذا النحو: سوف أركب في تلك السيارة الأجنبية الصغيرة، سيارة فولكسفاغن صغيرة تخص أختي. فركبت السيارة وانطلقت بها بأقصى سرعتي وقلت لنفسي أول شاحنة نصفية ترمش بأضوائها في وجهي فسوف أرتطم مباشرة بها، سأقتل نفسي على طريقة الكاميكازي. وكانت كلتا

يديّ على المقود طوال الطريق يا رجل، لم أنزع يديّ عنه إلا لكي أحكّ رأسي أو أنزع سدادة قنينة بنزدرين وأتجرع جرعتين إضافيتين. وأقول لك ماذا. تلك الرحلة كلها، ثلاثمئة وخمسون ميلاً على الأقل، لم يرمش أحد مرة الضوء الأمامي في وجهي يا سيدي، ولا شخص واحد، لم يحدث مرة أن رمش أحدهم الضوء في وجهي. وهذه معجزة. إنها معجزة أنني جالس هنا حياً. لا أعرف ما الذي تعنيه. لكنني حيّ. هذا كل ما أعرفه. ولا أعرف شيئاً أكثر من ذلك على هذه الأرض، سوى أنني حي».

لم يبد أنه منتش بفعل أي نوع من البنزدرين. بدا هادئاً جداً، وبقي كذلك، ورجله اليمنى مطروحة فوق رجله اليسرى ويداه موضوعتان برقة على فخذيه. كانت عيناه حمراوين، إلا أنهما ومضتا بضوء الحب. طلب توست أبيض مع الزبدة ومزق قطعاً صغيرة منها وراح يتناولها. أخذ عود ثقاب وأشعل سيجارة ثم رمى الثقاب في طبقه.

«قال جايمس: «تطلبك الأمر رحلة انتحار».

«أجل، بكل تأكيد».

«لقد قمت برحلتين من هذا القبيل».

«أجل».

«هاي. أما زال معك ذلك المسدس؟ أتريدني أن أقتلك؟».

بدا الرجل أنيقاً في سترة رياضية فوق كنزة بيج، وبيجاما زرقاء شاحبة، وخفين منزليين مهلهلين. مجّ بتفكّر من سيجارته، وقال: «تركت المسدس في البيت».

اصطحب بيل هيوستن شقيقه جايمس لكي يتكلم إليه في اليوم الذي سبق مثوله الأخير في المحكمة. دعاه إلى مقهى بدلاً من حانة؛ فهم جايمس أن الأمر جاد. «اسمع، لا تعرف البتة. كل ما أعرفه أنك يجب أن تبقى بعيداً عن العقوبة

القصوى، لأن ثمة دوماً من يستعرض نفسه هناك، والعقوبة دوماً السجن. لذا بينما تنتظر تصنيفك، تكلم عن تعليمك باستمرار. أي مستشار، واحد أولئك الجماعة، أي شخص من هذا القبيل يكلمك، فتقول: تعليم، تعليم. تريد أن تنهي الثانوية، تريد أن تتعلم صنعة. تكلم عن أمور من هذا النوع وسوف يعطوك حكماً متوسطاً. المتوسط هو ما تريد أن تحصل عليه. إنه أكثر راحة. الناس هناك ليسوا مجانين جداً. يحق لك الخروج إلى الباحة وقت تشاء. إنه جيد. صدقني. أنت لا تريد الحد الأقصى».

«من الذين هناك؟».

«اين؟ في المتوسط؟».

«في فلورنس، في أي مكان، سواء الحد المتوسط أم الأقصى».

«حسناً، الكثير من الشباب».

«هل العجوز هناك؟ والدك؟».

«إنه ليس والدي. إنه والدك».

«أياً يكن. أهو هناك؟».

«أجل، إنه يقضي العقوبة القصوى. لا، أظن أنه خرج».

«أأنت واثق من هذا؟».

«أجل، أظنه خرج. لقد توقفت عن زيارته على أية حال».

«ما عادت تزوره؟».

«ليس منذ خرجت. بقدر ما أعلم. لذا يجب أن يكون زوجها في مكان ما».

«أين؟».

«لا أعرف، في مكان آخر».

ترك بيل أخاه الأصغر بمصافحة يد أخيرة، ليس أكيداً من أنه نجح في إيصال فكرته، واتجه إلى وسط البلد لكي يبحث عن عمل في مكتب العمل المياوم، أو

ليتسكع في الحديقة. جاء الخريف الصحراوي، وقت تقليم الأشجار. شاهد رجالاً يقلمون بالمقصات أشجار الزيتون في الجادات، وشعر أن كل هذا يحدث في داخله.

تمنى الحصول على دراجة نارية. تساءل إذا كان من الصعب سرقة واحدة. مشى في الأرجاء باحثاً عن واحدة خارج الحانات، ثم دخل الحانات من أجل «ساعة الخصم» والصفقات على النبيذ الأحمر الحلو. كخيار لم يكن أحد يرغب بهذا النبيذ، إلا أن الناس كانوا مجبرين على أخذ هذه الأمور في الحسبان، مثله، وحسبوا أنه يؤمن أرفع درجة كحولية لقاء الفلس. «كثيف وحلو بطريقة مغثية»، قالت امرأة متوسطة العمر، رافعة نخبه بحزن، «ليس أنت!»، قالت، «أعني النبيذ. إنه حلو. أنت تبدو حامضاً. أنا حامضة أيضاً». كانت مشكلتها، كما أخبرته، أن صهرها توفي في فييتنام. قال هيوستن إن له أخاً عاد للتو من هناك «لا حقاً؟ تعال إلى هنا»، قالت «يجب أن أعرفك إلى أحدهم»، وساقته من يده إلى مقصورة في الحانة لكي يلتقي ابنتها، التي ترملت بسبب الحرب بعد سنة طويلة من الانفصال عن الفتى الذي تزوجته قبل أسبوع من مغادرته. قتل قرب نهاية دورته. نظر هيوستن إلى صور الزفاف. ليست فكرته عن الحفلة. اشترت السيدتان دورة شراب. الأرملة الشابة احتست الكثير من الجعة، لكن بدلاً من أن تنهار باكية، روت كيف أنها بكت في جنازة زوجها الشاب، وكانت مسرورة لأنها بكت، كانت تخشى ألا تتمكن من البكاء. أمضت الأيام العشرة الأخيرة منذ وصول الخبر في حالة من الارتياح. الآن لن تكون مضطرة إلى الترحيب به في البيت والتعرّف إليه ثانية. في غياب زوجها، تغيرت كثيراً. لم تكن تعرف ماذا تفعل حيال ذلك. في الجنازة قدموا لها علماً مطوياً على شكل مثلث. «أجل، حصلت على علم».

«بلا هراء. علم؟ أوه تعنين علماً أمريكياً. المجد القديم». كانت رجل هيوستن مضغوطة على فخذها.

«حسناً، لا يسمونه المجد القديم، أليس كذلك؟ إنه شيء آخر».

«إنه شيء آخر على ما أظن، أجل».

«النجوم والقضبان أو ما شابه».

«أخي كان هناك. جندي مشاة. فاز بالقلب القرمزي».

«حقاً؟ القلب القرمزي؟».

«بالتأكيد».

«ما حلّ به؟».

«داس على لغم في نفق. أو أنه ركض فوقه أو ما شابه».

«يا إلهي».

«كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ. أولئك الفييتكونغ الصغار يصنعون ألغاماً لئيمة. لغمه كان صغيراً لكنها إصابة. وتستحق القلب القرمزي».

«أكان فأر أنفاق إذن؟».

«لا أعرف ما كان. انتهى أمره مع رجال اللورب، كنت معتاداً على تثبيته أرضاً وأن أبصق على وجهه..».

«ياء»، قالت المرأتان معاً.

«هكذا نتولى نحن البحارة أمر اللورب».

«مقرف».

«أجل، أليس هذا سخيفاً؟».

«زوجي طلقني»، قالت الأم، «والشعور نفسه كما لو أنه مات. إلا أنك لا تحصل على علم، وما زلت أفكر في قتله كل يوم».

«أهذا والدك الذي تتكلم عنه؟»، سأل هيوستن الفتاة.

«بحسب الأطباء»، قالت الفتاة.

ما إن نهضت أمها لكي تذهب إلى الحمام، حتى قال لها هيوستن: «أتريدين الذهاب إلى موتيل رخيص ومشاهدة التلفزيون أو ما شابه».

«إذا كان معك المال حبيبي، أنا معي الوقت».

«انظري هنا. أترين ما هذا؟».

«إنه نصف دولار من حقبة كنيدي».

«أصبت، مدّخرات حياتي. أنا مستعد لحشره في مؤخرتي لقاء نصف دولار آخر. سوف أكسر زجاجة على رأسي».

«لدي المال حبيبي، سأحصل على تعويض الحرب».

مالت الفتاة عليه وأخذت تتحسس برقة شعر صدره. ليالي الصحراء تنخفض فيها الحرارة إلى تحت الخمسين فهرنهايت، لكن بيل هيوستن كان عاري الصدر تحت سترة جلدية سوداء. اسمه في الشارع كان بيل الجلدي. بقية ملابسه كانت بنطال جينز وجزمة تهلهلت من كدح الحياة.

«يحسن أن نهب إلى الخروج قبل أن تعود أمي»، قالت الفتاة.

عندما فتح عينيه في الصباح فهم أنها وجدت المخرج من الموتيل في وقت أبكر. رجل في مهمة كان ليخرج أولاً، وكان لينبش حقيبتها. بدلاً من ذلك غرق في أحلام لم يستطع تذكرها.

عاش قرابة خمسة وعشرين عاماً، أوقاته الصعبة تلونت في عقله كمغامرات الشباب، سيتبعها ذات يوم مرحلة من التحسين الذاتي المكثفة، ثم الإنجاز والراحة. لكن هذا الصباح بالتحديد شعر أنه رجل حمل أبعد من أي ميناء، وبقي طافياً فقط على سبيل الطفو، منتظراً أن تخور قواه.

متى سيمضي إلى الشاطئ؟ متى سيتلقى هبة اليأس؟ بقي تحت الملاءات في الغرفة الباردة التي تعبق برائحة «الليزول» المطهر، حتى قرعت الإدارة على الباب. طلب مهلة عشر دقائق، استحم وعاد إلى السرير لقرع الباب الذي يعني المشاكل.

كان لجايمس رفيق في السكن، جندي آخر، درّاج يدعى فريد، ودراجته الهارلي احتلت معظم غرفة المعيشة. لاحظ جايمس ذات يوم أن صديقه لم يأت منذ مدة، ربما منذ شهر أو حتى شهرين، وكنوع من استحضاره للعودة، إذا كان ما زال حياً قام جايمس بتدنيس هارلي المقدسة وشغل المحرك. ثلاث دوسات واشتغلت بصورة متفجرة وقبعت تحته تهرّ وترتج. ضغط على دواسة التعشيق فقفزت مباشرة إلى الجدار ووجد نفسه مستلقياً تحتها على أرض غرفة المعيشة. بالكاد تمكن من إيقاف الدراجة بمفرده - الكثير من الشرب والكثير من التراخي؛ كان في فوضى. لا عجب أنه خسر هذا القدر الكبير من الشجارات. إلا أنه كان يستمتع بالخسارة، يستمتع بنوع من السبات المستحق بينما يتكور على نفسه وأحدهم يركله على رأسه وظهره ورجليه، يستمتع بالاستلقاء ووجهه على الأرض غارقاً في دمائه بينما الأصوات تصرخ: «توقف! هذا يكفي! إنك تقتله! إنك تقتله!»، لأنهم كانوا مخطئين. لم يقترب أحد إلى الحد الأدنى من قتله.

1983

جاء هاو بمجلة «نيو سترايتس تايمز» إلى طاولة المطبخ وأطفأ المروحة الكهربائية الصغيرة لكي يقرأ. لم يكن ينزعج من جلبة المروحة كما فهمت كيم، بل من بعثرتها للصفحات. كل مساء يجلس هناك مع نسخة الكتور بورجوا الصباحية من الصحيفة، قارئاً الأخبار بالإنجليزية بثيابه التحتية، وفي أيام الخميس أو الجمعة، أيضاً مجلة الدكتور «آسيا ويك». ما كانت جدوى قراءة الصحيفة كل صباح في بلد ليس وطنك؟ حتى لو كنت تعيش هناك؟ لم يكن يهمها لو أخبرها ببعض الأحداث المتنوعة، لكنها منعته من ذكر الأخبار المتعلقة بأي احتفالات ماليزية شائنة. لم تكن كيم مرتاحة للتأثيرات الإسلامية حولهم، ضوضاء الجوامع والاحتفالات العامة التي يجري خلالها تطهير أمراء في الثالثة عشرة من عمرهم. إلا أن البلد يناسبها. استعادت حيويتها، وكأنها عادت مراهقة. عالجها الدكتور بورجوا بعقاقير مجانية من مشفاه، وكوالا لامبور كانت مليئة بمحضري الأعشاب الصينيين الذين أبقوها بصحة جيدة. مناعات متعددة ضدّ كل شيء. لم تكن تريدها. إن لم يقتلك المرض تموت بالحظ التعيس.

توقف زوجها عن القراءة ورفع وجهه نحوها. مد يده إلى فنجان الشاي الفارغ ونظر إليه، كأنما حاجة مفاجئة لفحص الفنجان أوقفته عن القراءة.

قالت كيم: «ما الخطب؟».

«لا شيء».

«بل هناك خطب ما. لا تقل لا شيء».

«أحدهم من سايغون».

وقفت خلفه. غطى جزءاً من الصفحة بيده، ومدت يدها فوق كتفه وأزاحتها

«الكندي؟».

«الأمريكي».

«لا، الخبر يقول، كندي، يمكنني قراءة كندي، واسمه بينيت».
«إنه ليس كندياً وهذا ليس اسمه. لكنني أتذكره. أعرفه».
«أين؟ هنا في كوالا لامبور؟».
«في الديار».
«إذن لا تفكر في الموضوع.

لا تفكر في الموضوع؟ لكنني أفعل. أفكر بالحظ... الأسف... الامتنان... كلها ممتزجة في كأس سم واحدة. ونحن نشربه.

الحظ وتضحيات الآخرين جاءت بهما للعيش هنا في أحياء الخدم وراء بيت طبيب من مرسيليا. كيم تقوم بالغسيل وأحياناً تنظّف الغبار في بيت الطبيب، مثلما فعلت طوال حياتها، وإن كان الطبيب له خدم آخرون لهذا العرض؛ وهاو يقود السيارة. يأخذ الفتيات من وإلى المدرسة ودروس البيانو والرقص. الفتيات اليافعات كن يدرسن في المدرسة الأمريكية زيتكلمن الإنجليزية بطلاقة. مع الوالدين تواصل هاو بالفرنسية. الدكتور بورجوا يمشي بضعة أحياء كل يوم من المستشفى الذي يديره. وكان هاو يوصل الزوجة إلى التسوق، إلى نادي البريدج، وإلى المكتبات. كل هذا بفضل الحظ، وتضحيات الآخرين. لكن بعض أولئك الآخرين لم يختاروا بأنفسهم التضحية. هو اختارها نيابة عنهم. وهنا يأتي الأسف. الحيلة التي لعبها على ترانج ثان - أحطّ ما قام به بحياته كلها. إلا أنها ليست صعبة على الإطلاق. الأمريكيون جعلوها سهلة. جريمته الأفظع، وإلى أين قادت؟ الأمريكيون زجوا بترانج في معسكر للاعتقال وخرج بطلاً للقضية، وحصل على بيت في سايغون وعضوية في الحزب. وصار يقصده المؤرخون طلباً للمقابلات. جيد لترانج. لقد روض الريح. وسايغون صارت مدينة هوشي منه.

بعض أولئك الآخرين اختاروا التضحية طوعاً، على أية حال، بقوة قلوبهم؛

وهنا يأتي الامتنان. للكولونيل. لجندي المشاة الذي رمى خوذته فوق القنبلة ثم رمى نفسه فوق الخوذة. وللأمريكيين الآخرين الذين ساعدوهم على الفرار. لقد تذكر الأمريكيون. وفوا بوعودهم له، وحتى لبلده. لم يخفقوا في الحفاظ على وعد كهذا. ببساطة خسروا الحرب.

وغداً، أو في اليوم التالي، خطط أن يخبر كيم أنه وصل خبر من ابن أختها مينه – عبر عائلة فيتنامية تدير مطعماً في سينغافورة، مهاجرة منذ زمن بعيد، أنشأت شبكة عالمية تربط العائلات المتناثرة ببعضها بعض. مينه نجا – من يعرف أيّ متاعب واجه؟ وهو يعيش على مقربة من بوسطن، ماستشوستس. وقد عثر على أقرباء في تكساس يعملون في مجال الصيد في خليج المكسيك، وربما يستطيع إقناعهم بمساعدة ابن عمهم هاو وزوجته للوصول إلى أمريكا. وها هو ثانية، الحظ. لقد اختار الطرف الصحيح. حياة محظوظة!

كانت زوجته قد أشعلت الغاز، وبدأ الإبريق يغلي فوق الموقد. لم يلاحظ. حسبها ما زالت خلفه، تتأمل الوجه في الصحيفة.

أحضرت له إبريق الشاي: «ماذا يقول الخبر؟».

«إنه يواجه الكثير من المتاعب».

«أثمة ما يمكنك فعله؟».

«لا، لقد عرفته يوماً، هذا كل ما في الأمر».

83 /8 /1

عزيزي إدواردو أجوينالدو

ربما تكون وصلتك رسالة سابقة مني. لكن على افتراض أنها لم تصلك:

اسمي وليام بينيت. يسمونني (سكيب). أنت في حقيقة الأمر أسميتني (سكيب). أتتذكرني؟ فلنقل فحسب إنني لست الإنسان الذي كنته حينذاك،

ونترك الأمر هنا. لكن أتتذكرني؟

أعيش كثيراً في سيو سيتي[1]. بالأحرى عشت. لم أذهب إلى هناك منذ عامين، تقريباً. هناك يعرفونني باسم وليام بينيت، الرجل الكندي.

لدي عائلة في سيبو سيتي، امرأة زوجة وثلاثة أولاد. ليس زواجاً شريعاً. هلا قمت بزيارة؟ اسم زوجتي كورا أن جي. ابن عمها يمتلك أن جي فاين ستور قرب الميناء. يستطيع ابن العم أن يجدها لك. في المرة الأخيرة التي فيها فيها كان لدي بنايتان في الحي. تستطيع كورا أن تخبرك أيهما. هي تفهم بأمور المال أكثر من العقارات، فلربما تكون طيباً كفاية لكي تتولى عملية البيع من أجلها وتحرص على حصولها على المال.

أعرف أنه مضى زمن طويل إدي. أعرف أنني أتطفل، لكنني لا أعرف شخصاً آخر أطلب ذلك منه. جميع الذين أعرفهم محتالين، مثلي تماماً.

إذا كانت هذه واحدة من رسالتين وصلتاك فاعذرني رجاء للمراسلة مرتين، لكنني غير واثق أيهما ستصلك. لا مشكلة عندي في كتابة رسالة إضافية، فأنا أمضي وقتي هنا أكتب الرسائل التي لا أعرف كيف أوجهها. الظروف محتملة، أغتسل من دلو مشترك، أتناول الأرز مع قطع السمك، لا أشياء فاخرة، طعم المياه مقبول. ليس معسكر سجن ياباني في بورما بالضبط. أتتذكر الكولونيل؟ مقارنة بقصصه عن «الكيلو 40»، هذا المكان هو بمثابة عصرية في نادي البولو.

إذا حدث وصادفت أياً من زمرتنا من ذلك الوقت، أريدك أن تخبرهم أن الكولونيل لم يمت قط. جسده مات، لكنه يستمر في الحياة من خلالي. أما بالنسبة إلى أولئك الصحب الذين يزعمون أنه لم يمت جسدياً قط وأنه يجري في أنحاء جنوب شرق آسيا واضعاً خنجراً بين أسنانه وملوحاً بقطلس[2] دموي أو ما شابه، فهم مخطئون. إنه متوف قطعاً. يجب أن تصدقني فحسب بهذا الخصوص.

(1) ثاني وأقدم مدينة في الفلبين.

(2) سيف قصير ثقيل.

هذه التهم ضدي سوف تبقى ملتصقة بي. سواء أشنقوني بسببها أم أبقوني في السجن، فلن يطلق سراحي في جنوب شرق آسيا ثانية لفترة من الزمن. لذا اعتن بعائلتي رجاء أيها الصديق القديم؟

صديقك القديم

سكيب

(وليام فرانش بينيت)

يا لها من مصادفة! أن يأتي على ذكر نادي البولو! فقد كانت الرسالة واحدة من مجموعة من الرسائل أخذها معه إدي إلى النادي لكي يطلع عليها أثناء الغداء – رسالة جوية مكتوبة بخط يد صغير جداً وعليها طابع كوالا لامبور، ماليزيا. تهم؟ شنق؟ علام؟ لم يسمع إدي شيئاً عن ذلك. كان له صديق في مانيلا تايمز يمكنه أن يستفسر ربما عن هذا كله. والكولونيل، حي؟ لم يصله أيّ تقرير عكس ذلك، ولا كلمة عن موت الكولونيل. لم يكن على اتصال بأي من «الزمرة» من ذلك الزمن، لكنه كان ليعرف قطعاً لو كان الكولونيل قد توفي.

كم مرة فكر في سكيب ساندز. وكم لم يفعل شيئاً بهذا الخصوص. لم يقم بأي محاولة لاقتفاء أثره. ربط سكيب بجريمة القس على نهر بولانجي في 1965، وهو بلا قياس أسوأ ما ارتكبه في حياته، والظروف، والحرب، والواجب، والنوايا الحسنة، لم تشكل أيّ فارق.

ترك إدي طاولته تحت السقيفة قرب بركة السباحة واجتاز المطعم إلى قاعة البولينغ. الموظف هناك يعرف مقاس قدميه من دون أن يسأله. صبيان يلعبان في خط الوسط، ولا يبليان حسناً مع هذه الأجسام الخشبية التي بنصف حجم الأجسام في لعبة البولينج الاعتيادية[1]، والكرة التي بلا ثقوب تحمل بها، والتي

(1) يذكر المؤلف أنهما يلعبان ما يعرف باسم duckpins التي هي بنصف حجم tenpins (كما تسمى أيضاً لعبة البولينج الشعبية المعروفة)، والأجسام الخشبية أو البلاستيكية التي يتمّ التصويب =

يصعب تسديدها وتحدث القليل من التأثير على الأهداف. بعد كل جولة ينزل ولد من العتمة ويعيد ترتيب الأجسام الساقطة. كمراهق كان إدي يرمي الكرة بقوة تطير هذه الأجسام أملاً بأن بصيب أحد أولئك الأولاد على رأسه مرة، إلا أنهم كانوا يعرفون اللعبة، فظلوا بمنجاة من الإصابات.

حقق إدى نتيجة تسعين درجة منخفضة، وهي ليست بالنتيجة غير المحترمة في هذا النوع من البولينج، وشرب السفن أب والغرينادين مثلما كان يفعل فتياً. قبل ستة أسابيع، بعد ليلة رأس سنة فاسقة، أقسم بأن يتوقف عن الكحول.

صعد الدرج وعبر ردهة الاستقبال إلى «الإنتركوم» حيث اتصل بإرنستو في مقصورة السائقين ووقف ينتظره أمام الفندق. ملاعب ومدخل نادي البولو لم تتغير منذ عقود، ووراء الملاعب، في منطقة «حديقة فوربس»[1]، كل شيء كان لا يزال جيداً، أما بعد الحديقة فالفوضى تنتشر. عزلة المروج الرائعة والبيوت الفاخرة في القرية، كانت قد بدأت تتأثر بالمدينة المختنقة. كانت لديه خطط للانتقال. فهو ثري ويمكنه الذهاب إلى حيث يشاء، لكنه لم يكن يعرف فحسب إلى أين ينتقل.

لم تكن إيموجين في البيت. لابدّ من أن الأطفال خرجوا من المدارس الآن، لكنهم يزورون أحد اصدقائهم أو يجرون وراء المتاعب.

في مكتبه في الطابق العلوي، جلس على كرسيه قبالة النافذة، ممسكاً كوب قهوة بيديه. لم يكن يحب القهوة إلا أنه يشربها فحسب.

«وصلت رسالة».

«ماذا؟».

= عليها في الداكبينز هي بنصف حجم الأجسام في التنبينز، وتسمى كذلك لأنها شبيهة «بسرب من البط» كما أسماها مخترعها الأمريكي في بدايات القرن العشرين، وهذه اللعبة ما زالت تمارس في بعض الولايات في الساحل الشرقي من أمريكا، وفي بعض أنحاء كندا.

(1) Forbes Park: قرية سكنية خاصة في ماكاي سيتي بالفلبين، تعرف بأنها تضم نادي البولو وملعب الجولف، وتسكنها بعض أثرى العائلات الفلبينية أو المنفية من بلادها، وقد أنشأها في الأربعينيات من القرن الماضي وليام كاميرون فوربس الحاكم الأمريكي العام في الفلبين.

كارلوس الخادم. إيموجين التي كانت حسناء ذات يوم تفضل أن تسميه «المستخدم».

وضع كارلوس المغلف على المكتب، «إنها من السيد كينجستون. أحضرها سائقه بالسيارة».

كينجستون، أمريكي يعيش في الجوار. الرسالة، كما رأى، مرسلة من سجن «بودو» وموجهة إليه بواسطة القنصلية الكندية في مانيلا. وقد ربط معها كينجستون ملحوظة «هذه أعطيت لي من قبل جون ليز السفير الكندي، أعتقد أنها لك... هانك». افترض إدي أن الصلة نبعت من أن كينجستون لديه الكثير من الأعمال مع شركة «إمبريال للنفط» الكندية، وساندز كان متنكراً ككندي.

82/8/12

عزيزي إدواردو أجوينالدو:

سيد أجوينالدو، اسمي وليام بينيت. أنا حالياً في سجن كوالا لامبور، أنتظر صدور الحكم على تهم بتهريب السلاح. يقول لي محاميّ إنه عليّ أن أتوقع الإعدام.

سيد أجوينالدو، إنني على وشك الموت وأنا سعيد. أتخيلك وراء النافذة الكبيرة في بناية عالية فوق الضباب والدخان، ناظراً إلى مانيلا في الأسفل تطفو مثل حلم في الأدخنة، رجل بدين دون ريب، رجل لا أعرفه، وربما لا يتذكرني.

إلا أنني أكتب لك لأنك الوحيد الذي يمكنه يمكنه إيصال رسالة مني إلى إدي أجوينالدو الذي عرفته قبل 18 سنة، الرائد الشاب الذي حارب «الهوك» وواعد مهجنات شابات ثريات ولعب دور هنري هيجينز في «سيدتي الجميلة» - أتذكر؟ وكان الأفضل في ذلك. ليس لدي ما أقوله لأي شخص آخر. لا شيء أبلغه لمواطني هذه الحقبة، لورثة حلفائنا. لذا أكتب لإدي أدوينالدو، طيب القلب إدي أجوينالدو الذي تجشّم الوقت والمخاطرة لكي ينذرني من الخطر الذي كنت

قد وقعت فيه في كاو كوين في فيتنام، الذي انغمس فيه أمثالي من فتيان المخدرات في حين غطينا أفواهنا بتهذيب بالمناديل وتذمرنا من رائحة قاتل البعوض (دي دي تي) والمبيدات بينما أرواحنا تتبدد في شيء أخطر بكثير من السموم.

أرجو أن يفاجئك أن تعلم انني عشت في سيبو سيتي من 1973 حتى 1981. ومنذ ذلك الوقت لم أقم طويلاً في أي مكان، حتى قبل بضعة أشهر، عندما اعتقلت في بيلوم فالي، على الجانب الماليزي من الحدود التايلاندية. الجانب الخطأ، صدقني، لكي تعتقل فيه.

أنا حالياً في سجن بودو في كوالا لامبور. إذا أخذتك أسفارك خلال الأشهر القليلة المقبلة في هذا الاتجاه، عرج عليّ وقل مرحباً. سيكون رائعاً أن أرى وجهاً آلفه. تستطيع أن تفهم أنني وصلت إلى أن أنهي حياتي مسربلاً بالخزي. كان هذا مخزياً. أو يجدر به أن يكون كذلك. لكنني لا أشعر بالخزي بصورة خاصة.

بكل إخلاص

سكيب

وليام فرانش بينيت.

عاود قراءة الرسالة الأولى:

اسمي وليام بينيت. يسمونني (سكيب). أنت في حقيقة الأمر أسميتني (سكيب). أتتذكرني؟ فلنقل فحسب إنني لست الإنسان الذي كنته حينذاك، ونترك الأمر هنا. لكن أتتذكرني؟

تلك الرسالة كانت موجهة إلى إدواردو أجوينالدو، فوربس بارك، ماكاتي، ريزال، جزر الفلبين. لا رقم منزل، ولا عنوان شارع، إلا أنها وجدته. ولك يكن اسمه إدواردو. كان إدوارد. كنوع من السخرية بين الأصحاب ناداه سكيب إدواردو. سكيب سخر من نفسه أيضاً. ربما تحت التأثير اللاتيني، في تلك الجزر المسماة على اسم ملك إسباني، لقد ربى شارباً سخيفاً، وأسماه إدي زورو.

بالتأكيد يتذكر الأمريكي الشاب قصير الشعر طويل الشارب.

وقف إلى نافذة المكتب ناظراً إلى بركة السباحة في الخارج، وإلى حجرة الاستحمام، وشجرة الأكاسيا التي تتساقط منها الأزاهير على المرجة، وتساءل ما إذا كان قد عاش أسعد أيامه في مراهقته، هنا في مانيلا في أثناء عطلة من معهد «باجويو» العسكري، جارياً بوحشية وبغير حدود في المدينة؛ أو في منتصف عشرينياته، عندما قام بتلك الدوريات في الأدغال مع سكيبساندز، عميل المخابرات الأمريكية.

نافذته تواجه أبنية عالية ولكنها ليست شاهقة متجهمة تغطيها الأدخنة، مثلما قال سكيب إنه يتخيلها. في السابق كانت الأمكنة التي تطل على مناظر أفضل تشرف على الحقول ذات الأعشاب الطويلة، والطرق المتسخة، والمساحات المفتوحة، مع القليل من الأبنية العالية. مسرح ريزال كان مرئياً عن بعد ميلين. طوال حياته عاش في فوربس بارك. على طرف حقل محترق ذات مرة وجد كلبة ميتة مع جراء حديثة الولادة على أثدائها، وأخذ الحيوانات الصغيرة إلى البيت وحاول أن يطعمها عبر قطارة للعين. هذا ما كانه يوماً.

مؤخراً كان منجذباً لفكرة مسرحية هجائية لـ «سيدتي الجميلة» - تكون من فصل واحد بعنوان «ليلة زفاف ليزا دوليتل وهنري هيجينز»، مع أشعار ساخرة تتناسب مع الألحان المألوفة لـ «الشارع الذي تعيش فيه»، «وقد صرت معتاداً على وجهها» من العمل الأصلي.

كانت المشكلة أنه في هذه البيئة الثقافية مثل هذا العرض سيكون، على غرار ليزا دوليتل (على نحو ما تخيلها في هذا العرض)، غير قابل للفهم. وللأسباب عينها: الامتثال، الاحتشام المتكلف، الجبن الأنثوي. شعر أنه غير مناسب لمناخ أزمنته. يمكنه فحسب أن يقف في الخارج ويضحك على طبقته الخاصة، المقلدين لأنماط السلوك البريطانية والأمريكية - زوجته، والدها السيناتور الصالح، كل أولئك الناس - حثالة أرستقراطية تطفو على مستنقع.

وكل شخص آخر، كل مواطنيه الفلبينيين: الكثير من المجانين المؤمنين بالخرافات، الساعين وراء المعجزات، عبدة الأصنام، نازفي الصلبان، الجالدين أنفسهم المهووسين الذين يركضون يوم الجمعة الحزينة من إقليم إلى آخر، بجروح نازفة أحدثوها لأنفسهم، بينما يخرج الآخرون لكي يضربوهم بالعصي أو يسكنون آلامهم بمياه يرشقونها من صفائح الحساء القديمة، ورجل في إقليم كوتاباتو يصلب نفسه سنوياً أمام جيرانه المنتحبين في كنيسة.

سكيب ساندز إلى حبل المشنقة. أنا أيضاً.

ولم لا؟

يفكر، أنا رجل لطيف طيب، وشقيّ.

مقترباً من درج المحكمة العليا القديمة في كوالا لامبور، في يوم إصدار الحكم، نظر جيمي ستورم إلى الطبقة الثانية ورأى مجموعة من النسوة المرتديات فساتين زاهية - ربما كنّ سكرتيرات- يتناولن الغداء على شرفة، واضعين زبديات الأرز في أحضان فساتينهن الزاهية. وهنّ يتناولن الطعام حملن الزبديات على مقربة من وجوههن، وهنّ يتسامرن متضاحكات، وكأنهن يغنين لبعضهن بعض.

توقف على الدرجة العليا. لم يعلم إلى أين يذهب. استشار أجندة اليوم المطبوعة المعلقة في داخل واجهة زجاجية وهو يرمي سيجارته ويدوسها بقدمه، ثم اجتاز الأبواب الخشبية الضخمة في المحكمة القديمة - مغربية العمارة، استوائية كولونيالية في مساحاتها الداخلية الفسيحة، تتردد فيها الأصداء والظلال، تقزم مخاوف أولئك الداخلين إليها وتبرّدها

اتخذ مقعداً في المقعد الأخير من القاعة السابعة، حيث سيلفظ الحكم عند الواحد ظهراً على تاجر أسلحة صيني يدعى لاو سوف، يليه عند الثانية السجين الذي يسمي نفسه وليام فرانش بينيت.

طفاية نيران صفراء. اثنا عشر لمبة فلورسنت على السقف. لافتة بالماليزية أو أي لغة يتكلمونها كتب عليها دي لارانج ميروكوك التي اعتبر أنها تعني «يمنع التدخين». اثنا عشر مروحة كهربائية علقت على الجدران، في حال تعطل التكييف المركزي. شكّ ستورم في ذلك. كل شيء يعمل بصورة ممتازة في كوالا لامبور. بدا الناس كفوءين وودودين.

في الصف الأمامي يجلس محام في بزة رمادية إلى طاولة المدّعى عليه مطلعاً على الأدلة التي تدين موكله، مدوراً الأسطوانة المثقّبة لما بدا أنه مسدس «سميث أند ويسون ديتاكتيف سباشل»، مرجعاً الديك إلى الخلف، ومصوباً، للحظة تأملية فارغة على المقعد الطويل الذي، وفقاً للأجندة الموضوعة أمامه، سيترأس الجلسة السيد القاضي الشيخ داود هادي بونوسامي.

ما عدا ستورم، كان المحامي هو الوحيد في القاعة. صوب المسدس إلى مكتب سكرتير المحكمة الفارغ، خاصة على اللافتة التي تقول ممنوع التدخين. ضغط الزناد فطنّ المسمار.

انتهى الغداء. سمع ستورم خطو أقدام تتردد في المبنى. نهض وذهب إلى نافذة تطل على الطريق المفضية إلى المحكمة، حيث شاحنة زرقاء مقفلة تصل الآن من سجن بودو. الأحرف على جنبها تقول «شرطة راجا دي ماليزيا». بين الستة صينيين والماليزيين تمكن بسهولة من تمييز الكندي الزائف بينيت، وجهه يبدو أبيض صغيراً في نافذة الشاحنة الخلفية.

عاود ستورم الجلوس. بضعة أشخاص انتشروا بين المقاعد الآن، زهاء ستة مراسلين صحافيين واثنين من النظّارة. دخل أمين سرّ المحكمة، وحارس أمن واحد، تبعهما محامي الادّعاء أحمد إسماعيل. بدا ناعماً لطيفاً بعينيه الواسعتين المبللتين الشبيهتين بعيني طفل، وهو يرتب أوراقه أمامه في ظل مقعد القاضي. ستائر قرمزية مخملية جداً تغطي الجدار الخلفي مانحة القاعة جو المسرح القديم، ولبرهة بدا إسماعيل كتلميذ مدرسة، يلبس بطريقة عبثية بزة سوداء من ثلاث

قطع، وقد جاء ليشاهد فيلماً.

درج يؤدي من الطابق الأرضي مباشرة إلى تخشيبة المساجين في وسط قاعة المحكمة، بحيث ظهر المتهم لاو، وهو فتى صيني ينظر حوله بصورة واسعة، فجأة في خضمّ ارتباكه.

وقف الجميع عند دخول السيد القاضي بونوسامي، الذي جلس وراء صوجان شعائري ضخم موضوع على مكتبه. اتكأس السجين على درابزين تخشيبته، وكلتا يديه مغلولتين.

جلس الجميع.

أعمال المحكمة تجري باللغة الإنجليزية. شرح محامي المتهم أن موكله لا يتكلم الإنجليزية وسيلجأ إلى مترجم. وجهت إلى الفتى تهمة تهريب الأسلحة وحيازة كمية كبيرة من الذخيرة. راجع القاضي ما جريات القضية حتى الآن. بدا الرجل الصغير الذي يترجم للمتهم بدا، جالساً على كرسي خشبي بجوار المحامي هازاً ركبتيه بقوة. عندما خاطبه القاضي قفز، وتبعه المتهم في النهوض، وإن لم يطلب إليه ذلك.

عند سماع أم الفتى الصيني باعتقاله، انتحرت باتبلاع مبيد للحشرات. «لا يعلمم بعد»، قال محاميه للقاضي بالإنجليزية. وقف الفتى الصيني هناك غافلاً. أخفق مترجمه في الترجمة «سوف يعرف قريباً، وسيكون هذا على الأرجح عقابه الأكبر».

لم ينظر القاضي بونوسامي مرة إلى السجين. حكم عليه بست سنوات وست ضربات بعصا الخيزران، وثلاث سنوات أخرى بسبب حيازة الذخيرة.

خلال الاستراحة، في انتظار جلب السجين بينيت، ذهب ستورم إلى الأمام واقترب من المحامي إسماعيل. «سامي ستورم».

«سيد ستورم، أجل».

«موكلك بينيت».

«أجل».

«هل سيؤتى به؟».

«أجل، في غضون خمس دقائق».

«أيمكنك إيصال رسالة له مني؟ رسالة من ستورم؟».

«أظن ذلك، أجل».

«قل لبينيت أنني قادر تماماً على فعل كل ما يخشاه».

«بحق الرب يا رجل!».

«أسمعت ما قلته؟».

«أجل سيد بينيت. تقول إنك قادر على فعل كل ما يخشاه».

«قل له إنني سأزوره في السجن غداً. قل له إنني السيد ستورم».

«أهذه استعارة؟».

«قل له ذلك».

عندما عاد ستورم إلى مقعده في الخلف، كان لا يزال المحامي ينظر إليه.

أشاح المحامي نظره عن بينين عندما ظهر موكله بينيت في بيت الدرج ويداه مغلولتان أمامه. كان في الحقيقة، وكما اعتقد ستورم، وليامساندز.

مثل السجين السابق، استند ساندز إلى الدرابزين إلى درابزين التخشيبة ودخل القاضي ونهض الجميع.

ما زال ساندز قصير الشعر، والشارب، ما عاد سخيفاً أو متكلفاً، بل طويلاً ومهملاً وضخماً، مؤكداً على بؤسه. كانت وجنتاه بحاجة إلى الحلاقة. وقد ارتدى سترة زرقاء مهلهلة إزاء برد التكييف المركزي وبدا أنه يشعر أنه في حالة ما بين المتجهم والغائب عن الوعي. كان نحيلاً فارغ العينين وبدا حتى أنه ربما له روح.

ما إن جلسوا جميعاً ثانية حتى عاد السجين إلى حملقته الفارغة بالأرض. رأسه معلق، بلا أي حراك، منهاراً. يحدق في وجهه المنعكس في كوب من الكارما المريرة.

طوال ثلاثة أرباع الساعة قرأ القاضي من رزمة من الوثائق مستعرضاً كافة جوانب القضية، متفكراً بصوت عال مع نفسه، مما بدا عليه المشهد. الصيني الذي حكم تواً كان يهرب الأسلحة لصالح وليام فرانش بينيت؛ وكذلك آخرون كثر. راجع القاضي لائحة التهم التي أدين بينيت بها. أشار إلى السجين بوصفه «مهرب أسلحة كبير؛ كارثة على حيواتنا؛ متاجر بدمنا نفسه».

أدرك ستورم أن المقعد الخلفي كان المكان الخطأ. لم يمنعه شيء من النهوض والمرور بين المقاعد والجلوس مباشرة وراء السجين.

التفت ساندز نحو مصدر الجلبة. رأى ستورم. تعرفه. أشاح نظره.

بدا القاضي ضئيلاً وراء منضدته الضخمة. سمى السجين «متطفلاً وعصابياً». أمره بالوقوف وحكم عليه بالسجن شنقاً، بالجلد ثم الإعدام شنقاً حتى الموت.

زُخرف مبنى المحكمة العليا القديمة كأحد المباني الفاخرة في أمريكا. لكن على بعد حيين منها كانت تقع «ليتل إنديا»، حيث يستأجر ستورم غرفة. اخترق الشارع عبر حشود تتزاحم عند قدميه بينما مكبرات الصوت تعلن صلاة العصر. حراك اجتماعي جانبي واسع؛ عرّاف ممدّد على الأسفلت على ظهره ومنديل أسود يغطي وجهه، متمتماً التنبؤات. وشريكه يدمدم فوق مجموعة من العظام البشرية التي بلون الصدأ، بما فيها جمجمة، وضعت على منديل أحمر حول بيضة. كانا يبيعان تعازيم صغيرة مصنوعة من ورق ذهبي من سجائر «555»، ولفت بخيوط وسخة. الشريك يرفع غطاء صندوق، تبرز كوبرا طولها ستة أقدام، مخترقة الغطاء. يرد الكوبرا إلى الأسفل بإحدى العزائم القوية التي يحركها أمام وجه الأفعى المهسهس. رجل في الجوار يعرض رزمة لا يقل وزنها عن خمسة باوندات، من

الأسنان التي اقتلعها بنجاح. جميعهم هنا من الأركان المخبلة في الشرق الأقصى، مع حصرهم القشّ وعقاقير الخلود التي يبيعونها. الكثير من الأشربة لتضخيم العضو الذكري، أيضاً، للهدف نفسه، أداة مخيفة نوعاً ما من أحزمة وخواتم. وألبوم صور يعرض حالات تجاوبت مع العلاج. أعشاب، مراهم. شتى أنواع التلافيق. جذور أعشاب طبية تقدم في مرطبانات زجاجية، تطفو مثل الأعضاء المبتورة.

دخل إلى متجر ملابس صغير يكاد ينعدم فيه التنفس بسبب البخور. من المستحيل التحرك فيه من دون الاحتكاك بالأقمشة وبالسجاجيد. في الخارج الجامع ما زال يزعق. النسوة الهنديات الواقفات بثبات يحملقن فيه. حسناوات. ثلاثتهن. إحداهن أخذت تحملق بشدة، لابدّ من أنها الأم.

«جئت لمقابلة راجيك».

قالت: «السيد ينتظرك».

«من هنا؟».

«أجل، مجدداً، كالأمس». الأمس؟ وجهها الرائع المذهل الذي يخفي بروداً عميقاً. لم يرها أمس.

عبر ستارة من الخرز تصور الإله كريشنا بين عذراوات يستحممن في شلال، وإلى العتمة.

«تعال... لا بأس... هنا».

«لا أرى».

«انتظر حتى تعتاد عيناك الظلام».

مشى ستورم ببطء نحو صوت السيد راجيك، وجلس على وسادة على كرسي بلا ظهر.

رفع السيد راجيك يدهُ ليسحب حبلاً ويشعل مجموعة من أضواء عيد الميلاد الخافتة وراءه. كان رجلاً هندياً عادي المظهر وراء منضدة عليها عدة شاي، ولا تعابير على وجهه. «سوف أسألك فحسب بضعة أسئلة، هلا أجبتني؟».

«اسألني لتر».

«خلال الأسبوع الماضي، أو حتى أطول... هل ألقيت نظرك على أي مكان يمكن أن يقع عليه ظلك، ولم تر ظلاً رغم ذلك؟».

«لا».

«هل رأيت طائراً أسود؟».

«الآلاف منها. العالم مليء بالطيور السوداء».

«وهل ثمة واحد لاحظته بصورة خاصة؟ لأنه لا ينتمي إلى مكانه... ربما طير داخل بيت، أو طير أسود جاثم على عتبة نافذتك. شيء من هذا القبيل».

«لا، لا شيء من هذا القبيل».

«أرأيت شيئاً... أي غرض، أي... مجدداً سوف أستعمل مثالاً: تكور قطعة ورق، وتشبه رأس أحدهم. أو لطخة حال لونها على الأرض، ترى شكلاً يشبه وجه أحدهم، وجهاً كان مقرباً منك في الماضي. هل رأيت شيئاً كهذا خلال الأسبوعين الماضيين؟ شيء أراك فجأة وجه شخص مقرّب منك؟».

«لا».

«سوف أتلو صلاة من أجلك. ما ستكون الصلاة؟».

«أنت قل لي».

«لا، لا يمكنني أن أكون من يقول لك. ليس مكاني. إنه مكانك لكي تقول لي ماذا كنت لتقول إذا كنت تصلي للرب».

«Break on Through»[1].

كان السيد سيؤدي شعيرة صامتة الآن. وكأنه لا يتكلم الإنجليزية.

«أستطيع كتابتها لك».

مدّ السيد يده وأطفأ الأنوار الصغيرة. يداه خشخشتا في جيوبه وأشعل عود ثقاب وأنار عوداً من البخور. تكورت الظلمة مثل نفق حولهما، مثل جدران

(1) من أشهر أغنيات فريق «ذي دورز» (جيمي هندريكس) ظهرت في العام 1967.

صلبة. رائحة قوية مغثية. «عليّ أن أرحل يا رجل، إن كنت ستعبث معي هكذا».

أطفأ السيد عود الثقاب. لا شيء الآن. «عيناك». خلال عشرين ثانية الجمرة الحمراء الصغيرة على البخور باتت مرئية، والعين الصغيرة التي ظهرت مع الصوت أو الأنف، ذلك الشيء هو كل ما أمكنه تبيّنه من وجهه وهو يقول: «اختراق.. تقول كما عبر الحدود».

«اخترق هذا الباب»، إنها أغنية، إنها فلسفتي، شعاري. تسألني عن الكلمة، وهذه الكلمة التي لدي. اخترق هذا الباب».

«عد غداً».

«هذا ما قلته المرة الماضية».

تكلم السيد بهدوء، وبلطف شديد «هل طلبت منك أي مال؟ أتشعر أنني لست أهلاً للثقة؟ إذن أقول لك عد غداً. لا يمكنني أن أعطيك اليوم ما لا أملكه اليوم».

«أجل، أجل. افعل ما عليك فعله. أجل».

مع اقتراب ستورم مسافة مئتي متر من بوابة سجن بودو العملاقة المغطاة بصفائح حديدية، شعر بحر شمس الصباح تصفع وجهه. الحارس عند المدخل فتح كوة ونظر إلى ستورم من عتمة صومعته، وحدق في رسالة التعريف الخاصة به، الموضوعة بالإنجليزية، وقام باتصال هاتفي. انتظر ستورم في الشارع لدقائق قبل أن يفتح الحارس الباب الحديدي الذي بحجم رجل في الجدار الباطوني.

شاب طويل بثياب مدنية قاد ستورم عبر الباحة، حيث دزينتين من الحراس يقفون للاستعراض ببزات خضراء وأرجوانية. سفلة قبيحون. لكنهم عما قريب سيشنقون سكيب ساندز، نخبهم إذن.

وقف ستورم خارج مكتب مأمور السجن مع رسالة التعريف به بوصفه

صحافياً يدعى هوليس، وهو الاسم الوارد على جواز سفره الأسترالي. رسالة تسميه صحافياً لن تنفعه كثيراً. فهم ذلك. فأضاف ستورم رسالة صغيرة من وضعه، تشرح لمأمور السجن أنه يمثل أيضاً مجموعة خيرية ويريد زيارة السجين لأسباب محض إنسانية، لا كمراسل صحافي.

مانويل شافي، مدير وآمر سجن بودو، حيا ستورم بحرارة «أعتذر مجدداً كثيراً»، قال، «بسبب سياستنا التي تمنعني من السماح لك بدخول السجن». لكن ستورم كان في الداخل، هنا في مكتب شافي مع صور السلاطين التسعة[1] على جدار واحد، وقد أضيئت الغرفة بلمبة نيون دائرية على السقف.

كان شافي رجلاً قصيراً سميناً من أصل هندي له وجه شبيه بالفطيرة يتوسطه شارب أشبه بشارب قارض كرتوني وسترة عليها خصلة شعر ذهبية، وخمس ميداليات مختلفة على كل كتف. أيضاً أشرطة على صدره. الانطباع الذي يتركه هو انطباع بعذوبة حمقاء.

«أأنت مسلم؟»، سأله ستورم.

«لا».

قال ستورم: «عن نفسي أنا مسيحي سيدي».

«وأنا أيضاً»، قال آمر السجن، «أنا مهتد. صدقني، لا أحب شنق الناس».

«رجاء أعط السيد بينيت هذه الرسالة، موافق؟ لقد كلمت محاميه بهذا الشأن، وأظن أنني رأيت السجين يومئ لي خلال النطق بالحكم.

«هذا ضد جميع اللوائح».

«إنني هنا أؤدي دوراً إنسانياً، وأطلب ذلك منك من مسيحي لآخر».

أصر الآمر على أن بينيت سيرفض مقابلته على أية حال. لفظ اسم السجين بيني «بيني لا يريد أيّ زوار»، قال لستورم، «كان بيني فظاً حتى مع القنصل الكندي».

(1) تسعة من حكام ولايات ماليزيا الثلاث عشرة، يعينون بالوراثة، ويسمى الواحد منهم «سلطاناً».

«ماذا بشأن عائلته؟».

«لم يأت أحد. كندا بعيدة جداً».

«تأكد من أن يفهم أنني الشخص الذي تكلم إلى محاميه. أظن أنه سيرضى بمقابلتي».

«لكن بيني لن يقابلك. لا يسعني إلا تكرار ذلك لك. بيني بصق على وجه القنصل الكندي. ألا يجعلك هذا تستنتج شيئاً ما عن بيني؟».

«أنا واثق تماماً من أنه سيقابلني».

«لقد رفض جميع الزوار. وإلا لأمكنتني مساعدتك».

لكن بما أنه أصرّ على هذه الاستراتيجية مصوراً الأمر على أنه رفض بينيت لا رفضه هو، شعر المأمور أنه ملزم الآن بتأكيد بينيت نفسه لذلك.

«لو انتظرت رجاء»، قال، وأرسل حارساً لكي يتكلم إلى السجين. أشعل الآمر سيجارة بينما أصغى ستورم إلى الحراس يتحركون في الفناء في تناغم ضاربين أعقاب بندقياتهم بالأرض الباطونية.

وقف ساندز والحارس معاً خارج الباب. استدعاهما شافي بنظرة معذبة.

دخل ساندز - بينيت حافي القدمين، يرتدي سروالاً قصيراً وتي شيرت. وكان من الجيد رؤيته بادياً بهذا السوء، محطماً في عينيه، هزيلاً، من الرائع رؤيته سجيناً.

«أيمكنين التكلم إليه على انفراد».

«لا».

«خمس دقائق».

وجه المأمور أقفل وتخلى ستورم عن الفكرة.

قال ستورم: «كيف الحيَاة؟».

«مضجرة غالباً».

«أتدخن؟».

«أخيراً أقلعت عن التدخين».

«ألديك أي سجائر؟ هؤلاء الماليزيون يدخنون 555 على ما أظن».

«أجل»، قال ساندز.

«سوف أعطي كرتونتين للمحامي».

«شكراً».

«أكان جيداً؟».

«جيد بما فيه الكفاية لكي يحصل على أجره بينما أتدلى من حبل المشنقة».

«أنت تفهم الأمر هنا. أنا مجرد ناشط إنساني، زميل يتكلم الإنجليزية».

«فهمت».

«جاء قنصل بيني لمقابلته»، قال المأمور، «وبصق في وجهه».

«أنت زائري الأول».

«حاول أن تبصق في وجهي».

أطرق ساندز إلى قدميه الحافيتين.

«المأمور شافي رجل طيب»، قال ستورم، «ولهذا يسمح لي بالتكلم إليك. يريد أن يتأكد من أنك مرتاح».

«فكرة الخروج من هنا قد تريحني».

«ليس ممكناً يا رجل، لقد أدنت وحكم عليك، وليس من عبث هنا. ثلاثة وثمانون شخصاً أدينوا في ظل قانون تهريب الأسلحة الجديد، واثنان وثمانون منهم أعدموا شنقاً».

«أعرف الأرقام».

سأله ستورم: «وكيف تشعر حيال الشنق؟».

«لا تعليق»، قال شافي، وإن لم يسأله أحد.

نفض بينيت كتفيه، «هاي، في هذه المرحلة لا بأس بالأمر بالنسبة إليّ».

«لا تعليق»، كرر شافي، «لكنني مسيحي. أظن أنك تعرف جوابي».

خطا ستورم مقترباً من بينيت، «آن أوان أن تفكر في روحك».

«لا تكن مجنوناً».

«إنني أعرض عليك فرصة أن تريح ضميرك».

«ليس لي ضمير»، قال ساندز.

«إذن الشنق لا يخيفك؟».

«لقد عشت طويلاً جداً حتى الآن».

«ماذا عن الجحيم أيها العتوه؟».

«سوف يتسنى لنا الوقت لمناقشة ذلك لاحقاً. أنت وأنا. الكثير والكثير من الوقت».

«لدى بيني كتب. لديه كل أنواع الكتب. لديه كتاب مقدس»، قال المأمور.

حدق ساندز في قدميه الحافيتين البشعتين وتكلم بصوت منخفض جداً.

«ماذا قال؟ ما كان ذلك؟»، قال المأمور.

قال ستورم: «قال لي من أقابل».

«من أجل ماذا».

«من أجل العم القديم».

«إنه ميت يا رجل، ميت».

«حقاً؟ وأنت كنت ميتاً أيضاً، افتراضياً».

«وعما قريب سأكون ميتاً من جديد».

بات جلياً شعور شافي بعدم الارتياح. أشار للحارس: «ثمة شاهد هنا. لقد اقتربت من التقاعد بعد بضعة أشهر. قد أتعرض للكثير من المتاعب»، لكنه لم يفعل شيئاً ليوقف هذا. بدا غير قادر على أقل فظاظة بالطبع، في هذه اللحظة، لكي يفرض سياسة السجن.

اقترب ستورم أكثر: «هل ستصلي؟»، أحنى رأسه، «ربي العزيز»، قال بصوت عال، ثم بصوت أكثر همساً، «أعرف أن لك عائلة في الفلبين، ويمكنني العثور

عليها».

تراجع إلى الوراء وشاهد السجين وهو يرتجف مثل دمية إلى أن لاحظ حتى المأمور الغبي: «إنه مريض؟ ما الخطب؟».

«إنها قوة الضمير»، قال ستورم.

«هنا»، قال المأمور، «اجلس. أجل. المعاناة».

الآن، وقف المأمور شافي وستورم هناك مثل زوج من المساجين، وبات ساندز من يحتلّ كرسي المأمور.

تشبث ساندز بحافة المكتب بكلتا يديه، وأخذ ينقّل نظره بين عينيه. «اسمه جوشوان، أو شيء من هذا القبيل. إنه يدير ماخوراً في جيريك. يسمونه السيد جون أو جوني».

«أعطني الإرشادات للوصول إليه».

«لا تحتاج إليها. إنه يتحرش بكل أوروبي يترجل من الحافلة».

«وهو من يجب أن أقابله».

«إذا كنت تشعر بالحاجة إلى ذلك».

«تقابله من أجل ماذا؟»، سأل المأمور. ليس أنه لم يفهم. لقد فهم، فهم الأمر برمته، لكنه لم يسمح لنفسه بأن يُرى بأنه ارتكب خطأ.

أخفق شافي سلفاً في منع هذه المحادثة. أفضل ما يمكنه فعله الآن هو السيطرة عليها. «الأستراليان اللذان أعدما لم يحصلا على مساعدة من سفارة بلادهما»، تذكر الآن، «لدينا الكثير من المساجين الأجانب - مهربو مخدرات، وأشباههم»، قال، «لم أرَ سفيراً يهتم إلى هذه الدرجة. الكنديون يساعدون بيني كثيراً. بيني حصل على كتب وأمور كهذه».

«سوف تشنق»، قال ستورم للسجين، «لكن الحياة تمضي قدماً، وكل شيء يؤدي دوره في داخلها. في كل دورة دورة أخرى. أتعرف ما أعنيه؟».

«أسمع ما تقوله يا رجل، لكنني لا أفهم ماذا تعني».

مال ستورم نحو ساندز وقال: «إنها مجرد آلة. استرخ».

«ما دمت تترك عائلتي خارج الموضوع».

قال شافي: «إننا موظفون مدنيون، رجاء. لدينا زبدياتنا من الأرز، ونريدها أن تبقى ممتلئة».

«أنتَ لست من تحسبه»، قال ستورم، «إنك ميت من الداخل».

قال ساندز: «اسمع، أي نوع من الانتقام تريده، فستحصل عليه».

«على الأمور أن تلعب دورها».

نهض ساندز: «لم نصلّ». استدعاه لكي يقترب.

قال المأمور: «أنا مسيحي أيضاً. أنا أنجليكاني. أصلي من أجل بيني. إنه عصبي نوعاً ما. محبط. لكنه كان أكثر ابتهاجاً خلال الأسابيع القليلة الماضية».

أحنى ساندز رأسه، ملامساً تقريباً جبين ستورم، وضربه ضربة تحت القفص الصدري. ارتخت رجلا ستورم والكثير من الشراغيف تسارعت في مدى نظره. قال: «آي، يا أبتاه».

ساعد شافي على الإمساك به «أأنت مريض؟ ما المشكلة سيدي».

لا السجين ولا الزائر اهتما بالإجابة.

بدا توقف الاتصال صعباً على شافي. كان عليه أن يتكلم: «الصليب الأحمر أعطانا تقريراً يمكنني أن أسميه مفيداً. أجل، لدينا نواح في هذا السجن علينا تحسينها. الصرف الصحي، الغذاء، قدرت تلك الاقتراحات. لكن ليس منظمة العفو الدولية! على سبيل المثال لدينا رجال عصابات صينيين. إن لم نسجنهم من دون كفالة، سيكونون في الخارج حيث يمكنهم الوصول إلى الشهود. أولئك الذين يعدون التقارير للعفو الدولية لم يفهموا هذا. أعطونا تقريراً بالغ السوء. إذن أترى لِمَ لا نريد التقارير. لِمَ علينا السماح بها؟ لا نريدك إن كنت ناشطاً إنسانياً»، قال، «لا نريدك إن كنت صحافياً. أنت لست مسيحياً. أعرف كيف يبدو المسيحي لأنني أنا نفسي مسيحي». هذا الخطاب أمدّه بالقوة، «اخرج من هنا!»، صاح.

التفت إلى الحارس: «أجل! هذا الرجل غير مسموح بوجوده هنا!».

بعد ثلاثين دقيقة كان ستورم يأكل شرائح ضلع العجل في مطعم ديكوره من الخيزران لكن له اسم إنجليزي، «لانترز إن باب»، مصغياً إلى مرثية رائعة حزينة تعزف على المزامير المحلية، والتي باتت معروفة في حزنها بوصفها أغنية مودي بلوز قديمة «ليالي في الساتان الأبيض».

كان قد جرب فانجان، المنتجع منخفض الإيجار المليء بالمخدرات على جزيرة شرق تايلاندا، لكن ذلك المكان انتكس. الكثير من الهبيين المنحطين ذابلي العيون، والمجانين الهنود والأوروبيين العصابيين. رؤوس ممتلئة بالهواء. الهواء فحسب. لم يستطع التعامل معهم.

هذا بعد هروبه من سجن مقاطعة بارنستابل في ماستشوستس: ذات يوم فتح باب ببساطة - لا ريب في أن ذلك كان من فعل الوكالة، وعلى الأرجح الكولونيل - وخرج من السجن.

هذا بعد المعركة البحرية العظيمة، إطلاق الرصاص الوحيد في حياته، الذي خلاله أغرقت شرطة خفر السواحل قاربه والكثير من المخدرات الكولومبية وقتلوا واحداً وأغرقوا آخر من فريقه المكون من ثلاثة كولومبيين.

في بانكوك سمع أن الكولونيل ربما يصنع الأفيون الخام ويبيعه. انتقل من بانكوك حيث العاهرات كنّ ودودات منتشيات بالمخدرات، إلى كوالا لامبور حيث العاهرات يؤدين الفعالية الباردة لآلات مسح الأحذية الآلية. كوالا لامبور، اسم يجمع على نحو ما البرودة وانعدام الأطراف، مثل البلغم البارد. مدينة بلا كافيين، نظيفة، أدمغة أكريليكية، النقيض لفانجان. تكييف هوائي يمكن وصفه بالوحشي، الجميع بدا يعاني من مشكلات في التنفس. غريبة جداً، عصرية جداً، أشبه بأكرون آسيوية، أوهايو، إنما بأسعار منخفضة، وفواكه استوائية، والجميع يقود إلى جهة اليسار... رأى صورة وليام بينيت في «نيو سترايتس تايمز» وأدرك

أن نوعاً من القوة النفسية والروحانية قادت خطواته وأنه هزم القاتل، ونجا من المهربين، وهرب من السجن، متنقلاً بين الحمقى، وأنه سيواجه المشنوق أو الخائن ساندز الذي سيكشف على حقيقته، وأن الكولونيل بات الآن ممكناً.

بقي ستورم في كوالا لامبور بما فيه الكفاية لكي يحصل على وشم ويتأكد من أن ساندز شنق حقاً. بقي في مبصقة للبشرية في «ليتل إنديا» تدعى بومباي، فوق دكان للصرافة تماماً. أعطوه مروحة زرقاء صغيرة كهربائية ومنشفة بيضاء لكن بلا صابونة. كان يستمع إلى سبع محطات إذاعية معاً عبر الجدران الشبه الكرتونية لغرفته.

كانت الفنادق الرخيصة منخفضة الارتفاع. أنت دائماً على مقربة من الشارع في تلك الأمكنة، تكاد تشعر أنك في قلب الشارع. في خضم الصفير والصراخ، والأبواق الصغيرة.

أزقة بومباي تنبعث منها روائح كثيفة إنما ليست كريهة، روائح الكاري وبخور ناج شامبا. في الفجر بعد الأذان يشمّ روائح الخبز في الهواء الساكن. ثم تسيطر رائحة الديزل على كل شيء، مرتفعة مع الصخب المديني. كل دورة تحمل دورة أخرى. لا يمكنك تعطيل الآلة.

أمضى صباحاته قارئاً الكتاب المقدس الذي وسخه أحد النزلاء بقلم ماركر. أو يصغي إلى المذياع. في خطاباته ركز رئيس الوزراء على الدعة العاطفية.

أو كتب في دفتره. محاولات شعرية. كان يحب جريجوري كورسو[1]، رجل يتدفق عبقرية. أما في ما يخصه فيكتب سطراً من حين لآخر. لا يمكنك استحضار ربات الإلهام بالقوة.

أو يقرأ في نسخته من الزّهار: كتاب العجائب. كان قد اشتراه من مكتبة إنجليزية قبل سنوات، في سايغون، قبل أن تعيد الأقدار تسميتها مدينة هوشي

(1) Gregory Corso (1930 – 2001): أحد أبرز شعراء «جيل البيت» في أمريكا.

منه...

قال الحاخام بيسا: يأتي آدم قبل أي إنسان إلى اللحظة التي يوشك فيها على مفارقة حياته، لكي يعلن أن الإنسان يموت ليس بسبب خطيئة آدم، بل بسبب خطاياه هو.

قرأ حتى تشتت تفكيره وراحت الأسطر تتضاعف وتطفو على الصفحة.

نصف يقظ، يحلم بنفسه يصل إلى الكولونيل في النهاية: ويقول الكولونيل: تعرف أنه هناك دورة من التخيل والرغبة، الرغبة والموت، الموت والولادة، الولادة والمخيلة. وقد أغوينا إلى فمها. وقد ابتلعتنا.

تخيل النظرة في عيني الكولونيل وهو يشهد ستورم يخترق دورة فقط من باب الفضول لفعل ذلك.

تنقل في المدينة غير سامح لنفسه باشتهاء النساء - ملمسهن الحريري وهن يمررن به في الممرات الضيقة، في الحافلات، في المقاهي.

في زيارته الرابعة إلى راجيك، أعطى الهندي ستورم الجواب، متكلماً مجدداً بلطف بالغ: «لا يمكن شفاؤك. أنت ممنوع من ارتجاء الشفاء. خلاصك مستحيل».

بعد أربعة أيام من شنق ساندز ركب ستورم حافلة ديلوكس مع تكييف هوائي وتلفاز إلى نهاية الخط، نهاية الطريق السريعة نفسها، في جيريك، مدينة كبيرة معقدة من المباني الخشبية والشوارع القذرة. كان ليل عندما ترجل منها. مشى بين بسطات الباعة الجوالين في الساحة حيث تتوقف الحافلات.

كان ساندز محقاً: فوراً بادر جوشوان إلى الاقتراب منه. رجل مربوع بدين يرتدي سروالاً قصيراً وكنزة خفيفة واسعة. ويمشي كالسلطعون بالمشاية.

«هاي، أنا مسرور لمجيئك. نادني السيد جون، ماشي؟».

«سيد جون ماشي».

«أتريد الحصول على تدليك؟ أتريد نساء؟».

«ألديك تدليك صبيان؟».

«تدليك صبيان؟ ها! أجل. تريد صبياً؟».

«أهذا صعب جداً عليك جوني؟».

«صبي، فتاة، لا بأس، كل شيء».

«فتاة جيد».

«تدليك فتاة، حسناً. سوف تنزل في فندقي، موافق؟ إنه على بعد حيين من هنا. أنت أمريكي؟ ألماني؟ كندي؟ الجميع يمكث في فندقي».

«أريد الحصول على بعض الطعام».

«لدي طعام في مطعمي».

«سوف أحضر بعض الفاكهة».

ذهب ستورم بين بسطات البائعين. اشترى اثنتين من ثمرة النجوم. المانجا. تبعه جوني.

«أتريد جوز الهند؟».

«لقد انتهيت».

«إذن يمكنك تناول بعض العشاء، ثم ما تشاء. أحضر لك السيدة من أجل التدليك».

العشاء لاحقاً. السيدة أولاً»، قال له ستورم.

مع دخولهما إلى الفندق أشار لجوني ستورم إلى المبنى المجاور. «لا تذهب إلى ذلك المكان، لا تذهب هناك، إنه مكان سيء». بدا تماماً مثل مكان جوني بالضبط.

وضعه طوني في غرفة فرشت أرضيتها بحصيرة تاتامي من القش، وفيها

بيت راحة إسلامي مع أنبوب مطاطي للاغتسال. «انتظر نصف ساعة»، قال له جوني.

«لا تأتني بواحدة لا تبتسم».

أحضر جوني الفتاة خلال عشرين دقيقة، «ابتسمي»، أمرها بالإنجليزية.

«أظن أنني أعرف صديقك»، قال للفتاة بعد مغادرة جوني.

«السيد جون صديقي».

«أظن أن اسمه جوشوان».

«لا أعرف جوشوان، لم أسمع بجوشوان».

كانت هي الأخرى صينية. ممتلئة الجسم ودودة تفوح منها رائحة البخور الصيني. ربما على الطريق مرّت بمعبد لكي تصلي، أو لكي تتبرع بالمال. لا، كما أمل، لكي تستشير الرهبان حول مرض ما.

«تبدين حزينة»، قال.

«حزينة؟ لا، لست حزينة».

«إذن لَمَ لا تبتسمي؟».

ابتسمت له ابتسامة مقتضبة حزينة.

لاحقاً تناول ستورم الطعام أمام فندق جوني على منضدة خشبية صغيرة تحت سقيفة، في الشارع نفسه، تحت القنديل الورقي، في عاصفة من الفراش والحشرات.

تشارك الطاولة مع رجل ماليزي حاول أن يحادثه بالإنجليزية.

«لا تزعجني الآن مايسترو».

«أياً يكن ما تريد، كلي على حسابك!».

ما عدا القنديل الصغير فوق رأسيهما وبعض مداخل البيوت المضاءة بصورة خافتة، كل ما حولهما كان ظلمة، رطوبة، حر، يعبق برائحة كريهة كالأنفاس.

من هذه الظلمة برز أوروبي نحيل، شاب فيه نحافة صبيانية ومن الواضح أنها

بريطانية أيضاً، يقترب منهما مثل مومياء في فيلم رعب، حزامه مشدود، وبنطاله الكاكي مثني عند الخاصرة، وقد لفّ رأسه بضمادة متسخة.

جلس إلى الطاولة وقال: «مساء الخير. كيف يمكنني أن أحصل على الخدمة؟».

انضم إليهم جوني وقدم نفسه وطلب الطعام للمسافر وتكلم باللغة المالية مع الرجل الماليزي، حتى بعد مدى أنهى الرجل الآخر كوب شايه وغادر. «لا يعرف الإنجليزية، إنه أحد أقرباء زوجتي»، شرح جوني. ألح عليهم بطلب المزيد من الأرز مع عشبة ليمونية خضراء وقطع المحار، أو لحم الخنزير، لم يميز ستورم أيهما. «ماذا حلّ برأسك؟»، سأل جوني ضيفه الجديد. «آمل أنك بخير الآن».

كان الشاب منهمكاً بتناول الطعام، محاطاً بالبق. توقف مدة طويلة بما فيه الكفاية ليقول: «الأسبوع الماضي كنت في بانكوك، ماراً فيها فحسب، ووقعت في مصرف مياه مفتوح».

عاد إلى طعامه. أتى على كل شيء. دائماً يفعلون ذلك. في الجبال الكولومبية رأى ستورم مرة بريطانياً يأكل عجلاً منعّماً بالكاز، أكله كرجل يتضور جوعاً.

«عتمة دامسة. كنت أمشي، وإذا بي أقع في مجرور من الباطون. وأؤكد لك لم يكن هناك الكثير من الأشياء الرائعة في الأسفل. كنت أراقب العوارض التي قد أصاب بها منذ ذلك الحين». خاطب ستورم بصورة أساسية «أغمي عليّ في الغائط، مع جرح مفتوح في رأسي. في هذه اللحظة أتخيل حشداً من الجراثيم، يغزو جمجمتي. حملت نفسي في سيارة أجرة إلى أقرب جراح وقالت لي الممرضة الشابة إنني ينبغي أن أحمل معي مصباحاً صغيراً حيثما أمضي. مصباح صغير. قالت لي عندما وصلت، ثم عندما غادرت ورأسي مليء بالقطب. أينما ذهبت للمشي خذ معك مصباحاً صغيراً. يبدو هذا أقرب إلى عبارة في مسرحية موسيقية».

قال جوني: «يمكنني أن أعرفك إلى معالجة. امرأة. تدليك لكي يشفيك».

«أحب الآسيويات»، قال البريطاني، «بصورة عامة أجد أنني أحبهن كثيراً. لا يمارسن الألاعيب مثلنا. بالطبع، أعني، إنهن يقمن بالأشياء نفسها التي نقوم بها، لكنهن لا يمارسن الألاعيب. إنهن هناك ببساطة. إنهن مسألة بسيطة».

«هذه زيارتك الأولى؟».

«لكنها ليست الأخيرة، وأنت؟».

«آتي وأذهب منذ الستينات».

«حقاً، مثير للإعجاب. في ماليزيا إذن؟».

«أجل، المنطقة عموماً».

«ماذا عن بورنيو، أزرتها؟».

«بورنيو ليست جيدة»، قال جوني، «لا تذهب إلى هناك، إنه بلد سخيف».

«لدي مصباح يدوي الآن، ويمكنك أن تراهن على ذلك. وليس بالمصباح الصغير، انظر هنا». أخرج مصباحاً يدوياً صغيراً إنما ضخماً من جيب بنطاله، «يمكن أن يحدث ثقباً في جلدك». أشار به بمرح إلى ولد صغير يحوم على تخوم العتمة «يمكن أن أحدث ثقباً في جلدك بهذا المصباح».

«رجاء لا تعطه أيّ قطع معدنية»، قال جوني.

«لا، لن أفعل»، أكد له البريطاني، «لديّ ما يكفيني من الأصدقاء في هذه المدينة».

«لديك الكثير من الأصدقاء هنا؟»، سأله جوني.

«إنني أراوغك فحسب»، قال الشاب. وتوجه بالكلام إلى ستورم: «أترى؟ السيد جون لا يمارس الألاعيب».

قال جوني: «أأنت سائح؟».

«أنا كذلك عندما لا يكون هناك ثلاثون قطبة في رأسي».

«أنت سائح. يمكنني أن أؤمن لك دليلاً إلى الغابة غداً».

«أعطني استراحة يومين وستجدني جاهزاً لكلمنجارو».

«ماذا عنك؟»، سأل ستورم جوني، «أتعمل كدليل؟».

«بالطبع إذا رغبت بذلك»، قال جوني، «لكننا سنمضي ببطء، ولا أستطيع تسلق الجبل. نستطيع فقط زيارة الكهوف في نهر جيلاي. سأريك الكهوف وهذا كل شيء».

«ربما ينفع ذلك».

«هناك جبل صغير علينا اجتيازه».

«سأفكر في الأمر».

«الجبل ليس شيئاً مهماً. إنه الأمر نفسه تقريباً– صعوداً صعوداً صعوداً. أأنت سائح؟ ربما نرى فيلاً».

«قلت إنني سأفكر بالأمر».

قال الرجل المقطّب الرأس: «التقيت مبشراً في بانكوك. قال لي أن أقرأ المزمور رقم 121، «أرفع عينيّ إلى الجبال»، قلت له إنني ملحد. أصر على أن أقرأ هذا المزمور كل يوم وأنا مسافر. إذن أكان يراوغ؟ لمَ يقول لي شيئاً كهذا؟»، ملأ زبديته مرة أخرى. أخذ ستورم ينظر إليه وهو يأكل.

«إنها رسالة بالتأكيد. لكن لمن هي موجهة؟».

لم يجبه ستورم.

قال جوني: «لا أحب الخوض في الأمور الدينية. إنها تجعل الناس غير ودودين».

«لا، سيد جون»، قال البريطاني، «لن نتجادل، بسبب الدين. إنه ممل جداً».

«ماذا عن امرأة لك الليلة؟ ماذا عن تدليك؟».

بدا البريطاني مضطرباً من هذا الحديث وقال: «سوف نتكلم عن ذلك لاحقاً، موافق؟».

في اليوم التالي طلب ستورم من جوني أن يكون دليله في رحلة إلى الغابة

المملوكة من الحكومة. على بعد ثلاثة أحياء من فندق جوني، ركبا قارباً ذا محرك بطول عشرين قدماً أخذهما إلى نهر جيلاي تحت رذاذ من المطر، يقوده رجل دثّر نفسه بالكثير من الأكياس البلاستيكية الشفافة.

«هذا الرجل من البدائيين»، قال جوني، «لكنه يعيش حالياً في المدينة، معنا. سوف نلتقي أقرباءه، عشيرته. الحكومة تدعمهم. يعيشون هنا منذ ألف عام».

سافروا أعلى التيار. النهر مسطح، مندفع، معتكر. ظلا صامتين. جلبة المحرك المكشوف الصغيرة. رائحته المقرفة. أخذت المدينة بالاختفاء. في البداية كانت تظهر بعض المساكن من حين لآخر على طول الخط، ثم اختفت جميعاً.

بعد أميال كثيرة ترجل الراكبان من القارب إلى رصيف خشبي لم يبد أنه يخدم قرية قريبة أو أي منطقة سكنية على الإطلاق.

«إلى أين يذهب بحق الجحيم؟»، شاهدا القارب يتجه إلى المياه العميقة ويعود أسفل النهر.

«يريد أن يزور قومه. سوف يعود. عندما نأتي وقت الغداء سوف يكون هنا».

ربط ستورم عصابة على رأسه. وحمل الرجلان صرتيهما وبدآ بالمشي على الدرب المحفرة، يتقدم جوني الطريق، متجنباً كتلاً كبيرة من براز الفيلة التي ينبت منها فطر صغير. أحدهم يعيش هنا: أشجار المطاط البرية مثلومة حلزونياً، ونسغ الأشجار يسقط في زبديات خشبية علقت تحت الجذوع.

على طية حقيبة ظهر جوني صورة علم أمريكي. شاهده ستورم يتحرك بين الأشجار، محلقاً فوق الطريق. في صرته الصغيرة وضع السجائر وأعواد الثقاب ودفتره وجوارب وعصبات رأس، كلها في كيس بلاستيكي، إضافة إلى مصباح يدوي. وبطاريات. لم يكن من فائدة من حمل سلاح؟ فدائماً هناك من يفوقك عدداً.

توقف المطر. لا يهم – عرق أم مطر، فقد ظلّ مبللاً. «اسمك جوشوان».

«جوشوان؟».

«هكذا قيل لي».

«جوشوان؟ هذا كلام فارغ، جوشوان ليس اسماً صينياً».

كانا يتسلقان المنحدر لاهثين، لكن جوني توقف من أجل سيجارة سريعة.

امتد الطريق إلى جانب جرف. بقيا واقفين ينظران إلى الأسفل نحو السقيفة الخضراء الوعرة التي يخترقها نهر جيلاي الوعر.

سأله جوني: «ما اسمك؟».

«هوليس».

«كم عمرك».

«فوق الأربعين بقليل».

«زائد أربعين»، قال جوني، «زائد أربعين». وبعد قليل كرر: «زائد أربعين».

«أي أنني تجاوزت الأربعين».

«واحد وأربعون. اثنان وأربعون. ثلاثة وأربعون».

«ثلاثة وأربعون».

«ثلاثة وأربعون عاماً».

«أجل».

سحق جوني سيجارته بالأرض بعقب صندله الأسود، «أنا اعرفك».

«بالتأكيد تعرفني. وتعرف بينيت».

بحثت عينا جوني عن كذبة. جرّب الحيلة: «لقد عرفته بالتأكيد».

«لقد مات. لقد شنقوه».

«بالطبع، أعرف، إنها قضية شهيرة. هذا ما أعنيه. لقد سمعت عنه من الصحف، هذا كل ما في الأمر».

بدأ يتسلق ثانية. وستورم على مقربة خلفه.

«لمَ لا تتكلم؟ لدي الكثير من المعلومات عن المنطقة. لمَ لا تسألني؟».

«عندما أكون مستعداً سأسأل».

بعد نصف كيلومتر توقفا ثانية لكي يستريحا. كانت الدرب ضيقة هنا ولم يعد بإمكانهما الاستناد إلا على جانب الجرف. «هناك القمة. ثم سنهبط، وفي القاع سنجد الكهوف».

أشعل ستورم سيجارة.

«قلت عند السابعة وجئت عند السابعة»، قال جوني، «أنت دقيق جداً». لم يكن وجهه من النوع الغامض. بدا مرتبكاً يائساً.

«هذا أنا».

«لم أنم جيداً»، قال جوني لزبونه، «شعرت روحي تفارقني خلال الليل. أتعلم أنني أصلي؟ لكن في الأيام القليلة الفائتة، لم يمضِ شيء جيداً. عندما أصلي لا أرى ظلالاً على الجدار، لكنني لا أؤمن بالخرافات».

«إنك تتكلم حماقات».

أشار جوني إلى نتوء في منحدر مقابل الممر الضيق: «أرى وجه أبي على تلك الصخرة».

لم يجب جوني، وتابعا المشي. ما زال جوني متقدماً الطريق، مديراً رأسه بمقدار ثلاثة أرباع الزاوية نحو ستورم خلفه. «اسمع، سوف أقول لك أمرين»، قال وهما يمشيان، «لا أعرف بينيت واسمي ليس جوشوان أيضاً».

عندما وصلا إلى قمة الجبل وضع جوني صرته أرضاً وجلس قربها. «إنها ثقيلة جداً. لدي خيمة صغيرة في داخلها. بعد الكهوف يمكننا أن نخيّم. لديّ الطعام. أتريد بعض الفاكهة؟».

التهم ستورم ثمرة مانغو حتى لبها. الغيوم تبدّدت فسقطت الشمس قوية عليهما وحولت السقيفة في الأسفل إلى أخضر حي نابض والتمعت قوية على النهر بعيداً في الأسفل. كانت المرة الأولى التي يدخل فيها إلى أدغال حقيقية. لم ير الأدغال خلال الحرب إلا من المروحية. إسفنجية شديدة الخضرة، مثل هذه، إلا

أنها أحياناً ترتفع منها شرارات خطّطات، أو تحتها ليلاً.

«يجب أن نأتي بعكازة. الأرض زلقة جداً، ويمكن أن نتزحلق في طريقنا إلى الأسفل».

كل منهما عثر على قضيب، وانحدرا نحو الكهوف في الأسفل. في القاع أراه جوني حفرة مربعة في قاعدة الجرف «السكان المحليون كانوا يأخذون الصبية إلى هنا لكي ينتقلوا إلى مرحلة الرجولة. لكي تذهب إلى الداخل يجب أن تولد ولادة ثانية. سترى. لهذا السبب اخترناها. سترى. لكن قبل ذلك، أتشعر بالجوع؟».

جلسا على جذع شجرة وتناولا الأرز من أكياس بلاستيكية صغيرة بأصابعهما بينما رمى قرد جائع التراب واللحاء عليهما من الجرف في الأعلى. «من الجيد دوماً الأكل»، قال جوني، «الآن سنمضي إلى الداخل. يجب أن نترك أغراضنا هنا».

جثم ستورم أمام الحفرة. الحصى تساقطت إلى الأسفل أمام وجهه - القرد ما زال يرمي التراب من أعلى الجرف. أضاء مصباحه اليدوي: الكوة تضيق في الداخل. «هراء».

«المكان آمن تماماً. لن يسرقنا أحد».

«إنه أنبوب صغير لعين يا رجل».

«يمكننا فعل ذلك بسهولة. سوف أدخل. ثم أنعطف إلى اليسار. عندما لا تعود ترى مصباحي تأتي، موافق؟». نزل على الأربع لاهثاً وأخذ يتقدّم زاحفاً جاراً مصباحه اليدوي على الأرض. أقعى ستورم عند المدخل ينظر خلفه. خلال ثوان اختفى مصباح جوني وراء منعطف ضيق. تبعه ستورم على يديه وركبتيه. أخذ شعاع المصباح في يده يقفز على الجدران وينعكس على وجهه. بعد المنحنى رأى ضوء جوني يشير إلى الخلف نحوه. بعد بضعة ياردات كان عليه أن يمطّ نفسه ويتلوى عبر الممر واضعاً ذراعيه جانباً، وشعاع المصباح موجه إلى الخلف، ورأسه على الأرض. أخذ دوني يتكلم بالصينية إلى نفسه. كان على ستورم أن يحبس

أنفاسه لكي يمضي قدماً، لكنه لم يرَ كيف سيعاودان الخروج، وعلى أية حال فقد تمكن الوغد السمين من العبور وكان عليه البقاء معه - سيفعل أيّ شيء لكي يبقى معه، وذكر نفسه أنه لا يهمه أن يموت أو يحيا. مد وجهه أولاً عبر الظلمة برشاقة لا تصدق. وسرعان ما انتشر الضوء حوله. وقف جوني في حجرة جدرانها متباعدة جداً. وبمساعدة جوني نهض ستورم بحذر عن الأرض الزلقة لكنه بالكاد تمكن من الاستمرار في الوقوف. همس جوني: «بهدوء رجاء».

وجه مصباحه إلى الأعلى. الخفافيش غطت السقوف العالية مثل سجادة متهلهلة تقطر وريقات شجر. عشرات الآلاف منها.

فرقع جوني أصابعه مرة، وارتعش كل خفاش قليلاً حيث هو معلق - الجلبة الجماعية الأشبه بقطار يمرّ مسرعاً. ذوى الضوء سريعاً، لكن العتمة بدت مصطخبة الآن بحياة معينة.

«انظر حيث حفروا على الصخر. السكان الأصليون».

فحص ستورم القليل من العلامات المرئية في دائرة وهج المصباح، لم يفهم شيئاً منها.

أخذ جوني يحرك الضوء على امتداد الرموز الغامضة وسأل: «ماذا تقول؟».

«ماذا؟ لا أعرف».

«حسبتك تعرف. ربما تعرف عن هؤلاء الناس من دراستك الجامعية».

ضحك ستورم ضحكة قوية، فجاشت الخفافيش ثانية.

وضع مصباحه تحت إبطه ومسح مواد لزجة عن سرواله من الخلف. «ما هذا البراز؟».

«أجل إنه الجوانو. من الخفافيش».

«اللعنة. كم تمتد هذه الكهوف؟».

«هذا هو الكهف الوحيد. يمكننا الخروج من الجهة الأخرى».

«فلأكن ملعوناً، أتعني أن ثمة طريقاً أسهل».

«فقط للخروج. علينا أن ننزل من حفرة صغيرة. لكنك لا تستطيع التسلق داخل الممر. إن زلقة جداً».

«حسناً، اللعنة يا رجل، فلنذهب».

«من هنا». تحرك جوني أمامه ببطء شديد نحو فراغ سرعان ما انتهى بجدار، ثم حفرة في الجدار أكبر من تلك التي دخلا منها.

«أنا أولاً»، قال ستورم.

كان عليهما فحسب أن يخفضا رأسيهما لكي يمضيا قدماً الآن، إلا أن الخطو كان شبه مستحيل. لم يرَ ستورم خفافيش في الممر، وإن كان برازها في كل مكان.

اضطرب ضوء مصباح جوني ووقع أرضاً. خطا ستورم خطوتين حذرتين إلى الخلف واستعاده ووجد جوني خلفه وأوقع المصباح قربه.

«لا أستطيع أن أراك»، قال جوني.

استل ستورم سكينه من حزامه وأظهر ضوء مصباحه عليها «أترى هذه أيها اللعين؟»، ربض ورفع طرف كنزة جوني بحدّ السكين.

«ماذا تفعل؟».

رفع الضوء إلى وجه جوني الذي أزعجه فأشاح بصره، «أريد أن أعلم ماذا تفعل».

«سوف أخرج بعض الدهن من بطنك».

«ماذا تفعل! أنت تتصرف بجنون!»، في الحفرة في نهاية النفق هدرت الخفافيش.

«سوف أسلخ جلدك رويداً رويداً. سوف أرمي أشلاءك في كومة هناك، ويمكنك مشاهدة القردة وهي تأكلها. وفي الأثناء، النمل وهو يأكلك».

«أنت مجنون!».

«أفترض أنني لست كذلك».

«مال! مال! يمكنني إعطاءك المال!».

«قلت إنك تعرف بينيت».

«أجل، من السيء أن يعدم المرء. لكن يجب أن ترى أنه سوء المصير ما وضعه هناك. كان وضعاً رهيباً».

«أهلاً بك في هذا الوضع».

«لكن لا علاقة لي بذلك!».

«فلنعد إلى وضعك الحالي».

تكلم جوني قليلاً بالصينية، ثم بدا كأنه يجيب نفسه، «حسناً، أعرف ماذا تريد».

«إذن أعطني إياه».

«هذا – اسمعني رجاء – هذا لم يكن بسببي. رجاء افهم».

«سوف تخبرني».

«دعني أضيء مصباحي».

«أبق ذلك الشيء مطفأً».

«إلى الجانب فحسب».. أضاء جوني نوره على الجدار. رفع رأسه وبحث بحذر عن إشارة عن مستقبل ما على وجه ستورم «أيمكنني رجاء قول شيء واحد لك؟ إننا جميعاً عائلة واحدة».

«جوني أين الكولونيل؟».

«أوه، بحق الرب، الكولونيل. أجل. قل لي ماذا تريد. إنه ليس بعيداً. في تايلندا فحسب، عبر الحدود. يمكنك الذهاب إلى هناك بالقطار. فلنعد إلى المدينة وسوف أدبر لك الأمر. كل من يسلك طريق المطاط[1] إلى تلك القرى في بيلوم فالي يمكنه العثور على الكولونيل بسهولة. الجميع يعرف ذلك».

تراجع ستورم خطوتين إلى الخلف وأعاد سكينه إلى غمدها: «انهض».

(1) تعدّ تايلندا المنتج الأول للمطاط الطبيعي في العالم بسبب توافر غابات المطاط فيها.

«يمكنني النهوض. يمكنني فعل ذلك بسهولةّ». نهض بخفة قلب تعرفها ستورم من الوقت الذي نجا فيه عندما ظن أن خفر السواحل سيقتلونه. تقدّم جوني الطريق أربعين متراً أخرى إلى حفرة واضحة على الأرض.

رمى ستورم مصباحه عبر الهوة وتبعها، قدماه أولاً، سقط على مسافة مترين إلى وضح النهار. تدلت قدما جوني فوقه وأمسك ساق سروال السمين وهو يخفض نفسه حتى امتدت ذراعاه بطولهما الكامل فوق رأسه، يداه متشبثتان بالصخور، ثم تركه يسقط. ابتسم بغباوة وهزّ رأسه.

قال ستورم: «فلنذهب».

بقي على مقربة من جوني بينما شقا طريقهما حول الجبل وعادا إلى المكان الذي تناولا فيه الغداء.

«ها نحن ذا!»، قال جوني، «أترى؟»، وكأنه يدلي بحقيقة مهمة.

«أحتاج إلى خريطة».

«بالطبع! بالطبع! لديّ خرائط في فندقي».

«ماذا في صرتك؟».

«بالطبع! نسيت أن معي خريطة في صرتي!». أقعى وفتح الحقيبة، وأخرج أكياس الطعام، وممطره الأزرق، وقطعة قماش طولها ثلاثة أمتار زاهية اللون تلتف حوله والتي شرح أنها ملاءته، وسلم ستورم خريطة مهلهلة مطوية بطريقة خطأ. «لسوء الحظ الكتابة بالمالية. لكنك لا تحتاج إلا إلى أن تسلك طريق المطاط وتسأل رجال القبائل على الطريق. وأحدهم سيدلك».

بسط ستورم الخارطة على الأرض. «أرني».

«سنعود إلى المدينة. في الغد يمكنك أن تستأجر سيارة إلى هذا المكان. وعندئذ لا يعود ثمة طريق. ستوصلك دراجة نارية».

«أهذه الحدود التايلاندية؟».

«أجل، لكن ها هي القرية التي ستذهب إليها».

«لا أرى قرية».

«إنها هناك. لا يمكنني أن أضع لك علامة. لا قلم معي».

بذل ستورم جهده لكي يطوي الخريطة بصورة صحيحة ووضعها في صرته.

«فلنذهب».

حملا صرتيهما على كتفيهما ومشيا متسلقين التلال بصمت تام. لم تكن الطريق بعيدة إلى أعلى التل خلال العودة مثلما بدت خلال المجيء. تبعه ستورم على طول الجرف، وسبقه في الانحدار إلى الطرف الآخر. حتى على السفح نزولاً أخذ جوني يلهث ولم يكن لديه ما يقوله.

عندما وصلا إلى الطريق على طول النهر، بدا أكثر ثقة من وضعه «لقدِ أعرتني بالقلق، لكننا نتوافق جيداً الآن».

«ليس إن خدعتني».

«بالطبع لا أفعل هذا. إننا صديقان».

«هراء».

«أعتقد ذلك! إننا صديقان!».

في أحد المواضع حيث النهر الطيني يمضي مستوياً مع ضفافه توقفا لكي يغسلا براز الخفافيش.

«لن أهرب»، قال جوني وهو يخوض في الماء «إذن يمكنك الوثوق بي. على أية حال المسافة طويلة إلى الجانب الآخر. وهناك، أرى تمساحاً».

فوراً انطلق. رآه ستورم وهو يمضي متعثراً لمئة قدم عبر المياه. وقع في بقعة عميقة وتأرجح مع جانبياً مع التيار، متمكناً من الوقوف أخيراً ومتشبثاً بالنباتات ورافعاً نفسه لكي يستريح على أربع، وقد تبلل بالكامل بالمياه، رافعاً رأسه، ملتقطاً أنفاسه، مخفضاً رأسه ثانية. لم ينظر إلى الخلف نحو ستورم.

راقبه ستورم لثوان معدودات فحسب، ثم استدار وهرع عبر الطريق لكي يلاقي القارب قبل جوني.

وطوال الوقت كان يسأل نفسه: لماذا ذكرت الكولونيل قبل أن يفعل؟ لقد قدمت له الإشارة، ولعله أرسلني إلى أيّ وجهة مجهولة.

جلس على التاتامي القش في فندق جوني خالعاً جورباً تلطخ باللون البني بدمه هو. كان قد مسح العلق النهرية بطين النهر لكنه نسي واحدة.

جاءت زوجة جوني العجوز من زاوية الصالة مثيرة الغبار بمكنسة تبلغ ثلاثة اقدام «آه لقد عدت».

«أليس هذا صحيحاً!».

«أين زوجي؟».

«ما زال مع أصدقائه في الأدغال».

«إذن سيبقى جوني مدة أطول قليلاً ربما».

«أجل، شيء من هذا القبيل».

«أتريد الشاي».

«لا أريد سيارة إلى الحدود».

«ألديك المال؟».

«أنا أثرى رجل ستقابلينه يوماً».

«سوف أحضر لك سيارة غداً صباحاً. ألديك صديق ما في تايلندا؟».

«بكل تأكيد».

«صديقك ينتظر».

«هذا احتمال قائم». حملق بها، متفرساً في وجهها. لكنه لم يشعر به بعد. قريباً جداً، ولم يشعر به «أظن أنني سأبدّل الفندق»، قال.

مضى مباشرة طوال اثني عشر ميلاً بحسب عداد المسافات المضبّب في سيارة «موريس مينور». عند جسر فوق نهر لا يعرف اسمه، طلب سائقه الأجرة وأنزله

من السيارة، رافضاً المجازفة ابعد من ذلك. ألواح الجسر المحتوتة لفعل العوامل الجوية بدت مهترئة. عرض عليه ستورم المزيد من المال، إلا أن الرجل قال له: «أيمكنك أن تشتري لي سيارة جديدة؟».

«أيها الجبان. اللعنة على أمك»، قال ستورم.

حصل على توصيلة فوق كومة من الحطب في عربة معدلة ثلاثية العجلات يقودها شيخ ويجرها حيوان ربما كان حماراً وربما جواداً متوقفاً عن النمو. لبس ستورم بنطال جينز متشققاً، وأخذ الحطب يحفّ بفخذيه. لم يحمل لباساً أفضل في حقيبته، لا غيارات ألبسة، فقط المصباح اليدوي والسكين وممطر بلاستيكي ودفتره وخارطة جوني. توقفوا في قرية على بعد زهاء ميلين، حيث حاول ستورم أن يقايض الحطاب المسنّ لإيصاله مسافة أبعد، لكن دونما أيّ حظ. شجيرات المطاط تنتشر بكثافة الطريق قدماً، ولن تتمكن عربته من المرور. وقف السكان على مداخل أكواخهم يتفرجون. اقترب رجل من ستورم، تردد قليلاً، ثم عاود التقدم بقوة ولامس ذراع الغريب. صرخ الناس. استدار الرجل ضاحكاً.

لم يكن ستورم يعرف كم عليه أن يمشي حتى يبلغ الحدود. أقل من عشرين كيلومتراً، إذا كان قد أحسن قراءة الخارطة.

جاء الحطاب العجوز من وراء أحد الأكواخ بشاب مفلطح الوجه حاد النظرات يجرّ دراجة نارية. داس الفتى على دواسة البنزين وانطلق بقوة إلى درجة أن ستورم شكّ في أنه يتوقع راكباً إضافياً، إلا أنه قفز وراءه على أية حال، صارخاً: «إلى أين تذهب؟ إلى أين تذهب؟». وبدا أن الفتى أجاب: «الطريق». ومع اقترابهما من طرف القرية قامت امرأة عجوز، عظمية الوجه، تصرخ وتئن، برمي نفسها على الأرض أمام الدراجة، فعوت المكابح، واندفع ستورم إلى الأمام حتى لامس فمه شعر السائق. مد الفتى رجليه وحاول الالتفاف حولها إلا أنها أخذت تدور في موضعها وكأنها تسبح، معفرة التراب، لكي تعيق طريقه. مال ستورم من جانب لآخر وهما يتدحرجان على جسدها بكل سرعة وهي تقول:

«همم! همم!»، وصاح الواقفون على مداخل البيوت بهما - بينما أناس آخرون ضحكوا، وتقدّم طفل وبصق عليهما. وشعر ستورم بالهواء يحمل البصاق على فخذه العارية بينما يمضيان مسرعين. قطف وريقة من نبتة شاي ومسح البصقة وهما يلتفان عند منعطف إلى خارج البلدة. كانت الطريق حمراء طينية. من وقت لآخر حفرة كبيرة أبطأت طريقهما بينما الصبي يحاول تجنبها، ماداً قدمه أرضاً من أجل التوازن.

على الطريق المغطاة بوريقات الشجر انتشرت في الغالب أشجار المطاط. تسلل الضوء عبر الأشجار، وفي موضع ما قفزت الدراجة مرتين فوق أفعى سميكة ذات طوق بارز جداً. ثم أخذت الطريق تزداد ضيقاً، وتابعا طريقهما فوق الجذور، في حين محرك الدراجة الصغير يطن مثل البوق، وقد بدا شديد التفاهة والضآلة وسط هذه الحياة النباتية الشاسعة. ثلاث ساعات، أربع ساعات، لكنهما لم يتوقفا لتناول الغداء، أو حتى الماء. بقي ستورم منخفضاً خلف الفتى مع ازدياد الطريق ضيقاً، في حين أخذت الأماليد تصفع وجه الصبي. مسح الصبي باستمرار وجهه لتعود يده كل مرة أكثر اصطباغاً بالدم. منع نفسه من الصراخ أو البكاء. مضيا قدماً ببطء شديد. شم ستورم رائحة حذائه المطاطي الذي سخن فوق عادم الدراجة، وعاود وضع قدميه على الدعامة إلا أنهما ما فتئتا تفلتان.

عند الواحدة ظهراً كانت الظلمة قد انتشرت بين الأشجار السامقة وباتت الدرب شديدة الضيق بصورة مستحيلة، غدت ممراً، ثم خرجا إلى ضوء النهار والمساحات المفتوحة والعشب الرمادي الضخم، وحقول الأرز الزمردية. هنا تقاطعت الطريق مع مجرى نهر جاف تعلو حافته ستة أقدام عن الأرض. لم تتمكن الدراجة من العبور.

ترجلا وقاد الصبي الدراجة بضعة ياردات بعيداً عن الممر إلى العشب العالي وتركها تسقط على جانبها، وسقط معها هو الآخر. قفز سريعاً وجاء يمسح وجهه من دم تدفق من جبهته حيث جرح نفسه في السقوط. لاحظ جرحه وابتسم

لستورم ثم فجأة أخذ ينتحب غاضباً. أمسك ستورم ذراعه «اهدأ قليلاً يا رجل، لم تمت بعد، اللعنة»، قال، «إنه جرح عميق». فك المنديل من جبينه لكي يضمد الجرح ولم يكد يعقده على جبينه حتى استدار الصبي لكي يتقدم الطريق ثانية. انحدرا على جانب النهر وصعدا من الجانب الآخر. ناداه ستورم «يا فتى، يا فتى. أريد أن أعطيك المال. مالاً». لكن الصبي لم يجب أو يتوقف، وتابعا السير عبر حقول الأرز وإلى قرية تتمايل كلها في رياح الأصيل.

على شرفة بيت خشبي وقف رجل في سروال أسود وقميص أزرق، مثل أي شخص في زاوية أي مدينة «أهلاً بكما! تفضلا لبعض الشاي وسأريكما العيّنات التي لديّ».

«نحتاج إلى ماء».

«ادخلا إلى متحفي. رجاء. تفضلا».

أدخلهما إلى شيء أشبه المقهى لكن من دون مقاعد، بل بضع طاولات فحسب وضعت عليها مرطبانات كبيرة الحجم. حمل واحداً كبيراً منها، فظهر فيه حشرة بنية بطول ساعده ربما، لو لم تكن ملتفة على نفسها مثل سوار وتطفو داخل سائل بدا أشبه بالبول القديم. «لدي مجموعة رائعة من الحشرات. هذه الأم أربعة وأربعين قتلت صبياً في الرابعة عشرة».

«ماذا عن بعض المياه».

«أتريدني أن أغليها أولاً؟ لأنك أمريكي». تباعد حاجباه وتقاربا وهو يتكلم. عينان حَشريّتان وشفتان غليظتان وجبهة عريضة. باستثناء شفتيه، بدا شبيهاً بإحدى عيناته.

«املأ قربتي فحسب. أقصد لو سمحت. أعني لدي المادة التي أنقيها بها».

أخذ الرجل غريب الأكوار قربة ستورم وذهب إلى المطبخ، الذي يلوح فيه سرير نقال وموقد، وغطسها في حوض استحمام مطلي بالزنك وأبقاها تحت الماء. تبعه ستورم، وأخذ منه القربة التي تقطر ماء ووضع فيها حبتين. أقفل السدادة وهزها.

«اللعنة، إنني عطشان».

«أصدق ذلك، أجل»، قال الرجل.

وقفا بين العينات، وشرب ستورم نصف القربة في سلسلة من الجرعات الكبيرة ثم ناول القربة للفتى الذي شرب قليلاً، ثم شهق وزفر بعمق ولوى قسمات وجهه متفاجئاً.

«هذا يودّ».

«أجل»، قال الرجل، وتكلم بالمالية مع الصبي.

«يرفض أن يخبرني باسمه. هذا امتيازه. أنا د. مهاتير. وهلا لي أن أسألك عن اسمك؟».

«جيمي».

«جيمي. أجل. تقول الكثير من الكلمات السيئة يا جيمي. تقول (لعين)، أليست هذه كلمة سيئة؟».

«إنني زفر اللسان لعين. من أين تأتي بهذه المرطبانات يا رجل؟».

«أنا عالم، عالم حشرات».

«إذن أنت تتبرز المرطبانات من مؤخرتك؟».

«أوه! هذه المرطبانات، لدي ستة وعشرون منها. الناس يبيعونني إياها. يعرفون أن عالم الحشرات يحتاج إلى الكثير من المرطبانات من أجل العينات. هذا عقرب».

«أجل، كم ولداً في الثالثة عشرة قتل؟».

«لدغته غير قاتلة. إنما تخدرك لفترة فحسب. يحدث انتفاخ في موضع العضة. إنه أكبر عقرب في المنطقة. ولذلك أجل أحتفظ به».

«تضعه في الفورمالدهايد، صح؟».

«أجل».

«أهذه المادة اللعينة معقمة؟».

«أكيد».

«ألديك مرطبان من المادة النظيفة؟ هذا الرجل جرح ذراعه بقوة».

«أجل، رأيت هذا بوضوح». تكلم إلى الفتى، الذي مدّ ذراعه بينما فك العالم بلطف المنديل عن الجرح. «لا شيء فيه. سوف ننظف الضرر، ونضع بعض القطب. يمكنني فعل ذلك».

«قطب طبية؟ ألديك المواد؟».

«لا، إبرة وخيط».

«ماذا عن الإيكسلوكين؟».

«لا».

«يحسن أن تشرح له ذلك دكتور».

تكلما وظل الصبي يبدو شديد الاستياء.

«يقول إنه يجب أن يخفي الجرح. لا يجب أن يكون في جسده تشوهات».

«لا تشوهات؟ انظر إلى وجهه. لقد دمره بالأغصان وكأن ثمة قنبلة في مؤخته».

«لا أعرف. هذا ما يظنه».

«سوف يقطبك»، شرح ستورم للفتى بينما الطبيب يبحث عن المواد في المطبخ «سوف لن يكون ذلك ساراً».

عاد الطبيب يجر مقعداً بذراع واحدة، ويحمل قنينة بيبسي بالأخرى، واضعاً بين شفتيه إبرة وخيطاً. «اجلس هنا رجاء». هو والصبي جلسا على الأرضية القذرة ووضع ذراع الصبي على المقعد ووضع مواد التقطيب على فم الزجاجة «سوف أعقم»، قال، وأخرج الإبرة من خيطها وفوراً بدأ بالتقطيب. تنفس الصبي من أسنانه بصوت هسيس. لا أكثر. «إنه قوي»، قال العالم.

«أيمكنك التكلم معه؟ ترجم لي يا رجل».

«بالطبع».

«أولاً، من كانت تلك العجوز التي دهسها بدراجته؟».

تكلم الاثنان وقال العالم: «كانت جدته».

«أنت تمزح. من هذا الشاب».

«ليس مسوحاً له أن يخبرنا باسمه الحقيقي. أعرف من هو. سمعت عنه. إنه مسافر إلى قرية قدماً».

بصمت، ما عدا هسيس الصبي مع كل تقطيبة، أنهى العالم عمله. توقف نزيف الجرح الآن، أقفله بخمس عقد زرقاء. قال ستورم «هذا رقم مميز. أنت إلفيس».

«أجل، إنه جيد. شكراً لك».

نهض الصبي وقال بضع كلمات.

«يقول إنه من هنا يجب أن نمشي».

«بلا هراء؟ إننا نمشي منذ ساعة أصلاً».

«يوم غد احتفال مهم. لقد قام هذا الرجل بمقايضة خطيرة لكي يشترك».

«أين سيحدث هذا؟ قال «ذا روود».

«أجل. سوف أكتبه لك. يمكنك لفظه على هذا النحو». أخذ يكتب بأصبعه على طبقة الغبار الكثيفة التي تعلو سطح المنضدة، بين القباحات الطافية: ذا روو.

«سأذهب أنا أيضاً».

«أيمكننا الحصول على سيارة».

«لا يمكننا إلا المشي. إنها تبعد ساعات قليلة، لكنها سهلة جداً. أترى، إننا في سهل. ثم ننحدر إلى الوادي».

«حسناً، اللعنة، فلنمش».

«سوف ترافقنا؟».

«لا يا رجل. أنت المرافق الجديد لنا، أنا أصلاً في هذه الرحلة».

فرك العالم يديه معاً وأجفل: «حسناً! تستطيع مرافقتنا لفترة جيمي، موافق؟».

كان الصبي قد خرج من الباب. تبعه ستورم، ولحق بهما الدكتور مهاتير على الممرّ الذي تحول مجدداً إلى سبخات خارج القرية. «ألديك ماء في القربة؟».

«نصف مليئة».

«تكفي».

لم يلتفت الصبي إليهما. وضع قميصه فوق رأسه من دون أن يتوقف أو يبطئ سيره. مشى الثلاثة بجهد في إيقاع لا يتيح لأي منهم أن يتكلم حتى عادا إلى الممر بعد نصف كيلومتر من الخنادق والقنوات. ناداه مهاتير بنبرة متوسلة باللغة المالية.

«قلت له إنه يجب أن نتوقف ونستريح في الموقع التالي. أظن أنه سيسمح بذلك».

«سنيور، ما الذي ينوي الصبي فعله؟ اسأله ماذا يفعل؟».

«لا يمكنه إجابتك. من هذا المكان حتى نصل إلى ذلك المكان، عليه أن يلتزم بالصمت».

«لماذا؟».

«لديه واجب يؤديه. سيكون هناك حفل شعائري».

«أي حفل هذا، سيد حشرات؟».

«إنه غير اعتيادي البتة. لا يقام كثيراً. سوف أشاهده».

في القرية التالية توقفوا خارج بيت خشبي صغير، وجلسوا على مقعدين في الظل وشربوا الشاي المثلج من دون مكعبات ثلج. قال العالم: «اليوم حار».

«حرّ لعين».

«هنا مكان جيد. كاف جداً لك. أيمكنك أن تستريح؟».

«لا مجال أن أبقى هنا، سوف أرافقكما».

«أبعد من هنا سوف تكون تايلاندا».

«إذا كان هذا ما يتطلبه الأمر».

أحنى مهاتير كتفيه وشرب الشاي من كوبه البلاستيكي، ناظراً إليه وكأن طعمه كريه. قطب حاجبيه، وتنحنح، وسكب آخر قطرات من الكوب أرضاً، ومسح الكوب بطرف قميصه التحتي، حريصاً على إبقاء قميصه نظيفاً.

نهضوا الثلاثة وبدأوا بالمشي. عندما وصلوا إلى آخر بيت على طرف القرية توقف مهاتير، ولف ذراعيه حول نفسه وقال: «عذراً جيمي، أظن أنك لا ينبغي أن تتابع من هنا. لا. لا يجب أن تأتي الآن. أنا آسف جداً لأنني جئت بك إلى هنا».

كان الصبي يبتعد. «فلنمضِ أيها الطبيب. يجب أن أتكلم مع بعض الناس».

«هذا ليس اليوم المناسب لك لتفعل ذلك. افعل ذلك في يوم آخر، موافق؟».

تركوا وراءهم الأشجار الظليلة في القرية وعبروا الآن بين شجيرات صغيرة مخططة بالغبار «هذا سيء، بل رهيب. أجل رهيب»، قال مهاتير.

بدأوا بالانحدار إلى وادي بيلوم.

«ها هو»، قال ستورم، «ها هو».

«من هناك؟».

أمامهم امتدت قبة من الأدغال التي تحت طبقاتها غير المرئية لعيون ديزنيلاند الآن كان ثمة جنود مختفين خلال المعارك يتعرضون لأشدّ أنواع التعذيب.

«من هناك؟».

«لنذهب، الصبي لا ينتظر».

بدأت الدرب بالانحدار تدريجياً، على سفح الهضبة، أو الجبل، لم يعرف ستورم أيهما، لأنه حتى في المنحدر الحاد كان ثمة أشجار سامقة بما فيه الكفاية لكي تحجب السماء وقاع الوادي. بعد كيلومتر آخر وصلوا إلى أرض عشبية مسطحة. قادتهم الدرب نحو منبسط من الأرض وبعض المساكن، أكواخ من القش المجدول والعوارض الخشبية، المسقوفة بالتنك. سُمع هدير النهر في مكان

ما وبعض الطيور وربما الناس.

«سوف يتوقف الصبي هنا، وأنا أيضاً».

«أين هم؟».

«سوف نقترب من النهر».

بعد مئات الأمتار، بجانب النهر، وجدوا زهاء عشرين قروياً، وكومة حرق بعلو خمسة أمتار تقريباً وضعف ذلك عرضاً عند القاعدة. كان من الواضح أن التحضير لها قد أنجز. ثلاث نسوة مدثرات بسارنغات[1] قذرة أحطن بها حاملات ملء أذرعهن من جذوع الأشجار الجافة التي يبلغ طول الواحد منها الذراع، مضيفات الحطب إلى الكومة حيث ثمة متسع لذلك. خلف تلك النسوة، كان ثمة رجال لا يرتدون سوى ما يستر عوراتهم وقد وقفوا يستحمون في النهر حتى كواحلهم، راشقين الماء بيد واحدة تحت آباطهم ومغطسين رؤوسهم ومتمايلين من جانب إلى آخر، لكي يزيلوا الماء عن شعورهم الطويلة.

«لقد أعدوا المحرقة».

«سوف يحرقونه».

«هذا الصبي؟ لا».

«من إذن؟»، تساءل ستورم إذا كان هو المعنيّ.

«بهذه النار سوف يدمّرون روحه».

أربعة رجال يرتدون أيضاً قماشة تستر عوراتهم، وقفوا جانباً غير ناظرين إلى أحد وكأنهم ينتظرون تصويرهم، كما المحرقة نفسها، التي تلوح مثل إله مكون من الأطراف والعظام بينما أخذ الصبي يحملق فيها بوجهه المسطح.

خاطب مهاتير الرجال الأربعة. وكأنه كسر تعويذة كانت تشلّ حركتهم، فاقتربوا مومئين ومتكلمين: «هناك مشكلة»، قال مهاتير، «غزو. إنهم مثقلون ومعذبون بلعنة تغزوهم. يقولون إنه إذا نظرنا فسوف نرى آثار الأسنان على

(1) Sarong: الثوب الرئيسي للرجال والنساء في أرخبيل الملايو.

ممتلكاتهم. غزو من قبل من؟ أحدهم يقول القردة، وبعضهم يقولون القوارض. يرفضون القول. إنهم غاضبون بسبب الخوف. سوف يخسرون كل شيء. سوف يتضورون جوعاً».

اقترب أحد الرجال وتكلم إلى مهاتير: «يقول إن الكاهن ينتظر في مكان خاص. يمكننا الذهاب لمقابلته».

اجتاز ستورم ومهاتير والصبي ممراً بين مجموعة من المساكن، يتقدمهم العالم، حتى وصلوا إلى فسحة صغيرة وجدوا فيها ثلاثة أكواخ صغيرة جداً ورجلاً يستر عورته بقطعة قماش يقف هناك بمفرده.

«لعين آخر من دون ملابس».

«إنه الكاهن، الذي استؤجر خصيصاً لهذا الطقس المهم. لكن لا تقلق. إنه كاهن مزيف. إنه دجال».

توقف الصبي عن المشي على بعد بضع ياردات من المتوحش الصغير، الذي ربض وكأنه سيقفز بعنف في الهواء متفرساً فيه.

وضع مهاتير يده على ذراع ستورم «ابق هنا. هذا ليس لنا».

بعد ثوان قليلة استرخى الكاهن وانتصب واقفاً مجدداً واقترب من ستورم ومد كلا يديه وكأنه يتوقع أن يمسك بهما ستورم، إلا أنهما كانتا متسختين بالطين.

«قل له إذا أرد أن يصافح فمن الأفضل له أن يغتسل أولاً».

«يجب أن يحفروا بحثاً عن اليرقان. لا تفزع. إنه بروتين جيد. أفضل من الأرز. الأرز يعطي الطاقة، لا القوة. لكنه مصدر مهم للكاربوهايدرات».

الرجال عند النهر كانوا يسترون عوراتهم بالخيش لكن القماشة التي يضعها هذا الكاهن مخاطة في رسوم متشابكة من الأحمر والأخضر والبني. تكلم إليه مهاتير مطولاً، مترجماً غالباً. من الواضح أنه كان متحمساً.

«هناك حيوان ما»، قال لستورم، «قرد. هؤلاء القوم يسمونه سانان. لا أعرف ماذا يعني اسمه. إنها لغتهم. يعتقدون أنه رجل صغير، كائن بشري. ويعتقدون

أنه يشن الحرب عليهم الآن. قبل شهر، أظن أنه قبل شهرين على الأقل، جاء زهاء ألف سانان على الأقل إلى هذا المكان وراحوا يلتهمون كل أنواع النبات، ولم يعد السكان يجدون ما يأكلونه، ولم يبق لديهم سوى الأرز. ويقول أيضاً إنه قبل شهر هاجم هؤلاء السانان القرية وسرقوا الأرز ودمروا ممتلكاتهم. أيضاً، يقول، عضّ السانان الكثير من الناس ومزقوا بطون بعض الأطفال». تكلم الرجل «لا أعرف إن كانوا فتاكين. يقول إنهم جاؤوا كالإعصار. من كل جهة، سادين كل طرق الفرار». أشار الرجل إلى الوادي وهو يتكلم «يقول إن هناك طفلاً مفقوداً. السانان أخذوا الطفل معهم. وهناك طفلة أخرى خطفت، لطنها وجدت حية في الصباح التالي. أظن أنه يبالغ. كيف يمكن لألف سانان أن يعيشوا معاً؟ ليس ثمة ما يكفي لإعالتهم جميعاً. أعرف هذه القرود. إنهم يعيشون بجماعات من دزينتين. هذه حدودهم. هذا القرد له وجه أبيض مليء بالشعر الأبيض. يبدو ذكياً جداً، يرتسم على وجهه تعبير فظ طوال الوقت. إنه ليس إنساناً. يظنون أن السانان هو إنسان صغير. حسناً، هذا الرجل مطلوب منه أن يقول مثل هذه الأشياء. هكذا يكسب رزقه. هؤلاء الناس يؤمنون بالخرافات. سوف يدفعون له. وحتى أكثر للفتى».

في الأثناء وقف الفتى وحيداً على مسافة منهم. تكلم الرجل وهو ينظر إليه. «يقول إنه لا يجدر بنا التكلم إلى هذا الفتى لأنه عقد صفقة جدية جداً. ويريد أن يعرف بشأنك». قال مهاتير لستورم «يسأل إن كنت صديقاً للرجل الأبيض على الجانب الآخر».

«أي جانب آخر».

«عبر الوادي».

«لست صديق أحد».

«إذا ذهبت إلى هناك ستكون في تايلندا».

«أهذه مشكلة؟».

«إنه بلد آخر، هذا كل ما في الأمر».

«سوف أبقى الليلة هنا».

«الشعيرة ستتم غداً. يجب أن تقام عند الغروب وتنتهي عند هبوط الظلمة».

«أين سينام الفتى؟».

«في أحد هذه الأكواخ. يمكننا البقاء أيضاً».

«يمكنني الإفادة بعض الطعام».

«لا شيء لديهم. لكن ثمة متجراً».

عادوا إلى القرية. انحدرت الشمس وراء التلال المقابلة. بائع القرية رفع خيمته وأشعل قنديله ووقف في وهجه وقد برز محيط جسده فحسب، عارضاً بعض الأطعمة المعلبة والرزم على رفين جلفين. اشترى ستورم علبة سجائر 555 وقنينة جعة تايجر عمرها عام على الأرجح، بالكاد يظهر شيء من النقش الذي عليها. ولم يكن طعمها بأسوأ من واحدة طازجة.

«لقد جمعوا كل حليهم وحجارتهم الكريمة، ووضعوها مع كل المطاط الذي جمعوه خلال عام، وجاؤوا وباعوا كل شيء في القرية التي التقتيك فيها. رأيت زعيمهم عندما جاء ليبيع البضائع. هكذا علمت بشأن هذا الفتى. سوف يدفعون له. هذا الصبي سيجني الكثير من المال. لكنه سيدمّر روحه».

«الأمر هكذا في كل مكان يا رجل».

شرب ستورم جعته بسرعة وفي الضوء الأخير شق الثلاثة طريق العودة إلى حقل الكاهن وركنوا إلى الأكواخ الثلاثة. مهاتير والقس كل واحد في كوخ، بينما ستورم والصبي تشاركا الثالث. اضطجعا على الأراجيح الشبكية بينما جمرات حادة الرائحة تشتعل في مجمرة حجرية اتقاء من الملاريا. بلل ستورم عصابة رأسه في مياه النهر وغطى بها وُجهه لكي يفلتر الأدخنة.

طوال الليل أفسد نحيب الفتى عليه نومه. وعند الفجر غادر إلى الجهة الأخرى.

دله ثلاثة رجال من أين يعبر النهر في مكان ضيق. أحدهم غاص في المياه حتى خاصرته، ضاحكاً رافعاً ذراعيه لكي يبين عمقه. اعتقد ستورم أن الرجلين الآخرين أرادا أن يرياه معبراً بديلاً أيضاً، ولكن بما أن المعبر الصاعد إلى سفح الجبل في الطرف المقابل كان مرئياً من هنا، لوح وانحنى ومدّ إصبعه الوسطى، وأحفى قدميه، وشق طريقه في تيار بطيء حاملاً حذاءه وجوربيه عالياً بيد وصرته باليد الأخرى. عند الضفة الأخرى رمى أغراضه على الأرض وتبعها وفحص قدميه بحثاً عن العلق ولم يجد أياً منها. صاح الرجال مشجعين بينما ربط شريط الحذاء وتسلق الممر حتى اختفى عن الأنظار وهم يرقبونه باهتمام، وكأنه هم صنعوه وأرسلوه.

سحب عالية متراكمة في سماء زرقاء نادرة. ما زال لديه الظل الصباحي الذي يلقيه الجبل. مضى مسرعاً. بعد ساعة علت الشمس الجرف عبر الوادي وزحف الشعاع سريعاً إلى الأسفل فوق الأرض الممتدة أمامه وأخيراً انقض عليه، وأذهله بثقله. مضى الممر على سفح التل، وكان تسلقه سهلاً، إلا ان السفح نفسه كان شديد الانحدار بحيث لا تنبت عليه الأشجار. كلما امتد ظل من شجرة أعلى وقف فيه لكي يحصل على الهواء المتدفق بثبات إلى وادي بيلوم.

قادته الدرب شمالاً حتى التفّ في الأعالي حول نقطة وتحول جنوباً، وقد بات سفح الجبل إلى الشرق، يظلله، وتوقف لكي يجلس ويشرب. كان قد وصل إلى منشعب استطاع من خلاله رؤية الطريق قدماً وهي تلتف غرباً ثم شمالاً، وصولاً إلى قمة الجبل. وفي الجانب الآخر تايلندا.

في غياب أيّ صعوبات أخرى، أمكنه أن يستخلص أن اللقاءات والمفاوضات التي شهدتها تلك الأيام القليلة الماضية كانت كافية، وأنه يقف الآن بمواجهة منطقة جغرافية فحسب وقد وصل إلى المجال الذي يريده فيه الرب الآن. خطر له أن هذا كله كان ليكون أسهل – عبر طريق، وحتى توافر نقل عام – من الجهة

التايلاندية. لكنه عندئذ ما كان ليسدّد كلفة الدخول.

في غضون عشرين دقيقة كان قد التف حول الحافة وتسلق الجرف الشمالي لكي يطل على أكرتين من الأرض تتوسطان هضبتين صغيرتين. ثمة جبال أعلى قدماً. تحته، بيت خشبي له سقف من الصفيح وحظيرة صغيرة أو سقيفة. نهر صغير انحدر على السفح الجنوبي متدفقاً وراء البيت ونزولاً فوق حافة القمة. دجاج مذعور يهرع حول الكوخ ناقراً الحبوب. سمع ستورم ثغاء معزاة على مقربة.

اتجه نحو الغدير. باحثاً عن موضع يستطيع أن يرتمي أرضاً فيه ويغب المياه، التف مع مجرى المياه حول طرف الأرض المنبسطة. توقف بعد عشرين متر من البناءين. أمام الأكبر، تحت السقيفة المسقوفة بالقش، في تيار هوائي يبقي البعوض بعيداً، جلس رجل أبيض البشرة على مقعد مسنداً ظهره على جدار خشبي.

اقترب ستورم فرفع الرجل يده محيياً. كان يلبس قميصاً رياضياً سماوياً، وبنطالاً رمادياً مغسولاً حديثاً ومكوياً، وصندلاً من الخيوط. هزيل، يحيط صلعته المسفوعة من الشمس خط من الشعر الرمادي. واضعاً رجلاً على رجل.

بادره ستورم: «مرحباً أيها السيد».

«مساء الخير. أظن أن هذه التحية بالنسبة إليك».

«أأنت بريطاني؟».

«أجل في الواقع».

«تحتاج إلى إحدى خوذات البوانا البريطانية تلك».

«خوذة الشمس. لديّ اثنتان، يمكنني أن أقدم لك واحدة؟».

«لم لا تضع واحدة؟».

«لا حاجة إلى ذلك، إنني أستمتع بالقليل من الفيء».

«ماذا تفعل أيضاً؟».

هزّ الرجل كتفيه.

قال ستورم: «صعدت سيراً على الأقدام من القرية... الروو».

«آه أجل، أناس لطفاء».

«من؟».

«الروو».

«أجل، هذا صحيح».

لا يأكلون جيرانهم. أو يجفلون منهم».

«لا يفعلون. فهمت هذا بشأنهم. أأنت وحدك؟».

«في الوقت الحالي».

«من يعيش هنا أيضاً».

رفع الرجل رجليه عن بعضهما ووضع يديه على جانبيه وجلس مستقيم الذراعين، محني الكتفين «لدي بعض الطعام، لابدّ من أنك جائع».

«إنني صائم».

«إذن ربما تحب بعض الشاي».

«ألديك ثلج؟».

«لا. إنها مياه الغدير. وهي باردة كفاية. تنحدر من المناطق العليا باتجاه الأراضي الشمال غربية».

«ألن تسألني من أنا؟».

«من أنت؟».

«على هذا أن ينتظر».

ابتسم الرجل. بدا متعب العينين.

نهض وتبعه ستورم إلى الغدير، حيث انحنى الرجل ليمسك طرف حبل ويسحب مرطباناً زجاجياً كبيراً مغلفاً بحبال المكرامي الغليظة. «قد يبدو طعم شاينا خفيفاً قليلاً. أغليه ثلاثين دقيقة. تعال إلى المنزل وسنهتم بك».

مضى ستورم إلى حدّ الشرفة. وقف عند الباب ونظر إلى الداخل. كانت

أرضية المكان خشبية ناعمة. وفيه مصاريع كبيرة مفتوحة بالمساند من طرفي الغرفة يدخل منها النسيم والضوء. رأى مطبخاً مفتوحاً حيث صبّ الرجل الشاي في كوبين زجاجيين كبيرين، ورأى باباً يؤدي ربما إلى غرفة النوم. ما إن سمع صوت انسكاب السائل حتى قادته قدماه إلى الداخل. «أكواب جيدة»، قال الرجل، «ليست مراطبين قديمة»، شرب ستورم بسرعة. من دون كلمة أخذ مضيفه الكأس منه وأعاد ملأه. شرب كوبه ووضع يده على ثلاجة صغيرة قرب المغسلة «لا غاز اليوم. على أحدهم أن يأتي به من البلدة على صهوة حصان».

«أين البلدة».

«على بعد عشرة كيلومترات شمالاً».

«نحن في تايلندا».

«أجل، بالطبع، قليلاً».

أنهى ستورم الشاي.

«يجدر أن نبقي المرطبان في متناول يديك».

«ما عملك هنا؟ ما دورك؟».

رفع المرطبان بالحبل، «أبقى بعيداً عن الطريق». وقف وكوبه ومرطبانه قرب الباب. «احمل كرسياً إلى الشرفة، هلا فعلت؟». انتظر أن يسبقه ستورم إلى الخارج ثانية ثم جلس على مقعد ووضع رجلاً على رجل بينما انتبه ستورم إلى وضع قوائم الكرسي على الألواح لا على الشقوق التي بينها ثم فتح صرته وأخذ يبحث فيها عن أدوات الدخان. كان ستورم مصراً على أن يكون أكثر صبراً منه. دخن سيجارة مشوهة وأخذ يراقب الدجاج وهو ينقر الحبّ بطريقة ميكانيكية.

«أظن أنني سأسألك عن اسمك ثانية، من بعد إذنك».

«الرقيب ج. س. ستوْرم. كنت كذلك».

«أتفضل مناداتك سارج؟».

«لا. أتفضل مناداتك سبوك[1]؟».

«لست مع المخابرات».

تريّث ستورم.

«ربما سابقاً».

«مع أي جهاز تعمل؟».

«الحلول الكيميائية المتحدة. أنا متقاعد بسعادة».

«حلول من قبيل، نحن نحل المشكلات؟ أم حلول من قبيل، نحن نذوب الملاعين في الأسيد؟».

«حلول لمشكلات، أجل. لكننا نقدّر التورية أيها الرقيب، لا تقلق».

«أعملت مع المؤسسة؟».

«السي آي أيه؟ لا. الشركة المتحدة خاصة بالكامل».

«متى جئت إلى هنا؟».

«قبل عامين على الأقل. دعني أتذكر. في يونيو ربما، في بداية موسم المطر. أجل، قرابة منتصف يونيو».

«كيف سايغون؟».

«لم أسافر كثيراً كبعضهم. أحب زيارة المكان يوماً ما».

«هراء أيها اللعين».

«سمعت أنهم يفتتحون معملاً لكوكا كولا في الشمال. في هانوي».

رمى ستورم عقب سيجارته إلى الفناء. «أتقول لي أنك تدير نوعاً من العمليات هناك في فيتنام الشمالية؟».

نظر إليه الرجل شزراً وشرب من كوبه.

«ما الذي يمكن أن يحدث في الشمال؟ نوع من مركز للتنصت. أهذا ما لديك هنا أيضاً؟ عملية إكس نفسها على مر السنوات؟».

(1) Spook: عامية، جاسوس.

«إمممم»، قال الرجل.

«ما الوضع يا رجل؟».

مال الرجل إلى الأمام بكتفين محنيتين ولم يبد عليه الانزعاج بقدر ما بدا التأمل.

«أتعرف من أجل من جئت؟».

«أخشى أنني لا أعرف».

«الكولونيل».

قوم الرجل ظهره على المقعد وأمال رأسه: «أيّ كولونيل؟».

«الكولونيل ك. أكس، المايسترو القديم، الكولونيل ساندز».

ارتشف مضيفه من الشاي. في حركته، أصابعه النحيفة الممسكة بالكوب، والجلد المترهل على حنجرته وهو يبتلع، بدا مسناً تماماً. «أيها الرقيب لا أستطيع أن أتذكر متى استضفت زائراً أبيض من قبل. لذا فأنت ضيف غير اعتيادي هنا. لكنني أظن أن طريقتك في مقاربة الأمور غريبة في أي مكان. هل لي أن أسألك: أكنت صديقاً للكولونيل؟».

«كنا مقربين جداً».

«أعني أكنت صديقاً له لا خصماً».

«فهمت، (من يتحرك هناك)، (إنه صديق)».

«بصحتك إذن».

«أين هو؟».

«الكولونيل توفي لسوء الحظ».

«لا أظن ذلك».

«بلى، هذا صحيح. منذ زمن طويل. أحدهم كان يجدر أن يخبرك قبل أن تبذل كل هذه الجهود».

«لا أظن ذلك».

«لا أستطيع أن أعرض عليك تغيير أفكارك. لكن صحيح أن الكولونيل توفي».

«هذا ما قالوه قبل سنوات. زوجته كانت تحصل على راتب الأرملة في بوسطن، في حين أنه كان معروفاً أنه يعيش هنا، ينشط في هذه النواحي».

«لم أعلم بذلك».

«أنا علمت. وأعرف أن الكولونيل لم يمت».

«فهمت. لم يمت».

«اللعنة لا».

«أتعرف هذا كحقيقة؟».

«اللعنة لا، لكنني أعرف الكولونيل جيداً. إنه ينفذ الخطة البديلة».

«وما هي الخطة البديلة؟».

«ترك نفسه يقع في الأسر في 1969، سمح بذلك يا رجل، كجزء من سيناريو العمليات النفسية، وإلى جميع الأكاذيب التي نتجت من هذه التغطية، لكنني أؤكد لك هذا الأمر: إنه ما زال يجعل الأمر أصعب قليلاً أن يكون المرء شيوعياً».

«وهذه هي الخطة البديلة».

«وهي ناجحة».

«هل شاركك هذه الخطة؟».

«لن تكون ناجحة لو شارك بها. إنها عرض رجل واحد».

«عرض رجل واحد»، ابتسم الرجل، «هذا هو الكولونيل باختصار».

«ماذا في سقيفتك؟».

قال الرجل: «تعرف أنه كان طياراً عندما عرفته في البداية. وإن ليس رسمياً. رسمياً كان مفصولاً من الخدمة».

أشعل ستورم سيجارة أخرى وأقفل قداحته الزيبو «أجل».

«هكذا كانوا يعملون حينذاك. جاء أفراد مجموعته كمدنيين متطوعين. لم تنضم

أمريكا فعلياً إلى الحرب ضدّ اليابان. لكن الملازم فعل: بعضكم أنتم الأمريكيون كنتم تقصفون اليابانيين قبل أن يضربوكم في بيرل هاربور».

«الحرب العالمية الثانية».

«بالنسبة إليكم أنتم اليانكس، كانت هذه أفضل الحروب. بالنسبة إليّ كانت أفضل الحروب هنا في مالايا، من 1952 إلى 1953. قاتلنا الشيوعيين وهزمناهم. كان الكولونيل فيها ومعنا على طول الدرب، بما في ذلك في عملية هيلزبي هنا في وادي بيلوم. أنا وهو هبطنا في هذا المكان معاً. ربما تسكع في غرفة معيشتي قبل أن تكون موجودة. ربما فعل ذلك أكثر من مرة. لا أذكر. أنا وهو كنا مع فرقة الاستطلاع طويلة المدى وخرجنا من إيبو[1] معاً – مئة وثلاثة أيام من الأوساخ وما شابه. مئة وثلاثة أيام من الركض. حينئذ تعرف الرجل. لو كان حياً، لكنت واثقاً من ذلك. وما كان ليضطر إلى أن ليخبرني. لا ضرورة لذلك عندما تعرف رجلاً».

كاد ستورم يصدق: «إذن ما الذي حدث له؟».

«أأنت تسعى وراء الأسطورة أم الحقيقة؟».

«أريد الحقيقة يا رجل».

«قد أجازف بالقول إن الحقيقة هي في الأسطورة».

«ماذا عن الوقائع إذن؟».

«غير متوافرة. مغلفة في الأسطورة».

«كم من الأغنيات تحفظ يا لعين؟ لأنني نفدت مني القطع المعدنية».

نهض الرجل: «دعني آخذك إلى مكان ما. تعال معي رجاء».

قاده الرجل على ضفاف الغدير وفوق الهضبة إلى حفرة مائية بين أيكة من الأشجار السامقة والكثير من النباتات، والضوء ينزل عبر وريقات «أذن الفيل»، بارداً معتماً. في الحفرة ثمة ثور مائي لا يبرز منه إلا منخريه. شاهد ستورم ومضيفه

(1) Ipo: مدينة في ماليزيا.

طفلين يملآن أربعة دلاء ويحملونها على نير. بدوا مذعورين. تكلم إليهما الرجل وأنهيا عملهما قبل أن يرحلا.

«هناك».

وراء الأيكة تماماً، مشرفاً على المنظر الطويل من الجبال، وضع الرجل قدمه على رابية من الأرض ويده على قائم يصل حدّ الخصر 4 × 4 بوصة.

«هنا يتمّ عرض الرجل الواحد».

أغمض ستورم عينيه وأخذ يتحسّس بحثاً في ذاته عن الحقيقة. لم يشعر بأي منها. «لم يحدث قط».

«يتمّ هنا».

«أتعرف كم من القبور المختلقة رأيت؟».

«لا يمكنني أن أخمّن».

«لقد أراني السفلة عظامه. وقد تذوقت رماده المزعوم يا رجل. لقد طبخت عشبه في ملعقة وحقنتها في ذراعي. هذه الأمور لا تمر عليّ. أنا المختبر يا رجل، كل نبض في دمي يقول لي إنه حيّ».

«قيل لي إنه مدفون في هذه الحفرة».

«إذا كان هذا قبره فهو لم يمت وقتذاك في فيتنام».

«صحيح بما فيه الكفاية، لو كان هذا قبره».

«أهو إذن؟ متى دفن؟ من دفنه؟ أأنت من دفنه؟».

«ليس أنا».

«من إذن؟».

«لا أعرف. قيل لي إنه توفي فجأة من دون تفسير. يؤسفني أن أقول إن أحدهم ربما سمّمه. هذا أحد الاحتمالات».

كذبة ضخمة. لكن من ملفقوها؟

«قابلتك مرة في سايغون. في 1967 أو 1968».

«لنرَ. في 67 أو 68، ممكن تماماً».

«أنت بيتشفورك».

«لدي الكثير من الأسماء».

«لا تراوغ هكذا. لقد التقيتك في سايغون. أنت صديق الكولونيل القديم. أنت الذي قدّمت له بيضة».

«بيضة».

«في معسكر الاعتقال، عندما كان جائعاً. أعطيته بيضة».

«أحقاً فعلت؟».

«قال إنك فعلت».

«إذن لابدّ من أنني فعلت».

«تبدو كما كنت. أأنت دائماً على حالك؟ لا تكبر. أأنت الشيطان؟».

«لا، أنت من يمارس لعبة».

«لا تريني أيّ قبور».

«إذن ماذا يمكنني أن أريك؟».

فقط الكولونيل الحي سيفي بالغرض. الكولونيل مدخناً السيجار الكوبي وبقية الترهات القديمة».

«هنا يرقد الكولونيل».

«إذن ما الذي تفعله هنا؟».

قال بيتشفورك: «أعتني بالقبر».

سواء أكان هذا قبر الكولونيل أم سواه، سواء أكان حياً أم متحللاً، فقد كانت هذه منطقته. وقد دخل ستورم إليها.

«أريد أن أرى هذه السقيفة».

ابتعدا عن القبر وعادا أعلى الهضبة. الشمس صفعت وجهيهما، لكن إلى الشرق، خلفهما، تشكلت الغيوم. قال ستورم: «يبدو أنها ستمطر».

«ليس في هذا الشهر. ليس أبداً في شهر أبريل».

«أرني داخل السقيفة».

كان ثمة لوح خشبي يسد الباب الخارجي. أنزل بيتشفورك الرتاج وتراجع إلى الخلف، فاتحاً الباب على وسعه. خطا ستورم إلى الداخل. في الضوء الخافت برز على الأرضية شيء طويل. لم يستطع تخيل ماهيته. ابتلع ريقه بصورة لا إرادية ومسموعة. وحش بلا أطراف. شاهد وجهه يبرز مثل صورة فوتوغرافية ويمضي سريعاً عبر تشابهات الكولونيل الزائفة.

فتح بيتشفورك الباب أوسع.

«ما هذا؟».

«جذع ماهاجوني».

«زند شجرة؟».

«زند ماهاجوني. أحتفظ بالحطب هنا. هذا آخر ما تبقى منه. حتى أحصل على المزيد.

نبي آخر زائف. كاشف آخر لعين.

استلّ ستورم سكينه وأمسك بخناق الرجل الخلف ووضع طرف السكين على خاصرته، بين أضلاعه، فوق كبده.

«أين الكولونيل».

«KIA».

«MIA»[1].

«لا، توفي».

شدّ الخناق أكثر «أيها اللعين، هل ستخبرني أم أقتلك. من حفر ذلك القبر؟».

«لا أعرف»، خرج صوته متحشرجاً كالضفدع.

«قل لي من أو أنني سأحفر قبرك».

(1) KIA: قتل خلال العمليات الحربية أو المعارك، وMIA فقد خلال العمليات الحربية أو المعارك.

لا أعرف من دفنه، وعندما تزهق روحي كما تقول، أيضاً لن أكون أعرف».

«ماذا تفعل هنا؟».

«سئمت من العالم».

«من أنت؟».

«أنديرز بيتشفورك».

«وصلت إلى مرحلة منذ زمن طويل لم يعد أحد منكم أيها السفلة يمكنه أن يكذب عليّ أكثر، لأنني صرت أنا من يوزع الأأكاذيب. نصف ترهاتكم خرج من مؤخرتي».

«إنه ميت».

«اسمع»، قال ستورم، وقلبه يتحطم، «يجب أن أخرج من هذه الآلة».

حرره ستورم. وارتمى بيتشفورك على التربة، فاتحاً وضاماً يديه من دون أن يلامس رقبته.

قال ستورم: «شككت في رحيلك معه».

«كنت لأفعل الأمر ذاته لو كنت في مكانك».

«وما هو مكاني».

«مجهول».

بعد دقيقة حاول الوقوف وأبعد ستورم سكينه وساعده على الوقوف.

«أتعرف إلى أي عمق هذا الرجل أحرقنا، يا رجل؟ إلى أيّ أعماق مضى الحرق».

«لا».

«بعمق الجحيم وهو حار ومظلم أيها الأخ».

«لا تناديني أخاً».

«لا تنكرني يا أخي».

اتجه بيتشفورك إلى البيت وشاهده ستورم يمضي. خرج يحمل بندقية مع مشط

قصير وذخيرة معدنية فتحها وهو يمشي. على بعد عشر خطوات توقف.

«أظن أنه واحد من رشاشات الحرب العالمية الثانية».

«أظن أنه أمي أي جاراند. أمور المظليين. الكثير من الناس قتلوا به».

«سمعت أنك كنت تقفز من الطائرات».

«أتعرف؟ في الحرب نفسها، قفزت من واحدة فحسب. الملازمساندز كان يحلق بالطائرة. كانت أول وآخر قفزة لي في تلك الحرب. وإن قمت ببعض القفزات مع كتيبة الاستطلاع هنا في الخمسينات». رفع البندقية وصوب نحو ستورم بحذر عن بعد عشرة أقدام، مثبتاً إصبعه على الزناد، «سوف ترحل الآن».

استدار ستورم وسار جنوباً نحو الدرب، عائداً من حيث أتى.

كان قد فكر في المضي قدماً حتى تايلندا، لكن القدر أعاده على أعقابه. في مكان ما على امتداد أوديسة السنوات فاوض على معبر من دون أن يتعرف حافظ المعبر أو يؤدي التحية الضرورية. لا تعرف هذه الأمور على حقيقتها حتى ما بعد العبور. ما بعد تحلل التباينات.

ما الذي بقي، ما الذي لم يفعله بعد؟

من رأس الدرب نظر إلى المسافات التي صعدها هذا اليوم وشهد كم قطع منها. مع انحدارها نزولاً غيوم بعد الظهر انتشرت كثيفة في الوادي.

لم يشعر بأي تعب، بل بالقوة والقيظ فحسب. اعتقد أنه سوف يصل إلى الأسفل قبل الغروب. عجّل. بسرعة صعوده، بسرعة انسحاب الضوء أعلى الجبل، ورأى قدره يمضي بالتوازي مع مصير الشمس.

عبر إلى الظل. الوادي استقرّ على لحظة ليست ضوءاً ولا عتمة. ومع هذا التغير صمتت الحيوانات. ثم بدأت ثانية، أول كورس للحشرات الليلة وطيور الغروب، مع وصوله إلى الأرض المستوية. ومع ذلك لم ير عامود دخان، لا النيران ترتفع من الروو.

وصل إلى البقعة عند النهر حيث أرسله مرشدوه الزائفون وسط سعادتهم لأنه سيفوت هذا الحدث المهم. من دون أن ينزع حذاءه رفع صرّته عالياً فوق رأسه وشق الماء.

لم يبدأ شيء نهائي بعد. على الأرض في جوار المحرقة الطويلة ارتعشت عشرات الشموع في قشور جوز الهند المقلوبة. ارتدى القرويون ثياباً ملونة نظيفة وبدوا منشغلين في أمور غير مهمة، داخلين إلى الأكواخ وخارجين منها، محافظين على الهدوء، مصفقين بإيقاعات بطيئة، إنما القليل منهم فحسب، ناقلين الإيقاع من هذا الزوج من الأيدي، إلى ذاك، من دون انخراط فعلي بعد، الشعيرة كانت تبدأ فحسب. ربما رأوه. ربما قرروا أنهم لم يروه. وقف الكاهن أمام المحرقة واضعاً عصابة رأس، وشعره مجدول في عقصات ومشكوك بالريش، حاملاً زجاجة مشروب غازي في كلتا يديه ومتكلماً إلى مهاتير. وقف الصبي معهما ومنفصلاً عنهما في آن.

شاهد مهاتير ستورم يأتي على طرف النهر ورفع يده. بدا الكاهن رابط الجأش، لكن مهاتير لم يعجبه ذلك. «الشعيرة ستبدأ بعد قليل»، قال.

قال ستورم: «أشعر بذلك».

«لم تذهب إلى تايلندا. لمَ؟ لمَ لم تبق مع صديقك؟».

«إذا لم تكن تعرف، فلا يمكنني إخبارك».

«لكن جيمي، هذه ليست فكرة جيدة بالنسبة إليك. هذا الرجل لديه ما يقوم به. أنا عالم، لذا بالطبع يمكنني المشاهدة. أما بالنسبة إليك فليست فكرة جيدة».

وقف الصبي متصلباً، مشدود الوجه، يتنفس بصعوبة. ولا واحد من الروو ينظر إليه.

بدأت الإناث بالتجمع، الصغيرات والطفلات المكسوات بالسارونغات، واضعات أحمر الشفاه، والخرز يتدلى من شعورهن. فتية صغار وقفوا خلفهن،

أرجلهم ثابتة في مواضعها، لكن أكتافهم تتحرك، تدب فيها الحماسة والصبيانية. سعداء جداً كونهم أحياء في أجسادهم، يقفزون في الأرجاء في ثياب العبيد. عبدة الشيء الحقيقي.

«أليس لديه ثوب خاص؟ أين زيه؟».

«لن يلبس شيئاً. سوف يكون عارياً».

«لا، لن يكون».

انضم ستورم إلى الإيقاع أولاً في داخله ثم مصفقاً بقوة ثم بقوة أكبر. شاهده الجميع من دون تأييد أو رفض. أومأ مهاتير بيده كأنما ليسكته.

وقف ستورم بجانب الصبي ورفع عقيرته متحدياً.

«أنا المعوض الحقيقي!».

استمر التصفيق، إلا أنه جذب اهتمامهم.

«أنا المعوض الحقيقي»، ووضع يديه على خاصرتيه وأحنى رأسه.

تكلم الكاهن مع مهاتير.

رفع ستورم وجهه: «قل له إنني هو. هذا الفتى دخيل».

«لن أقول له».

«قل للفتى إذن».

«لا أستطيع».

«يا رجل، لا فائدة إذا كان يفعل ذلك لقاء المال. عليك أن تقوم به من أجل الشيء يا رجل، الشيء. تحتاج إلى سبب. تحتاج إلى أن تأتي بك الإشارات والرسائل».

تكلم الكاهن بإلحاح إلى مهاتير، لكن مهاتير ظلّ صامتاً.

«أتريد أن تأخذ مكان هذا الرجل؟».

«هذا ليس مكان الفتى. إنه مكاني. لقد أرسلت». تكلم مباشرة إلى الكاهن، «اللعين لا يعرف ما يفعله. أعرف ماذا يفعل. أعرف أين يناسب، أين هو

حقيقي».

«لا يمكنني أن أقول له هذا. لا أعرف ماذا سيحدث. ربما نقتل».

«إنهم أناس لطفاء يا رجل، لطفاء، صح؟».

«أتفهم ما الذي تفعله؟ لا».

«سوف أنزل هذا الفتى المسكين عن حبل المشنقة».

«لا. أنت لا تفهم هذا».

«حسبتك مسلماً، أتؤمن بهذا الدجل؟».

«هنا في هذه المنطقة، حيث الأشجار طويلة جداً، حيث لا تصل السيارات، حيث لا أحد يأتي، هذه المنطقة مختلفة. الرب يتعامل معهم بطريقة مختلفة في هذه المنطقة».

«أجل، فهمت ذلك يا رجل، كنت أتساءل فحسب إذا كنت تفهمه».

دخن الكاهن بشراهة. الآن ردّ مهاتير طويلاً، وأصغى الكاهن حانياً رأسه، مومئاً برأسه، مقاطعاً من وقت لآخر.

تكلم الكاهن بإيجاز إلى الصبي، الذي أصغى دونما اعتراض، وفهم ستورم أن الزيف سيكشف.

«أيها الفتى، لقد جئت إلى هذا العمل من دون أن تحل أموراً معينة، في داخل نفسك».

«إنه يفعل ذلك لكي ينقذ عائلته».

«هو يحصل على المال. قله له ذلك. هو يأخذ المال. هاي، يا رجل، المال لك. لست أحاول التطفل على لعبة أيّ كان».

تكلم مهاتير إلى الصبي. خطا الصبي إلى الخلف خطوات عديدة، استدار واندفع عبر حلقة الفتيات وحلقة الفتية ووقف بعدها.

قال مهاتير: «لقد عرفت هذا. لا أؤمن بالخرافات. لكنه ليس من غير الاعتيادي رؤية المستقبل. الكثيرون يرونه. يحدث. وقد رأيت مستقبلك. حاولت أن أقول

لك».

وقف الكاهن بجانبه وصرخ بصوت مكتوم ووضع يده على رأس ستورم.

توقف التصفيق. امرأة عجوز أنّت. رفع ستورم ذراعيه عالياً وصاح: «أنا المعوّض، أيها السفلة، أنا المعوّض».

صفق الكاهن مرة. مرتين. ثانية ثم استأنف الإيقاع. وانضم إليه الآخرون.

اجتمع الرجال في حلقة ثالثة حولهم. أومأ الكاهن وتقدّم زعيم القبيلة إلى الدائرة مع ستورم والكاهن ومهاتير، وحمل فأساً.

يتطلب الأمر ما يتطلبه. وعد ستورم القوى.

تكلم الكاهن بصوت عال مع زعيم القبيلة.

«يقول له أن يجمعوا آلهة القرية».

رفع زعيم القبيلة يده وافترقت الحلقتان لتدخل عبرهما أربع من النسوة كل منهن تمسك طرف ملاءة. وضعنها أمام الكاهن، وإذا فيها مجموعة من التماثيل الخشبية المقطعة، معظمها لا يتجاوز حجمه اليد، وثمة منها ما يصل حجمه إلى نصف حجم عبدتهم من الروو. النسوة الأربع طرحن رؤوسهن إلى الخلف ورحن يزعقن كالأطفال مع انقضاض الزعيم على التماثيل بفأسه. بينما هو منكب على ذلك، على التماثيل كلها، والنسوة منحنيات لكي يجمعن الأشلاء ويضفنها إلى المحرقة. قال مهاتير: «إنهم يحطمون آلهتهم المنزلية ويرمونها في النيران لأن الآلهة لم تساعدهم. يجب أن تموت هذه الآلهة. قد ينتهي العالم بموت هذه الآلهة. التضحية بروح غريب قد تمنع نهاية العالم. سوف تنهض الآلهة الجديدة».

راقب ستورم المراقبين. وجوههم بالكاد ظاهرة على ضوء الشموع الكثيرة المنتشرة عشوائياً عند أقدامهم. لم تبد عليهم السعادة، ولا الحزن؛ لأفواه مفتوحة، الرؤوس تومئ وهم يصفقون، يصفقون، يبدون متأهبين في أرواحهم.

ثم وقف الكاهن بجانب زعيم القبيلة وتكلم بصوت عال.

«اذهب إلى هناك»، قال مهاتير لستورم، «سوف يقومون بتعريتك الآن».

سار ستورم إلى الكاهن وقال مهاتير، «فليكن الرب بعونك!».

أمسك الكاهن أشلاء الأيقونات. أحنى زعيم القبيلة رأسه وأشار إلى حذاء ستورم المهلهل. خلعه ستورم. أحنى الزعيم رأسه أكثر ولمس قدم ستورم وقرص جوربه. مستنداً على رأس الزعيم نزع ستورم جوربيه وعاود الوقوف مستقيماً. امرأتان شابتان تقدمتا وبدأتا تفكان أزراره وسحابه. فكر في إلقاء نكتة، إلا أنه ظلّ صامتاً. نزعتا حقيبة ظهره ثم قميصه وساعدتاه على خلع سرواله القصير وسرواله الداخلي وعادتا إلى الحلقة. استمر إيقاع التصفيق. كل الأيدي الآن. وقف ستورم عارياً.

مواجهاً ستورم مد الكاهن يده في طية القماشة التي يستر بها عورته، لكي يخرج قصاصة ورق مطوية فتحها وقربها من وجه ستورم – لم ير ستورم شيئاً عليهاـ وتكلم بصوت عال إلى الروو، وعرض الورقة ثانية أمام ستورم. تكلم إلى زعيم القبيلة.

نادى الزعيم. أحضر له رجل حربة.

تكلم الكاهن. ناوله الزعيم الحربة. شق الكاهن الورقة برأس الحربة، ثم تقدم إلى المحرقة، ومادًّاً الحربة أعلى ما يستطيع، واقفاً على أطراف أصابعه، وضع الورقة بين الحطب، وأخرجها من رأس الحربة.

«مهلاً»، قال ستورم.

أقعى نحو صرته ووجد دفتر ملحوظاته في كيس بلاستيكي. مزق الوقة الأخيرة وأعاد الدفتر إلى مكانه ووقف ماداً الورقة.

«إنها قصيدة صغيرة يا رجل».

اقترب الكاهن من ستورم ماداً رأس الحربة التي غرزها بالورقة وأخذها إلى المحرقة وجعلها جزءاً من الوقود المقدس.

جعل ستورم الأمر معلوماً: «التعويض، بايبي، التعويض الليلة».

تكلم القس بصوت عال ورمى حربته. أحنى ستورم رأسه.

الملاءة، التي لم تعد أكثر من مزق، امتدت شبه عارية من بقايا الآلهة. حمل الكاهن الأشلاء الأخيرة بين يديه. وجرّ الزعيم الملاءة بضعة أمتار عن المحرقة، في حين الروو يوسعون حلقتيهما مع فعله ذلك. قام بحذر بتسوية حوافها وتوقف لكي ينظر إلى السماء وكأنه يتحرك بهدي من نجوم خفية.

على صدره حمل الكاهن أشلاء الأيقونات. واقترب ليقف بقبالة ستورم.

تكلم ثانية وسمع ستورم صوت مهاتير من وراء حلقات الروو «انحن». ففعل ذلك. انحنى الكاهن أيضاً وتكلم بنعومة. وساعد زعيم القبيلة ستورم على التمدد على ظهره على الملاءة الممزقة. على بطن ستورم رمى الكاهن الأشلاء القليلة وصنع منها كومة صغيرة هناك.

تكلم، وسع ستورم مهاتير: «يريدك أن تعرف أن هذا مجرد رمز. نار على لحمك، لكنهم لن يشعلوها. لن تحرق جسدياً».

مختاراً لكي يعاني من الكفارة لأنه لم يبق أحد. متجاوزاً المناطق القصوى، الضوء في الخلف أقوى أو أخفت، لكنه غير كاف أبداً، لا شيء ينبئه، لا طريق إلى البيت. شخص واحد ينتظر أن يكشف على حقيقته.

الجميع أزال قناعه، كل وجه زائف قد تلاشى، كل لا تكلّف إلا واحداً، تكلفه.

أدار ستورم رأسه لكي يتبع الكاهن مع عودته إلى المحرقة، حيث انحنى لكي يحمل قنينة الشراب الغازي ويرشّ الوقود على الحافة. في الهواء انتشر عبق الديزل. أحضر الزعيم نصفي جوز الهند المتوهجتين وكل منهما استعمل شمعة لكي يشعل النيران.

بدأت النار خفيفة. ومع ارتفاعها في المحرقة، تصاعد إيقاع التصفيق. الخشب فرقع واندلعت منه ألسنة النيران. التهمت النيران القمة. ارتفعت صرخة. ومع بدء النار بالهدير، شعر ستورم بنسيم يتسارع على صدره العاري وسمع امرأة تصرخ مثل زوبعة. الكاهن صار يأتي ويروح عبر الحرارة القوية مغذياً الألسنة البرتقالية

بالنفط. هسسهت وتبخرت، وتنقل من جانب إلى آخر ملقياً ظلاً أزرق على الدخان.

من الأشجار المحيطة انبعث صوت سقوط شلال من الأيدي المصفقة ولعنات الشياطين التي ترمى في الفراغ.

صرخت المزيد من النسوة. صاح الرجال. الأدغال نفسها صاحت كجامع. تمدد ستورم عارياً على ظهره وشاهد الضباب والدخان المرتفع إلى الأعلى في ضوء النار الضخم وانتظر الضوء الواضح، الآلهة المسالمة، وجه الأب- الأم، الضوء من العوالم الستة، فجر ضوء الجحيم المدخن والضوء الأبيض للإله الثاني، الأشباح الجائعة التي تهيم في رغبة جائعة، آلهة المعرفة والآلهة المنتقمة، حكم إله الموت أمام مرآة الكارما، عقاب الشياطين، والرحلة إلى الملاذ في كهف الرحم الذي سيحمله ثانية إلى العالم.

قصيدته ارتفعت في رماد. تقول:

فييتنام

اشتريت نظارة «رايبان» من الشيطان
والولاعة كتب عليها تو دو بار 69
جعة باردة فتاة حارة أسف على ذلك الرئيس
الذي على الزيبو

عندما أرقد في قبري لا أريد السماء
أريد أن أضطجع هناك فحسب ناظراً إلى السماء

كل ما عليّ فعله هو رؤية السافلة
ليس عليك أن تضعني فيها

أديروا الغاز في قفصي
أشرب السم
أرسلوا قاتلاً في إثري
أشرب السم
شياطين ميتة في أحشائي
أشرب السم

أشرب السم أشرب السم
وما زلت أضحك.

كانت الريح شديدة، وشمس الأصيل دافئة تماماً، على الأقل بالنسبة إلى نهاية أبريل، على الأقل في منيابوليس. في يوم جاف جيد يمكنها المشي ربع ميل دونما انزعاج، تجلس وتستريح لدقيقة فحسب، ثم تعاود المشي المسافة نفسها قبل أن تستريح ثانية. تركت سيارتها في موقف سيارات، وعكازتها في السيارة وسارت ثلاثة أحياء إلى نهر المسيسيبي، وعبرت جسر المشاة. أحسّت في قدميها بارتعاش حركته مع مرور السيارات تحته. ألم في كلا ركبتيها. كانت تمشي بسرعة شديدة.

حين رأت فندق راديسون دخلت في شارع كيلوج لكي تعبر إليه، وكادت إحدى شاحنات نقل الأثاث، تصدمها، وداس السائق على الكوابح بقوة، لكنه لم يتمكن من التوقف، ماراً بها عن كثب شديد إلى درجة أنها لنصف ثانية من الزمن

لم تر سوى الأحرف الحمراء على جانب الشاحنة. قفزت إلى الخلف، وأخذ الدم يغلي في شرايينها، كادت تموت هذه المرة.

كانت قد أوقعت حقيبة يدها في المزراب. وإذ هبطت على مهل على ركبة واحدة في بزتها البوليستر، تذكرت فجأة ذلم الوقت عندما لم يكن يهمها ولو جزئياً السؤال عن نجاتها. ذلك الوقت المجيد.

كانت جينجر في انتظارها وراء باب المقهى بين أصص من نبات السرخس. إحدى تلك النسوة التي يناديها الجميع ماما، وإن لم يكن سنها يزيد عن الآخرين. كم مضى من الوقت منذ ذلك الحين؟ خمسة عشر عاماً، ستة عشر. منذ سافر تيموثي إلى الفلبين، وتبعته كاثي. جينجر أقامت على الأرجح في أنحاء منيابوليس لنصف عقد من الزمن - كلتاهما أقامتا هناك، لكنهما لم تتجشما عناء الاتصال يوماً.

«أما زال بإمكاني مناداتك ماما؟».

«كاثي!».

«يجب أن أجلس».

«أأنت بخير؟».

«كادت شاحنة تصدمني. وقد أوقعت حقيبتي».

«الآن... لكنك بخير».

«فقط مقطوعة النفس».

نظرت جينجر حولها، منتظرة أن يخبرها أحدهم أين تجلس. لقد كسبت ثلاثين باونداً.

قالت كاثي: «كنت لأعرفك في أي مكان».

«أوه»، قالت جينجر.

«حسناً، لا أحد يصغر في السن. ما الذي أقوله! كل ما في الأمر أنه من الجميل رؤيتك و...»، جهد الكذب لوى قسمات وجهها. استسلمت.

«إنني أسوأ قليلاً فيما خص الملابس».

«ليس المكان مزدحماً البتة. الأحد».

«ماذا عن ذلك المكان هناك؟».

«عند النافذة! لا منظر، لكن على الأقل...».

«لدي زهاء نصف ساعة».

«على الأقل ثمة ضوء. أعني ثمة منظر»، قالت جينجر، «لكن كل ما نراه حركة السيارات».

«عليّ أن أدلي بخطاب».

«خطاب؟ أين؟».

«أو بعض التعليقات. ثمة حفل خطابي في المبنى المجاور».

«أين في المبنى المجاور؟».

«في فندق راديسون. في إحدى قاعات المؤتمرات».

«حفل، تعنين موسيقى بيانو وما شابه؟».

«أتمنى أن تكون لديهم قهوة بلا كافيين».

«الجميع لديهم هذه القهوة اليوم».

طلبتا قهوة بلا كافيين، وطلبت جينجر لفافات القرفة وفوراً عاودت طلب النادلة لكي تلغيها. سكبت النادلة القهوة من إبريق زجاجي وأحضرتها في فنجانين. «إن لم تمانعي»، قالت لها كاثي، «أيمكنني الحصول على بعض الحليب الطازج؟».

«سوف يأتي»، قالت، وذهبت، ولم ترياها ثانية.

«أيّ نوع من الحفل هو؟».

«لا أعرف، يعود ريعه لجمعية (ماكميلان هاوسس). من أجل يتامى فييتنام. وهكذا وضعت على اللائحة الختامية».

«أوه، حسناً، هل حضرت خطاباً؟».

«ليس حقاً، مجرد رؤوس أقلام، شيء من قبيل شكراً على المال، والآن أعطونا المزيد».

«الخطاب الأبدي».

«لذا أعتذر لأننا لن نتمكن من تناول غداء مناسب».

«لأا مشكلة. سوف أشاهد مسرحية على الضفة الأخرى من النهر مع جون. مسرحية موسيقية، صوت الموسيقى».

«أوه، هذه مسرحية جيدة».

«أجل، أجل».

«لقد شاهدت الفيلم».

«لكنني لطالما ظننت أن العنوان سخيف»، قالت جينجر، «لأن الموسيقى أصلاً صوت، صح؟ كان يمكن أن يسموها الموسيقى فحسب».

«لم أفكر في هذا الأمر».

حقيبة يد جينجر، صغيرة من الجلد البني الناعم، استراحت قرب فنجان قهوتها، على الطاولة. فتحتها وسلمت كاثي الرسالة «أعتذر كثيراً على هذه، كاثي؟».

«لا داعي، لماذا؟ لا أرى سبباً».

«لقد ذهبت إلى مكتب أوتاوا وجلست هناك أسبوعاً. وجده كولن رابابورت...».

«إذن ما زلت مع منظمة الطفولة العالمية».

«ما زلت؟ إلى الأبد».

«ما أخبار كولن؟».

«أظن أنه بخير، لكننا لا نتصل ببعضنا، ليس حقاً. لقد تذكر أنك رجعت إلى منيابوليس ومن دون أن يتصل أو ما شابه أرسل الرسالة فحسب إلى مكتبنا. أعتقد أنه حاول العثور على رقم هاتفك ولم يحالفه الحظ. وجد الكثير من اسم كاثي

جونز، لكنه لم يعلم اسمك بعد الزواج. أما زلت متزوجة».

«ما زلت. إنه طبيب».

«يعمل لحسابه؟».

«لا، يعمل في الطوارئ، مستشفى سانت لوقا».

«أظن أن هذا يتغلب على كندا».

«لِمَ؟».

«لا أعرف. أعني الطب الاشتراكي، لكنني لا أعرف. لا أعرف عمّ أتكلم!... ما اسمك العائلي؟».

«بنفوينتو. ماذا عنك؟ أما زلت مع جون؟».

«اجل، لا أظن ثمة تغيير في ذلك».

«رهيب! السؤال عن زوج أحدهم والقول: أما زلتما معاً».

«زوجك ليس من الأدفنتست».

«كارلوس؟ لا. إنه مهتم بالعلم فقط».

«أوه كارلوس. بنفوينتو».

«إنه أرجنتيني».

«ما موقفه، أعني دينياً».

«إنه مهتم بالعلم. لا أبعاد روحية على الإطلاق».

«لم أرك في الكنيسة قط.. أي كنيسة ترتادين؟ أعني...».

«ما عدت أذهب».

صمت مؤلم. كاثي لاحظت عدداً من اللوحات على الجدران، فن تجريدي. كان هذا مقهى فنياً.

«هل فقدت إيمانك؟».

«أظن ذلك».

ما زال لجينجر تلك التقاسيم الملتوية على وجهها، المظلل بالخوف، لطالما بدت

قلقة ودفاعية، على حافة أن تطفر من عينيها دموع الإحساس بالذنب، دائماً يبدو أنها ستعترف أنها تكره نفسها - انطباع خاطئ، إذ لطالما كانت صديقة للجميع. «ربما لم تفقدي إيمانك يا كاثي. ربما ليس تماماً. يقول قسنا إن الروح الأكثر صحة هي روح الإنسان الذي كان في أمكنة جافة. لكن حتى في الأمكنة الجافة، تستطيع الكنيسة مدّ يد العون. لا سيما في الأمكنة الجافة، ألا توافقينني الرأي؟ لم لا نذهب السبت المقبل معاً؟ تعالي معي». كان وجهها رائع في حقيقة الأمر، يرتفع ويهبط، يأخذك معه».

«لقد مضت سنوات يا جينجر. لا أشعر بالدافع فحسب».

«تعالي على أية حال».

«أظن أنني لن أشعر به يوماً. ذهبت فقط كرمى لتيموثي».

«تيموثي شعر بالدافع قطعاً! كان يشعّ منه. كان يكتنف كل من حوله ويرفعنا عالياً كالموج».

«أعرف»، قالت كاثي، «على أية حال...».

على الطاولة المجاورة جلست عجوز وامرأة أخرى في منتصف العمر، افترضت كاثي أنهما أم وابنتها؛ العجوز تتكلم بصوت رتيب، والابنة تصغي بصمت مفعم بالمقت. كاثي سمعت كلمات: «و... ولكن... إذن...».

«حسناً»، قالت جينجر، مشيرة إلى الرسالة في طبق كاثي، «إذن أرسلها كولن إلى سانت بول، وما زلت في سانت بول».

«أنا في منيابوليس».

«منذ متى وأنت تعلمين في معهد تمريض؟».

«أربع، لا خمس سنوات... منذ العام 77. خمس سنوات في أكتوبر الماضي».

«أكان صديقاً لك؟».

«من؟».

«بينيت؟».

«أوه!».

المغلف الأبيض، منتفخ بما بدا أنه عدة صفحات، زاويته اليمنى مغطاة بعدة صفوف من الطوابع البريدية، من دبليو أم بينيت، سجن بودو، كوالا لامبور، ماليزيا. فتحته بحذر. قصاصة صحيفة: صورة رجل في الأصفاد. أليس هذا الكندي، وليام فرانش بينيت، الذي حكم عليه مؤخراً من قبل المحاكم الماليزية؟ حكم بالإعدام شنقاً بتهمة الاتجار بالسلاح؟ كندا احتجت على الحكم. ثم شنق. السجين كتب لها، الرجل المدان، وها هي الرسالة. السجناء لديهم الكثير من العناوين، أي نوع من المنظمات الخيرية، أي بصيص أمل بالنسبة إلى رجل ساقط، لكن كيف وصلت الرسالة باسم كاثي جونز؟ تكونت الرسالة من العديد - الكثير - من الصفحات المكتوبة بخط اليد المطوية فوق صور مقاس 4 × 6 بوصة: عشرات الناس وحقائبهم العجيبة تحيط بحافلة فلبينية صغيرة نزعت إحدى عجلاتها الخلفية. كل الوجوه تبتسم، وكل صدر يرتفع فخراً، وكأنهم أسروا الحافلة في الحرب.

«كان يا ما كان»، بدأت الرسالة...

عزيزتي كاثي جونز،

عزيزتي كاثي،

تدفق الدم سريعاً في أطرافها ووجهها وكأنها غطستها بالمياه الحارة: الإحساس نفسه الذي انتابها قبل عشرين دقيقة عندما كادت شاحنة أن تصدمها.

كان يا ما كان حرب

وضعت الرسالة على الطاولة. أجالت نظرها حولها.

«أأنت بخير؟».

رفعت الصفحات وطوتها حول الصور.

«أهي أخبار سيئة؟».

«ماما».

«أجل».

«أتذكرين تيموثي؟».

«ماذا؟».

«أتذكرين تيموثي؟ أعني أتذكرينه جيداً؟».

«بالطبع، أجل»، قالت جينجر، «كثيراً ما أفكر به. لقد غيّرتني معرفته. لقد شكّل فرقاً في حياتي. هذا ما كنت أقوله قبل قليل. لقد شكّل فرقاً فعلاً».

«ما عدت أصادف أحداً يعرفه».

«أردت أن أعزيك بشأن تيموثي. كتبت لك بعد موته مباشرة، لكن ها نحن شخصياً معاً، وقد مضى وقت، أعرف، كل هذه السنوات، ولكن...».

«شكراً لك».

«كان إنساناً رائعاً».

«لا ذكريات لي عنه».

«أوه».

«كانت الذكريات تأتي كلسعات النحل، تؤلم، من العدم، لكنها ما عادت تأتي. لكن أحياناً ينتابني هذا الإحساس، هذا الإحساس الملحّ».

«أفهم، أو لا... لا أفهم».

«هذه القبضة تمسك بي من قلبي فحسب وتجرني مثل كلب قائلة لي: هيا، هيا...».

«أظن أن هذا... هذا... حسناً، مفهوم، على نحو ما، و...».

«لا أعرفك معرفة وثيقة لكي أتكلم على هذا النحو، صح؟».

«كاثي لا! أعني، أجل...».

«اعذريني»، قالت كاثي.

«طبعاً، طبعاً، طبعاً».

شاقة طريقها إلى حمام السيدات، وضعت حقيبتها أمام إحدى المغاسل ورشت وجهها بالماء، الحمد لله أنها لا تستعمل الماكياج. نظرت في المرآة. بعض الكتابة الجرافيتية على البلاط بجانب قلم الماجيك:

طفل كهربائي

في

مرح سيء

كانت رائحة الحمام مقرفة. في فييتنام الدم والفضلات كانت تنتشر في كل مكان، لكنه كله كان ينتمي إلى الرب، إلى القذارة غير الشخصية التي تخصّ الرب. هنا في الحمام العمومي، شمت روائح نسوة أخريات، وكانت غريبة.

حبست نفسها في حمام وجلست واضعة الرسالة في حضنها. أن تقرأها أقل ما يمكنها فعله. شاعرة بغثيان في حلقها، فتحت الصفحات.

1 أبريل، 1983

عزيزتي كاثي جونز،

عزيزتي كاثي،

كاثي الأعز،

كان يا مكان ثمة حرب.

كان ثمة حرب في آسيا، وكان من ضمن مآسيها حقيقة أنها تبعت الحرب العالمية الثانية، حرب عصرية تمكنت على نحو ما من استعادة أو إحياء بعض أمجاد الحروب السابقة وقصصها. بيد أن هذه الحرب أخفقت في تقديم أي قصص

خارج الخرافات الجحيمية.

بين السكان الذين سيشوهون دونما تمييز - حتى، أو خاصة، دون تمييز من قبل أنفسهم، كان ثمة أرملة كندية شابة، وشاب أمريكي كان يحسب نفسه الأمريكي الصامت ثم الأمريكي البشع، والذي تمنى ألا يكون أياً من الاثنين، الذي أراد أن يكون الأمريكي الحكيم أو الأمريكي الطيب، لكنه الذي بالنتيجة شهد نفسه بوصفه الأمريكي الحقيقي وأخيراً بالبساطة نفسها الأمريكي اللعين.

هذا أنا. اسمي وليام بينيت. أنت تعرفينني باسم سكيب. التقينا المرة الأخيرة في كاو كوين، في فييتنام الجنوبية، ما زال لديّ الشارب.

بعد مغادرتي فييتنام توقفت عن العمل لصالح المجرمين العمالقة، الذين عملت لصالحهم خدمتهم، عندما عرفتك، وبدأت أعمل لصالح المجرمين متوسطي الحجم. ساعات سيئة ولا فوائد هامشية، لكن الأخلاقيات أوضح. والمخاطر واضحة. تزدهرين حتى يلقى القبض عليك. ثم تفقدين كل شيء.

إذن، ما هو مجال عملي؟ هذا وذاك: التهريب، السلاح وما شابه. ذات مرة سرقت شحنة كاملة وبعتها في الصين. شاحنة (لا يمكنني أن أخبرك في أي مدينة بعتها، لأن أحدهم المأمور العزيز المحبوب شافي يقرأ البريد على الأرجح قبل إرساله)، كان مجال عملي غالباً في تهريب السلاح.

هذا ما أوصلني إلى السجن هنا في كوالا لامبور. إنها عاصمة الجريمة في ماليزيا، صممت هكذا من قبل الحكومة نفسها التي تشتري السلاح من أمريكا. إننا الزمرة نفسها، ولكن، أحب أن أقول، من جهتي من الموضوع، إن الأخلاقيات أوضح. أو كما قال أحدهم لأحدهم، لدي سفينة واحدة ويسمونني قرصانا، لديك أسطول من السفن ويسموك إمبراطوراً. لا أذكر من قال ذلك.

لكي أختصر القصة الطويلة، منذ الأيام التي عرفتني بها باسم بينيت، عشت تحت عشرات الأسماء المستعارة، ولا واحد منها من إصدار الحكومة. عشت حياة مرح وسمر، حياة مغامرات حقيقية، ولم أتوقع مرة أن تستمر طويلاً جداً.

عندما أرحل، وهذا ما سيحدث قريباً، لن أكون نادماً، ولن يكون لديّ أسف. على أية حال، مثلما كان يقول عمي، إن المغامرة لا تكون مسلية البتة حتى تنتهي. أم تراك أنت من قلت لي ذلك؟ على أية حال، هذه المغامرة قد انتهت، وبعض ما أقوله هو جزء من واجهة زائفة، القليل من التبجّح، لكنه صحيح في معظمه. في حقيقة الامر، إذا وصلتك هذه الرسالة يوماً، يؤسفني أن أعلمك أنهم قد شنقوني أعدموني. على أحدهم أن يقرر بصورة نهائية، أهو شنق، أم إعدام؟

لدي زوجة امرأة تزوجت منها مدنياً وثلاثة أولاد في سيبو سيتي، في الفلبين. لقد حدث ذلك فحسب. أظن أنها كانت لتقول الشيء نفسه. لكن أظن أنني أحب الأولاد. إنهم مراهقون، أولاد جميلون. لم أرهم منذ مدة. لقد صارت سيبو سيتي حارة قليلاً عليّ، بمعنى تطبيق القانون، وهي رفضت الانتقال إلى مانيلا. تحب عائلتها الممتدة وما إلى ذلك، لم تستطع تركهم. اسمها كورا أن جي.

إذا كنت تتمتعين بأي حسّ منطقي فإن أيام سفرك يفترض أن تكون قد انتهت، ولكن إذا حدث وذهبت إلى هناك، توقفي في متجر أن جي فاين ستور قرب الميناء واسألي عن كورا ومري للسلام عليها.

يقول لي المأمور أن القنصل الكندي سيأتي اليوم ويمكنني أن أمرر معه أي رسائل أو بريد. أنا والقنصل يكره واحدنا الآخر ولا أسمح له فعلياً بزيارتي، لكنه مضطر إلى الزيارة على أية حال، خاصة في «الأيام الأخيرة» هنا، فقط لكي يحتفظ بالمظاهر أمام الصحافة، أفترض إذن أن ترسل الرسالة يوم غد، وهذه مجرد مرحبا ووداعاً من (آمل، آمل) صديق قديم.

إنهم يسجنونني هنا منذ الثاني عشر من أغسطس. اليوم الأول من أبريل، كذبة أول نيسان، يوم مناسب لإنهاء الفشل الطويل، إلا أن إعدامي مبرمج عملياً للسادس من أبريل. انتظرت كل هذه المدة حتى أكتب، لكي لا يتسنى لي الوقت لأجلس وأفكر إذا كنت سأراسلك، متسائلاً إذا ما كنت ستردّين.

لقد تناولت الغداء تواً، والآن سأبدأ صوماً يستمر ستة أيام وأذهب إلى حبل

المشنقة متغذياً بالروح فحسب. إذن ما كانت آخر وجبة للمحكوم، كالعادة الأرز مع نوع ما من حساء السمك، ولفافتان من الخبز. بالصحة والعافية.

كاثي، أعتقد أنني أحببتك. لم يحدث هذا مع أي امرأى أخرى. آخذ ذكراك معي. ولك مني الامتنان في المقابل.

مع الحب

سكيب

2 أبريل

جاء المأمور ليلة أمس لكي يهديني إلى المسيح ويأخذ بريدي لكنني لم أعطه هذه الرسالة، أحسب أنني سأنتظر بضعة أيام. أعتقد أنني أكره...

أحدهم دخل إلى الحمام. تعرفت صوت العجوز الجالسة إلى الطاولة المجاورة.

«هل قال إيوجين مِمَ مات ولده؟».

«لم يكن لإيوجين ولد يوماً».

«نوبة قلبية؟».

بابا الحمام فتحا وأقفلا.

نظرت كاثي إلى ساعتها. لقد تأخرت. وضعت الرسالة في حقيبتها ونهضت ومرت بالمرأة العجوز التي وقفت أمام المرآة تحملق في الأرض.

عادت وجدت جينجر واعتذرت لها وغادرت.

ذهبت إلى فندق «راديسون ريفرفرونت»، الباب الأول عند الناصية، وفي ردهة الاستقبال بحثت عنْ الحدث الخاص بـ «ماكميلان هاوسس». فهمت أن الأمر متعلق بشيء للشابات أو عنهن، ولذلك كان ثمة الكثير منهن حاضرات في الردهة – يافعات جداً، في الثانية والثالثة عشرة، كلهن جميلات، حيويات

وطائشات، يضعن ماكياجاً ثقيلاً كأنما للمسرح، وعيوبهن بدت جلية بهذا التأكيد على جمالهن - أحذية عالية الكعوب، خصور واطئة، أفخاذ محمرة تحت تنانير قصيرة، على الأرجح بسبب شدة البرد.

متتبعة إشارات شارة من النحاس عند المصعد، مرت بردهة ثم نزولاً إلى رواق طويل، في نهايته إلى طاولة، جلست امرأة واضعة أمامها صندوقي أحذية. من باب القاعة المزدوج المفتوح جاء صوت أحدهم في مكبّر الصوت وهو يقرأ يقرأ خطاباً معدّاً.

«أأنت هنا من أجل عرض الأزياء الخاص بماكميلان؟».

«جيد أنا في المكان المناسب».

«ألف إلى ياء، أم لام إلى ياء؟».

«أظن أنني أبحث عن السيدة راند. يفترض بي إلقاء كلمة».

«حسناً... السيدة كيوج في الأسفل».

«لا أظن أنني أعرف السيدة كيوج، أظن أنني تعاملت مع السيدة راند».

«السيدة راند على المنصة».

«أتعتقدين أنني أستطيع الدخول والجلوس؟».

قالت المرأة: «أوه»، بدا أن الفكرة أصابتها من الزاوية الخطأ. «ستكون هناك استراحة».

«أو ربما أستطيع ملاقاتها على الاستراحة. سوف أجلس هناك فحسب». ما عدا كرسي المرأة وطاولتها، كانت تلك الفسحة خالية من الأثاث. «أو سأنتظر في ردهة الاستقبال. سأحاول العودة بعد دقائق قليلة».

إذا كان يناسبك. إن لم يكن لديك مانع. أنا آسفة...».

«لا»، قالت بتسامح، وجهها يتضرّج حمرة «لقد تأخرت، أنا آسفة جداً».

في الردهة جلست على كرسي منجد بجلد بني ومسامير نحاسية وفتحت حقيبة يدها.

2 أبريل

جاء المأمور ليلة أمس لكي يهديني إلى المسيح ويأخذ بريدي لكنني لم أعطه هذه الرسالة، أحسب أنني سأنتظر بضعة أيام. أعتقد أنني أكره الوداع. لم أهتد إلى المسيح أيضاً.

ذات يوم حسبت أنني يوضاس. لكن هذا ليس أنا على الإطلاق. أنا الشاب في قرية جشيماني، ذلك الذي كان موجوداً في الليلة التي أسروا فيها يسوع، الرجل الخسيس الذي انسل من ثيابه عندما أمسك به الحشد، و«هرب منهم عرياناً»[1].

أظن أنك مهتمة بمفهوم الجحيم. أتذكرك كخبيرة في ذلك. دائرة الجحيم التاسعة عند دانتي هي للخونة.

للأهل والأقارب
للوطن والقضية
للضيوف
للأسياد والخيّرين
خنت أهلي بسبب ولائي لأسيادي
وأسيادي بسبب ولائي لوطني
ووطني بسبب ولائي لأهلي

جريمتي كانت التفكير في هذه الأمور. في إقناعي نفسي أنني أستطيع أن أكون حكماً بين ولاءاتي الخاصة.

في نهاية تبديل الولاءات، خنت كل ما آمنت به.

(1) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل مرقس، 14: 52.

يجب أن أكبح نفسي عن كتابة كل تفصيل صغير. أشعر أنني أستطيع تسجيل كل فكرة صغيرة ووأصف كل جزيئية في هذه الزنزانة وكل لحظة في حياتي. ولديّ الكثير من الوقت. لديّ الوقت بطوله. إنما القليل من الورق، وربما القليل من وقتك. إنما الكثير من الورق فحسب، والكثير من الإيمان بصبرك لذا، سأكبح أفكاري.

3 أبريل

هذا الصباح شنقوا أو علقوا أو بكلمات أخرى أعدموا رجلاً، رئيس عصابة صينية ما. فعلوا ذلك في الفناء هنا في السجن، في سجن بودو، ليس بعيداً عن وسط كوالا لامبور، على بعد نحو مئة ياردة من حيث أجلس، لكنني لا أستطيع أن أرى المشنقة من هذه الزنزانة. نزلاء الزنازين المقابلة من الممشى يرون كل شيء. أما المدانون فلا. يضعوننا في الجانب الآخر من المبنى. إذا حشرت نفسي في قضبان نافذتي أستطيع أرى أسطح البيوت المقابلة في الشارع. المرة الأولى التي سأنظر فيها إلى حبل المشنقة ستكون الأخيرة.

ثمة ضرب بالعصا، هذه العقوبة الأولية، لكننا لا نسمع أيّ صراخ. على الأقل أنا لم أسمع. الشاب هذا الصباح كان الرابع الذي يعدم منذ وصلت إلى هنا في أغسطس الماضي. أعتقد أنه استحق ذلك، حتى الضرب بالعصا. هذه العصابات الصينية، شريرة، شريرة وشرسة.

ربما كنت أغطي على خوفي. لا أقصد أن أبدو مجنوناً، أو ربما أقصد ذلك، بسبب توتري فحسب، لكنني لا أريدك أن تظني أنني ذاهب إلى حبل المشنقة بموقف جنوني. بعد ثلاثة أيام ينتهي الأمر. أموت. بمعدة خاوية. لا وجبة أخيرة، بل صلاة غير مؤمن. إذا كنت ما زلت مؤمنة يا كاثي صلي من أجلي، صلي من أجلي إذا كنت ما زلت تؤمنين.

4 أبريل

في فييتنام الجنوبية ظننت أنه جرى وضعي جانباً. نقلت إلى مكان أستطيع التفكير فيه في الحرب. لكن لا يمكن وضعك جانباً في الحرب، وفي الحرب عليك ألا تفكري البتة. الحرب هي الحركة أو الموت. الحرب هي الحركة أو الجبن. الحرب هي الحركة أو الخيانة. الحرب هي الحركة أو الفرار. هل تفهمين الفكرة هنا. الحرب هي الحركة. التفكير يؤدي إلى الخيانة. قال لي عمي مرة إنه رأى جندياً يرمي نفسه على قنبلة يدوية. أتظنين أن هذا الشاب فكر في الأمر أولاً؟ لا، الشجاعة هي الحركة. التفكير جبن.

عاش الجندي. كانت القنبلة معطلة. أراهن أنه فكر في ذلك لاحقاً، وكثيراً. بين الأشخاص الذين كان سينقذهم، لو أن القنبلة انفجرت فيه، هو عمي. عمي فرانسيس نجا تلك الليلة، لكن الحرب أخذته تدريجياً. عبر السنوات سمعت شائعات تفيد بالعكس، لكنه كان من نوع البشر الذين يولدون الشائعات، العم فرانسيس الحميم. رجل لديه ثلاثة قبور على الأقل سمعت بها، وعلى الأرجح أكثر، لو أنني اهتممت بالسؤال هنا وهناك. لكنني أعرف أنه ميت ومدفون في ماستشوستس.

أنا إرث عمي. بعد موته، تقمصتني روحه. لم يمت بعد فترة طويلة من مقابلتي لك كاثي. بعد أشهر قليلة من ذلك على ما أظن.

أظن أنك التقيته مرة. سميته بدائياً. كان أحد أولئك الرجال الذين يبدون مكونين من صخور صغيرة، وأكبر صخرة في الوسط. كان له قصة شعر رمادية مسطحة. أتتذكرين قصات الشعر تلك؟ أتتذكرين عمي؟ كان نوعاً ما لا يُغتفر. اعتاد أن يقول، من الأسهل الحصول على الغفران من الحصول على الإذن. لا تدققي في فرصك. ليس ما تفعلينه هو ما تندمين عليه، بل ما لا تفعلينه، أشياء من هذا القبيل. توفي، وروحه تقمصتني. كان ثمة تشكيك في أنه مات حقاً، لكن

ليس من طرفي. إذا كان بأية حال من الأحوال ما زال حياً لما كانت تقمصتني روحه.

أرجوك لا تحسبينني أغدو ميتافيزيقياً هنا. عندما يموت شخص قريب منك أظن أنها تجربة عامة كثيراً، أن تبدأي بالتفكير كيف أثروا فيك وربما أن تبدأي بتشجيع تلك التأثيرات على الازدهار. إذن فإن معلمينا يعيشون في دواخلنا. هذا كل ما أقوله. لا أقصد الاستحواذ من قبل روح سلالية أو ما شابه.

5 أبريل

هذا يستثني الرب.

إنني قريب بصورة خطرة من رفض الغفران. أموت سادراً بسبب غضبي من نفسي. أموت من دون صلاة. لقد عشت أربعة عشر عاماً من دون صلاة. أربعة عشر عاماً أتجه إلى الطرف المقابل من الشارع كلما فكرت أن ظلي في خطر السقوط على جدار كنيسة.

أعرف أنك إذا صليت لي

فإن صلواتك ستلامس الرب

والرب سيلامس قلبي

وسوف أتوب

أظن أنني انجذبت إليك لأنك كنت أرملة، مثل أمي. ابن أرملة، وعشيق أخرى. لقد أخفتني. شغفك وإيمانك. حزنك ومأساتك. أمي فعلت ذلك أيضاً، إنما بصورة متحفظة ومقنّعة. لذا فررت منكما أنتما الاثنتان. ثم لم أرد على رسائلك. وها نحن ذا. رسالة مني لن تتمكني قط من الإجابة عليها.

حسناً...

حسناً، كاثي جونز. مأمورنا الصغير المضحك يقف هنا منتظراً هذه الرسالة. آخر فرصة لقطار البريد. يوم غد أرحل.

أيها المأمور إذا كنت تقرأ هذا أوريفوار.

أنت أيضاً. أوريفوار كاثي جونز.

لو اضطررت إلى فعل ذلك ثانية لما هربت.

كل حبي

سكيب

أجل تذكرت العم. كان مثيراً للإعجاب للوهلة الأولى. بطولياً، كلمة ما كانت لتستعملها قط، هي أول وصف خطر لها. خطر، إنما ليس على النسوة والأطفال. ذلك النوع من الرجال.

سكيب لم تتذكره تقريباً بالقدر نفسه. صبي أكثر منه رجلاً. كان يمزح، يراوغ، يتظاهر، يكذب، لم يقدم لك ما تتذكرينه. هذه الطريقة التي قدم بها نفسه الآن – وإن كانت قد أثّر بها، فلم تكن واثقة من أنها صدقتها.

نظرت ثانية إلى الصورة، عشرات الفلبينيين، يحيطون بالحافلة المتوقفة، وشعرت بالتأثر الشديد – أكثر من تأثرها بالصورة الخبرية عن سكيب، الوجه الشاحب المبقع وعجرفته المعوقة وإشفاقه على الذات، أكثر مما لو أرسل من أيام دامولوج صورة عن نفسه، أو عنها، أو عنهما معاً.

أعادت كل شيء إلى حقيبة يدها وجلست مغمضة العينين. بالكاد تذكرت أنها قالت وداعاً لجينجر. أكانت غير لطيفة.

«أأنت السيدة بنفوينتو؟».

كانت المرأة التي تتولى أمر التذاكر، ليست أطول وهي واقفة مما وهي جالسة.

«أجل».

«أنا آسفة، لم أنتبه».

«لا بأس».

«الآن فترة الاستراحة. السيدة راند على الأرجح في القبو. في حجرات تبديل الملابس».

«سوف آتي فوراً».

مشت كاثي في الممر المنحدر، رواق تتردد فيه الأصداء، متذكرة أفلام العصابات والميل الأخير[1]، وأوصلتها المرأة إلى باب ليس بعيداً عن الأبواب الكبيرة المؤدية إلى القاعة ثم نزولاً على سلم. كانت الجدران ترتعش، وعارضات أزياء صغيرات يتسابقن هنا وهناك بأجسادهن المسرورة، صماوات الآذان على راعيتهن التي أخذت تطلردهن قائلة: «يا بنات؟ يا بنات؟ يا بنات؟ يا بنات؟»، وذلك مع دخول كاثي حجرة واسعة منخفضة السقف. عارضات أزياء جميلات يتموضعن. أضواء فلاشات. الفتيات أنفسن يبرزن داخلات وخارجات من أكشاك مصنوعة من مقسمات حجرات متحركة.

«سيدة كيوج»، نادت مرافقتها، ولوحت معلمة الفتيات وجاءت نحوهما «هذه السيدة بنفوينتو».

«أعتذر على تأخري».

«كلنا تأخرنا، أنا مسرورة لأنك تمكنت من الحضور. سوف أخبر السيدة راند. إذا رغبت بالجلوس بين الجمهور - هل يناسبك ذلك؟ - إذا انتظرت فحسب على مقعد، سوف تناديك إلى الصعود على المنصة وتقدمك بعد أن تتكلم عن رحلة الأيتام. لدينا فتاتان هنا من الرحلة نفسها - من رحلتك. ثلاث فتيات».

كانت تشير إلى رحلة الإخلاء من سايغون، تحطم الطائرة الذي تسبب بتحطيم رجلي كاثي. أربعون من الناجين تم إخلاؤهم في رحلة لاحقة. قلة منهم فحسب تمّ تبنيهم في أمريكا، من الواضح أن اثنين منهم، هنا في مينيابوليس.

(1) Last Mile: الميل الأخير الذي يقطعه المحكوم بالإعدام.

«ثلاثة من الأيتام؟».

«أجل، نوع من إعادة لمّ الشمل. لي... أين لي؟لم ترتد ملابسها بعد! يا بنات»، صرخت السيدة كيوج.

تركتها كاثي من دون أن تودعها، لأن شابة هجينة أوروبية آسيوية مرت بهما لكي تخرج من باب «الخروج» عبر الحجرة الكبيرة، وشعرت كاثي بأنها مدفوعة للنظر إليها. تبعت الفتاة إلى الخارج ثم صعوداً على الدرج الحجري، الذي في نهايته استندت الفتاة إلى جدار في الرواق، وحيدة. تنحت جانباً قليلاً لكي تفسح لكاثي بالمرور. تجاوزتها كاثي بخطوتين، لترى النهر في نهاية الرواق، والشارع في الطرف الثاني منه. فكرت كاثي أنها تعرفت هذه الفتاة الأوروبية الآسيوية أو الأمريكية الآسيوية، التي كانت على الأرجح في الرابعة أو الخامسة في لحظة الانفجار، وإن تذكرتها واقفة على مقعدها في الطائرة، تذكرت ساقيها الطويلتين وعينيها الواسعتين ولون شعرها البني. كانت كاثي قد أجلست إحدى الفتيات بجوارها في المقصورة العليا من الطائرة، مقصورة الحظ. الكثيرون من الأيتام الذين كانت ترعاهم بها كانوا في الجهة العليا ونجوا. كانت قد وضعت أطفالها على الطائرة، وساعدت على إصعاد الآخرين، وغادرت الطائرة لكي تعود إلى سايغون وفي اللحظة الأخيرة عرض عليها مقعد من قبل أحد المعارف من السفارة الذي قرر ألا يذهب، ليس هذه المرة – لم تستطع تذكر اسمه، لم يلتقيا ثانية – حتى اليوم، ربما حسبها ماتت مكانه، وقد استغلت الفرصة فوراً، لا لتفر من سقوط سايغون، بل لتساعد، لكي تكون مفيدة، لكي تخفّف من خوف الحجاج الصغار. لم تعرف الوجهة حتى، أستراليا على الأرجح. لم يتموا الرحلة. وفي نهاية المطاف انتهت رحلة الطفلة في سانت بول. في كعب من بوصتين وتنورة زرقاء وتي شيرت صفراء مشدوْدة على حمالة الصدر الخاصة بالتمرين، مع طلاء الشفاه والكحل، بدت كعاهرة صغيرة، متعجرفة وعبوسة، شعرها الكستنائي تطيره ريح هبت من الشارع عبر الزقاق مكملة طريقها نزولاً إلى المسيسيبي. فتحت حقيبة

يدها وعثرت على علبة سجائر وولاعة. انتفخت وجنتاها وهي تخفي الشعلة بيدها وتشعل سيجارة بفلتر. نفثت الدخان والتقط الهواء الغيمة المنبعثة من فمها.

مرت كاثي ثانية بالفتاة، ونزولاً على الدرج. شقت طريقها عبر الهرج والمرج في القبو وذهبت إلى المنصة في الأعلى، مكان مناسب للأحداث العامة، مع مقاعد ثابتة وثيرة وسقف عال، وإن كانت الجدران تصدر صدى خفيفاً، والمذياع يصدر ألفاظاً حادة وأحرف P قوية. كان قد بدأ النصف الثاني من الحفل. المكان أعتم، لكن الضوء أنار المنصة، وتبينت طريقها. الكثير من المقاعد الفارغة. ولكي لا تزعج أحداً جلست على أول مقعد شاغر في الممر. على المنصة امرأة عريضة الفك رصينة، ذات شعر رمادي مشدود، من المفترض أنها السيدة راند، في ثوب زهري، تكلمت عن الأيتام. يبدو أن السيدة راند عالجت بعض التأخير، فحذفت من خطابها، وارتجلت بجسارة. تكلمت عن حركة «أرتال الأيتام» التي ساعدت على إيصال الكثير من الأطفال إلى حيوات جديدة في الساعات الأخيرة من الحرب الرهيبة الفظيعة، عن الرحلة رقم 75، التي استقلتها كاثي والتي أسقطها القدر مثل تنين، وتأملت كاثي، بالتأكيد ليس للمرة الأولى، أن الحرب لم تكن فقط وحصرياً رهيبة. لقد أوصلت إحساساً، في البداية فظيعاً، وبالتدريج ذي خاصية سمية، بأن شيئاً ضارياً وسحرياً ومذهلاً ربما ينبع من اللحظة التالية، الموت نفسه قد ينفجر من نسيج هذا النفس عينه، مزيلاً قناعه كصديق؛ وحزنت على مرور وقت عندما، جالسة في طائرة جالكسي C5–A، وهي تسقط في حقول الأرز فجأة صلبة كصخرة، سامعة جسم الطائرة الألومنيوم يتمزق أشلاء وشظايا، أشفقت فقط على الأطفال حولها وندمت فقط على الفشل في إخراجهم من الحرب، عندما لم يعن تحطم رجليها لها الصدمة أو الألم، بل المرارة فحسب، لأنها لم تتمكن من مساعدة الآخرين. السيدة براند الآن قدمت ثلاث فتيات من الرحلة 75، بمن فيهن لي، الآسيوية الأمريكية، جميعهن يرتدين «الآو داي»، القميص المتوهج

فوق السروال الساتان، يتقدمن واحدة بعد الآخرى إلى يسار المنصة ثم إلى يمينها، واعيات بأنفسهن عارضات هاماتهن، أرواحهن ترتعش في أجسادهن، ويجلسن على كراسي قابلة للطي بحيث أن أحذيتهن كانت مرئية، أحذية سوداء ترتفع كعوبها بوصتين عن الأرض. السيدة راند وصفت تحطم الطائرة قائلة إنه وقع قبل نحو ثماني سنوات من اليوم، وإن كانت قد سافرت قبل شهر، وإنه كان أحد أسوأ كوارث الطيران في التاريخ، معبرة عن حزنها لأن أكثر من نصف الثلاثمئة طفل وبالغ على متن الطائرة، تقريباً جميع ركاب المقصورة السفلية، وغالبيتهم من الأطفال تحت سن الثانية، ارتفعوا إلى الجنة. خلل ميكانيكي. طوال بضع سنوات بعد الحادثة ظلت كاثي معتقدى أن صاروخاً قد أسقط الطائرة. السيدة راند كانت تعرف عن ذلك أكثر من كاثي، ووصفت اللحظات الأخيرة، الطائرة وهي تتحطم إلى أشلاء مشتعلة في السبخات، غيوم النفط المشتعل. بسبب الصدمة لابدّ من أن كاثي أغمضت عينيها. لم تتذكر سوى الأصوات، على الأرجح المعدن المتمزق - تعبير صوتي جداً فيه الكثير من الأصوات والسواكن الطاحنة، كل الأحرف A, E, I, O, U ملحة، مذهولة، عملاقة. ثم صمت عام أسود مزقته صرخات واستغاثة وبكاء، بما فيه صوتها. وطفل أو اثنان يضحكان.

غادرت الفتيات المنصة على وقع تصفيق صغير. تكلمت السيدة راند عن «ماكميلان هاوسيس» وعملها الجيد جداً، وعلاقتها الممتازة مع حكومة فيتنام. بدلاً من الإصغاء استعدت كاثي لخطبتها الخاصة، من الرائع رؤية هذا الحضور الكبير، فهذا النوع من العمل يتطلب أكثر من التبرعات الخاصة وحدها، وبالتالي الهبات الحكومية والتشريعات، وبالتالي رجال الكونغرس الذين يمثلونكم، الشيوخ الذين يمثلونكم، والأهم من هذا كله قلوبكم، حيوات جديدة تُمنح الأمل، امتنان هائل، لا، شددي على التبرعات الخاصة، الكلفة السنوية التي يتكبدها مكتب واحد لإرسال البريد فقط، الكلفة التي يمكن أن يبلغها تأمين الطعام سنوياً لفم واحد، لا ليس لفم، بل طفل واحد، كلفة توفير طعام لائق لواحد من أولئك

الأطفال الرائعين، المباني والمنشآت، التعليم، كرمكم، أو بالأحرى يمكن أن تقول التعليم الذي ينجي من الفقر، كرمكم الدافئ، أو بالأحرى المأوى والمأكل والدفء للأجساد الصغيرة، التعليم المنجي من الفقر، الأمل الحقيقي لحيوات تبدأ تواً، كل هذا يعتمد على كرمكم الدافئ الثابت، أو الثابت فحسب. أو الدافئ فحسب. و – لا – التضحية. استفزيهم. كل هذا يعتمد على ما هو أكثر من الكرم الخيّر فحسب من الناس من أمثالنا، سيداتي وسادتي، أجل، يعتمد على التضحية الثابتة. استفزيهم. في العتمة إلى يمينها لمع خاتم على إصبع سيد يضع خده على يده. كان مغمض العينين. بعض الرجال، لكي يحضروا هذه المناسبة، اضطروا إلى التخلي عن أول مباراة جوف لهذا الموسم تجري بعد الظهر. على وجوه النسوة قربها رأت تلك الملامح الوضاءة المهتمة لأناس يحاولون البقاء يقظين. شاب يافع يضع إصبعه في منخره، لا يفعل به شيئاً، فقط يركنه هناك. تسطّح المشهد أمامها، فقد أحد أبعاده، والجلبة انحدرت في غير محلها على وجهها. ثمة شيء آت. هذه اللحظة، هذه التجربة نفسها، بدت فحسب الحجاب الأرفع. جلست بين الجمهور تفكر – أحدهم هنا يعاني السرطان، أحدهم مفطور القلب، أحدهم روحه ضائعة، أحدهم يشعر أنه عار وغريب، جميعهم يحسبون أنهم عرفوا ذات مرة الطريق لكنهم لا يستطيعون تذكرها، يشعرون أنهم خالون من البهجة وحيدون، هناك أناس بين الجمهور عظامهم محطّمة، وآخرون ستتحطم عظامهم آجلاً أم عاجلاً، أناس دمروا صحتهم، عبدوا أكاذيبهم الخاصة، بصقوا على أحلامهم، أداروا ظهورهم لمعتقداتهم الحقيقية، أجل، أجل. وجميعهم سيجدون الخلاص. جميعهم. سيجدون الخلاص.

نبذة عن المؤلف:

ولد الشاعر والروائي والكاتب المسرحي الأمريكي دنيس جونسون في العام 1949 في ميونيخ بألمانيا الغربية. تخرج في «ورشة أيوا للكتابة» بجامعة أيوا عام 1993، التي عاد إليها لاحقاً بوظيفة مدرس. في العام 1981 ظهرت روايته الأولى «ملائكة» تلتها عام 1985 رواية «فيسكادورو». كما نشر له حتى العام 1992 عدد من الروايات. وفي تلك السنة نشرت مجموعته القصصية «ابن يسوع» التي حققت نجاحاً جماهيرياً ونقدياً كبيراً. وجرى اقتباسها في فيلم سينمائي عام 1999. وعاود جونسون تحقيق النجاح مع روايته هذه «شجرة الدخان» التي رشحته لجائزة بوليتزر. وأكسبته «جائزة الكتاب الوطني» (ناشيونال بوك أوورد) المرموقة. روايته الأخيرة «لا أحد يتحرك» صدرت عام 1999.

نبذة عن المترجم:

ولد سامر أبو هواش في مدينة صيدا اللبنانية لأبوين فلسطينيين عام 1972. شاعر وروائي ومترجم. من ترجماته: «على الطريق» لجاك كرواك، «حياة باي» ليان مارتل، «بوذا الضواحي» لحنيف قريشي، «تدبير منزلي»، «جلعاد»، «البيت» لمارلين روبنسون، «بلد آخر» لنادين غورديمر» و«كتاب الشاي» لكاكوزو أوكاكورا، مشروع الشعر الأمريكي الذي صدر منه حتى الآن خمسة عشر كتاباً. له في الرواية: «عيد العشاق»، و«السعادة»، ومن أعماله الشعرية «شجرتان على السطح»، و«تحية الرجل المحترم» و«تخيط ثوباً لتذكر».

شجرة الدخان

أحسّ هيوستن بمعدته تنشطر إلى نصفين. صاح : «أيها الرب الرحيم!». شعر أن رأسه سينفجر إذا ما واصلت الظهيرة الاشتعال في الأجمات من حوله. والنوارس زعيقها. وإذا ما استمر القرد في النظر بتمعّن حوله. محركاً رأسه وعينيه السوداوين من طرف إلى آخر. وكأنه شخص يتابع مسار محادثة أو جدال ما. كان نوعاً من النزاع الذي يخوضه الدغل. في ذلك الصباح. في تلك اللحظة. مع نفسه. اقترب هيوستن من القرد وألقى البندقية إلى جانبه. وحمله بكلتا يديه. واضعاً يداً تحت مؤخرته. والأخرى تحت رأسه. ليكتشف - أولاً بذهول. ثم بنفور - أن القرد يبكي. خرجت أنفاسه شهقات. وتدفقت الدموع من عينيه كلما رمشتا. وراح يجيل بصره حوله. وقد بدا أنه غير مكترث لأمره أكثر من اكتراثه بأي شيء آخر يراه. «هاي». قال هيوستن. إلا أن القرد بدا لا يسمع شيئاً.







